مكتبة النخبة

جين إير

رواية

شارلوت برونتي

ترجمة: حلمي مراد

التنوير

كلاسيكيات
الأدب الانجليزي

شارلوت برونتي

جين إير

الكتاب : جين إير (رواية)

تأليف : شارلوت برونتي

ترجمة : حلمي مراد

الترقيم الدولي : 978-9953-582-26-9

الطبعة الأولى : 2017

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2017

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان : بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف : 009611843340

بريد إلكتروني : darattanweer@gmail.com

مصر : القاهرة -2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف : 002022795557

بريد إلكتروني : cairo@dar-altanweer.com

تونس : 24 ، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس : 0021670315690

بريد إلكتروني : tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني : www.dar-altanweer.com

شارلوت برونتي

جين إير

رواية

ترجمة: حلمي مراد

عزيزي القارئ :

أحببت أن أرتدّ بك عبر الزمن قرنًا كاملًا وعقدًا، أي مائة عام وعشرة أعوام، وأن أرتاد بك أفق الأدب الإنجليزي، لتصل إلى إحدى شوامخه الراسخة، الباقية ..

ففي سنة 1847 ، اهتمت الأوساط الأدبية في إنجلترا، بكتاب ظهر لمؤلِّف مغمور، مجهول، خرق ما جرى عليه الأدباء من تقاليد، وتجاوز ما كانوا يتقيّدون به من عرف في تأليف القصص الغرامية، وإن هي إلاّ أيام حتى أصبح الكتاب حديث الصالونات والمجتمعات، وراح الناس يتساءلون عن ذلك المؤلف الجريء.. وقبل أن يكتمل مرور عام على ظهور الكتاب، حتى كان قد طُبع مرة ثانية، فمرة ثالثة! وأدرك القرّاء في تلك الأثناء أن المؤلف الجريء لم يكن (رجلًا) على الإطلاق، وإنما كان... امرأة! بل عذراء، في التاسعة والعشرين من عمرها، نشأت في أحضان أب من رجال الدين (البيوريتان)، يحرص على أن يربّي أولاده على الزهد، والتقشُّف، والتقوى، واعتزال الناس !

ومن وراء الاسم المستعار الذي انتحلته المؤلفة في الطبعة الأولى من كتابها - وهو اسم كورر بيل - بزغ اسم شارلوت برونتي ليتألّق ويظل برّاقًا على مر الزمن... وعرف الناس أنها إحدى أخوات ثلاث، نشأنَ في عُزلة، وليس لهن من أنيس سوى القلم والورق... ولم يجدن ما يملأن به فراغ حياتهنّ منذ الصِّغر، سوى الأدب ومحاولة قرْض الشعر وتأليف القصص التي كُنّ ينتزعنها من صميم حياتهن، ومن أحلام اليقظة التي كنَّ يعوِّضن بها ما حُرمنَ منه في حياتهنَّ الواقعية !

استطاعت صغرى الأخوات الثلاث - وهي آن برونتي - أن تخلِّد اسمها بقصة: آجنس جراي.. وكانت وُسطاهن أكثر توفيقًا بقصَّتها: مرتفعات وذرنج، وإن كان صيت هذا التوفيق قد أتاها متأخّرًا، بعد أن ماتت.. فقد أُعيد طبع القصة مرارًا،

واقتُبس موضوعها لأفلام سينمائية أمريكية، وإنجليزية، ومصرية! بيد أن الفتاتين لم تصيبا من المجد والشهرة ما أصابته كُبراهنَّ شارلوت برونتي، عندما وضعت الرواية التي بين يديك.. جين إيـر .

على أن شارلوت فاقت أختيها في ناحية أخرى أيضًا، في تحمّل العناء والآلام والأسى في هذه الحياة! لقد عاشت أربعين عامًا في ظلام الحزن والشجَن والحرمان العاطفي، وكان الحب الوحيد الذي خفق به قبلها، حبًا مقضيًا عليه بالفشل من بدايته، وأخلدت بعد يأسها منه إلى العزلة، وليس من أنيس لها - بعد موت أختَيْها وأخيها - سوى قلمها.. وفي نهاية الأعوام الأربعين التي عاشتها، لاحت طلائع فجر الفرح في حياتها، ولكن.. لكن القدر لم يشأ أن يمهلها حتى يطلع الفجر !

لقد كانت حياة شارلوت مأساة، لا تقلّ روعةً عن مأساة جين.. وقد تستطيع أن تلمس أوجه شبه بين الاثنتين، عندما تقرأ قصتَيْهما .

حلمي مراد

قصة حياة شارلوت برونتي

كانت قرية هاورث تقوم على رأس سَفْحٍ مرتفع - في مقاطعة يوركشاير - حتى يحسبه المرء يلامس السماء... وخلف الكنيسة، كانت دار القِسّ تلوح خلال الضباب والمطر، كأنها صرح عتيق مهجور، ترين عليه الجهامة والاكتئاب، فلا تكاد تنبعث منه ضحكة، وكأنما خلعت المقبرة التي قامت في حديقة الكنيسة، شيئًا من صمتها، ورهبتها، على راعيها وأسرته وداره ..

وفي حجرات تلك الدار، التي حفّت بها المقبرة من أمام، والمستنقعات من خلف، وُلد للقس ستة أبناء، تجري في عروقهم الدماء الإيرلندية، ولا يقلّون جَهامة وغَرابة عن هذا الوسط الذي تلقّاهم وأحاط بهم.. كانوا خمس بنات، وولدًا !

في عزلة مع الحزن والكآبة

وقُدِّر للأطفال أن يفقدوا أُمّهم ولمّا تتجاوز كبراهم الثامنة من عمرها، بينما كانت صغراهم آن تحبو في ثاني أعوام حياتها.. وإذ كان الأب من أتباع مذهب كالفن، فقد كُتب على الأولاد أن يعيشوا في زُهد وتقشّف، حتى لقد حُرموا مذاق اللحم، لأن اللحم - في مذهب الأب - من مظاهر الترف! بل إن اللعب كان ضربًا من الرفاهية لا يليق بهم، فطُبعت حياتهم بالحزن والكآبة.. وكان حتمًا عليهم أن يتلقَّوا عن أبيهم دروسًا في الموت والحياة الأخرى، وهم بعد يمتصون أصابعهم، ويحملقون في ما حولهم، يحاولون التعرّف على الحياة الدنيا! وكيف كان لهم أن يعرفوا هذه الحياة وهم الذين كانوا لا يَلقون من الناس أحدًا سوى أهل بيتهم، ولا كانت أبصارهم تقع - خلال نوافذ حجرة الأطفال بالدار-على غير المقبرة الحزينة، والمستنقعات الكئيبة؟! وفي الصمت الواجم الذي كان يرين على عالمهم هذا، كان الموت والشيطان لا يكفّان عن الصراع: أولهما يبغي الاستيلاء على أجسادهم، وثانيهما يسعى للظفر بنفوسهم! وكان الأب القس طرفًا ثالثًا في الصراع، يمثِّل الله ويشرف على تنفيذ تعاليمه، فكان يدعو أولاده إلى مكتبه مرة في كل أسبوع، ليختبرهم في ما تكون أخته - العمة برانويل-قد لقّنتهم من دروس... ويقف الأطفال أمامه بأدب وخضوع، شأن الصغار أمام أبيهم، فيسألهم بالدور :

- ما الذي يعوز الإنسان إذا كان في مثل سِنِّك يا آن؟

وتجيب آن ذات العينين الزرقاوين، التي لم تتجاوز الرابعة: «التجربة والخبرة يا أبتِ !».

- وما الذي ينبغي أن أفعله بأخيك برانويل إذا ما كان مشاكسًا يا إميلي؟

وتجيب إميلي، التي كانت في الخامسة من عمرها: «تجادله بالتي هي أحسن، فإذا لم يرعوِ لصوت العقل، تضربه بالسوط !».

شارلوت في الثامنة من عمرها

وتثلج الإجابتان صدره، فهكذا ينبغي أن تكون أخلاق المتطهّرين (البيوريتان) في رأيه. ولا يلبث أن يلتفت إلى شارلوت التي لم تتجاوز الثامنة من عمرها، والتي لم تؤتَ قبسًا من الجمال، بل كانت ذات فم واسع معوجّ، وعينين حالمتين، فيسألها: «ما أفضل كتاب في الدنيا؟ ».

- «التوراة... والطبيعة يا أبتِ !».

ويتحول الأب إلى ماريا، كبرى البنات، فيسألها: «خبِّريني يا ابنتي، ما أفضل الطرق للإفادة من الوقت؟»، وتجيب ابنة العاشرة من العمر: «أعتقد أن خير طريقة للإفادة من الوقت، هي تكريسه للاستعداد للحياة الأخرى !».

ويحين دور برانويل، الابن الذي عقد عليه الأب برونتي آماله، وكان - إذ ذاك - صبيًا مشاكسًا، شرسًا، في السابعة من عمره، فيسأله: «ما أفضل الوسائل لمعرفة الفوارق بين ذكاء الرجال ومدارك النساء؟ ».

ويقطِّب برانويل، ثم يقول: «مراعاة الفارق بينهم في الجسم يا سيدي!».
ويُبهت مستر برونتي لهذا الجواب !

وينتهي الاختبار، فيسمح الأب لأولاده الستة بأن يخرجوا للنزهة مع كلبهم، مكافأةً لهم، فينطلقوا في الأرض المعشوشبة التي تتخللها المستنقعات.. وفي تلك السويعات القلائل، كانت يد خفية عجيبة تربط بين الأطفال الذين كانوا يعيشون في عزلة، وكأنما غَفل عنهم البشر، وبين المنطقة التي كانت تبدو وكأنما نبذها الله وأهملها.. وما أشدّ الشبه بين الفريقين. الأولاد اليتامى الذين فقدوا الأم ورعايتها، والمنطقة المهملة التي فقدت رعاية المصلح !

عالم من نسج الخيال !

وأرسل الأب برونتي بناته إلى مدرسة قرب برادفورد، ولكن نقص التغذية، وشظف الحياة، لم يلبثا أن قصفا عمرَي ماريا وإليزابيث، الابنتين الكبيرتين. وعادت شارلوت وإميلي وآن إلى دار القس في هاورث. وإذ أصبحت شارلوت كبرى أخواتها، فإنها لم تلبث أن تنصِّب نفسها أمًّا لهم، تنظّم شؤونهم، وترعاهم، وتعلّمهم، وتقرأ صحيفة الصباح على أبيها وهو يحتسي قهوته.. وتتزعّم الأطفال في الإلحاح على تابي الخادم، كي تروي لهم قصص الجان والعفاريت، وتسترسل في الأحلام التي كانت ترى فيها نفسها مع دوق وِلِينجتون - بطلها المحبوب - في جزيرة خلت إلاّ منهما !

وكان لا بد لمن يقيمون في دار قس هاورث من أن يلتمسوا الأصدقاء والحياة الاجتماعية في الخيال. وهكذا فإن التاريخ لم يعرف إخوة أوتوا من الخيال المشحوذ، المرهَف، ما أوتيه أبناء القس برونتي.. البنات الثلاث والولد: فقد راحوا يسوِّدون المذكرات بمغامرات خيالية، واجتماعات موهومة، وأقاصيص تصوِّر نفوسهم في آلاف من مرايا الفكر والوهم. وكانوا بهذا يخلقون لأنفسهم عالَمًا خاصًا بهم، عزَّز الوشائج بينهم .

وتقول شارلوت عن هذه الحقبة: «كنَّا نعتمد كل الاعتماد على أنفسنا، ويركن كل منَّا إلى الآخر، وإلى الكتب، وإلى الدروس، نلتمس فيها ما يملأ حياتنا من لهو وشغل». وهي تذكر أن محاولة الكتابة الأدبية كانت أشد ما يستأثر بشغفهم، وما يبعث السرور في نفوسهم .

شارلوت في المدرسة

على أنّ الأب لم يلبث أن قرر أنّ من الخليق بشارلوت - وكانت قد بلغت الرابعة عشرة - أن تنال نصيبًا من الدراسة النظامية، فأرسلها إلى مدرسة البنات.. وعندما وقفت في اليوم الأول بين الطالبات، بدت منكمشة، وراحت عيناها تَطْرُفان وتختلجان في الضوء، مما أثار إشفاق البنات الأخريات، وجَزَعهن، بل منهن من كدن يبكين.. فقد كانت هزيلة، ضئيلة، يكاد من يراها يحسبها لم تتجاوز العاشرة.. وكان بصرها كليلاً، قصير المدى، ما كان يجعل عينيها تبدوان كعيني الضفدعة إذا واجهت بغتة ضوءًا قويًا. وكان شعرها مضفورًا، وقد ارتدت ثوبًا من الصوف الأخضر، ارتدته عَمَّتها قبل ذلك بجيل! وكانت حركاتها أشبه بحركات حيوان صغير خائف !

واختبرتها مس وولر - المُدرّسة - فوجدتها متخلّفة في أبسط مبادئ الحساب والجغرافيا والنَحْو. ولما حاولت أن تعرف مقدرتها على الكتابة، أمسكت الصبية العجيبة بالقلم، وانحنت حتى كاد أنفها يلاصق الورق، وراحت تكتب

صفحة إثر أخرى، بأسلوبٍ راقٍ.. حتى إذا أبدت المعلمة دهشتها، قالت الفتاة ببساطة: «لقد كتبتُ ملءَ اثنتين وعشرين كراسة من القصص، في دارنا، يا سيدتي »!

وفكّت مس وولر ضفائر التلميذة الجديدة، فإذا شعرها ينساب جميلًا على كتفيها. وخصّتها المدرسة بنظام خاص للتغذية أتاح للفتاة أن تتناول - لأول مرة في حياتها - اللحم والحساء والصلصة، وسرعان ما اكتسب جسمها الهزيل التفافًا أضفى عليه شيئًا من جمال .

تُحلِّل الشخصيات وهي في الخامسة

- وما لبثت أن تغلبت على حيائها وانطوائها، حتى لقد صارت تستبقي زميلاتها مستيقظات - في عنبر النوم - إلى ساعة متأخرة من الليل، بما كانت ترويه لهن من قصص أراضي المستنقعات! وكانت الحماسة تستولي عليها، فتتألق عيناها ويتضرّج وجهها، وهي تستسلم لأجنحة الخيال تحلّق بها في مغامرات مثيرة. وقد كتبت إحدى زميلاتها يومًا تقول :

«أثارت شارلوت الذُعر في نفوسنا ذات مساء بما راحت ترويه عن مغامرات فتاة اعتادت أن تسير أثناء نومها. لقد جمعت في قصصها كل ما كان في متناول خيالها من أهوال، فمن بحر متلاطم الأمواج، إلى قلعة منيعة الجدران، إلى ذرى عالية تشرف على وهاد سحيقة. وندّت صرخةً واجفة من إحدى المستمعات، وكانت مريضة حديثة النقاهة، وإذ ذاك، توقفت شارلوت عن الرواية.. وما لبثت أن انبعثت منها صيحة ألم مكتومة، ثم هتفت تنشد العون، بصوت مرتجف، وإذا بها غارقة في الدموع والأسى. ومكثنا عدة أسابيع لا نجرؤ على أن نسألها أن تستأنف القصص !».

هكذا كانت عواطفها تنساق لخيالها إذا روت إحدى قصصها ..

وكانت إذا تحدثت عن أختَيها اللتين ماتتا، تملّكها الألم. فإذا أبدى أحد عَجَبَه من دقّة وصفها لأطوارهما، وقد كانت صغيرة حين ماتتا، قالت: «لقد تعودت أن أحلل الشخصيات مذ كنت في الخامسة من عمري !».

وبقدر نشاط قريحتها، كان خمول جسدها. فإذا ما اشتركت زميلاتها في اللعب، تلجأ إلى كتاب. ولعل ضعف بصرها كان من أهم أسباب عزوفها عن اللعب. كان بصرها ضعيفًا، في حين كانت بصيرتها حادّة، ثاقبة !

خُلقوا من غير طينة البشر؟

وأصبحت شارلوت مُدرّسة في المدرسة التي تعلّمت فيها. لكنها لم تكن تميل إلى التدريس. فأرسلت بعض أشعارها إلى الشاعر روبرت ساوذي تلتمس تشجيعه، ولكنه أرسل لها يقول: «ليس من الممكن للأدب أن يكون حرفة امرأة، ولا ينبغي!» وبعثت بشطر من رواية إلى وردسويرث - وكان من فطاحل الشعراء إذ ذاك-ولكنه كتب لها زاعمًا أنه لم يستطع أن يتبيّن: «ما إذا كانت المؤلفة كاتبة لدى موثّق للعقود، أو حائكة ناقصة العقل !».

وصَدَّتها المحاولتان عن الاتجاه إلى احتراف الأدب، فقبلت العمل مربية لدى أسرة لندنية من الطبقة الوسطى. ولكنها لم تستشعر في حياتها الجديدة سعادة ولا هناء. فقد كان رَبّ الأسرة يعاملها كما لو كانت خادمًا، وكان الأطفال «يسكبون اللبن على المائدة، ويدسّ كل منهم إصبعه في قدح أخيه، ويمسحون أفواههم بأيديهم، أو بأطراف ثوب أمهم، ويتجشّأون كالعجول، ويبصق كل منهم في وجه أخيه، أو في حقيبة المربّية !».

ولم تلبث أن هجرت عملها في استياء، وقد ضاعف إخفاقها فيه من شعورها بالنقص. ولكن، ماذا عليها أن تفعل إذن؟ أتتزوج؟. كان الزواج أبعد الأمور عن ذهنها، إذ مَنْ الذي يتزوج من فتاة بلا مال ولا جمال؟

وهكذا، لم تكن شارلوت سعيدة في حياتها.. ولا كان أحد من آل برونتي سعيدًا، فكأنما خُلقوا من طينة غير طينة البشر ودنياهم، إذ كانت آن لا تقوى على الظهور أمام أغراب عنها، وكانت تعسة في عملها كمربية للأطفال. وكانت إميلي تأبى العمل بعيدًا عن قريتها ومفارقة مستنقعاتها. أما برانويل - أمل أبيه - فقد ارتمى بعد محاولات فاشلة لبيع قصصه، في أحضان المواخير، حيث كان يجد جمهورًا يقدِّر تلك القصص، ويقدِّر براعته، فقد كان يستطيع أن يكتب خطابين، بيديه الاثنتين، في آنٍ واحد! كما كان يحذق رواية النكات الأيرلندية اللاذعة !

تهوى أستاذًا دميمًا... متزوّجًا !

وكان لا بد من عمل لإصلاح حال الأسرة، فآلت شارلوت على نفسها أن تضطلع بهذا العبء. وسنحت لها الفرصة حين تلقّت يومًا رسالة من إحدى زميلات الدراسة، وكانت تدرِّس في مدرسة داخلية في بروكسل، فقررت أن تصحب إميلي إلى بلجيكا. حيث تدرسان لعام كيف تُدار المدارس، ثم تعودان فتنشئان في هوارث مدرسة راقية للبنات .

وهكذا رحلت وهي في السادسة والعشرين من عمرها، فالتحقت بمدرسة دِاخلية يدِيرها زوجانِ، مسيو ومدِام هيجير. وسرعان ما تعلقت بالرجل برغم

أنه كان أبًا لخمسة أبناء، وبرغم أنه كان «أبشع رجل في العالم. كان قصير الساقين، بارز سقف الجمجمة، ذا شعر أسود غزير قصير، ونظارة تنحدر على أنفه، وتتألق خلفها عينان كجذوتين من نار، كان مخلوقًا ضئيل الجسم، أسمر البشرة، ذا وجه لا تستقرّ ملامحه، فهو تارة يستعير قَسَمات قِطٍّ برّيٍّ مسعور، وطورًا قسمات ضبع محموم!». وكان على النقيض منها تمامًا: في السن، والميول والطباع. ولكنه كان أول رجل مرهف الذكاء صادفته !

وقد اصطفاها الرجل من بين تلميذاته، ليؤثرها بدروس خاصة، جعلت من ذهنها الساذج، «ذهنًا قويًا فيه صفات تفكير الرجولة». إذ كشف لها عن دنيا الفلسفة، والعلم، والفن. وقادها إلى آفاق جديدة من خِبرة البشر.. وأحسَّت الفتاة إلى جواره، ببوادر يقظة العاطفة. حتى إذا استكملت عامها، وعادت إلى هاورث، كتب الرجل إلى أبيها يرجو أن تعود إليه تلميذته الفَذّة! وعادت شارلوت إلى بروكسل، «تجتذبها قوة لا قِبَلَ لها بمقاومتها!». وشد ما كانت غبطتها حين سألها مسيو هيجير أن تعلّمه الإنجليزية، فأتاح لها بذلك الفرص كي تخلو إلى الرجل الذي أصبح كل شيء في دنياها !

تحتفظ بأعقاب سيجار حبيبها !

كانت مدام هيجير تلاحظ هذه الأعراض بأعصاب بادرة. فقد كانت الإنجليزية الشابة الخجول لا تكلِّم أحدًا، ولا تبتسم لأحد سوى زوجها، وكانت إذا جلست إليه: «أشرق وجهها، واكتسب جمالًا لم تكن تفطن إليه!». كانت معه تتحوَّل إلى امرأة مشتهاة! وقد لعبت مدام هيجير دورها بدهاء المرأة المجرِّبة، فتعمّدت - في لباقة - أن تعدِّل جدول دروس زوجها، بحيث لا تتفق أوقات فراغه مع أوقات فراغ تلميذته: وصَدّت شارلوت - ببراعة - عن أن ترتاد غرفة جلوس الأسرة وكأنها واحدة منها. لكن ما كان ينبغي لمدام هيجير أن تخشى هذه الفتاة الساذجة، فشارلوت لم تكن ترى الحب قبلات وعناقًا، وإنما كان: «الحب، كما أفهمه، ليس بالشيء الذي يجانب الصواب، والنبل، والإخلاص». ولم تكن تبغي من وراء غرامها، سوى أن تكون مع ذاك الذي أحبَّته، وأن تحظى بنظرة منه، وأن تُنصِتَ ساعة إلى جرس صوته، وأن تجمع السيجار الذي كان ينساه وراءه ولَم يدخن سوى نصفه.. لم تكن تبغي سوى هذا. ولكنها حُرمت من هذه البسائط، على قِلّتها وتواضعها !

وهو؟! لم يكن يعي ما يساورها، ولم يفطن إلى وَجْدها، ولم يشعر بحبها. كان يحدّثها عن العواطف وكأنها أفكار وآراء عقلية مجرَّدة، في الوقت الذي كانت هي فيه تكتوي بنيران الجوى. عامان قضتهما في ظلام، تتخبط بلا رفيق ولا نصير. ثم عثرت ذات يوم على صديق، وكان ذلك الصديق: كنيسة! كنيسة

القديسة جوديل. وأقدمت على ما لم يقدَّر لأبيها وأختيها أن يدركوه أبدًا. سارت إلى داخل الكنيسة، لتلقي بنفسها في أحضان المذهب الكاثوليكي، وركعت عند المذبح لكي تعترف، وتفضفض بما كان يضنيها، بقصة حبها! ورَوَت آلامها، كما يروي الطفل شكاته لأمه، ثم بارحت الكنيسة، فحزمت أمتعتها، ورحلت لفورها إلى هوارث !

شارلوت العاشقة تكتب خطابات متأجّجة

وهناك أمسكت بالقلم، لتكتب له أروع الرسائل العاطفية. رسائل تتلظَّى بالنيران المتأجّجة في فؤادها: «سيدي، إن الفقراء لا يحتاجون إلى الكثير ليقيم أَوَدهم ويصون بقاءهم في الحياة. بل إنهم لا يرجون سوى الفتات الذي يتساقط عن مائدة الغني. وأنا الأخرى لا أطمع في غير قسط ضئيل من عطف من أحبهم، إذ إنني لا أدري ما الذي أفعله بالولاء الكامل، الشامل منهم. فأنا لم آلف التفكير في ذلك. ومع هذا، فإنني أدرك أن ثمَّة أناسًا ذوي تفكير رزين وأعصاب باردة، خليقين بأن يقولوا، إذا ما قرأوا هذا: «إنها تهذي!». ولستُ أرجو من ثأر سوى أن يجرِّب هؤلاء الناس يومًا ما عانيت من عذاب خلال ثمانية شهور. لسوف نرى إذ ذاك ما إذا كانوا هم الآخرون يهذون! إن المرء يتحمَّل العذاب في صمت، طالما كانت لديه القوة، أما إذا انهارت هذه القوة، فإنه يتكلم من دون أن يَزِنَ كلماته ».

ولم تتلقَّ ردًا. كان رجلًا «مستقيمًا»، فلم يحفل برسائلها. ومن جديد، عادت تكتب إليه: «لقد حاولت أن أنساك، فعلتُ كل شيء، حاولتُ أن أشغل نفسي باستمرار، لماذا لا أملك أن أشعر نحوك بالقدر نفسه من الصداقة الذي تشعر به نحوي، من دون زيادة أو نقصان؟ لو أنني استطعت، لتحرَّرت، ولكان في وسعي أن أصمت سنوات! إنني أسألك صنيعًا، يا سيدي، حدِّثني عن أطفالك، تكلَّم عمَّا يحلو لك، يا أستاذي، لمجرد أن أحظى بحديثك. فإنه لي بمثابة الحياة. أما أن تمنعني من الكتابة، وأن ترفض الرَّد، فكأنك تنتزع مني السعادة الوحيدة التي حظيت بها من دنياي، وتنتزع مني آخر نعمة لديَّ !».

تُصارِع الجنون باللجوء إلى القلم !

وجاءها - أخيرًا - رَدّ، فكتبت تقول: «لقد غذّاني خطابك ستة شهور، ولا بد لي الآن من آخر، ولسوف ترسله، لا بدافع من الصداقة - إذ إنك لا تشعر بها كثيرًا - وإنما لأن لك قلبًا رقيقًا، شفوقًا، يأبى عليك أن تقضي على امرئ بالعذاب الطويل، لمجرّد أن تجنِّب نفسك لحظات من السأم !».

وأخذت تلجأ إلى قلمها، لتنقذ نفسها من الجنون، ولكنها لم تتلقَّ جوابًا، وإذ ذاك صهرت عذابها وصبَّته في قالب قصة، قصة للأجيال، وللخلود. هي قصة جين إيـر التي نقدمها إليك، في هذا الكتاب .

وعندما ظهرت "جين إيـر " للمرة الأولى - سنة 1847 - أحدثت ضجة هائلة، ولقيت رواجًا عظيمًا، حتى لقد أُعيد طبعها في ديسمبر من العام نفسه، ثم طُبعت مرة ثالثة في إبريل من سنة 1848 ، وتوالت الطبعات بعد ذلك، وما تزال تتوالى. ولكن المهم في الأمر، أن يكون الكتاب أول إنتاج لمؤلفة مجهولة، مغمورة، ويُطبع ثلاث مرات في حوالي العام، بل أقل من عام. ومتى؟ قُبيل منتصف القرن التاسع عشر، ولمَّا يبلغ التعليم مبلَغه اليوم، ولمَّا تنفسح أمام الإنتاج الأدبي الإنجليزي أسواق العالم كما تنفسح اليوم !

قصة هواها باسم مستعار !

وأطرف من هذا كله، روح الكاتبة وشعورها، وهي تدفع بكتابها الأول إلى دنيا النشر. فلقد قالت لأختيها: «إن الكُتَّاب ليخطئون إذ يصرّون على أن يجعلوا بطلاتهم جميلات، ويتَّخذون من هذا قاعدة، ولسوف أثبت أنهم مخطئون، سأقدِّم بطلة خالية من الجمال، ضئيلة الجسم، مثلي تمامًا!». ولم ينقضِ أسبوعان على ظهور الكتاب، حتى كان حديث القوم في صالونات الشاي والمجتمعات، يتناولونه في إعجاب وانبهار، ويتساءلون: من ذلك الكاتب الذي انتحل لنفسه اسم كورر بيل، وكتب رواية غرامية على غير المألوف في قصص الهوى، إذ جعل بطلتها مربية ليس فيها ما يُبهر الرجال، ولكنها تقع في هوى رجل متزوج من امرأة معتوهة مخبولة. ما شك القوم في أن المؤلف لم يجسر على نشر اسمه الحقيقي على الرواية، لما فيها من خرق للتقاليد التي جرى عليها المؤلفون، ولكن أحدًا لم يتصوَّر إطلاقًا أن المؤلف ليس في الواقع «مؤلِّفًا»، وإنما هو «مؤلِّفة». أنثى، وعذراء !

وكان أديب إنجلترا الخالد الذكر ثاكيراي قد تورَّط في مثل هذا الخرق لتقاليد مؤلفي القصص الغرامية، إذ أصدر رواية فانيتي فير، فلم يتردَّد في الإعتراف بعبقرية كورر، حتى إنه بادر فأرسل إليه نسخة من روايته، تحمل إهداء بخط يده، وما خطر له قط - إذ ذاك - أن الزميل العبقري، كان ابنة قس بيوريتاني متزمِّت!.. وقد ردَّت شارلوت برونتي هذه التحية بأجمل منها، إذ صدرت الطبعة الثانية من كتابها، بإهداء إلى ثاكيراي، وكان الرأي العام قد فطن إلى شخصيتها، فلم يسعه سوى أن يظن أن «المؤلِّفة» العاطفية الجريئة، لا بد أن تكون «عشيقة» المؤلف العاطفي الجريء !

تفقد إخوتها في أسابيع قلائل

وما درى الناس أن شارلوت برونتي كانت ترزح تحت أفدح الأحزان، ففي الوقت الذي سلَّط المجد فيه أضواءه على كورر بيل، فإن أخاها برانويل مات ولم يكن قد تجاوز الحادية والثلاثين من عمره. وكان قد رحل إلى لندن، ليبرز في فن الرسم، فتردَّى في مباذل الفنانين، ثم عمل مدرِّسًا لأبناء رجل موسر، ولكنه طُرد من عمله حين ظهر أنه كان يدبِّر خطة للفرار مع أم تلاميذه! وانحدرت به الحال حتى عمل كمحصِّل في أحد الخطوط الحديدية، إلى أن اكتشف المفتِّش أنه كان يرسم في دفاتره صور فينوس بدلًا من أن يسجل الأرقام، وكان يثبت قصائد من الشعر في مكان الحسابات !

وعندما هوت مكانة برانويل إلى الحضيض، عكف على ترجمة الأوديسة إلى شعر إنجليزي راقٍ، وأفرط في الشراب، حتى قضى نحبه مخمورًا! ولم تنقض أسابيع قلائل، حتى لحقت به إميلي، التي قضت العمر صامتة، بينما كان قلبها يتأجَّج بسعير نفثته في قصة "مرتفعات ويذرنج ". وإن هو إلّا شهر، حتى أنشب السل مخالبه في رئتي آن، صغرى الأخوات، وحملتها شارلوت إلى البحر عسى أن تفيد من نسيمه، ولكن آن أدركت أن النهاية قد دنت، فشدت على يد شارلوت وهي تهمس: «تشجَّعي!». ولم يحِنْ أصيل ذلك اليوم حتى ماتت! ووقفت شارلوت وحيدة، في ضياء الشمس الآفلة، وفي أذنيها أصداء أبيات من شعر إميلي :

«إذا كانت الأرض والقمر قد ولَّيا ...

والشموس والأكوان قد غابت عن الوجود

وبقيت أنت وحـيـدة ...

فإن الوجود كله... سينحصر فيك !»

تعيش في الماضي مع الذكريات

أعلن الخادم في دار مسز هارييت مارتينو مَقْدِم الآنسة بروجدن، وأقبلت في أعقابه امرأة، لم يرَ الضيوف امرأة تصغرها جسمًا من قبل. وكانت مستحيية، خفيضة الصوت، حتى إن الخادم لم يسمع اسم برونتي من شفتيها واضحًا، فظنه بروجدن! ومدَّت شارلوت إلى صاحبة الدار يدًا صغيرة طرية، ثم انزوت في أحد الأركان، وعيناها، تطرُفان في كلل وارتباك .

وكانت شارلوت قد غالبت خجلها وانطواءها، وغادرت هاورث لتزور ناشرَيْ كتابها، فبذل الشريكان كل حيلة لحملها على قبول برنامج حافل بزيارات وحفلات ومآدب تليق بشهرتها. وراحت تقضي نهارها في التنقّل وإلقاء المحاضرات، وتسكن في حجرات فخمة أُعدّت لها. وكان الناس يتوقّعون أن يلتقوا بفتاة تنتزع الإعجاب، فإذا بهم إزاء مخلوقة صامتة، منطوية، تكاد تتوارى خلف قطع الأثاث أو تحتها، إذ تحسّ بآلام عنيفة من وجودها بين الناس! وعندما تركها الناشران في النهاية، لتختار ما يحلو لها من أماكن تزورها، اختارت اثنين من السجون، وملجأ للّقطاء، ومستشفى للمجاذيب !

وكتبت شارلوت بعد ذلك قصتين، شيرلي - التي تمثّل صفحة من حياتها، عندما عملت مربّية في لندن - وفيلليت أوفييت، التي استمدتها من ذكريات حياتها في بلجيكا.. قصتان من الماضي، فقد مضى كل شيء بالنسبة لها، ولم يعد لها في حاضرها سوى الذكريات، بل إنها هي نفسها أصبحت تنتمي إلى الماضي، فقد كانت تبدو في الستين من عمرها، قبل أن تتجاوز الأربعين !

زواج بعد الأربعين !

أفكان ثمَّة مجال لحب عند تلك التي كانت تنتمي إلى الماضي؟ !

لقد تطايرت الشائعات بأن قسمًا من أبناء الجيرة صارحها بهواه. وكان الأمر حقيقة واقعة، فقد شاء أحد القساوسة أن يتيح لها بعثًا جديدًا في الحياة، وكان جامد الفكر خلوًّا من المواهب، في حين أنها كانت موهوبة، مشهورة، ولكنها حزينة. ومع الفارق الكبير بينهما، فإنها قبلت، وبعد كثير من الهَمّ والأسى، وقفت إلى جواره بعد ظهر عيد الميلاد من سنة 1854 ، في ثوب الزفاف، لتربط حياتها بحياته، وكانت هذه هي الفرحة الوحيدة في حياتها !

ودامت هذه الفرحة شهورًا، ثم تطايرت الأنباء من يوركشاير إلى لندن، بأن شارلوت قد حملت، وأن البهجة دَبَّت من جديد في فؤاد ابنة هاورث الحزينة، ولكنها سرعان ما مرضت، ولازمت الفراش، وراح الأطباء يطمئنونها بأن الوَهَن أمر طبيعي يصحب الحمل لمن كانت مثلها، وأخذت تقضي وقتها مُسْرَحة البصر خلال النوافذ إلى «الأمطار الدافقة التي كانت تُغرق الحديقة، وإلى المستنقعات التي لفّها الضباب». وكانت تحس في ضعفها بقوة غريبة، عجيبة. وما درت أن الموت كان ينمو مع نمو الحياة الجديدة التي كانت تدبّ في أحشائها. ثم اشتد نموّ الموت حتى فاق نمو الجنين، فما لبثت أن زهدت مولد الطفل، وفقدت كل اغتباط كان يفعِمُ نفسها. وكانت تقول لزوجها وهو يحنو عليها: «إنني من التعب بحيث لم أعد أقوَ على أن أحفل به». ثم ترفع

رأسها نحوه لتقول: «لا، لن أموت! لن يفرَّق بيننا! «. ولكن رياح شهر مارس حملتها معها عبر نهر الظلمات، إلى حيث تبدأ الحياة من جديد، في العالم الآخر !

***

الفصل الأول

كان من المتعذّر أن نتمشَّى في ذلك اليوم، فلقد قضينا ساعة كاملة في الصباح، ونحن نتجوَّل بين الأشجار الجرداء. بيد أن رياح الشتاء القارس ما لبثت بعد الغداء - إذ تتغدَّى مسز ريد في ساعة مبكرة، عندما لا يكون ثمَّة ضيوف-أن أخذت تجلب معها سُحُبًا قاتمة، ومطرًا ثاقبًا، لا يتأتى معها أن تخرج لأي رياضة. ولقد سرَّني ذلك، لأنني لم أكن أحب مطلقًا أن أسير لمسافات طويلة، لا سيما في الأصائل الباردة. وكم كان يروِّعني أن أعود إلى المنزل في غسق الليل، بأصابع خدِّرها البرد، وبقلب يملؤه الأسى لتأنيبات بيسي المربّية، ويذلّه الشعور بضعف بُنيَتي إزاء كل من إليزا وجون وجورجيانا ريد !

وكان هؤلاء - إليزا وجون وجورجيانا ريد - يتحلَّقون حول والدتهم في حجرة الجلوس، وهي مضطجعة على أريكة بجوار المدفأة، ومن حولها أحبِّتها الصغار وقد كفّوا عن العراك والضجيج، فظهرت على الجميع السعادة موفورة كاملة! أما أنا، فقد أعفتني مسز ريد من شرف الانضمام إلى هذه الثلة، قائلة إنها تأسف إذ تضطر إلى إقصائي بعيدًا، وأنها إن لم تسمع من بيسي، وإن لم ترَ بنفسها، أنني جادة في السعي لأن تكون طباعي أكثر تآلفًا وبساطة، ولأن تكون أخلاقي أكثر جاذبية ومرحًا - أي أن تكون أوفر مما هي عليه الآن لطفًا، وصراحةً، ومواءمة للطبيعة - فسوف تحرمني من كل الامتيازات التي لا تُغدَق على غير السعداء من الأطفال الصغار! وكنت أسالها: «وما الذي قالت بيسي إنني فعلته؟». فتجيب: «اسمعي يا جين، أنا لا أحب من يكابرون ويستجوبون، فضلًا عن أنني أكره في الطفلة أن تتحدَّث إلى من هم أكبر منها بمثل هذه الطريقة. هيا اجلسي في مكانٍ ما، واخلدي إلى الصمت، ما لم تستطيعي التحدُّث بلطف !».

وكانت تتصل بحجرة الجلوس غرفة صغيرة لتناول الإفطار، فتسلَّلتُ إليها. وكانت تحوي صوانًا للكتب سرعان ما استوليتُ منه على كتاب حرصت أن يكون زاخرًا بالصور، ثم ارتقيت قاعدة النافذة، فرفعت قدميَّ، وجلست متربِّعةً كجلسة الأتراك، وجذبت الستارة الحمراء المُشجرة حتى كدت أسدلها عليَّ تمامًا، فأصبحت بذلك في عزلة مزدوجة: كانت طيّات الستارة القرمزية تحجبني وتحجب عنِّي الرؤية من ناحية اليمين، بينما كانت ألواح الزجاج إلى اليسار، تحميني - من دون أن تفصلني-من طقس ذلك اليوم الكئيب من أيام شهر نوفمبر. وفيما كنت أقلِّب صفحات كتابي بين الفينة والأخرى، أخذت أتفحّص طلعة الشتاء بعد ظهر ذلك اليوم. كانت صفحة باهتة من الضباب

والسحاب، ومنظر يتآلف من أرض مخضرَّة، ودغل عبثت به العاصفة، وأمطار تهطل مدرارة من دون انقطاع، وتندفع هوجاء أمام زوبعة هائلة تثير الشجَنَ في النفوس .

وكنت لا ألبث أعود إلى كتابي (تاريخ الطيور البريطانية)، من تأليف بويك. وما كان موضوعه يعنيني في كثير، ولكنني - برغم طفولتي - لم أستطِع أن أمرّ ببعض صفحاته الأولى دون اهتمام، إذ كانت تتحدث عن مآوي الطيور، وتلك الصخور والجبال المنعزلة في جوف البحر، التي لا تسكنها سوى تلك الطيور، وعن ساحل النرويج الذي ترصِّع الجزر طرفه الجنوبي، من ليندنيس أو تيز إلى نورث كيب :

«حيث المحيط الشمالي يغلي في دوامات ضخمة

حول جزر ثول النائية، العارية، الحزينة

وحيث موج المحيط الأطلسي يتدافع

متدفِّقًا بين جزر هبريد العاصفة !».

كذلك لم أقوَ على أن أغفل تصويره لتلك الشطآن الصخرية الجرداء في لابلاند وسيبيريا وأيسلاند وجرينلاند، وما يترامى منها في المنطقة القطبية المتجمِّدة. ولا تلك المناطق الشاسعة، المهجورة، الموحشة. ومستودعات الصقيع والجليد، حيث حقول الثلوج الراسخة، التي تراكمت عبر قرون من الشتاء، تلتمع في ارتفاعات شاهقة، طبقات فوق طبقات حول القطب، وتتركز فيها قساوات البرد القارس المتضاعفة! ومن هذه الممالك التي تبدو في شحوب الموت، كوَّنت لنفسي فكرة مبهمة ككل الأفكار نصف المفهومة التي تطفو معتمة في أذهان الأطفال، ولكنها تثير العواطف والأحاسيس إلى حدٍّ عجيب .

وكانت الكلمات في هذه الصفحات الأولى تصوِّر بجلاء بالغ الصخرة التي شمخت بمفردها عالية في بحر زاخر بالأمواج والرذاذ، والقارب المحطَّم الذي رسا عند شاطئ مقفر، والقمر البارد الشاحب الذي أطل من خلال قضبان من السحب على حطام سفينة غرقت لتوِّها. ورحت أعيش في مناظر الكتاب، فلم أدرِ أيّ شعور كان يراود صحن الكنيسة وقد غرق في وحدته بنصبه المنقوش، وبوابته، وشجرتيه، وأفقه الواطئ الخفيض يحدّه سياج مهدّم، وهلاله الجديد الذي بزغ شاهدًا على ساعة الأصيل، والسفينتان الساكنتان فوق بحر هامد، ظننتهما شبحين بحريين. أما الجنّيّ الذي كان يحمل صرّة لص على ظهره، فقد مررت به على عجل، لأنه بعث في نفسي الرعب والهلع. وكذلك فعلت بمنظر

ذلك الشيء ذي القرنين، الذي جلس على إحدى الصخور في ترفّع وشموخ، وهو يشرف على الحشد البعيد الذي يحيط بإحدى المشانق .

كانت كل صورة في الكتاب تروي قصة كثيرًا ما وجدتها غامضة على إدراكي غير الناضج، ومشاعري التي لم تكتمل. ولكنها - مع ذلك - كانت دائمًا مشوِّقة، طَريفة كالقصص التي كانت بيسي ترويها لنا بين حين وآخر في أمسيات الشتاء، عندما يصادف أن يكون مزاجها صافيًا، فتجيء بمنضدة الكَيّ إلى غرفة الأطفال، وتدعونا إلى الجلوس حولها. ثم تأخذ - وهي تكوي لمسز ريد ملابسها المصنوعة من الدانتيلا وطاقية نومها - تغذِّي مسامعنا المرهَفة بعبارات عن الحب والمغامرات، تنتزعها من القصص الخرافية القديمة والأشعار القصصية العتيقة، أو تستقيها - كما اكتشفت فيما بعد - من صفحات قصص باميلا وهنري إيرل مورلاند .

وهكذا كنت - وأنا أحمل كتاب بويك على ركبتي سعيدة. سعيدة على طريقتي الخاصة، على الأقل. ولم أكن أخشى سوى أن يعكِّر شيء ما صفو خلوتي، وهذا ما لم يلبث أن حدث، فقد انفتح باب الحجرة ليجلجل صوت جون ريد :

- «أوه... مدام موب !».

ثم توقَّف عندما وجد الحجرة خالية - كما كانت تبدو - ثم استطرد يتساءل: «ترى أين هي؟ ».

وصاح ينادي شقيقتيه: «ليزي! جورجي! إن جين ليست هنا. أبلغا ماما أنها خرجت في المطر، هذه الحيوانة الشقية !».

فقلت في نفسي: «لقد أحسنت إذا أسدلت الستارة». وتمنيت في لهفة ألّا يكتشف جون ريد مخبئي. وما كان ليعثر عليه من تلقاء نفسه، لأنه لم يكن دقيق النظر ولا سريع الإدراك. ولكن ليزا ما لبثت أن أطلّت برأسها من الباب وصاحت لفورها :

- «إنها على حافّة النافذة بلا ريب يا جاك». (المقصود جون !).

وخرجتُ في الحال لأنني كنت أرتعدُ لمجرَّد التفكير في أن يجذبني جاك هذا. وسألته في تهيّب وارتباك: «ماذا تريد؟ ».

فكان جوابه: «قولي: ماذا تريد يا سيد ريد!». أريدُ منكِ أن تأتي إلى هنا !».

ثم جلس في مقعد ذي مسندين، وأشار بإيماءة منه أن أقترب وأقف أمامه !

كان جون ريد تلميذًا في الرابعة عشرة من عمره، أي أنه كان يكبرني بـأربع سنوات، إذ كنت آنذاك لا أعدو العاشرة. وكان ضخم الجسم، قويّ البنية بما يفوق سِنّه، وقد أوتيَ بشرة معتمة لا تنمّ عن صحة، وأسارير غليظة في وجهٍ عريض، وأطرافًا ثقيلة، وطباعًا حادّة! وكان شرِهًا يلتهم الطعام التهامًا، ما جعله صفراويّ المزاج وأعتم عينيه، وأضعف بصره، ورهّل خدَّيْه. وكان جديرًا به أن يكون في مدرسته في ذلك الوقت، ولكن أمه سحبته منها ليقضي في المنزل شهرًا أو اثنين (بسبب صحته المرهقة! بينما كان مستر مايلز - ناظر المدرسة-يؤكِّد أن صحة الصبي سوف تتحسَّن جدًا إذا ما قلّت كمية الكعك والحلوى التي تُرسَل إليه من المنزل! بيد أن قلب الأم رفض فكرة بهذه القسوة! وانحاز إلى الفكرة الأكثر رقّة، وهي أن شحوب جون كان بسبب إرهاقه في العمل، وربما - أيضًا - بسبب حنينه إلى البيت !

ولم يكن جون يطوي في أعماقه حبًّا شديدًا لأمه أو شقيقتيه، بينما كان يكُنُّ لي بغضًا وكراهية، فكان ينهرني ويعاقبني. لا مرتين أو ثلاثًا في الأسبوع، ولا مرة أو اثنتين في اليوم، وإنما باستمرار وعلى الدوام! ولذلك كان كل عَصَب من أعصابي يخشاه ويَرهَبه، وكانت كل مضغة من لحم على عظامي تنكمش إن هو اقترب مني! وكم من لحظات أذهلني فيها الرعب الذي كان يبعثه في نفسي، فإنني لم أكن لأجد من يدرأ عني وعيده وأذاه. ذلك أن الخدم لم يشاؤوا إغضاب سيدهم الصغير بالتضامن معي ضده، بينما كانت مسز ريد تدَّعي العمى والصمم بهذا الشأن، فهي لم تره قطّ يضربني، ولم تسمعه أبدًا يهينني، وإن كان يفعل الأمرين في حضرتها - من آنٍ إلى آخر - ويمعن كل الإمعان في ذلك من وراء ظهرها !

ولما كنتُ قد شببت على أن أذعن لأوامره، فقد اقتربت من مقعده. فقضى نحو ثلاث دقائق وهو يخرج لي لسانه إلى أقصى ما يستطيع، حتى أوشك أن ينتزعه من جذوره، وكنت واثقة من أنه لن يلبث أن يضربني. وفيما كنت أوجس خيفة من الضرب، رحت أسرِّح الخاطر في الصورة الكريهة الدميمة لوجه هذا الذي كان يوشك على أن يضربني .

ويبدو أنه قرأ في وجهي ما كان يدور برأسي، لأنه لم يلبث - دون أن ينبس بحرف - أن ضربني على حين غرة، وبعنف، فترنَّحت. ولما استعدتُ توازني، ارتددت إلى الخلف خطوة أو اثنتين بعيدًا عن مقعده. فقال :

- «هذا جزاء وقاحتك في الرد على ماما منذ قليل، ولطريقتك في التسلل خلف الستائر، وللنظرة التي كانت في عينيك منذ دقيقتين، أيتها الفأرة !».

وكنتُ قد اعتدتُ شتائم جون ريد، ولذلك لم يكن ليخطر ببالي أن أرد عليها، وإنما كان كل همِّي منصرفًا إلى تحمُّل ألم الضربة التي كان من المحتوم أن تعقب السباب. وسألني: «ماذا كنتِ تفعلين خلف الستارة؟ ».

- «كنتُ أقرأ !».

- «أريني الكتاب ».

فاستدرتُ إلى النافذة، وجئته بالكتاب من هناك، فقال: «ليس لكِ أن تأخذي كتبنا. إنكِ عالة علينا كما تقول ماما، وليس لكِ مال، لأن والدكِ لم يترك لكِ شيئًا. وكان أجدرُ بكِ أن تتسوَّلي لا أن تعيشي هنا مع أطفال سادة مثلنا، فتتناولي الطعام الذي نتناوله، وترتدي ثيابًا على نفقة ماما. والآن، سوف أُعلّمكِ كيف لا تُنبّشين أرفف كتبي، فهي ملكي. بل إن هذا المنزل كله ملك لي، أو سيكون كذلك بعد سنوات قلائل: هيا اذهبي وقفي إلى جانب الباب، بعيدًا عن المرآة والنوافذ !».

ففعلتُ ذلك، من دون أن أفطن لأول وهلة إلى ما كان يعتزمه، ولكنني حين رأيته يرفع الكتاب ويزنه على أصابعه، ثم يقف ليهُم بأن يطوِّح به، وثبت جانبًا بدافع من الغريزة، وأنا أصيح من الفزع. ولكنني لم أسرع بقدرٍ كافٍ، وأصابني المُجلّد المندفع، فوقعتُ، وارتطم رأسي بالباب فشُجّ واندفعت الدماء من الجرح، واستبدّ بي الألم، ثم تجاوز ذعري ذروته، وتوالت مشاعر أخرى عليَّ، فصحت: «يا لكَ من صبيّ شرير قاسٍ، إنك كتاجر الرقيق، بل أنتَ تُشبه أباطرة الرومان !!».

وكنت قد قرأت (تاريخ روما) لجولد سميث، وكوَّنت فكرة عن نيرون وكاليجولا، وغيرهما، واخترت لهم أشباهًا ممّن كانوا حولي، الأمر الذي ما كان ليخطر قط ببالي أن أجهر به .

وصاح الصبيّ :

- «ماذا! ماذا! أقالت ذلك لي أنا؟ هل سمعتماها يا إليزا وجورجيانا؟ ألا يجب أن أبلغ ماما؟ ولكن أوّلًا ..».

وجرى نحوي، وشعرت به يمسك بشعري وكتفي ويطبق عليهما باستماتة. ورأيتُ فيه شخصًا عاتيًا، قاتلًا حقًا. وشعرت بقطرة أو اثنتين من الدم تنحدران من رأسي إلى عنقي، وأحسستُ بألمٍ حاد. وبسبب تلك الآلام تغلَّبَت على خوفي، فواجهته في ضرب من الخبل والجنون، ولست أدري تمامًا ماذا صنعت يداي، ولكنه راح يصيح بي: «يا لكِ من فأرة! فأرة!» ثم مضى يصرخ بأعلى صوته، وسرعان ما خفّت إليه النجدة، إذ جرت إليزا وجورجيانا إلى مسز ريد - التي كانت قد صعدت إلى الطابق العلوي - فإذا بها تفِد إلى مكان الواقعة، تتبعها بيسي والوصيفة آبوت. وفرّقنَ بيننا، ثم سعمت الكلمات :

- «أعوذ بالله! أعوذ بالله! أي جنون يدفعكِ إلى مهاجمة السيد جون !».

- «هل رأى أحد مثل هذه الصورة من الهوس؟ !».

وأدلت مسز ريد برأيها في النهاية، قائلة :

- «احملاها إلى الحجرة الحمراء، وأغلقا عليها الباب بالمفتاح ».

وسُرعان ما هبَطت أربع أيدٍ عليَّ، فحملوني إلى الطابق العلوي .

الفصل الثاني

ورحت أقاوم طوال الطريق، وكان ذلك شيئًا جديدًا بالنسبة لي، كما بدا أن الظرف عزَّز جدًا تلك الفكرة السيئة، التي كانت بيسي ومس آبوت تميلان إلى تكوينها عنّي. والواقع أنني خرجتُ قليلًا عن طوْري، أو بالأحرى أفلت مني الزمام. وأدركتُ أن عصياني الذي لم يدم أكثر من لحظة واحدة، سيعرَّضني لعقوباتٍ عجيبة. وكأي عبدٍ ثائرٍ، عزمت في يأسي على المُضيّ إلى آخر الشوط. وقالت بيسي :

- «أمسكي ذراعيها يا مس آبوت لأنها أشبه بقطة مجنونة !».

فصاحَت وصيفة السيدة: «يا للخزي! يا للعار! يا له من سلوك مخجل يا مس إير، أن تضربي طفلًا صغيرًا، ابن وليّة نعمتُكِ، وسيّدك الصغير !».

- «سيدي؟! كيف يكون سيدي! وهل أنا خادمة؟ ».

- «كلاّ، إنكِ أقلُّ من خادمةٍ، لأنك لا تفعلين شيئًا مقابل إيوائك. هيا اجلسي وفكّري في ذنبكِ !».

وكانتا قد وصلتا بي عندئذٍ إلى الغرفة التي اختارتها لي مسز ريد ثم دفعتا بي إلى مقعد - بلا مسند أو ظهر-وخطر لي أن أثب عن ذلك المقعد كالزنبرك، ولكن سرعان ما قبضت عليَّ أيديهما. وقالت بيسي :

- «إذا لم تجلسي هادئة ساكنة أوثقناكِ! أعيريني رباط ساقكِ يا مس آبوت لأنها تستطيع أن تقطع رباطي على الفور !».

واستدارت مس آبوت لتجرّد ساقها القوية وتقدّم الرباط اللازم. ولكن هذا الإعداد للقيود، وما كان يعنيه من إذلال جديد، بدَّدا شيئًا من ثورتي، فصحتُ :

«لا تخلعيه، لن أتحرَّك من مكاني ».

وتأكيدًا لذلك تشبَّثتُ بكلتا يدي بالمقعد، فقالت بيسي :

- «حذارِ أن تفعلي !».

ولما استوثقتْ من استسلامي أرختْ قبضتها، ثم نهضت هي ومس آبوت، وقد عقدت كل منهما ذراعيها، وأخذتا تتأمَّلان وجهي بنظرة تجهُّم وشَكّ، وكأنهما لم تكونا تطمئنان إلى سلامة عقلي! وأخيرًا، التفتت بيسي إلى «الوصيفة» الأخرى وقالت :

- «إنها لم تفعل شيئًا مثل هذا من قبل !».

فكان الجواب: «ولكن هذا الطبع فيها دائمًا، ولطالما أفضيت لسيدتي برأيي في هذه الطفلة، فكانت توافقني، يا لها من مخلوقة صغيرة ماكرة! إنني لم أرَ أبدًا فتاة في سنها تخفي في داخلها مثل هذا الخبث !».

فلم ترد عليها بيسي، ولكنها ما لبثت أن خاطبتني قائلة: «ينبغي أن تعلمي يا آنسة أنكِ مدينةٌ لمسز ريد بكثير من الالتزامات. فهي التي تؤويكِ، ولو أنها طردتكِ لاضطُرِرْتِ إلى الذهاب إلى الملجأ !».

ولم يكن لديَّ ما أقوله. فهذه الكلمات لم تكن جديدة عليَّ، بل طالما سمعت تلميحات من هذا القبيل، حتى بات تعبير أنني عالة، أشبه بنغمة غاية في الإيلام والإذلال، وإن لم أكن أفقه كل ما تعنيه. وقالت مس آبوت بدورها: «ويجدر ألّا تحسبي نفسك ندًّا للآنستين وللسيد ريد لمجرد أن تعطّفت والدتهم بتنشئتكِ معهم. لسوف يصيبون ثروة كبيرة، أما أنتِ فلن ينالكِ شيء، ولذلك فبقاؤكِ هنا رهن بأن تتواضعي وأن تحاولي استمالة قلوبهم ».

وأضافت بيسي في صوت خالٍ من الغلظة والعنف: «إنما تقول هذا لصالحكِ. عليكِ أن تحاولي أن تكوني نافعة ولطيفة، فبهذا تجدين مأوى هنا. أما إذا صرتِ حادّة الطبع فظّة الخلق، فإن السيدة ستطردكِ، على ما أعتقد !».

وقالت مس آبوت: «ولسوف يعاقبها الله كذلك. إذ قد تقع ميتة في غمرة ثورتها وهياجها، وماذا سيكون مصيرها عندئذٍ؟ تعالي يا بيسي، ولنتركها، فلستُ أرجو أن أزلزل قلبها... ألا صلِّ يا مس إير إذا ما خلوتِ إلى نفسك، لأنك إن لم تندمي فقد يهبط إليكِ شَرّ من المدخنة، ويحملك بعيدًا!». ثم ذهبتا بعد أن أغلقتا الباب خلفهما بالمفتاح .

كانت الغرفة الحمراء حجرة فائضة، مهملة، يندر جدًا أن ينام فيها أحد، بل إن في وسعي أن أقول إنّ أحدًا لم ينم فيها إلاّ إذا تصادف أن غصَّ قصر جيتسهيد هول بالزوار، وأصبح لزامًا أن يستعملوا كل ما فيه من غرف، برغم أنها كانت من أكبر وأفخم غرف القصر. وكان فيها سرير مقام على أعمدة ضخمة من خشب الماهوجني، وقد أُسدلت عليه ستائر من الدمقس الأحمر الغامق، فبدا

أشبه بخيمة وسط الغرفة، بينما كانت النافذتان الكبيرتان - بمصاريعهما المغلقة دائمًا - تكادان تتواريان خلف ستائر من القماش نفسه. كما كان البساط أحمر اللون، وكانت المنضدة بجوار السرير مغطاة بغطاء قُرمزي. والجدران ذات لون مائل للإصفرار تمازجه مسحة خفيفة من حمرة، في حين كان صوان الملابس ومنضدة الزينة والمقاعد من الماهوجني القديم، الداكن الطلاء. ولم يخل من هذه الظلال القاتمة الغالبة على الحجرة، سوى ما ارتفع والتمع بياضه من حشيات ووسائد على السرير، يعلوها لحاف ناصع كالثلج من طراز مارسيليا. وكان مقعد وثير لا يقل عن هذه الأشياء ظهورًا وسط الظلال القاتمة، يقبع على مقربة من رأس السرير - أبيض اللون كذلك - وأمامه مسند للقدمين، ويبدو في نظري أشبه بعرشٍ باهت اللون !

كانت تلك الغرفة باردة، إذ قلَّما كانت تُوقد فيها نار، كما أنها كانت ساكنة ومهيبة، لبعدها عن غرف الأطفال والمطابخ، لما كان معروفًا من أنها قلَّما وطأتها قدم أو دخلها إنسان، اللهم إلّا الخادم التي كانت تدخلها يوم السبت من كل أسبوع، لتنفض عن المرايا والأثاث الغبار الذي تراكم خلال الأسبوع. وفي فترات متباعدة، كانت مسز ريد تزور هذه الغرفة لتتفقد محتويات دُرج خاص في صِوان الملابس، أودعت فيه أوراقًا مختلفة وصندوق حليّها وصورةً مُصغَّرة لزوجها الراحل. وفي هذه الكلمات الأخيرة يكمن سر الغرفة الحمراء، السر الذي جعلها مهجورة برغم عَظَمَتها وفخامتها! فلقد توفِّيَ مستر ريد منذ تسع سنوات، وفي هذه الغرفة بالذات لفظ آخر أنفاسه، هنا رقد في جلالٍ ومهابة، وهنا وضع تابوته رجال الحانوتي. ومنذ ذلك اليوم لَفَّ الغرفة جوٌّ من رَهبة قدسية، صانها من الأقدام !

وكان مقعدي - الذي سمّرَتني فيه بيسي ومس آبوت القاسية - عبارةً عن كُرسيّ خفيض بالقُرب من الموقد المصنوع من الرخام، وكان السرير ينتصب أمامي. وإلى يميني كان صوان الملابس العالي الداكن اللون بأضوائه المنعكسة المتكسِّرة التي تتباين باختلاف اللمعان المنبعث من ألواحه. وإلى يساري كانت النافذتان بستائرهما المسدولة، وبينهما مرآة كبيرة تعكس منظر السرير الفخم والحجرة الكبيرة .

ولمَّا كنتُ غير واثقة من أن الوصيفتَيْن قد أغلقتا الباب بالمفتاح، فإنني لم أكد أجرؤ على الحِراك، حتى نهضتُ أتفقّد الباب. وشد ما أسفت حين وجدته موصدًا بالمفتاح فعلًا! لم يكن يوجد سجن يفوق ذلك تحصينًا. وفي عودتي كان لا بد لي أن أمر أمام المرآة، فإذا نظراتي الحائرة تتفقَّد، على الرغم مني، ما كان ينعكس عليها. كان كل شيء يبدو في الصورة المنعكسة، الجوفاء، أشد برودةً وحِلكة مما كان في الواقع! وكان للشكل الصغير، الغريب، الذي راح

يحملق فيَّ وجه شاحب، يعلو ذراعين يومض بياضهما من خلال الظلال، وعينين تشُعّان خوفًا، وتتحرَّكان، في حين كان كل ما حولها ساكنًا. كان لذلك الشكل منظر شبح حقيقي، كتلك الأشباح الصغيرة، نصف الجنِّيات، التي كانت بيسي تروي لي - في قصص المساء - كيف كانت تخرج وتنبعث من البطاح المنعزلة المعشوشبة، لتظهر أمام أعين المسافرين الذين تخلَّفوا عن الركب! وعدت إلى مقعدي، وفي رفقتي الخرافات. ولكن ساعة انتصارها الكامل عليَّ لم تكن قد حانت بعد، لأن دمي كان لا يزال حارًا، وكانت ثورة الأسيرة الثائرة على أشدها! وكان عليَّ أن أواجه تدفّق الأفكار المتصلة بالماضي قبل أن تخور عزيمتي أمام الحاضر المظلم. وعادت إلى عقلي المضطرب كل ألوان الظلم القاسي التي عانيتها من جون ريد، وكبرياء شقيقتيه، وكراهية والدته، عادت أشبه برواسب حالكة في بئر عَكِرة موحلة. وتساءلت: لماذا كنت معذَّبة على الدوام، مستضعَفة على الدوام، متّهَمة باستمرار. مُذنبة إلى الأبد؟ لماذا لا أقوى على إرضاء أحد؟ لماذا لم تكن محاولاتي مجدية في استمالة أحد؟ إن إليزا، العنيدة الأنانية، تلقى الاحترام، وجورجيانا، بطبعها الفاسد، وحقدها اللاذع، وسلوكها المتحامل الوقح، تلقى استحسانًا عامًا! وكأنما كان جمالها ووجنتاها الحمراوان وجدائلها الذهبية، متعة للبصر، وتعويضًا عن كل عيوبها! وجون، لم يكن هناك من يعارضه، وقلّ أن عوقب، مع أنه كان يلوي أعناق الحمام، ويتلف براعم النبات الصغير، ويحرِّض الكلاب على الغنم، ويجرِّد العرائش من ثمارها، ويحطِّم أصص النباتات في البيوت الزجاجية بالحديقة، ويدعو أمه بالفتاة العجوز، كما كان يعيّرها أحيانًا ببشرتها السمراء الشبيهة ببشرته! كذلك كان شديد الاستخفاف برغباتها، وكثيرًا ما مزَّق أو أتلف لها ثوبًا من الحرير. ومع ذلك، فقد ظل عزيزها الغالي! أما أنا فكنتُ لا أقترف خطأً، وأحاول أن أؤدي واجبي على أحسن وجه، ومع ذلك فقد كانوا ينعتونني بالشقيّة، المضجرة، المشؤومة، الماكرة، من الصباح إلى الظهر، ومن الظهر حتى الليل !

كان رأسي لا يزال يؤلمني ويدمى بسبب الضربة، وبسبب السقطة التي نالتني، دون أن يوجه أحد منهم أي لوم إلى جون الذي ضربني بتهوّر ونزق. أما أنا فقد انهالوا عليَّ تقريعًا وتأنيبًا لمجرّد أنني واجهته لأتّقي اندفاعه في قسوته الغنيفة الهوجاء. وحدَّثتني نفسي، وقد ألهمها الألم المبرح قوة - وإن كانت طارئة، عابرة - بأن أصيح: «هذا ظلم! هذا ظلم!»، وحفَّزتني العزيمة التي ساورتني كذلك، لأن أبحث عن ذريعة عجيبة للتخلُّص من الاضطهاد الذي لا يُحتمل. أو إلى الهرب، أو - إذا لم يتسنّ لي ذلك-إلى الامتناع عن الأكل والشرب حتى يدركني الموت !

أي رعب لفّ روحي في عصر ذلك اليوم الموحش؟! وأي لجب اصطخب في رأسي؟ وأيّ تمرّد غشيَ فؤادي؟ ومع ذلك أي ظلمة، وأي جهالة ضارية شبّ فيها أوار تلك المعركة التي دارت في رأسي! ولم أستطِع الإهتداء إلى جواب عن السؤال الذي ما فتئت أردِّده: «لماذا أتعذّبُ هكذا؟». أما الآن - ولن أقول كم سنة انقضت - فإنني أرى الرد واضحًا كل الوضوح :

كنتُ في قصر جيتسهيد نشازًا، لا أُشبِهُ أحدًا ممّن كانوا هناك، فلم يكن ثمَّة انسجام بيني وبين مسز ريد وأطفالها وأتباعها المختارين! وإذا كانوا لم يحبوني، فما كان أقل حبي لهم، في الواقع! ولم يكن لزامًا عليهم أن ينظروا بعين الحب إلى مخلوقة لا تستطيع أن تأتلف مع واحدٍ منهم، ولم تكن تتجانس معهم، وإنما كانت تغايرهم في المزاج، والنزعة. مخلوقة تافهة لم تكن لتخدم مصالحهم وتضاعف غبطتهم. مخلوقة مؤذية، تنمِّي في نفسها جذور الحنق على معاملتهم، وتنمو فيها جراثيم السخط على أحكامهم! وكنتُ أُدرك أنني لو كنتُ طفلة حادّة المزاج، عديمة الاكتراث، كثيرة المطالب، جميلة، مرحة، لاحتملت مسز ريد وجودي بمزيد من الرضا، ولبادلني أطفالها مزيدًا من الإحساس القلبيّ بالمودّة والصداقة، ولخفَّ مَيْل الخدم إلى جعلي كبش الفداء في غرفة الأطفال. مهما أكن عالة، عديمة النصير !

وشرع ضوء النهار يغادر الغرفة الحمراء، إذ ناهزت الساعة الرابعة، وانحدر العصر الغائم نحو الغسق، وسمعت المطر وهو ما يزال يصفع زجاج النوافذ بلا انقطاع، كما سمعت الرياح وهي تعوي في الغابة الصغيرة التي تقع خلف القصر. وأخذت البرودة تشل حركاتي تدريجًا. وإذ ذاك غاضت شجاعتي وعاودني إحساسي المألوف بالهوان وعدم الثقة بالنفس والكآبة اليائسة، فكان أشبه بقطرات باردة تهبط على جمرات حقدي الذاهب! لقد أجمعوا على أنني شريرة، ولعلني كنت كذلك، وإلاّ كيف لم أعد أنشغل إلاّ بفكرة تجويع نفسي حتى أموت جوعًا؟ !

كان ذلك جريمة بلا ريب، ولكن، هل كنت أهلًا للموت؟ أو هل كان السرداب الذي تحت محراب الكنيسة مغريًا إلى هذا الحد؟ لقد علمت أن مستر ريد كان مدفونًا في ذلك السرداب، فقادني التفكير إلى استعادة ذكراه. وتعمَّقت في ذلك التفكير في هلعٍ مُتزايدٍ متضاعف، ولم أكن أقوى على تذكره جيدًا، ولكني كنت أعلم أنه خالي، شقيق أمي، وأنه أخذني وأنا طفلة يتيمة الوالدين إلى منزله، وأنه في لحظاته الأخيرة انتزع من مسز ريد وعدًا بأن تربيني وتعولني كواحدة من أطفالها. ولعل مسز ريد كانت تحسب أنها برَّت بوعدها! فقد فعلت ذلك، على ما بدا لي، بقدر ما كانت تسمح به طبيعتها، إذ كيف لها في الحقيقة أن تحب فتاة متطفِّلة ليست من دمها، ولا تربطها بها صلة بعد أن توفي

زوجها؟! لا ريب في أنه كان عملًا شاقًا أن تجد نفسها مرتبطة برغمها بوعد قطعته على نفسها، بأن تقوم مقام الأم نحو طفلة غريبة لا تقوى على أن تحبها، وأن ترى فتاة غريبة ليست من دمها، تُقحم نفسها دائمًا على أفراد أسرتها !

وومضت في خاطري فكرة عجيبة، إذ لا أشك - بل ما شككت إطلاقًا - في أنه لو بقيَ مستر ريد على قيد الحياة، لكان قد عاملني برفق. وفيما كنت أجلس وأتطلّع إلى الفراش الأبيض، وإلى الجدران الظليلة، وعيناي حائرتان تلقيان أحيانًا نظرة نحو المرآة ببريقها المعتم، أخذت أتذكر ما سمعته عن الموتى عندما يضايقهم في قبورهم أن تُنتهك رغباتهم الأخيرة، فيعاودون زيارة الأرض لينزلوا العذاب بالخائنين وينتقموا للمُضطهدين! وخُيِّل إليَّ أن روح مستر ريد - وقد أزعجتها المظالم التي هبطت على رأس ابنة شقيقته - قد تترك مثواها، سواء في قبو الكنيسة أو في عالم الراحلين المجهول، وتقف أمامي في هذه الحجرة. فقمعت دموعي، وكفكفت نشيجي، خشية أن يوقظ أي مظهر للحزن العاصف صوتًا قد ينساب من وراء الطبيعة ليسرِّي عني، وخوفًا من أن يبزغ من الظلام وجه منير يحنو عليَّ في إشفاق غريب! وشعرت بأن هذه الفكرة تغدو مخيفة، مروِّعة، إذا ما تحقَّقت، برغم ما كان فيها من عزاء وسلوى من الناحية النظرية! لذلك حاولت بكل قواي أن أخنقها وأن أخمدها، كما حاولت أن أكون ثابتة الجنان، قوية العزم، فدفعت شعري عن عينَيّ، ورفعت رأسي، ثم حاولت أن أتطلَّع بجرأة إلى ما حولي في أنحاء الغرفة المظلمة. وفي هذه اللحظة، برق ضوء على الجدار، فتساءلت: أهي أشِعّة من القمر تسلَّلت من فتحة في مصراع النافذة؟ كلا، إن ضياء القمر ساكن، وهذا ضوء يتحرَّك! وفيما كنت أحملق، تسلل الضوء إلى السقف، واهتز فوق رأسي. وبوسعي أن أحدس الآن أن ذلك الخيط من الضوء كان - في الغالب - نورًا صادرًا من مصباح يحمله شخص عبر الحديقة، ولكنني في ذلك الوقت، وأفكاري مهيأة للرعب والفزع وأعصابي تهتز بالانفعال والاضطراب، خلت أن الشعاع الخارق بسرعة، إنما كان نذير رؤيا قادمة من عالم آخر، فدقَّ قلبي بعنف، والتهب رأسي، وامتلأت أذناي بصوتٍ حسبته اندفاع أجنحة، وخُيِّل إليَّ أن شيئًا تجلَّى على مقربة مني، فضاق صدري، واختنقت أنفاسي، وخارت قواي، فبادرت إلى الباب ورحت أهز القفل في بأس واستماتة. وارتفع وقع أقدام في الممر الخارجي، ثم دار المفتاح في الباب لتدخل بيسي وآبوت، وقالت بيسي: «مس إير، هل أنتِ مريضة؟». وصاحت آبوت: «يا لها من ضوضاء مروِّعة! لقد هزَّت كل كياني !».

وارتفع صياحي: «أخرجيني! دعيني أذهب إلى غرفة الأطفال !».

فعادت بيسي تسألني: «لماذا؟ هل أصابكِ أذى؟ هل رأيتِ شيئًا؟ ».

فتشبَّثت بيد بيسي دون أن تحاول أن تنتزعها مني. ثم صحت: «أوَّاه! لقد شاهدتُ ضوءًا، وظننتُ شبحًا يوشك على الظهور !».

فقالت آبوت في شيء من الإشمئزاز: «لقد صرختِ متعمِّدة، ويا لها من صرخة! ولو أنها كانت تعاني ألمًا شديدًا لالتمسنا لها العذر، ولكنها أرادت فقط أن تأتي بنا جميعًا إلى هنا، إنني أعرف حِيَلَها الخبيثة !».

وانبعث صوت يسأل في حزم: «ما هذا كله؟». ثم ظهرت مسز ريد في الردهة، وقد أخذت حواف قُبَّعتها ترفرف حول رأسها ومنامتها تبعث حفيفًا شديدًا. واسترسلت قائلة: «لقد أصدرت لكما أوامري بأن تتركا جين إير في الغرفة الحمراء إلى أن أحضر إليها بنفسي!». فقالت بيسي ضارعة: «لقد صرخت صرخة مدوِّية يا سيدتي!». فكان الرد الوحيد: «اتركي يدها، أترُكي يد بيسي يا طفلة، وثِقِي من أنكِ لن توفَّقي إلى الخروج بهذه الوسائل. إنني أمقت الخداع وخاصة في الأطفال، ومن واجبي أن أُريكِ أن الحِيَل لا تُجدي، لسوف تمكثين هنا ساعةً أخرى، ولن أُطلِق سراحكِ بعدها، إلّا إذا أظهرتِ إذعانًا وصمتًا تامَّين !».

- «أوه يا خالتي، ترفَّقي بي! اغفري لي! لستُ أقوى على احتمال ذلك، دعيني أُعاقَب بطريقةٍ أخرى، فلسوف أموت إذا ...».

- «الزمي السكون! إن العنف أدعى لإثارة الإشمئزاز !».

ولا ريب أنها أحسَّت بالإشمئزاز، لأنني في نظرها كنتُ ممثلة نابغة بارعة بالنسبة لسنِّي، بل لقد كانت ترى فيَّ مزيجًا من الأهواء الوبيلة، والروح الوضيعة، والرياء الخطر !

وبعد أن انسحبت بيسي وآبوت، كان صبر مسز ريد قد عِيل، وضاق صدرها بآلامي الملتاعة، وزفراتي الهائجة، فدفعتني بفظاظة إلى الخلف، ثم أغلقت الباب عليَّ بالمُفتاح، دون أن تنبس بحرف. وما إن سمعتها تبتعد حتى انتابتني - على ما أعتقد - نوبة من النوبات، ثم أسدل الإغماء الستار على ذلك المشهد !

الفصل الثالث

أذكر بعد ذلك أنني أفقت وأنا أحس وكأنني في كابوس مخيف. وكنتُ أرى أمامي بريقًا أحمر رهيبًا، تقطعه قضبان كثيفة سوداء. وسمعتُ كلك أصواتًا جوفاء تتحدَّث وكأنما يخنقها اصطخاب رياح أو مياه. وبلبل حواسي الانفعال والشك، والشعور الجارف بالرعب والفزع. وقبل أن تنقضي فترة طويلة، انتبهت إلى أن أحدًا يهتم بي، فيرفعني ثم يجلسني برفق لم أعهده من قبل، فاعتمدت برأسي على وسادة أو ذراع ما، واستشعرت الراحة. وبعد خمس دقائق انقشعت سحب الحيرة، وعرفت جيدًا أنني في فراشي، وأن البريق الأحمر كان نيران المدفأة في غرفة الأطفال. وكان الوقت ليلًا: شمعة تشتعل على المنضدة، وبيسي واقفة عند مؤخر السرير وفي يدها حوض، وسيد يجلس على مقعد بالقرب من وسادتي وقد انحنى فوقي ..

وشعرت براحة لا تُوصف، وبإحساس لطيف بالحماية والأمان، عندها أدركت أن بالحجرة غريبًا، شخصًا لا يَمُتّ إلى القصر بصلة، ولا يتصل بمسز ريد بقرابة. وحوَّلت نظري عن بيسي - ولو أن وجودها كان عندي أقل إثارة للكراهية مما لو كانت آبوت هي الموجودة - ورحت أتفحَّص وجه ذلك السيد حتى عرفته. فإذا هو مستر لويد. الصيدلي الذي كان يُستدعى أحيانًا عندما يمرض الخدم. أما عندما تمرض هي أو أحد أطفالها، فقد كانت السيدة تلجأ إلى طبيب! وسألني: «والآن، من أنا؟ ».

فنطقتُ باسمه وأنا أمُدّ له يدي في الوقت نفسه، فتناولها وهو يبتسم ويقول: «سوف تتحسنين عمَّا قريب». ثم أرقدني وخاطب بيسي ليكلفها أن توليني من الرعاية الشديدة ما يحول دون إزعاجي في الليل. وبعد أن أصدر بعض تعليمات أخرى، وعد بأن يعود مرة ثانية في اليوم التالي، ثم غادرني مخلفًا في نفسي حسرة، إذ كنت أشعر بأنني أنعم بالحماية والصداقة ما دام هو جالسًا في المقعد بجانب وسادتي. فلمَّا أغلق الباب خلفه أظلمت الحجرة كلها، وعاد قلبي يغوص من جديد، لأن حزنًا لا يُوصف يثقله .

وسألتني بيسي بصوتٍ أرق مما اعتدت منها: «أتشعُرين برغبة في النوم يا آنسة؟». وكدتُ لا أجرؤ على الرد عليها، لأنني خفت أن تكون الجملة الثانية جافة، فغمغمتُ قائلة: «سأحاول !».

- «أترغبين في أن تشربي أو تأكلي شيئًا؟ ».

- «كلا... أشكرك يا بيسي ».

- «إذن، سأذهب إلى فراشي، فالساعة قد جاوزت الثانية عشرة، ولكن في وسعكِ أن تناديني إذا احتجت إلى شيء أثناء الليل ».

يا لها من دماثة عجيبة! وشجَّعني ذلك على أن ألقي إليها سؤالًا، فقلت:»بيسي، ماذا جرى لي؟ هل أنا مريضة؟ ».

- «أظنك قد مرضت في الحجرة الحمراء بسبب بكائك، ولكنك سوف تتحسنين الآن بلا ريب ».

ثم مضت بيسي إلى حجرة الخادم المشرفة على شؤون البيت. وكانت على مقربة، ولذلك سمعتها تقول: «تعالي يا سارة ونامي معي في حجرة الأطفال، فإنني لا أجرؤ على أن أنفرد الليلة مع تلك الطفلة التعسة، إذ قد تموت! من العجيب أن تصيبها تلك النوبة، ترى هل شاهدت شبحًا؟! لقد كانت سيدتنا غايةً في الفظاظة معها !».

وعادت سارة معها، فاندسّت الاثنتان في الفراش، حيث أخذتا تتهامسان لنصف ساعة، قبل أن تستغرقا في النوم، واستطعتُ أن ألتقط نتفًا من حديثهما، أمكنني أن أستدل منه، بصعوبة بالغة، على الموضوع الأصلي للمناقشة كقولهما :

- «مر بها شيء يرتدي بياضًا في بياض، ثم اختفى !».

- «كان خلفه كلب ضخم أسود ».

- «ثلاث طرقات عنيفة على باب الغرفة ».

- «ضوء في فناء الكنيسة فوق قبره مباشرة !».

وأخيرًا، نامت الاثنتان، وانطفأت النار والشمعة، أما من جهتي، فإن ساعات تلك الليلة الطويلة قد انقضت وأنا في يقظة مروِّعة، إذ توتَّرت مني الأذن والعين والعقل معًا، بخوف لا يمكن أن يشعر بمثله سوى الأطفال !

ولم يتبع حادث الحجرة الحمراء هذا أي مرض جسماني شديد أو طويل، ولكن الحادث أصاب أعصابي بصدمة ما زلت أشعر برد فعلها حتى اليوم. نعم يا مسز ريد، إنني مدينة لكِ ببعض الآلام العقلية المروِّعة التي تعتريني، ولكن

يجدر بي أن أصفح عنكِ، لأنك لم تكوني تدرين ما تفعلين: فبينما كنتِ تمزّقين نياط قلبي، كنتِ تظنين أنكِ إنما تستأصلين مني نزعاتي الشريرة !

وغادرت فراشي - حوالي ظهر اليوم التالي - فجلست متلفِّعة بشال، على مقربة من المدفأة في حجرة الأطفال، وكنت أشعر بضعف وهزال في بنياني، ولكن أسوأ ما كنت أعانيه تمثَّل في شقاء نفسيّ يفوق الوصف. شقاء ظل يستنزف مني الدموع في صمت، فكنت لا أكاد أمسح دمعة عن خدي، حتى تسقط أخرى. ومع ذلك فقد خلت أنه يجدر بي أن أكون سعيدة لأن أحدًا من آل ريد لم يكن موجودًا، إذ خرجوا جميعًا في عربة أمهم. وكذلك كانت آبوت تخيط في حجرة أخرى، بينما كانت بيسي - وهي تنتقل هنا وهناك لترتِّب اللعب أو تُنظِّم الأدراج - تخاطبني، ونحرص على أن ينطوي حديثها على كلمة رقيقة بين آن وآخر. وكانت تلك حال جديرة بأن تبدو لي بمثابة جنّة من النعيم والسلام، بعد أن اعتدت حياة التقريع الدائب، وحياة السخرة دون شكر أو ثناء، بيد أن أعصابي كانت إذ ذاك بلغت - في الواقع - حالًا لا تجدي في تهدئتها طمأنينة أو غبطة !

وكانت بيسي قد هبطت إلى المطبخ، فجاءتني بكعكة في طبق لامع من الخزف رُسم عليه عصفور من عصافير الجنة يُعشش في إكليل من النباتات الملتفة وأزرار الورد. ولقد طالما أثار هذا الرسم في نفسي شعورًا بالإعجاب، فكنت أتوسَّل كي يُسمح لي بأن أمسك بهذا الطبق في يدي لأتأمّله عن قرب، ولكني كنتُ في نظرهم غير أهل لمثل هذا الامتياز. أما الآن، فهاهو ذا الإناء الثمين قد وضع على ركبتي، وقد دُعيت بإلحاح إلى أن آكل هذه الحلقة الصغيرة من الحلوى التي كانت فيه. فيا له من فضل لا يجدي، إذ جاء متأخرًا، كمعظم الأفضال التي يطول حبسها برغم اشتداد اللهفة عليها! ولم أقوَ على أكل الكعكة، لأن ريش العصفور وألوان الزهور الزاهية ما لبثت أن تبدَّت لعينيَّ شاحبة بصورة عجيبة! لذلك وضعت كُلًا من الطبق والكعكة جانبًا، فسألتني بيسي عمّا إذا كنت أريد أن تأتيني بكتاب. وإذا بكلمة «كتاب» تفعل في نفسي فعل المنبِّه العابر، فتجعلني أتوسَّل إلى بيسي أن تُجيئني بكتاب «رحلات جليفر» من المكتبة. ولقد طالما تصفَّحت هذا الكتاب مراتٍ ومرات، لأنني كنت أعتبره قصة تقوم على حقائق، وكنت أكتشف فيه موردًا للمتعة أعمق مما في القصص الخرافية. حتى لقد رحت أبحث عبثًا عن الجنّيات - التي ورد ذكرها فيه - بين أوراق نبات كفّ الثعلب، وعشِّ الغراب، وفي أركان الجدران القديمة التي تكسوها النباتات الزاحفة المتسلِّقة. فلمَّا لم أجدها - في النهاية - اهتديت إلى الواقع الأليم كما بدا لي وهو أنها قد رحلت كلها عن إنجلترا إلى بلدٍ ما موحش، حيث الغابات أكثر اتساعًا وكثافة، وحيث السكان أقل عددًا، أما عن ليليبوت وبرويد يجناج - المملكتين اللتين وردتا في أقاصيص جليفر - فقد

اعتقدت أنهما قائمتان فعلًا على سطح الأرض، ولم يساورني شك في أنني سأحظى يومًا، خلال رحلة طويلة، بأن أرى مملكة تضم حقولًا ومنازل وأشجار صغيرة، وأناسًا وأبقارًا وأغنامًا وطيورًا ضئيلة الحجم. وبأن أشهد مملكة أخرى تحوي حقولًا في ارتفاع الغابات، وقططًا عملاقة، ورجالًا ونساءً ضخام كالأبراج. ومع ذلك وجدتُ الآن وقد وضع هذا الكتاب المعزز بين يدي ورحت أقلِّب صفحاته وأبحث في صوره الرائعة عن السحر الذي لم يفتني قط - حتى ذلك الوقت - أن أهتدي إليه. وجدتُ أن كل هذا لا يثير في نفسي سوى الفزع والاكتئاب: بدا العمالقة مجرد مجرّد غيلان هزيلة، والأقزام جنيات صغيرة حقودة، وجليفر جوَّالًا يهيم على وجهه في مناطق محفوفة بالهلاك. لذلك أغلقتُ الكتاب الذي لم أجرؤ على تصفّحه بعد ذلك، ثم وضعته على المنضدة بجانب الكعكة التي لم أذقها. وكانت بيسي قد فرغت لتوِّها من تنظيف الحجرة، ثم غسلت يديها، ففتحت درجًا صغيرًا مليئًا بقطع من الحرير والأطلس، وبدأت تصنع قبعةً صغيرةً لدمية جورجيانا وهي تغني في الوقت نفسه. وكان مطلع أغنيتها :

«في الأيام التي كنا فيها نحيا حياة الغجر.. منذ زمن بعيد ».

لكم سمعت هذه الأغنية من قبل فطربت لها، إذ كانت بيسي رخيمة الصوت، أو هكذا كان يُخيَّل لي. غير أنني - في هذه المرة - لمست في اللحن حزنًا لا يُوصف، برغم أن الصوت ظل رخيمًا! وكان العمل يشغلها أحيانًا، فتبطئ وهي تردِّد مقطع الأغنية، حتى لتبدو عبارة «منذ زمن بعيد»، أشبه بترنيمة جنائزية! على أنها ما لبثت أن انتقلت إلى قصة غنائية... وكان الغناء في هذه المرة محزنًا حقًا :

«تقرَّحت قدماي وكلّت ساقاي

والطريق طويل، والجبال موحشة

وسرعان ما يطبق الغسق مظلمًا كئيبًا

على طريق الطفل اليتيم المسكين !

لماذا يقصونني بعيدة هكذا، ووحيدة هكذا

إلى حيث تمتد المستنقعات وتتكدَّس الصخور الكالحة !

لقد تحجَّرت قلوب البشر، ولكن الملائكة الرحيمة، وحدها،

ترعى خطوات الطفل اليتيم المسكين !

ومع ذلك، فإن نسيم الليل يهبّ رقيقًا، على البعد

وقد تقشَّعت السحب والتمعت النجوم المشرقة

والله - برحمته - قد تجلَّت رعايته

فبث الطمأنينة والأمل في نفس الطفل اليتيم المسكين !

مهما تتعثَّر قدماي أثناء عبوري الجسر المحطَّم

أو يضلّني في البطاح ضياء زائف خَدّاع

فإن إلهي.. برعايته وبركته

سيضم إلى أحضانه الطفل اليتيم المسكين !

وكان إيماني يمدّني بالقوة .

لو أنني حرمت من المأوى والأقرباء، فالسماء مسكنٌ،

وفيها لن أعدم الراحة، لأن الله نصير الطفل اليتيم المسكين !

وقالت بيسي بعد أن فرغت من الغناء: «كفى يا مس جين، لا تبكي!». وما كان أشبه كلامها بمن تقول للنار «لا تشتعلي »!

ولكن أنَّى لها أن تتكهَّن بالعذاب الذي كان يفترسني؟

وأقبل مستر لويد في الضحى يعودني، فهتف وهو يلج غرفة الأطفال: «ماذا؟ أهي مستيقظة؟ كيف حالها أيتها المربية؟ ».

فأجابته بيسي بأنني تحسّنت جدًا .

- «إذن، يجب أن تبدو أكثر ابتهاجًا، تعالي هنا مس جين، إن اسمك جين، أليس كذلك !».

- «بلى يا سيدي، جين إيـر ».

- «حسنًا، لقد كنتِ تبكين يا مس جين إيـر، فهل لكِ أن تخبريني بالسبب؟ أتتألمين من شيء؟ ».

- «كلا يا سيدي !».

فتدخّلت بيسي قائلة: «أوه، أظنها تبكي لأنها لم تستطِع الخروج مع السيدة، في العربة ».

- «ليس لهذا السبب بكل تأكيد! إنها أكبر من مثل هذه التوافه !».

وكان هذا رأيي كذلك، ولمَّا كان الزعم الباطل قد جرح عزة نفسي، فقد أجَبْتُ على الفور: «إنني لم أبكِ في حياتي لمثل هذا الأمر، فأنا أكره الخروج في العربة، إنما أبكي لأنني تعِسة !».

فقالت بيسي: «أوه، ويْحكِ يا آنسة!». وهنا تبدَّت الحيرة على وجه الصيدلي. وكنت واقفة أمامه، وأخذ يتفرَّسني بعينين صغيرتين رماديتين، لم تكونا شديدتي التألُّق، ولكني أستطيع أن أدرك اليوم أن نظراتهما كانت تنمّ عن ذكاء. وكان وجهه صارم القسمات، غير أنه كان صبوحًا، ينمّ عن طيبة، وإذ تأمَّلني مليًا، قال: «ما الذي أسقمك بالأمس؟ ».

فأجابت بيسي مُتدخِّلةً في الحديث مرة أخرى: «لقد وقَعَتْ ».

- «وقعت! كيف؟ هل ترينها ارتدّت طفلة من جديد؟ ألا تستطيع فتاة في سنها أن تمشي جيدًا؟ إنها ولا بد في الثامنة أو التاسعة من عمرها !».

وشعرتُ بالألم - مرةً أخرى - لكرامتي الجريحة، فقلت أوضح له الأمر: «لقد أُوقعت!». وفيما كان مستر لويد يتناول بعض السعوط، أردفتُ قائلة: «ولكن هذا لم يكن سبب مرضي ».

وبينما كان يعيد علبة السعوط إلى جيبه، رن أحد الأجراس عاليًا لدعوة الخدم للغداء. وأدرك المقصود بذلك فقال: «هذا من أجلك أيتها المربية، وفي وسعكِ أن تنزلي، أما أنا فسألقي على مس جين درسًا، ريثما تعودين ».

وكانت بيسي تفضِّل البقاء، ولكنها اضطرت إلى الذهاب، لأن المواظبة على مواعيد الوجبات كانت تراعى بكل دقة في قصر جيتسهيد، واسترسل مستر لويد يقول بعد خروج بيسي: «إن وقوعك لم يكن السبب في مرضك، فما السبب إذن؟ ».

- «لقد حُبِستُ في حجرة فيها شبح، إلى ما بعد هبوط الظلام». فرأيت مستر لويد يبتسم ويعبس في آنٍ واحد. ثم قال :

- «شبح!؟ يا لكِ من طفلة! أتخافين الأشباح وأنت في هذه السن؟ ».

- «أخاف من شبح مستر ريد، فقد مات في تلك الغرفة، ثم وُضع فيها. ولا تستطيع بيسي وغيرها أن تذهب إلى تلك الغرفة في الليل! ولقد كان من القسوة أن أحبس وحدي بها، دون شمعة تبدِّد الظلمة، قسوة بالغة لن أنساها قط !».

- «هراء! وهل هذا يشقيك إلى هذا الحد؟ ثم، هل يساورك الخوف الآن، في وضح النهار؟ ».

- «كلا، ولكن الليل لن يلبث أن يأتي مرة أخرى بعد قليل! ثم إنني غير سعيدة، غير سعيدة مطلقًا، بسبب أمور أخرى !».

- «أي أمور أخرى؟ هل في وسعك أن تحدِّيثي عن بعضها؟ ».

وكم وددت أن أجيبه عن هذا السؤال بصراحة! ولكن، كم كان صعبًا أن أصوغ أي جواب! إن في وسع الأطفال أن يحسوا ويشعروا، ولكنهم يعجزون عن تحليل مشاعرهم، وحتى إذا تسنَّى لهم ذلك التحليل في أذهانهم إلى حد ما، فإنهم لا يعرفون كيف يعبِّرون عنه بالكلمات. وخشية أن تضيع فرصتي الأولى، والوحيدة، في التخفُّف من أحزاني بالإفصاح عنها، فقد قرَّرت - بعد فترة من القلق والحيرة - أن أصوغ جوابًا حقيقيًا، على إيجازه وهزاله، فقلتُ :

- «لسبب واحد، هو أنني بلا أب أو أم أو إخوة أو أخوات !».

- «إن لكِ خالة وأبناء خالة شفوقين ».

فتوقَّفت عن الكلام مرة أخرى، ثم قلت بحيرة وتخبّط: «ولكن جون أوسعني ضربًا حتى أُغمي عليّ، وخالتي حبستني في الغرفة الحمراء !».

ومرة ثانية، أخرج مستر لويد علبة السعوط ثم سألني: «ألا ترين قصر جيتسهيد مقامًا جميلًا؟ ألستِ شاكرة لإقامتك في مثل هذا المكان البديع؟ ».

- «إنه ليس منزلي يا سيدي، وتقول آبوت إنه ليس لي أدنى حق في الإقامة هنا إلاّ كخادمة !».

- «أوه! لا يمكن أن تكوني من البلاهة بحيث ترغبين في مغادرة مثل هذا المكان الفخم !».

- «إذا وجدتُ مكانًا آخر أستطيع الذهاب إليه، فإنني أتركه مغتبطة، مسرورة. ولكني لا أستطيع مغادرة جيتسهيد قبل أن أصبح امرأة !».

- «ربما، من يدري؟ ألكِ أقرباء غير مسز ريد؟ ».

- «لا أظن يا سيدي ».

- «أليس لكِ أقرباء لأبيكِ؟ ».

- «لستُ أدري! لقد سألت الخالة ريد ذات مرة، فقالت: «إن من المحتمل أن يكون لي بعض أقرباء فقراء وضيعين، من عائلة أبي، ولكنها لا تعرف عنهم شيئًا !».

- «إذا كان لكِ مثل هؤلاء الأقرباء، فهل ترغبين في الذهاب إليهم؟ ».

فأخذتُ أفكر، إن الفقر يبدو في نظر الكبار عابسًا كالحًا، وهو أكثر عبوسًا ومرارةً في نظر الأطفال، ولو أنهم لا يدركون الكثير عن الفقر وأهواله بالنسبة للطبقة العاملة الكادحة، ولا يرون لكلمة «الفقر» معنى، اللهم إلّا الملابس المهلهلة، والطعام القليل، والمدافئ الخالية من النيران، والطباع الفظّة، والرذائل الوضيعة. كما كان الفقر في نظري مرادفًا للضعة والهوان، ولذلك أجبتُ قائلة: «لا، لستُ أحب أن تكون لي صلة بأناس فقراء !».

- «حتى ولو كانوا شفوقين بكِ؟ ».

فهززت رأسي وأنا لا أدرك كيف يتأتَّى للفقراء من الناس أن يكونوا شفوقين! ثم كيف لي أن أتحدث مثل حديثهم، وأن أتخلّق بأخلاقهم، وأن أكون غير متعلمة مثلهم، فأشب كواحدة من النسوة الفقيرات اللاتي كنت أراهنَّ في بعض الأحيان وهن يرضعن أطفالهن، أو يغسلن الملابس عند أبواب الأكواخ في قرية جيتسهيد؟! كلا لم أكن من الشجاعة بحيث أشتري حريتي بالفقر !

- «ولكن هل أقرباؤك فقراء إلى هذا الحد؟ هل هم من الطبقة العاملة؟ ».

- «لستُ أدري، ولكن الخالة ريد تقول: إنه إذا كان لي أقرباء فلا بد أنهم من زمرة المتسوِّلين، وأنا لا أحب أن أتسوَّل !».

- «أتودِّين الذهاب إلى مدرسة؟ ».

فكرت مرة أخرى، كنتُ لا أكاد أعرف ما هي المدرسة، وإن كانت بيسي قد وصفتها أحيانًا كمكان تجلس فيه السيدات الصغيرات في مقاعد، ويرتدين أزياء خاصة، ويطلب منهن أن يكن غاية في الرقة والكياسة. ولقد كان جون ريد يمقت مدرسته، ويذم بها. وكانت بيسي تتحدث بما جمعته من أقوال فتيات الأسرة التي كانت تعمل عندها قبل أن تجيء إلى جيتسهيد. فكان في وصفها للنظام المدرسي ما ينم عن شيء من الشدة القاسية. ولكن ما أسهبت في ذكره من ألوان الثقافة التي تحصل عليها هؤلاء الفتيات، كان بدوره شيئًا جذَّابًا مشوِّقًا بالنسبة إليَّ، إذ كانت بيسي تتحدث في زهو عن الرسوم الجميلة التي تنقلها تلميذات المدارس للمناظر الطبيعية والأزهار، والأغاني التي ينشدنها، والمسرحيات التي يمثِّلنها، والمفارش التي يطرِّزنها، والكتب الفرنسية التي يستطعن قراءتها. ولذا كانت نفسي تهفو إلى أن أكون مثلهن! هذا إلى أن المدرسة سوف تكون بمثابة تغيير كامل بالنسبة لي، لما تنظمه من رحلة طويلة، وابتعاد تام عن جيتسهيد، ودخول في حياة جديدة! وكانت نهاية تأملاتي أن قلت بصوت مسموع :

-«الحق أنني أتمنى أن أذهب إلى المدرسة ».

فقال مستر لويد وهو ينهض واقفًا: «حسنًا.. حسنًا.. من يدري ما سوف يحدث؟». ثم أردف محدثًا نفسه: «ينبغي للطفلة أن تغير الهواء والمناظر، فإن أعصابها ليست في حالة طيبة !».

وإذ ذاك عادت بيسي، وفي اللحظة ذاتها، سُمع صوت العربة على الطريق المحصوصبة، فسألها مستر لويد :

-«أهذه سيدتكِ أيتها المربية؟ أحب أن أتحدث إليها قبل انصرافي !».

ودعته بيسي إلى غرفة الفطور، وسارت أمامه. وفي المقابلة التي تمت بينه وبين مسز ريد - كما أدركت من الحوادث التي جرت بعد ذلك - تجرَّأ الصيدلي على ما أظن، فأوصى بإلحاقي بإحدى المدارس. ولا شك أن مسز ريد رحَّبت بتلك التوصية، إذ حدث في الليلة التالية لملازمتي الفراش، أن جلست آبوت وبيسي في غرفة الأطفال تتناقشان في ذلك الموضوع، وهما منهمكتان في التطريز، وقد حسبتماني نائمة. فقالت آبوت: إن سيدتها كانت غاية في السعادة للتخلُّص من فتاة متعبة سيئة الخلق مثلي، تبدو دائمًا وكأنها تراقب كل إنسان، وتدبِّر له المكائد في مكر ودهاء! وأظنني سمعت آبوت تصفني

بأنني أشبه جاي فوكس في طفولته. وجاي فوكس شقي تُروى في سيرته الأساطير المخيفة !.

وعلمت للمرة الأولى، من أقوال آبوت - في تلك المناسبة-أن أبي كان قسِّيسًا فقيرًا، وأن أمي تزوَّجت منه على غير رغبة أهلها الذين لم يروا فيه ندًا لها، وأن جدي ريد ذهب في الهياج والسخط على عصيانها وتمردها إلى حد أنه حرمها من كل شلن في ثروته، وبعد انقضاء عام على زواج أمي وأبي، أصيب الأخير بحمى التيفوس أثناء زيارته للفقراء في إحدى المدن الصناعية في أبرشيته، حيث تفشَّى فيها ذلك الوباء. وما لبثت العدوى أن انتقلت إلى أمي. فمات الاثنان ولمَّا يمضي شهر واحد بين موت الأول وموت الثانية !

ولما سمعت بيسي تلك القصة، تنهَّدت وقالت :

- «ما أجدر المسكينة مس جين بالرثاء يا آبوت !».

فأجابتها آبوت: «نعم، لو أنها كانت طفلة ظريفة جميلة هادئة، لأشفق الإنسان على حرمانها ونبذها، ولكن المرء لا يسعه أن يُعنى بمثل هذه الضفدعة الصغيرة !».

فوافقتها بيسي قائلة: «إنها ليست على قدر كبير من الجمال حقًا! ولو أن فتاة في مثل جمال مس جورجيانا وُجدث في مثل ظروف مس جين، لكانت أحظى بالرثاء والعطف !».

فصاحت آبوت متحمِّسة :

- «إنني شغوفة بمس جورجيانا. يا للعزيزة الصغيرة، بجدائلها الطويلة وعينيها الزرقاوين، ولون بشرتها الجميل. كأنها صورة مرسومة! إنني يا بيسي أفكر في أرنب من أرانب ويلز للعشاء، فما رأيكِ؟ ».

- «أوافقك طبعاً، وسنشوي معه بعض البصل، هيا فلنذهب لندبِّر الأمر!». ثم مضت الاثنتان .

الفصل الرابع

من الحديث الذي دار بيني وبين مستر لويد، ومن العبارات التي سمعتها - أثناء مرضي - من بيسي وآبوت، تكوّن عندي من الأمل ما يكفي لأن يكون حافزًا لرغبتي في الشفاء. إذ بدا لي أن تغييرًا كان يوشك أن يطرأ عمَّا قريب، فتلهَّفتُ عليه، ورحت أنتظره بصمت وهدوء، بيد أنه أبطأ مع ذلك، وانقضت أيام وأسابيع استعدتُ فيها صحتي، من دون أن تبدر من أحد إشارة جديدة إلى الموضوع الذي كان يشغل بالي. وكانت مسز ريد ترمقني من حين إلى آخر بنظرة حادة، ولكنها ندر أن وجهت لي الحديث، لأنها منذ مرضي رسمت سياجًا يفرّق بيني وبين أطفالها أكثر من ذي قبل، وخصَّصت لي حجرة صغيرة أنام فيها بمفردي. كما حكمت عليَّ بأن أتناول طعامي وحدي، وأقضي كل يوم في غرفة الأطفال، بينما كان أبناء خالي في حجرة الاستقبال على الدوام. ورغم ذلك لم تَلُح في الجو بارقة تنبئ بإرسالي إلى المدرسة. على أنني كنت أشعر شعورًا جازمًا بأن مسز ريد لن تطيق طويلًا أن يظللني وإياها سقف واحد، لأن نظراتها إليَّ أصبحت تنمّ عن نفورٍ طاغٍ، تأصَّلت جذوره في نفسها أكثر من أي وقت مضى !

وكان من الواضح أن إليزا وجورجيانا تنفِّذان أوامر خاصة، إذ أصبحتا تقتصدان في الحديث معي ما استطاعتا، في حين كان جون يخرج لسانه كلما رآني. وقد حاول مرة أن يضربني، ولكنني واجهته على الفور وثارت ثائرتي، واندفعتُ بشعور الحنق العميق نفسه وبالتمرد نفسه اللذين أثاراني من قبل، فجرى من أمامي وهو يُردِّد السباب واللعنات، مقسِمًا أنني جدعت أنفه .

والواقع أنني هويتُ على هذا الجزء الناتئ من وجهه بضربة تجمع فيها كل ما كان في يدي من قوة. ولما رأيتُ أن هذه الضربة، أو ما ظهر في عينيّ من نظرة، قد أخافته، وجدت بي ميلًا شديدًا إلى المُضيّ في تأديبه، ولكنه كان قد وصل إلى أمه وسمعته يروي لها - بصوت ينشج بالبكاء - كيف انقضَّت عليه جين القذرة، انقضاض القطة المتوحشة! ومنعته أمه من الاسترسال قائلة: «لا تحدثني عنها يا جون، فقد حذَّرتك من أن تقترب منها لأنها لا تستحق أي عناية، ولا أرضى لك أو لأختيْك أن تكونوا رفاقًا لها !».

وعندئذٍ اتكأت على سياج الدرج، وصحت فجأة ودون أيّ تفكير في كلماتي: «بل هم الذين لا يستحقون أن يكونوا رفاقًا لي !».

وكانت مسز ريد قوية البنيان نوعًا ما، فلما سمعت مني ذلك التصريح العجيب، الوقح، جرت ترتقي الدرج، ثم دفعتني كالإعصار إلى غرفة الأطفال، حيث سحقت أحد ضلوعي، وأمرتني بصوت متوعِّد بألَّا أنهض من ذلك المكان، أو أنبس ببنت شفة، طوال بقية النهار .

ووجدتني أسألها، بشجاعة تقريبًا: «ترى ما الذي كان خالي يقوله لك، لو أنه كان على قيد الحياة؟». وأقول: «بشجاعة تقريبًا»، لأن لساني - على ما بدا - نطق بالكلمات دون ما موافقة مني على النطق بها، وكأن الذي تحدَّث شيء في أعماقي لم يكن لي عليه سلطان. وشهقت مسز ريد قائلة: «ماذا؟». وعكرت عينيها السمراوين، الباردتين، الرصينتين بطبعهما، نظرة خائفة، فرفعت يدها عن ذراعي، وحملقت فيَّ وكأنها لم تكن تدري فعلًا ما إذا كنت طفلة أو عفريتة! وكنت قد انسقت للموقف، فقلت :

- «إن خالي ريد في السماء، ويستطيع أن يرى كل ما تفعلين وتفكرين به. وكذلك أبي وأمي! إنهم يعرفون أنك تحبسينني طوال النهار، وأنك تتمنين موتي !».

لكنها سرعان ما استردَّت جأشها، فأخذت تهزني بشدة وتلوي كلتا أذني، ثم غادرتني دون أن تنطق بحرف واحد. وتولَّت بيسي تقديم المواعظ لمدة ساعة كاملة، وأثبتت لي بما لا يدع أدنى شك، أنني أشقى وأتعس طفلة نشأت تحت سقف من السقوف. ولم أصدِّق ما قالته، لأنني لم أكن أشعر بغير الإحساسات الشريرة التي كانت تعصف بين أضلعي !

وانقضى شهر نوفمبر، ثم ديسمبر، ونصف يناير. وكانوا قد احتفلوا بعيد رأس السنة - في القصر - بالابتهاج المعتاد، فتبودلت الهدايا، وأقيمت ولائم الغداء والعشاء. وكنتُ بطبيعة الحال مبعَدة من كل متعة. بل كان كل نصيبي في ذلك السرور أن أشاهد يوميًا إليزا وجورجيانا وهما بكامل زينتهما، تهبطان إلى حجرة الاستقبال في ثياب حريرية تزينها أحزمة قرمزية اللون، وقد بدا شعرهما مصفّفاً. كما كنت أسمع صوت الموسيقى تُعزف في الطابق الأسفل، ووقع أقدام الساقي والخدم، وصلصلة الأكواب والأواني الخزفية عند تناول المأكولات والمشروبات المرطبة، وهمهمة الأصوات عندما تفتح أبواب حجرة الجلوس لتغلق ثانية. حتى إذا تعبت من هذه المهمة - مهمة التسمع-عدت من رأس السلم إلى حجرة الأطفال المنعزلة الصامتة. وهناك، لم أكن أشعر - برغم كآبة المكان - بالتعاسة والشقاء، لأنني لم أكن في الحقيقة أحس أدنى رغبة في أن أنضم إلى تلك الجماعة، إذ قلما كان أحد يفطن إلى وجودي في مثل تلك اللقاءات. ولو أن بيسي كانت رقيقة، رفيقة، لوجدت لذة في أن

أقضي معها الأمسيات بهدوء، بدلًا من قضائها تحت عيني مسز ريد المخيفتين، وفي حجرة تزخر بالسيدات والسادة! ولكن بيسي كانت تبادر - بمجرد الفراغ من معاونة سيدتيها في ارتداء ملابسهما - فتهبط كعادتها إلى حيث النشاط والمرح في المطبخ وحجرة مدبرة شؤون المنزل. لذلك كنت أجلس ودميتي على ركبتي إلى أن تخفت نيران المدفأة، فآخذ أتلفَّت حولي من حين إلى آخر في الغرفة المليئة بالظلال! حتى إذا أصبح لون الجمرات أحمر معتمًا، خلعت ملابسي على عجل وأنا أشد على جسدي، ثم لذت بمهدي من البرد والظلام. وإلى هذا المهد كنت آخذ دميتي دائمًا، إذ على المخلوقات الآدمية أن تحب شيئًا ما! وكنت في أثناء افتقادي أتفه ما أودعه حبي، قد عوّدت نفسي على أن أجد متعة في حب تلك الدمية الباهتة اللون، القذرة قذارة خيال المآتة! وإني لأعجب الآن إذ أتذكر كيف كنت مشغوفة، كل ذلك الشغف السخيف الحار، بمثل هذه اللعبة الصغيرة، وكيف كنت أتوهمها حية وقادرة على الإحساس! وكنت لا أقوى على النوم ما لم أطوي عليها منامتي، حتى إذا رقدت هكذا سالمة دافئة، شعرت بالسعادة، اعتقادًا مني بأنها سعيدة بدورها !

وكانت الساعات تبدو طويلة، وأنا أترقَّب رحيل المدعوين، وأصغي إلى وقع أقدام بيسي على الدرج، إذ كانت تصعد في بعض الأحيان لتبحث عن «كشتبانها» أو مقصها، أو ربما لتأتيني بشيء لعشائي - كقطعة من الفطائر أو قرص من الجبن - ثم تجلس على الفراش إلى أن آكل، فإذا انتهيتُ من ذلك، لفَّتني في غطائي، وقبَّلتني مرتين قائلة: «طابت ليلتك يا مس جين!». وكانت بيسي تبدو لي أجمل وأرحم مخلوقة في العالم، حين تكون رقيقة بهذا الشكل، فكنت أتوق إلى أن تظل هكذا دائمًا: غاية في الظرف والإيناس، فلا تنهرني أو تعنِّفني أو تكلِّفني بواجب شاق لا يتصوره عقل، كما كانت تفعل في أحيان كثيرة. لكني كنت أرى أن بيسي كانت بلا شك - فتاة على جانب موفور من القدرة العقلية، لأنها كانت تتقن كل ما تعمله، وتمتلك مهارة ملحوظة في رواية القصص. أو هكذا حكمتُ عليها من تأثري بالقصص التي كانت تحكيها في غرفة الأطفال! وكانت كذلك جميلة إذا صح ما أذكره عن وجهها وشخصها، لأنني أتذكرها شابة ذات ملامح جميلة، وبشرة صافية لطيفة، ناحلة الخصر، سوداء الشعر والعينين. ولكنها كانت سريعة الانفعال، لا تكترث لمبدأ أو عدالة، وبرغم ذلك، فإنني كنت أفضِّلها على كل من عداها في قصر جيتسهيد !

حوالي الساعة التاسعة من الصباح الخامس عشر من فبراير، نزلت بيسي إلى الطابق الأرضي لتناول الإفطار، ولم تكن ابنتا خالي قد استدعيتا بعد للقاء أمهما، فمضت إليزا ترتدي قبعتها الصغيرة ومعطفها الثقيل، استعدادًا للذهاب إلى الحديقة لإطعام دجاجها. وهو عمل كان حبيبًا إلى نفسها. فكانت تحبه أيضًا لأنها يبيع البيض لمدبِّرة المنزل، وتوفّر ما تحصل عليه من نقود من وراء ذلك !

فقد كانت تميل للتجارة، وعندها نزعة ملحوظة للادخار، لا تظهر في بيع البيض والفراريج فحسب، وإنما كذلك في عقد المساومات القاسية مع البستاني بشأن جذور الأزهار والبذور والشتلات، إذ كانت لدى هذا العامل أوامر من مسز ريد بأن يشتري من سيدته الصغيرة كل ما ترغب في بيعه من منتجات حديقتها. بل إن إليزا لم تكن لتتردَّد في بيع شعر رأسها إذا وجدت في ذلك ربحًا طيبًا! أما نقودها، فقد كانت تخفيها في أول الأمر في أركان غير مطروقة في المنزل، بعد أن تلفها في خرقة أو في ورقة قديمة. غير أن الخادم ما لبثت أن اكتشفت بعض هذه المخابئ، فخشيت إليزا أن تفقد ذات يوم كنزها الغالي. ولم يكن أمامها سوى القبول بأن تعهد به إلى والدتها، وفرضت عليه «ربحًا» فاحشًا بلغ حوالي الخمسين أو الستين في المائة، كانت تتقاضاه كل ثلاثة أشهر، وتقيّد حساباتها في دفتر صغير بكل دقة بالغة !

أما جورجيانا فكانت في ذلك الصباح تجلس على مقعد عال، تصفِّف شعرها أمام المرآة، وتزيِّن خصلاتها بزهور صناعية وبعض ريش الطيور. وأمَّا أنا فكنت أسوِّي فراشي امتثالًا لأوامر بيسي المشدَّدة بأن أرتبه قبل عودتها. فقد أصبحت تستخدمني كثيرًا كمساعدة للخادم في حجرة الأطفال، لتنظيف الغرفة وإزالة الغبار عن مقاعدها... إلـخ. ولما فرغتُ من فرش اللحاف، وطويتُ منامتي، مضيت إلى قاعدة النافذة لأرتِّب ما تناثر عليها من كتب مصوَّرة وأثاث منزل الدمية. ولكن جورجيانا فاجأتني آمرة بأن أترك أدوات لعبها، إذ كانت تملك كل المقاعد والمرايا والصحاف والأكواب الصغيرة، فتوقَّفت عن مهمتي. ولكي أشغل نفسي بعمل آخر، حركت زهور الشتاء التي كانت تزيِّن النافذة، لأفسح فراغًا أمام زجاج النافذة أرى من خلاله الأراضي الخارجية، حيث كان كل شيء هادئًا، جامدًا، بفعل الصقيع القاسي .

وكانت هذه النافذة تطل على مسكن البواب وطريق العربات. وما إن أذبت الكثير من القناع الفضِّي اللون - الذي كان يغطي ألواح الزجاج - لكي أطل على المدخل الخارجي، حتى شاهدت البوابة تُفتح على مصراعيها، ورأيت عربة تدخل في طريق العربات. وأخذت أراقبها من غير اكتراث، إذ إن كثيرًا من العربات كانت تفد إلى القصر من دون أن تأتي واحدة منها بزوار يهمونني في شيء! ووقفت العربة أمام مدخل البيت، ثم دوَّى جرس الباب عاليًا، وأُدخل الزائر. وإذا لم يكن في كل ذلك ما يعنيني مطلقًا، فإن انتباهي سرعان ما وجد حركة شغَلته، وتمثَّلت في هزار صغير جائع، قدم يشقشق فوق غصون شجرة للكرز غير مورقة، على مقربة من الإفريز. وكانت بقايا إفطاري من الخبز واللبن ما زالت على المائدة، ففتتت جزءًا من رغيف الخبز. وفيما كنت أحاول فتح النافذة لأضع الفتات على إفريزها الخارجي، صعدت بيسي مسرعة

إلى غرفة الأطفال وقالت لي: «اخلعي مريلتك يا مس جين، ماذا تعملين هناك؟ هل غسلتِ يديكِ ووجهكِ في هذا الصباح؟ ».

فتحت النافذة قبل أن أجيب، لأنني كنت راغبة في أن أقدّم للطائر خبزه أولًا. ونثرت الفتات على إفريزها، كما وضعت بعضه على أحد غصون شجرة الكرز، ثم أغلقت النافذة. وبعده أجبتُ :

- «كلا يا بيسي، إنما فرغت لتوِّي من التنفيض ».

- «يا لك من فتاة مهملة! وماذا تعملين الآن؟ إن وجهك يتضرج بالدماء، كما لو كنت ترتكبين حماقة! لماذا كنتِ تفتحين النافذة؟ ».

ولكنها وفّرت عليَّ عناء الرد، إذ كانت في عجلة شديدة من أمرها، مما منعها من الإصغاء إلى أي شرح. وجذبتني إلى حوض الاغتسال حيث انهمكت في تدليك وجهي ويديَّ تدليكًا قاسيًا بالماء والصابون وفوطة خشنة. ولكن هذا التدليك كان قصير الأمد لحسن الحظ. وصفَّفت بيسي شعري بفرشاة خشنة، وخلعت عني مريلتي، ثم أسرعت بي إلى قمة الدرج، فأمرتني أن أهبط مباشرة إلى حيث كانوا يريدونني في غرفة الإفطار. وددت أن أسألها عمّن يريدني، وعمَّا إذا كانت مسز ريد هنالك. ولكن بيسي كانت قد ذهبت وأغلقت باب حجرة الأطفال، فتوقفت مخلوعة القلب، أرتعد. لشد ما كنت إذ ذاك طفلة بائسة جبانة، بتأثير الخوف المنبعث من العقوبات الظالمة الجائرة! خفت أن أعود إلى حجرة الأطفال، كما خفت أن أتقدم إلى حجرة الاستقبال، وظللت عشر دقائق واقفة في تردُّد وانفعال، حتى حزم رأيي رنين جرس دوَّى في غرفة الإفطار في قوة وعنف يهيب بي أن أدخل. وتساءلت وأنا أدير بكلتا يدي مقبض الباب الجامد، الذي قاوم جهودي لحظة أو اثنتين :

- «من الذي يريدني؟ ومن في الحجرة غير الخالة ريد؟ رجلًا أو امرأة؟ ».

ودار مقبض الباب فانفتح. ودخلت، ثم انحنيت بأدب، ورفعت نظري إلى عمود أسود! أو هكذا على الأقل بدا لي لأول وهلة ذلك الشبح القاتم الناحل، في ردائه الأسود، وقد وقف منتصب القامة على البساط! وكان يعلو هامته وجه متجهِّم يشبه قناعًا منحوتًا، منصوبًا على أحد الأعمدة كأنه تاج! وكانت مسز ريد تشغل مقعدها المعتاد بجانب المدفأة، فأشارت لي أن أقترب. وإذ فعلت قدَّمتني إلى الغريب الشبيه بالتمثال، قائلة :

- «هذه هي البنت الصغيرة التي كتبت إليك بشأنها ».

وحوَّل الرجل - إذ كان رجلًا! - رأسه ببطء نحو المكان الذي وقفت فيه. وبعد أن تفحّصني بعينين سوداوين، فضوليتين، تلتمعان تحت حاجبين كثّين، قال بصوت رزين خافت :

- «إن حجمها ضئيل، فما عمرها؟». فقالت: «عشر سنوات».فأجاب في شك وهو يتفحصني بضع دقائق: «هذا كثير جدًا!». ثم لم يلبث أن خاطبني قائلًا: «ما اسمك أيتها البنت الصغيرة؟ ».

- «جين إير يا سيدي». ورفعت نظري إليه وأنا أجيبه، فبدا لي سيدًا فارهًا، إذ كنت وقتذاك صغيرة جدًا. وكانت ملامحه ضخمة، تنم - ككل هيئته على السواء - عن فظاظة ووقار متكلف. وعاد يقول: «حسنًا يا جين إير. وهل أنتِ طفلة طيبة؟ ».

وكان من المستحيل أن أرد على ذلك بالإيجاب، لأن عالمي الصغير كان يرى فيَّ رأيًا مخالفًا، فأخلدت إلى الصمت، وتولَّت عني مسز ريد الرد بهزة معبِّرة من رأسها، ثم استرسلت على الفور قائلة :

- «ربما يحسن عدم الكلام في هذا الموضوع يا مستر بروكلهرست !».

فقال: «يؤسفني حقًا أن أسمع ذلك، إذ لا بد لها ولي من أن نتحدَّث معًا قليلًا». وتنحَّى عن وقفته المنتصبة، ثم جلس على المقعد ذي المسندين المقابل لمسز ريد، وقال: «تعالي هنا !».

وتقدمتُ عبر السجادة، فأوقفني وجهًا لوجه أمامه. ويا للوجه الذي أوتيه! لقد كان إذ ذاك في مستوى نظري. فيا لأنفه الضخم، ويا لفمه! ويا لأسنانه الكبيرة البارزة! نظر إليَّ وقال: «لا شيء أدعى للحزن من منظر طفل شقيّ. خاصة إذا كان بنتًا صغيرةً شقيةً! أتعرفين أين يذهب الأشقياء بعد الموت؟ ».

فكان جوابي السريع، الصحيح: «إنهم يذهبون إلى الجحيم !».

- «وما الجحيم؟ هل في وسعك إخباري؟ ».

- «حفرة مليئة بالنار !».

- «وهل تحبين السقوط في تلك الحفرة والاحتراق هنالك إلى الأبد؟ !».

- «كلا يا سيدي !».

- «وماذا يجب أن تفعلي لتتقي ذلك؟ ».

ففكرت لحظة. وعندما أسعفني الرد، لم يكن مقبولًا، إذ قلت :

- «يجب أن أحافظ على صحتي حتى لا أموت !».

- «وكيف تحافظين على صحتكِ؟ إن أطفالًا يصغرونك في السن يموتون في كل يوم، ولقد دفنتُ أنا طفلًا في الخامسة من عمره منذ يومين. طفلًا صغيرًا لطيفًا، صعدت روحه إلى السماء، وأخشى ألا نستطيع قول ذلك عنكِ إذا أنتِ مت !».

ولم أكن في حالة تمكنني من تبديد شكه هذا، فاكتفيت بأن أرخيت نظري نحو قدميه الضخمتين المزروعتين في السجادة، ثم تنهَّدتُ متلهفة على أن أكون بعيدة عن هذا المكان. فقال: «أرجو أن تكون هذه الزفرة من القلب وأن تكوني قد ندمتِ على أن كنتِ السبب في مضايقة وليَّة نعمتكِ العظيمة !».

قلتُ في نفسي: «ولية نعمتي! ولية نعمتي! إنهم جميعًا يدعون مسز ريد ولية نعمتي. وإذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن ولية النعمة شيء بغيض !».

واسترسل مستجوبي يقول: «أتصلِّين في المساء والصباح؟ ».

- «نعم يا سيدي !».

- «وهل تقرئين الإنجيل؟ ».

- «أحيانًا !».

- «أتقرئينه بغبطة وسرور؟ هل أنت مشغوفة به؟ ».

- «إنني أحب سِفر الرؤيا، ودانيال، وسِفر التكوين، وصمويل، وقسطًا بسيطًا من سِفر الخروج، وبعض أجزاء من سِفر الملوك، وأخبار الأيام، وقصتَي أيوب ويونان !».

- «والمزامير؟ أرجو أن تحبيها كذلك !».

- «كلا يا سيدي ».

- «كلا؟ أوه، أمر مؤلم! إن لي ولدًا صغيرًا - أصغر منك - يحفظ ستة مزامير عن ظهر قلب، وإذا سألته هل يفضِّل أن يأكل قطعة من كعك الزنجبيل بالبندق، أو أن يحفظ بيتًا من المزامير، لقال: «بل بيتًا من المزامير، لأن الملائكة تترنَّم وتسبِّح بها! وأنا أتمنى أن أكون أحد الملائكة الصغار هنا على الأرض». وعندئذ يظفر بكعكتين مكافأة له على تقواه في صغره !».

قلت: «إن المزامير ليست مشوِّقة !».

- «هذا يؤكِّد أن لكِ قلبًا شريرًا، وأنكِ يجب أن تدعي الله أن يغيِّر لكِ قلبكِ هذا، ويمنحكِ قلبًا جديدًا نظيفًا. أي أن ينتزع منكِ قلبًا من حجر، ويمنحكِ قلبًا من لحم !».

وهممت بأن أطرح سؤالًا عن كيفية إجراء عملية تغيير قلبي، لولا أن تدخَّلت مسز ريد في الحديث، فسألتني أن أجلس، ثم تولَّت زمام الحديث بنفسها قائلة: «أظنني يا مستر بروكلهرست قد أشرت في خطابي إليك - منذ ثلاثة أسابيع - إلى أن هذه البنت الصغيرة ليست كما أود من حيث الخُلُق والميول، فإذا أنتَ قبلتها في مدرسة لوود، فإنه ليسرني أن تطلب إلى المشرفة والمعلمات أن يُشدِّدن الرقابة عليها، وأن يدرأن عنها - قبل كل شيء - أسوأ عيوبها، وهو الميل إلى الغش والخداع! وأنا أقول ذلك على مسمع منك يا جين، حتى لا تحاولي غش مستر بروكلهرست !».

لا عجب إذن في أن أخشى وأن أكره مسز ريد! فقد جبلت بطبيعتها على أن تجرحني بقسوة، بل إنني لم أذق السعادة قط في حضرتها! وقد كنت أحرص على طاعتها، وأحاول جهدي أن أرضيها، ومع ذلك كانت جهودي تُمنى بالفشل، ولا ألقَى عنها جزاء سوى أمثال العبارات السالفة الذكر! والآن، وقد فاهت بذلك أمام رجل غريب فقد مزَّق الاتهام نياط قلبي، وأوحى إليَّ بأنها كانت تمحو الأمل المرجو من المرحلة الجديدة في حياتي. المرحلة التي قضت عليَّ هي بأن أنتقل إليها! وشعرت - وإن لم أقوَ على الإفصاح عن مشاعري - بأنها تبذر في طريق مستقبلي بذور الكراهية والقسوة. ثم رأيت نفسي وقد انقلبت في نظر مستر بروكلهرست إلى طفلة مخادعة، مؤذية، فماذا كان في وسعي أن أعمله لعلاج هذا الإفساد، ودفع هذا الأذى؟ لا شيء! وجاهدت لكي أكظم شهقة باكية، ثم كفكفت في الحال بعض العبرات التي كانت أدلة قوية قاطعة على آلامي !

وقال مستر بروكلهرست: «إن المكر - في الحقيقة - عيب محزن في الطفل، وهو والزور والبهتان سواء! وسيلقى كل الكذَّابين عقابهم في البحيرة التي

تتقد بالنار والكبريت! وعلى أي حال، سوف تُحكِم عليها الرقابة يا مسز ريد، وسأتحدث في ذلك مع مس تميل والمعلِّمات !».

وعادت ولية نعمتي تقول: «أود أن تنشأ تنشئةً تتفق مع رغيتي بأن تغدو نافعة، تحافظ على التواضع. أما عن الأجازات فسوف تقضيها - إذا سمحتم-في المدرسة على الدوام !».

فأجابها مستر بروكلهرست: «إن قراراتك غاية في الحكمة يا سيدتي، فالتواضع من نعم المسيح وشمائله. وهو من أليق الفضائل وأنسبها لتلميذات لوود. ولذلك أنا آمر بتوجيه عناية خاصة إلى غرس هذه الفضيلة في التلميذات. ولقد درست خير الوسائل التي تقتل فيهن غرور الحياة، وروح الكبرياء. ولا تتصوّري مدى نجاحي في ذلك. إذ ذهبت ابنتي الثانية أوجستا مع والدتها لزيارة المدرسة، وعند عودتها هتفت قائلة: «أوَّاه يا أبي العزيز، كم تبدو جميع الفتيات في لوود هادئات بسيطات، بشعرهن الممشَّط خلف آذانهن، ومراويلهن الطويلة، وتلك الأكياس الصغيرة الهولندية فوق صدورهن! إنهن أشبه ببنات الفقراء، فقد أخذن يتطلعن إلى ثوبي وثوب والدتي، وكأنهن لم يشاهدن في حياتهن رداءً حريريًا من قبل !».

فقالت مسز ريد: «هذه هي الأمور التي تروق لي تمامًا. ولو أنني نقَّبت في جميع أنحاء إنكلترا، لما وجدت نظامًا خيرًا من هذا مواءمة لطفلة مثل جين إير! الشدة يا مستر بروكلهرست العزيز. إنني أوصي بالشدة في كل شيء !».

- «إن الشدة يا سيدتي أول واجبات الرجل المتديِّن، وهي تُراعى في كل نظام أو إجراء يتعلَّق بمدرسة لوود، فالمصروفات معتدلة، والأزياء بسيطة، ووسائل الراحة عادية في غير مبالغة، والطباع تتسم بالصلابة والنشاط. هذا هو النظام اليومي في المدرسة وبين ساكناتها !».

- «حسن جدًا يا سيدي. في وسعي إذن أن أطمئن إلى قبول هذه الطفلة تلميذة في لوود، وأنها سوف تتعلَّم ما يتَّسق مع مركزها وما يُرجى لها !».

- «لكِ ذلك يا سيدتي، فسوف ندخلها في فصل الحضانة الخاص بالمختارات من الصغيرات. وهذه ميزة لا تُقدَّر، وأرجو أن تقابلها الطفلة بالشكر والامتنان !».

- «إذن سأرسلها لك بأسرع ما أستطيع يا مستر بروكلهرست، إذ أؤكد لك أنني أتلهَّف على التخلُّص من تبعة أصبحت شاقة متعبة !».

- «بلا شك يا سيدتي، بلا شك. والآن طاب صباحكِ. سوف أعود إلى قصر بروكلهرست في مدى أسبوع أو اثنين، لأن صديقي الطيب الآرشيدوق لن يدعني أتركه قبل ذلك. وسأرسل إلى مس تميل أبلغها نبأ قدوم فتاة جديدة ليتسنَّى استقبالها، أستودعكِ الله !».

- «رافقتك السلامة يا مستر بروكلهرست، وبلّغ تحياتي إلى مسز ومس بروكلهرست، وإلى أوجسنا وتيودور والسيد بروتون بروكلهرست ».

- «شكرًا سيدتي، وأنتِ أيتها الطفلة الصغيرة، ها هو ذا كتاب عنوانه (مرشد الطفل)، فاقرئيه مع صلواتك، لا سيما الجزء الخاص بالوفاة المباغتة، الأليمة، التي كانت من نصيب مارتاجيا. وهي طفلة شقية انغمست في البهتان والخداع !».

ووضع في يدي كراسة نحيفة مخاطة في غلاف، ثم دقَّ الجرس لاستدعاء عربته، ورحل ليتركني ومسز ريد على انفراد .

وانقضت بضع دقائق في صمت وسكون: هي تعمل بإبرتها، وأنا أراقبها صامتة. ولعلها كانت في ذلك الوقت قد بلغت السادسة أو السابعة والثلاثين من عمرها. وكانت امرأة قوية البنية، متينة الأطراف، غير فارعة الطول، ممتلئة في غير بدانة. وكان لها وجه ضخم، أما فكها الأسفل فكان شديد البروز والصلابة، في حين كان جبينها عريضًا، وذقنها كبيرة وبارزة، كما كان لها فم وأنف عاديان. وتحت حاجبيها الخفيفين، كانت تأتلِق عينان في غير رأفة أو حنان. وكان جلدها قاتمًا معتمًا، وشعرها كتَّانيًا، وجسمها قوي، إذ إن المرض لم يكن يقترب منها على الإطلاق! وكانت في تدبير المنزل دقيقة ماهرة، تسيطر على شؤونه وعلى مستأجري المزرعة سيطرة تامة، وإن كان أطفالها - وحدهم - هم الذين كانوا يتحدُّونها أحيانًا ويسخرون من هذه السيطرة! كما كانت تهتم بملابسها، ولها من سيماها وقوامها ما يتيح لها المنظر الأنيق !

أما أنا فكنتُ جالسة على مقعد خفيض، على مسافة بضع ياردات من مقعدها الكبير، أتأمَّلُ قوامها، وأتصفَّحُ قسمات وجهها، بينما أمسكتُ في يدي الكراسة التي تحوي قصة موت «الكاذبة» المفاجئ، وهي القصة التي وجَّه نظري إليها كإنذار قبل فوات الأوان. وكان كل ما مرَّ بي منذ قليل، وما قالته مسز ريد عني لمستر بروكلهرست - بل كل ما حواه حديثهما-ما يزال طازجًا يخزُّ ذهني! أجل، شعرتُ بأن كل كلمة كانت ما تزال لاذعة، حادة، كما سمعتها من قبل.
وجاشت في أعماقي ثورة امتعاض .

ورفعت مسز ريد عينيها فاستقرَّتا على عيني، بينما توقفت حركة أصابعها. وقالت: «غادري الغرفة، وعودي إلى حجرة الأطفال !».

ولا شك في أن نظراتي أو شيئًا آخر فيَّ قد ضايقها، لأنها تكلَّمت في انفعال بالغ وإن حاولت كظمه. فنهضتُ وتوجهتُ إلى الباب. ولكني عدتُ مرة أخرى، واجتزتُ الغرفة إلى النافذة، ثم اقتربتُ منها. كان لا بد من أن أتكلم، فقد داستني بشدة ويجب أن أرد لها الكيل، ولكن كيف؟ أي حول لي حتى أثأر من غريمتي؟! لكني استجمعت قواي في هذه الجملة الكليلة :

«أنا لستُ مخادعة، وإلاّ لقلتُ لكِ إني أحبكِ، ولكني أصرِّح بأنني لا أحبكِ، وأنني أكرهكِ، أكثر مما أكره أي إنسان في العالم عدا جون ريد. وهذا الكتاب عن «الكاذبة» يحسن أن تعطيه لفتاتك جورجيانا، لأنها هي - ولستُ أنا - التي تروي الأكاذيب !».

وظلَّت يدا مسز ريد ساكنتين وقد توقفتا عن التطريز، كما ظلَّت عيناها كالثلج، تنظران إلى عينيَّ في برود. ثم سألتني بلهجة من يخاطب خصمًا في سنه، لا باللهجة التي يخاطب بها الطفل عادة: «وماذا تبقَّى لديكِ من أقوال؟». وأثارت نظرتها وصوتها كل كراهية لها في نفسي، فاسترسلتُ أقول وأنا أهتز من مفرقي إلى أخمص قدمي، وقد استولى عليَّ هياج لا أقوى على كبح جماحه :

- «يسعدني ألاّ رابطة من القرابة بيني وبينكِ، ولن أدعوكِ خالتي مرة أخرى ما حييتُ، ولن أجيء لزيارتك عندما أكبر. وإذا سألني سائل كيف كنت أشعر نحوكِ، وكيف كنتِ تعاملينني، فسأخبره بأن مجرد التفكير فيكِ يسقمني، وأنكِ عاملتني بقسوة دنيئة !».

- «وكيف تجرؤين على تأكيد ذلك يا جين اير؟ !».

- «كيف أجرؤ يا مسز ريد؟ كيف أجرؤ؟ لأنه الحق! إنك تحسبينني بلا مشاعر أو إحساس، وتحسبين أنني أقوى على العيش من دون بصيص من الحب والحنان، ولكنني لا أستطيع الحياة هكذا، وأنتِ لا شفقة ولا رحمة في قلبك. وسأظل أذكر - ما حييتُ - كيف دفعتني بفظاظة وعنف إلى الحجرة الحمراء، ثم أغلقتِ الباب بالمفتاح، على الرغم من أنني كنت أتألم، وعلى الرغم من أنني كنت أصرخ وأختنق بالضيق والأسى: «ارحميني! ارحميني يا خالتي ريد!». وقد جعلتني أقاسي ذلك العذاب مع أن ولدك الشرير هو مَن ضربني لغير ما سبب! وسوف أخبر كل إنسان يسألني بهذه القصة نفسها، لأن الناس يحسبونك امرأة طيبة، ولكنك شريرة جامدة القلب. إنك مخادعة غشَّاشة !!».

وقبل أن أفرغ من هذا الرد، كانت روحي قد بدأت ترفرف منتشية بأغرب شعور خامرني بالحرية والنصر، وكأنما تحطَّم قيد غير مرئي، فانطلقت نحو حرية لم أكن قوية الأمل فيها! وما كان هذا الإحساس دون ما سبب، فقد تجلَّى الذعر على مسز ريد، وسقط شغل الإبرة من فوق ركبتيها، ورفعت يديها ثم راحت تنتفض، وهي تترنح يمنة ويسرة. بل إن أسارير وجهها أخذت تتلوَّى، وكأنها توشك على البكاء وهي تقول: «إنك يا جين مخطئة، ماذا بكِ؟ لماذا ترتعدين هكذا بشدة؟ هل لك أن تشربي بعض الماء؟ ».

- «كلا يا مسز ريد ».

- «أتريدين شيئًا آخر؟ ثقي من أنني أرغب في أن أكون صديقة لكِ !».

- «إنكِ لا تريدين شيئًا من هذا. لقد أخبرتِ مستر بروكلهرست بأن سلوكي سيئ، وأنني مخادعة بطبعي، وسوف أخبر كل من في لوود بحقيقتك، وبما فعلتِه !».

- «أنتِ يا جين لا تدركين هذه الأشياء، يجب أن يصلح كل عيب في الأطفال !».

فصرخت بصوت وحشيّ مرتفع: «ليس الخداع من شيَمي !».

- «ولكنكِ سريعة الانفعال يا جين، يجب أن تعترفي بذلك. والآن هيا ارجعي إلى غرفة الأطفال فارقدي قليلًا يا عزيزتي !».

- «لستُ عزيزتكِ، ولستُ أقوى على الرقاد، ابعثي بي إلى المدرسة فورًا يا مسز ريد، لأنني أكره العيش هنا !».

فغمغمت هامسة: «حقًا يجب أن أُعجِّل بإرسالها إلى المدرسة». ثم جمعت شغل الإبرة، وغادرت الغرفة فجأة .

وبقيتُ وحدي، وقد ربحت المعركة! كانت أعنف معركة خضتها، وهذا أول نصر ظفرت به. فوقفت لحظة على السجادة - حيث كان مستر بروكلهرست واقفًا من قبل - لأنعم بخلوة المنتصر. وابتسمت لنفسي، وشعرت بالزهو والفرح في أول الأمر، ولكن هذا السرور الوحشي ما لبث أن تبدَّد، كما خفتت دقات قلبي المتسارعة. فالطفل لا يستطيع أن ينازل من يكبرونه سنًا - كما فعلتُ - ولا يستطيع أن يترك الزمام لمشاعره الصاخبة، كما تركتُ زمام مشاعري، دون أن يشعر فيما بعد بوخز الندم، ورعشة رد الفعل! ولقد كانت نفسي - عندما اتهمتُ مسز ريد وتوعَّدتها - أشبه ببركان يفيض وهجًا وحيوية، وتدميرًا، ثم ما

لبثتُ، بعد قليل، أن غدتُ أشبه بهذا البركان ذاته، وقد أصبح أسود هامدًا، بعد أن خمدت نيرانه ولهبه. إن انقضاء نصف ساعة في سكون وتفكير، أظهرني على جنون مسلكي، وعلى بشاعة موقفي الزريّ البغيض !

لقد ذقت شيئًا من الانتقام لأول مرة، فبدا لي عند تجرّعه أشبه بخمرة معطَّرة، منعشة، منشِّطة. ثم بدأت أحس أنني تناولت سمًا زعافًا، حتى لقد وددت أن أذهب إلى مسز ريد لأسألها - عن طيب خاطر - أن تسامحني وتغفر لي، ولكنني كنت أعلم - سواء من تجاربي أو بغريزتي-أن ذلك المسلك سيحملها على طردي باحتقار بالغ، وبذلك تثير كل لاعجة في نفسي من جديد. لذلك آثرتُ أن أتجنب الكلام القارص، وأن أبحث عما أذكي به شعوري الخبيث، غير السخط والحنق. ثم تناولت كتابًا - وكان يضم بعض قصص عربية - وجلستُ أحاول القراءة .

ولكني لم أفهم من موضوع الكتاب شيئًا، لأن أفكاري كانت تتردد بيني وبين الصفحة التي كنت أجدها - في الأوقات العادية - فاتنة آسرة. وفتحتُ الباب الزجاجي المفضي من حجرة الإفطار إلى الحديقة، فإذا بها ساكنة صامتة، وقد كسا أرضها صقيع حالك، لم تفلح في إذابته شمس أو رياح، فغطيتُ رأسي وذراعي بطرف معطفي، ثم خرجتُ لأتمشَّى في ناحية من المزارع تكاد تكون منعزلة كل الانعزال، ولكني لم أجد أي بهجة في الغصون الصامتة، أو الأكواز المتساقطة من أشجار الشربين، أو آثار الخريف المتجمِّدة، أو الأوراق الحمراء التي اكتسحتها الأنواء، فتجمَّعت أكوامًا على الأرض وقد تيبَّست بفعل الجليد. واتكأت إلى إحدى البوابات، ورحت أسرّح النظر في حقل خاو، ليست فيه أغنام ترعى، وقد لفحت الرياح حشائشه وصقلتها. كان يومًا حالكًا، والسماء معتمة، والجليد يغطي كل شيء. وما لبث البرد أن أخذ يتساقط في فترات متقطعة، ليتكدَّس على الأرض الجامدة، والمرج الأشيب، دون أن يذوب، فوقفتُ كطفلة غاية في التعس والشقاء، لأهمس إلى نفسي بين حين وآخر: «ماذا أعمل؟ ماذا أعمل؟ ».

وفجأة، سمعت صوتًا واضحًا يناديني: «ا آنسة جين. أين أنتِ؟ تعالي لتتناولي غداءك!». وأدركتُ أنه صوت بيسي، ولكنني لم أتحرك، فما لبث وقع قدميها الخفيف أن اقترب ثم قالت: «أيها الشقية الصغيرة، لماذا لا تأتين عندما ينادونكِ؟». وفي غمرة الأفكار التي كنت أهيم فيها، لاح لي أن وجود بيسي يبعث السرور والاغتباط، على الرغم من عبوسها المعتاد. والواقع أنني بعد مشاحنتي مع مسز ريد وانتصاري عليها، لم أعد أحفل كثيرًا بغضب المربية أو رضاها، غير أنني تقت إلى أن أنعم بخفة روحها الشابة، فطوَّقتها بذراعيَّ الاثنتين، وقلت: «تعالي يا بيسي! لا تنهري ولا تزجري!». وكان تصرفي هذا أقل

صراحة وأقل خوفًا وجبنًا عمَّا عهدتني، ولكنه أرضاها إلى حد ما، فقالت وهي تتأملني: «يا لكِ من طفلة عجيبة يا جين! يا لكِ من مخلوقة صغيرة هائمة في العزلة! أظنكِ ستذهبين إلى المدرسة؟». فأومأت برأسي. فأضافت :

- «ألا تأسفين لترك بيسي المسكينة؟ ».

- «وماذا يهم بيسي من أمري، وهي لا تنى تعنفني وتنهرني؟ ».

- «لأنكِ مخلوقة صغيرة غاية في الغرابة، شديدة الذعر، يجب أن تكوني أكثر جرأة وإقدامًا !».

- «ماذا! لكي أُضرَب أكثر من هذا؟ ».

- «هراء! ولكنكِ بلا ريب مضطهَدة. ولقد قالت أمي بعد أن قدمت لزيارتي في الأسبوع الماضي، إنها لا تتمنَّى لأحد من أبنائها أن يكون في موضعك. والآن تعالي فإن لديَّ لكِ أنباء جديدة سارة !».

- «لا أظن لديكِ شيئًا من هذا يا بيسي ».

- «يا لكِ من طفلة! ماذا تعنين؟ ولماذا تتطلَّعين إليَّ بعينين حزينتين؟ إن السيدة وأبناءها سيخرجون بعد ظهر اليوم لتناول الشاي، وسوف تتناولينه معي. وسأطلب إلى الطاهية أن تخبز لكِ كعكة صغيرة، وبعد ذلك سوف تعاونينني في فحص أدراجك، يجب أن أُعدّ لكِ حقائبكِ في الحال، لأن سيدتي تريد منكِ أن تغادري جيتسهيد بعد يوم أو اثنين. وسوف تختارين من اللعب ما ترغبين في أخذه معكِ !».

- «عديني يا بيسي أن تكوني لطيفة معي حتى أرحل !».

- «حسنًا لكِ هذا! ولكن اذكري جيدًا أنكِ بنت طيبة جدًا، فلا تخافينني، ولا ترتعبي إذا حدث أن كلمتكِ في شيء من الحدة، إذ إن ذلك يغضبني منكِ كثيرًا !».

- «لا أظنني سأخشاكِ بعد اليوم يا بيسي، لأنني أَلِفتُكِ، ولسوف أجد قريبًا نوعًا آخر من الناس، أخافه وأخشاه !».

- «إذا خشيتُ أمرهم فسوف يكرهونكِ ».

- «كما تكرهينني يا بيسي؟ !».

- «أنا لا أكرهكِ يا آنسة، بل أنا واثقة من أنني أحبكِ أكثر مما أحب الآخرين جميعًا !».

- «إنك لا تظهرين لي ذلك !».

- «يا لكِ من صغيرة لاذعة اللسان! لقد اتخذتِ لنفسكِ طريقة جديدة تمامًا في الكلام. فما الذي أحالك جريئة جسورة بهذا الشكل؟ ».

- «لسوف أفارقكم عمَّا قليل. هذا فضلًا عن ...».

وهممت بأن أحدِّثها عن بعض ما وقع بيني وبين مسز ريد، ولكني تروَّيتُ، ورأيتُ أنه من الخير أن أخلد إلى الصمت في ما يتعلَّق بهذا الموضوع، وعادت تقول :

- «إذن فأنتِ مغتبطة لتركي؟ ».

- «كلا، مطلقًا. بل إنني أشعر الآن بشيء من الأسى !».

- «الآن فقط، وبشيء من الأسى! كم تنطق سيدتي الصغيرة بهذه الكلمات في برود وفتور. بل إنني أجرؤ فأقول: لو طلب منك أن تمنحيني قبلة، فسوف ترفضين وتقولين إنك تفضّلين ألّا أقبِّلك !».

- «سوف أقبِّلك عن طيب خاطر، احني رأسكِ ».

فأحنت بيسي رأسها، وتبادلنا العناق. ثم تبعتها إلى المنزل وأنا مرتاحة القلب، راضية. وانقضى عصر ذلك اليوم في هدوء وانسجام. وفي المساء روت لي بيسي بعض قصصها الساحرة، وغنَّت لي بعض أغنياتها الحلوة .

وهكذا لم تبخل الحياة - على فتاة مثلي - ببعض ومضات من ضياء الشمس .

الفصل الخامس

لم تكد الساعة تدق الخامسة من صباح التاسع عشر من شهر يناير، حتى أقبلت بيسي إلى حجرتي الضيقة، وهي تحمل شمعة، فوجدتني قد فرغت من ارتداء ثيابي تقريبًا، إذ كنت قد استيقظت قبل مقدمها بنصف ساعة، فغسلت وجهي، وارتديت ملابسي على ضوء القمر الجانح إلى الأفول، والذي كان شعاعه ينساب من خلال النافذة الضيقة القريبة من سريري. وكان مقرَّرًا أن أغادر جيتسهيد في ذلك اليوم في العربة التي كانت تمر أمام الدار في الساعة السادسة صباحًا. وكانت بيسي هي الشخص الوحيد الذي استيقظ إذ ذاك، فأشعلت النار في مدفأة غرفة الأطفال، حيث شرعت في إعداد فطور لي. إن قليلاً من الأطفال يستطيعون أن يأكلوا وهم تحت وطأة الانفعال الذي يبعثه التفكير في السفر. وكذلك لم أستطِع أنا. وعبثًا حاولت بيسي أن تحملني على أن أتناول بضع ملاعق من الحليب المغلي والخبز اللذين أعدّتهُما لي. فلفَّت بعض «البسكويت» في ورقة دسَّتها في حقيبتي. ثم أعانتني على ارتداء معطفي وقلنسوتي، وبعد أن تدثَّرت هي بشال، غادرت معي غرفة الأطفال. ولما مررنا بمخدع مسز ريد، قالت: «هلّا دخلتِ فودّعتِ السيدة؟ ».

- «لا يا بيسي، فقد جاءت إلى سريري ليلة أمس، عندما هبطت أنتِ لتناول العشاء، وقالت إنه لا داعي لأن أزعجها في الصباح، أو أن أزعج أبناء خالي. ثم أضافت أنني يجب أن أذكر أنها كانت دائمًا خير صديقة لي، ومن ثم يجب أن أتحدث عنها بكل خير، وأن أبدي عرفاني لصنيعها ».

- «وماذا قلتِ يا آنسة؟ ».

- «لا شيء، غطيتُ وجهي بغطاء السرير، وأدرت وجهي نحو الحائط !».

- «كان هذا التصرُّف خطأ منكِ يا مس جين ».

- «كلا يا بيسي. إذ لم تكن سيدتك صديقة لي، بل كانت عدوتي ».

- «أوَّاه، يا مس جين! لا تقولي هذا !».

وصحتُ وقد اجتزنا البهو ووصلنا إلى الباب الخارجي :

- «وداعًا يا جيتسهيد !».

وكان القمر قد أفل، واشتد الظلام. فحملت بيسي مصباحًا، وقع ضوؤه على درجاتٍ مُبتلَّة، وطريق مكسوَّة بحصباء اخضلت بمياه جليد حديث الذوبان، وكان الصباح الشتوي باردًا، لاذع الزمهرير، فأخذت أسناني تصطك وأنا أسرع في الدرب الموصل إلى السياج الخارجي. ولاح نور في غرفة حارس الباب، فلمَّا بلغناها، وجدنا زوجة البواب تشعل النار في مدفأتها. وكانت حقيبة ثيابي - التي نُقلت إلى هناك في الليلة السالفة - مركونة قرب الباب. ولم يكن قد بقيَ على الساعة السادسة سوى بضع دقائق. وبعد أن دقَّت الساعة بقليل انبعث من بعيد ضجيج عجلات، مؤذنًا بقدوم العربة. فسرت إلى الباب، وأخذت أرقب مصباحيها وهما يقتربان حثيثًا خلال الظلام. وتساءلت زوجة البواب: «أراحلةٌ هي وحدها؟ ».

فأجابت بيسي: «أجل ».

- «وما طول المسافة التي ستقطعها؟ ».

- «خمسون ميلًا ».

- «يا لها من مسافة طويلة! ألا تخشى مسز ريد من تركها تقطع مثل هذه المسافة وحدها؟ ».

ووقفت العربة أمام البوابة الخارجية، بجيادها الأربعة، وسطحها المحمَّل بالركاب، وصاح الحارس والحوذي بصوتٍ عالٍ طالبين مني أن أسرع. فنقلت حقيبتي بسرعة، ثم انتُزعت من أحضان بيسي التي كنت قد تعلَّقت بعنقها ورحت أقبِّلها. وصاحت هي في الحارس، بينما ترفعني إلى جوف العربة: «اعتنِ بها وارْعَها جيدًا». وكان الجواب: «أجل، أجل!»، ثم أغلق الباب، وصاح صوت: «هل كل شيء على ما يرام؟». وانطلقت بنا العربة !

وهكذا افترقتُ عن بيسي وعن جيتسهيد. وهكذا طوَّح بي القدر إلى المجهول، وإلى ما خِلته - إذ ذاك - المناطق النائية، الغامضة !

ولستُ أذكر عن الرحلة إلّا القليل. كل ما أذكره هو أن اليوم لاح لي طويلًا، طولًا غير طبيعي، وأننا - فيما بدا لي-كنَّا نطوي مئات الأميال، إذ مررنا بعدة مدن، وقفت العربة في إحداها، وكانت مدينة جد كبيرة. ففُكَّت الخيل عن العربة، وهبط الركاب ليتناولوا الغداء. وحُمِلتُ أنا إلى فندق صغير، حيث شجَّعني الحارس على أن أتناول الطعام، فلما أبيتُ، لأنني لم أكن أشعر برغبة في الأكل، تركني في غرفة رحبة، في كل من طرفيها مدفأة، وقد تدلَّت من سقفها ثريا، وثُبِّت إلى جدارها، على ارتفاع، صوان أحمر حافل بالآلات

الموسيقية. ورحتُ أطوفُ بالمكان فترة طويلة، وأنا أشعر بوحشة، وبهاجس مستبد أوحى إليَّ بأن ثمَّة من سيخطفني، إذ كنت أؤمن بوجود المختطِفين، لأن مغامراتهم كثيرًا ما تخلَّلت القصص التي كانت بيسي ترويها. وعاد الحارس أخيرًا، ورُفعت مرة أخرى إلى العربة، وصعد «حارسي» إلى مقعده، فنفخ في بوقه المدوِّي، وانطلقت العربة تدرج على الطريق المرصوفة بالأحجار، مغادرة مدينة (ل ...).

وأقبل الأصيل مشبَعًا بالرطوبة، يشيع فيه شيء من الضباب، حتى إذا اقترب الغسق، بدأتُ أحس بأننا أصبحنا حقًا على بعد كبير من جيتسهيد ولم نعد نمر بمدن. وتغيَّر الإقليم، فبرزت عند الأفق تلال سمراء. فلما اشتد الغسق، هبطنا واديًا مُعتمًا، بسبب كثافة الشجر. وظللت فترة طويلة أسمع الرياح الهوجاء تندفع خلال الأشجار، بعد أن حجب الظلام الرؤية عن الأبصار. وما لبث الحفيف الرتيب أن أسلمني في النهاية إلى النعاس .

ولم يمضِ طويل وقت على نومي، حتى أيقظني وقوف العربة فجأة. وفُتح الباب فإذا امرأة تقف عنده وعليها سيماء الخدم. ورأيتُ وجهها وثوبها على ضوء المصباحين، بينما سألت هي: «هل توجد هنا صبية تدعى جين إير؟». فأجبتُها: «أجل». وسرعان ما حُمِلتُ إلى خارج العربة، وأنزلوا حقيبتي، ثم انطلقت العربة. وكانت أطرافي قد تيبَّست لطول الجلوس، كما أن ضجة العربة وحركتها شتتا حواسي، فرحتُ أستجمعها. وتلفَّتُّ حولي، فإذا المطر، والريح، والظلمة يملأون الجو. ولكنني تبيَّنتُ - مع ذلك - جدارًا أمامي غير واضح المعالم، وبابًا مفتوحًا فيه. وخلال هذا الباب مررتُ مع مُرشدتي الجديدة، التي أغلقته وأحكمت رتاجه. وتجلَّى لي إذ ذاك بيت، أو بيوت - إذ كان المبنى ممتدًا لمسافة طويلة - ونوافذ كثيرة، يتألَّق الضوء في بعضها. وسرنا في درب مرصوف بحصباء كانت مياه المطر ما تزال تجري عليها. ثم فتح لنا باب ولجناه، وإذ ذاك قادتني الخادم في ردهة إلى حجرة تتلظَّى النار في مدفأتها، وهناك خلَّفتني وحيدة. فوقفت أدفّئ أصابعي التي جمَّدها البرد، ثم تلفَّتُّ حولي فلم أرَ شمعة موقدة، ومع ذلك كان الضوء غير المستقر، المنبعث من المدفأة، يكشف على التناوب عن جدران مكسوّة بالورق، وطنافس، وستائر، وقطع أثاث من خشب الماهوجني اللمّاع .

كانت الحجرة حجرة استقبال، لا تقارَن - سواء من حيث درجة اتساعها، أو فخامتها - بحجرة الجلوس في جيتسهيد، ولكن فيها قدرًا كافيًا من أسباب الراحة. وكنت أحاول جاهدة أن أستبين معالم صورة على الحائط، عندما فُتح الباب، ودخلت امرأة تحمل شمعة، وفي عقبها امرأة أخرى .

وكانت أولاهما سيدة طويلة، ذات شعر فاحم، وعينين سوداوين، وجبين عريض، شاحب. وكان خصرها ملتفًّا - من جانب - بشال، وقسماتها مهيبة، وقوامها منتصبًا، مستقيمًا. قالت وهي تضع شمعتها على منضدة: «إن الطفلة أصغر من أن تُرسل وحيدة في رحلة طويلة كهذه!». وتأمَّلتني باهتمام لدقيقة أو اثنتين، ثم أضافت قائلة :

- «يحسن وضعها في الفراش عاجلًا، فهي تبدو مُتعبة، أتشعرين بتعب؟».
فأجبتُها: «بعض الشيء يا سيدتي !».

- «مؤكّد أنها جوعانة كذلك. قدّمي لها العشاء قبل أن تُؤوى إلى سريرها يا مس ميلر». ثم سألتني: «أهذه أول مرة تتركين فيها أبويكِ لتلتحقي بالمدرسة يا صغيرتي؟ ».

فأوضحتُ لها أنني بلا أبوين. وسألتني كم من الوقت مضى وفاتهما، ثم عن عمري، وعن اسمي، وعمَّا إذا كنت أعرف القراءة والكتابة. فأجبتها عن كل هذا، وقلت إنني أعرف أيضًا بعض مبادئ الحياكة، فمسَّت خدي بسبابتها في لطف، وقالت إنها ترجو أن أكون صبية طيبة، ثم صرفتني مع مس ميلر .

ولا بد أن السيدة التي فارقتها كانت في حوالي التاسعة والعشرين، أما التي انصرفت معي فكانت تصغرها ببضع سنوات. ولقد بهرتني الأولى بصوتها، ومظهرها، والجو المحيط بهالتها. أمَّا مس ميلر فكانت أقرب إلى المرأة العادية، بشرتها شديدة الاحمرار، وإن بدا الأسى على محياها. وكانت سريعة في حركاتها وتصرفاتها، شأن من أنيطت بها عدة أعمال. وكانت تبدو - كما وجدتها فعلًا فيما بعد - مساعدة مدرّسة. ومررت، وهي تتقدمني، من قسم إلى قسم، ومن ردهة إلى ردهة، في مبنى كبير غير منتظم، حتى إذا نفذنا من ذلك الجزء الكئيب، الصامت، الذي اجتزناه من المبنى، اقتربنا من همهمة أصوات عديدة. ولم نلبث أن ولجنا قاعة رحبة، طويلة، صُفَّت فيها موائد كثيرة، وفي كل من طرفي الغرفة كانت ثمَّة مائدتان تشتعل على كل منهما شمعتان. وعلى مقاعد خشبية حول الموائد، جلس جمع كبير من الفتيات من جميع الأعمار، بدءًا من التاسعة أو العاشرة حتى العشرين. وإذ رأيتهن على ضوء الشموع الخافت، خلت أن عددهن يصعب أن يُحصى، وإن لم يكن - في الواقع - قد تجاوز الثمانين فتاة، وقد ارتَديْن زيًّا موحَّدًا، تألّف من ثوب بني اللون، غريب الطراز، ومريلة من قماش قطني. وكانت تلك ساعة الاستذكار، وقد انهمكن في أداء واجباتهن للغد، وما كانت الهمهمة التي سمعتها سوى همساتهن وهُنّ يُكرِّرن الدروس ليحفظْنَها عن ظهر قلب !

وأومأت لي مس ميلر كي أجلس على مقعد بقرب الباب، ثم سارت إلى رأس القاعة، وصاحت: «على العريفات أن يجمعن الكتب ويُبْعدنها!». فنهضت أربع فتيات طويلات، عن أربع موائد متباعدة، وطفن بالطالبات يجمعن الكتب. وعادت مس ميلر تصيح بصوتها الآمر: «لتذهب العريفات لإحضار صواني العشاء!». فغادرت الفتيات الطويلات القاعة، وسرعان ما عُدْن وقد حملت كل منهن صينية عليها شطائر لم أدرِ ما كان فيها، وقد نُسَّقت الشطائر عليها يتوسطها ابريق ماء وكوب. ووُزِّعت الشطائر على الفتيات، وتناول من شئن منهن جرعات ماء من الكوب التي كانت مشاعًا للجميع. فلما حان دوري شربت، لأنني كنت ظامئة، ولكنني لم أمسّ الطعام، إذ إن الانفعال والتعب جعلاني عاجزة عن الأكل. وتبيَّنت إذ ذلك أن الشطائر كانت عبارة عن فطيرة رفيعة من الشوفان، قُسِّمت إلى أجزاء !

بعد الأكل أقيمت الصلاة، وتولَّت مس ميلر تلاوتها. ثم خرجت الفتيات في صف، كل اثنتين معًا، وصعدن إلى الطابق العلوي. كان الإرهاق قد غلبني، فلم أرَ من معالم المكان الذي أُعدَّ للنوم سوى أنه كان مثل حجرة الاستذكار، طويلًا جدًا. وقد شاركت مس ميلر سريرها في تلك الليلة، فساعدتني على خلع ثيابي. عندما استلقيت على السرير، ألقيت نظرة على صف الأسِرَّة الطويل، فإذا كل في كل سرير فتاتين. وبعد عشر دقائق، أطفئ النور الوحيد في المكان، واستسلمت للنوم وسط السكون، في غمرة الظلام الدامس .

انقضى الليل سريعًا، وكنتُ من التعب بحيث لم يواتني أي حلم في نومي، ولم أستيقظ خلال الليل سوى مرة واحدة، لأسمع الريح تهب في عنف أهوج، والمطر يهطل دافقًا. ولأشعر بمس ميلر وقد تمددت إلى جانبي. وعندما فتحتُ عيني مرة أخرى، كان جرس يدقُّ عاليًا، ونهضت الفتيات وارتدين ثيابهن. ولم يكن ضوء النهار قد بزغ بعد، بل كانت شمعة أو اثنتان من السمار المغموس في الدهن، تضيئان الغرفة. ونهضتُ - بدوري - كارهة، إذ كان البرد قارسًا، فارتديت ثيابي بقدر ما سمح لي ارتعاشي، وغسلت وجهي عندما خلا أحد الأحواض - وهو ما لم يتحقَّق سريعًا، إذ لم يكن هناك سوى حوض لكل ست فتيات، وقد قامت هذه الأحواض على حوامل في وسط الغرفة - ودقَّ الجرس مرة ثانية، فاصطفَّت الفتيات، كل اثنتين متجاورتين، وهبطن السلم على هذا النسق. فدخلن غرفة الدرس الباردة، الخافتة الضوء. وهناك تلت مس ميلر عليهن الصلاة، ثم صاحت بعدها: «انتظمن في فصول!». وأعقبت ذلك جلبة عالية بضع دقائق، كانت مس ميلر تصيح خلالها: «صمتًا!». «النظام!». فلما خفتت الجلبة، رأيت الفتيات جميعًا قد انتظمن في أربع دوائر ناقصة، أمام أربعة مقاعد وضعت أمام أربع مناضد. وكنَّ جميعًا يمسكن بكتب في أيديهن، وقد استقر كتاب كبير يشبه التوراة على كل منضدة، أمام المقاعد الخالية.

وساد الصمت بضع ثوانٍ، لا تعكِّره سوى همهمات، فأخذت مس ميلر تنتقل من «فصل» إلى آخر لتُسكت صاحبات هذه الأصوات غير الجلية !

ورن الجرس على مبعدة، فدخلت الغرفة ثلاث سيدات سارت كل منهن إلى منضدة، وشغلت المقعد القائم أمامها. وجلست مس ميلر في المقعد الرابع، وكان أقرب المقاعد إلى الباب وقد اجتمعت حوله أصغر الفتيات سنًا. وبهذا الفصل التحقتُ أنا، وأُجلِست في آخره. وبدأ الدرس، فرددت الفتيات ما درسنه في اليوم السابق، ثم تُليت فصول من الإنجيل وقرأت الفتيات - على التوالي-فصولاً من التوراة، ما استغرق ساعة من الزمن. وإذ ذاك انتهت الفترة، وكان ضوء النهار قد أشرق وفاض. وقُرِعَ الجرس - الذي لم يكن يمل الرنين - للمرة الرابعة، فسارت الفصول في نظام إلى حجرة أخرى للإفطار، وكم سررت إذ سنحت الفرصة أخيرًا لأصيب شيئًا من الطعام! فلقد كانت أمعائي تتلوَّى جوعًا، لأنني لم آكل في اليوم السابق شيئًا يُذكر .

كان المطعم فسيحًا، منخفض السقف، وقد صُفَّت على مائدتين طويلتين آنية حَوَت شيئًا ساخنًا كان البخار يتصاعد منه. وقد ساءتني رائحته التي لا يثير الشهية. ولمحت استياءً عامًا عندما صافحت أبخرة الطعام الخياشيم. ومن الصف المتتابع، كانت الطويلات - طالبات الفصل الأول - هن البادئات بالهمس: «مقرف! لقد حُرِقت العصيدة مرة أخرى!». فانبعث صوت آمر: «صمتًا!». ولم تكن صاحبته مس ميلر، وإنما كانت إحدى المُدرِّسات اللائي تعلوها. سيدة صغيرة القد، سمراء، أنيقة الملبس، ولكنها ذات طلعة عابسة بعض الشيء. وكانت قد وقفت عند رأس إحدى المائدتين، بينما ترأست المائدة الأخرى سيدة لها صدر ناهد. وعبثًا بحثت عن تلك التي رأيتها في الليلة السابقة، إذ إنها لم تظهر. وشغلت مس ميلر الطرف القصيّ للمائدة التي جلست إليها، بينما شغلت الطرف القصيّ للمائدة الأخرى سيدة مُسنَّة، لها مظهر أجنبي غريب، أدركتُ فيما بعد أنها مُدرسة اللغة الفرنسية. وتُليت صلاة طويلة، كما أُنشدت إحدى الترانيم، ثم أحضرت خادم بعض الشاي للمدرّسات، وبدأ تناول الفطور .

وتحت ضغط الجوع، والضعف، ازدردت ملء ملعقة أو اثنتين من نصيبي من العصيدة. ولكن، ما إن كسرت حدة الجوع، حتى تبينت أن الطعام كان يثير الغثيان في النفس، فالعصيدة المحترقة كالبطاطس المتعفِّنة، لا يلبث الجوع نفسه أن يشمئزَّ منها! وكانت الملاعق تتحرَّك في بطء، ورأيت كل فتاة تتذوَّق طعامها ثم تحاول أن تبتلعه، ولكن المحاولة كانت - في معظم الأحوال - تنتهي إلى عزوف. وانتهى وقت الإفطار، ولمَّا تفطر واحدة! وتلين صلاة الشكر - عن شيء لم نحظَ به - ثم أُنشدت ترنيمة ثانية، وأُخليَ المطعم بعد ذلك، وعدنا إلى حجرة الدرس. وكنتُ من بين الأخيرات اللاتي غادرن المطعم. وفيما كنتُ

أجاوز المائدتين، أبصرتُ إحدى المدرسات تتذوَّق العصيدة، ثم تنظر إلى الأخريات، فإذا الاستياء يبدو على أساريرهن. وهمست إحداهن -ذات الصدر الضخم-: «شيء مقرف! يا للخزي !».

وانقضى قبل أن تبدأ الدروس من جديد، ربع ساعة، كانت فيها حجرة الدرس تعجُّ بالصخب، إذ لاح أن من المباح الكلام بصوت عالٍ، ودون قيود، في تلك الفترة. فاستغلَّت الفتيات ذلك! وكان الحديث كله يدور حول الفطور الذي ذمَّته الفتيات، فرادى وجماعات. يا للمسكينات! كان هذا كل ما يُتاح لهن من عزاء. وكانت مس ميلر هي المدرّسة الوحيدة في الفصل في تلك الفترة، فوقفت حولها الفتيات الكبيرات يتكلَّمن ويشرن في غضب واستياء. وسمعت اسم بروكلهرست ينبعث من بعض الشفاه، فهزَّت مس ميلر رأسها غير محبّذة، وإن لم تبذل أي مجهود جدي في كبح الاستياء العام، إذ كانت -من دون شك - تشاركهن إياه! وما لبثت أن دُقت ساعة في حجرة الدرس معلنة التاسعة، فغادرت الفتيات من حول مس ميلر التي وقفت في وسط الفصل صائحة: «صمتًا! إلى أماكنكن !».

وسيطر النظام، فلم تنقضِ خمس دقائق حتى كان الحشد المستاء قد استقر، وساد صمت نسبي خفَّف من ثرثرة الألسن. وما لبثت المدرسات الكبيرات أن اتخذن مجالسهن، ومع ذلك فقد ظلَّ يبدو على الجميع طابع الانتظار. وجلست الفتيات الثمانون معتدلات دون حراك، على المقاعد المرتَّبة في جانبي الحجرة. ما كان أغربهن من مجموعة! كلهن قد نسَّقن شعورهن على نسقٍ خالٍ من الزخرف، وقد رفعنها عن جباههن، فلم يفلتن خصلة واحدة . الجميع في ثياب بنية اللون، تصل إلى أعلى رقابهن وتلتف حولها بياقة محكمة، وقد ربطت في صدور ثيابهن أكياس صغيرة جُعلت لتكون بمثابة أكياس التطريز. وكلهن أيضًا كن يرتدين جوارب صوفية، وأحذية صُنعت في الريف تزمّها أقفال نحاسية. وكان من لابسات هذا الزي أكثر من عشرين فتاة - مكتملات النمو، أو شابات - فكان الزي لا يناسبهن، بل يضفي منظرًا عجيبًا، حتى على أجملهن! وكنتُ أتأملهن، وأنقل بصري من آن لأخر إلى المدرسات اللاتي لم ترق لي أي منهن، إذ كانت البدينة منهن - ذات الصدر الضخم - فظّة بعض الشيء، وضئيلة القد بدت على قدر من الشراسة، أما الأجنبية فكانت خشنة الطباع، غريبة الأطوار. وأما مس ميلر، فيا لها من مسكينة! كانت تبدو محتقنة اللون، تعاني من الطقس، ومن كثرة العمل .

كنت ما أزال في تأمُّلي هذا، وعيناي تنتقلان من وجه إلى آخر، حين نهضت المدرسة كلها دفعة واحدة، وكأنما حرَّكها زر واحد. ترى ما الذي جرى؟ فلم أسمع أمرًا يُصدر! وتولَّتني الحيرة. وقبل أن أستجمع شتات ذهني، كانت

الفصول قد جلست ثانيةً، ولكن، لما كانت كل العيون متجهة نحو نقطة واحدة، فقد اتخذت عيناي الاتجاه العام، وإذا بهما تلتقيان بالسيدة التي استقبلتني ليلة أمس. وكانت تقف في نهاية القاعة الطويلة، تتأمَّل صفَّي الفتيات في صمت ووقار. واقتربت منها مس ميلر، وكأنما سألتها في أمر ما، فلما تلقت جوابها، عادت إلى مكانها وقالت بصوت مرتفع: «عريفة الفصل الأول: أحضري الكرات الأرضية !».

وبينما كانت العريفة تنفِّذ الأمر، أخذت السيدة صاحبة المشورة تذرع الحجرة في تؤدة، وأعتقد أنني أوتيت قدرًا كبيرًا من روح التقدير، فما زلت أذكر الإعجاب الممزوج بالاحترام، الذي راحت عيناي تتّبعان به خطواتها. وإذ كنت أراها في وضح النهار، في هذه المرة، فقد تبيَّنتُ أنها كانت تبدو طويلة، ناصعة البياض، ممشوقة القوام، لها عينين عسليتين ينبعث من إنسانَيْهما وميض ثاقب، وتحيط بهما أهداب مرهفة، طويلة، منتظمة. ويعلوهما جبين عريض، وعلى فوديها كان شعرها البني، الشديد الدكنة، يتهدَّل في خصلات ملتفة كالحلقات، وفقًا للنسق الذي كان شائعًا في تلك الأيام، عندما كانت الإناث يُعرِضن عن الخصلات المسدلة، وعن الحلقات الطويلة من الشعر. كذلك كان ثوبها متسقًا مع النمط الشائع إذ ذاك، وكان من قماش قرمزي، تخفِّف من استرساله حواف من المخمل الأسود .

وكانت تبرق عند خاصرتها ساعة ذهبية - ولم تكن الساعات إذ ذاك شائعة كما هي الآن! - ولاستكمال الصورة، ليضف القارئ إلى هذا قسمات حادة ودقيقة، وبشرة شاحبة ولكنها صافية، ومظهرًا رصينًا مهيبًا. فإذا جمع القارئ هذه الأوصاف، تكوَّنت لديه فكرة دقيقة - بقدر ما تملك الكلمات من إيضاح - لمظهر مس تمبل، ماريا تمبل، إذ رأيت اسمها الكامل فيما بعد مكتوبًا على كتاب للصلوات عهدت إليَّ بحمله إلى الكنيسة .

واتخذت «ناظرة» مدرسة لوود - فهذه كانت وظيفة السيدة - مجلسها أمام زوج من الكرات الأرضية وُضعتا على إحدى المناضد، ثم دعت الفصل الأول، فأحاطت بها التلميذات، وشرعت تلقي عليهنّ درسًا في الجغرافيا. أمَّا الفصول الصغرى، فتولتهن المدرّسات. ومضى تسميع التاريخ، والنحو، وغيرهما - زهاء ساعة. ثم أعقبت ذلك دروس في الكتابة والحساب، كما تولَّت مس تمبل تلقين بعض الفتيات الكبيرات دروسًا في الموسيقى. وكانت مدة كل درس تحسب وفقًا للساعة، التي ما لبثت أن دقَّت الثانية عشرة في النهاية، فنهضت الناظرة قائلة: «لديَّ كلمة أقولها للتلميذات». وكان الضجيج قد ارتفع ولكنه سرعان ما خفت عند سماع صوتها، فاستطردت تقول: «لقد

قُدّم إليكن في هذا الصباح فطور لم تستطعن تنتاوله، ولا بد أنكن جائعات، لذلك أمرت بأن تُقدَّم لكُنّ جميعًا وجبة من الجبن والخبز ».

فالتفتت إليها المدرّسات في عجب. فأضافت تشرح لهن: «سيكون ذلك على مسؤوليتي». ثم بارحت الغرفة لتوها. وسرعان ما جِيء بالخبز والجبن ووُزّعا على التلميذات، فتلقتهما المدرسة بأسرها في ابتهاج وغبطة. وما لبث أن أُلن الأمر: «إلى الحديقة!»، فارتدت كل فتاة قبعة من القش الخشن، لها أشرطة من الخيش الملون، ووشاحًا من المخمل الخفيف الرمادي اللون. وجُهِّزتُ أنا الأخرى بمثل هذا الزي، ثم اتخذت طريقي في أعقاب الصف إلى الهواء الطلق .

وكانت الحديقة فسيحة، تحيط بها أسوار عالية إلى درجة تجعل أي نظرة مختلَسة ضربًا من المستحيل. وكانت تمتد بطول أحد جوانبها شرفة مسقوفة، كما كانت ممرات عريضة تتوسَّط رقعة من الأرض قُسِّمت إلى عشرات من الأحواض. وكانت هذه الأحواض حدائق مخصَّصة للتلميذات كي يزرعنها، لكل تلميذة حوض. وبالتأكيد كانت ستبدو بديعة إذا ما امتلأت بالزهور، ولكننا كنَّا في أواخر يناير، فكان كل شيء ذابلًا، يابسًا، وارتجفتُ إذ وقفتُ وتلفَّتُّ حولي. كان يومًا زمهريرًا لا يصلح للتمرين في الخارج. صحيح أنه لم يكن يومًا ممطرًا، ولكنه كان غائمًا إذ غشيته عاصفة جليدية، وكان كل ما تحت الأقدام ينضح بالمياه المتخلفة من سيول اليوم السابق، وأخذت القويات من الفتيات يجرين ويقمن بمظاهر النشاط، أما الشاحبات، والنحيفات، فقد انكمشن معًا لائذات بالشرفة، يلتمسن الدفء. وبين هؤلاء، كثيرًا ما سمعت صوت سعال أجوف كلما نفذ الضباب الكثيف خلال هياكلهن المرتجفة !

ولم أكن قد تحدثت إلى واحدة، ولم يكن بينهن مَن تحفل بوجودي، فظللت وحيدة تقريبًا. ولكني كنت متعودة هذا الشعور بالعزلة، فلم تكن وطأته عليَّ شديدة. وقد استندت إلى أحد أعمدة الشرفة، وشددت أطراف عباءتي الرمادية حولي وحاولت أن أنسى البرد الذي كان ينخر عظامي، والجوع الذي لم يحظَ بإشباع، والذي كان يقرص أمعائي، وشُغلت بالمشاهدة والتأمل. وكانت أفكاري غير محدَّدة، وليس فيها ما يستحق التسجيل .

كنتُ لا أكاد أعرف أين أصبحت، فبدا لي أن جيتسهيد وحياتي الماضية كانتا تسبحان أمامي في الهواء، على مسافة لا سبيل إلى قياسها. وكان الحاضر مبهمًا، غريبًا. أما المستقبل، فلم يكن بوسعي أن أتكهَّن به. وأخذت أتلفَّت في الحديقة الشبيهة بالصومعة، ثم رحت أتأمَّل الدار. كانت مبنى كبيرًا، بدا نصفه مغبرًا، قديمًا، بينما كان النصف الآخر جديدًا تمامًا. وكان هذا الشطر الجديد

يضم قاعة الدرس، وقاعة النوم، وينفذ الضوء إليه من خلال نوافذ تقسّمها قضبان حديدية إلى مربعات وأشباه مستطيلات منحرفة، ما كان يطبع المبنى بطابع الكنائس. وكانت لوحة حجرية على الباب، نُقش عليها :

«معهد لوود، أنشأتْ هذا الجزء، في سنة (...) ميلادية، ناعومي بروكلهرست، سيدة قصر بروكلهرست، في هذه المقاطعة». وتحت هذه العبارة الآية التالية من الإنجيل (سِفر القديس متى، الإصحاح 16): «دع نورك يشرق على الملأ كي يروا أعمالك الجليلة فيُمجِّدوك ويمجِّدوا أباك الذي في السماوات ».

قرأتُ هذه الكلمات مرارًا وتكرارًا، فشعرتُ بأن وراءها معنى، ولكني لم أستطِع أن أنفذ تمامًا إلى عمق معناها. وفيما كنت مستغرقة في تأمُّل معنى العبارة الأولى، أحاول أن أوفَّق إلى رابطة بينها وبين الآية المقتبسة عن الإنجيل، حملني صوت سعال قريب جدًا من ظهري، على أن التفت، فرأيتُ بنتًا تجلس على مقعد حجري قريب، وكانت منحنية على كتاب، بدا أنها كانت مهتمة بمطالعته. وكان بوسعي أن أرى عنوانه من موقفي: راسيلاس. اسم لاح لي غريبًا، وبالتالي مشوِّقًا. وفيما كانت تقلِّب إحدى الصفحات، تطلَّعت نحوي مصادفة، فبادرتها قائلة: «هل كتابك مشوِّق؟». وكنتُ في تلك الأثناء قد عقدت العزم على أن أسألها أن تعيرني إياه يومًا. وأجابت بعد ثانية أو اثنتين كانت تتفحّصني خلالهما: «إنني أحبه». فعدت أسألها: «وحول أي شيء يدور؟». ولا أكاد أدري أين وجدت تلك الجسارة على فتح باب الحديث مع فتاة غريبة. كانت الخطوة مناقضة لطبيعتي وعادتي، ولكن ما كانت البنت تشغل به نفسها، مسَّ وترًا حنونًا في مكان ما من قلبي، فقد كنت أنا الأخرى أحب القراءة، وإن كان حبي لها فجًّا، صبيانيًا، إذ لم أكن أقوى على هضم أو فهم الكتب الجدية أو ذات الموضوع العميق .

وأجابت الفتاة وهي تقدِّمه لي: «تستطيعين أن تلقي عليه نظرة». وفعلت، ولكن فحصًا سريعًا أقنعني بأن محتوياته كانت أقل إغراءً من عنوانه. فقد بدا راسيلاس لذوقي التافه غثًّا، إذ لم أرَ فيه شيئًا عن حوريات الأساطير، أو الجن، ولا شيئًا من المنوعات البهيجة في صفحاته التي طُبعت بحروف صغيرة وسطور متقاربة. وأعدته إلى الفتاة، فتلقته في سكون، ودون أن تقول شيئًا، وهمَّت بأن تعود إلى انهماكها السابق في القراءة، ولكني تجاسرت مرة أخرى على إزعاجها: «هل لكِ أن تُخبريني بما تعنيه الكتابة المنقوشة على ذلك الحجر الذي يعلو الباب؟ وما هو معهد لوود؟ ».

- «إنه هذه الدار التي جئتِ لتقيمي فيها ».

- «ولماذا يسمونها معهدًا؟ هل تختلف عن المدارس الأخرى؟ ».

- «إنها مدرسة خيرية إلى حدٍّ ما، فأنتِ وأنا وكل الباقيات، نتمتع بالمبرَّات، وأحسبك يتيمة. ألم يمت أبوك أو أمك؟ ».

- «ماتا، كلاهما، قبل أن أعي شيئًا ».

- «حسنًا، كل الفتيات هنا أُصبن في أحد الوالدين أو فيهما معًا، وهذه الدار تسمَّى معهدًا لتعليم البنات ».

- «ألسنا ندفع نقودًا؟ هل يستقبلوننا دون مقابل؟ ».

- «إننا ندفع، أو يدفع أصدقاء لنا، خمسة عشر جنيهًا في العام عن الفتاة ».

- «إذن فلماذا يسموننا: أولاد المبرَّات؟ ».

- «لأن خمسة عشر جنيهًا لا تكفي لإقامتنا وتعليمنا، ولأن الباقي يأتي من التبرُّعات ».

- «ومن الذي يتبرَّع؟ ».

- «سيدات وسادة من المناطق المجاورة ومن لندن، جُبِلوا على الخير ».

- «ومن كانت ناعومي بروكلهرست؟ ».

- «السيدة التي أنشأت الشطر الجديد من هذه الدار - كما تذكر اللوحة - والتي يشرف عليها ابنها ويدير كل شيء هنا ».

- «لماذا؟ ».

- «لأنه أمين الصندوق ومدير المؤسسة ».

- «إذن فهذه الدار ليست ملكًا للسيدة الطويلة التي تحمل ساعة، والتي قالت إنها أمرت لنا بجبن وخبز؟ ».

- «مس تمبل! آه، لا! ليتها كذلك! إنها مسؤولة أمام مستر بروكلهرست عن كل ما نفعل، ومستر بروكلهرست هو الذي يبتاع لنا الغذاء و الثياب ».

- «وهل هو يقيم هنا؟ ».

- «لا، هو يقيم على بعد ميلين من هنا، في قصر كبير ».

- «وهل هو رجل طيب؟ ».

- «إنه من رجال الكنيسة، ويُقال إنه يقوم بكثير من أعمال الخير ».

- «هل قلت إن تلك السيدة الطويلة تدعى مس تمبل؟». فقالت: «أجل ».

- «وماذا تسمَّى المدرّسات الأُخريات؟ ».

- ذات الخدين الموَرَّدين تدعى مس سميث، وهي تُشرف على الحياكة وتقوم بالتفصيل، لأننا نصنع ثيابنا، وزيّنا المدرسي، ومراييلنا، وكل شيء. والضئيلة الجسم، ذات الشعر الأسود مس سكاتشيرد، وهي تلقي دروس التاريخ والنحو، وتنصت لتلميذات الفصل الثاني عند تسميع الدروس. والتي ترتدي شالًا، وتحمل منديلًا مربوطًا إلى جانبها بشريط أصفر فهي مدام بييرو. وهي من ليل بفرنسا، وتدرِّس اللغة الفرنسية ».

- «هل تُحبِّين المُدرِّسات؟ ».

- «إلى درجة لا بأس بها ».

- «هل تحبين الصغيرة القد السمراء، ومدام..؟ لست أستطيع أن أنطق اسمها كما تفعلين ».

- «إن مس سكاتشيرد سريعة الغضب، فيجب أن تحذري من أن تُغضبيها. أما مدام بييرو فليست سيئة ».

- «ولكن مس تمبل هي الأحسن، أليس كذلك؟ ».

- «إن مس تمبل طيبة جدًا، وماهرة جدًا، إنها فوق الأخريات، لأنها أكثر منهن معرفة ».

- «هل قضيتِ وقتًا طويلًا هنا؟ ».

- «سنتين !».

- «وهل أنتِ يتيمة؟ ».

- «لقد ماتت أمي ».

- «وهل أنتِ سعيدة هنا؟ ».

- «إنكِ تكثرين جدًا من الأسئلة! لقد قدّمتُ إليكِ إجابات تكفيكِ في الوقت الحاضر، أما الآن، فأريد أن أقرأ ».

ولكن الدعوة للغداء انطلقت في تلك اللحظة، فعادت الفتيات جميعًا إلى داخل الدار، وكانت الرائحة التي ملأت جو المطعم إذ ذاك لا تكاد تكون أكثر إثارة للشهية من تلك التي انسابت إلى خياشيمنا في الإفطار. وقُدِّم الغداء في وعاءين هائلين من الصفيح، تصاعد منهما بخار عارم مشبَّع برائحة الدهن المطبوخ. وكانت الوجبة تتألَّف من بطاطس غير معنىً بطهوها، وقطع غريبة المنظر من لحم معتم اللون، وقد طُبخا معًا. وقُدِّمت لكل تلميذة من هذا الطعام كمية وفيرة، فأكلتُ بقدر ما وسعني، وأنا أتساءل في نفسي عمَّا إذا كان الطعام كل يوم على هذا النحو! وعدنا بعد الغداء مباشرة إلى قاعة الدرس، فاستؤنفت الدروس، واستمرَّت إلى الساعة الخامسة. وكان الحادث الوحيد الذي يستحق الذكر بعد الظهر هو أنني رأيتُ الفتاة التي كنتُ قد تحدَّثتُ إليها في الشرفة، تقصيها مس سكاتشيرد من درس التاريخ خزيانة، وتأمرها بأن تقف في وسط حجرة الدرس الواسعة. ولاح لي العقاب مستهجنًا إلى درجة فظيعة، لا سيما لفتاة كبيرة مثلها - إذ كانت تبدو في الثالثة عشرة أو أكثر - وتوقَّعت أن تظهر الفتاة أسىً بالغًا وخزيًا، ولكنها، لدهشتي، لم تبكِ، ولم يتضرج وجهها، بل وقفت متمالكة نفسها، وإن بدت عابسة، وهي محط للأنظار. وساءلتُ نفسي: «كيف تحتمل الأمر بهذا الهدوء، وهذه الرزانة؟ لو أنني كنتُ في مكنها لكنت أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني! إنها تبدو كما لو كانت تفكِّر في شيء غير عقابها. تفكر في شيء لا يوجد حولها، ولا أمامها. لقد سمعتُ عن أحلام اليقظة، أهي تحلم في يقظتها الآن؟ إن نظرتها مثبتة إلى الأرض، ولكني متأكدة من أنها لا تراها، كأنما تحوِّل بصرها إلى جوفها. إنها تتأمَّل ما في ذاكرتها، وليس ما هو حاضر فعلًا، فيما أعتقد. ترى أي نوع من البنات هي؟ أهي طيبة أم خبيثة؟ ».

وتناولنا وجبة أخرى بعد الساعة الخامسة مساءً، وهي عبارة عن قدح صغير من القهوة، وقطعة من الخبز الأسمر، فالتهمتُ خبزي واحتسيتُ قهوتي في تلذُّذ. ولكني كنت خليقة بأن أبتهج لو أنني حصلتُ على المزيد، إذ كنت ما أزال

جائعة! وأعقبت الوجبة راحة لنصف ساعة، ثم استذكار، ثم كوب الماء، وقطعة من فطير الشوفان، وبعدها الصلاة ثم الذهاب إلى الفراش .

وهكذا انقضى أول أيامي في لوود !

الفصل السادس

بدأ اليوم التالي، بالنهوض، وارتداء الثياب على ضوء الشموع: ولكننا أُعفينا من إجراءات الاغتسال، إذ كانت المياه متجمِّدة في الأباريق، فقد تحول الطقس في الليلة السابقة، وهبَّت ريح شمالية شرقية زمهرير، كانت تصفر خلال ثغرات نوافذ قاعة النوم طيلة الليل، فجعلتنا نرتعد في أسرّتنا، وأحالت محتويات الجرار إلى ثلج. وقبل أن تنقضي الساعة ونصف الساعة المخصصة للصلوات وقراءة التوراة، شعرت بأنني أوشك أن أهلك من البرد، وأخيرًا حانت ساعة الإفطار، ولم تكن العصيدة في هذا الصباح محترقة، بل كانت مستساغة، وإن كانت الكمية صغيرة. لكم بدا لي نصيبي ضيئلًا، ولشد ما وددت لو أنه تضاعف !

وسُجِّل اسمي خلال النهار في الغرفة الرابعة، وأُنيطت بي مهام وواجبات منتظمة. فقد كنت من قبل مجرّد متفرِّجة على الإجراءات المتبعة في لوود، أما الآن فأصبح عليَّ أن أشترك في العمل. وبدت لي الدروس طويلة وصعبة في البداية، إذ لم أكن قد اعتدت الحفظ عن ظهر قلب. كذلك أربكتني كثرة التنقل من عمل إلى عمل. واغتبطت عندما وضعت مس سميث بين يدي، حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر، قطعة قماش من الموسلين طولها ياردتان، مع إبرة ووقاء للإصبع «كشتبان» الخ، ثم أرسلتني لأجلس في ركن هادئ من قاعة الدرس، بعد أن كفّت طرفًا من القماش كي أعمل على نسقه .

وكانت معظم الأخريات ينصرفن إلى الحياكة في تلك الساعة. لكن طالبات إحدى الفرق ظللن متحلقات حول مس سكاتشيرد يقرأن. ولمَّا كان السكون شاملًا، فإن موضوع درسهن كان مسموعًا، وكذلك طريقة كل فتاة في القراءة، وانتقادات مس سكاتشيرد أو نصائحها بصدد الإلقاء. وكان الدرس في التاريخ الإنجليزي ولاحظت بين القارئات الفتاة التي تعرفت إليها في الشرفة. وكان مكانها في بداية الدرس في مقدمة الفرقة، ولكنها ما لبثت أن أرسلت إلى آخر الصف، لخطأ ارتكبته في النطق، أو لعدم انتباه إلى مواضع الوقوف في القراءة. ولم يعفها هذا التأخير من أن تخاطبها بعبارات كهذه :

«بيرنز (ويبدو أن هذا كان اسمها، فإن البنات كن يُنادين بألقابهن، كالأولاد في كل مكان)، إنكِ تقفين على جانبي حذاءيك، اعدلي كعبيك في الحال!». « بيرنز، إنك تلوين ذقنك في أبشع منظر، فاعدليها!». «بيرنز، إنني أصر على أن ترفعي رأسك، ولن أقبل أن تقفي أمامي بهذا الوضع!». إلـخ !

وقرأت الفتيات فصلًا كاملًا مرتين، ثم أغلقن الكتب، وبدأت المعلمة تختبرهن. وكان الدرس ينطوي على جزء من عهد الملك تشارلز الأول، وكانت ثمَّة أسئلة شتى بصدد حمولات السفن بالأطنان، وأسئلة أخرى عن الأجور، فبدا أن معظم الفتيات عاجزات عن الإجابة، ولكن كل سؤال عويص كان ينهار إذا ما وصل إلى بيرنز، وكأنما استوعبت ذاكرتها مادة الدرس كله، فكانت متأهِّبة للرد على كل نقطة! وظللت أتوقَّع أن تطري مس سكاتشيرد انتباهها، ولكنها بدلًا من ذلك، صاحت بغتة: «يا لكِ من فتاة قذرة، منفرة! إنك لم تنظِّفي أظافرك في هذا الصباح!». فلم تجب بيرنز، وعجبتُ لصمتها، فساءلتُ نفسي: «لماذا لا توضِّح أنها لم تكن تملك أن تنظف أظافرها، أو تغسل وجهها، لأن الماء كان متجمِّدًا؟». واجتذب انتباهي صوت مس سميث ترغب في أن أمسك حزمة من الخيط - بينما انهمكت في لفِّها، وهي تكلِّمني من آنٍ لآخر، متسائلة عمَّا إذا كنتُ قد ذهبت إلى مدرسة من قبل، وما إذا كنتُ أعرف غرز الرفو واللفق والحبك، وما إليها. ولم أستطِع أن أتابع مراقبتي لحركات مس سكاتشيرد. إلى أن صرفتني مس سميث عن مساعدتها، فلمَّا عدت إلى مقعدي، كانت تلك السيدة تصدر أمرًا لم أتبيَّن موضوعه، ولكن بيرنز غادرت غرفة الدرس في الحال، وذهبت إلى الغرفة الداخلية الصغيرة التي كانت الكتب تُحفظ فيها، ثم عادت بعد نصف دقيقة تحمل حزمة من فروع الشجرة مربوطة من أحد الأطراف، وقدَّمت هذه الأداة الفظيعة إلى مس سكاتشيرد في احترام بالغ، ثم فكَّت مرولتها في صمت ودون أن تُؤمر بذلك، فبادرت المعلمة إلى ضربها على عنقها بحزمة الفروع اثنتي عشرة ضربة قوية، دون أن تقفز إلى عيني بيرنز دمعة واحدة! وبينما توقَّفتُ أنا عن الحياكة، لأن أصابعي أخذت ترتعش تحت عاصفة من الغضب العاجز، غير المجدي، بسبب هذا المنظر - لم يظهر على قسَمات وجه بيرنز أي تغيّر. فصاحت مس سكاتشيرد: «يا لكِ من عنيدة! لا شيء يقوى على تقويم عاداتك القذرة، أعيدي حزمة العصا إلى مكانها!» وأطاعت بيرنز وتفرَّستُ فيها وهي تغادر مخزن الكتب، فإذا بها تدسّ منديلها من جيبها، وعلى خدِّها الناحل أثر لامع خلفته دمعة !

ووجدت أن ساعة اللعب في المساء هي أبهج فترات الفسحة في لوود في اليوم كله، إذ تكون شريحة الخبز، وقدح القهوة، اللذين نتناولهما في الساعة الخامسة، قد أنعشا نفوسنا، إن لم يكونا قد أشبعا جوعنا. كما يكون إرهاق النهار الطويل قد خفَّ، وغرفة الدرس أدفأ جوًا منها في النهار، إذ تتوهّج نيران مدفأتها بقدر أكبر، حتى تعوِّض - إلى حدٍّ ما - الحاجة إلى الشموع التي لا تكون قد جُلبت بعدُ إلى القاعة. فكانت الظلمة المشوبة بحمرة الوهج، والصخب المباح، واختلاط الأصوات العديدة، يوحي للواحدة منا بشعور من التحرُّر مستحَب! وفي مساء اليوم الذي ضربت فيه مس سكاتشيرد تلميذتها بيرنز،

رحت أهيم كالعادة بين المناضد، والجماعات الضاحكة، دونما رفيق، ودون شعور بالعزلة مع ذلك! فلما مررت بالنوافذ رحت من آن إلى آخر أرفع الستار الخشبي الليِّن، وأطل على الخارج.. وكان الصقيع يتساقط منهمرًا، وقد بدأ يتجمَّع خارج الألواح السفلى من زجاج النوافذ، فكنت ألصق أذني بالنوافذ، وأميز خلال الصخب المشابه لهدير الموج عويل الريح في الخارج !

وربما كانت تلك هي الساعة التي كان يجب أن أحسّ فيها بلوعة الفراق في أشدّها، لو أنني اغتربت عن بيت طيب وأهل كرماء! فقد كانت تلك الريح كفيلة بأن تحزن فؤادي، وكانت تلك الظلمة المدلهمَّة خليقة بأن تعكِّر صفوي. أما وتلك كانت حالي، فقد استمددت من الريح والظلمة انفعالاً غريبًا، مستهينًا، محمومًا، فوددت لو أن الريح قست في عوائها والظلمة تفاقمت، والاضطراب استفحل إلى هياج! وشققت طريقي، قافزة فوق المقاعد زاحفة تحت الموائد-إلى إحدى المدافئ، وهناك وجدت بيرنز راكنة إلى جوار حاجز عالٍ من السلك، مستغرقة في صمت، منصرفة عن كل ما حولها، في رفقة كتاب كانت تقرؤه على وهج النار المعتم، فسألتها وأنا أقترب من خلفها: «أهو راسيلاس في هذه المرة أيضا؟». فقالت: «أجل، لقد أوشكت أن أفرغ منه». وإن هي إلّا جمس دقائق حتى أغلقته، فسررتُ لذلك، وقلتُ لنفسي: «لعلني الآن أستطيع أن أتبادل معها الكلام». وجلستُ على الأرض بجانبها، وسألتها :

- «ما اسمك الذي يسبق بيرنز؟»، فأجابت: «هيلين ».

- «هل وفدتِ من مكان بعيد عن هنا؟ ».

- «جئت من مكان بعيد شمالًا، على حدود اسكتلندا تقريبًا ».

- «هل ستعودين إليه يومًا؟ ».

- «آمل ذلك، ولكن أحدًا لا يملك أن يطمئن للمستقبل ».

- «لا بد أنَّكِ تتمنين مفارقة لوود؟ ».

- «لا، ولماذا أتمنَّى ذلك؟ لقد أُوفدت إلى لوود لأتعلَّم، ولن يكون لرحيلي نفعٌ ما لم أصِل إلى تلك الغاية ».

- «ولكن تلك المعلمة، مس سكاتشيرد، جد قاسية عليكِ !».

- «قاسية؟ أبدًا! إنما هي صارمة، تكره أخطائي ».

- «أما أنا، فلو كنتُ في مكانكِ لكرهتها، ولقاومتها إذا هي ضربتني بتلك العصا، حتى آخذها منها وأكسرها تحت بصرها ».

- «ما أراكِ تفعلين شيئًا من هذا القبيل، أما إذا فعلته، فإن مستر بروكلهرست يفصلك من المدرسة، وهذا لا بد يحزن أقرباءك كثيرًا، ومن الخير أن يحتمل المرء بصبر عقابًا لن يحس به أحد سواه، عن أن يرتكب تصرفًا متهوِّرًا تمتد نتائجه السيئة إلى كل من له بك علاقة. وبجانب هذا فإن التوراة تأمرنا بأن نرد السيئة بالحسنة !».

- «ولكن، مع ذلك، من المعيب أن يُضرب المرء، وأن يؤمر بالوقوف في وسط حجرة مليئة بالناس. ثم إنك فتاة كبيرة، ومع أنني أصغر منكِ بكثير، إلّا أنني لا أطيق احتمال هذه المعاملة !».

- «إن احتمالها يغدو واجبًا عليك، إذا لم يكن في وسعك تفاديها. ومن الضعف والحماقة أن تقولي إنكِ «لا تستطيعين احتمال ما هو مطلوب منك أن تحتمليه »!».

كنت أستمع إليها في عجب، وأنا لا أستطيع إدراك هذا المذهب الذي يدعو إلى الاحتمال. وكنت أقل فهمًا وتقديرًا للتسامح الذي أفصحت عنه نحو معذِّبتها. ومع ذلك فقد شعرت بأن هيلين بيرنز كانت تقدِّر الأمور على ضوء لا تبصره عيناي. وساورني الشعور بأنها ربما كانت مصيبة وأنا المخطئة، ولكني لم أشأ أن أتعمَّق في تأمُّل المسألة، بل آثرتُ أن أدعها جانبًا إلى وقت مناسب. وتساءلت :

- «تقولين إن لكِ أخطاء يا هيلين، فما هي؟ إنكِ تبدين لي طيبة جدًا ».

- «إذن فتعلَّمي مني أنه لا ينبغي أن تحكمي بالمظاهر. إنني - كما وصفتني مس سكاتشيرد-أميل للقذارة. ثم إنني نادرًا ما أضع الأشياء في مكانها أو أحتفظ بها في نظام، فأنا مهملة وأنسى القواعد، وأقرأ في الوقت الذي ينبغي أن أذاكر فيه دروسي، وليس لي أسلوب معيَّن، وأحيانًا أقول - كما تقولين - إنني لا أستطيع أخضع لإجراءات منظمة. وكل هذا يثيِّر مس سكاتشيرد جدًا، فهي بطبعها نظيفة، دقيقة، لها أسلوب معيَّن محدَّد ».

فأضفتُ: «وهي سريعة الغضب، وقاسية». ولكن هيلين بيرنز أبت أن تقر هذه الإضافة، فظلَّت صامتة .

وعدتُ أسالها: «هل مس تمبل قاسية عليكِ مثل مس سكاتشيرد؟»، وطافت بوجهها العابس ابتسامة ناعمة عند ذكر اسم مس تمبل، وقالت :

- «إن مس تمبل مفعمة بالطيبة، وإنه ليؤلمها أن تقسو على أي واحدة، ولو كانت أسوأ مَن في المدرسة! إنها ترى أغلاطي، وتبصِّرني بها في لطف، وإذا فعلت شيئًا يستحق الإطراء، فإنها تفيني حقي دون تردد. ومن أقوى الأدلة على النقص المشين الذي جبلت عليه أن عتابها - على رقّته، وقوته المنطقية - لم يؤثِّر عليَّ إلى الدرجة التي تبرئني من أغلاطي. بل إن إطراءها، برغم أنني أعتز به إلى أسمى درجة، لا يستطيع أن يحفِّزني على العناية المستمرة وعلى بعد النظر ».

فقلت: «هذا عجيب، إن الاعتناء أمر سهل ».

- «لا شك عندي في أنه كذلك بالنسبة لكِ، فقد لاحظتكِ في فرقتكِ هذا الصباح، ورأيتُ أنكِ كنتِ شديدة الانتباه، ولم يبدُ أن فكركِ شرد إطلاقًا بينما كانت مس ميلر تشرح الدرس، وتسألكن. أمَّا عقلي، فهو هائم دائمًا. وعندما ينبغي عليَّ أن أنصت إلى مس سكاتشيرد وأن أستوعب كل ما تقول في انتباه، كثيرًا ما أفقد حتى رنة صوتها، وأستسلم لنوع من الحلم، فأخال نفسي أحيانًا في نور ثمبرلاند، وأن الأصوات التي أسمعها حولي هي خرير جدول صغير يجري خلال «ديبدن»، بالقرب من دارنا، فإذا جاء دوري في الرد على أسئلة المدرّسة، اضطررت إلى الاستيقاظ، وبما أنني لا أكون قد سمعت شيئًا مما قُرئ، لا أجد جوابًا !».

- «ومع ذلك، فقد كنت موفقة في الإجابات بعد ظهر اليوم !».

- «هذه مجرد مصادفة، فالموضوع الذي كنَّا نطالعه راق لي، وبدلًا من أن أحلم بدبيدن - بعد ظهر اليوم-رحت أعجب وأتساءل، كيف يُقدَّر لرجل كان يبغي الخير، أن يتصرَّف بغير عدل ولا حكمة كما كان الملك تشارلز الأول يفعل في بعض الأحيان! وخطر لي أنه مما يُرثى له، أنه برغم استقامته وتقوى ضميره، لم يستطِع أن يمد بصره إلى أبعد من امتيازات التاج. ليته تمكن من أن ينظر إلى أبعد من ذلك قليلًا، فرأى كيف كانت تتجه روح العصر، كما يسمُّونها! على أنني - برغم ذلك-أحب تشارلز وأحترمه، وأرثى لذلك الملك المسكين القتيل! أجل، فإن أعداءه كانوا أسوأ منه، إذ أراقوا الدم الذي لا يملكون حق إراقته.. كيف تجاسروا على قتله؟ ».

وكانت هيلين قد انقلبت تحدِّث نفسها، ونسيت أنني كنت لا أفهمها جيدًا، وأنني كنت جاهلة-أو ما يقِرب من ذلك -بالموضوع الذي كانت تتحدَّث عنه. ورددتها

إلى مستواي، إذ سألتها :

- «وعندما تتولى مس تمبل التدريس لك، هل تشرد أفكارك؟ ».

- «لا، بالتأكيد، لا تشرد كثيرًا، لأن مس تمبل تقدم عادة مادة جديدة، أكثر جدة من تأملاتي، ولغتها تروق لي بدرجة فذَّة، والمعرفة التي تلقيها هي في الغالب الشيء الذي أتوق إلى تحصيله !».

- «إذن، فأنت مع مس تمبل تلميذة طيبة؟ ».

- «أجل، بطريقة سلبية، إذ إنني لا أبذل جهدًا، وإنما أتبع ميلًا يهديني، وليس لي أي فضل في مثل هذه الطيبة !».

- «بل لكِ فضل كبير، لأنكِ تكونين طيبة مع الذين يبدون طيبة في معاملتك. إن هذا كل ما أصبو إليه. أمَّا لو ظل الناس مهذَّبين ومطيعين لأولئك القساة الظالمين، لمضى اللئام في غيهم، ولما شعروا بخوف على الإطلاق، ولما تغيرت حالهم، بل لازدادت سوءًا! فنحن عندما نُصفع دون مبرر، يجب أن نرد الصفعة بقسوة بالغة. أجل، إنني أرى ذلك واجبًا، ولتكن الصفعة من القسوة بحيث يفهم مَن يصفعنا أن عليه ألّا يعود إلى ذلك قط !».

- «لسوف تغيرين رأيك، كما آمل، عندما تكبرين. أمَّا الآن، فأنتِ مجرد فتاة صغيرة، لم تتعلّمي بعد ».

- «ولكن هذا شعوري يا هيلين، يجب أن أكره أولئك الذين يدفعونني إلى كرههم مهما فعلت لإرضائهم! يجب أن أقاوم أولئك الذين يعاقبونني ظلمًا، إنه أمر طبيعي، كما ينبغي أن أحب أولئك الذين يبدون نحوي عطفًا، وأن أتقبَّل العقاب عندما أشعر بأنني أستحقه !».

- «إن الوثنيين والقبائل الهمجية يعتقدون بهذا الرأي، أما المسيحيون والأمم المتمدنة، فينكرونه ».

- «وكيف ذلك؟ إنني لا أفهم لماذا !».

- «العنف خير طريقة للتغلب على الكراهية، والانتقام ليس خير طريقة لمحو الإساءة !».

- «فماذا إذن؟ ».

- «اقرئي التوراة، واعملي بما يقول المسيح وانظري كيف يتصرَّف، اجعلي كلمته قاعدة لكِ، ومسلكه مثالًا تقتدين به ».

- «وماذا يقول؟ ».

- «أحب أعداءك وبارك لاعنيك، واحسن إلى مبغضيك وظالميك ».

- «إذن عليَّ أن أحب مسز ريد، وهو ما لا أستطيعه، وعليَّ أن أبارك ابنها جون، وهو أمر مستحيل !».

وسألتني هيلين بيرنز - بدورها-عمَّا أعني، فشرعت أفضفض لها بقصة آلامي وأحقادي، كما كنت أراها. وإذ أثارتني المرارة والشراسة، رحت أتكلم بوحي من شعوري، دونما تحفّظ أو تلطُّف. وظلَّت هيلين تسمعني صابرة، حتى النهاية. وتوقعت أن تعلِّق على ما قلت، ولكنها لم تقل شيئًا. فسألتها نافدة الصبر :

- «حسنًا، أليست مسز ريد امرأة قاسية القلب، سيئة؟ ».

- «لقد كانت غير رحيمة بكِ، دون شك، لأنها - كما ترين-تكره النوع الذي فُطر عليه خلقك، كما تكره مس سكاتشيرد خُلُقي. ولكن، ما أدق تذكرك لكل ما فعلت أو قالت! وما أعجب وأعمق الأثر الذي خلَّفه ظلمها في فؤادكِ! لم تترك أي إساءة طابعًا مثل هذا على مشاعري. ألا تكونين أسعد حالًا، لو أنك حاولت أن تنسي قسوتها، وتنسي الانفعالات ا التي تثيرها في نفسك؟ إن الحياة تبدو لي أقصر من أن تُنفق في تنمية البغضاء، وتسجيل الأخطاء. إننا مثقلون - ولا بد من أن نكون مثقلين - بالأخطاء في هذه الحياة الدنيا، كأفراد أو جماعة، ولكنّا - في وقت سيحين عمَّا قريب، فيما أعتقد - سنتخلَّص من خطايانا إذا ما تخلَّصنا من أجسادنا المثقلة بالفساد. سيهوي عنَّا كل درن وخطيئة، مع هذا البدن المثقل. ولن تبقى سوى جذوة الروح-الجوهر غير الملموس للحياة والفكر-نقية كما كانت حين غادرت الخالق لتنبت في المخلوق. سوف تعود من حيث أتت، وربما أوفدت ثانية إلى مخلوق أرقى من الإنسان، وربما انتقلت في مراقي المجد، من النفس البشرية الباهتة، لتُشرق في ملاك! ولكن، هل من المؤكد أنها لن تتعرَّض لعكس هذا، فتنحطّ من الإنسان إلى الشيطان؟ لا، لا يمكن أن أؤمن بهذا، إنما أؤمن بعقيدة أخرى، لم يعلّمنيها أحد، ونادرًا ما أكشف عنها لأحد، ولكنني أجد فيها غبطة، وأتشبَّث بها، لأنها تبسط الأمل للجميع. فهي تجعل من الحياة الأخرى راحة، ومقر طمأنينة، وليست موطن فزع، أو هوَّة سحيقة. ثم إنني بهذه العقيدة أستطيع أن أميز بين المجرم وجريمته، وفي وسعي أن أغفر للأول مخلصة، بينما أدين الأخرى. بهذه العقيدة

لا يمكن للانتقام أن يضني فؤادي إطلاقًا، ولا يمكن للإهانة أن تثيرني إثارة عميقة، ولايمكن للظلم أن يسحقني. وإنما أعيش في هدوء، أرتقب النهاية ».

ومع أن رأس هيلين تنحني دائمًا، إلّا أنها ازدادت انحناء على صدرها، وهي تنهي جملتها، وأدركت من نظرتها أنها لم تعد راغبة في الحديث معي، وإنما أصبحت تؤثر أن تتحدَّث مع أفكارها الخاصة .

على أنها لم تحظَ بوقتٍ كافٍ للتأمل، إذ ما لبثت أن قدمت إحدى العريفات، وكانت فتاة كبيرة، خشنة، فصاحت في لهجة أهل كمبرلند القاسية :

- «إذا لم تذهبي يا هيلين بيرنز فترتبي درجك، وتطوي شغل الإبرة الخاص بكِ في هذا الدقيقة، فسأدعو مس سكاتشيرد لكي تلقي نظرة عليه !

وتنهَّدت هيلين إذ تبدَّد خيالها، ونهضت منصاعة لرغبة العريفة دونما جواب أو إرجاء .

الفصل السابع

بدا الربع الأول من العام الذي قضيته في لوود دهرًا، ولم يكن دهرًا ذهبيًا، وإنما اشتمل على كفاح مضنٍ مع العقبات التي كانت تعترض ترويض نفسي على النظم الجديدة، والواجبات غير المألوفة. وكان خوف الفشل في هذه الأمور أقسى إيلامًا لجسدي من المتاعب البدنية التي كان عليَّ أن أحتملها، وإن لم تكن بسيطة. وكان الجليد السميك يعوقنا عن أن نتحرَّك خطوة بعد أسوار الحديقة - اللهم إلَّا إلى الكنيسة - خلال يناير وفبراير وقسط من مارس. وظللنا على هذه الحال، حتى بعد ذوبان الجليد. ومع ذلك، فقد كان علينا أن نقضي ساعة كل يوم في الهواء الطلق، داخل هذه الحدود. وكانت ملابسنا لا تكفي لحمايتنا من البرد القارس، ولم تكن لدينا أحذية عالية، فكان الثلج يدخل في أحذيتنا العادية، ويذوب فيها. وتجمَّدت أيدينا العارية وتشققت وتورّمت، وكذلك أرجلنا. وإني لأذكر تمامًا الألم الذي كنت أعانيه ليلًا من جرَّاء هذه الحالة، عندما التهبت قدماي. والعذاب الذي كان يتأتى من دس أصابع قدمي المتورِّمة، الخشنة، والمتيبِّسة، داخل الحذاءين في كل صباح. ثم إن كمية الطعام الهزيلة كانت تبعث على الأسى، إذ كنَّا - ونحن أطفالًا في طور نموهم-لا نحصل من الطعام على ما يكفي لبقاء مريض، هزيل، على قيد الحياة! وترتَّبت على هذا النقص في التغذية، عادة سيئة اشتدت وطأتها على التلميذات الصغيرات: كانت الفتيات الكبيرات الجائعات يحرمن الصغيرات من نصيبهن من الطعام، بالإغراء أو بالوعيد، كلما سنحت لهن الفرصة! وكم من مرة اقتسمت مع اثنتين من المغتصبات شريحة الخبز الأسمر الغالية التي تُوزَّع في الساعة الخامسة مساء، وبعد أن أقسم محتويات قدح القهوة إلى نصفين، ثم أقسم النصف المتبقي إلى نصفين آخرين، وأزدرد ما بقيَ لي مع الدموع المستترة، التي ينتزعها الجوع من مقلتي !

وكانت أيام الآحاد أيامًا بغيضة في الشتاء، إذ علينا أن نسير مسافة ميلين إلى كنيسة بروكليريدج، حيث يؤدي راعينا الطقوس الدينية. وكنَّا نبدأ الرحلة ونحن نشعر بالبرد، فنصل إلى الكنيسة وقد اشتدت علينا وطـأته، ولا نلبث أن نصبح شبه مشلولات خلال قدَّاس الصباح. وكانت المسافة أبعد من أن نتمكن من قطعها والعودة إلى المدرسة قبل موعد الغداء، ومن ثم كانت تُوزَّع علينا بين الطقوس وجبة من اللحم البارد والخبز، بنفس التقتير الذي كان يميّز وجباتنا العادية. وكنا نعود-بعد قداس بعد الظهر-عبر طريق جبلية، تهب عليها ريح الشتاء القارسة التي تطوف بسلسلة من القمم الجليدية في اتجاهها نحو

الشمال، فتسلخ جلود وجوهنا. وما زلت أذكر مس تمبل وهي تسير في خطى خفيفة سريعة، بجوار صفنا المتداعي، ضامة حول جسمها عباءتها التي كانت الريح الجليدية تعبث بها. وقد مضت تشجعنا وتضرب لنا المثل عمليًّا، حتى نحتفظ بروحنا المعنوية، فتسير قُدُمًا، مثل «الجنود البواسل»، كما كانت تقول! أما المدرّسات الأخريات، فيا لهن من مسكينات! كن من التداعي والغم بحيث لا يستطعن محاولة إدخال البهجة على الآخرين !

وشد ما كان تلهّفنا إلى ضوء النيران المستعرة وحرارتها عندما كنا نعود! ولكن هذا كان محرَّما على الصغيرات، على الأقل، إذا سرعان ما كانت كل مدفأة في قاعة الدرس تحاط بصفَّين من البنات الكبيرات، وقد انكمشت خلفهن الصغيرات وهن يجذبن أطراف مراويلهن على أذرعهن العجفاء... وكنا نجد عزاءً طفيفا في موعد الشاي، حيث يتضاعف نصيبنا من الخبز... فنحصل على شريحة كاملة بدلا من نصف شريحة، وقد أضيف إليها طبقة خفيفة -ولكنها لذيذة-من الزبدة... تلك كانت المنحة الأسبوعية التي نتطلع إليها بلهفة من الأحد إلى الأحد...وكنت أجتهد لأستطيع أن أحتفظ بنصف هذه الوجبة السخية لنفسي... أما الباقي، فكنت أضطر دائما إلى التفريط فيه! وكنا نقضى مساء الأحد في «تسميع» دروس الدين والإصحاحات الخامس والسادس والسابع من إنجيل متّى، وفي الإصغاء إلى ترنيمة طويلة تنشدها مس ميلر التي كان تثاؤبها الملحاح يشير إلى تعبها... وكثيرًا ما كان يُضاف إلى ذلك تمثيل جزء من يوتيكس، تؤديه خمس أو ست من البنات الصغيرات، اللاتي كن يسقطن - وقد غلبهن النعاس - من ثالث أو رابع طبقة من المقاعد المصفوفة بعضها فوق بعض، فيُحملن شبه أموات... وكان العلاج يتمثَّل في دفعهم إلى وسط حجرة الدرس، وإجبارهن على أن يقفن هناك إلى أن تنتهي الصلاة! وكانت أقدامهن تخونهن أحيانًا، فيتهالكن على الأرض، وإذ ذاك تخف العريفات إلى إكراههن على النهوض !

ولم أُشر بعد إلى زيارات مستر بروكلهرست، فالواقع أن هذا السيد كان بعيدًا عن المنطقة خلال القسط الأكبر من الشهر الأول الذي أعقب وصولي، ولعله يطيل إقامته مع صديقه الأرشيدوق. وكان غيابه مبعث راحة لي، وما أراني بحاجة إلى أن أذكر أسباب إجفالي من مقدمه... ولكنه قدم في النهاية !

فبعد ظهر ذات يوم - وكنت قد قضيت ثلاثة أسابيع في لوود-كنت أجلس وبين يديّ لوح من الإردواز، أجهد في حل مسألة في القسمة كانت طويلة. وفيما كنت أرفع رأسي، اتجه بصري في شرود نحو النافذة، وإذا بي ألمح شخصًا يمر. وعرفت -بالغريزة-صاحب ذلك القوام الطويل، النحيل... ولمَّا وقفت المدرسة كلها - بما في ذلك المدرّسات - بعد دقيقتين، لم يكن عندي شك في

هوية الشخص الذي نهض الجميع تحية لمقدمه... فقد ذرعت خطوة طويلة عرض حجرة الدرس، وسرعان ما انتصب إلى جوار مس تمبل - التي نهضت هي الأخرى- «العمود الأسود» نفسه الذي أطل عليَّ في نذير من فوق سجادة حجرة الإفطار في جيتسهيد! وأخذتُ أوجِّه نظرات مختلسة-من جوانب عيني- نحو هذا النصب! أجل، كنتُ على حق، فقد كان الزائر هو مستر بروكلهرست، وقد غاب جسمه في معطف وبدا أطول قامة، وأقل عرضًا، وأصلب من ذي قبل !

وكان لي من الأسباب ما يبرّر تخوّفي من هذه الزيارة، إذ ما زلت أذكر الملاحظات المفترية التي صدرت عن مسز ريد، حول مسلكي وخُلُقي... إلخ. والوعد الذي قطعه مستر بروكلهرست على نفسه بأن ينبِّه مس تمبل والمدرِّسات إلى خبث طبعي! وكنت طيلة الوقت أخشى تنفيذ هذا الوعد. كنت أرتقب في كل يوم مجيء الرجل الذي كانت معلوماته عن ماضي حياتي كفيلة بأن تصمني إلى الأبد بأنني فتاة سيئة الخلق! وها هو قد جاء ووقف إلى جوار مس تمبل، وراح يتكلَّم في أذنها بصوت خفيف! ولم أرتب في أنه كان يفضي إليها بخبثي... ورحت أرقب عينيها في قلق أليم، متوقِّعة في كل لحظة أن أرى نظرها يتجه نحوى في نظرة مستهجنة، مزدرية. ورحت أنصت! ولمَّا كنت أجلس في مقدمة الحجرة، فقد التقطت معظم ما قاله، وسرعان ما تبدَّدت هواجسي، إذا كان يقول: «أظن يا مس تمبل أن الخيط الذي ابتعته من لوتون سيصلح. فقد خطر لي أنه الصنف الذي يلائم القمصان، كما عثرتُ على إبر مناسبة. ولكِ أن تذكري لمس سميث أنني نسيت إبر الرفو، ولكنها لن تلبث أن تتسلَّم كمية في الأسبوع القادم، وليس لها أن تعطي كل تلميذة أكثر من إبرة واحدة، في أي وقت، مهما يكن الداعي، فهن إذا وجدن أكثر من إبرة، مِلن إلى الإهمال، وبدَّدنها. ثم، آه يا سيدتي! كنت أتمنى أن الجوارب الصوفية كانت أحسن منظرًا! فعندما كنت هنا آخر مرة، ذهبت إلى حديقة المطبخ، وفحصت الملابس التي كانت منشورة على الحبل. كانت ثمَّة كمية من الجوارب السود في أشدِّ الحاجة إلى رتق، وقد تأكدت من حجم الثغرات وأنها لم تكن تُرتق جيدًا بين آن وآخر». وأمسك عن الكلام. فقالت مس تمبل: «سأعنى بتوجيهاتك يا سيدي». واستطرد قائلًا: «ولقد أخبرتني الغاسلة يا سيدتي، أن بعض البنات يحصلن على ثوبين نظيفين في الأسبوع الواحد، وهذا كثيرٌ جدًا، إذ إن الأصول تحدِّد ذلك بثوب واحد !».

- «أظنني أستطيع أن أشرح لك ذلك الظرف يا سيدي، فقد دُعيت أجنس وكاثرين وجونسون لتناول الشاي لدى بعض الصديقات في لوتون يوم الخميس الماضي، فسمحت لهن بأن يرتدين ثيابًا نظيفة لهذه المناسبة ».

هزَّ مستر بروكلهرست رأسه، وقال: «حسنًا، يمكن التجاوز مرة، ولكني أرجو ألّا تدعي الظروف تتكرَّر كثيرًا. وهناك شيء آخر أدهشني: لقد وجدت عند تسوية الحسابات مع مدبِّرة الدار، أن وجبة من الخبز والجبن قُدِّمت مرتين للبنات خلال الأسبوعين الماضين. فكيف كان ذلك؟ إنني أرجع إلى اللوائح، فلا أجد ذكرًا لمثل هذه الوجبة. من الذي أدخل هذا التجديد، وبأي حق؟» فأجابت مس تمبل: «أنا المسؤولة عن هذا التصرف يا سيدي، فقد كان الفطور سيئ الطهو، حتى إن التلميذات لم يستطِعن تناوله، ولم أقوَ على أن أدعهن من دون فطور إلى موعد الغداء !»

- «اسمحي لي بملاحظة يا سيدتي: إنك ولا بد تدركين أن فكرتي في تربية هؤلاء البنات على عدم تعويدهن عادات الترف والبذخ، بل ترويضهن على الخشونة، والصبر، وإنكار الذات. فإذا حدث شيء تافه طارئ يذهب برغبتهن في الأكل - كإفساد الطعام أو التقتير أو الإسراف في طهو صنف - فلا ينبغي أن يعالج الحادث بإبدال الشيء المضيَّع بشيء مرفَّه. وإلّا أفسدنا الجسد، وحِدنا عن هدف هذا المعهد! يجب أن يُعمل على تحسين البنيان الروحي للتلميذات، بتشجيعهن على أن يتذرَّعن بقوة النفس على تحمّل الحرمان الموقوت، وإن محاضرة موجزة في أمثال هذه الظروف لن تكون في غير وقتها المناسب، فالمربية العاقلة تنتهز الفرصة لتشير إلى آلام المسيحيين الأوائل وإلى عذاب الشهداء ونصائح السيِّد نفسه، وهو يدعو رسله أن يحملوا صليبهم ويتبعوه... وإلى قوله: «إن الإنسان لن يعيش على الخبز وحده، وإنما على كل كلمة تنبعث من فم الله، والى مواساته المقدّسة». أوَّاه يا سيدتي! إنكِ حين تضعين الخبز والجبن، بدلًا من العصيدة المحترقة، في أفواه هؤلاء الأطفال، إنما تغذين في الواقع أجسادهم الخسيسة، ولكنكِ لا تفكرين كثيرًا في أنكِ تجيعين نفوسهم الخالدة !».

وصمت مستر بروكلهرست مرة أخرى، ولعله كان يقاوم مشاعره. وكانت مس تمبل قد غضَّت بصرها حين شرع يتحدَّث إليها ولكنها الآن أخذت تحدِّق في ما أمامها بنظرة ساكنة، وقد بدا أن وجهها - الشاحب في لون المرمر عادة - قد اتخذ من هذا الحجر بروده، وجموده. لا سيما فمها الذي انطبق فكأنما كان يحتاج إلى إزميل نحات ليفتحه، وجبينها الذي انعقد على عبوس قاس. وكان مستر بروكلهرست في هذه الأثناء يتأمَّل المدرسة بأسرها في جلال وعظمة، وقد وقف عند المدفأة ويداه خلف ظهره. وفجأة، طرفت عينه، وكأنها وقعت على شيء بهر مقلتها أو صدَمها، ثم التفت قائلًا في لهجة متسارعة أكثر من ذي قبل: «مس تمبل... ما هذه... ما هذه الفتاة ذات الشعر المجعَّد؟ شعر أحمر يا سيدتي... ومجعَّد...مجعد من أوله إلى آخره؟». ومد عصاه مشيرًا إلى

الشيء الذي أزعجه، وقد أخذت يده ترتجف. فقالت مس تمبل في هدوء: «إنها جوليا سيفيرن ».

- «جوليا سيفيرن... يا سيدتي! ولماذا يكون لها أو لسواها شعر مجعد؟ لماذا تساير الدنيا علنًا بهذا الشكل، برغم كل مبدأ وخطة لهذه الدار - وهي مؤسسة إنجيلية خيرية - فتجعِّد شعرها من أوله إلى آخره؟

فقالت مس تمبل. وهي أهدأ من ذي قبل: «إن شعر جوليا مجعد بطبيعته !».

فهتف: «بطبيعته! ولكننا يجب ألا نرضخ للطبيعة. إنني أرغب في أن تكون هؤلاء الفتيات متدينات، فلماذا التساهل؟ لقد نبَّهت مرارًا وتكرارًا إلى أنني أريد الشعر منسَّقًا في استرسال، وبساطة، وخلوّ من الزخرف. يجب أن يقص شعر البنت عن آخره يا مس تمبل، وسأرسل غدًا حلاقًا. ثم إنني أرى فتيات أخريات ذوات شعور طويلة أكثر مما ينبغي. قولي لهذه الفتاة الطويلة أن تعتدل. قولي لكل الفرقة الأولى أن تنهض، فتولين وجوههن شطر الحائط !».

ومرت مس تمبل بمنديلها على فمها وكأنها تمحو الابتسامة التي ارتسمت على الرغم منها عليه، ثم أصدرت الأمر... فلمَّا أدركت بنات الفرقة الأولى ما يُراد منهن أطعن. وإذ ملت قليلًا إلى الوراء - في مجلسي - استطعت أن أرى الغمزات والابتسامات الساخرة التي عقَّبن بها على هذا العمل... ومن المؤسف أن مستر بروكلهرست لم يكن يستطيع أن يرى ذلك، وإلا فلعله كان يدرك أنه مهما يفعل بالمظهر الخارجي للكوب والطبق... فإن الجوف بعيد عن متناوله بأكثر مما كان يخال! وراح يتمعَّن في ظهور تلك التماثيل الحية زهاء خمس دقائق، ثم نطق بحُكمه. وقعت كلماته كالصاعقة: «يجب أن تقص كل فتاة الخصلات العليا». ولاح على مس تمبل الانزعاج، فقال: «إن لي سيدًا يا سيدتي، يجب أن أخدمه، وليست مملكته في هذه الدنيا. إن رسالتي هي أن أقتل في هؤلاء الفتيات كل شهوات الجسد، وأن أعلِّمهن كيف يكسين أجسادهن في حشمة واعتدال، فلا يظهرن بشعور منمَّقة، وثياب فخمة، ما من فتاة من هؤلاء الصغيرات إلّا ولديها خصلة من شعر مجعدة في زينة، ولعل الغرور نفسه هو الذي عقصها! إنني أكرِّر أن كل هذا يجب أن يُقص.. فكِّري في الوقت الذي تبدَّد في...» وقطع عليه حديثه دخول ثلاث زائرات، كان يُفترض بهن أن يصلن قبل تلك اللحظة، ليسمعن محاضرته عن المظهر، إذ كن متسربلات بثياب فخمة من المخمل والحرير والفراء! وكانت أصغر اثنتين من الثلاث، وهما فتاتان رقيقتان في السادسة عشرة والسابعة عشرة، ترتديان قبعتين من الفراء الرمادي - كما كان الطراز الشائع إذ ذاك - وقد زانهما ريش الطاووس. ومن تحت حواف هاتين القبعتين الأنيقتين كانت تنسدل خصل من

الشعر الخفيف، مجعّدة في عناية بديعة، أما السيدة الكبيرة، فكانت متَّشحة بشال مخملي ثمين، زُركشت أطرافه، وقد ارتدت قلنسوة من شعر مستعار، نُسِّق على النمط الفرنسي !

استقبلت مس تمبل السيدات - بوصفهن مسز بروكلهرست وابنتيها - ورافقتهن إلى مقاعد الشرف في صدر الحجرة وبدا أنهن جئن في العربة مع قريبهن الموقَّر، فاقتُدن في جولة لتفقد حجرات الطابق الثاني، بينما كان هو يحاسب مدبِّرة الدار، ويسأل الغاسلة، ويلقي محاضرته على الناظرة. ولم يلبثن أن شرعن في إبداء مختلف الملاحظات والانتقادات لمس سميث التي كانت موكلة بالعناية بالبياضات، وبتفقُّد حجرات النوم. ولكني لم أجد وقتًا للإنصات إلى ما كنّ يقلن، إذا أسرت انتباهي شؤون أخرى. كنت أثناء التقاط حديث مستر بروكلهرست ومس تمبل - من قبل - لم أغفل اتخاذ الحيطة لضمان سلامتي الشخصية، التي خُيِّل إليَّ أنها ستغدو معرَّضة للخطر إذا أنا لفتّ الانتباه! ومن أجل هذه الغاية انكمشتُ في المقعد، وبينما كنتُ أتظاهر بالانهماك في مسألتي الحسابية، أمسكت لوحي الاردوازي بطريقة تخفي وجهي. ولعلني كدت أفلت من الانتباه لولا أن لوحي الغادر انزلق من يدي بطريقة ما، فوقع محدثًا جلبة اجتذبت الأنظار نحوي مباشرة! وأدركت أن كل شيء قد انتهى، فانحنيت ألتقط حطام اللوح، واستجمعت قواي لأسوأ ما يأتي به الظرف. وسرعان ما أتى! فقد قال مستر بروكلهرست: «يا لها من بنت مهملة!». ثم أردف في الحال: «أرى أنها التلميذة الجديدة». وقبل أن أتمالك نفسي، قال: « يجب ألّا أنسى أن لديَّ كلمة بشأنها». ثم استطرد بصوت أعلى :

- «لتأتِ الطفلة التي كسرت اللوح إلى هنا !».

وما كنتُ لأقوى على الحراك من تلقاء نفسي، إذ أُصبت بالشلل، ولكن البنتين الكبيرتين، اللتين كانتا تجلسان إلى جانبي-من الناحيتين - أوقفتاني على ساقيّ، ودفعتاني نحو القاضي الرهيب. وإذ ذاك ساعدتني مس تمبل في رفق لأقف أمامه، وسمعتها تهمس مسرِّية عنِّي: «لا تخافي يا جين، لقد رأيتُ أن الأمر كان عفوًا... لن تعاقَبي!». وغاصت الهمسة اللطيفة في قلبي كالخنجر! وجال بخاطري: «إنها لن تلبث بعد دقيقة أن تحتقرني كفتاة غشاشة!». وانسابت في عروقي نفثةٌ من حقد نحو ريد، وبروكلهرست، وشركائهما، فقلت لنفسي إنني لست على غرار هيلين بيرنز. بينما قال مستر بروكلهرست، مشيرًا إلى مقعد مرتفع، غير ذي ظهر أو مستندين، نهضت عنه إحدى العريفات: «أحضرن هذا المقعد». فجيء بالمقعد! وقال: «اجلسن الطفلة عليه!». فرُفعت إليه، وإن لم أدرِ من التي رفعتني، فما كنت في حال ألاحظ

معها مثل هذه التفصيلات، وغاية ما هنالك أنني أحسست بنفسي أرفع إلى ارتفاع أنف مستر بروكلهرست، وأبصرت أنه على قيد ياردة مني، وأن مساحة من أقمشة حريرية برتقالية وقرمزية انتشرت أمامي وغمامة من ريش فضِّي امتدت مرفرفرة تحتي. وقال مستر بروكلهرست وهو يلتفت لأسرته :

- «أيتها السيدات، ويا مس تمبل، وأيتها المدرسات والتلميذات، هل تبصرن جميعًا هذه البنت؟». وكن يبصرنني بالطبع إذ كنت أشعر بأعينهن موجهة نحوي، وكأنها عدسات حارقة تكوي جلدي! واستطرد يقول: «إنكن ترين أنها ما تزال صغيرة، وتلاحظن أن لها شكل الطفولة العادي، إذ أنعم الله عليها بالشكل نفسه الذي أضفاه علينا جميعًا، فليس هناك عيب واحد يميزها عنَّا بميزة ملحوظة. فمنذا الذي يتصوَّر أن الشرّ قد وجدَ فيها خادمًا له؟ ومع ذلك، فشد ما يحزنني أن أقول إن هذا هو الواقع !».

وسكت هنيهة، رحتُ خلالها أتأمَّل نبض عروقي، وأنا أشعر بأن اللحطة الحاسمة قد جاءت، وأنه ما دام لم يعد ثمَّة سبيل لتفادى المحاكمة، فعليّ أن أحتملها بعزم! وعاد رجل الدين الرخامي الأسود، يقول في حماسة :

- «يا بناتي العزيزات، إن هذه مناسبة محزنة، ومؤلمة، إذ من واجبي أن أنذركن بأن هذه البنت، التي كان من الممكن أن تكون واحدة من حملان الله، ليست سوى مارقة صغيرة. ليست من القطيع الإلهي الحقيقي، وإنما هي في الواقع دخيلة وأجنبية عنه. فعليكن أن تحذرنها، وأن تعرضن عن مثلها، وإذا دعت الضرورة، فتحاشين صحبتها، وأقصينها عن ألعابكن، واحرمنها من أحاديثكن. وأنتن أيتها المدرّسات:يجب أن تراقبنها، وأن تجعلن أعينكن على حركاتها، وأن تعنين بوزن كلماتها، وأن تفحصن بدقة تصرفاتها، وأن تعاقبن جسدها، لإنقاذ روحها. إذا كان مثل هذا الإنقاذ ممكنًا حقًا، لأن - وكم يتلعثم لساني إذ أقولها - هذه البنت، هذه الطفلة، المواطنة في أرض مسيحية، أسوأ بكثير من أي كافرة صغيرة ترفع صلاتها إلى «براهما»، وتركع أمام «جودجرناوت» هذه البنت... كذَّابة !».

وأعقب ذلك صمت دام عشر دقائق، رحت أتأمَّل خلالها - وقد استعدت كل حواسي-جميع إناث أسرة بروكلهرست الموجودات، وهن يخرجن مناديلهن الصغيرة، فيرفعنها إلى عيونهن. وقد أخذت السيدة الكبيرة تهتز إلى الأمام وإلى الخلف، والصغيرتان تتهامسان: «ما أغرب هذا!» واستأنف مستر بروكلهرست قائلًا :

- «هذا ما علمته من ولية نعمتها... من السيدة التقية، البارَّة، التي كفلتها في يتّمها، فربَّتها كابنتها... والتي قابلت الفتاة التعسة كرمها وسخاءها بعقوق بلغ من السوء والبشاعة أن اضطرت ولية نعمتها النبيلة - في آخر الأمر - إلى فصلها عن أبنائها، خشية أن يلوِّث مسلكها الفاسد طهرهم ونقاءهم. ولقد أرسلتها إلى هنا لتعالَج، تمامًا كما كان اليهود في الماضي يرسِلون الموبوئين إلى بحيرة «بنيسدا» الجارية المياه.. وإني لأرجوكن أيتها المدرسات، وأيتها الناظرة، ألّا تسمحن للمياه بأن تركد حولها ».

ومع هذه الخاتمة الرائعة، أصلح مستر بروكلهرست وضع الزر العلوي لمعطفه، وغمغم بكلمات إلى أسرته، فنهضن وأومأن برؤوسهن تحية لمس تمبل، ثم خرج علية القوم في جلال من الغرفة. وإذ بلغ القاضى الباب، التفت قائلًا: «اتركنها تقف نصف ساعة فوق ذلك المقعد، ولا تسمحن لأحد بأن يكلمها خلال ما بقي من ساعات اليوم ».

وهكذا أصبحت أقف عاليًا، أنا التي قلت من قبل إنني لا أقوى على أن أحتمل عار الوقوف العادي على قدميَّ في وسط الحجرة. أصبحت عرضة لأنظار الجميع، على منصة الخزي! أمَّا كيف كانت مشاعري، فهذا ما لا قبل للغة بوصفه. ولكن، بينما جاشت هذه المشاعر تخنق أنفاسي وتسد حلقي، أقبلت فتاة فمرَّت بي، ورفعت في مرورها عينيها نحوي، فما كان أغرب الضوء الذي أومض فيهما! وأي شعور خارق بعثه في أعماقي هذا الوميض! لكم رفعني هذا الشعور الجديد عاليًا! كأنما مرّ شهيد، بطل، بعبدٍ مستضعف أو ضحية، فبثَّ فيه قوة وجلَدًا. وإذا بي أتغلَّب على الانفعال الجنوني، فأرفع رأسي، وأعتدل في وقفتي على المقعد. وإذ وجَّهت هيلين بيرنز سؤالًا تافهًا عن شغل الإبرة إلى مس سميث - كحجّة لمغادرة مقعدها والمرور بموقفي-تلقَّت تأنيبًا على تفاهة السؤال، فعادت إلى مكانها، وابتسمت لي في عودتها. وأي ابتسامة ما زلت أذكرها! وأدرك أنها كانت فيض إدراك مرهف، وشجاعة صادقة. كانت ابتسامة أضاءت ملامحها الدقيقة، ووجهها الناحل، وعينيها المغبرين الغائرين، وكأنها انعكاس أنوار أحد الملائكة! ومع ذلك فقد كانت هيلين بيرنز تحمل في ذلك الوقت شريطًا حول ذراعها، يصمها بأنها مهملة. ولم تكن قد مضت ساعة على سماعي مس سكاتشيرد تقضي عليها بأن يكون غداؤها في الغد خبزًا وماءً، لأنها أسقطت المداد على الكراسة وهي تنقل أحد الدروس. هكذا هي طبيعة البشر... طبيعة ناقصة! إن مثل هذه العيوب التافهة لأشبه بالبقع التي تُرى على وجه أنصع الكواكب صفاءً... ولكن عينين كعيني مس سكاتشيرد، لا تريان تلك العيوب البسيطة على وجه الكوكب وتعميان عن تألقه الكامل !

الفصل الثامن

ما إن انتهى نصف الساعة، حتى دقَّت الساعة معلنة الخامسة، فانصرفت المدرسة، وذهب الجميع إلى المطعم لتناول الخبز والقهوة، وجسرت على الهبوط عن المقعد. وكانت العتمة تشتد، فأويت إلى ركن، وجلست على الأرض... كانت نوبة الشجاعة التي لازمتني حتى ذلك الوقت قد بدأت تنصهر وتذوب، فحل محلها رد الفعل، وسرعان ما دفعني الأسى الجائع الذي استبد بي، إلى أن أنكفئ على الأرض.. ورحت أبكي! ولم تكن هيلين بيرنز موجودة، فلم يكن ثمة ما يكبحني عن البكاء، فأسلمت نفسي له، وراحت دموعي تروي أخشاب الأرض. لقد كنت أعتزم أن أكون صالحة، طيبة، وأن أعوِّض في لوود الكثير مما فاتني، فأتخذ كثيرًا من الصديقات وأظفر بالاحترام، وأكسب العطف. وقد أحرزت بالفعل تقدمًا ملحوظًا في هذا الصدد، واستطعت في صباح هذا اليوم بالذات أن أغدو على رأس فرقتي، فأطرتني مس ميلر بحرارة، وابتسمت لي مس تمبل مكافأة لي ووعدت بأن تعلِّمني الرسم، وأن تسمح لي بتعلم اللغة الفرنسية، إذا ظللت أحرز مثل ذلك التقدم لمدة شهرين. وإذ ذاك، أحسنت زميلاتي استقبالي، فعاملتني قريناتي في السن معاملة الند للند، ولم تتحرَّش بي أي فتاة. أما الآن، فها أنذا أرتمي مرة أخرى، مُهانة، مُحطمة! أفأملك أن أنهض مرة أخرى؟ وهمس خاطر في نفسي: «أبدًا!». وودت مخلصة لو أنني مت. وفيما كنت أهتف بهذه الرغبة باكية، بصوت متهدِّج، اقترب مني شخص ما، فأجفلت. ومرة أخرى، وجدت هيلين بيرنز قريبة مني. وكشفتها النار المحتضرة في المدفأة وهي تقترب خلال الغرفة الخالية، وقد حملت إليَّ قهوتي وخبزي. وقالت: «هيا كلي!». ولكني أقصيتهما معًا عني، وأنا أشعر بأن قطعة واحدة من فتات الخبز كفيلة بأن تخنقني في حالي تلك. وتأملتني هيلين، ولعلها كانت في عجب من أمري. ولم أعد أتمالك انفعالي، مع أني حاولت جاهدة، فواصلت البكاء مجهشة. وجلست هي على الأرض بجواري، محتضنة ركبتيها بذراعيها مسندة رأسها إليها، وظلت على هذا الوضع صامتة، كهندية مستغرقة في التأمل !

وكنت البادئة بالكلام، فقلت :

- «لماذا تمكثين يا هيلين مع فتاة يعتقد كل امرئ أنها كذابة؟ ».

- «كل امرئ يا جين؟ كيف ذلك، وليس هناك سوى ثمانين شخصًا سمعوا هذا الوصف يُطلق عليك في حين أن في الدنيا مئات الملايين؟ ».

- «وما شأني بالملايين؟ إن الثمانين اللائي أعرفهن يحتقرنني !».

- «أنت مخطئة يا جين بل من المحتمل أن ليس في المدرسة واحدة تزدريك أو تكرهك. إنني واثقة من أن كثيرات يرثين لك كثيرًا ».

- «وكيف يرثين لي بعد الذي قاله مستر بروكلهرست؟ ».

- «إن مستر بروكلهرست ليس إلهًا، إنه ليس رجلًا عظيمًا، ولا هو موضع إعجاب وفخر. إنه لا يحظى بكثير حب هنا، فهو لا يتخذ قط أي خطوات تحببه إلينا. ولو أنه عاملك بإيثار خاص، لوجدت عداءً سافرًا أو مستترًا يحيط بكِ من كل جانب. أما وأنه قال عنك ما قاله، فإن أكثرهن لن يحجمن عن إبداء العطف نحوك، إذا استطعن. قد ترمقك المدرسات والتلميذات عن فتور ليوم أو اثنين، ولكن في قلوبهن ودًا مستترًا، ولو أنكِ واظبت على التحسن، فإن هذه العواطف لن تلبث حتى تظهر، وستكون أكثر جلاء بقدر ما هي مكبوتة في الوقت الحاضر. وبجانب هذا يا جين ...».

وأمسكت، فوضعت يدي في يديها متسائلة: «ماذا تقولين يا هيلين؟»، فأخذت تدلك أصابعي في رفق لتدفئها، ثم قالت :

- «مهما كرهتك الدنيا بأسرها، وأعتقدت أنك خبيثة، فلن تعدمي الأصدقاء طالما كان ضميرك يقبل مسلكك، ويعفيك من الذنب !».

- «إنني بكل تأكيد أحسن الظن بنفسي، ولكن هذا لا يكفي، وإنني أوثر الموت على الحياة إذا لم يحبني الآخرون... لا أطيق أن أكون وحيدة، ومكروهة، يا هيلين. انظري إليَّ، إنني - حرصًا مني على الفوز ببعض الحب الحقيقي منك، أو من مس تمبل، أو من أي شخص آخر ممن أحبهم حقًا - أتقبَّل راضية أن يُكسر عظم ذراعي، أو أدع ثورًا ينطحني، أو أقف خلف حصان جموح يركل، وأتركه يدفع حافره في صدري !».

- «صه يا جين! أنتِ تبالين بحب البشر أكثر مما ينبغي! إنك مندفعة في عواطفك كثيرًا. إن اليد العليا التي خلقت هيكلك، وأودعته الحياة، قد أمدتك بموارد أخرى غير نفسك الضعيفة، وغير المخلوقات الضعيفة مثلك. إن هناك - إلى جانب هذه الأرض، والى جانب الجنس الإنساني، دنيا أخرى غير منظورة، ومملكة للأرواح. وهذه الدنيا تحيط بنا، لأنها في كل مكان، وتلك الأرواح ترقبنا، لأنها موكلة بحراستنا، فإذا كنَّا نموت من الألم والخزي، وإذا كان الازدراء يصفعنا على كل جانب، والحقد يسحقنا، فإن الملائكة تشهد عذابنا، وتدرك براءتنا، إذا كنَّا أبرياء. واني لأعرف ِأنك براء من ذلك الاتهامِ الذي ردَّده مستر

بروكلهرست-في ضعف وزهو - نقلَا عن مسز ريد، إذ إنني أرى في عينيك المتألقتين، وعلى جبينك الناصع، طبيعة مخلصة وفطرة صادقة. ولا ينتظر الله إلّا انفصال الروح عن البدن، لكي يتوِّجنا بالجزاء الكامل. فلماذا إذن، ننهار تحت وطأة الأسى إذا كانت الحياة لا تلبث أن تنقضي سريعًا، وإذا كان الموت مدخلا أكيدًا إلى السعادة... وإلى المجد؟ ».

***

وكنت صامتة، فقد هدَّأت هيلين نفسي، غير أن نوعًا من الأسى الذي لا يُوصف، كان يخيّم على الطمأنينة التي بسطتها. وكنت أحس بالهم خلال كلامها، ولكنني لم أكن أدري من أين يأتي... فلما فرغت من حديثها، تسارعت أنفاسها قليلًا، ثم سعلت سعالًا قصيرًا، فنسيت في تلك اللحظة همومي، لأستغرق في قلق مبهم من أجلها، وأسندت رأسي إلى كتف هيلين، وأحطتُ وسطها بذراعي، وجذبتها إليَّ. ولم يطل جلوسنا كذلك، إذ لم يلبث أن أقبل شخص آخر. وكانت بعض السحب المثقلة قد انقشعت عن السماء تحت دفع الريح التي هبت إذ ذاك، فكشفت وجه القمر، وإذا ضوؤه ينساب خلال نافذة قريبة، ويشع علينا معًا، وعلى الشبح الذي كان يقترب، فعرفنا فيه على الفور مس تمبل. وقالت: «جئت أبحث عنك يا جين إير... إنني أريدك في غرفتي، وما دامت هيلين بيرنز معك، فلها أن تأتي هي الأخرى ».

وذهبنا، في إثر الناظرة. اجتزنا بعض الردهات المتشابكة ثم صعدنا سلمًا، قبل أن نصل إلى حجرة كانت فيها نارًا مستعرة في المدفأة، تلوح بهيجة للعين. وطلبت مس تمبل من هيلين بيرنز أن تجلس في مقعد منخفض ذي ذراعين، إلى أحد جانبَي المدفأة، ثم اتخذت لنفسها مقعدًا آخر، وطلبت مني أن أقف إلى جوارها، ثم سألتني وهي تتأمَّل وجهي :

- «هل انتهت الفورة؟ هل سكبت حزنك في الدموع؟ ».

- «أخشى ألّا يقدَّر لي ذلك أبدًا ».

- «ولماذا؟ ».

- «لأنني اتُهمت ظلمًا، وأنت يا سيدتي وكل امرئ آخر يظنني الآن خبيثة ».

- «لن نظن بك إلّا ما تُظهره نفسك عن نفسك يا طفلتي... استمري في التصرف كبنت صالحة، وبهذا ترضيننا ».

- «أحقًا يا مس تمبل؟ ».

فقالت وهي تحيطني بذراعيها :

- «لسوف توفقين... والآن، أخبريني: من هي السيدة التي دعاها مستر بروكلهرست ولية نعمتك؟». فقلت :

- «مسز ريد، إنها زوجة خالي... لقد مات خالي وتركني لرعايتها ».

- «إذن فهي لم تكفلك من تلقاء نفسها؟ ».

- «لا يا سيدتي، بل إنها كانت مستاءة من ذلك، ولكن خالي - كما سمعت الخدم يقولون كثيرًا - جعلها تقسم له قبل وفاته بأن تكفلني دائمًا ».

- «حسنًا يا جين، إنك لتعرفين، أو بالأحرى لسوف أخبرك، أنه عندما يتهم مجرم بذنب فإنه يحظى دائمًا بحق الكلام للدفاع عن نفسه. ولقد اتهمت بالكذب فدافعي عن نفسك أمامي بقدر ما يسعك الدفاع.. قولي كل ما ترين أنه حقيقة، ولكن لا تضيفي من عندك شيئًا، ولا تبالغي في شيء ».

وعزمت - في قرارة نفسي - أن أكون معتدلة وصادقة ما استطعت، وبعد أن فكرت لبضع دقائق، لكي أرتِّب ما كان لديَّ من قول، رويت لها كل قصة طفولتي الحزينة. وكانت لهجتي -وقد أرهقني الانفعال - أقل قوة في التعبير مما يحدث عادة كلما شرعت في سرد هذه القصة الحزينة. وحشوت القصة بأقل مما اعتدت من مظاهر السخط والكراهية، وأنا مليئة الذهن بتحذيرات هيلين لي عن الاستسلام للبغضاء. فجاءت قصتي في مظهرها المبسَّط أقرب إلى العقل والإقناع، وشعرت وأنا أمضى فيها أن مس تمبل كانت تصدقني كل التصديق. وكنت في سياق القصة قد ذكرت مستر لويد وكيف جاء يعودني بعد النوبة، لأنني لم أنسَ إطلاقًا الفترة الرهيبة - كما كنت أراها-التي قضيتها في الغرفة الحمراء، حتى إنني إذ رحت أرويها، شعرت بأن انفعالي يوشك أن يحطم الحدود - التي تقيدت بها - إلى حد ما. فليس ثمَّة شيء يقوى على تخفيف وطأة العذاب الذي اعتصر قلبي عندما تجاهلت مسز ريد توسلاتي المذعورة إليها بالصفح، وحبستني مرة ثانية في الحجرة المظلمة، المخيفة! وإذ انتهيت، تأملتني مس تمبل في صمت لبضع دقائق، ثم قالت :

- «إنني أعرف مستر لويد، وسوف أكتب له، فإذا جاء رده مصدِّقًا لروايتك، فسأعلن للجميع براءتك من كل وصمة. أما بالنسبة لي، فأنتِ بريئة يا جين ».

وقبَّلتني، وهي ما تزال تستبقيني إلى جوارها، حيث كنت سعيدة بالوقوف، إذ كنت أستمد من تأمل وجهها وثوبها، وحليها القليلة، وجبينها الناصع، وخصلاتها المنسَّقة، اللامعة، وعينيها السوداوين البراقتين، متعة صبيانية. وما لبثت أن تحوَّلت تخاطب هيلين بيرنز قائلة: «كيف أنتِ الليلة يا هيلين؟ هل سعلتِ كثيرًا اليوم؟ ».

- «أظنني لم أسعل كثيرًا يا سيدتي ».

- «والألم الذي في صدرك؟ ».

- «لقد تحسَّن قليلًا ».

فنهضت مس تمبل، وتناولت يد هيلين تتفقد نبضها، ثم عادت إلى مقعدها. وفيما هي تجلس، سمعتها تتنهد في خفوت، واستغرقت في التفكير لبضع دقائق، ثم نهضت قائلة في ابتهاج: «ولكنكما ضيفتاي الليلة، فيجب أن أعاملكما كضيفتين! فأنا لم أتناول الشاي بعد» ثم نادت باربرا الخادمة وقالت :

- «احضري الشاي، وضعي قدحين لهاتين السيدتين الشابتين ».

وسرعان ما جيء بالشاي. وما أبدع ما بدت الأقداح الصينية وإبريق الشاي اللامع لعيني، وهي مستقرة على منضدة مستديرة صغيرة، بجوار المدفأة! وما كان أجمل شذى بخار الشاي، وعبير الخبز المحمَّص، الذي لم أصب منه سوى نصيب صغير جدًا، لخيبة أملى، وكنت قد بدأت أشعر بالجوع .

وكذلك لم تصب منه مس تمبل ما كان يرضيها، فقالت: «هل لك في أن تحضري مزيدًا من الخبز والزبد يا باربرا، فليس هنا ما يكفي لثلاثة؟ ».

فخرجت باربرا، وسرعان ما عادت تقول: «سيدتي، إن مسز هاردن تقول إنها قد أرسلت الكمية المعتادة». وكانت مسز هاردن مدبرة الدار، المقربة إلى مستر بروكلهرست، إذ كانت مثله، من عظام وحديد! فتحولت مس تمبل قائلة: «حسنًا جدًا، ويجب أن نقنع بهذا يا باربرا، فيما أرى!». ثم أضافت مبتسمة، عندما انسحبت الفتاة: «إن في وسعي لحسن الحظ أن أعوّض النقص في هذه المرة». ودعتني وهيلين كي نقترب من المنضدة، ووضعت أمام كل منَّا قدح شاي، وقطعًا من الخبز شهية وإن كانت نحيلة ثم نهضت ففتحت درجًا، وأخرجت منه لفافة من الورق، كشفت لأعيننا-حين فضتها-عن كعكة من القمح، لا بأس بحجمها. وقالت: «كنت أعتزم أن أعطي كلًا منكما

جزءًا من هذه تأخذانه معكما، ولكن لما كان الخبز المحمص قليلًا، فلا بد لكما من التهامها هنا». وشرعت تقسمها إلى شرائح، في سخاء !

وأكلنا في ذلك المساء، وكأننا نجلس إلى مائدة حافلة، ولم تكن ابتسامة الرضا التي راحت مضيفتنا ترمقنا بها، ونحن نشبع نهمنا بالوليمة البسيطة التي تطوعت لدعوتنا إليها، أقل المباهج التي منحتها لنا. فحين فرغنا من الشاي، ونقلت أدواته من الغرفة، دعتنا مرة أخرى إلى جوار المدفأة، فجلسنا - كل منا إلى أحد جانبيها - ثم دار حديث بينها وبين هيلين، كان من الحظوة حقًا أن يُسمح لي بسماعه.لقد كانت مس تمبل دائمًا محوطة بجو من الوقار، وكانت على قدر من الجلال في طلعتها، ومن الأسلوب الراقي في لغتها، ما كان يحول دون شرود ذهن الشخص التوَّاق المتلهف إلى مجالستها. كان لها شيء ما يعزّز من متعة أولئك الذين يتأملونها وينصتون إليها، إذ يوحى إليهم بشعور من التوقير. وهكذا كان إحساسي إذ ذاك، أما إحساسي نحو هيلين بيرنز فقد تمثل في العجب من قدرتها! فهل أن الأكل المنعش، والنار المتأجِّجة، ووجود أستاذتها المحبوبة وما حظيت به من كرمها، أو أن هناك فوق كل ذلك شيء ما في عقلها الفذ، ما أوقظ مواهبها في أعماقها، فإذا بها تظطرم، فتتألق - في بداية الأمر - في حمرة خديها الذين لم أكن حتى الساعة قد عهدتهما إلّا شاحبَيْن، غائضَي الدم. ثم شعّ ذلك الاستعار في البريق الرجراج الذي تبدّى في عينيها. العينين اللتين اكتسبتا فجأة جمالًا أكثر روعة من جمال مس تمبل نفسها، جمال لا يعتمد على لون البشرة، ولا على أهداب طويلة، أو حاجبين وشفتين، وإنما كان جمالًا يعتمد على المعنى، والحركة، والإشراق. إذ ذاك قفزت نفسها إلى شفتيها، فتدفَّق الكلام من نبع لم أكن أدريه. فهل لفتاة الرابعة عشرة قلب من الكبر ومن القوة بحيث يتسع لاستيعاب النبع المتدفِّق بالطهر، والصفاء، واللباقة السلسة؟ هكذا كان طابع حديث هيلين في تلك الليلة المشهودة. في رأيي، كانت روحها تبدو وكأنها تتعجَّل الحياة في فترة جد قصيرة، كما يفعل الكثيرون خلال وجودهم في مواقف تعوقهم عن المضي لغايتهم !

وتحدثت الاثنتان عن أشياء لم أسمع بها من قبل قط! عن أمم وعن عصور ماضية، وعن بلاد بعيدة، وعن أسرار للطبيعة كشفت أو كانت محور حدس وتخمين. تحدثتا عن الكتب، وما أكثر ما قرأتا منها !

أي كنوز من المعرفة كانتا تملكان! لقد بدتا على دراية بالأسماء الفرنسية والمؤلفين الفرنسيين. على أن عجبى بلغ ذروته عندما سألت مس تمبل هيلين عما إذا كانت تنتزع من وقتها لحظات - في بعض الأحيان - لتستعيد اللغة اللاتينية التي لقّنها إياها أبوها. ثم تناولت كتابًا من أحد الأرفف، ودعتها للقراءة،

وهي تعيِّن لها صفحة من شعر فيرجيل، فأطاعت هيلين، وشعوري بالتقدير والتوقير يزداد مع كل سطر تقرؤه. ولم تكد تنتهي حتى أعلن الجرس موعد النوم ولم يكن ثمَّة مجال لأي تأخّر، فاحتضنتنا مس تمبل معًا، قائلة وهي تضمنا إلى صدرها: «ليباركما الله يا ابنتيَّ!». وظلت معانقة هيلين فترة أطول مما عانقتني، ولم تخليها إلّا كارهة. وظلت هيلين محط بصرها حتى بلغنا الباب، ومن أجلها أرسلت للمرة الثانية زفرة محزونة، ومن أجلها مسحت عن خدها دمعة !

وإذ بلغنا غرفة النوم سمعنا صوت مس سكاتشيرد، فقد كانت تتفقَّد الأدراج، وكانت قد جذبت درج هيلين لتوّها، فلما دخلنا، قوبلت هيلين بتأنيب حاد، وأنبئت بأن اثني عشر شريطًا من أشرطة الإهمال ستُعلَّق على كتفها في اليوم التالي. وغمغمت هيلين تقول لي في صوت خافت :

- «لقد كانت أمتعتي غير منسَّقة بشكل معيب، فعلًا، وكنت أعتزم ترتيبها، ولكني نسيت !».

وفي الصباح التالي، كتبت مس سكاتشيرد بحروف كبيرة، على قطعة من الورق المقوَّى المصمَّغ، كلمة «مهمِلة»، ولفتها كاللافتة حول جبين هيلين العريض، الناعم، الناطق بالذكاء والدعة. وظلّت هذه ترتديها حتى المساء صابرة، غير متذمِّرة، وهي تعتبرها عقابًا تستحقه. وما إن انسحبت مس سكاتشيرد بعد دروس ما بعد الظهر - أي في الساعة الخامسة-حتى هرعت أنا إلى هيلين، فانتزعت الورقة، وألقيت بها في النار. كان الغضب - الذي لم يتملكها - يحتدم في نفسي أنا طوال اليوم. والدموع الساخنة، الكبيرة، تكوي خدي باستمرار، كما أن مظهر استسلامها الحزين بعث في قلبي ألمًا لا يُطاق !

بعد حوالي أسبوع من الحوادث السالف ذكرها، تلقَّت مس تمبل ردًا من مستر لويد - وكانت قد كتبت له - وما قاله عزَّز روايتي، إذ جمعت مس تمبل المدرسة، وأعلنت أن تحريات أجريت بصدد الاتهامات التي عزيت إلى جين إير، وأنها أشد ما تكون سعادة إذ أصبح في مقدورها أن تعلن براءة جين التامة من كل وصمة. وإذ ذاك صافحتني المدرّسات وقبلنني، وسَرَت في صفوف زميلاتي غمغمة راضية !

وإذ تخلصت من العبء المحزن، بهذا الشكل، شرعت منذ تلك الساعة في العمل من جديد، وقد عقدت العزم على أن أتغلّب على كل عقبة. واجتهدت، فإذا نجاحي يأتي متناسبًا مع جهودي. وأخذت ذاكرتي-التي لم تكن يومًا جامدة - تتحسَّن بالمران، كما أن الواجبات أرهفت ذكائي. وإن هي إلّا أسابيع حتى

نُقلت إلى فرقة أعلى. وفي أقل من شهرين، سُمح لي بأن أبدأ في تعلم الفرنسية والرسم. وحفظت التصريفين الأولين لفعل الكينونة (Etre) ، ورسمت في اليوم ذاته أول كوخ صوَّره قلمي. وكانت جدرانه - بهذه المناسبة- تنافس جدران برج بيزا في المَيَلان! وفي ذلك المساء، نسيت - وأنا آوي إلى مخدعي - أن أعدّ في خيالي العشاء الوهمي الذي كان يتألف من بطاطس محمَّرة ساخنة، أو من خبز أبيض ولبن حليب، والذي كنت أتخيله لأرضي النزوات التي كانت تراود نفسي. وإنما استمرأت - بدلًا منه-منظر رسومات مثالية، تراءت لي في الظلام، وكلها من رسم يدي: بيوت، وأشجار، وصخور هائلة، وأطلال، وقطعان من الماشية، ورسومات بديعة بالألوان تمثِّل فراشات تحوم فوق ورود لم تتفتَّح أكمامها، وطيور تنقر الكرز الناضج، وأعشاب تضم بيضًا كأنه لآلىء، وقد لفتها فروع يافعة من اللبلاب. كذلك فحصت - في الخيال-إمكانيات توفيقي يوما في ترجمة كتاب من كتب القصص الفرنسية، أرتني إياه مدام بيرو في ذلك اليوم. ولم تكن هذه المسألة قد سُوِّيت بالشكل الذي يرضيني، عندما رحت في سبات عذب !

ما كان أحكم سليمان إذ قال: «لئن أتغذَّى على الأعشاب حيث يرفرف الحب، خير من أتغذَّى بثور مشوي حيث البغض والكراهية!». فما كنت لأرتضي في تلك الفترة أن أستبدل بـ لوود-مع كل ما فيها من حرمان - قصر جيتسهيد بترفه الفارغ اليومي !

الفصل التاسع

إن ضروب الحرمان، أو بالأحرى الصعاب، التي كانت في لوود لم تلبث أن تضاءلت. إذ اقترب الربيع، بل لقد أقبل فعلًا، وولّى صقيع الشتاء، وذابت ثلوجه، وخفَّت رياحه القاسية. وبدأت قدماي البائستان - اللتان تورمتا وتشققتا بفعل طقس يناير الرطب، القارس-تندملان وتشفيان، تحت هبَّات نسائم إبريل اللطيفة. ولم تعد الليالي وساعات الصباح، بزمهريرها الشديد، تجمِّد الدم في عروقنا. بل أصبح في طاقتنا أن نحتمل ساعة الترويح في الحديقة. بل بدأت هذه الساعة تبدو بهيجة، ممتعة، في بعض الأيام المشمسة، ودبَّت الخضرة في تلك الأحواض، التي كانت بترعرعها اليومي توحي بأن الأمل كان يمر بها في الليل، ويترك في كل صباح آثارًا أكثر وضوحًا لقدميه. وأطلت الزهور من خلال أوراق الشجر. وبدأنا نقوم في أصيل أيام الخميس-وكانت لدينا عطلة لنصف اليوم - بنزهات، فكنا نصادف زهورًا أجمل تتفتَّح تحت الحواجز النباتية على جانبَي الطريق .

واكتشفت كذلك أن ثمَّة مسرَّة، بل متعة لا يحدها سوى الأفق، تقوم خارج جدران حديقتنا. الجدران العالية التي تحرسها أسنان شائكة. تلك المتعة كانت تتمثَّل في منظر القمم السامقة التي تعلو منخفضًا كبيرًا تحفّ به تلال غنية وحواف برَّاقة. ما أبعد هذه الصورة البهيجة عن المنظر الذي أبصرت عليه ذلك المنخفض نفسه من قبل، ممتدًا تحت سماء الشتاء التي كانت تبدو كقبة من حديد، وقد جمَّده الصقيع، وكسته الثلوج! عندما كانت الرطوبة التي تشبه الموت في قسوة زمهريرها، تحوم بدفع الرياح الشرقية، مطوّفة بتلك القمم الأرجوانية، ثم تنحدر هابطة حتى تمتزج بالضباب الجليدي المخيِّم على الوادي، فلا يلبث أن يتحوَّل إلى تيار بارد، لا يقيّده شيء، يندفع مجتاحًا الغابة، وهو يرسل أنينًا محمومًا في الهواء وكثيرًا ما يثقله المطر الدافق، أو المصحوب بالبرَد المنهمر، فيحجب كل شيء عن الأنظار، اللهم إلّا أشجار الغابة التي تقوم كصفوف من هياكل منضودة !

وانقضى شهر ابريل، وجاء مايو. وكان مايو مشرقًا، بهيًا، تألَّف من أيام من السماء الزرقاء، وأشعة شمس ساطعة لطيفة، تتخلَّلها رياح غربية أو جنوبية خفيفة. وكانت الخضرة إذ ذاك يزداد نموها بقوة ونشاط، وتخلَّصت لوود من قيود الشتاء، فأصبحت خضرة شاملة، وأزهارًا سابغة، وارتدت أشجار الدردار والمُران والبلوط إلى حياتها المهيبة، الجليلة. وانبثقت النباتات البرية بغزارة في أطرافها البعيدة، وملأت أرضها أشكال لا حصر لها من الأعشاب، وغدت

الثروة التي أوتيتها من النباتات ذات الزهور الصفراء، أشبه بأشعة شمسية عجيبة تنبعث من الأرض. لقد شهدت وميضها الذهبي الباهت في بقاع ظليلة متناثرة، فكانت تبدو كأجمل الثريات المتلألئة، المتناثرة. كل هذا كنت أستمتع به كثيرًا. كنت أستمتع به كامل الاستمتاع، بحرية، وأنا أكاد أكون وحيدة، دون ما رقيب. وكان لهذه الحرية ولهذا الاستمتاع سبب، آن لي أن أذكره، أفلم أصف موقعًا بهيجًا للسكنى بحديثي عن هذا المكان القابع بين التل والغابة والذي يقوم على حافة جدول؟ إنه بهيج إلى حدٍّ كبير، ولا شك، أما أنه صحّيّ، فهذه مسألة أخرى. كان المنخفض الذي تحيط به الغابة، والذي تقوم فيه لوود، مهدًا للضباب، وللوباء الذي ينمو في الضباب والذي أسرع مع الربيع الذي كان يسابق موعده فزحف على ملجأ اليتيمات، ونفث التيفوس في غرفة الدرس وغرفة النوم المزدحمتين، فما إن حل شهر مايو، حتى تحوَّلت المدرسة إلى مستشفى. إذ إن شبح الجوع، ونزلات البرد التي أهملت، هيَّأت معظم التلميذات لتقبل العدوى! فإذا خمس وأربعون من الثمانين فتاة، يرقدن مريضات في آن واحد! وتعطلت الدراسة، وأهملت القواعد والأنظمة، وأتيحت للقليلات اللاتي بقين سليمات، حرية مطلقة تقريبًا، لأن الطبيب أصر على ضرورة الإكثار من الرياضة للاحتفاظ بصحتهن. وحتى لو أنه لم يُصرّ، لما أتيح لأحد من الفراغ ما يمكنه من مراقبتهن أو صدّهنّ. فقد استغرقت المريضات انتباه مس تمبل بأكمله، وأصبحت تقيم في الحجرة التي أفردت لهن، لا تغادرها إلّا لسويعات قلائل تلتمس فيها الراحة أثناء الليل. وانهمكت المدرّسات في حزم الأمتعة واتخاذ الاستعدادات اللازمة لترحيل الفتيات اللواتي شاء حظهن أن يكون لهن أقارب وأصدقاء يستطيعون، عن رغبة، أن يقصوهن عن موطن الوباء. ومات البعض في المدرسة فدفنّ في صمت وعجلة، إذ كانت طبيعة الداء تحول دون أي إرجاء .

وبينما كان المرض قد أصبح من سكان لوود والموت زائرها الكثير التردّد عليها، وبينما عشش الخوف بين جدرانها، وبينما كانت تفوح في غرفتها وردهاتها روائح المستشفيات، وكانت العقاقير والأقراص تجاهد عبثًا لتقاوم اطِّراد الوفيات. بينما كان يحدث كل هذا، كان شهر مايو يشرق من دون سحب على التلال المنيعة، والغابة الجميلة، خارج جدران المدرسة. كما تألَّقت حديقة المدرسة بالورود ونبتت الزهور في قمم الأشجار العالية، وتفتَّحت أزهار السوسن، وترعرع التوليب والورود، ووشيت حواف أحواض فلاحة البساتين بالزنابق البهيجة ذات الألوان الوردية والقرمزية... وأخذت زهور نبات العليق تنفث في الصباح والمساء عبيرها التفّاحي النفَّاذ. وكانت كل هذه الكنوز العبقة غير ذات نفع لأكثر أهل لوود اللهم إلّا كمورد لحفنة من الأعشاب والبراعم تقتطف من آن إلى آخر لتُوضع على أحد التوابيت !

ولكني - وكل من بقين في حال طيبة - كنَّا نستمتع أكمل متعة بمفاتن المنظر والفصل. وقد تُركنا نهيم في الغابة كالغجريات، من الصباح حتى المساء، نفعل ما يحلو لنا، ونذهب أنَّى شئنا، ونعيش في خير حال. إذ إن مستر بروكلهرست وأسرته لم يعودوا يقتربون من لوود إطلاقًا، ولم تعد شؤون الدار موضع نقاش ومراجعة، وغادرتنا مدبرة الدار الشحيحة وقد حملها الخوف من العدوى على الفرار. ولما كانت خليفتها لا تعرف شيئًا عن أصول ونطاق عملها الجديد - إذ كانت من قبل رئيسة ممرضات في مستوصف لوتون-فقد تُركت لها حرية نسبية. يُضاف إلى هذا قلة عدد من صرن يحظين بالغداء، كما أن المريضات لم يكنّ يكثرن من الأكل ومن ثم كانت أطباق فطورنا مليئة أكثر من ذي قبل. وكانت المدبرة تعمد إذا لم تجد وقتًا لإعداد غداء - وهو ما كان كثير الحدوث - إلى إعطائنا قطعًا كبيرة من الفطيرة، أو شرائح سميكة من الخبز والجبن، فكنَّا نحمل هذه معنا إلى الغابة، حيث تختار كل منا أحب بقعة إليها، ونتناول غداءنا «الفخم»! وكان مقعدي المفضل قطعة من الحجر العريض الناعم، تنهض في منتصف الغابة بيضاء، جافة، ولا سبيل إلى الوصول إليها إلّا بالخوض في ماء الجدول، وهو ما كنت أفعله وأنا حافية القدمين. وكان الحجر من الاتساع بحيث ينفسح لإيواء فتاة أخرى، براحة تامة. وكنت في تلك الفترة قد اتخذت لي زميلة مفضَّلة، فتاة تُدعى ماري آن ويلسون، كانت أريبة، تقيَّة، وجدت في صحبتها متعة، يرجع شطرمنها إلى أنها كانت تتمتع بأخلاق تريحني. وإذ كانت تكبرني ببضع سنوات، فإنها كانت أكثر مني معرفة بالدنيا، وفي وسعها أن تحدثني عن أشياء كثيرة كان يروق لي سماعها، ومن ثم فإن فضولي وجد في صحبتها ما يشبعه، كما أنها أظهرت نحو أخطائي تسامحًا كريمًا، فلم تحاول قط أن تراجعني أو تلومني بشأن شيء قلته. وكانت لها موهبة في القصّ، في حين كنت موهوبة في التحليل، فكانت تحب أن تروي، وكنت أحب أن أسال، فكنَّا ننسجم معًا، ونستمد من حديثنا المتبادل تسلية كثيرة، إن لم يكن نفعًا كبيرًا .

أين كانت هيلين بيرنز في ذلك الوقت؟ لم لمْ أقضِ أيام الحرية العذبة هذه معها؟ هل نسيتها، أو أنني كنت خسيسة فسئمت عشرتها النقية؟ الواقع أن ماري آن ويلسون هذه كانت أقل قدرًا من صديقتي الأولى، فلم تكن تملك سوى أن تروي القصص الممتعة، وأن تشاركني الثرثرة المتهوِّرة، اللاذعة، التي كان يحلو لي الانغماس فيها. في حين أن هيلين-إذ صدق ما أعتقده عنها - كانت قديرة على أن تمنح أولئك الذين يستمتعون بحديثها، قبسًا من أمور أسمى وأرفع. حقًا أيها القارئ، إنني أعرف هذا وأحسه! ومع أنني مخلوقة ذات معايب، كثيرة الأخطاء، قليلة التكفير عنها، إلّا أنني لم أسأم قط هيلين بيرنز، ولم أكفّ عن أن أكن لها شعورًا من الإعزاز والإيثار، قويًا، حنونًا، يفوق في اتزانه كل ما عمر به قلبي في أي وقت. وكيف لا يكون ذلك، وقد كانت هيلين -

في جميع الأوقات وفي كل الظروف - تكنّ لي ودًا صافيًا، وفيًا، لم يعكره قط أي امتعاض، ولا خالطه أي توتر؟ ولكن هيلين كانت مريضة في تلك الآونة، وقد أُقصيت عن نظري قبل أسابيع إلى حجرة لم أدرِ موقعها، في الطابق العلوي، فلم تكن - كما قيل لي - في القسم الذي أعدّ من الدار ليكون مستشفى للمريضات بالحمى، لأن داءها كان التدرن الرئوي لا التيفوس. وكان جهلي يوحي إليَّ بأن التدرن الرئوي شيء بسيط لن تلبث العناية والزمن أن يبدِّداه. وقد عزَّز هذه الفكرة أنها هبطت مرة أو مرتين، في فترة من بعد الظهر كانت الشمس فيها دافئة الأشعة، وصحبتها مس تمبل إلى الحديقة. ولكنني في هاتين المناسبتين لم يُسمح لي أن أقترب منها وأتحدَّث إليها. كل ما هنالك أنني رأيتها من نافذة حجرة الدرس، ولم أتبينها تمامًا، إذ كانت ملتفة من رأسها إلى قدميها، وقد جلست في الشرفة على مسافة بعيدة من مكاني .

وفي ذات مساء في أوائل يونيو، جلست مع ماري آن في الغابة إلى وقت متأخر، وكنَّا قد اعتزلنا الأخريات - كعادتنا - وهِمنا بعيدًا عنهن، وأوغلنا في البعد حتى ضللنا طريقنا، واضطررنا إلى أن نلجأ إلى كوخ منعزل كان يعيش فيه رجل وامرأة يرعيان قطيعًا من الخنازير يتغذَّى على أعشاب الغابة، فسألناهما عن الطريق. وعندما عدنا، كان القمر قد بزغ. وكان ثمَّة جواد-عرفنا فيه مطية الجرَّاح - رابضًا لدى باب الحديقة، فتكهَّنت ماري آن بأن لا بد من وجود شخص برح به المرض، وإلا لما استُدعيَ مستر بيتس في مثل تلك الساعة من المساء، ودخلت هي الدار، بينما تخلَّفت أنا عنها قليلًا ريثما أغرس في حوض بعض شتلات انتزعها من الغابة، وخشيت أن تذوي إذ تركتها إلى الصباح. وإذ فرغت من هذا، تلكَّأت فترة أخرى. كان شذى الزهور يفوح والظل يتساقط. وكانت الليلة بهيجة، بديعة، دافئة، والوهج الذي ظل باديًا في الغرب يبشِّر بيوم لطيف آخر في الغد، وقد بزغ القمر وراح يرتفع من جهة الشرق في جلال. وفيما كنت أرقب هذه الأشياء وأسعد كما تفعل أي طفلة، خطرت ببالى فكرة لم تواتني من قبل قط: «ما أقسى الرقاد الآن في فراش المرض، وخطر الموت يحوّم! إن هذه الدنيا بهيجة، وما أبشع أن يُنتزع المرء منها، ويضطر إلى الذهاب إلى حيث لا أحد يدري؟ ».

وإذ ذاك، بذل عقلي أول مجهود صادق لتفهّم ما حُشر فيه عن الجنة والجحيم! وللمرة الأولى، تراجع هذا العقل حائرًا. للمرة الأولى تلفَّت وراءه وإلى جانبيه، وأمامه، فرأى هوّة لا قرار لها تحيط به. ولم يشعر بغير النقطة التي كان يقف عندها فحسب. لم يشعر بغير الحاضر! أما ما عداه، فكلها سحب غير واضحة، وأعماق خاوية! وفيما كنت مستغرقة في فكرتي الجديدة، سمعت الباب الأمامي يفتح، وخرج مستر بيتس ومعه إحدى الممرضات. وبعد أن تريثت

الممرضة إلى أن امتطى جواده ورحل. همَّت بأن تغلق الباب لولا أن جريت نحوها وسألتها: «كيف حال هيلين بيرنز؟». فكان جوابها: «في أسوأ حال ».

- «أهي التي جاء مستر بيتس من أجلها؟ ».

- «نعم ».

- «وماذا قال عنها؟ ».

- «قال إنها لن تمكث هنا طويلًا ».

ولو أن هذه العبارة طرقت سمعي أمس، لما أوحت إلى ذهني بأكثر من أن صديقتي ستنقل إلى نور ثمبرلاند موطنها، ولما حدست أنها تعني أن الفتاة تحتضر. أما الآن، فقد أدركت على الفور. وتجلّى لإدراكي أن هيلين بيرنز كانت تعد آخر أيامها في هذه الدنيا، وأنها ستنتقل إلى عالم الأرواح، إذا كان لمثل هذا العالم وجود. فشعرت برجّة فزع، ثم بنوبة قوية من الأسى، ثم برغبة.. بحاجة ضرورية إلى أن أراها. فسألتها عن غرفتها، فقالت الممرضة: «إنها في غرفة مس تمبل ».

- «هل لي أن أصعد فأتحدَّث إليها؟ ».

- «آه، لا يا صغيرتى! هذا غير ممكن ولا مستحَب. والآن، حان الوقت كي تدخلي الدار، وإلا أُصبتِ بالحمى إذا وقفتِ أثناء هبوط الليل ».

وأغلقت الممرضة الباب الأمامي، فدخلت من الباب الجانبي - الذي يفضي إلى غرفة الدرس - في اللحظة المناسبة، إذ كانت مس ميلر تدعو التلميذات إلى الصعود للمخادع .

وربما كانت قد انقضت ساعتان - ولعلّ الساعة كانت تقترب من الحادية عشرة - عندما نهضت، إذ لم أستطِع النوم، وضايقني السكون العميق الذي شمل الحجرة، ورؤية زميلاتي في نوم عميق، فارتديت ثوبي فوق قميص النوم، وتسلَّلت من الحجرة حافية القدمين، وتوجهت إلى غرفة مس تمبل .

كان الهدوء مسيطرًا على الطرف الآخر من الدار، ولكني كنت أعرف طريقي، وقد مكنني ضوء قمر الصيف - الذي لا تحجبه السحب، والذي كان ينساب خلال نوافذ الردهة - من أن أهتدي إلى طريقي دون ما عناء. وطالعتني، حين اقتربت من غرفة المحمومات، رائحة كافور وخل محترق، فمررت ببابها

متعجلة، خشية أن تفطن إليَّ الممرضة التي كانت تقضى الليل ساهرة، فقد كرهت أن أكتشف فأُردّ إلى مخدعي، إذ كان لا بد لي من أن أرى هيلين، ومن أن احتضنها قبل أن تموت، يجب أن أقبِّلها القبلة الأخيرة، وأتبادل معها كلمة أخيرة !

وبعد أن هبطت سلمًا، واجتزت شطرًا من الطابق الأرضي، ووُفِّقت إلى فتح وإغلاق بابين - دون ضجيج-وصلت إلى سلم آخر، صعدت درجاته، فإذا حجرة مس تمبل أمامي مباشرة. وكان ثمَّة ضوء ينساب خلال ثقب المفتاح، ومن تحت طرف الباب. وقد ساد المكان كله سكون شامل. وإذ اقتربت، وجدت الباب مواربًا قليلًا، ولعله تُرك كذلك ليسمح بدخول بعض الهواء إلى مخدع المريضة المغلق النوافذ. ولم أتردَّد، فقد كنت مفعمة بالإصرار، وكانت روحي وحواسي تنبضان بالقلق والغصص، أطللت خلال الباب، وعيناى تبحثان عن هيلين، خشية أن أجدها ميتة! وإذ بي أرى - لصق سرير مس تمبل، وتحت أستاره - سريرًا صغيرًا، بدا تحت أغطيته شكل جسم، ولكن الوجه احتجب عني. وكانت الممرضة التي تحدَّثت إليها في الحديقة تجلس في مقعد مريح، وقد غشيها النعاس. وعلى المنضدة، كانت شمعة مشتعلة، ترسل ضوء خافتا. ولم يظهر لبصري أثر لمس تمبل، وعرفت - فيما بعد - أنها كانت قد استدعيت إلى جوار مريضة اشتدت بها الحمى في غرفة المحمومات. تقدَّمت، ووقفت إلى جوار السرير الصغير، ووضعت يدي على الستار. ولكني آثرت أن أتكلم قبل أن أزيحها وأنا لا أزال أوجس خيفة من أن أرى جثة هامدة! فهمستُ في رفق: «هيلين! هل أنتِ مستيقظة؟» وتحركت، وأزاحت الستار، فرأيت وجهها شاحبًا، هزيلًا، ولكنه كان منبسط الأسارير. وبدت متغيِّرة بعض الشيء. على أن خوفي سرعان ما تبدد. وتساءلت هي في صوتها اللطيف: «أحقًا هذه أنت يا جين؟» فهتفت لنفسي: «أوَّاه! إنها لن تموت... لقد اخطأوا الظن... لو أنها كانت موشكة على الموت. ما تكلمت ولا نظرت إليّ بهذا الهدوء !».

وانحنيت على سريرها، فقبلتها... كان جبينها باردًا، وخدها باردًا ونحيلًا... وكذلك كانت يداها، ورسغاها، ولكنها كانت تبتسم كعهدي بها! وسألتني: «لماذا جئت إلى هنا يا جين؟ لقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة، إذ سمعت دقات الساعة منذ دقائق ».

- «جئت لأراكِ يا هيلين، فقد سمعت أنكِ مريضة، فلم أستطِع أن أنام قبل أن أتحدث إليكِ ».

- «إذن فقد جئت تودعيني؟ لعلك جئت في الوقت المناسب ».

- «أمسافرة أنت يا هيلين؟ هل ستعودين إلى بلدك؟ »

- «أجل... مسافرة إلى الموطن الذي سأقيم فيه طويلًا... إلى مقرّي الأخير ».

فشهقت جزعة: «لا، لايا هيلين!». وبينما كنت أحاول أن أكبح دموعي، استولت على هيلين نوبة سعال، ولكنها مع ذلك لم توقظ الممرضة. فلما زايلتها النوبة، ظلت منهوكة القوى، ثم همست: «إن قدميك الصغيرتين حافيتان ياجين... نامي، وتغطّي بلحافي».ففعلت، وبسطت ذراعها فوقي، فالتصقت بها. وبعد صمت طويل، استأنفت الحديث هامسة: «إنني جد سعيدة يا جين، فإذا سمعتِ أنني مت، فلا تفكري، ولا تحزني، إذ ليس ثمَّة ما يدعو إلى الحزن. لا بد لنا أن نموت جميعًا يومًا ما، وليس الداء الذي ينقلني من هذه الدنيا بمؤلم، وإنما هو لطيف، ومتدرِّج... ثم إن بالي مرتاح، فلست أترك ورائي أحدًا يأسف كثيرا لفراقي. ليس لي سوى أبي: وهو قد تزوّج أخيرًا، ولن يفتقدني... ولسوف أنجو من آلام كثيرة إذ أموت صغيرة. كما أنني ليس لي من المواهب والصفات وما كان يكفل لي أن أعيش بخير في هذه الدنيا... ولو أنني عشت، لظللت دائما أرتكب الأخطاء ».

- «ولكن إلى أين تذهبين يا هيلين؟ هل ترين الطريق أمامك؟ هل تعرفينه؟ ».

- «إنني أؤمن... إنني مؤمنة... سأذهب إلى الله !».

- «وأين هو الله؟ما الله؟ ».

- «إنه خالقي وخالقك الذي لا يدمِّر إطلاقًا خلقه... إنني أركن ركونًا مطلقًا إلى قدرته، وأؤمن كل الإيمان بكرمه، وأعدّ الساعات ريثما تحل الساعة التي تردّني إليه، وتكشفه لبصيرتي !».

- «إذن فأنت واثقة يا هيلين بأن ثمَّة مكانًا في السماء، وأن أرواحنا تصعد إليه عندما نموت؟ ».

- «إنني موقنة من أن ثمَّة عالمًا آخر، وإني لأؤمن بأن الله طيب، أسلمه الجزء الذي لا يفنى من كياني دون خوف... إن الله هو أبي. والله صديقي... إنني أحبه، وأؤمن بأنه يحبني !».

- «وهل سأراكِ مرة أخرى يا هيلين، عندما أموت؟ ».

- «لسوف تفدين إلى منطقة السعادة نفسها التي سأذهب إليها، وتنعمين بلقاء الأب القدير نفسه للكون، بلا شك يا جين ».

وعدت أتساءل، ولكن في نفسي، هذه المرة: «وأين تلك المنطقة؟ هل لها وجود؟». وشددت ذراعي حول هيلين، وقد شعرت بأنها أعز عليَّ مما كانت في أي وقت مضى. وبأن لا قدرة لي على أن أدعها ترحل. وظللت راقدة وقد دفنت وجهي في عنقها. فما لبثت أن قالت في أحلى لهجة: «ما أكثر ارتياحى! لقد أتعبتني نوبة السعال الأخيرة، بعض الشيء. أشعر برغبة في النوم، ولكن لا تفارقينى يا جين، فإني أحب أن تكونى بقربي ».

- «سأمكث معكِ يا هيلين العزيزة... لن يبعدني أحد عنكِ ».

- «هل أنتِ مستدفئة يا حبيبتي؟ ».

- «أجل ».

- «عمتِ مساء يا جين ».

- «عمتِ مساء يا هيلين !».

وقبَّلتني، فقبَّلتها، واستسلمنا معًا للنعاس. وعندما استيقظت كان النهار قد طلع، ونبَّهتني حركة غير عادية، فرفعت رأسي، وإذا أنا في أحضان شخص ما! كانت الممرضة تحملني، لتنقلني خلال الردهات إلى حجرة النوم. ولم يؤنِّبني أحد لمغادرتي سريري، فقد كان لدى القوم ما يشغلهم عن ذلك. ولم يقدَّم جواب واحد عن أسئلتي العديدة، ولكني علمت-بعد يوم أو اثنين - أن مس تمبل وجدتني في السرير الصغير، حين عادت إلى غرفتها مع الفجر، ووجهي ملتصق بكتف هيلين بيرنز، وذراعي حول عنقها، وكنتُ نائمة! أما هيلين، فكانت ميتة !

إن قبرها يقوم في ساحة كنيسة بروكليريدج. وقد ظلَّ خمس عشرة سنة لا يعلوه شيء سوى أعشاب متكاثفة. أما الآن فقد صارت تعيِّن الموقع لوحة من رخام رمادي، نُقش عليها اسمها .

الفصل العاشر

لقد سجَّلت بالتفصيل حتى الآن أحداث وجودي الذي لا قيمة له. فقد أفردت من الفصول أكثر مما ينبغي للسنوات العشر الأولى من حياتي. ولكن هذا الكتاب لا يُعدّ ليكون سيرة منتظمة. وإنما أنا أستحث الذاكرة في المواطن التي أعرف أنها تنطوي على قدر من المعلومات ذات القيمة. ولذلك سوف أجتاز الآن في صمت فترة مداها ثماني سنوات، ولن أشير إليها بأكثر من سطور قلائل لازمة لربط الحوادث بعضها إلى بعض :

بعد أن أدى التيفوس رسالته المهلكة في لوود اختفى رويدًا رويدًا من هناك، ولكن كانت حدّته وعدد ضحاياه قد لفتا أنظار الرأي العام إلى المدرسة، فأجريت التحريات عن سبب الداء، ولم تلبث أن ظهرت تباعًا عدة حقائق أثارت سخط الرأي العالم إلى درجة كبيرة: كان الموقع غير الصحي بطبيعته، وكمية طعام الأطفال ونوعه، والماء الآسن الكريه الرائحة الذي كان يُستخدم في إعداده، وسوء حال ثياب التلميذات ومراقدهن. كل هذه الأمور تكشَّفت، فأدى كشفها إلى نتيجة كانت صدمة لمستر بروكلهرست، ولكنها كانت خيرًا بالنسبة للمعهد، إذ تبرَّع بسخاء عدة أفراد من أهل المقاطعة الموسرين، المحبين للخير، لإنشاء مبنى أحسن، وفي موقع أفضل. ووُضعت أنظمة جديدة، وأدخلت التحسينات على نظام التغذية والكساء، وعُهد بأموال المدرسة إلى لجنة، وظل مستر بروكلهرست - الذي لم يكن من سبيل إلى إغفاله، نظرًا لنفوذه المالي والعائلي-أمينًا للصندوق، ولكن تم تكليف معاونين له من رجال ذوي عقول أكثر اتساعًا وعطفًا من عقله. كذلك شاركه مركزه - كمفتش - أفراد كانوا يعرفون كيف يجمعون بين العقل والحزم. وبهذا الإصلاح، لم يلبث المعهد أن أصبح معهدًا جليلًا، نافعًا حقًّا. وبقيت بين جدرانه بعد تجديده، زهاء ثماني سنوات قضيت منها ستًا كتلميذة، واثنتين كمدرِّسة. وفي الحالتين، أشهد صادقة بقيمة المعهد وأهدافه النبيلة .

وكانت حياتي خلال هذه السنوات الثمانية، رتيبة، ولكنها لم تكن تعسة، لأنها لم تكن خاملة، فقد كانت في متناول أسباب الإفادة من تعليم رائع. وكان لديَّ شغف ببعض ما كنت أدرس، ورغبة في أن أبرز في كل دروسي. مع اغتباط شديد بإرضاء مدرّساتي، لا سيما أولئك اللائي كنت أحب أن أحظى بحسن ظنهن. وأفدت إلى أقصى حد من كل الميزات التي كانت متاحة لي. فما لبثت أن أصبحت التلميذة الأولى، في الفرقة الأولى، ثم كُلّفت العمل كمدرّسة،

فقمت بهذا العمل في حماسة بالغة، لمدة عامين. ولكنني لم ألبث في نهاية ذلك الوقت أن غيَّرت منهج حياتي .

وكانت مس تمبل قد ظلَّت خلال كل التغيرات ناظرة له، وإني لأدين لها بالشطر الأكبر مما حصَّلت. وكان ودها وصحبتها هما عزائي دائمًا، فقد قامت مني مقام الأم والمربية، ثم الزميلة فيما بعد. ثم تزوجت هي، فما لبثت أن رحلت مع زوجها -وكان رجلًا ألمعيًا من رجال الكنيسة جديرًا بزوجة مثلها - إلى مقاطعة نائية، وسرعان ما تقطعت بيننا الأسباب. على أنني منذ يوم رحيلها لم أعد كما كنت، فقد ذهب معها كل شعور بالطمأنينة، وكل رابطة جعلت من لوود دارًا لي، إلى درجة ما. وكنت قد أخذت عنها بعض طبيعتها، وكثيرًا من عاداتها، وما يفوق ذلك من أفكارها، فانصعت للواجب والنظام، وهدأت نفسي. وآمنت بأنني هانئة. وكنت أبدو في أعين الأخريات، بل وفي عين نفسي، شخصية محبة للنظام والهدوء. ولكن القدَر، ممثلًا في الأب الموقَّر المستر ناسمايت الذي تزوَّجها، فرَّق بيني وبين مس تمبل. ويؤمئذ رأيتها وقد ارتدت ثياب السفر، وصعدت إلى عربة لنقلها، بعد حفلة الزواج بفترة قصيرة. وراقبت العربة وهي ترقى التل، ثم تتوارى خلف حافته. أويت بعد ذلك إلى غرفتي، فقضيت فيها الشطر الأكبر من نصف يوم تعطَّلت فيه الدراسة، إكرامًا للمناسبة .

ورُحت أذرع الغرفة معظم الوقت، وقد خِلت أن شعوري اقتصر على الأسف لما مُنيت به من فقدانها، والتفكير في تعويض هذه الخسارة. حتى إذا فرغت من تأملاتي، ووجدت أن النهار قد ولَّى، والمساء قد أقبل، اكتشفت في نفسي شيئًا جديدًا: هو أنني في تلك الفترة اجتزت مرحلة انقلاب، فإذا عقلي يطرح عنه كل ما استعاره من أساليب مس تمبل. أو بالأحرى، أنها أخذت معها الجو الهادئ الرصين الذي كنت أنعم باستنشاقه في قربها، وعدت إلى أصلي الطبيعي، فبدأت أشعر بالأحاسيس القديمة تتحرَّك في صدري. لم يكن الأمر يلوح كما لو أن دعامة انتزعت، وإنما بدا كأن حافزًا غاب عني! لم تكن القدرة على الهدوء والطمأنينة هي التي زايلتني، وإنما سبب الطمأنينة هو ما لم يعد قائمًا! كانت دنياي قد انحصرت لبضعة أعوام في لوود، وكانت خبرتي تقتصر على قواعدها ونظمها. أما الآن، فقد تذكَّرت أن الدنيا الحقيقية أوسع نطاقًا، وأن ميدانًا حافلًا بمختلف الآمال والمخاوف، والأحاسيس والانفعالات، ينتظر أولئك الذين أوتوا الشجاعة على الانطلاق إلى تلك الدنيا الواسعة، بحثًا عن المعرفة الحقيقية بالحياة، في غمرة مخاطرها !

وذهبت إلى نافذتي ففتحتها وأطللت منها، فإذا أمامي جناحا المبنى والحديقة، ومشارف بلدة لوود والأفق بما يتخلله من تلال. وتجاوزت بعيني كل الأشياء

المرئية، لأستقر ببصري على أقصاها. على القمم الزرقاء، تلك التي كنت أتوق إلى أن أتسلقها وأبلغ ذروتها .

كان كل ما في نطاقها من صخور، ومروج، يبدو كأرض سجن، أو حدود منفى، فرحتُ أتتبع ببصري الطريق البيضاء الملتوية حول قاعدة أحد الجبال، والتي تلاشت في خور بين جبلين. لشد ما صبوت إلى أن أتبعها إلى أبعد من ذلك! وتذكَّرت الوقت الذي اجتزت فيه هذه الطريق بالذات، في عربة. تذكرت هبوطي ذلك التل مع الغسق، فلكأنما مرَّ دهر منذ اليوم الذي حملني نهاره إلى لوود أول مرة، فلم أبرحها بعد ذلك! لقد قضيت كل عطلاتي في المدرسة - إذ لم تستدعِني مسز ريد قط إلى جيتسيهد، ولا زارتني هي أو أي فرد من الأسرة إطلاقًا! - ولم أتصل بالرسائل أو بأية وسيلة، بالعالم الخارجي. كل ما أعرفه عن الوجود كان ينحصر في: قواعد المدرسة والواجبات الدراسية، والعادات والأهواء، والأصوات والوجوه، والعبارات والثياب والعواطف التي تعرفها حياة المدرسة. أما الآن، فقد شعرت بأن هذا لم يكن كافيًا، وأنني، في أصيل واحد، سئمت كل الحياة الرتيبة التي عشتها لثماني سنوات. ورغبت في الحرية! ومن أجل الحرية هتفت، وصلّيت! وقد خُيِّل إليَّ أنها كانت مبعثرة على أجنحة الريح التي أخذت تهب إذ ذاك في وهن، فتخلَّيت عن هذه الأمنية إلى أخرى أكثر تواضعًا: تُقت إلى شيء من التغيير، ولكن هذه الأمنية أيضًا بدت كما لو أنها تبدَّدت في الفراغ المبهم. فصحت شبه قانطة: «إذن، يارب امنحني، على الأقل، لونًا جديدًا من العبودية !».

وهنا دق جرس. كان جرس العشاء يدعوني للهبوط. ولم يُتَح لي أن أستأنف حبل تأملاتي حتى ساعة النوم. بل، حتى في هذه الساعة، ظلت المعلِّمة التي تشاطرني الغرفة تقصيني عن الموضوع الذي كنت متشوَّقة إلى العودة إليه، بسيل من الكلام التافه! لكم رحت أتمنى أن يخرسها النعاس! كان يبدو لي أنني لو استطعت العودة إلى آخر فكرة طرأت على ذهني عندما كنت أقف لدى النافذة، لو أتاني اقتراح مبتكر يريحني. وسمعت، أخيرًا، غطيط مس جرايس، زميلتي. وكانت امرأة بدينة من ويلز، لم أرَ حتى ذلك اليوم في غطيطها وجيوبها الأنفية سوى مصدرًا للإزعاج، أما في تلك الليلة فقد رحَّبتُ في رضا بأولى نغمات هذه الغطيط! وما إن تخلَّصت من مقاطعتها لأفكاري، حتى عاد ما انقطع منها إلى الاتصال، فرحت أجادل نفسي - في ذهني طبعًا، لأنني لم أكن أتكلَّم بصوت مرتفع: «عبودية جديدة! هناك أمل في هذه الفكرة. أجل، هناك شيء غير عادي فيها. إنها لا تبدو، لأول وهلة، مستمرَأة. إنها ليست كالكلمات الأخرى: الحرية، الابتهاج، الاستمتاع، إن لهذه الكلمات وقعًا بهيجًا حقًا، ولكنها نظري أصوات، أصوات جوفاء، عابرة. حتى ليعتبر الإنصات إليها مجرَّد تبديد للوقت. أما العبودية! لا بد أن هذه الكلمة تمثِّل حقيقة واقعة! كل

إنسان يمكن أن يُستعبَد. لقد استُعبِدت هنا لثماني سنوات، أما الآن، فأرغب في أن أستُعبَد في مكان آخر. أليس بوسعي أن أختار عبوديتي وفق إرادتي؟ أليس هذا أمرًا جديرًا بالتفكير؟ أجل، أجل. ليس ذلك صعبًا، إذا تيسَّر لي ذهن نشيط يبتكر وسيلة الوصول إلى غايتي !».

واستويت جالسة في فراشي لأوقظ ذلك الذهن. وكانت الليلة باردة، فغطيت منكبيّ بالشال، ثم استأنفت التفكير بكل ما أوتيت من طاقة: «ما الذي أبتغيه؟ مكان جديد، في بيت جديد، بين وجوه جديدة، وتحت ظروف جديدة؟! إنما أريد هذا لأنه لا من العبث أن أطمع بشيئ أفضل! ولكن، كيف يظفر الناس بمكان جديد؟ أظنهم يتصلون بالأصدقاء. ولكن هناك كثيرين غيري ليس لهم أصدقاء، وهم مضطرون إلى أن يبحثوا لأنفسهم، وأن يساعدوا أنفسهم. فما وسيلتهم؟ على عقلي أن يبحث عن جواب، وبسرعة. وراح عقلي يجتهد، ويعمل حتى أحسست من الإعياء بضربات في رأسي وصدغي. ولكنه ظل حوالي الساعة يتخبَّط في ظلمات، دون أن تثمر جهوده! وبعث هذا الجهد الفاشل حمّى في كياني، فنهضت أخطو في الحجرة، وأزحت الستارة، فلمحت نجمة أو اثنتين. ثم ارتجفت من البرد، فعدت إلى السرير. وإذ بجنية رحيمة قد أسقطت الحل المنشور على وسادتي، في غيابي! إذ لم أكد أستلقي على السرير، حتى تسلَّل الجواب إلى عقلي في هدوء طبيعي: «أولئك الذين ينشدون مناصب، يعلنون عن حاجتهم، فعليك أن تنشري إعلانًا في صحيفة شاير هيرالد!». ولكن، كيف وأنا لا أدري شيئًا عن الإعلان؟ وفي الحال، قفزت الإجابات إلى رأسي في لطف: «يجب أن تضعي الإعلان ونفقاته، في ظرف ترسلينه إلى الصحيفة، ثم أودعيه في أول فرصة بريد لوتون، واكتبي أن الردود يجب أن توجه إلى «ج.إ.»، في مكتب البريد. وفي وسعك أن تذهبي وتسألي بعد حوالي أسبوع من إرسال الخطاب، عمَّا إذا وصلت ردود، ثم تتصرفي بناء على ذلك.. وراجعت هذا الحل مرة بعد مرة، حتى هضمه عقلي، فبات في شكل واضح، عملي. وشعرت بالرضا، فنمت !

نهضت مع أولى بواكير النهار، فكتبت إعلاني، وأرفقته بالمبلغ، قبل أن يدق جرس إيقاظ المدرسة. وكانت هذه صيغته: «شابه ذات خبرة بالتدريس»، (ألم أعمل مدرسة لمدة عامين؟) «ترغب في عمل لدى أسرة عندها أطفال دون الرابعة عشرة»، فقد خطر لي أنه لم يكن يليق بي وأنا لم أتجاوز الثامنة عشرة، أن أضطلع بإرشاد تلاميذ يقاربونني في السن. «وهي مؤهَّلة لتدريس الفروع العادية لمنهج تربوي إنجليزي جيد، مع اللغة الفرنسية، والرسم، والموسيقى»، وكانت هذه القائمة المحدودة للمواد تبدو حافلة في تلك الأيام أيها القارئ. «توجه الأجوبة إلى ج. إ. - مكتب لوتون بمقاطعة ...».

وظلّت هذه الرسالة مودعة في درجي طيلة النهار، حتى إذا فرغنا من تناول الشاي، استأذنت الناظرة الجديدة للذهاب إلى لوتون لشراء بعض الحاجات اللازمة لي ولبعض من زميلاتي المدرِّسات. وقد أذنت لي، فذهبت. وكانت لوتون على بعد ميلين من المدرسة، والأمسية رطبة ولكن النهار كان لا يزال طويلًا، فعرجت على متجر أو اثنين، ثم ألقيت الخطاب في البريد، وعدت تحت وابل من المطر، والماء يتصبَّب من ثيابي. ولكنني كنت مرتاحة الفؤاد .

ولاح الأسبوع التالي طويلًا، ولكنه ما لبث أن انتهى أخيرًا، ووجدتني مرة أخرى، قبيل نهاية يوم مشرق من أيام الخريف أسعى على قدميَّ إلى لوتون. وكانت الطريق بهذه المناسبة بديعة، تمتد على طول جانب الغابة، وخلال أبهى منعرجات المرتفع، ولكني في ذلك اليوم كنت منصرفة بتفكيري عن سحر الطبيعة إلى الخطابات التي ربما كانت، أو لم تكن، بانتظاري، في القرية الصغيرة التي كنت أقصدها. وكانت المهمة الصورية التي تعلّلت بها للذهاب هي أن أترك مقاس قدمي للاسكافي كي يصنع لي زوجًا من الأحذية. لذلك بادرت بإنهاء هذه المهمة أولًا. حتى إذ فرغتُ منها، عبرت الشارع الصغير الهادئ، من متجر الإسكافي إلى مكتب البريد الذي كانت تتولاه سيدة عجوز، تضع نظارة على أنفها، وكمين أسودين حول ذراعيها. فسألتها: «هل هناك رسائل باسم «ج.إ.»؟ . فتفرَّست فيَّ من فوق عدستيها، ثم فتحت درجًا عبثت بمحتوياته وقتًا طويلًا بلغ من طوله أن بدأت آمالي تترنَّح! وأخيرًا، أمسكت برسالة أمام عدستيها تدقق فيها زهاء خمس دقائق، ثم قدَّمتها لي، مشفوعة بنظرة أخرى تنم عن تساؤل وعدم اطمئنان. وكانت الرسالة باسم «ج. إ.»، فعدت أسألها: «أليست هناك رسائل أخرى؟». فقالت: «لا مزيد!». وإذ ذاك دسست الرسالة في جيبي، ويممتُ وجهي شطر المدرسة - إذ لم يكن في وسعي أن أفضّها إذ ذاك، فالقواعد كانت تلزمني بالعودة قبل الساعة الثامنة، وكانت وقتئذ قد بلغت السابعة والنصف! وبانتظاري واجبات عديدة عند وصولي: إذ كان عليَّ أن أراقب البنات في ساعة الاستذكار، ثم كان الدور دوري في تلك الليلة كي أتلو الصلوات، ثم أصحب التلميذات إلى مراقدهن. وبعد ذلك تناولت عشائي مع المدرسات الأخريات. بل إنني لم أجد فسحة من فراغ بعد أن أوينا إلى مخادعنا، فإن مس جرايس - التي لا مفر منها - ظلَّت تفرض نفسها عليَّ! وكنت أخاف أن تحترق الشمعة عن آخرها. على أن العشاء الثقيل الذي تناولته لم يلبث أن أحدث أثرًا منوَّمًا، لحسن الحظ، فسرعان ما انبعث غطيطها قبل أن أفرغ من خلع ثيابي. وكانت لا تزال ثمَّة بقية باقية من الشمعة، فتناولت الرسالة، وكان الخاتم الذي أُغلقت به يحمل الحرف «ف»، ففضضتها، ووجدت محتوياتها موجزة: إذا كانت «ج. إ.» التي نشرت إعلانًا في صحيفة شاير هيرالد يوم الخميس الماضي، تتوفَّر لها المؤهلات المذكورة، وإذ كانت في وضع يمكنها من أن تقدِّم شهادات تبعث

على الرضا بشأن أخلاقها وكفاءتها، فإن ثمَّة منصبًا معروضًا عليها، حيث لا يوجد سوى تلميذ واحد - فتاة صغيرة دون العاشرة من العمر - وحيث المرتَّب ثلاثون جنيهًا في العام. فالمرجو من «ج. إ.» أن ترسل شهادتها، واسمها، وعنوانها، وكل التفصيلات بهذا الصدد إلى: مسز فيرفاكس، بثورنفيلد، بالقرب من ميلكوت، مقاطعة ...».

وتأمَّلتُ الرسالة طويلًا: كان الخط من طراز قديم، وينم عن يد غير ثابتة، كما لو كانت يد سيدة مسنَّة، وكانت هذه بادرة مرضية، إذ كمن أخاف من أن تتطلَّب مني الظروف أن أتصرَّف من تلقاء نفسي، وبوحي من فكري، فأتعرَّض للتورُّط في مأزق! ثم إنني كنت أرجو أن تكون نتيجة جرأتي حميدة، وسليمة، كما يُقال. ومن ثم أحسست أن وجود سيدة مسنَّة عنصر أيجابيّ في العمل الذي كنت مقدمة عليه .

مسز فيرفاكس! وتمثَّلتها في الثوب الأسود والقلنسوة، اللذين ترتديهما الأرامل، وقد تكون باردة. ولكنها ليست وقحة، بل مثال للسيدة الإنجليزية، المسنّة الوقور !

وثورنفيلد! لا بد أن هذا كان اسم دارها. ووقر في نفسي أنه مبنى أنيق، منظَّم، وإن أخفقت في أن أرسم في خيالي صورة لغرفه .

وميلكوت! ورحت أستحث ما علق في ذاكرتي من خريطة انجلترا، حتى وقعت عليها، على اسم المدينة، واسم المقاطعة التي كانت أقرب إلى لندن بسبعين ميلًا من المقاطعة النائية التي كنت أُقيم بها، وكان هذا مشجعًا لي !

كنت أتوق إلى الذهاب إلى مكان فيه حياة وحركة، وقد كانت ميلكوت مدينة صناعية كبيرة على ضفاف نهر (أ...)، فهي مكان حافل بالحركة ولا شك، وفي هذا كل الخير، إذ سيكون مغايرًا لكل ما خبرته من قبل... لا لأن خيالي قد افتتن بفكرة المداخن الطويلة، وسحب الدخان، وإنما - كما قلت لنفسي - «قد تكون ثورنفيلد، على مسافة كبيرة من المدينة»! وهنا كانت الشمعة قد انتهت، فانطفأ الضياء !

وكان لا بد من اتخاذ خطوات في اليوم التالي، فلم يعد في الوسع كتمان خططي في صدري، بل لا بد من أن أبوح بها لأوفَّق في تنفيذها. لذلك سعيتُ إلى الناظرة خلال فسحة الغداء، وأنبأتها بأن أمامي احتمال الحصول على منصب جديد بمرتّب مضاعف، لم لأكن أتقاضى في لوود سوى خمسة عشر جنيهًا في العام. وسألتها أن تنوب عنِّي في مفاتحة مستر بروكلهرست، أو أحد أعضاء اللجنة، في الأمر. وأن تتأكَّد مما إذا كانوا يسمحون لي بأن أذكرهم

كمصدر يستطيع المخدوم الجديد أن يسأله عني. وقبلت الناظرة راضية أن تتوسَّط في الأمر. فلما كان اليوم التالي، طرحت الموضوع على مستر بروكلهرست الذي قال إنه لا بد من الكتابة إلى مسز ريد، لأنها كانت الوصية عليَّ، ومن ثم وُجّهت رسالة إلى السيدة، فأجابت بأن لي أن أفعل ما أشاء، لأنها كفَّت منذ زمن طويل عن التدخُّل في شؤوني! ودارت هذه الرسالة على أعضاء اللجنة، وبعد مدة خِلت أنها أطول وأسوأ ما كان يعطِّلني، صدر الإذن رسميًا بأن لي أن أعمل على تحسين حالي كيفما أستطيع، مع التأكيد بأنني كنت دائمًا حسنة السلوك والتصرف، سواء كمدرِّسة أو كتلميذة في لوود، وأنني سأزوَّد بشهادة عن أخلاقي وكفاءتي، يوقِّعها مفتشو المعهد. وفعلًا تسلَّمت الشهادة في خلال شهر، فأرسلت نسخة منها إلى مسز فيرفاكس، وتلقَّيت رد السيدة بالموافقة، وحدَّدت يومًا بعد أسبوعين لأتسلَّم عملي كمربية في دارها. ومن ثم انهمكت في تحضير نفسي، وسرعان ما انقضى الأسبوعان. ولم أكن أملك ثيابًا كثيرة، غير أن ما كنت أملكه كان يكفي حاجتي. وكان اليوم الأخير لي في لوود كافيًا لأن أرتِّب حقيبتي، وهي الحقيبة عينها التي أحضرتها معي من جيتسهيد منذ ثماني سنوات ! فحزمتها، وثبَّتت إليها بطاقة باسمي، ولم يبقَ سوى نصف ساعة حتى يفد الحمَّال لينقلها إلى لوتون حيث ألحق بها في ساعة مبكرة من الصباح التالي، عندما أذهب لأنتظر عربة السفر .

ونظَّفت ثوب السفر الأسود، وأعددت قبعتي وقفازيَّ وملفحتي، وفتَّشت جميع أدراجي لأستوثق من أنني لم أنسَ شيئًا خلفي. ولما لم يبقَ أمامي ما أفعله، حاولت أن أحظى بقسط من الراحة. ولكنني لم أستطِع، وبرغم أنني كنت قد قضيت طيلة اليوم واقفة على قدميّ. لم أستطِع أن أستريح لحظة، فقد كنت شديدة الانفعال، فإن صفحة من حياتي تغلق في تلك الليلة، لكي تفتح صفحة جديدة في الغد. ويصعب أن يغمض لي جفن في ما بين الفترتين، بل كان لا بد من أظل يقظة متأهّبة، أرقب الانقلاب الذي كان يجري .

وقالت خادمة صادفتني في البهو حيث كنت أهيم كروح قلقة: «هناك شخص يا آنسة في الطابق الأسفل يرغب في أن يراكِ». فقلت لنفسي: «لا بد أنه الحمَّال » ، وهبطت السلم دون أن أتحرَّى. وفيما كنت أجتاز القاعة الخلفية - أو حجرة جلوس المدرَّسات-التي كان بابها مورِبًا، في طريقي إلى المطبخ، إذ بامرأة تجري خارجة منها.. واعترضت المرأة طريقي وأمسكت بيدي وهي تصيح : «إنها هي... إنني متأكِّدة! إن بوسعي أن أعرفها أينما تكون !».

كانت امرأة ترتدي ثيابًا كثياب الخدم الراقية، وكأنها رئيسة خدم، برغم أنها كانت ما تزال شابة، مليحة، لها شعر وعينين سوداوين وبشرة لطيفة. وعادت

تهتف في صوت وابتسامة كدت أعرفهما :

- «هل عرفتني؟ ما أظنك نسيتني يا مس جين؟ ».

وفي اللحظة التالية، كنت أعانقها وأقبِّلها في شوق ودهشة: «بيسي! بيسي! بيسي!» ظللت أهتف هكذا، فاستقبلت هي ندائي نصف باكية، ونصف ضاحكة، ثم مضينا معًا إلى حجرة الجلوس. وإلى جانب المدفأة. كان طفل في الثالثة من عمره، في قميص وبنطلون. وبادرت بيسي قائلة :

- « هذا ابني الصغير »:

- «إذن فأنتِ تزوجتِ يا بيسي؟ ».

- «أجل. منذ خمس سنوات تقريبًا... تزوجت من روبرت ليفن الحوذي... ولي منه ابنة أخرى عدا بوبي هذا، وسمَّيتها جين !».

- «أو لا تسكنين في جيتسهيد ».

- «بلى، إنني أقيم في بيت البوَّاب، فالبوَّاب القديم قد رحل ».

- «حسنًا، وكيف حالهم؟ أنبئيني بكل شيء عنهم يا بيسي ولكن، اجلسي أولًا... وأنت يا بوبي، تعال اجلس على ركبتي... هيا؟ ».

ولكن بوبي آثر أن يتمسَّح في أمه، وأستأنفت مسز ليفن حديثها: «إنكِ لم تزدادي في الطول كثيرًا يا مس جين، ولم تسمني بدرجة تذكر. يبدو أنهم لم يحسنوا تغذيتك في المدرسة، إن مس ريد أطول منكِ بكتف ورأس، ومس جورجيانا في عرضك مرتين!». فقلتُ: «أظن جورجيانا جميلة يا بيسي؟ ».

- «جدًا... لقد ذهبت إلى لندن في الشتاء الماضي مع أمها وهناك لاقت الإعجاب، ووقع شاب في غرامها، ولكن علاقتهما لم تقم على تكافؤ. فماذا تظنين؟ لقد دبَّر الشاب الأمر مع مس جورجينا على أن يفرَّا معًا، ولكن أمرهما اكتُشف! وكانت مسز ريد هي التي كشفتهما، وأعتقد أنها كانت تحسدها. والآن هي وأختها تعيشان كما يعيش القط والكلب، فهما تتشاجران دائمًا !».

- «وما أنباء جون ريد؟ ».

- «أه، إنه ليس كما تروم أمه، لقد ذهب إلى المدرسة الثانوية، ورسب. ثم رغب أخواله ِفي أن يغدو محاميًا، فأصبح يدرس في القانون ولكنه شاب بالغ

الفساد، وما أظنهم سيخلقون منه إنسانًا ناجحًا !».

- «وما شكله؟ ».

- «إنه جد طويل... وبعض الناس يصفونه بأنه مليح الوجه، ولكن له شفتين غليظتين ».

- «ومسز ريد؟ ».

- «إن السيدة قد صارت بدينة، وما تزال مليحة الوجه، ولكني أظن أن عقلها ليس متزنًا. ثم إن سلوك مستر جون لا يرضيها، فهو ينفق نقودًا كثيرة ».

- «هل هي التي أوفدتك إلى هنا يا بيسي؟ ».

- «لا، لا... فأنا طالما رغبت في أن أراكِ، فلما سمعت بأن خطابًا وصل منكِ، وإنكِ ذاهبة إلى بلد آخر، رأيت أن أجيء وأن أراكِ قبل أن تصبحي أبعد من أن أصل إليكِ ».

- «أخشى أن يكون أملكِ قد خاب فيَّ يا بيسي !».

قلت ذلك ضاحكة: إذ لاحظت أن نظرة بيسي وإن عبَّرت عن احترام، إلّا أنها لم تنمّ عن شيء من الإعجاب... ولكنها بادرت هاتفة: «لا، يا مس جين، ليس تمامًا.. إنكِ راقية إلى درجة كبيرة، وإنك لتبدين سيدة محترمة، وهذا ما كنت أرتقبه لك، فإنك لم تكوني جميلة في طفولتك ».

وابتسمت لجواب بيسي الصريح، وشعرت بأنه كان صحيحًا، ولكني أعترف بأنني لم أتلقَّ عبارتها الأخيرة بغير اهتمام، فمعظم الناس يودون في الثامنة عشرة أن يتلقوا إعجاب الغير، ومن ثم فإن اقتناعهم بأن منظرهم الخارجي لا يحقِّق شيئًا هذه الرغبة، لا يبعث في نفوسهم الرضا أو الاغتباط .

وتابعت بيسي قولها: «على أنني أومن بأنكِ ماهرة... ما الذي تتقنينه؟ هل تجيدين العزف على البيانو؟ ».

- «بقدر بسيط ».

وكان ثمَّة بيانو في الحجرة، فسارت بيسي إليه وفتحته، ثم دعتني إلى أن أعزف لها شيئًا، فوقَّعت عليه لحنًا أو اثنين. وبدا الإعجاب على بيسي، وقالت في نشوة: إن الآنستين ريد لا تجيدان العزف مثلك! لقد كنت دائمًا أقول إنك

ستتفوَّقين عليهما في التعلم. وهل تجيدين الرسم؟ فقلت «هذا واحد من رسومي فوق المدفأة». وكان منظرًا طبيعيًا بالألوان المائية. أهديته إلى الناظرة، اعترافًا بجميل مساعدتها لدى اللجنة من أجلي، فأحاطته بإطار وزجاج». وهتفت بيسي :

- «إنه جميل يا مس جين! إنها صورة بديعة لا تقل عن أي صورة يستطيع المدرّس الذي يعلِّم مس ريد أن يرسمها، أما الآنستين فليس في وسعهما أن ترسما شيئًا قريبًا منه... وهل تعلَّمتِ الفرنسية؟ !».

- «أجل يا بيسي، أستطيع أن أقرأ وأتحدَّث بها ».

- «وهل تعرفين التطريز على الحرير والتيل؟». فهززت رأسي، وأضافت: «إذن فأنتِ سيدة راقية حقًا يا مس جين! كنت أتوسَّم أنك ستصبحين هكذا، وسوف تمضين في الحياة قدمًا، سواء رعاكِ أقاربكِ أو لم يرعوكِ... ولكن، هناك ما كنت أود أن أسألك عنه؟ هل سمعتِ قط عن أهل أبيك.. آل إير؟ ».

- «أبدًا... لم أسمع عنهم في حياتي على الإطلاق !».

- «إنكِ تعرفين أن السيدة كانت تقول دائمًا إنهم فقراء، جديرون بالازدراء... محتمل أن يكونوا فقراء فعلًا، ولكن أعتقد أنهم لا يقلّون عراقة أصل عن آل ريد. إذ حدث ذات يوم - منذ سبع سنوات - أن قدم إلى جيتسهيد سيد من آل إير ورغب في أن يراكِ، فقالت السيدة إنكِ في مدرسة تبعد خمسين ميلًا، وإذ ذاك بدا عليه الاستياء. لأنه لم يكن يملك أن يمكث في انجلترا حتى يزورك، لأنه كان راحلًا إلى دولة خارجية، وكانت السفينة تزمع الإقلاع من لندن بعد يوم أو اثنين، وكانت تبدو عليه سيماء السادة، وأعتقد أنه كان أخ أبيك !».

- «إلى أي دولة أجنبية كان راحلًا؟ ».

- «جزيرة على بعد آلاف الأميال، يُصنع فيها النبيذ... كما ذكر لي الساقي ».

فقلت: «أهي ماديبرا؟ ».

- «أجل.. هي. هذه الكلمة نفسها !».

- «وإذن فقد رحل؟ ».

- «أجل... هو لم يمكث سوى دقائق، إذ كانت السيدة تتعالى عليه، وقد وصفته بأنه «تاجر ذليل». ويعتقد روبرت، زوجي، أنه كان تاجر نبيذ ».

- «من المحتمل جدًا، أو لعله كان موظَّفًا أو وكيلًا لأحد تجار النبيذ ».

وأمضينا ساعة أخرى نتحدث عن الأيام الخوالي، ثم اضطرت هي للانصراف.. وفي الصباح التالي رأيتها ثانية - في لوتون - لبضع دقائق، وأنا أنتظر العربة. ثم افترقتا أخيرًا لدى باب فندق بروكلهرست، واتخذت كل منا طريقها: هي إلى جيتسهيد. وأنا إلى مقرّي الجديد، وحياتي الجديدة، في مكان لا أعرف عنه شيئًا، بالقرب من ميلكوت .

الفصل الحادي عشر

إن فصلًا جديدًا في رواية ليشبه منظرًا جديدًا في مسرحية. ولذلك فإنني عندما أرفع الستارة في هذه المرة، أدعوك أيها القارئ إلى أن تتخيل حجرة بفندق جورج في بلدة ميلكوت، وقد غطَّى الجدران ورق مزخرف كالذي يغطِّي جدران حجرات الفنادق. وفي الغرفة سجاد، وأثاث، وأدوات للزينة تعلو الموقد، وصور عديدة: من بينها صورة الملك جورج الثالث، وصورة ولي عهد انجلترا، وثالثة تمثّل وفاة وولف. كل ذلك يتجلّى لناظريك تحت نور مصباح زيتيّ يتدلَّى من السقف، وعلى ضوء نار قوية جلست أنا بجوارها، مرتدية معطفي وقبعتي، وبعد أن وضعت فراء يدي ومظلة المطر على منضدة، وجلست أدفئ جسمي من البرد بعد أن تعرَّضت لست عشرة ساعة من رطوبة أكتوبر وبرودته، فقد غادرت لوتون في الرابعة صباحًا. وها هي الساعة في ميلكوت تدق الثامنة .

وإذا كنتُ أبدو للقارئ وقد توفَّرت لي أسباب الراحة، لكنني لم أكن مستريحة البال، لأنني كنت أتوقَّع أن أجد عند وصولي أحدًا في انتظاري. وتلفَّتّ حولي في قلق وأنا أهبط السلم الخشبي الذي وضعه خادم الفندق توفيرًا لراحتي، إذ كنت أتوقَّع أن أسمع من ينطق باسمي، وأن أرى عربة تنتظرني لتحملني إلى ثورنفيلد. ولكني لم أرَ شيئًا من ذلك! وعندما سألت الخادم عمَّا إذا كان هناك من سأل عن مس إيـر، أجابني بالنفي. ولذلك لم يكن أمامي من سبيل سوى أن أطلب منه أن يقودني إلى حجرة خاصة. وها أنا ذي أنتظر، بينما تعصف بأفكاري كل أنواع الشكوك والمخاوف !

إنه لشعور جد عجيب تشعر به فتاة غرّة، لم تصقلها التجارب، وقد وجدت نفسها معزولة عن العالم، لا تربطها أي رابطة بإنسان، والشك يساورها في الوصول إلى الموطن الذي تقصده، وغير قادرة، بسبب موانع جمَّة تحول دون عودتها إلى المكان الذي غادرته... ولكن سحر المغامرة يضفي حلاوة على هذا الشعور، كما يبعث فيه بريق الزهو والكبرياء دفئًا. بيد أن وجيب الخوف لا يلبث أن يعكِّر صفوه، فقد طغى عليّ شعور بالخوف عندما انقضى نصف ساعة وأنا ما أزال بمفردي! وحدَّثتني نفسي بأن أدق الجرس، ثم سألت الخادم حين لبَّى دعوتي: «هل يوجد بالقرب من هنا مكان يُدعى ثورنفيلد؟ ».

- «ثورنفيلد؟ لا أدري يا سيدتي. سأسأل في المشرب». ثم اختفى، ولكنه عاد بعد لحظات يقول: «هل اسمك إير يا آنسة؟ ».

- «نعم ».

- «لأن شخصًا هنا في انتظارك ».

فوثبت واقفة وأخذت فراء يدي ومظلتي وأسرعت إلى رواق الفندق حيث كان يقف رجل عند الباب المفتوح. ورأيت في نور مصباح الطريق الخافت عربة يجرها جواد واحد. وقال الرجل في اقتضاب وبشيء من الخشونة وهو يشير إلى حقيبتي التي كانت في الرواق :

- « هذه هي أمتعتك على ما أظن؟ ».

- «نعم ».

فحمل الحقيبة إلى العربة، وعندئذ ركبت. وقبل أن يغلق الباب عليَّ سألته عن المسافة إلى ثورنفيلد، فقال: «حوالي ستة أميال ».

- «كم من الزمن تستغرق رحلتنا إلى هناك؟ ».

- «حوالي ساعة ونصف ».

ثم أغلق باب العربة جيدًا وصعد إلى مقعده الخارجي، وانطلق بالعربة على مهل، مما أتاح لي وقتًا كافيًا للتأمل والتفكير، كنت مرتاحة في نهاية الأمر لأنني أقترب من نهاية رحلتي. وعندما اضطجعت في العربة المريحة - وإن لم تكن أنيقة - استرسلت كما أشاء في تأملاتي، وقلت أحدِّث نفسي: «أستطيع أن أستدلَّ من بساطة الخادم والعربة أن مسز فيرفاكس ليست على جانب كبير من الثراء. ولكن هذا أفضل، لأنني لم أعِش سوى مرة واحدة بين قوم أغنياء، وكنت معهم غاية في البؤس والشقاء! وإنني لأتساءل: «هل تعيش مخدومتي مع أحد غير ابنتها الصغيرة؟ فإذا كان الأمر كذلك، وكانت البنت ظريفة أنيسة إلى حدٍّ ما، فإنني بكل تأكيد سأقوى على الحياة معها، وسأبذل قصارى جهدي، وإن كان من المؤسف أن يبذل الإنسان أحيانًا قصاراه، دون أن يوفَّق على الدوام! والواقع أنني في لوود حزمت رأيي على ذلك، وحافظت على قراري، فوفقت إلى إرضاء الجميع! أما مع مسز ريد فأذكر أنني بذلت ما أستطيع، فلم ألقَ سوى الامتهان والازدراء! ولذلك أضرع إلى الله ألا أجد في مسز فيرفاكس مسز ريد أخرى! أما إذا كانت كذلك، فلست مضطرة إلى البقاء معها، وإذا وقع أسوأ ما أتوقعه ففي وسعي أن أنشر إعلانًا آخر. ثم تساءلت: «كم قطعنا من الطريق حتى الآن؟ ».

أنزلت النافذة وأطلّيت برأسي: كانت ميلكوت خلفنا، واستدلّيت من تعدد أنوارها على أنها مكان على جانب كبير من الاتساع، أوسع كثيرًا من لوتون، وعلى قدر ما استطعت أن أتبين وجدتني في ما يشبه ساحة عامة، ولكن كانت البيوت تتناثر بكثرة في أرجاء ذلك الإقليم. وشعرت بأنني في منطقة تختلف عن لوود. منطقة أكثر منها سكانًا وأقل جمالًا في مناظرها، وأصخب منها حركة، وأقل روعة .

كانت الطرق شاقة، والليل كثير الضباب، فترك الحوذي العنان للجواد ليسير على مهل. وامتدت الساعة والنصف إلى ساعتين. وأخيرًا استدار في مقعده وقال: «لستِ الآن بعيدة عن ثورنفيلد !».

فأطلّيتُ برأسي مرة أخرى، ووجدتنا نمرّ بكنيسة. رأيت برجها المنخفض العريض مشرئبًا إلى السماء، وسمعت جرسها يدق ربع الساعة. كما شاهدت كوكبة من الأضواء على جانب من التل، تميّز قرية أو دسكرة. وبعد حوالي عشر دقائق، نزل السائق وفتح بوابتين مررنا خلالهما ثم سمعنا صليلهما من خلفنا. وبعد ذلك صعدنا ببطء في طريق منحدر حتى بلغنا واجهة طويلة لمنزل ينبعث ضياء شمعة من إحدى نوافذه المسدلة الستائر، بينما كانت بقية النوافذ مظلمة، وتوقَّفت العربة أمام الباب الخارجي الذي فتحته إحدى الخادمات، فنزلت ودخلت، تتقدمني الخادمة إلى بهو مربع انبثت في أرجائه أبواب عالية. وأدخلت إلى حجرة بهرتني في أول الأمر بأضواء مزدوجة، من النيران والشموع، لا تتفق مع الظلمة التي اعتادتها عيناي طيلة أكثر من ساعتين.. فلما استطعت مع ذلك أن أتبيَّن ما أمامي، شاهدت منظرًا أنيقًا مقبولًا: حجرة مريحة صغيرة، بها مائدة مستديرة بالقرب من موقد تشتعل فيه النار.. ومقعد بمسندين، عالي الظهر، وإن كان من الطراز القديم، وقد جلست فيه «أنظف» سيدة يمكن أن يتصورها الخيال، سيدة ضئيلة الجسم، متقدمة في السن، ترتدي قبعة حداد ومعطف أسود من الحرير، ومريلة من «الموسلين» الناصع البياض. صورة طبق الأصل لمسز فيرفاكس كما تخيَّلتها من قبل، وإن جاءت أقل بهاء وجمالًا، وكانت منهمكة في شغل الإبرة، وقد جلست عند قدميها قطة كبيرة في رزانة واحتشام. وقصارى القول، لم يكن ينقصها شيء لاستكمال المثل الأوفى للراحة المنزلية، والحق أنني لم أكن أتصوَّر مقدمة مثل هذه تطمئن مربية جديدة، ولا عظمة كهذه تغمر كل شيء، أو فخامة تربك وتذهل، وأخيرا دخلت، فنهضت السيدة العجوز وتقدمت من فورها في حنان لاستقبالي، قائلة :

- «كيف حالك يا عزيزتي؟ أخشى أن تكون الرحلة قد أتعبتك، لأن جون يقود العربة ببطء شديد. لا بد أنكِ تحسّين بالبرد... تعالي اقتربي من النار ».

قلت: «أظنك مسز فيرفاكس؟ ».

- «نعم. أنا هي.. اجلسي ».

ثم قادتني إلى مقعدها ومضت تخلع عني شالي، وتفك أشرطة قبعتي الصغيرة... فتوسَّلت إليها ألّا تحمّل نفسها كثير عناء، لكنها أجابتني :

- «أوه... لا عناء في ذلك ولا تعب. أظن يدك قد خدَّرها البرد... أعدِّي يا ليا شرابًا ساخنًا، وشطيرة أو اثنتين... ها هي مفاتيح حجرة المؤونة ».

ثم أخرجت من جيبها عنقودًا من المفاتيح يليق بربة بيت، وسلَّمته للخادمة... واستطردت تحدثني: «والآن اقتربي من النيران. لقد جئتِ بمتاعك معك. أليس كذلك يا عزيزتي؟ ».

- «أجل يا سيدتي ».

- «سآمر إذن بحمله إلى غرفتك ».

ثم انطلقت إلى خارج الغرفة في جلبة وضوضاء فقلت أحدِّث نفسي :

- «إنها تعاملني كما لو كنت زائرة! وما كنت أتوقَّع مثل هذا الاستقبال، بل كنت أتوقَّع فتورًا وغلظة! هذا يخالف ما سمعته عن معاملة المربيات، ولكن... يجدر بي ألّا أبتهج بهذه السرعة !».

وعادت السيدة فرفعت بيدها أشغال الإبرة، كما رفعت كتابًا أو اثنين من فوق المنضدة، لتفسح مكانًا للصينية التي جاءت بها ليا إذ ذاك، ثم قدَّمت لي بنفسها الشراب! وشعرت بالارتباك عندما وجدتني موضع اهتمام لم ألقَه من قبل، وبخاصة من مخدومي ورئيسي. ولكني عندما وجدتها لا تعتبر ما تفعله شيئًا في غير موضعه، آثرت أن أتلقَّى لطفها ومجاملتها في هدوء. ثم سألتها بعد أن تناولت بعض ما قدَّمته لي: «هل سأحظى الليلة بلقاء مسز فيرفاكس؟ ».

فقالت السيدة الطيبة وهي تقترب بأذنها من فمي: «ماذا قلتِ يا عزيزتي؟ إني ثقيلة السمع». فأعدت السؤال بصوت واضح وكان جوابها :

- «مس فيرفاكس؟ أوه إنك تعنين مس فارنس إن فارنس هو اسم تلميذتك الجديدة ».

- «حقًا؟ إذن فهي ليست ابنتك؟ ».

- «كلا. فأنا لا عائلة لي ».

وكان في وسعي أن أتابع تحرياتي الأولى فأسألها عن علاقتها بمس فارنس، ولكني أدركت أن ليس من الأدب أن أطرح كثيرًا من الأسئلة. فقد كنت واثقة أنني سأسمع الإجابات على هواجسي في الوقت المناسب !

وجلست أمامي وأخذت قطتها على ركبتها ثم استرسلت تقول :

- «أنا مغتبطة، مغتبطة جدًا بحضورك لأنه مما يبهج جدًا أن يعيش الإنسان هنا الآن، بل في كل وقت، مع رفيق يؤنسه. إن ثورنفيلد قصر جميل قديم، أهمل شأنه كثيرًا في السنوات الأخيرة ولكنه ما زال مكانًا محترمًا. وأنت تعلمين أن الإنسان في الشتاء يشعر بالوحدة شعورًا موحشًا، حتى في أحسن الأمكنة. أقول الوحدة لأن ليا فتاة ظريفة بكل تأكيد كما أن جون وزوجته في غاية الدماثة، ولكن سترين أنهم جميعًا مجرّد خدم. ولا يمكن أن نخاطبهم على قدم المساواة، بل يجب أن نعاملهم بحيث لا نخشى أن نفقد سلطاننا عليهم. والحق أنه في الشتاء الماضي، وكان شتاءً قارسًا إذا كنت تذكرين... إذ حتى عندما كان الثلج يكف عن الانهمار، كانت السماء تمطر، والرياح تهب وتعصف! لم يطرق باب هذا المنزل مخلوق، ما عدا القصَّاب وساعي البريد. استمر ذلك من نوفمبر حتى فبراير! بحيث استبد بي الأسى والاكتئاب لجلوسي بمفردي ليلة بعد ليلة. وكانت ليا تقرأ لي أحيانًا. ولكني لا أعتقد أن الفتاة المسكينة كانت مغتبطة بهذه المهمة، بل كانت تعتبر نفسها في سجن! أما في الربيع والصيف تتحسَّن أحوال الإنسان وتتغيَّر كثيرًا بفضل أشعة الشمس وطول النهار. ثم بعد ذلك في بداية الخريف قدمت الصغيرة أديلا فارنس ومعها مربيتها، والأطفال سرعان ما يدخلون البهجة على المنزل! والآن قد جئت أنتِ إلى هنا فسوف أكون في غاية السرور ».

والواقع أن قلبي انشرح لهذه السيدة الفاضلة عندما سمعت حديثها، فاقتربت بمقعدي منها، وعبَّرت لها عن رغبتي المخلصة في أن تجد في رفقتي ما ترجوه من سرور. فقالت: «ولكني لن أبقيك الليلة إلى ساعة متأخِّرة، فها هو الليل ينتصف، كما أنكِ كنتِ في رحلة طوال اليوم ولا بد أنكِ تشعرين بالتعب... فإذا كانت قدماك قد دفئتا تمامًا سأقودك إلى مخدعك. إنني أعددت لكِ الحجرة الملاصقة لحجرتي وهي غرفة صغيرة، ولكني أعتقد أنكِ سوف تفضِّلينها على الغرف الكبيرة الأمامية لأن هذه وإن كانت في الواقع أفخم، إلّا أنها موحشة ومنعزلة، وأنا نفسي، لا أنام فيها إطلاقًا !».

فشكرتها على حسن اختيارها. وكنت أشعر حقيقة بالتعب، بعد رحلتي الطويلة، فأبديت استعدادي للذهاب إلى مضجعي، وعندئذ تناولَت الشمعة فتبعتها وبدأت أولًا بالتأكد من أن باب الردهة مغلق، ثم انتزعت مفتاحه من القفل وقادتني إلى الطابق العلوي. كان السلم والإفريز من خشب البلوط، بينما كان شباك السلم عاليًا ومغطًّى بالدانتيلّا. وهو والدهليز الطويل المفضي إلى أبواب مخدع النوم كانا يبدوان كما لو كانا في كنيسة لا في بيت. والدرج والدهليز يتخللهما هواء بارد، ما يعطي فكرة غير مبهجة عن مدى اتساعها وعزلتهما. وأخيرًا فرحت بدخول مخدعي وبأنه مؤثَّث أثاثًا حديثًا عاديًا .

وعدما حيَّتني مسز فيرفاكس تحية المساء، في حنان وإشفاق، أغلقت بابي ثم رحت أحملق في ما حولي. إلى أن أمّحى بعض التأثير المروِّع الذي تركه في نفسي اتساع البهو والظلام والدرج الفسيح وطول الدهليز البارد، بفضل منظر حجرتي البهيج. ولأنني تذكَّرت أنني بعد يوم من التعب الجسماني والقلق النفسي قد وجدت نفسي أخيرًا في مأوى آمن وهادئ! وزخر قلبي بالشعور بالشكر والامتنان فركعت بجانب الفراش وقدَّمت الحمد لمن يستحق الحمد، دون أن أنسى قبل أن أنهض أن ألتمس منه المعونة على المضي في طريقي والقدرة على أكون أهلًا للعطف الذي أغدق عليَّ قبل أن أعمل على استحقاقه. وفي تلك الليلة خلا مضجعي من الأشواك كما خلت غرفتي المنعزلة من المخاوف. وسرعان ما استغرقت في النوم، مكدودة الجسم، راضية النفس. ولما صحوت كانت الشمس في رائعة النهار .

بدت لي حجرتي مكانًا مشرقًا كل الإشراق، وقد سطعت الشمس خلال الستائر المصنوعة من الشيت الأزرق الزاهي فكشفت بضيائها عن جدران يغطيها الورق وأرض يكسوها السجاد، وبالجملة، كشفت عن صورة لا تشبه ما في لوود من ألواح عارية وجص ملطَّخ متسخ! وإذ ذاك سمت روحي لهذا المنظر الجميل وخُيِّل إليَّ أنني أبدأ في الحياة عهدًا أجمل، عهدًا له زهوره ومسراته بقدر ما له من أشواك ومتاعب. ودبَّت الحياة بعنف في أوصالي بعد أن تفطنت إلى هذا التغيير في ما يحوطني من مناظر، وبعد أن بعث في نفسي الأمل هذا الحقل الجديد الذي ألفيتني فيه. وإن لم أستطِع أن أحدِّد بالضبط ما كنت أرجوه من المستقبل وأتوقعه ما عدا أن يكون شيئًا سارًا على أي حال. شيئًا قد لا يقع اليوم أو مثل هذا اليوم من الشهر القادم. بل في فترة مستقبلية لا سبيل إلى تحديدها !

نهضت من فراشي فارتديت ملابسي بعناية واهتمام، وكنت مكرهة على ارتداء ملابس بسيطة، لأن أي رداء من أرديتي لم يكن إلّا بسيطًا. وكنت بطبيعتي كثيرة العناية بنظافتي ولم يكن من عادتي ألّا أكترث لمظهري أو للأثر الذي

أتركه في الآخرين. بل كنت على العكس دائمة الحرص على أن أبدو في أحسن منظر ساعية إلى انتزاع الإعجاب ما دمت أفتقر إلى الجمال! ولطالما أسفت لأنني لم أكن أكثر جمالًا. بل لطالما تمنيت أن يكون لي خدَّان متورِّدان وأنف مستقيم وفم صغير، قاني اللون. كما تمنَّيت أن تكون لي قامة فارعة، جليلة، ممشوقة! وشعرت أنه من نكد طالعي أن أكون غاية في ضآلة الجسم، وشحوب الوجه وعدم اتساق الملامح ودمامة الخلقة. ولكن تُرى لماذا تنتهي هذه الأماني ويستبد بي هذا الندم؟! يصعب أن أجيب عن ذلك حتى لنفسي وإن كان لديَّ لذلك سبب منطقي وسبب طبيعي كذلك، فما إن مشَّطت شعري وارتديت معطفي الأسود الأنيق وسوَّيت صداريّ الناصع البياض حتى رأيت من واجبي أن أظهر أمام مسز فيرفاكس بمظهر محترم وأن أعمل على ألّا تنفر مني تلميذتي !

وأخيرًا فتحت النافذة، حتى إذا وجدت كل شيء مرتبًا نظيفًا في مكانه فوق منضدة الزينة، غادرت حجرتي، فاجتزت الردهة الطويلة المغطاة بالسجاجيد، وهبطت درج السلّم بخشبه اللامع الزلِق، لأصل إلى البهو، حيث توقَّفت لحظات لأتطلَّع إلى بعض الصور المعلقة على الجدران (وأذكر أن إحداها كانت تمثل رجلًا متجهِّم الأسارير يرتدي درعًا، وسيدة معفّرة الشعر بالمساحيق تحيط بجيدها قلادة من لؤلؤ، كما أخذت أتأمل مصباحًا من البرونز يتدلَّى من السقف، وساعة كبيرة ذات إطار من خشب البلوط تعلوه نقوش عجيبة الشكل، اسودّت من طول الزمن حتى غدت في لون الأبنوس، وبدا كل شيء لعينيَّ في منتهى الفخامة والأبهة على ضآلة نصيبي من اعتياد العظمة والأبهة. وكان باب البهو مفتوحًا، وقد صُنع نصفه من زجاج فاجتزت عتبته. كان في الخارج صباح جميل من أيام الخريف، والشمس ترسل أشعتها الصافية على المروج الداكنة والحقول الخضراء، فقدمت إلى المرج المعشوشب ثم رفعت عيني لأتطلّع إلى واجهة القصر. كان يرتفع إلى ثلاثة طوابق ليست ضخمة، ولكنها موفورة الاتساع، بحيث تليق كمسكن لسيد يقيم في الريف، لا كمقر لنبيلٍ من النبلاء. وكانت شرفات القصر التي تحيط به تضفي عليه منظرًا جميلًا، وواجهته تنتهي ببرج للحمام تتطاير منه حمائمه مجنَّحة فوق المروج وهي تهدل هديلها الجميل ثم تهبط إلى مرعى كبير يفصله عنها سور غائر من الحقول، وفي هذا المرعى رأيت صفًا من أشجار الشوك تبدو قوية وعريضة أشبه بأشجار البلوط، ولعل من هذا المنظر اشتق المنزل لقب «القصر» الذي أُطلق عليه، وعلى مسافة بعيدة، رأيتُ تلالًا لا تشبه في ارتفاعها الجبال التي تحيط بلوود، وليست كالحواجز الشاهقة التي تكاد تفصلها عن العالم المليء بالحركة والحياة. ولكنها كانت مع ذلك تلالًا هائلة تحتضن ثورنفيلد وتعزلها بصورة لم أكن أتوقع مثلها على مقربة من مكان مثل ميلكوت يضطرب بالحياة. وبالقرب من ثورنفيلد كانت تقوم كنيسة المقاطعة ببرجها العالي

القديم المطل على ربوة تقع بين المنزل والبوابات. كنت أتأمل مغتبطة هذا المنظر الساجي وأنعم بالهواء العليل، وكانت أذناي تصغيان بابتهاج إلى هديل الحمام وعيناي تتصفّحان مدخل البهو الواسع، وكنت أتساءل كيف تعيش سيدة بمفردها في مثل هذا المكان الكبير، عندما ظهرت مسز فيرفاكس في مدخل الباب وقالت :

- «ماذا؟ أتخرجين مبكرة هكذا؟ أراكِ ممن يستيقظون في ساعة مبكرة !».

فاتجهت نحوها لتستقبلني بقبلة رقيقة ثم صافحتني قائلة: «كيف وجدتِ ثورنفيلد؟». فقلت إنني أحببتها كثيرًا، فقالت: «نعم، إنها مكان جميل، ولكني أخشى أن تدركها الفوضى ما لم يستقر رأي مستر روشستر على المجيء والإقامة هنا إقامة دائمة، أو على الأقل ما لم يكثر من التردد عليها بين حين وآخر، فالمنازل الكبيرة والحقول الجميلة تحتاج إلى وجود صاحبها فيها ».

فصحت متعجبة: «مستر روشستر؟ من هو؟ ».

فأجابت بهدوء: «صاحب ثورنفيلد! أما كنتِ تعلمين أن اسمه روشستر؟ !».

لم أكن أعلم بالطبع، لأنني لم أسمع عنه من قبل. ولكن السيدة العجوز كانت على ما يظهر ترى في وجوده حقيقة يعرفها العالم أجمع، ويجب أن يعرفها كل إنسان بغريزته! وقلت: «كنت أظنكِ مالكة ثورنفيلد !».

- «ثورنفيلد ملكي أنا؟ باركك الله يا طفلتي! يا لها من فكرة! ملكي أنا؟ أنا مجرَّد مدبّرة للمنزل، أنا مديرته. والواقع أني أمت بصلة بعيدة من القرابة إلى آل روشستر من ناحية والدتي، أو على الأقل كان زوجي قريبًا لهم. كان قسيسًا مسؤولًا عن قرية هاي الصغيرة الواقعة على ذلك التل، وكانت تلك الكنيسة القريبة من هنا ملكًا له. وكانت أم مستر روشستر الحالي من أسرة فيرفاكس، وابنة عم لزوجي. ولكنني لا أحفل قط بهذه العلاقة ولا تهمني في شيء، لأنني أعتبر نفسي مجرد مدبّرة منزل عادية، ولا أرجو شيئًا أكثر من أن يعاملني رب الأسرة على الدوام معاملة طيبة ».

- «والبنت الصغيرة.. تلميذتي؟ ».

- «إنها تحت وصاية مستر روشستر. وقد كلَّفني أن أبحث لها عن معلِّمة لأنه يعتزم أن ينشئها هنا، في هذه المقاطعة على ما أعتقد. وها هي آتية مع «دادتها»، كما تسمِّي مربيتها ».

وعندئذ وضح اللغز! فلم تكن هذه الأرملة الرقيقة الرحيمة سيدة عظيمة، وإنما أجيرة مثلي. ولم ينتقص هذا من حبي لها، بل على العكس، زاد سروري عن ذي قبل لأن المساواة بينها وبيني كانت حقيقية وليست مجرد تواضع من جانبها، وهذا أفضل بكثير، لأن موقفي منها غدا أكثر حرية وانطلاقًا. وفيما كنت أفكر في هذا الاكتشاف قدمت بنت صغيرة تتبعها مربيتها وهي تجري فوق المرج، فرحت أتأملها دون أن يبدو عليها في أول الأمر أنها فطنت لوجودي: كانت طفلة في كل شيء، ولعلها كانت في السابعة أو الثامنة من عمرها، نحيفة البناء شاحبة صغيرة الأسارير ذات شعر طويل موفور يتدلّى حتى خصرها. وقالت مسز فيرفاكس تحييها: «صباح الخير يا مس أديلا. تعالي وكلِّمي السيدة التي ستتولّى تعليمك وتجعل منك يومًا امرأة بارعة ».

فاقتربت الصبية ثم قالت بالفرنسية وهي تشير ناحيتي :

- «أهذه هي المعلمة؟ ».

فأجابتها مربيتها بالفرنسية كذلك: «نعم، إنها هي ».

ودهشت لسماع الحوار بالفرنسية، فسألتُ: «هل هما أجنبيتان؟ ».

- «إن المربية أجنبية، كما أن أديلا وُلدت في القارة (1) وأغلب الظن أنها لم تغادرها إلّا منذ ستة شهور. ولما جاءت إلى هنا لم تكن تعرف الإنجليزية، أما الآن فهي تحاول التحدث بها قليلًا وأنا لا أفهم منها شيئًا لأنها تخلط كلامها كثيرًا بالفرنسية ولكنك سوف تفهمين ما تعنيه ».

ولحسن حظي كانت سيدة فرنسية قد علمتني اللغة الفرنسية وأغرتني أن أتحدث على الدوام مع مدام بيبرو بالفرنسية ما سنحت الفرصة، هذا فضلًا عن أنني حرصت في السنوات السبع الأخيرة على أن أحفظ مقطوعة فرنسية في كل يوم عن ظهر قلب، وأن أهتم اهتمامًا بالغًا بلهجتي وبمحاولة تقليد معلميَّ في النطق، إلى أن حصلت على قسط كبير من إتقان هذه اللغة يعصمني من أن أرتبك أمام الآنسة أديلا، التي تقدَّمت فصافحتني عندما علمت أنني معلمتها. وفيما كنت أتقدمها إلى حجرة الطعام لتناول الفطور وجّهت إليها بعض العبارات بلغتها، فأجابتني في أول الأمر باقتضاب، ولكن بعد أن جلسنا حول المائدة وتمعَّنت فيَّ حوالى عشر دقائق بعينيها البنيَّتين، بدأت فجأة تثرثر في طلاقة ثم صاحت بالفرنسية :

- «إنكِ تتكلمين لغتي كما يفعل مستر روشستر وفي وسعي أن أتحدَّث معكِ كما أتحدث إليه. وكذلكِ صوفي سوف تبتهج لأنها لا تجد أحدًا هنا يفهمها، إن

مدام فيرفاكس لا تتكلّم غير الإنجليزية ولكن صوفي مربيتي جاءت معي بطريق البحر على سفينة كبيرة لها مدخنة كان يندفع منها دخان... أي دخان؟ وقد أصابني دوار البحر كما أصاب صوفي بل وأصاب مستر روشستر نفسه، فرقد على أريكة في حجرة جميلة تسمَّى الصالون، بينما نمتُ وصوفي على سريرين صغيرين في حجرة أخرى... وكدت أقع من فراشي الذي كان يشبه الرف وأنتِ يا آنسة... ما اسمك؟ ».

- «إير... جين إير ».

- «إير... أوه لا أستطيع النطق به. حسنًا، لقد توقَّفت سفينتنا في الصباح، وقبل أن ينتشر ضياء النهار تمامًا، في مدينة كبيرة... مدينة ضخمة كل دورها حالكة ينبعث منها الدخان. ولا تشبه إطلاقًا تلك المدينة البديعة النظيفة التي جئت منها, وقد حملني مستر روشستر على ذراعيه فوق لوح يمتد إلى الشاطئ ثم تبعتنا صوفي فاستقلّينا كلنا عربة حملتنا إلى منزل جميل كبير، أكبر من هذا وأظرف، ويُدعى «فندقًا»، حيث مكثنا حوالى أسبوع. وقد اعتدتُ أنا وصوفي أن نتمشَّى يوميًا في مكان فسيح أخضر مليء بالأشجار يُدعى «المنتزه»، وفيه أطفال عديدون سواي وبركة فيها طيور جميلة أطعمتها من فتات الخبز ».

هنا سألتني مسز فيرفاكس مشدوهة: «أتفهمينها وهي تنطلق بكل هذه السرعة؟». والواقع أنني فهمت حديثها جيدًا لأنني اعتدتُ لسان مدام بيبرو الذَرِب السيَّال. وأردفت السيدة الطيبة تقول: «بودي أن تطرحي عليها سؤالًا أو اثنين عن والديها، تُرى هل تذكرهما؟

فسألتها: «مع من يا أديلا كنتِ تعيشين عندما كنتِ في تلك المدينة الجميلة النظيفة التي حدثتنا عنها؟ ».

- «عشت منذ زمن بعيد مع ماما، ولكنها مضت إلى العذراء. وقد اعتات ماما أن تعلمني الرقص والغناء وترتيل الأشعار. وكان عدد كبير من علية الناس يزورون ماما، فكنت أرقص أمامهم وأجلس على ركبهم وأغنِّي لهم... ولكم أحببت ذلك، فهل تريدين أن أسمعك غنائي الآن؟ ».

وكانت قد فرغت من تناول إفطارها ووافقت على أن تعرض عليَّ عيِّنة من مواهبها، فنزلت عن مقعدها وجلست على ركبتي ثم عقدت يديها في احتشام على حجرها وردَّت خصلات شعرها إلى الخلف بهزة من رأسها، ثم رفعت عينيها إلى السقف وجعلت تغني إحدى أغنيات الأوبرا عن آلام سيدة هجرها حبيبها، وبعد أن أقامت مناحة على خيانته استنجدت بكبريائها وطلبت إلى خادمتها أن تزيِّنها بأسطع مجوهراتها وأغلى ثيابها، ثم اعتزمتِ أن تلقى هذا

الخائن في تلك الليلة بالذات في حفلة راقصة كي تثبت له - بأن تظهر بمظهرٍ مرح - أنها لم تتأثَّر بهجرانه .

بدا غريبًا أن تختار طفلة صغيرة هذا الموضوع لتغنيه، ولكني أعتقد أن الغرض من ذلك الاستعراض كان مجرَّد سماع عبارات الحب والغيرة تتعثَّر بها لغة الطفولة دون أن تذوق لها طعمًا، أو هكذا خُيِّل إليَّ على الأقل !

غنَّت أديلا في محافظة تامة على اللحن وبسذاجة تتفق وسنها. وما إن فرغت من ذلك حتى وثبت عن ركبتي قائلة: «والآن يا آنسة سأتلو عليكِ بعض الشعر». ثم تهيَّأت لذلك وأخذت تسمعني بعض أشعار من « مؤتمر الفئران» وهي من قصص «لافونتين» الخرافية. ثم أخذت تلقي المقطوعات بلهجة خطابية وهي تراعي باهتمام صحة النطق وتطنيب الألفاظ ومرونة الصوت وملاءمة الحركات، ما لا يتفق بحال مع صغر سنها، ويقطع بأنها تدرَّبت على ذلك بعناية فسألتها: «أهي والدتك التي علَّمتكِ هذه المقطوعات؟ ».

- «نعم وكانت ماما تقول لي بالفرنسية: «ماذا لديك بعد ذلك؟»، ثم تجعلني أرفع يدي هكذا لتذكِّرني برفع عقيرتي. والآن هل أرقص لكِ؟ ».

- «كلا، هذا يكفي. ولكن بعد أن ذهبت أمك إلى العذراء المقدسة - كما قلتِ - مع من كنت تعيشين؟ ».

- «مع مدام فريدريك وزوجها، وقد عُنيت بأمري ولكنها لا تمت إليَّ بأي قرابة وأظن أنها فقيرة، لأنها لا تملك بيتًا جميلًا مثل بيت ماما، ولم تطل إقامتي هناك فقد سألني مستر روشستر إن كنت أرغب في الذهاب والعيش معه في إنجلترا، فوافقت لأنني عرفت مستر روشستر قبل مدام فريدريك وكان لطيفاً معي، يمنحني ثيابًا ولعبًا جميلة، ولكن ها أنتِ ترين لم يبرِّ بوعده لأنه جاء بي إلى إنجلترا ثم عاد مرة أخرى ولم أعد أراه على الإطلاق !».

وبعد الفطور ذهبت وأديلا إلى حجرة المكتبة التي يبدو أن مستر روشستر أمر بتخصيصها لدروسنا. كان معظم الكتب موصدًا عليها خلف أبواب زجاجية ولكن كان ثمَّة صوان للكتب تُرك مفتوحًا، ويحوي كل ما قد أحتاج إليه من كتب ابتدائية، وعدة مجلدات خفيفة في الأدب والشعر والسير والرحلات وبضع روايات... إلخ. وأظنه اعتبر ذلك ما قد تحتاج إليه معلمة. والواقع أنني قنعت بهذه المكتبة في ذلك الحين، خاصة حين قارنتها بالمنتخبات القليلة التي استطعت التقاطها في لوود من هنا وهناك، فقد بدت لي كافية لتوفير حصاد واف من أسباب التسلية والمعرفة. وكان في الحجرة كذلك بيانو كبير، بادي الجِدة ممتاز النغم، وحمَّالة للرسم وكرتان أرضيتان .

وألفيتُ تلميذتي لينة العريكة ذات قابلية للعلم، ولكنها لم تكن تطيق الخضوع لنظام في حياتها إذ لم تألف أي عمل منظَّم من أي نوع! ورأيتُ أن ليس من الفطنة أن أضيِّق عليها الخناق كثيرًا في أول الأمر. وبعد أن تحدَّثت إليها كثيرًا وساعدتها على حفظ بعض الدروس حتى انتصف النهار، سمحت لها بالعودة إلى مربيتها. ثم استقر رأيي على أن ارسم لها صور تخطيطية إلى أن يأتي وقت الغداء، وفيما كنت أرقى الدرج إلى الطابق العلوي، لأجيء بمحفظة أوراقي وأقلامي الرصاص، نادتني مستر فيرفاكس قائلة :

- «أظنك انتهيت الآن من ساعات الدراسة الصباحية ».

وكانت تجلس في حجرة ذات أبواب لولبية مفتوحة على مصاريعها، فدخلت إليها عندما خاطبتني لأجد الغرفة واسعة فاخرة مفروشة بمقاعد وستائر أرجوانية وسجاد تركي، وقد غطت جدرانها ألواح من شجر الجوز، وبها نافذة واسعة ملونة الزجاج وسقف شاهق بديع النقوش. وكانت مسز فيرفاكس تنفض الغبار عن بعض زهريات من البلور الأرجواني البديع قد صفت على صوان الأواني. فلم أتمالك أن صحت وأنا أتلفَّت حولي: «يا لها من حجرة جميلة!». ذلك أني لم أرَ من قبل حجرة لها نصف هذه المهابة! فقالت مس فيرفاكس :

- «نعم هذه حجرة الطعام وقد فتحت نافذتها ليدخل بعض الهواء وضياء الشمس، لأن الرطوبة تتلف كل ما في الحجرة التي لا يدخل إليها أحد . إن الداخل إلى حجرة الاستقبال هناك كأنه يدخل إلى قبو ».

ثم أشارت إلى قوس واسع يشبه النافذة ومغطًّى مثلها بستارة مطوية من وسطها على هيئة أنشوطة. فهبطت إلى ذلك القبو درجتين عريضتين، ونظرت خلاله فلمحت مكانًا بدا لعينيّ الغريرتين شديد التألُّق، ولم يكن سوى حجرة للاستقبال نُسِّقت على صورة جاءت أي من الجمال. وفي داخلها كان مخدع تكسوه الأبسطة البيضاء، وتُشاهَد فيه أكاليل من الزهور المتألِّقة ويغطِّي كلا من الحجرة والمخدع نقوش تمثّل أشجار الكرمة الناصعة البياض. بينما كانت أدوات الزينة التي تعلو الموقد من زجاج بوهيمي متلألئ في حمرة الياقوت وقلت :

- «كيف تحافظين على هاتين الحجرتين يا مسز فيرفاكس، فلا غبار، ولا أغطية للأثاث؟ لولا أن الهواء بارد لحسب الإنسان أنهما تستعملان يوميًا ».

- «كيف يا مس إير... إن زيارات مستر روشستر نادرة، ولكنها تجيء فجائية وعلى غير انتظار! ولما كنت أعلِم أنه يمتعض إذا شاهد شيئًا غير منظَّم أو

يحتاج إلى ترتيب، فقد آثرت أن أجعل الحجرتين مرتبتين على الدوام: استعدادًا لمقدمه ».

- «هل مستر روشستر رجل مدقِّق يصعب إرضاؤه؟ ».

- «ليس إلى هذا الحد، ولكن له ذوق السيد النبيل وعاداته ولذلك يحب أن يرى كل شيء متسقًا مع الذوق والعادات ».

- «هل تحبينه؟ وهل هو محبوب بشكل عام؟ ».

- «أوه، نعم. إن أفراد الأسرة يلقون الاحترام هنا دائمًا، ومعظم الأراضي في هذه الناحية، على مدى بصرك، كانت ملكًا لهم !».

- «دعينا من الأراضي، فهي خارجة عن موضوعنا وإنما أنا أسألك: هل تحبينه؟ وهل هو محبوب لشخصه؟ ».

- «ليس لدي ما يحملني على أن أشعر نحوه بغير شعور الحب، وأعتقد أن مستأجري أراضيه يعتبرونه مالكًا عادلًا متحرِّرًا وإن لم تطل إقامته بينهم ».

- «أليست له خصال خاصة؟ باختصار حدثيني عن شخصيته وأخلاقه؟ ».

- «أوه! إن أخلاقه لا غبار عليها في ما أعتقد، ولكنه قد يكون أصبح غريب الطبع بعض الشيء بعد أن قام برحلات عديدة وشاهد الكثير من أرجاء العالم. وبوسعي القول إنه رجل أريب وإن لم يُتح لي أن أطيل بالحديث معه يومًا من الأيام ».

- «وكيف تتجلّى غرابة طبعه؟ ».

- «لا أدري، ولا يسهل وصف ذلك... وإن كنت تحسينه عندما تتحدثين إليه، فلا تدرين جيدًا أهو يمزح أو يجد. أهو مسرور أو ساخط! وقصارى القول إنه لا يتسنَّى لكِ أن تفهميه جيدًا. أو على الأقل أنا لا أفهمه، ولكن ماذا يهمّني من ذلك ما دام سيدًا على جانب كبير من الطيبة؟ !».

كان هذا كل ما ظفرت به من مسز فيرفاكس عن مخدومها ومخدومي، فإن هناك أناسًا ليست في رأسهم أي فكرة عن رسم صورة تخطيطية للأخلاق، أو عن ملاحظة ووصف النقاط البارزة سواء في الأشخاص أو الأشياء. لأن تحرياتي حيَّرتها، وإن كانت لم تُخرجها من سجيتها، إن كان مستر روشستر في

عينيها مستر روشستر فحسب: سيدًا ومالك أراضي ولا شيء أكثر من ذلك! فلم تشأ أن تتحرى أو أن تبحث إلى أبعد من ذلك، ولذلك كانت دهشتها واضحة عندما عبّرت لها عن رغبتي بأن أعرف أكثر عن شخصيته !

وعندما غادرنا حجرة الطعام، اقترحت عليَّ أن نقوم بجولة على بقية المنزل، فتبعتها إلى الغرف العليا والسفلى. وقد تولّاني العجب أينما ذهبت، من فرط ما كان كل شيء مرتب وجميل: كانت الحجرات الأمامية واسعة أكثر من المألوف أما حجرات الطابق الثالث فإنها بالرغم من ظلمتها وانخفاض سقوفها كانت ممتعة بما يشيع فيها من جو أثري، ولطالما نقل أثاث الطابق الأرضي إلى هذه الحجرات كلما تغيَّر طرازه وتبدَّلت «الموضة». ومن ثم رأيت على الضوء الخافت المتسرِّب من نوافذها الضيقة أسرَّة ترجع في قدمها إلى مائة سنة، وصناديق من خشب البلوط والجوز رُسمت نقوشها العجيبة على صورة أغصان النخيل ورؤوس «الشاروبيم» (صغار اللائكة) فبدت أشبه بأنماط سفينة عبرانية! وصفوفًا من الكراسي الوقورة، بظهرها العالي الضيِّق. ومقاعد خفيضة، أعرق في القدم، وقد علتها آثار تطريز أوشك أن يُمحى، لأنه من صنع أصابع ووريت الثرى منذ جيلين !

كل هذه المخلفات الأثرية خلعت على الطابق الثالث بقصر ثورنفيلد منظر بيت يرجع إلى الماضي السحيق، أشبه بمحراب للذكريات! ولقد أحببت في هذه المخلفات سكونها، وقتامتها، وغرابتها، ولكني لم أطمع بأي حال في أن أنام ليلة واحدة على سرير من هذه الأسرَّة الواسعة الثقيلة التي أغلقت على بعضها أبواب من خشب البلوط، وأسدلت على بعضها الآخر ستائر إنجليزية قديمة طُرِّزت عليها زهور عجيبة، وطيور أعجب، ومخلوقات آدمية أعجب وأعجب! والواقع أنها كانت كلها تبدو عجيبة في ضياء القمر الشاحب .

وسألتُ محدثتي: «هل ينام الخدم في هذه الحجرات؟ ».

- «كلا.. إنهم يشغلون صفًا من الحجرات الصغيرة الواقعة في مؤخرة القصر، ولا ينام هنا أحد قط. إذ يُقال إنه لو كان في قصر ثورنفيلد شبح، لاختار مسكنه في هذا الطابق !».

- «هذا ما أعتقده. أليس لديكم أشباح هنا؟ ».

أجابتني باسمة: «لم أسمع بواحد منها !».

- «ولا على سبيل التمشي مع التقاليد، أو مجاراة الأساطير وقصص الأشباح؟ ».

- «لا أظن، ومع ذلك يُقال إن أسرة روشستر كانت في الماضي يغلب على أفرادها العنف على الهدوء، ولعل ذلك سر هدوئهم الآن في قبورهم !».

فغمغمت قائلة: «نعم، إنهم لا شك يستغرقون في نوم هادئ، بعد حياة من النشاط المحموم ».

وإذ وجدتها تبتعد، سألتها: «إلى أين تذهبين الآن يا مسز فيرفاكس؟ ».

- «إلى السطح العلوي. ألا تأتين وترين المنظر من هناك؟ ».

فتبعتها في هدوء، ورحنا نرقى درجًا ضيقًا جدًا إلى الطابق الأخير، ومنه صعدنا سلمًا من الخشب ثم نفذنا من باب بالسقف إلى السطح. وإذ ذاك أصبحنا في مستوى مستعمرة الغربان، وأمكنني أن أرى أعشاشهم. ثم اتكأت على الشرفات، أتطلَّع إلى أبعد ما تحتي، فرأيت الحقول أشبه بخريطة، وشاهدت المرج المخملي المشرق يحيط بأسفل القصر. وبدا لي الحقل في اتساع أحد المتنزّهات، وقد رصَّعته أخشابه القديمة، كما بدت الغابة الداكنة الذابلة وقد تخلَّلها طريق تكسوه النباتات والطحالب وأكثر خضرة من الأشجار بأوراقها الجافة. وسبح في شمس الشتاء كل من الكنيسة والطريق والتلال الساكنة. أما الأفق فكانت تتاخمه سماء مماثلة، لازوردية مرصَّعة ببياض لؤلؤي. وخلا المنظر من سمات غير عادية، ولكن كل ما فيه كان شائقًا. ولما استدرتُ وعدتُ من فجوة السقف، كدتُ لا أتبيَّن طريقي فوق السلم الخشبي، إذ بدا لي الطابق النهائي في سواد القبو بالنسبة لقوس السماء الزرقاء الذي كنت أتطلَّع إليه وإلى منظر المروج والمراعي والتلال الخضراء التي تضيئها الشمس ويتوسطها القصر، والتي كنتُ منذ قليل أرنو إليها منشرحة الصدر .

وتريَّثت مسز فيرفاكس خلفي قليلًا، لتغلق باب السقف، ورحت أتحسَّس طريقي إلى المخرج، ثم تقدمت لأهبط سلم السطح الضيق. وتمهَّلت في ذلك الممشى الطويل الذي يفصل بين الحجرات الأمامية والحجرات الخلفية بالطابق الثالث، إذ كان ضيقًا خفيضًا معتمًا، وليس به سوى نافذة صغيرة في الطرف البعيد.. بحيث كان يشبه، بصفَّي الأبواب الصغيرة المغلقة التي تحف به، دهليزًا في قلعة صاحب اللحية الزرقاء ! Bluebeards Castle (انتبه مقلوب !!!)

وبينما كنت أخطو في رفق، صفع أذني آخر صوت كنت أتوقَّع أن أسمعه في مثل هذه المنطقة الساكنة: ضحكة عجيبة واضحة، متكلِّفة كئيبة! فتوقَّفت عن السير، وعندئذ انقطع الصوت - للحظة واحدة فقط - ثم عاد مرة أخرى أقوى وأعلى مما كان في المرة الأولى! ومرّ الصدى في جلجلة صاخبة، كأنما هو

يتردَّد في كل حجرة على انفراد، وإن لم يصدر إلّا من حجرة واحدة. وكان بوسعي أن أشير إلى الباب الذي انبعث من خلفه !

وبمجرد أن سمعتها تهبط الدرج ناديت بصوت عال: «مسز فيرفاكس!»، ثم قلت أسألها :

- «هل سمعت هذه الضحكة العالية؟ ضحكة من هي؟ ».

- «إنها على الأرجح ضحكة إحدى الخادمات.. لعلها جريس بول ».

- «هل سمعتها؟ ».

- «نعم سمعتها بوضوح، وكثيرًا ما أسمعها، فهي تخيط في إحدى هذه الغرف، وأحيانًا تكون معها ليا، فإذا اجتمعتا معًا ارتفعت جلبتهما ».

وتكرَّرت الضحكة، بنغمها الخافت، المتقطِّع، وأعقبتها همهمة عجيبة.. فصاحت مسز فيرفاكس: «جريس !».

والواقع أنني لم أكن أتوقَّع أن تجيبها جريس، لأن الضحكة كانت رهيبة، غير طبيعية، تخالف كل ما سمعته في حياتي من ضحكات! ولكننا كنَّا إذ ذاك في رائعة النهار، ولم يصحب القهقهة العجيبة ظهور شبح من الأشباح.. ومع ذلك فلولا أن الظرف لم يكن يسمح بالهلع لاستبد بي رعب عجيب، ولكن الحادث ما لبث أن أراني أنني كنت حمقاء عندما تملَّكني الإحساس بالدهش والعجب، فقد فُتح الباب القريب مني وخرجت منه خادمة: امرأة بين الثلاثين والأربعين من عمرها، ربعة القامة، حمراء الشعر، جامدة الأسارير.. أقرب إلى أن تكون شبحًا مخيفًا لا يمكن أن ترى العين أو تتخيل مثيلًا له !

وقالت مسز فيرفاكس: «يا لها من ضجة شديدة جدًا يا جريس! تذكَّري الأوامر والتعليمات ».

فانحنت جريس في احترام وهدوء، ثم دخلت.. بينما مضت الأرملة تقول :

- «هذه امرأة جئنا بها لتخيط وتساعد ليا في واجباتها المنزلية، وعليها اعتراضات في بعض الأمور، بيد أنها تقوم بعملها جيدًا... اخبريني، كيف كان حالك مع تلميذتك الجديدة هذا الصباح؟ ».

وبذلك تحوَّلت دفّة الحديث إلى أديل، واستمرت كذلك حتى بلغنا المنطقة المضيئة في الطابق الأرضي، فأقبلت أديلا تجري لتقابلنا في الردهة، وهي تصيح بالفرنسية: «لقد أُعد الطعام يا سيداتي، وأنا جائعة جدًا !».

وقد وجدنا الغداء معَدًّا في انتظارنا، في حجرة مسز فيرفاكس .

الفصل الثاني عشر

لم يسفر طول مقامي وتعرفي على قصر ثورنفيلد وأهله، عن ما يناقض الشعور الذي شعرت به في البداية الهادئة اللطيفة لعهدي هناك بأنني مقدمة على عمل مريح. فقد وجدت في مسز فيرفاكس ما كان مظهرها ينبئ عنه من أنها امرأة وادعة طيبة القلب، على جانب كاف من التعليم، وقسط لا بأس به من الذكاء. كما وجدت في تلميذتي طفلة نشيطة مرحة، دُللت وعوملت في كثير من التساهل واللين، فكانت في بعض الأحيان عنيدة صلبة الرأي.. ولكن لما كانت شؤونها قد أوكلت كلها إليَّ، دون أن يعرقل الخطط التي رسمتها لإصلاحها أي تدخل غير حكيم، من أي جهة، فإنها سرعان ما نسيت نزواتها التافهة وأصبحت طيِّعة قابلة للتعليم. ولم تكن على جانب من المواهب والميزات الخلقية، ونضج الإحساس والذوق، يمكن أن يرفعها فوق مستوى الطفولة العادية، ولكنها لم تكن ذات عيب أو رذيلة تهبط بها عن هذا المستوى. وقد تقدَّمت تقدُّمًا محسوسًا في دراستها وأظهرت نحوي حبًّا من المحتمل أنه لم يكن عميقًا، لكنه بهيج نابضٌ بالحياة. واستطاعت بسذاجتها وثرثرتها المرحة ومحاولاتها إرضائي أن تجعلني أنا الأخرى أتعلَّق بها إلى الحد الذي جعل كلا منَّا راضية بمعاشرة الأخرى .

وهنا أقول - بين قوسين - إن هذا الأسلوب في وصف علاقتنا قد يبدو فاترًا إذا ما صدر عن أشخاص يتطرَّفون في آرائهم عن طبيعة الأطفال الملائكية، ويرون واجبًا على أولئك الذين يوكلون بتعليم الأطفال أن يكنُّوا لهم حبًا يصل إلى مرتبة العبادة، ولكني لا أكتب لأتملَّق أنانية الآباء، أو لأردِّد عبارات الرياء والدجَل، وإنما أقول الصدق وحده عندما أقرِّر أن ضميري قد شغل بالاهتمام بسعادة أديل وتقدّمها، وإن قلبي كان يحبها لذاتها الصغيرة، حبًا هادئًا. تمامًا كما كنت أكن لمسز فيرفاكس شعورًا بالعرفان لكرمها، واغتباطًا بعشرتها يتفق مع ما كانت تبديه لي من احترام رزين، يتلاءم مع حظها المعتدل من الذكاء والشخصية .

وليلُمني من يشاء، إذ أضيف إلى هذا أنني كنت إذا ما خرجت وحدي بين آن وآخر للنزهة في الحقول، أو لأسير إلى أبواب السياج الخارجي فأطِل على الطريق العامة. أو إذا ما صعدت سلالم طبقات المبني الثلاث - مخلِّفة أديل تلعب مع مربيتها، ومسز فيرفاكس في البدروم تصنع الحلوى - حتى إذا بلغت السطح سرحت بالبصر عبر الحقول والتلال، وعلى طول الأفق المعتم. ليلمني من يشاء إذا قلت إنني كنت، إذ ذاك، أتوق إلى قوة إبصار تتجاوز هذه الحدود،

وتقوى على أن تصل إلى العالم المصطخب، والمدن والأقاليم التي تطفر بالحياة، والتي طالما سمعت عنها، دون أن تقع عليها عيناي! ولكم كنت أصبو إلى مزيد من التجارب العملية، وإلى مزيد من مخالطة بني جنسي، والتعرُّف على أخلاقهم المتباينة. بقدر يفوق ما كان يُتاح لي في ذلك المكان! لقد كنت أقدِّر نواحي الخير في نفس مسز فيرفاكس، ونواحي الخير في نفس أديل، ولكني كنتُ موقنة بوجود ألوان أخرى زاهية من الخير والفضائل، وكنت أرغب دائمًا في مشاهدة ما أؤمن بوجوده !

فمن يلومني على ذلك؟ كثيرون، ولا ريب.. لسوف أُتَّهم بعدم القناعة، ولكن ما حيلتي وقد فُطِرت على القلق.. وكان هذا القلق يحتدم أحيانًا فيورِّثني الألم، ولا أجد خلاصًا منه إلّا في أن أتمشّى جيئة وذهابًا في ردهة الطابق الثالث، حيث تدخلني الطمأنينة والسلام وسط سكون المكان وعزلته، وحيث أترك عينيّ تمتلئان بما كان ينبعث أمامهما من رؤى مشرقة - ما كان أكثر عددها وأشد تألقها! - وحيث أدع قلبي ينساب مع الوجيب النشوان الذي كان يفعمه بالحياة، في الوقت الذي يضنيه فيه! وكان الأفضل من ذلك كله أن أفتح أذنْي سريرتي، لأصيخ السمع لقصة لا تنتهي قط. قصة كان ينسجها خيالي ويرويها باستمرار وبلا انقطاع، ويبعث فيها الحركة المثيرة بما كان يضمِّنها من أحداث، ومن حياة، ومن لهيب، ومن إحساس.. ومن كل شيء أشتهيه ولا أجده في حياتي الواقعية .

ومن العبث القول بأن على البشر أن يقنعوا بالطمأنينة والسكينة. إذ لا بد لهم من العمل والحركة، وعليهم أن يبتدعوهما ويخلقوهما، إذا عزَّ عليهم أن يجدوهما! لقد كُتب على الملايين أن يعيشوا في ركود أشد جمودًا مما كنت أعيش فيه، وكم من ملايين يثورون في صمت على حظهم من الحياة. ولا يدري امرؤ كم من ثورة، غير الثورات السياسية، تختمر في نفوس البشر على الأرض! والمفروض في النساء أن يكنّ في الغالب جد هادئات وادعات. ولكنهن يشعرن تمامًا كما يشعر الرجال، ويحتجن إلى تدريب لمواهبهن، وإلى ميدان لجهودهن، بقدر ما يحتاج إخوانهم الرجال، وهن أيضاً يعانين من الكبت الشديد، والركود التام، تمامًا كما يعاني الرجال، ولذلك فمن ضيق العقل لدى أبناء جلدتهن المحظوظين - أي الرجال - أن يقولوا بأن عليهن أن يقبعن في دورهن لصنع الطعام، ورتق الجوارب، والعزف على البيانو، وتطريز الحقائب. وأن ينحوا عليهن باللائمة، ويضحكوا منهن إذا حاولن البحث عن عمل آخر أو الإلمام بجديد غير ما قضى به العرف لجنسهن !

وكثيرًا ما كنت في خلواتي هذه، أسمع ضحكة جريس بول.. الضحكة المجلجلة نفسها.. والـ «ها.. ها!» الخافتة البطيئة نفسها، التي جفلت لها عندما تناهت

إلى أذنيّ في أول مرة. كذلك كنت أسمع غمغمتها الشاذة التي تفوق ضحكتها غرابة! وكم من أيام أخلدت فيها صاحبة الضحكة إلى الصمت، ولكنها كانت لا تكف في أيام أخرى عن الضحك والدمدمة.. وكنت أراها في بعض الأحيان وهي تغادر غرفتها، وفي يدها حوض أو صحن أو صينية، فتهبط إلى المطبخ، لتعود من فورها وهي تحمل وعاء مليئًا بالطعام... آه، ألا اغفر لي أيها القارئ العاطفي المزاج، فلست أروي سوى الحقيقة المجردة. ولقد كان ظهور جريس بول يخفِّف دائمًا من وطأة الفضول الذي تثيره تصرفاتها الصوتية الشاذة، إذ كانت قسماتها الحادة تنم عن رصانة، وليس فيها في الواقع، ما يسترعي الانتباه، وكثيرًا ما حاولت أن أستدرجها إلى محادثتي، فكانت تبدو زاهدة في الكلام، وتجيب بكلمات مقتضبة تقطع على المرء أي أمل في هذا الصدد.. أما بقية من كان بالدار من خدم، إلى جانب جريس، أي الحوذي جون وزوجته، وليا التي تقوم بتنظيف الدار، وصوفي المربية الفرنسية، فكانوا قومًا طيبين ليس فيهم ما يتسرعي الاهتمام، وقد اعتدت أن أتحدث إلى صوفي بالفرنسية، فألقي عليها أحيانًا بعض الأسئلة عن وطنها الريفي، ولكنها لم تكن من الصنف الذي يميل إلى الوصف والقَصّ، ولذلك كانت أجوبتها مضطربة قليلة، تصد ولا تشجع .

وانقضى أكتوبر ونوفمبر وديسمبر. وفي عصر أحد أيام يناير، طلبت مني مسز فيرفاكس أن أمنح أديل عطلة، لأنها كانت تشكو من البرد، وعندما عقَّبت أديل على ذلك الرجاء، بتحمُّس ذكّرني بما كان للأجازات العارضة من قيمة لديَّ في طفولتي، وافقت على ذلك، مؤثرة إظهار المرونة في مثل هذه الأمور. وكان يومًا جميلًا هادئًا، برغم اشتداد البرد، وكنتُ قد سئمت الجلوس في سكون حجرة المكتبة طوال ذلك الصباح، وإذ كانت مسز فيرفاكس قد فرغت لتوِّها من كتابة خطاب، ثم تركته بانتظار من يأخذه إلى البريد، فقد ارتديت قبعتي ومعطفى، وتطوعت بحمل ذلك الخطاب إلى قرية هاي.. وكانت مسافة الميلين بيننا وبينها فرصةً لنزهة بديعة على الأقدام، في أصيل ذلك اليوم الشتوي. ومن ثم اطمأننت إلى أن أديل جلست مرتاحة على مقعدها الصغير بجانب الموقد في حجرة مسز فيرفاكس، وأعطيتها خير دُماها الشمعية التي كنت أحتفظ بها دائمًا في ورق مفضَّض بداخل أحد الأدراج، لتلعب بها، كما أعطيتها كتاب قصص كي تنوِّع من أسباب تسليتها. وبعد أن أجبت بقبلة عن قولها: «عودي بسرعة يا عزيزتي الطيبة.. يا آنسة جينيت العزيزة»، غادرت الدار.. وكانت الأرض يابسة، والهواء ساكنًا، والطريق موحشًا، فأسرعت الخطو حتى دفئت، ثم أخذت أسير الهوينى كي أستمتع بنزهتي، وأفكر في الغبطة التي خالجت نفسي في ذلك الزمان وذلك المكان.. وكانت الساعة الثالثة، وقد أخذ جرس الكنيسة يدق في اللحظة التي مررت فيها تحته.. وكان سحر تلك اللحظات يكمن في غسقها الزاحف، وفي شمسها الباهتة الضياء،

والتي كانت تنحدر ببطء. وما لبثت أن أصبحت على بعد ميل من ثورنفيلد، في طريق شهيرة في الصيف بورودها البرية، وفي الشتاء بثمار الجوز والعليق، على أن خير مفاتنها الشتوية هو ما يغشاها من عزلة تامة، ومن سكون يشمل أشجارها المجرَّدة من الأوراق، فإذا هبت النسائم فلا صوت ولا همهمة ولا حفيف.. وعلى الجانبين، على مسافة بعيدة، تمتد حقول خلت من ماشية ترعى.. حتى الطيور التي ربما هبطت مصادفة على السياج، كانت تبدو أشبه بأوراق حمراء فاتها أن تتساقط على الأرض !

وكانت هذه الطريق الضيقة تميل صاعدة سفح التل حتى تصل إلى قرية هاي. فلما بلغت منتصفها، جلست على قارعة درب يفضي إلى الحقل. ثم لففت معطفي حولي، ودسست يدي في فرائه فلم أشعر ببرد، برغم الجليد الذي كان يظهر على صفحة من الثلج تغطِّي الجسر، كما تغطي غديرًا صغيرًا متجمِّدًا كانت مياهه تفيض منذ أيام. وفي جلستي تلك، تسنَّى لي أن أطل على ثورنفيلد، وأن أشرف على غاباتها.. حتى إذا غاصت الشمس بين أشجار، يمَّمت ناحية الشرق، حيث تربَّع القمر فوق قمة تل يعلو مجلسي.. وكان يبدو باهتًا، ولكنه أخذ يزداد تألُّقًا في كل لحظة.. وكانت قرية هاي ماتزال على مسافة ميل، ولكني استطعت، وسط السكون الساجي، أن أسمع بوضوح دبيب الحياة الخافت، كما تناهى إلى أذني كذلك تدفُّق الجداول، وإن كنت لم أدرِ تمامًا في أي وديان أو وهادٍ كانت تندفع.. على أنه كانت ثمَّة تلال عديدة وراء هاي. ولا بد أن ثمَّة جداول كانت تتخللها !

وفجأة بددت ذلك السكون وتلك الهمسات الرقيقة ضجة عنيفة انبعثت من بعيد جدًا، ولكنها كانت غاية في الوضوح: وقع حوافر قوية، وقعقعة معدنية حجبت أفكاري، كما تحجب صور الصخور الضخمة الصمَّاء، أو أشجار البلوط الكبيرة الوارفة، إذا رُسمت في مقدمة لوحة بخطوط ثقيلة سوداءو، ما يكون وراءها من تلال لازوردية، ومن أفق ساطع بالضياء، ومن سحب متمازجة، تختلط عندها درجات الألوان.. وكانت الضوضاء عند الجسر، إذ كان ثمَّة جواد يقترب. ولكن الطريق الكثيرة المنعرجات حجبته عن عيني.. غير أنه كان يدنو، فهممت بأن أغادر مكاني، ولكني وجدت الطريق ضيقة فآثرت أن أثبت في موضعي حتى يمر بي، وكنت في تلك الأيام شابة تقبع في ذاكرتها تلك القصص التي سمعتها في طفولتها.. فلما نضجت، صارت هذه القصص إذا ما تحرَّكت من رقادها، أضفى عليها الشباب اليافع قوة وحيوية فوق ما كانت الطفولة تقوى على إسباغه عليها.. ومن ثم، فبينما كان الجواد يقترب، وفيما كنت أترقب ظهوره خلال الغسق، تذكرت بعض قصص بيسي عن روح تُدعى جيتراش كانت تظهر في شمال إنجلترا على صورة جواد وبغل وكلب ضخم،

لترتاد الطرق المنعزلة الموحشة، وتهبط أحيانًا أمام المسافرين الذين فاجأهم الليل في الطريق، مثل ما كان هذا الجواد مقبلًا عليَّ في تلك الآونة .

وازداد الجو اقترابًا، ولكنه لم يكن قد بلغ بعدُ نطاق أبصاري... ثم سمعت بجانب وقع السنابك حفيفًا بين الحشائش، وإذا بين جذوع أشجار البندق القريبة كلب ضخم، كان اختلاط اللونين الأبيض والأسود في جسمه يبرز شكله وسط الأشجار. كان يشبه تمامًا إحدى الصور التي تظهر فيها روح جيتراش، كما كانت تصفها بيسي.. فهو مخلوق يشبه الأسد، طويل الشعر، ضخم الرأس.. على أنه مرَّ بي في هدوء، فلم يتريَّث ليتطلَّع إليَّ بعينين مخيفتين تندلع منهما النار، كما توقعت! ثم تبعه الحصان، جواد مرتفع، يعلو ظهره راكب. وبدَّد الرجل - ذلك المخلوق الآدمي - سحر الخرافة في الحال، لأنه لم يرد في الأسطورة أن شيئًا على ظهر جيتراش إطلاقًا، بل كان يهيم وحده. ومع أن العفاريت ربما ركبت رمم الوحوش الضارية، كما كان يخيَّل لي، إلَّا أنها يندر أن تشتهي التستر في شكل آدمي عادي. وإذن فليس هذا روح جيتراش، وإنما هو مجرَّد مسافر يختصر طريقه إلى ميلكوت بالانطلاق في هذه الناحية.. على أنه لم يكد يمر بي ويمضي في سيره بضع خطوات، حتى اضطررت للالتفات، على صوت انزلاق، وصيحة تردد: «يا الله! ما العمل الآن». ثم استرعى انتباهي صوت كبوة، فقد سقط الجواد براكبه، منزلقين على صفحة الجليد الذي كان يكسو الجسر. وعاد الكلب يتواثب، فلما رأى سيده في مأزق، وسمع الجواد يئن ويتوجَّع، راح ينبح حتى ردَّدت تلال المساء نباحه الذي كان من الضخامة بقدر حجمه. ثم راح يتشمَّم الجسمين المنطرحين على الأرض، وهرع نحوي. فقد كان ذلك كل ما يستطيعه، إذ لم يجد بالقرب منه من يطلب مساعدته ومعونته سواي، فأطعته، وسرت إلى الرجل الذي كان يحاول إذ ذاك أن يتخلَّص من جواده، باذلًا في ذلك جهودًا جبارة نمَّت عن أنه لم يصب بكثير أذى. ومع ذلك فقد سألته: «هل أصابك أذى يا سيدي؟». ولعله كان لحظتها يسب ويلعن، ولكني لست واثقة.. فقد كان يتفوَّه بعبارات منعته من الرد عليَّ في الحال.. فعدت أسأله: «هل أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلك؟». فأجاب وهو ينهض من عثرته أولًا على ركبتيه ثم على قدميه: «بل قفي جانبًا!»، ففعلت. وكان الجواد يلهث، ويركل الأرض، والكلب يعوي. وانتهى الحادث بخير، فقد هدأ الجواد ونهض. كما سكت الكلب، عندما نهره سيده قائلًا: «صه يا بايلوت». ثم انحنى الرجل يتحسَّس قدمه وساقه ليطمئن إلى سلامتهما. ولاح أن شيئًا آلمه، لأنه جلس في مكاني الذي كنت قد غادرته. وكنت راغبة في أن أكون ذات نفع، ولو من قبيل المجاملة على الأقل، فاقتربت منه مرة أخرى وقلت :

- «إذا كنت قد أصبت بأذى وفي حاجة إلى عون يا سيدي، ففي وسعي أن أجيئك بمن تشاء، سواء من ثورنفيلد أو من هاي ».

- «شكرًا.. سأتغلب على الألم. إن عظامي سليمة، ولكني أصبت بالتواء في قدمي ».

ثم وقف مرة أخرى، وجرَّب قدمه، ولكن الألم انتزع منه آهة، لا إرادية! وكان بعض ضياء النهار ما يزال يني، والقمر يشرق بضوء شاحب، فأمكنني أن أرى الرجل بوضوح. كان يرتدي فوق جسمه معطفًا للركوب ذا ياقة من الفراء ومشابك من النحاس، أما بقية التفاصيل فلم تكن ظاهرة بجلاء، ولكني تبيَّنت طول قامته وعرض منكبيه ووجهه الأسمر، بقسماته الجادة وحاجبيه الغزيرين. وكانت عيناه وحاجباه المتشابكان تنم إذ ذاك عن حنق وتجهُّم. لقد جاوز سن الصبا، ولكنه لم يبلغ أوسط العمر، فلم يساورني خوف منه، وإنما غشيني بعض الخفر والحياء. ولو كان سيدًا شابًا جميل المحيًّا بادي الجرأة، لما تجرأت على الوقوف وسؤاله، وعرض خدماتي عليه دون أن يطلبها! وإن كنت لم أرَ شابًا جميلًا، تقريبًا.. ولا تحدَّثت إلى شاب جميل في حياتي إطلاقًا... وكنت أشعر بتوقير واحترام بالغ للجمال والرشاقة، والشهامة والفتنة، دون ما تجربة عملية، ولكن لو أنني وجدت هذه الخصال مجسَّمة في رجل، لأدركت بغريزتي أن ليس لهذه الأشياء، ولا يمكن أن يكون لها تجاوب مع شيء في شخصي، ولأعرضت عنها وهربت منها كما أهرب من النار والبرق أو أي شيء آخر برَّاق ولكنه منفِّر كريه! وحتى هذا الرجل الغريب، لو أنه ابتسم في وجهي ومازحني عندما وجَّهت إليه الحديث، أو لو أنه رفض تطوُّعي لخدمته في مرح مشفوع بالشكر، لواصلت سيري دون أن أجد بي رغبة في سؤاله مرة أخرى. ولكن عبوسه وخشونته طمأناني. وعندما لوَّح لي بيده أن أمضي، لزمت مكاني وقلت :

- «لا يمكن أن أفكِّر في تركك يا سيدي في مثل هذه الساعة المتأخِّرة، وفي مثل هذه الطريق المنعزلة، حتى أراك قادرًا على امتطاء جوادك ».

فلما سمع ذلك تأمَّلني، ولم يكن قد وجَّه نظراته صوبيي من قبل، ثم قال :

- «أظن الأجدر بكِ أن تكوني في منزلكِ، إذا كان لك منزل في هذا الجوار! من أين جئتِ؟ ».

- «من مكان قريب جدًا. ولا أخشى الخروج في ساعة متأخِّرة ما دام القمر مشرقًا. وإذا شئت، ذهبت من أجلك إلى هاي على عجل. فالواقع أنني ذاهبة إلى هناك لأضع رسالة في صندوق البريد ».

- «أتقيمين قريبًا جدًا.. أتعنين في هذا المنزل الذي تعلوه الشرفات؟ ».

وأشار إلى ثورنفيلد هول، الذي كان القمر يلقي عليه ضياء خافتًا أظهره للعين في وضوح شاحب بين الأشجار، ولكنه - إذا قورن بسماء الغرب المعتمة - بدا وضَّاء جليًا... وأجبت: «نعم يا سيدي ».

- «منزل مَن هذا؟ ».

- «منزل مستر روشستر ».

- «أتعرفين مستر روشستر؟ ».

- «كلا.. لم أرَه من قبل ».

- «إذن فهو لا يقيم هناك ».

- «كلا ...».

- «هل تستطيعين أن تخبريني أين هو ».

- «لا أستطيع ».

- «أنتِ بالطبع لستِ خادمة في القصر.. أنت ..».

ثم توقَّف وتأمَّل زيي، الذي كان كالعادة غاية في البساطة: معطفًا أسود من صوف المارينو، وقبعة صغيرة من جلد السمور، وهي ليست ثياب وصيفة . وتبدَّت عليه الحيرة في أمري، فقلت أعاونه: «أنا المعلمة !».

- «آه، المعلمة.. يا الله، كيف نسيت؟! المعلمة !».

وعاد يتفحَّص ثوبي، ثم نهض من مكانه بعد دقيقتين، وقد نطقت أساريره بالآلام وهو يحاول النهوض. وقال: «لا أستطيع أن أبعث بِك لتأتيني بمن يساعدني، ولكن في وسعك إذا تفضلتِ أن تعاونيني قليلًا بنفسك ».

- «أي خدمة أؤديها لسيدي؟ ».

- «ألديك مظلة أستطيع أن أتوكَّأ عليها؟ ».

- «كلا ».

- «حاولي أن تمسكي بعنان جوادي وتأتيني به... هل أنتِ خائفة؟ ».

وكان خليقًا بي أن أخاف أن ألمس جوادًا وأنا وحدي، أما وقد طُلب مني ذلك، فقد اضطررت إلى أن أطيع.. فخلعت فراء يدَيَّ ووضعتهما على حجر ناصية الدرب، ثم ذهبت إلى الجواد العالي، وحاولت أن أمسك بالعنان. ولكن الجواد كان خفيف الحركات فلم يدعني أقترب من رأسه. وبذلت الجهد بعد الجهد، وأنا خائفة جداً من قدميه اللتين تضربان في الأرض! وانتظر الرجل، وراقبني قليلًا، وأخيرًا ضحك قال :

- «أرى أن الجبل لن يجيء إلى الإنسان، ولذلك فكل ما تستطيعينه هو أن تساعدي الإنسان على الذهاب إلى الجبل! أرجوكِ أن تأتي إليَّ ».

وذهبت إليه، فاستطرد يقول: «معذرة، الضرورة تحتم عليَّ أن أستعين بكِ». ثم وضع يدًا ثقيلة على كتفي واعتمد عليها متخفِّفًا وراح يعرج في مشيته إلى الجواد.. حتى إذا تمكَّن من مسك العنان والتحكم فيه، وثب إلى السرج وهو يزوي وجهه لذلك الجهد الذي لوى قدمه المخلوعة. وأخيرًا، بعد أن أطلق شفته السفلى من عضة قوية متألمة، قال :

- «الآن ناوليني سوطي. إنه هنالك تحت السياج»، فبحثت عنه وجئته به، فقال: «أشكرك. والآن، هيا أسرعي بالرسالة إلى هاي، ثم عودي بأسرع ما تستطيعين!». وبلمسة من كعبه المهموز، وثب الجواد إلى الأمام، ثم إلى الخلف، قبل أن ينطلق كالسهم.. واندفع الكلب في أعقابه.. ثم اختفى الثلاثة. «أشبه بورقة في البيداء.. تعصف بها الرياح الهوجاء !».

وعندئذ التقطت فراء يديَّ وسرت في طريقي.. وقد مرَّ بي الحادث كغيره من الأحداث العادية، لا يحمل في طياته أهمية، أو قصة، أو شيئاً ذا أهمية، وإن كان قد أدخل تغييرًا على ساعة من حياتي الرتيبة التي تسير على منوال واحد: فها أنذا قد سُئلت المعونة ولم أبخل بها، وبذلك أتيح لي الشعور بالاغتباط لأنني قمتُ بعمل ما، ربما كان تافهًا وقصير الأمد، إلّا أنه كان إيجابيًا بعد أن تولّاني الملل والسأم من حياة سلبية كلها! كما كان هذا الوجه الجديد أشبه بصورة جديدة أُضيفت إلى قاعة الذكريات في رأسي.. صورة تختلف عن كل الصور المعلقة هنالك، لسببين: أولهما أنها صورة رجل، وثانيهما أنها كانت غامضة، قوية، متجهِّمة! وقد لازمتني هذه الصورة عندما دخلت هاي، وأودعت الرسالة مكتب البريد، كما تمثَّلتها وأنا أسير بسرعة عند سفح التل في طريق عودتي إلى المنزل. وعندما بلغت الحجر القائم عند ناصية الدرب توقَّفت قليلًا أتطلَّع حولي منصتة، يخامرني خاطر بأن حوافر جواد لن تلبث أن تطرق أرض الجسر

المعدنية مرة أخرى، وأن راكبًا يرتدي معطفًا قد يظهر من جديد مع كلبه الذي يشبه جتراش .

ولكني لم أرَ أمامي سوى السياج والصفصاف المقلَّم الأطراف، بأعناقهما العالية، وكأنما يهمسان إلى القمر. ولم أسمع سوى حفيف الريح المزمجرة بين الأشجار على مسافة بعيدة حول ثورنفيلد. وعندما صوَّبت نظري إلى ناحية هذه الزمجرة عبر واجهة القصر، شاهدت نورًا مضيئًا في إحدى النوافذ، فانتبهت إلى أنني قد تأخَّرت، وأسرعت الخطى .

لم تكن بي رغبة في العودة إلى ثورنفيلد، لأن اجتياز عتبته كان بمثابة العودة إلى حياة الركود، أما اجتياز القاعدة الساكنة والدرج المظلم والرجوع إلى حجرتي الصغيرة المنعزلة، ثم لقاء مسز فيرفاكس الهادئة، وقضاء أمسيات الشتاء الطويلة في رفقتها - رفقتها فقط - فقد كان كفيلًا بأن يقضي على الانفعال البسيط الذي أيقظته في نفسي تلك النزهة، وبأن يعيدني إلى قيود الزي الرسمي كمعلِّمة في دار لها تقاليدها، وإلى الكيان الساكن. كيان له مزايا الأمن والراحة التي بتّ عاجزة عن تقدير قيمتها. كان الأجدر بي - إذ ذاك - أن تطوح بي عواصف حياة قلقة غير مستقرة، لتعلمني التجارب القاسية كيف أتلهَّف على هدوء أتململ منه الآن! نعم، إن ذلك كان خليقًا بأن يتيح لي عين الفائدة التي يلقاها رجل سئم الجلوس الهادئ في مقعد جد مريح، إذا ما قُدِّر له أن يقوم بنزهة طويلة على قدميه! وكما أن الرغبة في الحراك طبيعية في مثل ظروف ذلك الرجل، فإنها كانت طبيعية في ظروفي حينها !

وتلكَّأت فوق المروج، ثم تلكَّأت عند الأبواب الخارجية، ورحت أذرع الرصيف جيئة وذهابًا. وكان مصراعا الباب الزجاجي مغلقَين، فلم يتسنَّ لي مشاهدة ما كان في الداخل. وخُيِّل إليَّ أن عينيَّ وروحي قد انصرفت عن المنزل المظلم، وعن الفراغ المعتم بين جدرانه - وقد بدا هذا الفراغ مقسَّمًا إلى حجرات عديمة الضياء - لتتطلَّع إلى السماء الممتدة أمامي، بحرًا أزرق مبرَّأً من شوائب السحب، ومن فوقها يسير القمر في رزانة ووقار وكأن مداره يشرئب بعنقه وهو يجتاز قمم التلال التي جاء من ورائها ليبلغ أوج المجد. وعندما شاهدت النجوم المرتجفة تتبع طريق القمر، ارتعدت نياط قلبي بدورها، وتأجَّجت الدماء في شراييني !

على أن بعض التوافه لا تلبث أن تعيدنا إلى الأرض.. فقد دقَّت الساعة في القاعة، فكان ذلك كافيًا لأن يصرفني عن القمر والنجوم. ففتحت بابًا جانبيًا دلفت منه إلى الداخل. ولم يكن البهو قد أُضيء بعد إلّا بمصباح برونزيّ مدلّى من السقف، ولكن وهجًا دافئًا كان يغمر البهو وبعض درجات السلم، منبعثًا من

حجرة المائدة الكبيرة التي كان مصراعا بابها مفتوحَيْن، تظهر بينهما نيران الموقد البهيجة، والمفروشات والرياش، في إشراق بديع. وتبيَّنت في الداخل جماعة جلست بالقرب من الموقد، ولكني لم أكد ألمحها وأفطن إلى الأصوات المبتهجة التي ميَّزت من بينها صوت أديل، حتى أُغلق الباب .

وبادرت إلى حجرة مسز فيرفاكس، حيث وجدت نارًا موقدة، ولكني لم أرَ أثر لشمعة، أو لمسز فيرفاكس، بل كان يجلس على السجادة ويتفرَّس في الوهج، كلب كبير طويل الشعر، أشبه بجتراش الذي صادفته في الطريق! كان يشبهه لدرجة أنني تقدَّمت وناديته: بايلوت، فنهض واقترب، يتشمَّمني. فلاطفته مربَّتة عليه، وإذا به يبصبص بذيله الكبير، ولكنه بدا مخلوقًا مرعبًا لا يصح الانفراد به. ولم أدرِ من أين جاء، فقرعت الجرس، لأنني كنت بحاجة إلى شمعة، وبحاجة كذلك إلى معرفة قصة الزائر. ودخلت ليا، فسألتها :

- «لمَن هذا الكلب؟ ».

- «لقد جاء مع سيدي ».

- «مع مَنْ؟ ».

- «مع سيدي، مستر روشستر، إذ وصل منذ قليل ».

- «حقًا! وهل مسز فيرفاكس معه؟ ».

- «نعم.. ومس أديل. إنهم في حجرة الطعام، وقد ذهب جون لاستدعاء جرَّاح، لأن السيد وقع له حادث. لقد كبا به جواده فالتوى كاحله ».

- «هل حدث ذلك في طريق هاي؟ ».

- «نعم، انزلقت أقدامه فوق بعض الجليد أثناء هبوطه التل ».

- «آه. آتيني بشمعة من فضلك يا ليا ».

وجاءت ليا بالشمعة. وأقبلت في إثرها مسز فيرفاكس، فروت لي الأخبار نفسها مضيفة إلى ذلك أن الجرَّاح قد وصل، وأنه مع مستر روشستر. ثم أسرعت إلى الخارج لتأمر بإعداد الشاي، فصعدت لأخلع ملابسي .

الفصل الثالث عشر

أوى مستر روشتسر إلى فراشه مبكِّرًا في تلك الليلة بأمر الطبيب، كما أنه لم يستيقظ مبكِّرًا في الصباح التالي. ولم يهبط من الطابق العلوي إلَّا ليباشر أعماله، لأن وكيله وبعض مستأجري أرضه وصلوا وكانوا ينتظرونه .

واضطررت أنا وأديل إلى أن نخلي حجرة المكتبة، لأن الضرورة تقضي باستعمالها كغرفة لاستقبال الزوار، وأُشعلت نارًا في حجرة أخرى في الطابق العلوي حملت إليها كتبنا، وأعددتها لتكون في المستقبل غرفة للدراسة.
وتبيَّنت في الصباح أن قصر ثورنفيلد هول قد أصبح شيئًا آخر مغايرًا لما كان عليه من قبل. فلم يعد ساكنًا سكون الكنيسة، بل كانت تتردَّد في أرجائه كل ساعة أو اثنتين طرقات على الأبواب أو رنين من الأجراس ثم كثرت الأقدام التي تذرع البهو، وارتفعت في الطابق الأعلى أصوات جديدة متباينة الإيقاع، وكأن نهرًا من العالم الخارجي قد فاض خلال القصر بعد أن عاد إليه سيده! على أني ابتهجت من ناحيتي لذلك !

أما أديل فلم يكن من السهل تلقينها الدرس في ذلك اليوم، إذ إنها لم تقوَ على المواظبة عليه، بل ظلَّت تجري إلى الباب وتطل من أعلى الدرابزين لترى هل تستطيع الظفر بنظرة خاطفة إلى مستر روشستر! ثم أخذت تنتحل المعاذير للهبوط إلى الطابق الأسفل لتسعى، كما توقعت، إلى المكتبة حيث لم يكن أحد في حاجة إليها! وكنتُ، إذ تولاني بعض الغضب وأكرهتها على الجلوس والإنصات للدرس، أجدها تتحوَّل إلى الحديث بلا انقطاع عن «عزيزها مسيو إدوار فيرفاكس دي روشستر». كما كانت تلقِّب سيد القصر! - ولم أكن قد سمعت بألقابه هذه من قبل - كما مضت تحدس أي هدايا جاء بها، بعد أن قال في الليلة الماضية إن بين متاعه القادم من ميلكوت حقيبة صغيرة ستجد في بعض محتوياتها ما يهمها. وأخذت تقول بالفرنسية: «معنى ذلك أن الصندوق يضم هدية لي، وربما لكِ كذلك يا آنسة... فقد تحدَّث السيد عنكِ، وسألني عن اسم معلمتي، وعمَّا إذا كانت صغيرة الجسم ناحلة، شاحبة بعض الشيء، فرددت عليه بالإيجاب. فهذا هو الواقع، أليس كذلك يا آنسة؟ ».

وتغدَّيت مع تلميذتي كالعادة في حجرة مسز فيرفاكس. وجاء العصر عاصفًا كثير الثلوج، فقضيناه في حجرة الدراسة. حتى إذا هبط الظلام، سمحت لأديل بأن تجمع كتبها وتكف عن عملها، لتبادر بالهبوط إلى الطابق الأرضي. بعد أن حدست من السكون النسبي الذي ساده، ومن انقطاع رنين الجرس، أن مستر

روشستر قد فرغ من زوَّاره. ووجدتني أخلو إلى نفسي، فمضيت إلى النافذة، غير أنني لم أستطِع رؤية شيء خلالها، لأن الغسق وندف الثلج، تضافرا معًا على زيادة كثافة الهواء وإخفاء شجيرات المروج. فأنزلت الستارة، وعدت إلى جانب المدفأة، ورحت أترسم في حذوات النار المتوهجة منظرًا يشبه صورة أذكر أنني رأيتها لقلعة هيدلبرج على ضفاف الراين. وما لبثت مسز فيرفاكس أن قدمت لتقطع بدخولها حبل تصوراتي، وتبدَّد الخواطر الثقيلة التي بدأت تتزاحم عليَّ في وحدتي. وقالت :

- «يسر مستر روشستر أن تتناولي وتلميذتك الشاي معه في حجرة الاستقبال هذا المساء، فقد شغلته أعماله طوال النهار عن طلب مقابلتك قبل الآن».
فسألتها: «ومتى يتناول الشاي؟ ».

- «في السادسة، فهو يراعي التبكير في الريف، ويحسُن بكِ أن تغيري ثوبك الآن، وسأذهب معك لأعاونكِ. ها هي ذي الشمعة ».

- «وهل من الضروري أن أغيِّر ثوبي؟ ».

- «يفضَّل ذلك، فأنا أتزيَّن دائمًا في المساء متى كان مستر روشستر هنا !».

وبدا لي هذا الحرص على المظاهر ضربًا من الأبَّهة والفخفخة، فذهبت إلى حجرتي واستبدلت ثوبي، بمعاونة مسز فيرفاكس، بثوبٍ من الحرير الأسود كان خير ما أملك، في ما عدا ثوب رمادي كنت - فيما درجت عليه من آراء في الزينة عندما كنت في لوود - أرى أنه أبدع من أن أرتديه في غير المناسبات الفريدة !

قالت مسز فيرفاكس: «أنتِ في حاجة إلى بروش». وكان لديَّ دبوس واحد ذو رصيعة «بروش»، كانت مسز تمبل قد منحتني إياه كتذكار، عندما افترقنا. ومن ثم تزيَّنت وهبطنا الدرج. ولما كنتُ غير معتادة على مقابلة الأغراب، فقد بدا استدعائي بهذا الشكل الرسمي إلى حضرة مستر روشستر، بمثابة امتحان لي، ولذلك تركت مسز فيرفاكس تتقدمني إلى حجرة المائدة، ولازمت ظلَّها إلى أن اجتزنا تلك الحجرة، ثم مررنا تحت القوس المسدلة الستائر، ودلفنا إلى الحجرة الأنيقة التي كانت خلفها. وكان ثمَّة شمعتان على المائدة، وأخريان على المدفأة، وقد رقد بايلوت - الكلب - يصطلي في ضياء الموقد وحرارته، وإلى جانبه ركعت أديل. وكان مستر روشستر مضطجعًا على أريكة، وقد بسط قدميه على وسادة، وراح يتأمَّل أديل والكلب، ووهج النار ينعكس على وجهه، وتبيَّنت فيه المسافر نفسه الذي صادفته في الطريق! عرفته بحاجبيه البارزين، وجبينه العريض، الذي ضاعف من عرضه شعره الأسود

المنسَّق إلى الخف. كما ميزته بأنفه الذي كان ينم عن خلق حاسم أكثر مما كان ينطق بالجمال! وبفمه وذقنه وفكه، وكلها تدل على الصلابة. أجل، كانت هذه القسمات الثلاث جد متجهِّمة بلا ريب، أما قوامه، فقد رأيته، بعد أن خلع معطفه، منسجمًا مع قسمات وجهه. كان قوامًا رياضيًا، عريض الصدر، نحيل الخصر، ولكنه لم يكن فارع الطول أو ممشوقًا .

ولا شك أن مستر روشستر قد فطن إلى دخول مسز فيرفاكس ودخولي، ولكنه لم يكن متهيِّئًا للنظر إلينا - على ما بدا - لأنه لم يرفع رأسه قط عندما اقتربنا منه. وقالت مسز فيرفاكس بطريقتها الهادئة: «ها هي ذي الآنسة إيـر يا سيدي». وعندئذٍ حنا السيد رأسه من دون أن يرفع عينيه عن الكلب والطفلة وقال: «دعي الآنسة تجلس ».

وكان في انحناءة رأسه المتكلفة الجافة، وفي اللهجة الرسمية النافدة الصبر، ما ينطق برغبته في القول: «ما الذي يعنيني بالله من وجود الآنسة إيـر أو عدمه؟ لستُ راغبًا الآن في التحدث إليها !».

وجلست دون أن يساورني شيء من الارتباك، بل لعلني كنت أرتبك لو أنه استقبلني بأدب جم، فما كنت إذ ذاك لأعرف كيف أرد عليه، في تلطُّف ولباقة. أما هذا الجفاء الفظ، فلم يكن يفرض عليَّ أن ألتزم مسلكًا متكلِّفًا، بل إن الأمر على النقيض، إذ أتاح لي الصمت والترقب فرصة مواتية، فقد كانت البداية الشاذة مثيرة، فرغبت في أن أرى كيف سيمضي السيد في مسلكه !

وظلَّ في جلسته كالتمثال، لا يتكلَّم ولا يتحرَّك، يبدو أن مسز فيرفاكس رأت أن من الواجب أن يكون أحدنا ظريفًا، فبدأت تتحدَّث حديثًا رقيقًا كالعادة، مبتذلًا لكثرة استعماله. راحت تُبدي إشفاقها عليه من كثرة أعماله التي استغرقت النهار بأكمله، ومن الآلام التي كانت تسبِّبها له قدمه الملتوية، ثم أخذت تُثني على صبره ومثابرته، لكنها لم تلقَ جزاء على ذلك سوى قوله :

-«إنني أرغب يا سيدتي في تناول الشاي!». فأسرعت تدق الجرس، ولما جاءت الصينية، أخذت ترتِّب الأقداح والملاعق وغيرها، بجهد ورشاقة، بينما مضيت أنا وأديل إلى المائدة، ولكن السيد لم يغادر متكأه .

وقالت لي مسز فيرفاكس: «أرجو أن تقدِّمي لمستر روشستر قدحه، خشية أن تريقه أديل». ففعلت ما طلبته. وفيما كان يتناول القدح من يدي، رأت أديل الفرصة مواتية لخدمتي فصاحت :

- «أليس هناك هدية للآنسة إيـر في حقيبتك الصغيرة يا سيدي؟ ».

فأجاب بخشونة وفظاظة :

- «من هذا الذي يتحدث عن الهدايا؟ أكنتِ تتوقعين هدية يا مس إيـر؟ هل أنتِ مغرمة بالهدايا؟ ».

وراح يتأمَّل وجهي بعينين رأيتهما سوداوين غاضبتين نفَّاذتين، وقلت :

- «لا أعرف تمامًا يا سيدي، فخبرتي بالهدايا ضئيلة، ولكن الهدايا تُعد بصفة عامة من الأشياء الشائقة !».

- «تُعد بصفة عامة! وماذا تُعدِّينها أنتِ؟ !».

- «إنني بحاجة لبعض الوقت قبل أن أعطيك جوابًا تتقبّله، فللهدية وجوهًا كثيرة، أليس كذلك؟ وعلى الإنسان أن يدرسها كلها قبل أن يدلي برأيه !».

- «إنك لست ساذجة نزقة مثل أديل التي تطالب في ضجة وصخب بالهدايا بمجرَّد أن تراني، ولكنك تجسِّين النبض أولًا !».

- «لأنني أقل من أديل ثقة باستحقاقي، لذلك فهي تفضلني بمعرفتها السابقة بك، وبحقها عليك، ثم بحكم العادة. إذ اعتدت دائمًا أن تعطيها لعبًا، أما أنا فهذا يربكني لأنني غريبة، ولم أفعل ما يؤهّلني لترقّب المكافأة !».

- «أوه... لا تبالغي في الأدب والتواضع، لقد اختبرت أديل ولمست ما عانيته أنتِ معها. إنها ليست ذكية، وليست موهوبة، ولكنها تقدَّمت في فترة وجيزة تقدمًا محسوسًا ».

- «إنك بهذا يا سيدي قد قدمت لي هديتي، وإني لشاكرة، لأن أشهى ما يسعى إليه المعلمون هو إطراء تقدُّم تلاميذهم !».

فشرب الشاي في صمت، حتى إذا رفعت الصينية قال :

- «اقتربي من الموقد !».

وكانت مسز فيرفاكس قد التزمت ركنًا، وانهمكت في أشغال الإبرة، بينما كانت أديل تمسك بيدي وتطوف بي الحجرة لتفرِّجني على الكتب الجميلة والزخارف التي تعلو المناضد. وصدعت بالأمر، وأرادت أديل أن تجلس على ركبتي، ولكنه أمرها بأن تتلهَّى مع بايلوت، ثم سألني :

- «هل أقمتِ في منزلي ثلاثة أشهر؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «وجئتِ مِن...؟ ».

- «من مدرسة لوود في مقاطعة ...».

- «آه... مؤسَّسة خيرية... كم قضيتِ هناك؟ ».

- «ثماني سنوات ».

- «ثماني سنوات! لا بد أنك مُتشبِّثة بالحياة. كنت أحسب أن نصف هذه المدة كافٍ للقضاء على أي فتاة، فلا عجب أن تكوني كمن يعيش في عالم آخر غير عالمنا. ولقد تساءلت من أين لكِ هذا الوجه عندما شاهدتك في طريق هاي في الليلة الماضية، ووجدتني أفكِّر في القصص الخرافية، وكدت أسألك هل سحرتِ لي جوادي... وإن كنت ما أزال في ريب من ذلك. من هم أهلك؟ ».

- «ليس لي أحد !».

- «وأحسب أن لم يكن لك أحد من قبل... أتذكرين والديكِ !».

- «كلا ».

- «هذا ما حدست. ولذلك كنت تنتظرين قومك عندما رأيتك تجلسين فوق حجر عند ناصية الدرب ».

- «أنتظر مَن يا سيدي؟ ».

- «ذوي الثياب الخضراء! كان ضوء القمر مناسبًا في ذلك المساء لظهورهم! ترى هل اخترقت أنا أحد الطلاسم التي كنت تنثرينها فوق ذلك الجليد اللعين على الجسر؟ ».

فهززت رأسي وقلت متظاهرة مثله بالجد: «إن ذوي الثياب الخضراء قد هجروا إنجلترا منذ مائة سنة، ولن تجد أثرًا لهم في طريق هاي ولا في ما حوله من حقول، كما أعتقد أن القمر - سواء في الصيف أو الشتاء أو موسم الحصاد - لن يضفي ضياءه مرة أخرى على حفلاتهم الصاخبة وقصفهم المرح، الذي ورد في الأساطير ».

فتركت مسز فيرفاكس الشغل الذي كانت تطرِّزه، ورفعت حاجبيها، وكأنها تتساءل أي نوع من الحديث هذا. واسترسل مستر روشستر يقول :

- «حسنًا... إذا كنتِ بلا والدين. فلا بد أن لك أقارب، أعمام أو عمَّات؟ ».

- «كلا... لم أرَ واحدًا منهم !».

- «ومنزلك؟ ».

- «ليس لي منزل !».

- «وأين يعيش إخوتك وأخواتك؟ ».

- «لا إخوة لي ولا أخوات !»

- «من زكَّى مجيئك إلى هنا؟ ».

- «نشرتُ إعلانًا ردَّت عليه مسز فيرفاكس !».

فقالت السيد الطيبة التي عرفت الآن موضوع حديثنا: «نعم، وأنا أحمد الله في كل يوم على أن وفَّقتني العناية إلى هذا الاختيار، لأن الآنسة إيـر غدت لي رفيقة لا سبيل إلى تقدير قيمتها، ومعلمة شقيقة شديدة العناية بأديل ».

فرد مستر روشتسر قائلًا :

- «لا تتعبي نفسك في امتداح أخلاقها، فالثناء لا يحملني على المحاباة، وسوف أحكم عليها بنفسي بعد أن بدأت بإسقاط جوادي ».

فهتفت مسز فيرفاكس مشدوهة: «سيدي !».

- «ويجب أن أشكرها على هذا الالتواء !».

فتجلت الحيرة على الأرملة، ولكنه استرسل يسألني :

- «هل عشت من قبل في إحدى المدن يا آنسة؟ ».

- «كلا يا سيدي ».

- «وهل اختلطتِ بالمجتمع؟ ».

- «لم أختلط بغير التلميذات والمعلمات في لوود... ثم بأهل ثورنفيلد !».

- «هل قرأتِ كثيرًا؟ ».

- «لم أقرأ سوى ما صادفني من الكتب في حياتي المحدودة. وهي ليست كثيرة، ولا تحتوي جانبًا كبيرًا من الثقافة !».

- «لقد عشتِ مثل حياة الراهبة، فأنت بلا ريب ذات خبرة واسعة بأمور الدين. إن بروكلهرست - الذي يدير لوود فيما أعتقد - قسيس أو راعي كنيسة. أليس كذلك؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «إذن فلعل البنات كن يعبدنه، كما يعبد الدير الزاخر بالمتدينات مديره؟ ».

- «أوه، كلا !».

- «يا لكِ من باردة الطبع! كيف لا تعبد راهبة قسيسها؟ إن هذا يبدو نوعًا من التجديف !!».

- «لقد كنت أكره مستر بروكلهرست، ولم أكن الوحيدة التي يساورها هذا الإحساس، لأنه رجل فظٌّ، مغرور ومتطفِّل معًا... أمر بقص شعرنا، وبدافع الاقتصاد اشترى لنا إبرًا وخيطًا يتعذَّر الخياطة والتطريز بها ».

وعادت مسز فيرفاكس تستولي على دفَّة الحديث، قائلة :

-«كان اقتصادًا زائفًا !».

فتساءل مستر روشستر: «هل هذا كل ما أحنَقكنَّ عليه؟ ».

- «لقد تضوَّرنا جوعًا عندما كان يتولَّى الإشراف على شؤون التموين قبل تسليم الأمر للجنة. كما كان يضايقنا بمحاضراته الطويلة في كل أسبوع، وبقراءات مسائية في كتب من تأليفه، عن الموت المفاجئ والقصاص، مما كان يجعلنا نخشى الذهاب إلى أسِرّتنا !».

- «كم كان عمرك عندما ذهبت إلى لوود؟ ».

- «نحو عشرة أعوام ».

- «ومكثت هناك ثماني سنوات، فأنت الآن إذن في الثامنة عشرة؟ ».

فرددت بالإيجاب، وإذ ذاك، قال :

-«ها أنتِ ترين فائدة الحساب فلولاه ما استطعت تقدير سنك، لأنه يصعب أن يقطع الإنسان من خلال قسمات الوجه والأسارير، فقد لا تتفق مع حقيقة السن كما هو حالك. والآن، ماذا تعلمت في لوود؟ هل تستطيعين العزف؟ ».

- «قليلًا ».

- «بالطبع... هذا هو الرد الأكيد! اذهبي إلى المكتبة... أعني إذا سمحتِ! ومعذرة على لهجتي الآمرة، لأنني اعتدت أن أقول «افعل هذا»، فإذا هو مفعول! اذهبي إلى المكتبة، وخذي شمعة معك، واتركي الباب مفتوحًا، ثم اجلسي إلى البيانو واعزفي لحنًا ».

فذهبتُ إطاعة لأوامره ولكنه ما لبث بعد دقائق أن صاح :

- «كفى! إنك تعزفين كأية تلميذة إنجليزية. وقد تكونين أكثر إجادة من غيرك ولكنه عزف أقل مما ينبغي». فأغلقتُ البيانو، ورجعت، فاسترسل: «إن أديل أرتني صباح اليوم بعض رسومات تخطيطية قالت إنها من رسمك، وإن كنت لا أدري إذا كانت كلها من عملك أو أن أستاذًا ساعدك فيها؟ ».

فاعترفت له قائلة: «كلا، إنها في الواقع من عملي !».

- «آه، هذا يمس كبرياءك! إذن، أريني ما عندك إذا كنت تُصرِّين على أنه من رسمك حقًا، ولكن لا تقسمي إلّا إذا كنت متأكدة، لأنني أستطيع أن أميِّز من الأعمال ما هو زائف أو منتحل ».

- «إذن لن أقول شيئًا حتى تحكم بنفسك يا سيدي !».

وأحضرت حافظتي من المكتبة، فقال: «قرِّبي المنضدة!». فدفعتها إلى متكَئه، واقتربت أديل ومسز فيرفاكس لمشاهدة الصور، فقال :

- «لا أريد تزاحمًا: خذا الرسومات من يدي متى فرغت منها، ولكن لا تدفعا وجهيكما نحو وجهي!». وأخذ يطيل النظر والتمعُّن في كل رسم، ثم وضع ثلاثة

منها جانبًا، حتى إذا انتهى من فحص الرسوم الأخرى، طوَّح بها بعيدًا عنه وقال :

-«خذيها يا مسز فيرفاكس، لتطلعي أنتِ وأديل عليها ».

وبعد ذلك رنا إليَّ، ثم استطرد قائلًا: «عودي إلى مقعدك وأجيبي عن أسئلتي: أرى أن تلك الصور رسمتها يد واحدة... فهل هي يدك؟ ».

قلتُ: «نعم ».

- «ومتى وجدتِ وقتًا لرسمها؟ لقد استغرقت وقتًا طويلًا وبعض التفكير !».

- «رسمتها أثناء الإجازتين الأخريين في لوود عندما لم يكن لديّ عمل آخر ».

- «ومن أين جئتِ بالنماذج؟ ».

- «من رأسي !».

- «هذا الرأس الذي أراه الآن بين كتفيك؟ !».

- «نعم يا سيدي !».

- «وهل فيه أشياء من الطراز الذي رسمته في الصور الأخرى؟ ».

- «أظن ذلك... بل أرجو أن يكون به ما هو خير من ذلك وأبدع !».

فبسط الصور أمامه وراح يتفحَّصها، وفيما هو منهمك في ذلك، سأخبر القارئ بما تحويه. ويجب أولًا أن أستهلَّ بأنها لم تكن رائعة بحال، وأن موضوعاتها التي رأيتها بعين الخيال - قبل أن أجسِّمها - كانت أخَّاذة رائعة، غير أن يدي لم تسعف خيالي، فجاءت صورة باهتة لما كانت تمثله من قبل !

وكانت الصور الثلاث مرسومة بالألوان المائية، وتمثِّل أولاها سحبًا قريبة زرقاء تندرج فوق بحر خضَمّ، وقد ظهرت نهاية الصورة من بعيد - كمقدمها القريب - غارقة في الظلام والأمواج، إذ إن الصورة كانت خالية تمامًا من أيّ أرض. ولم يكن يشقّ ذلك الظلام سوى خيط من الضياء يكشف عن شراع غارق لنصفه، وقد جثم عليه غراب من غربان البحر بجسمه الداكن وجناحيه المرصَّعين بالزبد، بينما أمسك بمنقاره سوارًا من ذهب تزيِّنه أحجار كريمة استعنت في رسمها بكل ما كان لديَّ من ألوان، وأظهرت تألقها بكل ما في ريشتي من

قوة! وتحت الطائر والشراع - بين المياه الخضراء - طفت جثة غارقة لا يظهر منها سوى الذراع التي سقط منها السوار !

أمَّا الصورة الثانية، فكان جزؤها الأمامي لا يحوي سوى قمة تل معتم، تكسوه حشائش وأوراق مالت مع النسيم، وعلى مبعدة من التل تنبسط سماء واسعة زرقاء بضوء الغسق، بينما ترتفع نحو السماء صورة نصفية لامرأة على جبينها نجم، وتبدو قسماتها شاحبة، وكأنها ملفوفة بضباب من البخار: عينان سوداوان تأتلقان، وشعر ينساب كالظلال، أو كسحابة قاتمة مزقتها يد الأنواء أو مستها كهرباء، وعنق ينعكس عليه ضياء باهت كنور القمر !

أما الصورة الثالثة، فكانت تمثِّل جبلًا من جبال الثلج الشامخة، وهو يناطح السماء في شتاء المنطقة القطبية، كما تمثِّل حشدًا من أضواء الشمال شرعت رماحها الداكنة في الأفق إلى مسافات بعيدة، بينما ظهر في صدر الصورة رأس يعتمد على يدين، ويغطيه خمار رقيق تظهر من خلفه عين غائرة خالية من كل معنى سوى اليأس والقنوط... وكانت على الرأس عمامة سوداء يتألق بين طياتها هلال يرصِّعه شرار كالح اللون، يمثل في مجموعه تاجًا !

وفجأة سألني مستر روشستر :

- «هل كنت تشعرين بسعادة وأنتِ ترسمين هذه الصور؟ ».

- «كانت تستغرقني يا سيدي، وكنت سعيدة بها! وقد وجدت في رسمها أعظم أسباب السعادة التي عرفتها في حياتي !».

- «ليس في هذا القول مبالغة، إذ يبدو أن أسباب سعادتك - كما يُؤخذ من أقوالك - كانت محدودة، ولكني أظنك كنت تعيشين في عالم من أحلام الفنانين، وأنت تمزجين وترتبين هذه الألوان العجيبة. هل كنت تجلسين أمامها طويلًا في كل يوم؟ ».

- «لم يكن لدي شيء آخر يشغلني، لأنني كنت في عطلة، فأخذت أجلس إليها من الصباح حتى الظهر، ثم من بعد الظهر حتى الليل. وكان طول النهار في أيام الصيف معينًا لي على إشباع ميولي ».

- «وهل ارتاحت نفسك لنتيجة هذه الجهود الجبارة؟ ».

- «كلا... إذ كان يعذِّبني الفارق الكبير بين ما يرتسم في ذهني، وما تصنعه يدي، وكنت في كل مرة أتصوَّر شيئًا لا أقوى على إبرازه ».

- «ليس هذا بالتعبير الصحيح، فقد كنت متمكنة من الفكرة التي راودت خيالك، ولكنك لم تؤتي من العلم والمهارة الفنية ما يجعل رسمك صورة حية كاملة... ومع ذلك، فإن هذه الصورة عجيبة بالنسبة لتلميذة! أما عن الأفكار، فهي خرافية... ولعلك شاهدت في الحلم عيني المرأة السوادوين تأتلقان، لأن الكوكب الذي يضيء الصورة ويعلوهما كفيل بأن يبدِّد تألقهما! ثم ما معنى ظهور العين غائرة؟ ومَنْ علمك تصوير الرياح حتى ترسمي رياحًا هوجاء عالية في السماء فوق قمم التلال؟ !».

وما كدت أحزم حافظة أوراقي، حتى تطلَّع إلى ساعته وقال في غلظة :

- «الساعة التاسعة! كيف تتركين أديل جالسة في انتظارك طوال هذا الوقت؟ امضِ بها إلى فراشها ».

فذهبت أديل تقبِّله قبل أن تغادر الحجرة، واحتمل هو مجاملتها، وإن لم يتذوقها بأكثر مما لو كان كلبه بايلوت هو الذي فعل ذلك! ثم أشار إلى الباب إشارة من ملَّ صحبتنا ورغب في إقصائنا، وقال: «طابت ليلتكما !».

فتناولت حقيبتي وانحنينا له في أدب، ولكنه ردَّ علينا بإيماءة جافة. وهكذا انسحبنا، حتى إذا لحقت بمسز فيرفاكس في حجرتها بعد أن أسلمت أديل إلى فراشها، قلت لها :

- «لقد قلتِ إن مستر روشستر ليس على جانب ملحوظ من الشذوذ ...».

- «نعم... أليس هو كذلك؟ ».

- «أظنه غاية في التقلب والفظاظة !».

- «هكذا يبدو للغريب عنه، ولكني تعوَّدتُ طباعه ولم أعد أعجب منها قط! ومع ذلك، إذا كانت طباعه شذوذًا فيجب أن نتجاوز عنه !».

- «لماذا؟ ».

- «لأن هذه طبيعته من جهة، فليس لنا حول ولا قوة في ذلك، ولأن لديه، من جهة أخرى، أفكارًا مؤلمة تنكّد عليه صفوه وتعذب روحه !».

- «أي أفكار؟ ».

- «إن له متاعبه العائلية... من ناحية !».

- «ولكنه بلا عائلة؟ !».

- «ليست له أسرة الآن، ولكن... كان له بعض أقارب على الأقل... وقد فقد أخاه الأكبر منذ سنوات قلائل ».

- «أخاه الأكبر؟ ».

- «نعم، فإن مستر روشستر الحالي لم يطل عهده بتولي شؤون هذه الممتلكات، إنما آلت إليه منذ حوالي تسع سنوات فقط ».

- «إن تسع سنوات مدة معقولة، فهل كان شديد التعلق بأخيه بحيث يظل إلى الآن غير قادر على احتمال فقده؟ ».

- «كلا... ربما كلا، فإنني أعتقد أنه قد نشب بينهما سوء تفاهم نتيجة لأن مستر رولاند روشستر لم يكن منصفًا مع أخيه مستر إدوارد، وربما كان قد أوغر عليه صدر والده، إذ كان السيد الكبير يحب المال، كما كان راغبًا في أن تظل أملاك الأسرة وحدة واحدة، فلم يشأ أن يبدِّدها بالتقسيم، ومع ذلك فإنه كان شديد الرغبة في أن يصيب مستر إدوارد ثروة، هو الآخر، ليحافظ على كرامة اسمه. ولكن ما إن بلغ مستر إدوارد سن الرشد، حتى اتُخذت بعض إجراءات لم تكن عادلة، بل أنزلت به كثيرًا من الضرر... ثم اتحد مستر روشستر الكبير مع مستر رولاند على أن يضعا إدوارد في مركز اعتبره هو مؤلمًا، وإن كنت لا أدري إلى الآن طبيعة هذا المركز بالضبط، فهو لم يشأ أن يُفصح عنه، فقاطع أسرته. ومنذ ذلك الحين - منذ سنوات عديدة - وهو يعيش حياة غير مستقرة، ولا أحسبه أقام في ثورنفيلد مرة لأكثر من أسبوعين كاملين، لأن وفاة أخيه بلا وصية جعلته مالكًا للمقاطعة، ولا عجب في الحقيقة إذا كان يُعرِض عن المكان القديم ».

- «ولماذا يعرض عنه؟ ».

- «لعله يراه مقبضًا للنفس !».

وكان الرد ينطوي على مراوغة، في حين أنني كنت أطمع في أن يكون أكثر صراحة ووضوحًا، ولكن الظاهر أن مسز فيرفاكس لم تكن تملك ما يمكنها من الإفصاح، أو أنها لم تشأ أن تدلي إليَّ بمعلومات أكثر صراحة عن أصل وطبيعة المحن التي كان مستر روشستر يعيش فيها. وقد أكَّدت لي أن في الأمر سرًا لم تكن تعلمه، وإن ما تعرفه كان من باب الحدس والتخمين. وكان واضحًا جليًّا أنها ترغب في أن تسقط هذا الموضوع من حسابنا، ففعلت بناءً على رغباتها !

الفصل الرابع عشر

لم أرَ مستر روشستر لبضعة أيام إلّا لمامًا، فقد كان يبدو في الصباح جد مشغول بأعماله، أما بعد الظهر فكان بعض السادة من ميلكوت أو البقاع المجاورة يزورونه ويمكثون أحيانًا حتى يتعشوا معه. وعندما تحسَّن التواء قدمه وبات في وسعه امتطاء جواده، راح يكثر من الخروج، ولعله كان يردّ هذه الزيارات، لأنه لم يكن يعود إلّا في ساعة متأخِّرة من الليل .

وفي تلك الأثناء، كان يندر أن يدعو أحدًا - حتى أديل - إلى حضرته، كما أن مقابلاتي له لم تتعدَّ حدود اللقاء العابر في الردهة، أو على الدرج، أو في القاعة الكبرى. فكان يمر بي أحيانًا في تعاظم وبرود دون أن يعير وجودي أكثر من إيماءة عن كثب، أو نظرة فاترة، أو انحناءة، أو ابتسامة في بعض الأحيان، كما يفعل السادة إذا تلطَّفوا! ولم تكن هذه التغيرات في مزاجه تكدِّر صفوي، لأنني لم أكن أرى لنفسي يدًا في تقلباتها، بل كان مَدّها وجزرها يرجعان إلى أسباب لا تمت إليَّ بأي صلة !

وذات يوم، دعا السيد جماعة للعشاء، وطلب حافظة أوراقي لكي يستعرض محتوياتها بلا ريب، ثم خرج السادة بعد ذلك مبكرين لحضور اجتماع عام في ميلكوت، كما بلغني من مسز فيرفاكس. ولما كانت الليلة مطيرة قاسية، فإن مستر روشستر لم يخرج في رفقتهم، فما إن رحلوا، حتى جاءتني دعوة لكي أنزل مع أديل إلى الطابق الأرضي، فنسَّقت لها شعرها وهندمت ملابسها. وبعد أن ارتديت ثوبًا مناسبًا. ثوبًا غاية في الاحتشام والبساطة، نزلنا معًا، وأديل تتساءل إذا كان الصندوق الصغير قد جاء، أخيرًا، بعد أن تأخَّر حضوره بسبب بعض الأخطاء؟! وعندما دخلنا حجرة الطعام أرضاها أن شاهدت علبة من الورق المقوَّى على المائدة. ويبدو أنها أدركت أنها بغيتها بغريزتها، إذ صاحت وهي تجري إلى المائدة: «صندوقي! صندوقي !».

قال مستر روشستر بصوته العميق الساخر، وهو مضطجع في مقعد كبير بجوار الموقد: «حذارِ أن تضايقيني بأسئلتكِ عن تفاصيل عملية تشريح الدمية أو عن حال أحشائها! شرِّحيها بنفسكِ في صمت والزمي السكون يا طفلتي ».

ويبدو أن أديل لم تكن في حاجة إلى هذا التحذير، إذ سرعان ما انسحبت بكنزها إلى إحدى الأرائك. وانهمكت في حل الشريط الذي كان يربط الغطاء،

وبعد أن نزعت بعض أغلفة فضية من ورق «السلوفان» صاحت بالفرنسية: «أوه... يا للسماء! كم هي جميلة!». ولم تزد، بل مكثت غارقة في تأملاتها الذاهلة. وعندئذٍ قال السيد وهو ينهض قليلًا عن مقعده ليتطلّع إلى الباب الذي كنت ما أزال واقفة بجانبه :

- «هل الآنسة إيـر هناك؟ آه... حسنًا، تقدَّمي... اجلسي هنا !».

ثم جر مقعدًا إلى جوار مقعده وقال :

- «إنني لا أحب ثرثرة الأطفال، فأنا كأعزب عريق لا أملك ذكريات سارّة تتصل بلثغتهم، وما أراني أحتمل أن أقضي مساء برمته أتسامر مع طفل! لا تبتعدي عني بمقعدك يا مس إيـر، بل اجلسي حيث وضعته تمامًا... هكذا، من فضلك! ألا بئسًا للمجاملات المتكلفة، فإنني لا أفتأ أنساها، كما أنني لا أروق للعجائز الساذجات! وبهذه المناسبة، يجب أن أذكر عجوزي، فلا يجب أن أغفلها، لأنها من آل فيرفاكس، أو بالأحرى كانت زوجة لواحد منهم... والدم، كما يُقال، أشد كثافة من الماء !».

ثم دق الجرس وأرسل يدعو مسز فيرفاكس، فسرعان ما قدمت وبيدها سلة أشغال الإبرة، فقال لها: «طاب مساؤك يا سيدتي: لقد أرسلت أدعوكِ لغرض خيري، إذ إنني منعت أديل من أن تحدثني عن هداياها، ولذلك فهي مفعمة بخواطر كثيرة، تكاد تنفجر، فتلطّفي بأن تحدثيها وتكلميها، وسيكون هذا من أعظم الأعمال الخيرية التي قمت بها في حياتك !».

والواقع أن أديل لم تكد ترى مسز فيرفاكس، حتى دعتها إلى الأريكة، ثم بادرت تملأ لها حِجرها بمحتويات الصندوق الخزفية والعاجية والشمعية، كما راحت في الوقت نفسه تفيض بالشرح والإيضاح بقدر ما مكنتها درايتها الضعيفة باللغة الإنجليزية، بينما عاد السيد روشستر إلى مخاطبتي قائلًا :

- «أما وقد قمت بدور المضيف الكريم، إذ دبَّرت الوضع بحيث تسلّي كل من الضيفتين زميلتها، فإنني أستطيع أن أنصرف إلى ما فيه تسليتي. قرِّبي مقعدك يا آنسة إيـر، فأنتِ بعيدة عني، بحيث لا أستطيع أن أراكِ دون أن أتحوَّل عن الوضع المريح في هذا المقعد، وهو ما لا أعتزم أن أفعله !».

وصدعتُ بما أمر، برغم أنني كنت أوثر أن أظل في مجلسي، متوارية بعض الشيء في الظلال... على أن مستر روشستر كان ذا طريقة في إلقاء الأوامر، لا يبدو معها مفر من الإطاعة فورًا! وكنا في حجرة المائدة، والثريا تغمر المكان بفيض من النور يشرح النفس، كما كانت نيران الموقد حمراء متألِّقة،

والستائر الأرجوانية تتدلّى في أناقة أمام النافذة والقبو المرتفع. وكان السكون يغشى كل شيء، لا يكاد يعكّره سوى حديث أديل الخافت - إذ لم تكن تجرؤ على رفع صوتها - يتخلَّل فترات الصمت وقع المطر وهو يصفع الألواح الزجاجية للنافذة .

وبدا مستر روشستر - في جلسته على المقعد المكسو بالدمقس - مختلفًا عن ما رأيته من قبل، إذ كان أقل تجهُّمًا. وكانت على شفتيه ابتسامة، وفي عينيه بريق يأتلق، بفعل الخمر أو بغيرها، فلست واثقة من ذلك، وإن كنت أراه جد محتمل! وقصارى القول، كان السيد بعد العشاء في حالة نفسية أكثر انشراحًا وابتهاجًا، وأكثر تساهلًا مما كان عليه من صرامة وجفاء. ومع ذلك، فقد لاح على قدر غير قليل نسبيًا من العبوس، وهو يسند رأسه الضخم على ظهر مقعده المنتفخ، ويتلقَّى وهج النيران على قسمات كأنها قُدَّت من صوَّان، وعينين كبيرتين سوداوين - إذ كانت عيناه واسعتين، داكنتي السواد - بديعتين كذلك، وإن لم تكونا تخلوان من بعض تغيُّر يتراءى في أعماقها أحيانًا، تغيُّر إذا لم يكن لطيفًا، فهو، على الأقل، يوحي إليك باللطف! وكان يتفرس في النار، حين التفت إليَّ فجأة، ووجد نظراتي عالقة بسحنته، فقال :

- «إنك تتفحصينني يا مس إيـر... أفترينني جميلًا؟ !».

وكان خليقًا بي - لو أنني فكرت - أن أجيب عن هذا السؤال بعبارة مبهمة مهذَّبة، تتمشى مع ما اصطلح عليه الناس من مجاملات، ولكن الجواب انزلق من لساني بطريقة ما، قبل أن أفطن، فقلت: «لا يا سيدي !».

فقال: «آه... لعمري! إن فيكِ شيئًا غير عادي، فأنت تشبهين الراهبة الصغيرة في غرابة أطوارها، وهدوئها، ورزانتها، إذ تجلسين هكذا، ويداك مبسوطتان أمامك، وعيناك منكّستان عادة على البساط، لا تفارقانه إلّا عندما تصوبان إلى وجهي نظرات نافذة، كما فعلتِ منذ قليل، مثلًا! فإذا وجَّه أحد إليكِ سؤالًا، أو أبدى ملاحظة تضطرين إلى التعقيب عليها، قذفت بردٍّ يكون لاذعًا، إن لم يكن جافًا باردًا. فما الذي عنيته بردك؟ !».

- «لقد كنت صريحة أكثر مما ينبغي يا سيدي، فأسألك المعذرة، كان يجدر بي أن أجيب بأنه ليس من السهل أن أصدر جوابًا مرتجَلًا عن سؤال يخص المظهر والهيئة، وبأن الأذواق تتباين إلى حدٍّ كبير، وبأن الجمال لا يهم كثيرًا... أو شيء من هذا القبيل !».

- «بل ما كان ينبغي أن تجيبي بذلك، إن الجمال لا يهم كثيرًا، بالفعل! ولكنك تغرسين مطواة خبيثة خلف أذني، بدعوى التخفيفِ من الإساءة السابقة

ومحاولة تلطيف وقعها على نفسي! ألا قولي لي: أي عيوب تجدينها فيَّ، من فضلك؟ إنني - في ما أعتقد - مكتمل الهيئة والأطراف والقسمات، كأي رجل آخر... أليس كذلك؟ ».

- «اسمح لي أن أنكر ردي الأول يا مستر روشستر، فما كنت أنتوى أي رد قاس، ولكنها كانت زلَّة لسان فقط !».

- «هو ذلك، على ما أرى، ولكنك ستؤاخذين بهذه الزلة، فانتقديني: ألا يروق لكِ جبيني؟ ».

ورفع شعره المتموج الذي كان متدليًا على حاجبيه، فكشف عن جبين تنطق صفحته بالذكاء، ولا يعتوره عيب سوى نقص ما ينم عن الأريحية وحب الخير، واستطرد: «والآن يا سيدتي... هل أنا أبله؟ ».

- «كلا، على الإطلاق يا سيدي... ولعلك ترمينني بالفظاظة إذا سألتك بدوري: هل أنتَ مُحبٌّ للإنسانية والخير؟ ».

- «هل عدنا ثانية!؟ وخزة أخرى من المطواة، وأنت تتظاهرين بأنك تربِّتين على رأسي، لمجرد ما قلته من أني لا أطيق معاشرة الأطفال والنساء العجائز! (ولنخفض صوتنا هنا!) كلا يا سيدتي الصغيرة، لست محبًا للبشر والإنسانية بصفة عامة، ولكني أحمل ضميرًا بين جنبيّ (وأشار إلى المكان الذي تنم عنه كلماته). هذا إلى أنه كان لي فيما مضى قلب رقيق، وكنتُ في سنكِ، إنسانًا شديد الحساسية، يعطف على كل قاصر، وكل من لا يجد من يعوله، وكل من يخونه الحظ، بيد أن القدر عاداني... بل إنه طحنني بيديه! وإنني لأطري الآن نفسي على أن غدوت صلبًا جامدًا، ككرة صمَّاء من المطاط، وإن كان ما يزال بهذه الكرة شق أو اثنان، كما تتوسَّطها نقطة حسَّاسة، فهل يتيح لي ذلك سبيلًا إلى أمل أو رجاء؟ ».

- «رجاء في أي شيء يا سيدي؟ !».

وقلت في نفسي: «لا شك أنه أفرط في احتساء الخمر!». ولم أدرِ بماذا ينبغي أن أرد على سؤاله العجيب هذا، كما تساءلت كيف أقطع بأنه قادر على أن يتحوَّل أو يتبدُّل من جديد! وعاد يقول :

- «إن الحيرة البالغة تتجلى عليك يا آنسة إيـر، ومع أنك لا تفوقينني جمالًا، إلّا أن هذه الحيرة تلائم مظهرك، فضلًا عن أنها تريحني لأنها تقصي عن سحنتي هاتين العينين وتشغلهما عني بتأمل زهور السجادة الصوفية! أمعني في

حيرتك، وثقي يا سيدتي الصغيرة أنني الليلة ميَّال إلى أن أكون أليفًا محبًا للاجتماع بالغير ».

وما إن قال هذا حتى نهض من مقعده فوقف، ثم اتكأ على ذراع الموقد الرخامي، فتجلَّت في وقفته هذه حقيقة شكله ووجهه، وصدره المفرط في الاتساع إفراطًا لا يتسق مع طول أطرافه، ولا ريب عندي في أن معظم الناس كانوا خليقين بأن يعتبروه دميمًا. على أنه كان في هيئته ما ينم عن كثير من الكبرياء غير المفتعلة، وعن عدم اكتراث بمظهره، مع اعتداد متعالٍ بقوة فضائله الأخرى، سواء أكانت فطرية أم مكتسَبة، مما كان يعوِّض ما يفتقر إليه من جاذبية المظهر الخارجي، ويحمل من يراه على أن يثق به ثقة عمياء؟ !

وعاد يكرِّر قوله: «إن فيّ الليلة ميلًا إلى أن أكون أليفًا محبًا للاختلاط بالغير، ولذلك أرسلت في طلبك، لأنني لم أجد في الموقد والثريا رفقة كافية، ولا في بايلوت، إذ إن أيًا منها لا يستطيع الكلام. ومع أن أديل أفضل من هؤلاء درجة، إلّا أنها ما زالت دون الدرجة التي تصلح فيها للمؤانسة والمسامرة، وكذلك مسز فيرفاكس! أما أنتِ، فأنا مقتنع بأن في وسعك،إذا شئتِ، أن تكوني زميلة مناسبة، وإن حيّرتني في أمرك في أول ليلة دعوتك فيها للنزول إلى هنا، ولقد نسيتك تمامًا بعد ذلك، لأن رأسي ازدحم بأفكار أخرى، ولكنني أعتزم الليلة أن أريح نفسي فأبتعد عن ما يضايقني من أفكار وأجتلب منها ما يسرّني...
ويسعدني أن أستدرجك لأزداد بك معرفة، فتكلّمي !».

وبدلًا من أن أتكلم، إبتسمت، وإن لم تكن ابتسامة بشوش أو مستسلمة... فراح يستحثني: «تكلّمي !».

- «فيمَ يا سيدي؟ »

- «في ما يعجبك، فسأترك لك اختيار الموضوع وطريقة معالجته ».

ولكني لم أنبس بحرف، بل قلت أحدث نفسي: «إذا كان يتوقع أن أتكلم لمجرد الكلام والتظاهر، فسوف يكتشف أنه قد أخطأ الاختيار !».

- «هل أنت بكماء يا مس إيـر؟ ».

فظللت بكماء، وعندئذٍ مال برأسه نحوي قليلًا، وغاص في عيني بنظرة عاجلة ثم قال: «عنيدة؟ ومتبرّمة؟ لكن هذا طبيعي، فقد ألقيت طلبي عليكِ بطريقة سخيفة تكاد تكون وقحة، فأسألك المعذرة يا مس إيـر. والواقع أنني لا أرغب بحال في أن أعاملك معاملة من هم دوني منزلة». ثم قال مصححًا: «أعني

أنني لا أدَّعي لنفسي عليك تفوقًا، إلّا ما تحتمه عشرون عامًا تفصل بين عمرَينا، وقرن من الزمن أسبقك به في الخبرة: وهذا حق مشروع أتمسَّك به، كما تقول أديل بفرنسيتها، وبحق هذا التفوق وحده أرغب في أن تتكرَّمي بالحديث معي الآن قليلًا، وأن تحوِّلي أفكاري التي يفسدها ارتكازها على نقطة واحدة... فهي تتآكل كالمسمار الصدئ !».

ولقد أراد بهذا الشرح أن يكون أشبه باعتذار، ولكني لم أدع هذا التنازل يستخفني، ولو لمجرد التظاهر، فقلت: «بودي أن أسلِّيك يا سيدي ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ولكن ليس في وسعي أن أقدِّم موضوع الحديث، إذ كيف لي أن أعرف ما يسرّك؟ سلني ما تشاء وسأبذل قصاراي للرد ».

- «إذن أخبريني أولًا: هل توافقينني على أن لي الحق في شيء من السيادة، والفظاظة، وربما التدقيق، للاعتبارات التي ذكرتها؟ أعني أنني في سن والدك وخضت تجارب من كل لون، مع رجال من مختلف الشعوب، وأنني جُبت ما يزيد على نصف الكرة الأرضية، بينما قضيت أنتِ حياتك في هدوء، ومع فريق واحد من الناس، في منزل واحد ».

- «لكَ ما تشاء يا سيدي ».

- «ليس هذا جوابًا، أو هو بالأحرى جواب غاية في الإثارة، لأنه يتسم بكثير من المراوغة. أجيبيني بصراحة !».

- «لست أرى يا سيدي أن لك الحق في فرض أوامرك عليّ لمجرد أنك تفوقني سنًا، أو لأنك خبرت العالم أكثر مني... إن دعواك في السيادة تستند إلى الطريقة التي استفدت بها من وقتك وتجاربك !».

- «أف! إنك تستدرجينني، ولكنني لن أقر رأيك، إذ إنه لا ينطبق على حالي، بل يظهرني بمظهر الذي يستغل ميزَتَيْ السن والخبرة، في غير اكتراث، إن لم أقل استغلالًا سيئًا... فلندع السيطرة جانبًا، ولكن واجبك أن تتلقي مني الأوامر من حين إلى آخر، دون أن تستائي أو تتأذَّى من لهجة الأمر... فهل تقبلين؟ ».

فابتسمت وقلت في نفسي إن مستر روشستر رجل غريب الأطوار، فقد نسي أنه يدفع لي ثلاثين جنيهًا في السنة مقابل أن أتلقَّى أوامره. ولاحظ هو على الفور ما ارتسم على وجهي. فقال :

- «إن الابتسامة حسنة جدًا، ولكن... تكلَّمي أيضًا !».

- «كنتُ أفكر يا سيدي في أن قليلًا جدًا من السادة يكلفون أنفسهم عناء السؤال عما إذا كان أتباعهم المأجورون يستاؤون أو يتأذون من تلقي أوامرهم !».

- «أتباع مأجورون! ماذا؟ هل أنت تابعة مأجورة عندي؟ آه، نعم... نسيت المرتّب! حسنًا إذن... هل تقبلين على أساس هذا الاعتبار الارتزاقي أن أتسفه قليلًا !».

- «كلا يا سيدي، ليس على هذا الاعتبار، ولكن على اعتبار أن ننسى ذلك واعتبار أنك حريص على أن يكون مَنْ تعوله مستريحًا في علاقته معك... عندئذٍ أقبل بكل سرور !».

- «وهل تقبلين التجاوز عن كثير من الأشكال والعبارات المصطلح عليها دون أن تري في التجاوز عنها شيئًا من الوقاحة؟ !».

- «أنا واثقة يا سيدي من أنني لن أخطئ التمييز بين رفع الكلفة وبين الوقاحة... ولعلني أفضّل أولاهما، ولكن الثانية لا يرضى بها من وُلد حرًا، ولو تقاضى في مقابلها أجرًا !».

- «غشّ وخداع! إن معظم من يولدون أحرارًا يتقبَّلون أي شيء مقابل الأجر! تحدَّثي عن نفسك فقط، ولا تطلقي الأحكام العمومية التي تجهلينها... ومع ذلك، فإنني أصافحك بعقلي وأهنئكِ على جوابك برغم عدم دقته... أما الطريقة التي قيل بها، والمادة التي اشتمل عليها، فتنطويان على الصراحة والإخلاص. والمرء لا يصادف كثيرًا هذا الطبع، وإنما، على العكس، يلقى تكلفًا، أو فتورًا، أو غباءً، أو سوء فهم للمعاني نتيجة ضيق العقل. ولا توجد ثلاث معلمات بين آلاف يستطعن الإجابة عن سؤالي بمثل ما فعلتِ... لست أتملقك بذلك... ولكن، إذا كنت قد خلقت في قالب غير قوالب غالبية البشر، فلا فضل لك في ذلك، لأنه من فعل الطبيعة. لكن يبدو أنني أتسرع في أحكامي، إذ ما الذي أعرفه عنك؟ قد لا تكونين أفضل وأمثل من غيرك، وقد تكون فيك نقائض وعيوب لا تحتمل، في مقابل محاسنك القليلة !».

قلت في نفسي: «وقد تكون أنت كذلك !».

والتقت عينيَّ بعينه عندما طافت هذه الفكرة برأسي، ويبدو أنه قرأها إذ أجاب وكأنني حدَّثته بما يدور بخاطري: «نعم، نعم، إنك على حق... إن لي كثيرًا من العيوب التي أعرفها ولا أحب أن ألتمس لها المبررات، ومن ثم فحاشا لله أن أكون قاسيًا إزاء عيوب الآخرين. إن لي تجارب ماضية، ومجموعة من الأفعال،

ولونًا من الحياة، أكتمها في صدري، لأنها قد تجلب عليَّ كثيرًا من هزء معارفي ولومهم. وقد بدأت، أو قُدِّر لي أن أبدأ - لأنني أحب كغيري من الخاطئين أن أضع اللوم على عاتق سوء الحظ والظروف المعاكسة - بسلوك معوج، مذ كنت في الحادية والعشرين من عمري، ولم أعد إلى الصراط المستقيم منذ ذلك العهد. وكان محتملًا أن أكون شيئًا آخر، بل لعلني كنت أغدو مثلك طيبة وطهارة، وربما أرجَح عقلًا! وإني لأغبطكِ على راحة البال، وعلى نقاء ضميرك، وذاكرتك التي لم يُدنِّسها شيء... ألا اعلمي يا فتاة أن الذاكرة التي لا تشوبها أي وصمة أو دَنَس لا بد أن تكون كنزًا نفيسًا، ومعينًا لا ينضب من الانتعاش النقيّ... أليس كذلك؟ ».

- «كيف كانت ذاكرتك وأنت في الثامنة عشرة يا سيدي؟ ».

- «على خير ما يمكن: صافية، مليئة بالصحة، لم يلوِّثها ماء آسن يحوِّلها إلى غدير كريه الرائحة. كنت في الثامنة عشرة مثلك... مثلك تمامًا، فقد كانت الطبيعة تريد أن تجعل مني رجلًا طيبًا يا آنسة إيـر... رجلًا من أحسن الرجال، وها أنتِ ذي ترين إنني لست كذلك... قد تقولين إنك لا ترين ذلك، وأنا أطرى نفسي إذا قلت لك إنني أقرؤه في عينيك - وبهذه المناسبة، أحذرك مما تعبّر عنه عينك، لأنني سرعان ما أترجم لغتها! وأقسم لك إنني لست شريرًا، ولست وغدًا، ولا ينبغي أن تظنيني كذلك أو تنسبي لي مثل هذه الوصمة، ولكن... لظروف خاصة أحاطت بي، وليس لعيب في طبيعتي، أصبحت مبتذل الأخلاق، وآثمًا مهينًا، تردَّى في كل الملذات الرخيصة التي يحاول الأغنياء والتافهون أن يدخلوها على حياتهم. هل يدهشك أن أجاهرك بذلك؟ اعلمي أنك ستجدين نفسك - في مستقبل حياتك - مختارة على الرغم منك لتكوني مستودع أسرار معارفك... سيجد الناس بالغريزة، كما وجدت أنا، أن ميزتك ليست في الحديث عن نفسك، وإنما في الإنصات عندما يتحدث الآخرون عن أنفسهم، وسيشعرون كذلك أنك لا تصغين إليهم وفي نفسك احتقار وسخط على نزقهم وطيشهم، وإنما تصغين بعطف غريزي يسري ويشجع، لأنه خالٍ من التطفل !».

- «وكيف تعرف؟ وكيف تستنتج هذا كله يا سيدي؟ ».

- «أعرف ذلك جيدًا، وعلى هذا أمضي في حرية وانطلاق، وكأنني أدوِّن أفكاري في مذكراتي اليومية. قد تقولين إنه كان ينبغي أن أسيطر على الظروف، نعم كان ينبغي أن أفعل ذلك، ولكنك ترين أنني لم أفعل، وعندما ظلمني القدر، لم أوتَ من الحكمة ما يبقيني باردًا غير مكترث، بل غلب عليّ اليأس، فترديت. وإذا أثار اشمئزازي اليوم رجل أخرق، بخسَّته وبذاءته، فإني لا أكذب على

نفسي زاعمًا أني خير منه، ولكني أضطر إلى الاعتراف بأنني وهو في مستوى واحد! كم كنت أود الثبات، والله على ما أقول شهيد! نصيحتي إليكِ أن تخشي تأنيب الضمير يا مس إير، إذا صادفت ما يغري على تنكب الطريق الصحيح، لأن تبكيت الضمير هو سمّ الحياة !

- «يُقال إن التوبة شفاء له يا سيدي !».

- «التوبة ليست شفاء له، ولكن قد يكون الإصلاح هو الشفاء... ولقد كنت أنوي الإصلاح وما زلت أقوى عليه للآن... ولكن أي فائدة في التفكير، وأنا مثقل بالعراقيل والأعباء واللعنات؟! وفضلًا عن ذلك، لما كانت السعادة قد حُرمت عليَّ، وما وجدت سبيلًا لتفادي الحرمان، فمن حقي أن أنتزع السرور من الحياة، وسوف أناله، مهما يكن الثمن !».

- «إذن فسوف تمعن في الهبوط إلى الحضيض يا سيدي !».

- «ربما، ولكن لماذا أنحدر إلى الحضيض إذا كان في وسعي أن أحصل على متعة حلوة طازجة؟ وقد أحصل عليها في حلاوة ونظارة العسل الذي يجمعه النحل من الأرض الجرداء !».

- «ولكنها ستلدغك، وستكون حلاوتها مُرّة المذاق يا سيدي !».

- «كيف علمتِ ذلك إن لم تجرِّبيها قط؟ كم تتجلَّى عليك أمارات الجد والوقار، في حين أنك تجهلين الأمر كل الجهل! ليس لك الحق في أن تعظيني... أنت التي لم تتخطِّ عتبة الحياة بعد، ولا تعلمين شيئًا عن أسرارها مطلقًا !».

- «إنني أذكّرُك بكلماتك أنت يا سيدي، فقد قلتَ إن الخطأ يسبّب الندم، كما قلت إن الندم وتقريع الضمير سمّ الحياة !».

- «ومن ذا الذي يتحدَّث عن الخطأ الآن؟ لا أكاد أعتقد أن الفكرة التي ومضت في خاطري كانت خطأ، بل أؤمن بأنها وحي أكثر منها إغراء... ولقد كانت مربحة، وفيها عزاء! وها هي ذي قد أتت مرة أخرى! إنها ليست وسوسة من الشيطان.. فإن كانت شيطانًا، فلا بد أنها تتزيا بمسوح الملائكة النورانية، ولذلك أرى من الواجب أن أتقبل مثل هذه الضيفة الحسناء، إذا طلبت الدخول إلى قلبي !».

- «لا تثق بها يا سيدي لأنها ليست «ملاكًا» حقيقيًا !».

- «مرة أخرى!.. من أين علمت بذلك؟ وبأي غريزة تدّعين أن في وسعك التمييز بين «ملاك» ساقط من الهوة، وبين رسول قادم من العرش السرمدي... بين هادٍ وبين مضلل؟ ».

- «حكمت على ذلك من وجهك يا سيدي، فقد اضطرب عندما قلت إن الفكرة قد عاودتك! وأنا أشعر شعورًا صادقًا بأنها ستضاعف من تعاستك وشقائك، إذا أنت أصغيت إليها ».

- «كلا... مطلقًا! إنها تحمل أعظم رسالة كريمة خيِّرة في العالم. أما في ما عدا ذلك فلست أراك وصية على ضميري، فلا تشغلي بالك... ادخلي أيتها التائهة الظريفة !».

... فاه بذلك وكأنه يخاطب رؤيا من الرؤى لا تبصرها غير عينيه، ثم عقد على صدره ذراعيه اللتين كان قد بسطهما، وكأنه يحتضن تلك الرؤيا غير المنظورة، ثم استطرد يحدثني :

- «الآن استقبلت التائهة القدسية... الربة المتنكرة، كما أعتقد اعتقادًا جازمًا. ولقد أفادتني في الحال لأن قلبي كان أشبه بمقبرة، وسيغدو الآن محرابًا !».

- «الحق يا سيدي، أنني لا أفهمك ، ويصعب عليّ أن أتابع تطور الحديث، لأنه أعمق من أن أفهمه... كل ما أعرفه أمر واحد... إنه ما قلت من أنك لست من الطيبة بالقدر الذي كنت ترجوه، وأنك تتندَّم على نقائصك. كما أنني أدركت شيئًا مهمًا، وهو أن الذاكرة المكتئبة عذاب مقيم. وأظن أنك إذا ناضلت بكل قوتك فإنك ستتبيَّن أنه من السهل أن تصبح الشخص الذي كنت تشتهي أن تكونه، وأنك لو بدأت منذ اليوم في إصلاح أمورك وأفكارك بعزيمة، لوجدت بعد سنوات قلائل زادًا كبيرًا من الذكريات الجديدة التي لا تشوبها شائبة، بحيث يمكن أن ترجع إليها وأنت مغتبط مسرور ».

- «تفكير عادل وقول صائب يا آنسة، وإني في هذه اللحظة لأعبّد الجحيم بكل همة وعزم !».

- «سيدي؟ !».

- «إنني أرسّخ نوايا طيبة في متانة الحجر الصوان ولا ريب في أن رفاقي وهواياتي ستصبح غير التي كانت بالأمس ».

- «بل خيرًا منها؟ ».

- «خيرًا منها بكثير... فسوف تكون كالذهب الخالص بالنسبة إلى المعدن الخسيس الزائف! يبدو أنك في شك من ذلك ولكنني شخصيًا لا يساورني أدنى شك، إذ إنني أعرف هدفي كما أعرف العوامل التي تدفعني إليه. وأنا في هذه اللحظة أسنّ قانونًا كقوانين الميديين والفرس العادلة التي لا تتغير !».

- «هذا غير ممكن يا سيدي، وإلا لاحتاجت هذه القوانين إلى تشريع جديد يقرّها».

- «نعم تحتاج إلى قوانين جديد يا مس إيـر، مكوَّنة من مجموعة من الظروف لم يسمع بمثلها، تحتاج بدورها إلى قواعد لم يسمع بها كذلك !».

- «هذه الحكمة تبدو خطيرة يا سيدي، لأن في وسع الإنسان أن يرى أنها قد تكون عرضة لأن يُساء استعمالها !».

- «أنت حكيمة سديدة الرأي! فلتكن كذلك، ولكني أقسم ألّا أسيء استعمالها !».

- «إنك من البشر غير معصوم ومعرَّض للزلل !».

- «إني لكذلك، وأنتِ مثلي... فماذا تقصدين؟ ».

- «ينبغي على البشر المعرَّضين للخطأ ألّا ينتحلوا قوة لا يؤتاها سوى القديسين والكاملين من البشر !».

- «أي قوة؟ ».

- «قوة القول لكل ما هو غير مشروع من الأعمال «ليكن هذا في السبيل الحق، القويم »!».

- « هذه هي الكلمات الصحيحة... «ليكن هذا في السبيل الحق». لقد نطقت بها !».

- «قد يكون هذا صحيحًا إذن !».

ثم قمت بعد أن رأيت أن من العبث أن أمضي في حديث كنت أتخبَّط في ظلماته، فضلًا عن أنني وجدت أن شخصية محدِّثي كانت أعمق من أن أنفذ إلى أغوارها، أو أن أبلغ سطحها الراهن على الأقل... كما ساورني القلق... ذلك الشعور المبهم بعدمِ الأمان، الذي يرافق يقين المرء بأنه جاهل !

وقال السيد: «إلى أين أنت ذاهبة؟ ».

- «لكي أضع أديل في فراشها، إذ فات موعد نومها ».

- «هل أنتِ خائفة مني لأنني أتحدث في غموض أبي الهول؟ !».

- «إن لغتك غامضة يا سيدي، ولكني غير خائفة بحال، وإن كنت في حيرة؟ ».

- «بل أنت خائفة، لأن أنانيتك تحملك على الخوف من الزلل والعثار !».

- «إنني أحس بالخوف فعلًا، من هذه الناحية، ولا رغبة لدي في حديث فارغ !».

- «إذا كان الخوف يساورك حقًا، فإن رزانتك وهدوءك لم يتخليا عنك حتى إنني حسبتك غير خائفة! ألا تضحكين أبدًا يا آنسة؟!! لا تكلِّفي نفسك عناء الرد، فإنه قل أن أراكِ تضحكين، وإن كان في وسعك دائمًا أن تضحكي في مرح وابتهاج. ثقي أنك لست عابسة بطبيعتك، بأكثر مما أنا شرير أثيم بطبيعتي، ويبدو أن قيود لوود ما زالت تؤثر فيكِ إلى حدٍّ ما، وتتحكَّم في معالم وجهك، وتخفت من صوتك، وتشل من أطرافك، وتجعلك تستشعرين الخوف في حضرة رجل لك أن تعتبريه أخاك أو أباك أو مخدومك أو من تشائين. وأنت بسبب هذا الخوف لا تبتسمين، ولا تتكلمين بحريّة، ولا تتحركين بسرعة. ولكنك سوف تصبحين - في الوقت المناسب - على سجيتك وطبيعتك معي، وعندئذٍ سوف تكتسب نظراتك وحركاتك حياة لا تجرؤين الآن على إظهارها، إذ إنني ألمح في عينيك بين الفينة والأخرى نظرة طائر من نوع غريب، حبيس خلف قضبان، كأسير دائم القلق ولكنه ثابت العزم، فلو أطلق سراحه لانطلق يحلِّق في كبد السماء، أما زلتِ مصرَّة على الانصراف؟ ».

- «لقد دقَّت الساعة التاسعة يا سيدي ».

- «لا يهم... انتظري لحظة فإن أديل لم تتهيَّأ بعد للذهاب إلى فراشها، إن وقفتي يا آنسة إيـر، وظهري إلى الموقد ووجهي إلى الحجرة، ساعدتني على ملاحظة الكثير. ففيما كنت أتحدَّث إليكِ، أتيحت لي الفرصة لمراقبة أديل، ولديَّ أسبابًا خاصة تدعوني إلى اعتبارها مادة عجيبة للدراسة... أسبابًا ربما، بل سوف أفضي بها إليك يومًا ما... فرأيتها تخرج من صندوقها ثوبًا قرنفليًا صغيرًا، ما إن بسطته أمامها حتى أشرق وجهها حبورًا، لأن الغندرة تجري في دمائها وتمتزج بعقلها وتختلط بنخاع عظامها... وقد سمعتها تهتف : "يجب أن أجرِّبه... في هذه اللحظة!». ثم اندفعت تغادر الحجرة، وهي الآن مع صوفي - مربيتها الفرنسية - ترتدي الثوب، وسوف تعود بعد دقائق... وإني لأعرف ما

سأرى... صورة مصغَّرة من الممثلة «سيلين فارنس " ، وهي على خشبة المسرح. ولكن لا داعي لهذا الآن، فإن مشاعري المرهفة تُوشك أن تُصاب بصدمة.. هذا ما أتنبأ به، فانتظري لتري هل تتحقَّق هذه النبوءة !».

وبعد قليل، سُمع وقع قدمي أديل وهي تخطر برشاقة في الردهة، ثم دخلت وقد تحوَّلت إلى الصورة التي تنبَّأ بها الوصي عليها، إذ كانت ترتدي بدل الثوب الرمادي الذي كانت ترتديه من قبل، ثوبًا من الحرير الورديّ اللون، منتفخًا عند «الجونلة» وقد وضعت حول جبينها إكليلًا من أكمام الورد، وفي قدميها جوربين من الحرير، وصندلين صغيرين أبيضين من الحرير نفسه !

وصاحت بالفرنسية، وهي تثب إلى الأمام :

- «هل ثوبي جميل؟ وحذائي؟ وجوربي؟ انتبها لأنني سوف أرقص !».

ثم بسطت ثوبها وراحت ترقص عبر الحجرة، إلى أن وصلت إلى مستر روشتسر، فدارت أمامه على أطراف أصابع قدميها في خفة ورشاقة، ثم ركعت على ركبة واحدة وهتفت :

- «أشكرك ألف مرة يا سيدي على طيبتك!». ثم نهضت وأردفت تقول: «هكذا كانت تفعل ماما، أليس كذلك يا سيدي؟ ».

فكان ردّه: «تمامًا... هكذا! لقد فتنتني وجعلتني أنفق عليها بغير حساب، إذ كنت فتى شابًا، مخضرَّ العود يا مس إيـر، لا ينعشك من الشباب الآن أكثر مما كان ينعشني إذ ذاك، ولكن ربيعي قد ولَّى، وإن خلف لي هذه الزهرة الفرنسية الصغيرة، التي أتمنَّى أحيانًا أن أتخلَّص منها. ولما كنت الآن لا أقدر «الجذر» الذي نبتت منه بعد أن اكتشفت أنه من النوع الذي لا ينمو إلّا بسماد من ذهب، فإنني لا أميل إليها كل الميل، لا سيما عندما تظهر بمظهر مصطَنَع متكلِّف كما ظهرت الآن... إنني آويها وأربِّيها تطبيقًا للمبدأ الروماني الكاثوليكي الذي يقضي بالتكفير عن الخطايا العديدة كبيرها وصغيرها، بعمل واحد مجيد. وسوف أشرح لك ذلك يومًا ما، طابت ليلتك !».

الفصل الخامس عشر

وبالفعل، شرح لي مستر روشستر الأمر لاحقًا... في عصر يوم قابلني فيه مصادفة مع أديل في الحقل. وبينما كانت الصغيرة تلعب مع بايلوت وإحدى لعبها، طلب إليَّ أن نتمشّى في طريقٍ تظلِّله أشجار الزان. ثم أخبرني أن أديل ابنة راقصة الأوبرا الفرنسية «سيلين فارنس»، التي أحبَّها يومًا ما حبًّا جارفًا، قابلته هي، حسب اعتراف الراقصة له، بحب أشد عنفًا، حتى خيل إليه برغم دمامته أنه معبودها، اعتقادًا منه بأنها كانت تفضّل قوامه الرياضي على جمال ورشاقة «أبوللو بلفيدير»! ومضى يقول :

- «وقد ازدهاني وخدعني، يا مس إيـر، هذا الإيثار من الغانية ابنة بلاد «الغال»، للمسخ البريطاني، فأنزلتها في أحد الفنادق، وزوَّدتها بحاشية كاملة من الخدم، وبعربة، وأثواب من الكشمير، وماسات، ودانتيلا... وغير ذلك. وقصارى القول، بدأت عملية إفلاس نفسي ككل مغرم غبيّ! ويبدو أنني لم أوتَ من ملكة الابتكار ما يمكنني من أن أختط لنفسي طريقًا جديدًا إلى الخزي والخراب، وإنما سلكت الطريق القديم بدقّة حمقاء، جعلني لا أحيد قيد أنملة عن مجراه! ولذلك حَقَّ عليَّ أن ألاقي مصير أولئك الحمقى! فقد اتفق أن زرت سيلين ذات مساء، ولم تكن تتوقَّع قدومي، فوجدتها في الخارج... ولكن الأمسية كانت حارة، وكنت متعبًا من التجول في أنحاء باريس، فجلست في مخدعها سعيدًا بأن أملأ رئتيَّ بالهواء الذي اكتسب قداسة لأنه حفَّ بها... كلا... إنني أبالغ، لأنني لم أرَ فيها قط أي فضيلة مقدَّسة... على أنها تركت في مخدعها رائحة من روائح «الباستيليا» تشبه المسك والعنبر أكثر مما تشبه رائحة القداسة. وبدأت أشعر وكأني على وشك الاختناق بسبب روائح الزهور وخلاصات العطور المنتشرة، عندما فكَّرتُ في أن أفتح النافذة، وأن أخرج إلى الشرفة، وكان القمر ومصابيح الشارع ترسل أشعتها، والسكون والهدوء يخيّمان، كما كانت الشرفة مؤثثة بمقعد أو اثنين فجلست وأخرجت سيجارًا... وسأتناول الآن واحدًا إذا سمحت !».

وتوقف بعد ذلك فترة انشغل فيها بإخراج سيجار وإشعاله، حتى إذا وضعه بين شفتيه ونفث سحابة من دخان «الهافانا» الشذيّ في الهواء المتجمِّد الذي زايلته الشمس، ثم استرسل :

- «كنت أحب الحلوى في تلك الأيام مس إيـر، فرحت أتلذَّذ - اغفري لي هذا التعبير السخيف - بالتهام قطع الشوكولاتة تارة، وبالتدخين تارة أخرى، وأنا أراقب في الوقت نفسه المارة في الشوارع الحديثة الطراز، وهم يتجهون نحو دار الأوبرا، إلى أن شاهدت عربة أنيقة مغلقة يجرها جوادان إنجليزيان جميلان. واستطعت، في أضواء المدينة المشرقة، أن أتبيَّن أنها العربة المطهَّمة التي أعطيتها لسيلين. إذن ها هي عائدة! وبالطبع خفق قلبي نافد الصبر وأنا خلف القضبان الحديدية التي أعتمد عليها. وتوقَّفت العربة كما كنت أتوقَّع عند باب الفندق، ثم هبطت شُعلتي، وهو الاسم الذي يلائم حبيبتي راقصة الأوبرا، وعلى الرغم من أنها كانت تختفي تحت معطفها، وهو حمل باهظ لم تكن له ضرورة في أمسية حارة كهذه من أمسيات شهر يونيو، فقد عرفتها في الحال من قدمها الصغيرة التي أطلت من أهداب ثوبها وهي تضعها على سلم العربة. وانحنيت على الشرفة لأغمغم: «يا ملاكي!»، بصوت لا تسمعه سوى أذن الحب وحده، وعندئذٍ وثب شخص خلفها من العربة وقد تدثَّر هو الآخر بمعطف، وجلجل كعبه المهموز على الإفريز، ثم مرّ بقبعته تحت قوس باب الفندق ».

صمت للحظات ينظر إليّ، ثم أضاف :

- «هل شعرتِ بالغيرة مرة في حياتك يا مس إيـر؟ كلا بالطبع! ولا حاجة بي إلى سؤالك لأنك لم تشعري بالحب قط، ولكنك سوف تجرِّبين الاثنين فيما بعد... إن روحك تغط في النوم، ولكنك لن تلبثي أن تتلقي الصدمة التي توقظها! أفحسبتِ أن الوجود كله يمضي في مجرى هادئ كالمجرى الذي يسير فيه شبابك؟! فطالما ظللت طافية بعينين مغلقتين وأذنين مصمومتين، فلن تريَ الصخور القائمة غير بعيد عنكِ في المجرى، ولن تسمعي الأمواج وهي ترغى وتزبد عند سفوحها، ولكني أقول لكِ، وأصغي إلى ما أقول، إنك ستصلين إلى مضيق صخريّ سوف ينقطع عنده استرسال مجرى الحياة كله، ليتحوَّل إلى دوامة وصخب وزبَد وضوضاء، وعندئذٍ إما أن تتفتَّتي إلى ذرات فوق الصخور، أو ترفعك إحدى الموجات وتحملك إلى تيار أهدأ كما هو الحال معي الآن !

إنني أحب يومي هذا... وأحب هذه السماء وأحب من الدنيا عبوسها وهدوءها تحت هذا الصقيع... وأحب قصر ثورنفيلد بآثاره العتيقة وعزلته الموحشة، وأشجاره القديمة المليئة بالأشواك، وواجهته الحالكة، ونوافذه المظلمة التي تعكس غيوم السماء... وكم كرهت، لزمن طويل، مجرد التفكير فيه، وفررت منه فراري من منزل موبوء بالطاعون! وكم ما زلت أمقت ...».

وصرف بأسنانه، ثم أخلد إلى الصمت، وتوقّف عن السير ليضرب الأرض بقدميه، كما لو كانت قد استبدَّت به فكرة بغيضة، فقيّدته إلى مكانه بحيث لم يقوَ على الحراك خطوة أخرى. وكان توقفه هذا أمام القصر، فرفع عينيه إلى شرفاته العالية ورمقها بنظرة لم أرَ مثيلًا لها من قبل. نظرة زاخرة بالألم، والخزي، والحنق، ونفاد الصبر، والتقزُّز، والكراهية التي كانت تصطرع في إنسان عينه الكبير المنبسط تحت حاجبيه الغزير. وكان الاصطراع رهيبًا بالغًا، ولكن شعورًا آخر ما لبث أن تولَّد وتغلّب. شعورًا كان ينم عن صلابة وحزم وإرادة، فاستقر باله وهدأت نفسه الثائرة، وتبدَّلت أسارير وجهه، ثم عاد إلى القول :

- «إنما لذت بالصمت في تلك المحطَّة لأنني كنت أسوِّي أموري مع مصيري. فقد تراءى لي هناك طيف، كإحدى تلك الجنيات اللاتي ظهرن لما كنت في مروج «فوريس»، وقالت وهي ترفع إصبعها: «أتحب ثورنفيلد؟»، ثم كتبت في الهواء على واجهة القصر، بين صفَّيْ النوافذ الأعلى والأدنى، بخط هيروغليفي: «أحببها إذا استطعت! أحببها إذا جرؤت!»، فقلت: «سأحبها، وإني لأجرؤ على حبها! ولسوف أبرّ بوعدي، فأحطم العقبات التي تعترض سبيلي إلى السعادة والخير... أجل، الخير! لأنني أود أن أكون خيرًا مما كنت، ومما أنا عليه الآن... سأفعل ما فعله حوت أيوب إذ حطَّم الحربة والنبلة والمزراق... كل هذه الأسلحة التي يعتبرها الآخرون حديدًا ونحاسًا، سأعتبرها قشًا وخشبًا باليًا منخورًا » (2).

أقبلت إذ ذاك أديل تجري أمامه بلعبتها، فصاح في خشونة :

- «ابتعدي! اجري بعيدًا أيتها الطفلة، أو اذهبي إلى صوفي في داخل القصر». ثم استأنف سيره في صمت .

وما لبثت أن تجاسرت على أن أذكّره بالنقطة التي انقطع الحديث عندها فجأة، إذ قلت:«وهل غادرت الشرفة يا سيدي عندما دخلت الآنسة فارنس؟ ».

كنت أتوقع منه أن يصدم شعوري بعد هذا السؤال الذي كان لا يناسب الموقف في تلك اللحظة، ولكنه على العكس، انتبه من ذهوله العابس، واتجه نحوي بعينيه، ثم قال: «آه! لقد نسيت سيلين... حسنًا: عندما وجدت فاتنتي تدخل الفندق، وفي رفقتها ذلك الفارس، خُيِّل إليَّ أنني أسمع فحيحًا، ثم رأيت حية الغيرة الخضراء على ضوء القمر وقد رفعت رأسها في الشرفة، ثم تسلَّلت تحت سترتي، وبادرت تنهش سويداء قلبي. يا للعجب !».

وقطع الحديث مبديًا تعجبه، ثم عاد يستأنف موضوعه قائلًا: «يا للعجب! كيف اخترتك من دون الناس جميعًا لأفضي إليكِ بكل هذه الأسرار؟ وأعجب من هذا أن تصغي إليَّ بكل هذا الهدوء، وكأنه أمر عادي لديك أن يروي رجل مثلي قصص ممثلات الأوبرا لفتاة غريبة عديمة التجارب مثلك! ولكن الغرابة الأخيرة تفسِّر الأولى. فإنك، كما قلت لك من قبل، إنما خلقت بهذه الجاذبية والرصانة والحذر لتكوني مستمعة للأسرار. هذا فضلًا عن أنني أعرف أي نوع من العقول أربطه بعقلي، إنه نوع لا يمكن أن تنتقل إليه العدوى لأنه شاذ فريد في نوعه، كما أنني، لحسن الحظ، لا أرمي إلى إيذائه... بل إنني لو فعلت فلن يصيبه مني الأذى. ومن ثَمَّ فإنني كلما تحدَّثت كان ذلك أفضل، إذ سيكون في وسعك أن تسرِّي عني، ما دمت لا أملك لك ضرًا ».

وعاد يستأنف الموضوع الأصلي، بعد أن حاد عنه، فقال: «بقيت في الشرفة حتى يدخلا مخدعهما كما حدست. وفكَّرت في أن أكمن لهما، ومن ثم مددت يدي من النافذة المفتوحة، فجذبت الستارة عليها تاركًا فتحة أستطيع المراقبة منها، ثم أغلقت النافذة كلها، عدا ثغرة تتسع لأن تنفذ منها آهات العاشقين وعهودهما الهامسة: ثم عدت متسللًا إلى مقعدي في الشرفة، وإذا بالاثنين يدخلان المخدع: وكانت عيناي على الفتحة. ودخلت وصيفة سيلين فأشعلت المصباح ووضعته على المنضدة، ثم انسحبت. ورأيت العاشقين أمامي بوضوح وقد أخذ كل منهما يخلع معطفه. وظهرت سيلين متألقة في ثوبها الحريري اللامع ومجوهراتها التي كانت من هداياي بالطبع، كما ظهر رفيقها في بزة ضابط، فعرفت فيه «فيكونت» شابًا، طائشًا، فاسدًا، كنت ألتقي به أحيانًا في المجتمعات... ولم أفكر قط في أن أكرهه، لأنني احتقرته احتقارًا بالغًا.. فما إن تبينت شخصيته حتى تكسَّرت أنياب الغيرة، لأن نار حبي لسيلين انطفأت في الحال، إذ إن المرأة التي أقدمت على خيانتي من أجل منافس كهذا، لم تكن أهلًا لأي نضال في سبيلها، ولم تكن تستحق سوى الاحتقار، لاسيما من رجل مثلي، كان غريرًا سهل الانخداع !

وأخذا يتحادثان، فخفَّف حديثهما من انفعالي وثورتي إلى حد كبير، لأنه كان حديثًا طائشًا، مصطنَعًا، جامدًا، مجرَّدًا من العواطف، يبعث الملل في السامع أكثر مما يثير حنقه. وكانت على المنضدة بطاقة باسمي، فلما وقع نظرهما عليها تحوَّل حديثهما إليَّ، فجعلا يسبَّاني بأفحش ما في وسعهما، على طريقتهما الرخيصة. أما سيلين فقد راحت تعدِّد عيوبي، أو «عاهاتي» كما سمَّتها! مع أنها طالما كانت تتحدَّث بحماسة شديدة عمَّن تسميه «رجلها الجميل». أنا! وهي في هذا تختلف كل الاختلاف عنك أنت التي صارحتني في المقابلة الثانية بأنك لا تريني جميلًا. ولقد أذهلني الفارق وقتذاك و ...».

وجاءت أديل تجري مرة أخرى لتقول: «لقد جاء جون يا سيدي ليخبرك بأن وكيلك قدِمَ ويرغب في مقابلتك ».

- «آه... حسنًا، يجب أن أوجز: فتحت الباب ودهمتهما وحرَّرت سيلين من رعايتي، وحمايتي، ثم أنذرتها بمغادرة الفندق، وقدَّمت لها كيسًا مليئًا بالنقود لنفقاتها العاجلة، غير حافل بعويلها، ونوباتها الهستيرية، وتوسّلاتها واحتجاجاتها وانتفاضاتها. ثم حدَّدت مع «الفيكونت» موعدًا في غابة بولونيا... وفي الصباح التالي حظيت بمنازلته، ثم غادرته برصاصة في إحدى ذراعيه القاصرتين الضعيفتين ضعف جناح الطير عند خروجه من البيضة، ظانًا أني قد انتهيت من الاثنين. ولكن... شد ما كان أسفي، إذ كانت سيلين قد جاءتني بهذه الصغيرة أديل قبل الحادث بستة أشهر، مؤكِّدة أنها ابنتي... ولعلها كذلك، وإن كنت لا أجد على محيَّاها أي قرينة تنم عن أبوَّتي لها... بل إن كلبي بايلوت يشبهني أكثر منها!! وبعد انقضاء سنوات على انقطاع صلتي بالأم، هجرت المرأة طفلتها وهربت إلى إيطاليا مع موسيقي أو مطرب. ولم أكن أعترف بأي حق طبيعي لأديل يلزمني بالإنفاق عليها، لأنني لست والدها، بيد أنني سمعت بأن الطفلة مهمَلة إهمالًا تامًا، فانتشلتها من أوحال باريس، ونقلتها إلى هنا لتترعرع نظيفة في تربة حديقة في الريف الإنجليزي، وقد اهتدت إليك مسز فيرفاكس لتعلميها. ومن المحتمل بعد أن عرفت الآن أنها ابنة غير شرعية لراقصة فرنسية، أن تري رأيًا آخر في وظيفتك وفي الطفلة التي تحت رعايتك. وقد تجيئيني يومًا ما لتنذريني بأنكِ وجدت مكانًا آخر وتطلبي إليَّ أن أبحث عن معلمة أخرى... أليس كذلك؟ ».

- «كلا... إن أديل غير مسؤولة عن أخطاء أمها أو أخطائك، وأنا أعزُّها... بل إنني بعد أن عرفت الآن أنها عديمة الأبوين، منبوذة من أمها، وغير معترَف بها منك يا سيدي، سأزداد عطفًا عليها... وكيف يمكن أن أفضِّل فتاة مدللة من أسرة غنية قد تكره معلمتها كراهيتها لشيء مزعج مقلق للراحة، على يتيمة صغيرة وحيدة يمكن الاطمئنان إلى صداقتها؟ !».

- «أوه.. أهكذا تنظرين إلى الأمر؟! حسن، يجب أن أذهب الآن، وأنت أيضًا، لأن الظلام يهبط ».

ولكنني مكثت بضع دقائق أخرى مع أديل وبايلوت. وجريت مع الصبية نتسابق، ثم لعبنا بالكرة والمضرب. ولما دخلنا، خلعت عنها قبعتها ومعطفها، ثم أجلستها على ركبتي، وتركتها ساعة تثرثر كما شاءت، دون أن أحاول ردعها، بل دون أن أفكر في تأنيبها على بعض الهفوات التافهة التي كانت ترتكبها عندما تشعر بأن ثمَّة من يحصي عليها تصرفاتها، والتي كانت تكشف عن

سطحية في سلوكها، لعلها ورثتها عن أمها... لكن كانت لها - برغم ذلك - فضائل، وكنت ميَّالة إلى أن أقدِّر فيها كل ما هو طيب إلى أقصى حد. ورحت أتفرس في محياها وملامحها، بحثًا عن شَبَهٍ يقربها من مستر روشستر، ولكني لم أفز بطائل، ولم أجد ما يؤكِّد الصلة بينهما، و أسفتُ للفتاة التي كانت خليقة بأن تلقى منه مزيدًا من العناية لو ثبت أي شبهٍ بينها وبينه !

ولم يُتح لي استعراض القصة التي رواها لي مستر روشستر إلّا حين أويتُ إلى غرفتي في الليل. وكما قال هو: كان من المحتمل أن مادة القصة في حد ذاتها لم تحوِ شيئًا غير عادي: فإن هيام رجل إنجليزي موسر براقصة فرنسية، وخيانتها له، كانا مما يحدث في المجتمع كل يوم. بيد أنه بالتأكيد كان ثمَّة شيء عجيب في نوبة الانفعال التي تملكته وهو يعبر عن رضاه الحالي بطباعه، وعن سروره المتجدِّد حديثًا بالقصر القديم وما حوله. ومضيت أتأمَّل طويلًا هذه الحال، ولكنني أقلعت تدريجًا عن التفكير فيها، بعد أن وجدتني لا أستطيع فهمها في الوقت الحاضر. ثم تحوَّلت إلى التفكير في مسلكه الشخصي معي... وفي الثقة التي وجدتني أهلًا لأن يضعها فيَّ، تقديرًا منه لحصافتي وفطنتي، والتي تقبلتها، من ناحيتي، على هذا الاعتبار !

كان مسلكه نحوي منذ أسابيع، أكثر اتساقًا من ذي قبل. ولم أكن أحاول أن أعترض طريقه قط، ولكنه كان إذا لقيني مصادفة يرحِّب بي ويبادلني بعض العبارات، وكان أحيانًا يبتسم لي... وإذا دعاني رسميًا إلى حضرته، كان يؤثرني باستقبال ودِّي يبعث في نفسي الشعور بأن لي القوة حقًا على تسليته، وأنه إنما كان ينشد هذه الأحاديث المسائية لإدخال السرور على نفسه، كما كنت أنا أنشدها لأفيد منها! فقد كنت أتحدث قليلًا لأنصت إليه، وهو يتحدث كيفما يشاء. وكان بطبيعته محدثًا لبقًا، محبًا لأن يفتح أذهان من يجهلون العالم لتلقِّي ومضات من مشاهد الحياة وطرائقها... ولست أعني المشاهد الفاسدة والطرائق الخبيثة، وإنما تلك التي تستمد متعتها من مسرح الحياة ومن جدتها وذيوعها. وكنت شديدة الاغتباط باستقبال الآراء الجديدة التي كان يقدمها، وبتخيُّل الصور الجديدة التي يرسمها، وبتتبعه إلى المناطق الجديدة التي يكشف عنها الستار دون أن يروِّعني أو يزعجني بإطاعة تضايقني أو تؤذي مشاعري! وقد حرَّرتني بساطة أخلاقه من قيود التحفظ الأليم، كما جذبتني إليه صراحته الودود، المستقيمة المخلصة، التي أخذ يعاملني بها، حتى كان يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنه قريبي أكثر منه مخدومي! على أنه ظل برغم ذلك يستبد في بعض الأحيان برأيه في لهجةٍ آمرة، ولكني لم أكن أهتم لذلك، إذ صرت أدرك طباعه وطريقته. ولقد بلغ من شعوري بالسعادة والامتنان بهذا اللون الجديد من ألوان الاهتمام في حياتي، أن كففت عن الحنين إلى أن يكون لي أقارب، وبدا لي أن مصيري الذي كان كالهلال الصغير أخذ يكبر وينمو، وأن

الثغرات التي كانت في كياني قد امتلأت، وأن صحتي تحسَّنت، وأني ازددت قوّةً ونموّا !

أتراني كنت بعد ذلك أرى مستر روشستر دميمًا؟ كلا فالاعتراف بالجميل وبالعديد من خصاله، وكلها كانت تبعث على السرور، جعل وجهه أحب شيء أرغب في رؤيته، كما كان لوجوده في أي غرفة إشراق يفوق أكثر النيران تألقًا! ولكنني لم أنسَ أخطاءه، لأنه كان يذكرها دائمًا أمامي. إذ كان متعاليًا، ساخرًا قاسيًا على من هم دونه، وكنت أعرف في طوايا نفسي أن عطفه عليَّ تقابله شدة جائرة على آخرين. وقد كان دائب الهم والاكتئاب إلى درجة كبيرة... ولطالما وجدته - عندما يطلبني لأقرأ له - جالسًا في مكتبته، منكسًا رأسه على ذراعيه المعقودتين. فإذا رفع رأسه، رأيت عبوسًا مكتئبًا، بل خبثًا، يظلم أساريره! ولكني كنت أعتقد أن هَمّه وصرامته وذنوبه السابقة - وأقول السابقة إذ بدا لي أنه أصلح من شأنها - قد نشأت من صدمات القدر القاسية... وكنت أعتقد أنه بسليقته ذو ميول طيبة، ومبادئ سامية، تفوق ما خلقَته في نفسه الظروف، وما بثه فيه التعليم، وشجَّعه عليه القدر... بل كنت أعتقد أن فيه خامات طيبة وإن بدت إذ ذاك مضطربة معقدة، ولا سبيل إلى أن أنكر أنني كنت أحزن لما يحزنه مهما يكن، ولا أضن بالكثير من أجل التخفيف عنه !

وبالرغم من أنني أطفأت الشمعة ورقدت في الفراش، إلّا أنني لم أستطع النوم، إذ رحت أفكِّر في نظرته عندما توقَّف في الطريق وأخبرني كيف تمثل له مصيره شبحًا منتصبًا وأغراه على أن يكون سعيدًا في ثورنفيلد. وتساءلت :

- «لم لا؟! ما الذي يبعده عن المنزل؟ وهل سيغادر مرة أخرى عن قريب؟ لقد أخبرتني مسز فيرفاكس أنه قلّ أن أقام هنا أكثر من أسبوعين كاملين، وها هو ذا الآن قد مكث ثمانية أسابيع، فلو رحل لكان هذا التحوُّل باعثًا على الحزن والغم! ولنفرض أنه تغيَّب طوال الربيع، والصيف والخريف، فكم ستبدو أشعة الشمس مقبضة والأيام فارغة، إذ ذاك؟ ».

ولست أدري هل استسلمت للنوم، أو أنني ظللت مستيقظة بعد هذه الخواطر... وإنما الذي أدريه هو أنني انتبهت مفزوعة على صوت همهمة غامضة، شاذة، كئيبة خلتها تنبعث من الحجرة التي تقع فوق حجرتي مباشرة، فتمنيت لو أنني كنت تركت الشمعة موقدة لأن الليلة كانت رهيبة الظلام، ولأن روحي المعنوية كانت مثقلة .

واستويت جالسة في فراشي، أرهف السمع، ولكن الصوت كان قد سكت. وحاولت أن أنام من جديد، ولكن قلبي راح يخفق قلقًا... كانت طمأنينتي قد

تبدَّدت. ودقّت الساعة في الطرف الأقصى من البهو معلنة الثانية... وفي تلك اللحظة، خُيِّل إليَّ أن شيئًا مسَّ باب غرفتي، وكأن أصابع قد احتكت بألواحه وهي تتحسَّس طريقها في الردهة المظلمة... وقلت: «من هناك؟». ولكنني لم أتلقَّ ردًا، فسرَت في كياني برودة الخوف... ثم تذكرت في الحال أن الذي مرَّ بغرفتي ربما كان بايلوت الذي كان كثيرًا ما يتخذ طريقه إلى عتبة غرفة مستر روشستر، إذا قُدِّر لباب المطبخ أن يُترك مفتوحًا، وقد رأيته بنفسي راقدًا هناك في أكثر من صباح! وهدأت نفسي لهذا الخاطر، فرقدت من جديد. وأخذ الصمت يهدِّئ أعصابي، ولما كان السكون الشامل يغشى البيت كله، فقد بدأت أشعر بالنعاس يعاودني. بيد أنه لم يكن مقدورًا لي أن أنام في تلك الليلة، فما كاد أحد الأحلام يراودني، حتى ولّى مذعورًا وقد أفزعه حادث جمد له النخاع في عظامي !

وكان الحادث في هذه المرة ضحكة شيطانية خافتة، مكبوتة، عميقة، خُيِّل إليَّ أنها انبعثت في ثقب مفتاح باب غرفتي بالذات... وكان رأس سريري قريبًا من الباب، فخُيِّل إليَّ في أول الأمر أن الضحكة الشيطانية قد وقفت بجانب سريري، أو بالأحرى ربضت عند وسادتي، فنهضت وجعلت أتلفَّت حولي، ولكنني لم أرَ شيئًا. وفيما كنت أحملق، عادت الضحكة غير الطبيعية، وأدركت أنها جاءت من خلف الألواح الزجاجية. وكان أول ما فكرت فيه أن أنهض وأحكم رتاج الباب، ولكن خاطرًا دفعنيل أن أصيح: «من هناك؟ ».

... كان هنالك شيء يخور ويئن! وبعد قليل سمعت خطوات تبتعد في الردهة إلى سلم الطابق الثالث. وكان قد أقيم أخيرًا باب يمنع الوصول إلى ذلك السلم، فسمعت هذا الباب يفتح ويغلق، ثم ران السكون... فقلت في نفسي: «أكانت هذه جريس بول؟ وهل يتملكها الشيطان؟». وصار من المستحيل أن أظل منفردة بنفسي بعد هذا، بل يجب أن أذهب إلى مسز فيرفاكس، فبادرت أرتدي معطفي وشالي، ثم سحبت المزلاج وفتحت الباب بيد ترتعد. وكانت بالبهو شمعة تشتعل، خارج الباب مباشرة، وعلى البساط، فدُهشت للأمر... ولكن دهشتي كانت أشد عندما رأيت الجو ملبَّدًا وكأنه امتلأ بالدخان! وفيما كنت أتطلَّع إلى اليمين وإلى اليسار، لأتبيَّن مصدر هذه الجدائل الزرقاء من الدخان، فطنت إلى رائحة احتراق قوية .

ثم سمعت صوت صريف ينبعث من باب موارب... هو باب حجرة مستر روشستر... وتبينت أن الدخان كان يندفع منه أشبه بسحابة كثيفة، فلم أعد أفكِّر في مسز فيرفاكس أو في جريس بول أو في الضحكة. وفي لحظة واحدة كنت بداخل الغرفة، فإذا بألسنة اللهب تندلع حول الفراش، والستائر

تشتعل... وفي وسط اللهيب والدخان، كان مستر روشستر مستغرقًا في النوم لا يتحرك! فصحت وأنا أهزه :

- «أفق! استيقظ !».

لكنه لم يفعل أكثر من أن تقلب وغمغم، فقد صار عاجزًا بسبب تنشق الدخان، ولم تكن هناك لحظة يمكن إضاعتها، إذ إن أغطية السرير نفسه كانت قد اشتعلت. فاندفعت إلى الحوض والإبريق... ولحسن الحظ كان كلاهما مملوءًا بالماء، فأغرقت الفراش ومن فيه. ثم أسرعت إلى حجرتي فجئت بإبريق وأغرقت الفراش من جديد، ووُفِّقت بعون الله إلى إخماد النار التي كانت تلتهمه .

وأخيرًا، أفاق مستر روشستر على أزيز النار وهي تنطفئ بفعل الماء، وعلى صوت تحطيم الإبريق الذي طرحته من يدي بعد أن أفرغته، وعلى رذاذ الماء الذي صببته عليه متعمِّدة، قبل كل شيء ...

وأدركت برغم الظلام أنه قد استيقظ، لأنني سمعته يهدر بألوان عجيبة من اللعنات، عندما وجد نفسه راقدًا في بركة من المياه. ثم صاح: «هل ثمَّة فيضان؟». فأجبته: « كلا يا سيدي، ولكن كان ثمَّة حريق، قم فقد غرقت وسآتيك بشمعة ».

- «بحق شياطين البلاد المسيحية كلها، هل هذه جين إير؟ ماذا فعلت بي أيتها الساحرة العرافة؟! من بالحجرة غيرك؟ هل تآمرتِ على إغراقي؟ ».

- «سآتيك بشمعة يا سيدي، الآن عليك أن تقوم إذ دبَّر لك بعضهم شيئًا، وليس في وسعك أن تكتشف في الحال من هو المدبِّر وما الذي دبَّره !».

- «ها قد قمت الآن، ولكنكِ تخاطرين بإحضار الشمعة، انتظري دقيقتين حتى أجد ثيابًا جافة إذا كان قد بقيَ شيء جاف... أجل، ها هو مبذلٌ جاف. اجري إذن !».

هرعت وجئت بالشمعة التي كانت ما تزال في الردهة، فتناولها من يدي ثم راح يتأمَّل الفراش الذي اسودَّ واحترق، والملاءات المبتلَّة، والبساط السابح في المياه... وسألني: «ما هذا؟ ومن فعله؟». فرويت له في إيجاز ما جرى: الضحكة العجيبة التي سمعتها من البهو... وقع الأقدام الصاعدة إلى الطابق الثالث... الدخان ورائحة النار التي قادتني إلى حجرته... أي حالة كانت الأمور عليها هنالك وكيف أغرقته بكل ما وقع بين يدي من ماء... وكان يصغي إليَّ

باهتمام ورزانة، وكلما أوغلت في حديثي تجلّى على وجهه من آيات القلق فوق ما كان عليه من أمارات الدهش. ولم يتكلَّم بعد أن انتهيت من روايتي. فسألته: «هل أستدعي مسز فيرفاكس؟ ».

- «مسز فيرفاكس؟ كلا... لماذا بالله تستدعينها؟ ما الذي في وسعها أن تفعله؟ دعيها نائمة !».

- «إذن سأجيء بالخادمة ليا وأوقظ جون وزوجته ».

- «كلا مطلقًا... بل التزمي الهدوء! أراك تتلفعين بشال، فإذا كان لا يدفئك جيدًا فخذي عباءتي التي هناك وتدثَّري بها ثم اجلسي على المقعد ذي المسندين، والآن ضعي قدميك على الكرسي الصغير لتبعديهما عن البلل. سوف أتركك بضع دقائق، وسآخذ معي الشمعة، فابقي حيث أنت إلى أن أعود، والتزمي سكون الفئران، إذ لا بد لي من أن أزور الطابق الثالث... وتذكَّري أن عليك ألّا تتحرَّكي أو تستدعي أحدًا !».

وذهب، فظللت أرقب النور وهو يبتعد معه. واجتاز الردهة في خطى خفيفة للغاية، ثم فتح باب السلم بأدنى جلبة مستطاعة وأغلقه خلفه قبل أن تختفي آخر أشعة للشمعة. وهكذا تركني في ظلام دامس. وأرهفت السمع فلم تتناهَ إلى أذني أي ضوضاء. وانقضى وقت طويل... وما لبث السأم أن تملكني، وشعرت بالبرد برغم المعطف... وأخيرًا، لم أجد أي فائدة من الانتظار ما دمت لن أوقظ أحدًا من أهل المنزل. وهممت بأن أتعرض لغضب مستر روشستر - إذ يعود فيجدني قد عصيت أوامره - ولكنني ما لبثت أن سمعت قدميه تدوسان بساط الردهة، فقلت في نفسي: «أرجو أن يكون هو، وليس شيئًا أسوأ!».
وبالفعل كان هو، شاحب الوجه، بادي الاكتئاب. قال :

- «لقد اكتشفت كل شيء ووجدته كما قدرت !».

- «كيف يا سيدي؟ ».

وقف صامتًا ويداه معقودتان، ورأسه مطرق إلى الأرض. وبعد دقائق سأل بصوت بدا غريبًا :

- « هل قلت إنك شاهدت شيئًا ما عندما فتحت باب مخدعك؟ ».

- «كلا يا سيدي... كانت الشمعة على الأرض فقط ».

- «ولكن، ألم تسمعي ضحكة عجيبة؟ ما أرى إلّا أنك سمعت هذه الضحكة من قبل، أو شيئًا من هذا القبيل !».

- «نعم يا سيدي... فهناك امرأة تتولَّى الحياكة تُدعى جريس بول تضحك بتلك الطريقة... إنها مخلوقة عجيبة !».

- «تمامًا، جريس بول! إنها كما تقولين عجيبة... جدًا! حسنًا سأفكر في الأمر، ويسرني أنك الشخص الوحيد، ما عداي، الذي يلم بتفاصيل حادث الليلة. أنت لست ثرثارة حمقاء فلا تتحدثي عن ذلك لأحد !».

ثم أشار إلى الفراش وعاد يقول: «والآن عودي إلى حجرتك وسأرتاح بقية الليل على أريكة بحجرة المكتبة... لقد قاربت الساعة الرابعة وسوف يستيقظ الخدم بعد ساعتين ».

- «طابت ليلتك إذن يا سيدي !».

ثم هممت بالرحيل، فتظاهر بدهشة تناقض غاية التناقض ما طلبه من مبادرة بالعودة إلى حجرتي وصاح :

-«ماذا! هل تغادرينني في الحال، وبهذه الطريقة؟ ».

- «ألم تقل إن في وسعي العودة !».

- «ولكن، ليس دون أن تستأذني... ليس دون كلمة أعبر بها عن تقديري وعرفاني... وليس بهذه الطريقة المبتسرة الجافة. إنكِ أنقذت حياتي، بل انتزعتني إنتزاعًا من أنياب ميتة مروّعة، أليمة. فكيف تفارقينني كما لو كنا غريبين لا يعرف أحدنا الآخر؟! صافحيني على الأقل !».

وبسط يده، فناولته يدي. وإذ ذاك أمسك بها أولًا في إحدى يديه، ثم أطبق عليها راحتيه، وقال: «لقد أنقذتِ حياتي، ويسرني أن أدين لك بهذا الدين الضخم، وليس في مقدوري أن أقول أكثر من هذا. بل إنني ما كنت لأحتمل أن أدين لمخلوق على قيد الوجود بمثل هذا الالتزام. بيد أن الأمر يختلف معك، فلستُ أشعر بأن فضلك هذا عبء يثقل عليَّ يا جين». وتوقَّف عن الكلام، يتفرَّس فيَّ، والكلمات تضطرب على شفتيه، ولكنه حبسها، فقلت :

- «طابت ليلتك مرة أخرى يا سيدي.ليس بالأمر دَين أو فضل أو التزام !».

- «كنت أعرف أنه سينالني خير على يديك بطريقة ما، وفي وقت ما... قرأت ذلك في عينيك يوم شاهدتك لأول مرة، ولم تكن عبثًا نظراتك وابتسامتك اللتان أدخلتا البهجة على نفسي، إن الناس يتحدثون عن العواطف الطبيعية، كما سمعتهم يتحدثون عن وجود الملاك الطيب، وقد آمنت الآن بأن الخرافات - مهما تشتط في الخيال - فيها بذور من الحقيقة... طابت ليلتك يا حافظتي العزيزة !».

وكان في صوته حيوية عجيبة، وفي نظرته نار غريبة... فقلت :

- «يسعدني يا سيدي إنني كنت ما أزال متيقظة، بالمصادفة !».

ثم هممت بالانصراف فقال: «ماذا! هل ستنصرفين؟ ».

- «إنني أشعر ببرد يا سيدي ».

- «ببرد؟ أجل... بل إنك تقفين في بركة ماء! اذهبي إذن يا جين !».

ولكنه ظل ممسكًا بيدي، فلم أستطِع تخليصها. وفكرت في حيلة أتذرع بها، فقلت: «أظنني سمعت مسز فيرفاكس تتحرك يا سيدي». فأرخى أصابعه وقال: «حسنًا، اذهبي!». وانصرفت إلى فراشي، ولكني لم أفكر في النوم إطلاقًا، بل ظللت - إلى أن لاحت تباشير الفجر - كمن يطوّح بها بحر بهيج وسار، ولكنه ليس هادئ الصفو وإنما تنساب تحت أمواج مباهجه تيارات العناء والمتاعب. وكان يُخيَّل إليَّ أحيانًا أنني أرى خلف مياهه العنيفة شاطئًا جميلًا، ثم لا يلبث الأمل بين حين وآخر أن يوقظ زوبعة منعشة تحمل روحي ظافرة إلى هدفي... إلى ذلك الشاطئ الجميل، ولكنني لم أستطع بلوغه حتى في الخيال، لأن عاصفة مضادة كانت تجرّني إلى الخلف، أي أنني كنت بين عاملَيْن، كان العقل يقاوم الهذيان، والحكمة تعارض الهوى... واستحال عليَّ أن أستريح وأنا محمومة هكذا، فنهضت بمجرد أن لاح الفجر !

الفصل السادس عشر

بقدر ما كنت أخشى، كنت أتمنى أن أقابل مستر روشستر في اليوم التالي لتلك الليلة الليلاء الساهدة... كنت أصبو إلى أن أسمع صوته مرة أخرى. ومع ذلك كنت أرجف من أن تلتقي عيناي بعينيه. وكنت طوال الهزيع الباكر من الصباح أتوقع ظهوره بين لحظة وأخرى. ومع أنه لم يعتد أن يدخل إلى حجرة الدراسة، إلّا أنه كان يعرّج عليها في بعض الأحيان، ولذلك كان بي هاتف يؤكِّد لي أنه سيزور الحجرة في ذلك اليوم. غير أن الصباح انقضى كالعادة، دون أن يقع ما يعوق سير الدرس. على أنني لم أكد أنتهي من تناول الإفطار، حتى سمعت لغطًا بجوار مخدع مستر روشستر، وكان مزيجًا من أصوات مسز فيرفاكس وليا والطاهية. بل وصوت زوجها جون بلهجته الغليظة، وتناهى إلى أذنيّ لغط صيحات متعدِّدة: «من رحمة الله أن السيد لم يحترق في فراشه!»، «من الخطر دائمًا أن تظل إحدى الشموع موقدة في الليل»، «من عناية الله أن أوتيَ من حضور الذهن ما جعله يتذكر إبريق الماء»، «من عجب أنه لم يرَ قط أحدًا!»، «عسى ألّا يُصاب ببرد بعد نومته على أريكة المكتبة»... إلخ .

ودار لغط كثير، أعقبته أصوات مسح الحجرة وتنظيفها، وترتيب محتوياتها. وعندما مررت بتلك الحجرة في طريقي لتناول الغداء بالطابق الأسفل. شاهدت من خلال الباب المفتوح أن كل شيء قد استعاد نظامه التام. وكانت ليا منتصبة فوق قاعدة النافذة، تمسح ألواحها الزجاجية التي جعلها الدخان معتمة، وهممت بأن أخاطبها رغبة في معرفة السبب الذي يُعزى إليه ذلك الحادث، ولكنني ما إن تقدمت حتى شاهدت شخصًا آخر في الحجرة، امرأة تجلس على مقعد بجوار الفراش، وتخيط دوائر أستار جديدة... ولم تكن تلك المرأة سوى جريس بول !

كانت تجلس رابطة الجأش هناك، مخلدة إلى الوجوم كالعادة، بثوبها البنّي الفضفاض، ومريلتها ذات المربعات، ومنديلها وقلنسوتها الناصعَي البياض. وكانت منهمكة في عملها الذي بدا أنها استغرقت فيه بكل أفكارها دون أن يتراءى على جبينها الجامد، أو على أساريرها المألوفة، شيء من الامتقاع أو القنوط الذي يتوقّع المرء أن يراه على أسارير امرأة شرعت في ارتكاب جريمة قتل في الليلة السالفة. امرأة لحقتها الضحية إلى غرفتها، واتهمتها - كما اعتقدت - بالجريمة التي أرادت تنفيذها... لذلك تولتني الدهشة وتملكتني الحيرة... وفيما كنت أتفرس فيها، رفعت عينيها دون أن ترتاع أو يتضرج وجهها

بحمرة أو شحوب ينم عن انفعال في النفس أو شعور بالإثم أو خوف من اكتشاف أمرها. بل إنها قالت بلهجتها الفاترة المقتضبة: «صباح الخير يا آنسة»، ثم تناولت دائرة أخرى وشريطًا آخر، واسترسلت في خياطتها. فقلت أحدث نفسي: «سوف أخضعها لاختبار، فإن مثل هذا التكتم المطلق يفوق كل تصور وإدراك!». ثم قلت لها :

- «صباح الخير يا جريس، هل حدث شيء هنا؟ لقد خُيِّل إليّ أنني سمعت جميع الخدم يتبادلون الحديث منذ هنيهة !».

- «كل ما هنالك أن السيد كان يقرأ في فراشه ليلة أمس، فاستغرق في النوم والشمعة موقدة، فنشبت النيران في الستائر... ولكنه لحسن الحظ تيقَّظ قبل أن يمتد اللهب إلى مفارش السرير وإلى النوافذ والأبواب، فتمكَّن من إخماد الحريق بالماء ».

فقلت بصوت خافت: «يا له من أمرٍ عجيب!». ثم نظرت إليها وقلت :

- «هل أيقظ مستر روشستر أحدًا؟ ألم يسمعه أحد يتحرَّك؟ ».

فرفعت عينيها إليَّ مرة أخرى، وكان فيهما هذه المرة ما يعبِّر عن الشعور بالجرم، وبدا لي أنها تتفحَّصني بحذر شديد، ثم أجابتني قائلة :

- «إن الخدم ينامون بعيدًا جدًا كما تعلمين يا آنسة، والأرجح ولم يسمعوا شيئًا. وحجرة مسز فيرفاكس وحجرتك أقرب الحجرات إلى غرفة السيد، ولكن مسز فيرفاكس قالت إنها لم تسمع شيئًا لأن كبار السن يثقل نومهم ».

ثم توقَّفت قليلًا قبل أن تستطرد، وهي تتظاهر بعدم المبالاة، برغم ما كان في لهجتها من دلالة ومغزى :

- «ولكنك شابة يا آنسة، بل أنت أخف نومًا، فلعلك سمعت ضجة ما؟ ».

فقلت وأنا أخفض صوتي حتى لا تقوى على سماعه ليا التي كانت ما تزال تصقل ألواح النوافذ الزجاجية :

- «لقد سمعت فعلًا... وظننت في أول الأمر أنها من بايلوت، ولكن بايلوت لا يستطيع الضحك. أنا واثقة أنني سمعت ضحكة..ضحكة عجيبة!». فتناولت خيطًا جديدًا شمعته بعناية، ثم أدخلته في ثقب الإبرة بيد ثابتة، وقالت برباطة جأش

تامة: «ليس من المحتمل - فيما أعتقد - أن يضحك السيد وهو في مثل هذا الخطر... فلا شك أنك كنت تحلمين يا آنسة !».

فقلت بشيء من الانفعال بعد أن أثارتني ببرودها السليط: «بل إنني لم أكن أحلم!». فتطلعت إليَّ مرة أخرى بالعين المتفحِّصة الواعية نفسها، ثم سألتني :

- «هل أخبرت السيد بأنك سمعت ضحكة؟ ».

- «لم أجد فرصة للتحدث إليه في هذا الصباح ».

فعادت تسألني: «ألم تفكري في فتح بابك والتطلع إلى الردهة؟». وقد بدا أنها تستجوبني وتحاول أن تنتزع أخباري دون أن أفطن. وخطر لي أنها إذا اكتشفت أنني أعرف أو أرتاب في جرمها، فقد تحاول أن تلعب معي بعض ألاعيبها الخبيثة. لذلك رأيت من الحكمة أن أكون على حذر، فقلت :

- «بل على العكس... أغلقت بابي بالمزلاج !».

- «لكن ليس من عادتك أن تغلقيه بالمزلاج قبل أن تأوي إلى فراشك؟ ».

يا للشيطانة! إنها تود أن تعرف عاداتي لترسم خططها على هذا الأساس! وتغلب الحنق على حكمتي فأجبتها بحدة :

- «نعم، كثيرًا ما كنت أغفل عن إغلاقه بالمزلاج، لأنني لم أكن أجد ضرورة لذلك، ولا كنت أعلم بوجود خطر يتهددني أو كدر أخشاه في قصر ثورنفيلد. أما في المستقبل (وضغطت على مخارج الكلمات) فسوف أحرص على اتخاذ كل حيطة وضمان قبل أن أجرؤ على الاستلقاء على فراشي !».

فكان جوابها: «من الحكمة أن تفعلي ذلك، مع أن منطقتنا هذه هادئة، ولم أسمع في حياتي قط أن اللصوص حاولوا السطو على القصر، برغم ما في خزائنه - كما هو معروف - من أوانٍ تساوي مئات الجنيهات، وبرغم أن عدد الخدم هنا قليل جدًا بالنسبة إلى قصر كبير كهذا، نظرًا لأن السيد لا يقيم هنا طويلًا، فإذا جاء لم يحتج إلى خدمة كثيرة، فهو أعزب .

ولذلك فإنني أرى دائمًا أن من الأفضل اتخاذ الحيطة، بإيصاد الباب بمجرد ولوج المرء مخدعه، كما يحسن وضع المزلاج ليحول بين الإنسان وبين أي شر قد يحوم حوله. إن كثيرًا من الناس يا آنسة يعتمدون على العناية الإلهية،

ولكني أؤكد لكِ أن العناية الإلهية لا تمنع اتخاذ الحيطة، وأن الله يبارك هذه الوسائل إذا ما استعملت بحذر وفطنة !».

وعندئذٍ انتهت من إلقاء خطبتها... وكانت خطبة طويلة بالنسبة لصمتها المألوف... وقد ألقتها برزانة المحتالات الدجّالات، بينما ظللت أنا واقفة مبهوتة أمام ما بدا لعيني من رباطة جأشها النادرة، وريائها. ثم ما لبثت الطاهية أن دخلت لتقول لها :

- «إن غداء الخدم يا مسز بول سيجهز على التو، فهل تتفضلين بالنزول؟ ».

- «كلا... فقط ضعي شرابي وبعض العصيدة على صينية، وسوف أحملها إلى الطابق العلوي ».

- «ألا ترغبين في قليل من اللحم؟ ».

- «قطعة صغيرة منه، وقطعة من الجبن... فقط !».

- «والساغو (3) ؟ ».

- «لا داعي له الآن، سأنزل قبل موعد تناول الشاي وأصنعه بنفسي ».

وعندئذٍ التفتت الطاهية نحوي لتخبرني بأن مسز فيرفاكس في انتظاري فانصرفت. ولكني لم أكد أسمع شيئًا من حديث مسز فيرفاكس عن حريق الستائر، لأنني كنت أثناء تناول الطعام مستغرقة بكل أفكاري الحائرة في أطوار جريس بول التي بدت لي لغزًا غامضًا. كما كنت أشد استغراقًا في محاولة إدراك مركزها في ثورنفيلد، وفي التساؤل: لماذا لا يُلقى بها في غيابة السجن في ذلك الصباح، أو على الأقل لماذا لا تُطرد من خدمة سيدها؟ لقد أعلن في الليلة الماضية جرمها فيما يشبه الجزم والتأكيد، فأي سبب خفي منعه من إعلان اتهامه لها؟ ولماذا طلب مني كذلك أن أخفي الأمر وأكتمه؟ كان من العجيب أن يبدو هذا السيد الجَسور المنتقم، المتعالي، تحت رحمة خادمة من أحط خدمه بحيث لا يجرؤ - بعد أن مدت يدها للقضاء عليه - على أن يتهمها علانية بمحاولة اغتياله، إن لم يسعَ إلى عقابها على جرمها !

ولو أن جريس كانت شابة جميلة، لوجدت ما يحملني على الظن بأن ثمَّة عواطف وإحساسات ألانت قلب مستر روشستر نحوها، أما وهي على ما كانت عليه من دمامة وكهولة، فإن هذا الظن لم يكن مستساغًا... ورحت أقول لنفسي: «ولكنها كانت شابة في يوم من الأيام، وكان شبابها معاصرًا لشباب

سيدها - فقد أخبرتني مسز فيرفاكس أنها تقيم هنا منذ سنوات عديدة - ولا أحسب أنها كانت حسناء، ولكن لعلها كانت تنعم بقوة في الرأي والأخلاق عوَّضاها عما ينقصها من ميزات الحُسن. إن مستر روشستر من هواة الخلق الحازم والأطوار الغريبة، وجريس غريبة الأطوار، فماذا لو أن نزوة من نزواته السابقة - وهي فلتة محتملة بالنسبة لطبيعة رجل مثله على جانب كبير من سرعة الانفعال وصلابة الرأي - أسلمته إلى رحمتها، فمكنها نتيجة لعدم تبصره من أن تفرض على أعماله سلطة خفية لا يقوى على الإفلات منها، ولا يجرؤ على إغفالها؟!». ولكن ما إن بلغت هذه النقطة من الحدس والتخمين، حتى تمثلت لخيالي جريس، أو مسز بول، بقامتها الربعة الخالية من الرونق، وبوجهها الدميم الجاف... بل الغليظ، فقلت لنفسي: «كلا، مستحيل! إن افتراضي لا يمكن أن يكون لما فكرت به نصيب من الصحة، ومع ذلك..»، وهنا هتف بي الصوت الخفي الذي ينبعث عادة من قلوبنا :

- «أنت كذلك لست جميلة، ومن المحتمل أن مستر روشستر يستلطفك، أو على أي حال هذا ما طالما أحسستِ به. وفي ليلة أمس... تذكري كلماته... تذكري نظراته... تذكري صوته !».

وتذكرت كل ذلك بجلاء... تجدَّدت بوضوح ذكرى لهجته، ونظرته ولغته... وكنت إذ ذاك في حجرة الدرس وأديل ترسم، فملت عليها وأمسكت قملها الرصاص أوجّهه، فنظرت إليَّ وكأنها رُوِّعت ثم قالت بالفرنسية :

- «ما بكِ يا آنسة؟ إن أصابعك ترتعد كورقة شجر، ووجنتيك متورِّدتان... في حمرة الكريز !».

- «إنني أشعر بالحر بسبب انحنائي !».

فعادت إلى رسمها، وعدت إلى تفكيري: بادرت أقصي من رأسي تلك الفكرة البغيضة التي استبدت بي بشأن جريس... تلك الفكرة التي جعلتني أشمئز... ولقد قارنت نفسي بها فوجدت أننا نقيضان. ألم تقل بيسي ليفن - المربية السابقة في قصر جيتسهيد - حين زارتني في لوود إنني سيدة بكل ما في الكلمة من معنى؟ لقد كان ما قالته حقًا... بل إنني أصبحت أبدو خيرًا مما كنت عندما رأتني بيسي، إذ ازداد لوني تورُّدًا... وجسمي امتلاء... وغدوت أكثر حيوية ونشاطًا بعد أن ازدهرت آمالي وتضاعفت أسباب هنائي .

وتطلَّعت ناحية النافذة وأنا أقول: «إن المساء يقترب وقد انقضى النهار دون أن أسمع صوتًا لمستر روشستر أو وقعًا لقدميه في المنزل، ولكنني سأراه بكل تأكيد قبل أن يحل الليل!». وبقدِر ما كنت أخشى لقاءه في الصباح أخذت

أتلهف عليه الآن، لأن طول الترقّب أعياني، حتى غدوت نافدة الصبر لا أقوى على مزيد من الاحتمال. وعندما أسدل الغسق أستاره بالفعل، وغادرتني أديل لتلعب مع مربيتها الفرنسية صوفي في غرفة الأطفال، اشتدت بي اللهفة، فرحت أترقَّب رنين الجرس عسى أن يدوِّي في الطابق الأسفل كما رحت أتصنت لعل ليا تصعد برسالة لي. وكان يخيل إليّ أحيانًا أنني أسمع وقع قدمَيْ مستر روشستر فكنت أستدير إلى الباب متوقِّعة أن يفتح ليدخل السيد عندي... ولكن الباب ظلَّ مغلَقًا، ولم تدخل سوى الظلمة... بيد أن الوقت لم يكن قد تأخر كثيرًا... فقد اعتاد أن يرسل في طلبي في السابعة أو الثامنة. ولم تكن الساعة قد بلغت السادسة بعد، ولا شك أن آمالي لن تخيب في هذه الليلة لأن لدي أشياء كثيرة أريد أن أفضي بها إليه... لسوف أتناول مرة أخرى موضوع جريس بول لأسمع رده... سأسأله ببساطة: هل يعتقد حقيقة أنها هي التي أقدمت في الليلة الماضية على تلك المحاولة البغيضة؟! وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يحتفظ بسرّها مكتومًا؟ ولن أحفل إذا أثاره فضولي وأغضبه، فقد أصبحت أعرف كيف أغضبه ثم أرضيه، على التوالي .

بل إنني لأجد في ذلك متعة كبيرة! ولكن كانت تمنعني غريزتي من التعالي والذهاب إلى أبعد من حدود الإثارة. وعند هذه النهاية، كان يلذ لي أن أجرب مهاراتي، وأنا محتفظة بكل آيات الاحترام، وبكل ما يليق بمركزي، فأجادله بلا خوف أو انفعال مما يليق بي وبه على السواء .

وأخيرًا، دوَّى وقع أقدام على السلم ثم ظهرت ليا. على أنها لم تأتِ إلّا لتخبرني بأن الشاي معَدّ في غرفة مسز فيرفاكس، فتأهَّبت على الفور مغتبطة بنزولي، لأن ذلك يقربني - على الأقل كما توهَّمت - من مستر روشستر، فلما اجتمعت بالسيدة في حجرتها قالت :

-«لا شك ب أنك بحاجة إلى فنجان من الشاي... لقد أكلت قليلًا في الغداء، وأخشى على صحّتكِ، لأنني أراكِ متوهجة الوجه محمومة !».

- «أوه... أنا بخير، بل أحسن حالًا من أي وقت مضى ».

- «إذن وجب أن تبرهني على ذلك بما تبدين من شهوة للطعام... هل تسمحين بملء وعاء الشاي إلى أن أنتزع هذه الإبرة من الخيط؟ !».

وبعد أن أنجزت مهمتها قامت تسدل ستار النافذة، بعد أن كانت قد رفعته لتنعم فيما أعتقد بأكبر قسط من ضياء النهار، بعد أن أدلهم الغسق، واشتدت الظلمة. وعادت تقول: «الجو معتدل هذا المساء، ولو أن السماء ليست صافية

الأديم ولا تكشف عن نجومها، وعلى كل فلا شك أن مستر روشستر قد نعم بيوم يناسب رحلته ».

- «رحلته؟ هل رحل مستر روشستر إلى مكانٍ ما؟ لم أكن أعرف أنه رحل ».

- «أوه! لقد خرج فور تناوله طعام الإفطار... ذهب إلى قصر مستر إيشتون في لياس، على مسافة عشرة أميال من الجانب الآخر لقرية ميلكوت... وأغلب الظن أن هناك جماعة ستلتقي هناك: اللورد إنجرام، والسير جورج لين، والكولونيل دنت، وغيرهم ».

- «وهل تتوقَّعين عودته الليلة؟ ».

- «كلا، ولا غدًا... بل أظن من المحتمل جدًا أن يمكث أسبوعًا أو أكثر، فإن هؤلاء القوم الظرفاء، العصريين، إذا اجتمعوا أحاطت بهم أسباب البهجة والانشراح، وتوفَّرت لهم من أسباب اللهو والتسلية ما لا يجدون معه داعيًا إلى سرعة تفرّق الشمل. وإن لمستر روشستر في المجتمعات من مواهبه العديدة وخفة روحه ما يجعله محبوبًا لدى الجميع... إن السيدات يشغفن به، وإن لم تصدِّقي أن شكله يرشِّحه لأن يروق في أنظارهن بالذات... ولكني أعتقد أن له من مؤهلاته ومواهبه، وربما من ثروته وكرم محتده، ما يعوِّض أي عيب في مظهره !».

- «وهل توجد في لياس سيدات؟ ».

- «هناك مسز إيشتون وبناتها الثلاث، وهنّ سيِّدات شابات في غاية الأناقة في الحقيقة. كما أن هناك النبيلة بلانش والنبيلة ماري إنجرام، وهما من أجمل النساء. والواقع أنني شاهدت بلانش منذ ست أو سبع سنوات عندما كانت فتاة في الثامنة عشرة من عمرها إذ قدمت لتشهد حفلة راقصة أقامها مستر روشستر في عيد الميلاد. ويا ليتك رأيت حجرة الطعام في ذلك اليوم، وكيف كانت مزدانة بأغلى زينة، ومضاءة بالأنوار المشرقة، كما أعتقد أن الحاضرين بلغوا خمسين من السيدات والسادة، كلهم من أكبر الأسر في المقاطعة، وكانت مسز بلانش إنجرام أجمل الموجودات في ذلك المساء !».

- «تقولين إنكِ رأيتها، يا مسز فيرفاكس، فما شكلها؟ ».

- «نعم رأيتها، لأن أبواب حجرة الطعام كانت مفتوحة على مصاريعها، ولمناسبة عيد الميلاد سُمح للخدم بأن يجتمعوا في القاعة ليستمعوا إلى بعض السيدات وهن يغنين ويعزفن. ودعاني مسز روشستر للدخول، فجلست في

ركن هادئ أراقب وأشاهد، فلم أرَ في حياتي مثل ذلك المشهد الرائع. وكانت السيدات في أفخر الثياب... فتجلّى جمالهن، ولكن مسز إنجرام كانت ملكتهن بكل تأكيد !».

- «ماذا كان شكلها؟ ».

- «فارعة القامة، جميلة الصدر، منحدرة الكتفين، ذات نحر طويل رشيق، ومحيا أسمر صاف في لون الزيتون، وقسمات نبيلة، وعينين كعيني مسز روشستر: سوداوين كبيرتين لهما وميض المجوهرات. هذا إلى شعر جميل حالك السواد، تفنَّنت في تسويته وعقصته من الخلف على هيئة تاج من الضفائر، وأسدلته من الأمام خصلات لم أرَ في حياتي ما يفوقها طولًا ونعومة واتساقًا... وكانت ترتدي ثوبًا ناصع البياض، وتضع على كتفَيْها وصدرها وشاحًا بلون الكهرمان، عقدته على جانب من خصرها وأرخت أهدابه الطويلة المزركشة إلى ما تحت ركبتيها... وكذلك كانت تضع في شعرها زهرة بلون الكهرمان، تناقض لون جدائلها الفاحمة ».

- «لقد كانت بالطبع موضع إعجاب شديد؟ ».

- «نعم في الحقيقة، ليس لجمالها فحسب، وإنما لمآثرها ومحاسنها الأخرى، فقد كانت واحد ممن غنَّين بمصاحبة سيدٍ عَزَف على البيانو، كما غنَّت مع مستر روشستر ».

- «مستر روشستر؟ لم أكن أعرف أنه يحسن الغناء !».

- «أوه... إن له صوتًا عميقًا جميلًا، وذوقًا موسيقيًا مرهفًا ».

- «ومس إنجرام... كيف ترين صوتها؟ ».

- «صوت غني قوي جدًا... وكانت تغني بادية الابتهاج والمرح، وقد نعمنا بالإصغاء إليها... ثم عزفت فيما بعد، ولست ممن يستطيعون الحكم على الموسيقى، ولكن مستر روشستر يستطيع ذلك وقد سمعته يقول إن أداءها على جانب ملحوظ من المهارة ».

- «وهذه السيدة الحسناء ذات المواهب... ألم تتزوج بعد؟ ».

- «لا يبدو ذلك، فلست أظنها وأختها تلمكان ثروة كبيرة، لأن معظم أملاك اللورد إنجرام العجوز كانت موقوفة على وريث معين، فقد استولى ابنه الأكبر

على كل شيء تقريبًا !».

- «ولكني أتساءل: لماذا لم يمِل إليها أحد من النبلاء الأثرياء أو السادة... مستر روشستر مثلًا... إنه غني، أليس كذلك؟ ».

- «بلى، ولكن الفرق بين عمريهما كبير كما ترين، فإن مستر روشستر في حوالي الأربعين من عمره بينما هي في الخامسة والعشرين ».

- «وماذا في هذا؟ إن كثيرًا من الزيجات غير المتعادلة تعقد في كل يوم ».

- «هذا صحيح، ولكني لا أتصوَّر أن لدى مستر روشستر أي فكرة في هذا الصدد... إنكِ لم تأكلي قط، بل إنكِ لم تذوقي شيئًا تقريبًا غير الشاي !».

- «كلا... إنني شديدة العطش، بحيث لا أقوى على أكل شيء ما، فهل تسمحين لي بقدح آخر؟ ».

وكنت أهم بالعودة مرة أخرى إلى احتمال زواج مستر روشستر بـ بلاش الحسناء، لولا أن أديل دخلت إذ ذاك، فاتخذ الحديث مجرى آخر! وعندها خلوت مرة ثانية إلى نفسي، رحت أستعرض المعلومات التي حصلت عليها، وجعلت أتطلع إلى قلبي لأسبر غور أفكاره ومشاعره، وأحاول أن أعيد ما جمع منها في بيداء الخيال الشاسعة إلى حظيرة العقل والإدراك، وأقمت محكمة من نفسي، استدعيت إليها الذاكرة شاهدة على الأماني والرغبات والمشاعر التي خالجتني منذ ليلة أمس، وشاهدة على حالتي العقلية العامة التي انغمست فيها منذ أسبوعين تقريبًا، ثم تقدَّم العقل فروى بطريقته الهادئة قصة واضحة غير منمَّقة، أظهر فيها كيف رفضت ما هو حقيقي، واتهمت بسرعة ما هو مثالي خيالي... ثم نطقت بالحكم التالي :

- «لم يتنسَّم نسيم الحياة قط من هو أحمق من جين إير... بل ليس ثمَّة من يبزها بلاهة وتعلقًا بالخيال وهي تتخم نفسها بالأكاذيب المعسولة وتبتلع السم كأنه رحيق الحياة !».

وقلت أحدِّث نفسي: «أأنتِ أثيرة عند مستر روشستر؟ هل أوتيت القدرة والقوة على مَرضاته؟ هل أنت من الأهمية بمكان عنده؟ إليك عني فإن حماقتك تسئمني! لقد استقيت السرور والابتهاج من عبارات عابرة... عبارات ذات معنيين من سيد كريم المحتد، ورجل خبير بالعالم، نحو مرؤوسة غريرة. كيف تجروئين أيتها الغرَّة المسكينة الحمقاء؟ ألم يقوَ حبك الهالك ومصلحتك الخاصة على جعلك أحكم وأعقل من ذلك؟ ألم تعيدي لنفسك في هذا الصباح

المشهد القصير الذي وقع في الليلة الماضية؟ ألا غطَي وجهك واخجلي! لقد قال شيئًا في امتداح عينيك، أليس كذلك أيتها الدمية العمياء؟ ألا فافتحي جفونها الذابلة، وتبيني تفاهتك اللعينة! لا يجدي امرأة أن يغازلها من هو أرفع منها، ولا يمكن أن يعتزم الزواج منها... بل إنه لجنون من النساء جميعًا أن يدعن الحب ينفذ في قلوبهن، لأنه إذا لم يقابل بمثله، أو إذا لم يدركه أحد، فسوف يلتهم الحياة التي تغذيه... وحتى إذا اكتشف أمر هذا الحب ولقي من يستجيب له، فلا بد من أن يؤدِّي إلى سراب خادع... وإلى قفار موحلة لا خلاص منها ولا نجاة .

«ألا اصغِ إذن يا جين إيـر إلى الحكم الصادر عليك: غدًا ضعي المرآة أمامك، وارسمي بالطباشير صورتك بكل أمانة ونزاهة دون أن تقلِّلي من شأن أي عيب أو نقص فيك، ودون أن تحذفي أي سطر من سطور التجاعيد الخشنة، أو تخفي أي شذوذ لا يعجبك، ثم اكتبي تحتها: (صورة معلمة عديمة الأهل، عديمة المال، عديمة الجمال). وخذي بعد ذلك قطعة من العاج الناعم - ولديك قطعة معَدّة في صندوق الرسم - ثم أخرجي لوحة الألوان، وامزجي أحدثها وأجملها وأزهاها واختاري أرق الأقلام، ثم ارسمي أجمل وجه يمكن أن تتصوَّريه بأخف الظلال، وأبدع الألوان، طبقًا للوصف الذي سمعته من مسز فيرفاكس عن بلانش إنجرام، ولا تنسي حلقات شعرها الأسود كجناح الغراب أو عينيها الشرقيتين... ماذا! إنك ترتدين بخيالك إلى مستر روشستر، لتتخذي منه نموذجك! النظام! لا تدعي أنفك يسيل، ولا مجال للعواطف أو الأسى، ولن أحتمل منك سوى التعقُّل والحزم! تذكَّري الأسارير الجليلة المهيبة، ولكنها مع ذلك منسجمة متناسقة... وتذكري الجيد والنحر الإغريقيين... ووضِّحي للعين الذراع الملفوفة التي تبهر الأنظار، وكذلك اليد البضَّة الرقيقة. وإياكِ أن تحذفي الخاتم الماسي، والسوار الذهب، وارسمي الثوب بأمانة بما فيه من دانتيلا غالية، ودمقس... وكذا الوشاح الجميل والوردة الذهبية... ثم سمِّي ذلك «بلانش... سيدة مهذبة عريقة الأصل». وكلما خُيِّل إليكِ في المستقبل أنك مسز روشستر يحسن بك الظن، أخرجي هاتين الصورتين، وقارني بينهما، وقولي: «من المحتمل أن يظفر مستر روشستر بحب هذه السيدة النبيلة إذا هو آثر النضال من أجل هذا الحب، ولكن هل يحتمل أن يعير فكرة جدية لهذه العامية المعدمة الحقيرة؟ ».

وقلتُ في حزم: «سوف أفعل ذلك». وإذ وطَّدت نفسي على ذلك العزم، هدأت ثم استغرقت في النوم .

وبررت بوعدي.. وكفتني ساعة أو اثنتان لكي أرسم صورتي رسمًا تخطيطيًّا بالقلم. وفي أقل من أسبوعين أتممت صورة مصغرة في لون العاج لبلانش

إنجرام كما تخيلتها، فبدت بوجهها الجميل الذي ما إن قارنته برأسي الذي رسمته بالطباشير، حتى ظهر الفارق شاسعًا يضطرني إلى مزيد من ضبط النفس.. ولقد أفدت من هذه المهمة، لأنها شغلت رأسي ويدَيّ، كما عززت وثبتت الانطباعات الجديدة التي وددت ألّا تمَّحي من قلبي.. وقبل أن ينقضي زمن طويل، كنت محقَّة في أن أهنِّئ نفسي على النظام الناجع الذي أرغمت مشاعري على الإذعان له، إذ إنني استطعت بفضله أن أواجه الأحداث التالية بهدوء يليق بي، ولولا هذا التأهُّب لمواجهة الأحداث، لما أصبحت قادرة على الاحتفاظ بهدوئي - ولو ظاهريًا - أمامها !

الفصل السابع عشر

انقضى أسبوع ولم تصل أنباء جديدة عن مستر روشستر. واكتملت عشرة أيام دون أن يعود. وقالت مسز فيرفاكس إنها لن تدهش إذا هو غادر لياس فاتجه مباشرة إلى لندن. ومنها إلى أوربا، فلا يراه أحد في ثورنفيلد قبل مضي عام.. فلطالما غادرها من قبل بغتة، وعلى غير توقُّع! وبدأت، بعد أن سمعت هذا منها، أشعر ببرودة عجيبة تتملَّك قلبي. كنت أسلم نفسي لإحساس بخيبة الأمل، يجعلني عليلة سقيمة.. بيد أنني سرعان ما تمالكت زمام رشدي، واستجمعت نفسي، وامسكت مشاعري، وتغلبت بقدرة عجيبة على الخطأ الذي كنت أتخبَّط فيه. وأخذت أستبين مدى الخطأ الذي أوحي إلى بأن تحركات مستر روشستر ذات أهمية حيوية بالنسبة لي. ولست أعني أنني حقَّرت من شأن نفسي بالتفكير الذليل في أنني دونه شأنًا ومكانة، بل إنني، على العكس، رحت أقول لنفسي: «ليس لكِ بسيد ثورنفيلد شأن، في ما عدا أنكِ تتناولين المرتب الذي يمنحك إياه في مقابل تعليم الفتاة التي يكفلها، فخليق بك أن تحمدي له فضله إذا هو أوْلاك المعاملة المحترمة الكريمة التي من حقك أن تتوقعيها عندما تؤدين واجبك.. وثقي أن هذه هي الرابطة الوحيدة التي يجوز قيامها بينك وبينه، فلا تتخذيه محورًا لمشاعرك المرهفة، من مسرّات أو شجون، إلى غير ذلك.. إنه ليس من طبقتك، فالزمي مقامك، واحترمي نفسك، ولا تغدقي كل ما في قلبكِ وروحكِ من حب مشبوب على شخص لا ينشده، وحيث لا يقابل مثل هذا الحب بغير الازدراء !».

ومضيت أؤدي عملي بهدوء. ولكن أفكارًا مبهمة ظلَّت تراودني ب عن أسباب تبرِّر لي مبارحة ثورنفيلد. وظللت أصوغ في ذهني إعلانات، وأؤلف تكهّنات بشأن المراكز الجديدة التي قد أحصل عليها إذا أنا تركت مركزي الراهن.. ولم أرَ داعيًا لكبح هذه الأفكار عسي أن تنبت وتؤتي ثمرات .

وبعد أن انقضى على غياب مستر روشستر زهاء أسبوعين. جاء البريد بطمأنينة إلى مسز فيرفاكس. فالتفتت ناحيتي وقالت: «إنه من مستر روشستر، وأظننا سنعلم الآن ما إذا كانت عودته متوقَّعة أو غير مرتقبة !».

وفيما كانت تفض الخاتم الشمع وتتصفَّح الخطاب. أسترسلت في تناول قهوتي، إذ كنَّا على مائدة الفطور. وكانت القهوة ساخنة، فعزوت إليها ذلك

الوميض المتَّقد الذي تورَّد به وجهي فجأة.. أما لماذا ارتجفت يدي؟ ولماذا انسكب في الطبق نصف ما كان في الفنجان؟ فأمور لم أشأ أن أفكر فيها .

وقالت مسز فيرفاكس، وهي ما زالت تمسك بالخطاب: «حسن.. إنني أفكر أحيانًا في أننا نعيش في سكون مفرط، ولكن ها هي الفرصة قد سنحت للانهماك في العمل، لفترة وجيزة على الأقل!». وقبل أن أسمح لنفسي بأن أسألها إيضاحًا، ربطت شريطًا في مريلة أديل صادف أن انفك، كما قدَّمت لها قطعة من الفطائر، ثم أعدت ملء كوبها باللبن.. وأخيرًا قلت في غير اكتراث :

- «أظن من غير المحتمل أن يعود مستر روشستر في القريب العاجل؟ ».

- «بل إنه سيعود بكل تأكيد.. بعد ثلاثة أيام كما يقول، أي في يوم الخميس القادم. ولن يكون بمفرده، وإن كنت لا أدري كم من سادة لياس سيأتون معه، فقد أرسل يوصي بإعداد خير حجرات النوم، وبتنظيف المكتبة وحجرات الاستقبال. وسوف أستعين بفندق جورج في ميلكوت، أو بغيره، لتزويد المطبخ بالأيدي العاملة.. كما أن السيدات سيصطحبن وصيفاتهن. وسيأتي السادة بخدمهم، وهكذا سوف يمتلئ البيت !».

ثم التهمت مسز فيرفاكس فطورها، وهرعت لتبدأ القيام بواجباتها. ولقد ازدحمت الأيام الثلاثة بالعمل كما توقعت، وكنت أحسب أن جميع حجرات ثورنفيلد نظيفة ومرتبة أحسن ترتيب، ولكنني تبيَّنت أنني كنت مخطئة، مما دعا إلى الاستعانة بثلاث نسوة. ولم أرَ في حياتي من قبل ما شاهدته من كنس ومسح ومن غسل الأبواب والنوافذ. ونفض الأبسطة. وإنزال الصور لمسح الغبار ثم إعادتها إلى أماكنها، وصقل المرايا والثريات. وإشعال النار في مدفآت المخادع. وتهوية أغطية الأسرة وحشياتها. وكانت أديل تتواثب بين هذا كله، وكأنما استخفها الطرب لمشاهدي الاستعدادات التي كانت تتخذ لاستقبال الجماعة. والأمل المرتقَب في وصولهم. وكانت تدعو صوفي للعناية بزينتها وملابسها وإعداد ما كان بحاجة منها إلى الكي، وتهوية الجديد منها، ثم ترتيبها! ولم يكن لها من شاغل سوى أن تحوم في الحجرات الأمامية، وتثب فوق الأسرَّة، وتستلقي على الحشيات والوسائد المتراكمة أمام المدفآت التي كانت النار تتلظَّي فيها وترتفع عبر مداخنها. أما الواجبات الدراسية. فقد أُعفيت أديل منها، لأن مسز فيرفاكس طلبت مني معاونتها، فكنت أقضي النهار في مخزن الأطعمة، أعاونها والطاهية، أو بالأحرى أعوقهما! وتعلَّمت كيف أصنع حلوى الكستر، والكعك المحشو بالجبن، والفطائر الفرنسية، وكيف أنظِّف الطيور من ريشها، وأزيِّن صواني الحلوى .

وكان من المرتقب أن تصل الجماعة بعد ظهر يوم الخميس، وأن يُعَدّ العشاء في الساعة السادسة. ولم يعد لديَّ - في تلك الفترة - وقت للاستغراق في أفكاري الواهمة، بل أعتقد أنني كنت كغيري، بادية النشاط والاغتباط. على أنني كنت - بين فترة وأخرى - أصاب بصدمة يفتر معها سروري، فأجدني قد انتقلت على الرغم منِّي إلى عالم من الشكوك والهواجس والتخمينات الكئيبة.. وذلك عندما كانت عيناي تقعان مصادفة على الباب القائم على السلم المفضي إلى الطابق الثالث. وكان قد ظلَّ مغلقًا بصفة مستمرة في الفترة الأخيرة. وكنت أراه من حين لآخر يُفتح ببطء، ثم تنقلت خلاله جريس بول بقلنسوتها النظيفة ومرولتها البيضاء، ووشاحها الناصع.. وكنت أطير سرورًا عندما كنت أراها تنساب إلى خارج الباب، وتتسلَّل في الردهة بخطاها الهادئة المكتومة وهي تنتعل خفيها الرقيقين، وعندما كنت أشاهدها تتطلّع إلى مخادع النوم المليئة بالهرج والمرج، ثم تلقي لإحدى الخادمات، من اللاتي استؤجرن مؤقتًا، بنصيحة عن خير وسيلة لصقل المدفأة، أو تنظيف رفّها الرخامي، أو إزالة البقع عن الجدران المكسوَّة بالورق ثم تهبط إلى المطبخ. وكان من عادتها أن تذهب إليه مرة في اليوم فتتناول غداءها، أو تدخن غليونًا، ثم لا تلبث أن ترجع حاملة عشاءها إلى صومعتها في الحجرة المعتمة التي أفردت لها في الطابق العلوي. ولم تكن تقضي مع زميلاتها سوى ساعة واحدة من كل يوم، أما بقية وقتها، فكانت تقضيه في إحدى الحجرات المنخفضة السقف، والمبنية بخشب البلوط، في الطابق الثالث، حيث تجلس منهمكة في الحياكة، دون ما أنيس أو رفيق، وكأنها سجينة في زنزانة !

وكان أغرب الأمور كلها، أن أحدًا من أهل القصر لم يكن يرقبها أو يعجَب لعاداتها، أو يتحرَّى عن مركزها وعملها، أو يرثي لوحدتها وعزلتها، سواي.. وقد سمعت مرة جزءًا من حديث دار بين ليا وإحدى الأجيرات، وكانت جريس محوره.. وكانت ليا قد قالت شيئًا لم أسمعه، فأجابتها الخادمة: «ولعلها تحصل على أجر طيب؟». فقالت ليا: «نعم. ليتني أحصل على مثل أجرها. لا أعني بذلك أنني أتذمَّر من ضآلة أجري، إذ لا بخل ولا تقتير في ثورنفيلد، ولكنه لا يعدل خُمس ما تحصل عليه جريس، وهي خاملة بلا عمل سوى أن تذهب إلى المصرف في ميلكوت كل ثلاثة شهور، فلا عجب إذا ادخرت ما يكفي لأن تعول نفسها لو أنها شاءت أن ترحل! بيد أنها في ما أعتقد قد ألفت الحياة في القصر، كما أنها لم تتجاوز بعد الأربعين من عمرها، وما زالت قوية قادرة على أي شيء، فلم يئن بعد وقت أن تعتزل العمل ».

فقالت الخادمة: «أظنها تجيد العمل؟». فقالت ليا بلهجة لها مغزاها :

- «آه.. إنها تفهم ما يجب عليها عمله. وليس كل إنسان يستطيع ملء مكانها، ولو أعطي الأجر الذي تتناوله !».

- «ليس الأمر كذلك! إنني لأتساءل هل السيد..؟ ».

وكانت تهم بالاسترسال في حديثها، لولا أن حانت من ليا التفاتة فشاهدتني.. وإذ ذاك لكزت رفيقتها بمرفقها.. وسمعت المرأة تهمس: «أهي لا تدري؟». فهزَّت ليا رأسها، وانقطع الحديث بطبيعة الحال، وكل ما أدركته هو أنه يوجد في ثورنفيلد سرّ وأنني أقصى عمدًا عن معرفة هذا السر .

وقدم يوم الخميس.. وكان كل شيء قد أعدَّ تمامًا في الليلة السابقة.. فازدانت الأسرَّة بستائر وُشِّيت بالزخارف، وبألحفة مشرقة ناصعة البياض. وبمناضد الزينة منسَّقة، وأثاث مصقول، وزهور انتظمت في أوانٍ.. وبدت الحجرات والقاعات في أبهي ما يمكن أن تصنعه أيدي البشر.. وبدا البهو لامعًا، وقد صُقلت الساعة الكبيرة ودرجات السلم وسياجه، حتى بدت برّاقة كالزجاج.. وفي حجرة المائدة، كان الصوان يتألق بما ضم من الأواني، وانتشرت في قاعة الاستقبال ومخادع النوم مزهريات حفلت بأينع الزهور .

وإذ حان الأصيل، ارتدت مسز فيرفاكس ثوبًا من الساتان الأسود كان خير ما لديها من ثياب، وقفازًا، وساعة من الذهب. فقد كان منوطًا بها أن تستقبل السيدات وترافقهن إلى الحجرات المعدّة لهن، وغير ذلك. أما أديل، فقد أمرت مربيتها بأن تلبسها ثوبًا قصيرًا من الحرير، إرضاء لها.. وأما أنا، فلم تكن بي حاجة إلى تغيير ملابسي، لأنني لن أُدعى لمغادرة حجرة الدراسة التي غدت «ملاذًا أرتاح إليه في أوقات الضيق ».

وكان اليوم من أيام الربيع الصافية، المعتدلة، التي تكثر في أواخر مارس وأوائل أبريل، فتفيض على الأرض بهاء وكأنها تبشِّر بوفود الصيف. وبدأ النهار يعتكر، ولكن المساء كان حارًا، فجلست في غرفة الدراسة أشتغل، وقد تركت النافذة مفتوحة.. ودخلت مسز فيرفاكس ترفل في ثوبها ثم قالت :

- «لقد تأخَّر الوقت، ولكني سعيدة لأنني أمرت بإعداد الطعام بعد الموعد الذي ذكره مستر روشستر بساعة.. فها هي ذي الساعة قد بلغت السادسة ولم يحضروا. وقد أرسلت جون ليراقب الطريق، إذ لا سبيل إلى التطلُّع إلى مسافة بعيدة في إتجاه ميلكوت». ثم مضت إلى النافذة وقالت: «ها هو ذا!». وأطلَّت من النافذة تسأل :

- «هل من أنباء يا جون؟ ».

فكان جوابه: « إنهم قادمون يا سيدتي. وسيصلون بعد عشر دقائق !».

وجرت أديل إلى النافذة، فتبعتها متوخية أن أقف جانبًا خلف الستائر، بحيث أستطيع أن أرى دون أن يراني أحد.. وبدت الدقائق العشر التي ذكرها جون طويلة جدًا، ولكنني سمعت أخيرًا جلبة العجلات، ثم تقدَّم أربعة فرسان تتبعهم عربتان مفتوحتان تمتلئان بأوشحة ترفرف وريش يتماوج.. وكان بين الفرسان سيدان في زهرة الشباب، تتجلّي عليهما الجرأة والجسارة، بينما كان الثالث مستر روشستر نفسه، على جواده الأسود - الذي كان يسميه «مسرور» وبايلوت يتواثب أمامه.. وإلى جانبه كانت تركب سيدة، على جواد آخر.. وكان الاثنان في طليعة الجماعة... وكانت بزة ركوب السيدة طويلة، تكاد تكنس الأرض، بينما وشاحها الشفاف يتلاعب مع النسيم، ويختلط بجدائل شعرها الفاحم. وصاحت مسز فيرفاكس: «مس إنجرام !».

وهرولت هابطة إلى حيث كان ينبغي أن تقف، وما لبث الركب أن استدار حول أحد أركان القصر، ثم اختفى عن الأنظار. وتوسَّلت أديل إذ ذاك أن تنزل بدورها، ولكني أخذتها على ركبتي، وأقنعتها بأن من الواجب ألّا تظهر أمام السيدات، سواء الآن أو فيما بعد، إلّا إذا أُرسل في طلبها، حتى لا يغضب مستر روشستر. وكان من الطبيعي أن تذرف بعض الدموع، ولكن ما إن أظهرت لها منتهى الحزم، حتى هدأت وقامت بتجفيف دموعها .

ودوَّت في البهو أصوات الابتهاج.. خليطًا متناسقًا من أصوات الرجال العميقة، ونبرات السيدات التي تشبه رنين الأجراس الفضية، يعلوها صوت سيد ثورنفيلد الرنان وهو يحيي ضيفاته الحسناوات وضيوفه الظرفاء المجتمعين تحت سقفه. ثم سمعت خطوات خفيفه على الدرج، أعقبها وقع أقدام في الردهة، وضحكات ناعمة رقيقة، وضجيج فتح الأبواب وإغلاقها.. وما لبث السكون أن ران لحظة، فقالت أديل التي كانت تتابع كل حركة بانتباه: «إنهن يغيِّرن ملابسهن!». ثم تنهَّدت وقالت بالفرنسية: «عندما كانت ماما تستضيف في بيتها أناسًا، كنت أتبعها أينما ذهبت، سواء في الصالون أو في مخادعهن. وكثيرًا ما كنت أتفرَّج على النساء وهن يسرِّحن شعورهن أو يرتدين ملابسهن.. كان ذلك شائقًا جدًا.. وبهذه الطريقة يتعلَّم الإنسان !».

- «ألا تشعرين بجوع يا أديل؟ ».

- «نعم يا آنسة، فقد مضى علينا أكثر من خمس أو ست ساعات دون أن نأكل شيئًا ».

- «حسنًا.. الآن والسيدات في غرفهن، سأجترئ على النزول لآتيك بشيء تأكلينه ».

وغادرتُ مأواي في حذر، فهبطت سلمًا خلفيًا إلى المطبخ، الذي وجدته زاخرًا بالخدم الذين جاءوا برفقة أسيادهم.. ولكني تمكَّنت من الحصول على ما أريد من طعام وعدت مسرعة.. على أنني ما كدت أبلغ الردهة، حتى سمعت طنينًا نبهني إلى أن السيدات يوشكن على مغادرة حجراتهن.. ولم يكن بوسعي أن أتقدَّم نحو حجرة الدراسة، دون أن أمر ببعض تلك الأبواب. ولكي أتفادى أن أفاجأ بما كنت أحمل من أطعمة، تسمَّرت في مكاني الذي كان مظلمًا لخلوه من النوافذ، وقد اشتدت ظلمته إذ ذاك لغروب الشمس .

وسرعان ما خرجت من الحجرات ساكناتها الجميلات، الواحدة تلو الأخرى، وقد ارتدت كل منهن ثوبًا قشيبًا يلتمع في الأصيل. ووقفن لحظة في طرف الردهة من الناحية الأخرى، فتحدَّثن قليلًا، ثم هبطن الدرج في سكون، وبلا ضوضاء، وكأنهن سحابة مؤتلقة تنحدر من فوق أحد التلال.. ولقد ترك هذا المنظر الجماعي في نفسي أثرًا لأناقة علية القوم لم أعهده من قبل.. ووجدت أديل تسترق النظر من فرجة باب حجرة الدراسة، بعد أن تركته مواربًا، ثم صاحت بالإنجليزية :

- «أوه. بودي لو أذهب إليهن.. أتظنين أن مستر روشستر سوف يرسل في طلبنا بمجرد انتهاء العشاء؟ ».

- «كلا، لا أظن، فلدى مستر روشستر أمورًا أخرى تشغل تفكيره. دعي السيدات وشأنهن الليلة، فلعلك تشاهدينهن غدًا.. هاك طعام العشاء ».

وكانت في الواقع جائعة، ومن ثم شغل لحم الدجاج والفطائر تفكيرها فترة. ولقد أحسنت صنعًا حين أحضرت هذا الطعام، وإلا لتعرضت أنا والفتاة وصوفي، التي أعطيتها قسطًا، للحرمان من العشاء، إذ كان كل إنسان في الطابق الأسفل مشغولًا عنَّا، وقد استغرق العشاء وقتًا طويلًا، فلم تقدم الحلوى إلّا بعد أن جاوزت الساعة التاسعة، ثم أخذ الخدم يهرولون بصينيات القهوة. وظلَّت أديل ساهرة إلى ما بعد موعد نومها، إذ صارحتني بأن النوم لن يواتيها طالما ظلَّت الأبواب في الطابق الأرضي تفتح وتغلق، والناس في هرج ومرج.. هذا إلى أنها كانت تخشى أن يدعوها مستر روشستر بعد أن تكن قد خلعت ثيابها، وعندئذ «أي خسارة تكون!». لهذا انصرفت إلى تسليتها بالقصص، حتى زهدت في الإصغاء فصحبتها إلى الردهة.. وكان البهو في الطابق الأرضي مضاءً، فوجدت الفتاة تسلية في مشاهدة الخدم وهم يروحون ويغدون، حتى

إذا انقضى شطر كبير من الليل، انبعثت من حجرة الاستقبال موسيقي من البيانو الذي نُقل إليها، فجلست وأديل على رأس الدرج نصغي. وسرعان ما ارتفع مع صوت البيانو صوت غنيّ النبرات.. صوت سيدة كانت تغنِّي بأعذب الألحان. ثم شاركها في الغناء رجل، فلما انتهى ذلك الثنائي تعالت الضحكات والمحادثات. ولكنني وقد أصغيت السمع طويلًا، اكتشفت فجأة أن أذنيّ أخذتا تحللان الأصوات التي اختلطت وامتزجت، وتحاولان تمييز صوت مستر روشستر خلالها. وعلى الرغم من أنني وُفِّقت إلى ذلك، فإنني وجدت نفسي أمام مهمة أخرى، هي محاولة استيعاب ما كان يقول !

ودقَّت الساعة الحادية عشرة. فتطلَّعت إلى أديل التي كانت تتكئ إلى كتفي، فإذا بعينيها مغلقتان بالنوم، فحملتها إلى فراشها. أما السادة والسيدات، فلم يأووا إلى حجراتهم إلَّا في الساعة الواحدة صباحًا !

وكان اليوم التالي في جمال سابقه.. كرَّسته الجماعة لرحلة إلى مكان قريب. فانطلقوا قبيل الظهر، بعضهم على ظهور الجياد، والبعض الآخر في العربات. وشهدت الذهاب والإياب، فوجدت أن مس إنجرام ظلَّت - كما كانت من قبل - قِبلة الأنظار.. وكان مستر روشستر يسير بجانبها على جواده كما فعل عند قدومهما، وعلى مبعدة من الآخرين. وأبديت تلك الملحوظة إلى مسز فيرفاكس التي كانت واقفة معي خلف النافذة، وقلت :

- «لقد قلت إنه ليس محتملًا أن يفكرا في الزواج. ولكن انظري كيف يبدو واضحًا أن مستر روشستر يفضِّلها على غيرها من السيدات !».

فأجابت: «نعم.. إنني أجرؤ الآن على القول بأنه معجب بها دون شك !».

- «وهي معجبة به.. انظري كيف تميل برأسها نحوه، وكأنها تهمس إليه بسرٍّ خاص.. كم أود أن أرى وجهها، فإنني لم ألمحه حتى الآن !».

- «سوف تشاهدينها هذا المساء، فقد ألمحت إلى مستر روشستر بأن أديل تهفو إلى أن يقدِّمها للسيدات. فقال: أوه - دعيها تدخل إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء، واطلبي إلى مس إير أن ترافقها ».

- «لا بد أنه قال ذلك تأدّبًا منه فقط.. ولا حاجة بي إلى الذهاب ».

- «لقد أخبرته بأنك لم تتعودي الاختلاط بالناس، وأنني لا أظنك ترتاحين للظهور أمام جماعة مرحة أكثرها من الغرباء، ولكنه أجاب بلهجته السريعة: هراء.. إذا

عارضت فاخبريها بأن هذه رغبتي الخاصة، فإذا أصرَّت على الاعتراض فقولي لها إنني سأجيء بها بنفسي ..!».

- «سأغنيه عن هذا العناء. سأذهب إذا كان لا مهرب أمامي، ولكني سأفعل ذلك كارهة.. هل ستكونين هناك يا مسز فيرفاكس؟ ».

- «كلا، فقد توسَّلت إليه أن يعفيني، فقبل توسّلاتي. والآن سأخبرك كيف تتفادين الاضطراب الذي يلازم المرء حين يلج مكانًا يضطر فيه إلى تكلّف الرسميات، فإن الدخول هو أبغض ما في المهمة: ينبغي أن تذهبي إلى غرفة الاستقبال وهي خالية، أي قبل أن تغادر السيدات حجرة المائدة، واختاري لكِ ركنًا هادئًا، اتخذي فيه مقعدك، ولا حاجة تدعوكِ إلى البقاء طويلًا بعد دخول السادة، إلّا إذا راق لكِ ذلك.. فقط دعي مستر روشستر يراكِ هناك، ثم تسللي دون أن يراكِ أحد !».

- «هل تعتقدين أن أولئك القوم سيمكثون طويلًا؟ ».

- «ربما أسبوعين أو ثلاثة.. لا أكثر، لأن السير جورج لين الذي انتُخب أخيرًا عن مقاطعة ميلكوت سيُضطر إلى السفر إلى لندن بعد عيد الفصح ليتبوَّأ مقعده. كما أعتقد أن مستر روشستر سوف يرافقه، وإنه ليدهشني أن طالت إقامته في ثورنفيلد حتى الآن ».

ورحت أرقب بشيء من الارتياع والفزع اقتراب موعد الذهاب إلى حجرة الاستقبال، ومعي أمانتي أديل التي استخفها الفرح طوال اليوم، بعد أن سمعت بأنها سوف تقدَّم في المساء للمدعوات. ولم تهدأ لها ثائرة إلّا عندما تولَّت صوفي إلباسها ثيابًا، ثم سكنت سكونًا تامًا عندما بدأت عملية تسوية جدائل شعرها، فبدت في رزانة القاضي! ولم تكن بي حاجة بعد أن ارتدت ثيابها إلى أن أنبّهها إلى المحافظة على هندامها، إذ جلست في مقعدها الصغير رصينة، بعد أن رفعت أهداب ثوبها، حتى لا تتسخ، ثم وعدتني بألّا تتحرَّك من مكانها حتى أستعد بدوري.. وسرعان ما فعلت، بأن أرتديت أفخر ثوب لديَّ، وهو الذي اشترته لي مس تمبل في يوم زفافها، وقد ظل محتفظًا بجدته. وسوَّيت شعري، وتزيّينت بحليتي الوحيدة، الدبوس اللؤلؤي، ثم هبطنا الدرج .

وكان لغرفة الاستقبال مدخل آخر غير المدخل المفضي إليها من حجرة المائدة، فوجدناها خالية، والنيران تشتعل في مدفأتها، والشموع تضيء جنباتها. وكانت أديل ما تزال تحت تأثير التهيُّب الذي استبدّ بها، فجلست صامتة لا تنبس بحرف، على المقعد الصغير الذي أرشدتها إليه، ثم جلست أنا بجانب

إحدى النوافذ، وتناولت كتابًا حاولت أن أقرأ فيه.. وجاءت أديل بمقعدها إلى قربي، وسرعان ما لمست ركبتي فسألتها: «ماذا بكِ يا أديل؟ ».

- «هل أستطيع اقتطاف زهرة واحدة من هذه الزهور الفاخرة يا آنسة لأتمم بها زينتي؟ ».

- «إنكِ تبالغين في التفكير في زينتك يا أديل، ولكن في وسعك ذلك ».

ثم تناولت بيدي زهرة من إحدى الزهريات، ثبَّتها في وشاحها، فتنهدت الصعداء، وكأنما كأس سعادتها قد أترعت، وعندئذ أدرت وجهي لأخفي ابتسامة لم أقوَ على كبتها، إذ كان في اهتمام الباريسية الصغيرة البالغ بثيابها ما يدعو إلى الضحك بقدر ما كان يدعو إلى الألم.. وما لبث أن ارتفعت الأصوات الخافتة، عندما تحرَّكت الستارة التي تفصل بين الغرفتين، فظهرت حجرة المائدة وقد انسكبت من ثريّاها الأضواء على طاقم للحلوى من الفضة والزجاج يشغل مائدة مستطيلة. وكانت بعض السيدات يقفن عند المدخل، فما إن دخلن قاعة الجلوس حتى انسدلت الستارة خلفهن، ولم تكن السيدات يزدن على ثمان ولكني خلتهن أكثر، عندما تزاحمن على الدخول. وكانت بعضهن ممشوقات، وأكثرهن يرتدين ثيابًا بيضاء، فلما دخلن وقفت أحييهن في دماثة، فردَّت واحدة أو اثنتان منهن تحيتي بإحناء الرأس، بينما حملقت في وجهي الباقيات. ثم انتشرن في الحجرة، يذكرنني بخطوهن الرشيق بسرب من الطيور البيضاء: واضطجع بعضهن فوق الآرائك والمتكآت، والتف البعض الآخر حول المنضدة، وانحنين على المزهريات، ثم أحطن بالموقد وهنَّ يتحدثن بأصوات خافتة ولكنها واضحة النبرات، مما أوحى لي بأنها عادة فيهن.. ولم أعرف أسماءهن إلّا فيما بعد، ولكن في وسعي أن أذكرها الآن. فأولًا: كانت هناك مسز إيشتون وابنتاها.. وكانت السيدة ذات حُسن وجمال في صباها ولا ريب، وقد ظلَّت محتفظة بهما. أما ابنتاها، فكانت كبراهما، وهي آمي، صغيرة الجسم، متوثِّبة الحركات، تبدو كالطفلة في وجهها وتصرفاتها، في حين كانت الثانية، لويزا، أطول قامة، وأكثر أناقة، لها وجه غاية في الجمال.. كانت الشقيقتان في بهاء الزنبق .

أما الليدي لين، فكانت شخصية قوية، بدينة، في حوالي الأربعين من عمرها، منتصبة القامة، بادية الكبرياء، ترتدي ثيابًا غالية، ويلتمع شعرها الفاحم تحت ريشة لازوردية اللون، وبين طوق من المجوهرات.. وكانت مسز كولونيل دنت أقل أبَّهة في المظهر ولكنها في صفاء النهار: لها قامة ناحلة، ووجه ممتع رقيق، وشعر جميل، وكانت في ثوبها الأسود الساتان ووشاحها الدانتيلا تعجبني أكثر من السيدة السابقة التي كانت تسبح في قوس قزح من الأضواء .

أما الثلاث الملفتات، ولعل الفضل الأول في ذلك راجع إلى طولهن، فكن الليدي إنجرام، أرملة اللورد إنجرام، وابنتيها بلانش وماري.. كن ثلاثتهن من أشمخ الموجودات قامة.. وكانت الأرملة في ما بين الأربعين والخمسين من عمرها، تحتفظ بجمال قدّها، وقد ظل شعرها فاحم السواد، كما بدا تحت ضياء الثريا على الأقل، وكذلك ظلَّت أسنانها كاملة. وكان معظم الناس يعتبرونها من أجمل السيدات بالنسبة لسنها، ولكن هيئتها وأساريرها كانتا تنمّان عن كبرياء لا يُحتمل، وكانت تقاطيع وجهها رومانية، بينما كانت عيناها تومضان بالقسوة والعنف مما ذكرني بعيني مسز ريد.. أرملة خالي! وكانت ابنتاها - بلانش وماري - متعادلتين في تكوين البنية، وإن كانت ماري أرفع جسمًا بالنسبة إلى طولها، بينما كانت بلانش ممتلئة أشبه بديانا ربة الصيد! ولقد أخذت، بطبيعة الحال، أوليها اهتماما خاصًا، أولًا لكي أرى إلى أي مدى كانت تتفق مع ما وصفتها به مسز فيرفاكس، وثانيًا لأرى كم كانت تشبه الصورة المصغَّرة التي رسمتها لها، وثالثًا - وهو الأهم - لكي أرى إلى أي مدى كانت تتفق في رأيي مع ذوق مستر روشستر. وأخيرًا تبيَّنت أنها تتفق في كل شيء مع الصورة التي رسمتها، والأوصاف التي عددتها مسز فير فاكس: رأس نبيل، وكتفان منحدرتان، ونحر جميل، وعينان سوداوان.. أما وجهها فكان يشبه وجه والدتها تمامًا، ويزيد عليه شبابًا، كما كان لها نفس الجبين المنخفض والقسمات المتعالية، ونفس الكبرياء، ولكنها كانت تضحك باستمرار.. وإن كانت ضحكتها تنضح بالتهكم والسخرية، تمامًا كذلك التعبير الذي كان يرتسم على شفتها المقوَّسة في زهوٍ وعجرفة .

ويُقال إن العبقرية هي الاعتداد بالنفس.. وإذا لم أستطِع أن أقول إن بلانش كانت عبقرية، فلست أنكر أنها كانت شديدة الاعتداد بنفسها: فقد خاضت في الكلام عن علم النبات مع مسز دنت. ويبدو أن هذه لم تكن قد درست هذا العلم، وإن قالت إنها تحب الزهور ولا سيما البرية منها.. أما مس إنجرام - بلانش، فكانت على إلمام تام بهذا العلم، فأخذت تكشف عن معلوماتها بافتخار، ثم لاحظت أنها إنما كانت تعبث بالسيدة وتتلاعب بجهلها! وإن دل هذا على شيء من المهارة، إلا أنه ليس دليلًا على طيبة النفس. وكانت تعزف بمهارة، وتغنِّي بصوت رخيم، وتتحدَّث الفرنسية بطلاقة. أما ماري، فكانت أرَقّ وألطف من بلانش، كما كانت أكثر إشراقًا، وأدق قسمات، وقد أُوتيت بشرة أنصع من بشرة أختها التي كانت في سمرة الإسبانيات.. وإنما كان ينقص ماري الشعور بنشوة الحياة.. كان وجهها يفتقر إلى التعبير وإن كانت عيناها تلتمعان، ولم يكن لديها ما تقوله، ولذلك جلست في مقعدها مخلدة إلى الصمت، مسمَّرة في مكانها، أشبه بتمثال.. وكانت الشقيقتان ترتديان أنصع الثياب .

أفكان لي بعد ذلك أن أعتقد أن بلانش إنجرام من النوع الذي يحتمل أن يقع عليه اختيار مستر روشستر؟ لم أستطِع أن أجزم بذلك لأنني لم أكن أعلم بذوقه في دنيا الجمال النسوي، ولو أنه كان يميل إلى العظمة لوجد فيها النموذج للعظَمة، فضلًا عن أنها كانت مهذَّبة وعلى جانب كبير من الرشاقة. ولذلك أعتقد أن معظم السادة كانوا يعجَبون بها، وأنه هو بالذات كان معجبًا بها فعلًا. وبدا لي أنني عثرت على الدليل، ولكي أبدِّد آخر سحائب الشك، تريَّثت لأشاهدهما معًا .

ولا تحسب، أيها القارئ، أن أديل ظلَّت طوال الوقت جالسة لا تتحرَّك في مقعدها عند قدميّ. كلا.. فإنها عندما دخلت السيدات، نهضت ثم تقدَّمت للقائهن بوقار واحترام وقالت لهن في رزانة: «يوم سعيد يا سيداتي!». فنظرت إليها مس إنجرام ساخرة وصاحت: «أوه.. يا لها من دمية صغيرة!». وقالت الليدي إنجرام: «أظنها الفتاة التي يتولَّي مستر روشستر الوصاية عليها.. الفتاة الفرنسية الصغيرة التي كان يتحدَّث عنها». أما مسز دنت فقد تناولت يدها في رفق وطبعت عليها قبلة، بينما صاحت آمي ولويزا إيشتون في صوت واحد: «يا لها من طفلة جميلة!». ثم دعتاها إلى أريكة جلستا عليها، وكادت تختفي بينهما، وراحت تتحدَّث تارة بالفرنسية، وتارة أخرى بانجليزية ركيكة. ولم تسترعِ الصغيرة انتباه الشابات وحدهن، بل اجتذبت انتباه مسز إيشتون والليديَ لين، ونعمت بتدليل الجميع .

وأخيرًا، جيء بالقهوة ودُعيَ السادة للدخول. وظللت جالسة في ظل الستارة التي كادت تحجبني عن العيون.. ودخل الرجال بعد أن أزيحت الستارة التي كانت تفصل بين الحجرتين جانبًا للمرة الثانية.. وكان دخولهم الجماعي كدخول السيدات في روعته: كانوا جميعًا يرتدون الملابس السوداء، ومعظمهم طوال القامة، وبعضهم في زهرة الشباب، والواقع أن هنري وفردريك لين كانا شعلة من نار، بينما كان الكولونيل دنت رجلًا عسكريًا جميلًا. أما مستر إيشتون، قاضي المقاطعة، فكان سيدًا في مظهره، ناصع الشعر، بينما كانت حاجباه وسوالفه تحتفظ بسوادها، مما جعله يبدو كالوالد النبيل الذي يظهر على المسرح.. في حين كان اللورد إنجرام الصغير كشقيقته في طول القامة وجمال المحيَّا، وإن كان يشاطر ماري نظرتها الفاترة، سواء في العاطفة أو الهمَّة، ويبدو أنه كان ينعم بطول الأطراف أكثر مما كان ينعم بنشاط الدم ونشاط الذهن .

وأين مستر روشستر؟ إنه لم يلبث أن أقبل في النهاية.. ولم أكن أنظر إلى القنطرة التي تفصل بين حجرتي المائدة والاستقبال، ولكني مع ذلك رأيته يدخل، وسرعان ما حاولت أن أركز انتباهي في تلك الإبر التي كنت أجدل بها

كيسي الشبكي، وألّا أشغل تفكيري بغير العمل الذي كان بين يدي، وأن أقصر نظراتي على الخرز الفضي والخيوط الحريرية التي كانت في حجري.. على أنني رأيت شخصه بغريزتي، فلم أجد مناصًا من تذكر اللحظة التي شاهدته فيها آخر مرة، عقب أن أديت له ما أعتبره خدمة جليلة، فأمسك بيدي، ثم جعل يتأمل وجهي بعينين تكشفان عن قلب مترع، يتلّهف على الإفضاء بعواطف لي فيها نصيب.. ما كان أقربني إليه في تلك اللحظة! فماذا حدث بعد ذلك وغيَّر موقفه بالنسبة لي؟ لكم غدونا متباعدَين غريبين إلى حد لم أكن أتوقَّع معه أن يجئ ويحدِّثني، ولذلك لم أعجب عندما أتخذ لنفسه مقعدًا في الجانب الآخر من الحجرة، ثم مضى يتحدَّث مع بعض السيدات، دون أن يلتفت نحوي.. وما إن وجدت أن انتباهه قد تركَّز عليهن، وأن في وسعي أن أرنو إليه دون أن يلحظني، حتى تحوَّلت عيناي بالرغم مني إلى وجهه دون أن أقوى على السيطرة على جفونهما التي كانت ترتفع لتحدِّق مقلتاي فيه. ورحت أشخص إليه، وأستشعر في التطلُّع إليه سرورًا شديدًا.. سرورًا غاليًا ولكنه حادّ أليم.. غاليًا كالذهب الإبريز، ولكن له طرفًا كالصلب يخز ويبعث على الألم.. سرورًا كالذي يشعر به رجل أوشك أن يقضي عليه الظمأ، فلما عثر على بئر واستطاع أن يزحف إليها، وجدها مسمَّمة، ولكنه مع ذلك لم يتوان في الانحناء عليها، لينهل من مائها وكأنه جرعات قدسية مباركة !

وما أصدق القائل بأن "الجمال في عين الرائي ". كان وجه سيدي الشاحب الزيتوني اللون، وجبينه الضخم، وحاجباه البارزان الفاحمان، وعيناه العميقتان، وأساريره القوية، وفمه الحازم المتجهِّم.. كانت كل هذه الملامح تنم عن النشاط والعزم والحزم، ولكنها لم تكن جميلة حسب قواعد الجمال! بيد أنها كانت عندي أكثر من جميلة.. كانت زاخرة بمعان وسلطان ملَكا عليّ كل نفسي واستلبا مشاعري فأسلماها إليه ليقيدها، ويفرض عليها سطوته.. إنني لم أكن أرد أن أحبه، وإن القارئ ليعلم كما جاهدت لأنتزع من نفسي ما عثرت عليه من بذور الحب.. ولكن هذه البذور بُعثت من جديد عندما رأيته لأول مرة بعد فراقنا، ونَمَت وترعرعت واستوت على سوقها.. كان يحملني على حبه دون أن ينظر إليَّ !

ورحت أقارنه بضيوفه، فاستصغرت شأن ما أوتيه آل لين من رشاقة وكياسة، وما كان عليه اللورد إنجرام من أناقة يشوبها تنعُّم.. بل ما قيمة وجاهة الكولونيل دنت العسكرية، بجانب ما كان يتبدَّي على مستر روشستر من روح ذاتية طبيعية وقوة خالصة غير مجلوبة؟! لم أشعر بميل أو انعطاف نحو مظهرهم وأساليبهم، وإن خُيِّل إليَّ أن معظم من يرونهم لا يملكون سوى أن يصفوهم بالجاذبية، بينما يصمون مستر روشستر بدمامة الخلقة واكتئاب المنظر! ورأيت السادة يبتسمون ويضحكون فلم يجتذبني شيء من هذا، بل

خُيِّل إليَّ أن لضوء الشموع روحًا تبزَّ ما في ابتسامهم، وإن في رنين الجرس مغزى يفوق ما في ضحكهم.. ورأيت مستر روشستر يبتسم، فإذا بأساريره الكالحة تلين، وإذا بعنيه تزدادان إشراقًا ورقّة، وإذا بأشعتهما حلوة نافذة! وكان في تلك اللحظة يتحدَّث إلى لويزا وآمي إيشتون، فعجبت لهما إذ كانتا تصمدان محتفظتين بهدوئهما أمام تلك النظرة التي بدت لي جد نفَّاذة.. كنت أتوقع أن ترخيا عيونهما وأن تتضرج وجناتهما! على أنني اغتبطت لعدم تأثرهما بأي حال، وقلت في نفسي: إنه ليس بالنسبة لهما كما هو بالنسبة لي. إنه ليس على شاكلتهما ولكنه - في ما أعتقد - على شاكلتي.. بل أنا واثقة أنه كذلك، حتى ليُخيَّل إليَّ من أقاربي، لأنني أفهم لغة وجهه وحركاته.. ولئن باعدت بيننا المراتب والثروة كل التباعد، فإن في ذهني وقلبي ودمي وأعصابي تربطني عقليًا به! فهل كان حقًا أنني قلت منذ أيام قلائل أن لا شأن لي به سوى أنني أتناول مرتَّبي من يديه؟ ألم أحرِّم على نفسي التفكير فيه إلّا على ضوء أنه صرَّاف المرتب؟ يا له من تجديف على الطبيعة! لقد أحطته بكل شعور طيِّب خالص قوي، بدافع من نفسي، ولكن يجب أن أخفي عواطفي وأن أخنق أملي وأن أتذكر أنه لا يستطيع أن يحفل بي كثيرًا! وإذا قلت إنني على شاكلته فليس معنى هذا أنني أوتيت من القوة ما يؤثِّر فيه كما يؤثِّر هو فيَّ، أو أنني أوتيت سحره الجذَّاب، وإنما أعني فقط أنني أشاركه بعض الأذواق والأحاسيس، ولذلك يجب، وأكرِّر ذلك دائمًا، أن نظل بعيدين منفصلين إلى الأبد، ورغم ذلك.. لا بد لي أن أحبه ما ظل بي نفس يتردَّد ورأس يفكر .

وقُدّمت القهوة.. وكانت الحيوية قد شاعت في قلوب السيدات بعد دخول الرجال، فغدون كالقبرات مرحًا وحيوية واستحالت الأحاديث رشيقة طروبة. وراح الكولونيل دنت ومستر إيشتون يتجادلان في أمور السياسة، في حين مضت زوجتاهما تصغيان، بينما أخذت الأرملتان النبيلتان - ليدي لين وليدي إنجرام - تتسامران معًا. أما السير جورج، الذي نسيت أن أصفه، فكان سيدًا ضخم البناء زين الهيئة بادي النشاط، وكان واقفًا أمام أريكتهما وقدح القهوة في يده، وهو يفوه بكلمة بين الفينة والأخرى. وكان مستر فردريك قد اتخذ له مقعدًا بجانب ماري إنجرام ليطلعها على نقوش مجلَّد فاخر، وهي ترنو وتبتسم من حين إلى آخر دون أن تكثر من الكلام على ما يظهر. بينما اتكأ اللورد إنجرام الفارع الطول، الفاتر الهمّة، بذراعيه المعقودتين على ظهر المقعد الذي جلست فيه إيمي إيشتون الصغيرة الحسناء، التي كانت ترفع إليه عينيها وتتحدَّث معه وكأنها عصفور صغير، فقد كانت تحبه أكثر مما تحب مستر روشستر! بينما جلس هنري لين على متكأ عند قدمي لويزا، تشاركه أديل التي راح يحاول أن يكلِّمها بالفرنسية بينما لويزا تضحك من أخطائه .

فمع من كانت بلانش إنجرام تتحادث إذن؟ كانت واقفة بمفردها أمام المنضدة، وقد انحنت في رشاقة على ألبوم للصور وكأنها تنتظر أن يسعي إليها أحد، ولكنها لم تنتظر طويلًا، بل اختارت بنفسها.. إذ كان مستر روشستر قد غادر لويزا وإيمي إيشتون ووقف بمفرده أمام المنضدة من الناحية الأخرى، فتقدَّمت بلانش ووقفت بجانب المدفأة، ثم قالت :

- «كنت أظنك غير مغرم بالأطفال يا مستر روشستر؟ ».

- «لست مغرمًا بهم ».

- «إذن ما الذي أغراك أن تتعهَّد دمية صغيرة كهذه؟ (وأشارت إلى أديل) من أين التقطتها؟ ».

- «لم ألتقطها ولكنها تُركت بين يدي ».

- «كان يجب أن ترسلها إلى المدرسة ».

- «لم يكن ذلك في وسعي، إن نفقات المدارس باهظة ».

- «ولكنك جئتها بمعلمة، فقد شاهدت شخصًا معها منذ قليل.. أتراها خرجت؟ آه، كلا.. ها هي خلف ستارة النافذة.. إنك تستأجرها بالطبع.. وأعتقد أنهما تكلفانك الكثير.. بل الكثير جدًا، لأنك تؤويهما الاثنتين !».

وقد خفت، بل بالأحرى تمنَّيت، أن تدفعه تلك الإشارة من السيدة إلى أن يحول نظره ناحيتي، ووجدتني رغمًا عني، أزداد انكماشًا في الظلال، ولكنه لم يلفت عينيه، بل قال في غير اكتراث وهو يتطلَّع أمامه مباشرة :

- «لم أفكر في الموضوع بعد !».

- «كلَّا.. إنكم معشر الرجال لا تهتمون بالاقتصاد والتدبير. ويجدر أن تسمع رأي ماما في المعلمات، فقد تولَّى تعليمي وتعليم ماري ما لا يقل عن اثنتي عشرة معلِّمة في صغرنا، فكان نصفهن كريهات بغيضات، والنصف الآخر سخيفات، وكلهن هراء.. أليس كذلك يا ماما؟ ».

- «هل تكلمينني يا روحي؟ ».

وأوضحت الشابة لأمها سؤلها لأمها التي ردّت: «لا تذكري يا عزيزتي المعلمات، فإن مجرد ذكرهن يثير أعصابي. لقد قاسيت من قصورهن وشذوذ

طباعهن ما لم يقاسه الشهداء. وأنا أشكر السماء التي خلّصتني الآن منهن ».

وأنحنت مسز دنت على السيدة الطيبة! وهمست شيئًا في أذنها. وتبيَّنت من الرد أنها كانت تنبهها إلى وجود واحدة من هذا الجنس اللعين، إذ قالت الليدي: «فليكن! ولعلها تفيد!». ثم استطردت بصوت خافت ولكنه ما زال عاليًا بحيث أسمعه: «لقد لاحظتها، وأنا ماهرة في علم الفراسة، وأرى فيها كل عيوب طائفتها !».

فسألها مستر روشستر بصوت عال: «وما هذه العيوب يا سيدتي؟»، فأجابت وهي تهز قلنسوتها ثلاث هزات وكأنها تنذره بخطورة ما لديها :

- «سأهمس بها في أذنك !».

- «ولكن حب الاستطلاع سوف يفتر أمام شهوتي للطعام، فإن نفسي تهفو الآن للعشاء » (4).

- «سل بلانش فإنها أقرب إليك مني !».

- «لا تحيليه عليّ يا ماما! ليس لديَّ غير كلمة واحدة عن تلك الفصيلة كلها: إنهن أذى! ولا أعني أنني قاسيت منهن كثيرًا، لأنني كنت أعكس عليهن الأمر، فكم دبَّرت مع تيودور مكائد ضد معلماتنا مس ويلسن ومسز جريز ومدام جوبير... أمَّا ماري فكانت أكسل من أن تشترك في مكائدنا بحماسة. وكان أبدع مزاحنا مع مدام جوبير، أما مس ويلسن فكانت مخلوقة مسكينة، بدينة، سريعة البكاء، كسيرة الخاطر، وقصارى القول أنها لم تكن أهلًا لأن نتجشَّم عناء محاولة التغلُّب عليها. بينما كانت مسز جريز فظَّة عديمة الإحساس، لا تتأثَّر بأي لطمة، ولكن مدام جوبير كانت مسكينة، وما زلت أذكرها وهي هائجة مائجة عندما أخرجناها عن طورها فأراقت شاينا وفتَّتت خبزنا وزبدنا، ثم طوَّحنا بكتبنا إلى السقف، وأحيينا حفلة مستعملين المسطرة والمنضدة وحاجز الموقد وأسياخ النار.. أتذكر يا تيودور تلك الأيام المرحة؟ ».

فأجابها اللورد إنجرام متشدِّقًا: «نعم. أذكرها بكل تأكيد. وكانت العصا، كما كنا نسمِّي تلك النحيلة العجوز، تصرخ: «يا لكم من أطفال أشقياء!». فكنا نعِظها ألّا تحاول تعليم صغار أذكياء مثلنا، ما دامت هي نفسها جاهلة !».

- «كنا نفعل ذلك حقًا. وكنت أساعدك يا تيودور على تعذيب واضطهاد معلمك الممتقع الوجه مستر فايننج الذي أباح لنفسه أن يتبادل الحب مع مس ويلسن،

وقد رأيناهما يتبادلان النظرات والتنهّدات ثم انفضح أمرهما، فطردتهما ماما! أليس كذلك يا والدتي النبيلة؟ ».

- «بلا شك وقد أحسنتِ صنعًا. واعلمي أن هناك ألف سبب يدعو إلى عدم احتمال أي علاقة بين المعلمين والمعلمات في منزل تُراعَى فيه النظم. وأول هذه الأسباب ...».

- «أوه يا أمي الكريمة. وفري علينا عناء تعداد هذه الأسباب فكلنا نعرفها: خطر القدوة السيئة للأطفال الأبرياء، وتشتيت الأفكار، وما ينجم عن ذلك من إهمال الواجب، وما يلازم ذلك من قحة وعصيان وتقريع عام.. هل أنا مصيبة يا بارونة إنجرام؟ ».

- «أنتِ يا زنبقتي مصيبة الآن.. وعلى الدوام !».

- «إذن فلا حاجة إلى مزيد من الكلام، ولنغير الموضوع ».

ولكن إيمي لم تسمع هذه الإشارة، أو لم تكترث بها فقالت بصوت ناعم كصوت الأطفال :

- « لقد اعتدت ولويزا أن نتهكَّم على معلمتنا كذلك، ولكنها كانت مخلوقة طيبة، تحتمل كل شيء، فلم تغضب منَّا قط. أليس كذلك يا لويزا؟ ».

- «بلي يا إيمي.. كنَّا نفعل ما يروق لنا: نسطو على درجها وصندوق أشغالها، ونقلب محتويات كل الأدراج. ولكنها كانت طيبة القلب، لا تبخل ولا تضنّ علينا بأي شيء كنا نطلبه ».

وقالت مس إنجرام وهي تلوي شفتيها في سخرية وتهكُّم: «أظننا الآن قد أخذنا فكرة موجزة عن جميع المعلمات، ولكي نتفادى أي عقوبة، أرى أن نتحوَّل إلى موضوع آخر، فهل تقرّني على هذا الرأي يا مستر روشستر؟ ».

- «أنا أؤيدك يا سيدتي في هذا الرأي كما أؤيدك في غيره ».

- «إذن سآخذ على عاتقي فتح الموضوع الآخر. سنيور ادواردو، هلا نميل الليلة للغناء؟ ».

- «إذا أمرتِ يا دونا بيانكا !».

- «إن إرادتنا الملكية تقضي بأن تهيئ رئتيك وغيرهما من أعضائك الصوتية يا سنيور لتكون في خدمة جلالتي !».

- «من ذا الذي لا يريد أن يغنّي بمصاحبة عازفة كلها قدسية وسنا مثلك !».

فصاحت بلانش :

- «لست أحفل بالمغني.. إنني أعتقد أن عازف الكمان دافيد شخص موهوب ولا بد، على أنني أحب بوثويل الأسود، ففي رأيي أن الرجل لا قيمةله ما لم يكن فيه شيء من طيب الشيطان ورائحته! وليقل التاريخ ما يقول عن جيمس هيبورن - مثلًا - فإني أراه البطل قاطع الطريق، الوحشي، الضاري، الذي لا أتردَّد في أن أقبله زوجًا !».

فصاح روشستر: «أتسمعون يا سادة؟ من منكم إذن يشبه بوثويل؟؟». فأجاب الكولونيل دنت: «أظن الاختيار قد وقع عليك بالذات !».

- «أشكرك كثيرًا ».

وبرشاقة متكبّرة، جلست مس إنجرام إلى البيانو، ونشرت ثوبها الثلجيّ الفضفاض حولها كأنها ملكة، ثم استهلّت العزف بمفتتح رائع، وهي تتحدَّث في الوقت نفسه! وقد بدت شديدة الاعتداد بنفسها في تلك الليلة، ترمي من وراء كلماتها وحركاتها إلى إبهار المستمعين، لا إثارة إعجابهم فحسب! كان جليًا أنها تعمد إلى التظاهر بالإقدام والجرأة في الرأي، لتذهلهم. فقد صاحت وهي تعزف على البيانو :

- «أوه. لقد سئمت شبَّان اليوم! إنهم مخلوقات مسكينة. غير مؤهّلين لأن يخطو الواحد منهم خطوة واحدة، أبعد من حديقة بابا، ولا حتى أن يبلغ باب هذه الحديقة إلّا بإذن من ماما وتحت رعايتها! إنهم تافهون! يستغرقهم الاهتمام بوجوههم الجميلة، وأيديهم البضة، وأقدامهم الصغيرة، كما لو كان للرجل شأن بالجمال! وكأنما الملاحة ليست امتيازًا مقصورًا على المرأة، وحقًا منحته الطبيعة لها، وميراثًا موقوفًا عليها! إنني أعتبر المرأة الدميمة وصمة في جبين الخليقة الجميل.. أمَّا الرجال فيجب ألّا يشغل خواطرهم سوى أن يتمتعوا بالقوة والشجاعة، وليكن شعارهم : "الصيد والقنص والقتال "! أما ما عدا ذلك فلا يساوي قلامة ظفر. هذا هو نهجي لو أنني كنت رجلًا!». وتوقَّفت عن حديثها لحظة، لم يقاطعها فيها أحد، ثم استرسلت: «إنني مصممة على ألّا يكون زوجي، إذا تزوجت، منافسًا لي، وإنما سيفًا مشحوذًا، فلست أطيق أن

يزاحمني على عرشي، ولا أن يقسم عواطفه بيني وبين الصورة التي تطالعه في المرآة. والآن، غنِّ يا روشستر، وسأعزف لك ».

فكان جوابه: «كلي طاعة !».

- «هيا نغني أغنية من أغنيات القرصان، ولتعلم أنني أهيم بالقراصنة ».

- «إن أوامر تلقيها شفتا مس إنجرام كفيلة بأن تبعث روحًا وحياة في وعاء من اللبن والماء ».

- «حذار إذن من ألّا يروق لي غناؤك فأخجلك بأن أريك كيف تُغنّى هذه الأغنية ».

- «هذا إغراء بالعجز، ولذلك سأبذل ما استطعت حتى لا أوفّق ».

- «ضع في حسبانك أنك لو أخطأت متعمِّدًا، فسوف أبتكر عقوبة مناسبة !».

- «على مس إنجرام أن تكون حليمة، لأن في وسعها أن توقع عقوبة لا يحتملها بشر ».

- «ها.. أوضح.. فسِّر !».

- «معذرة يا آنسة.. لا حاجة إلى شرح، إذ ينبغي على إحساسك المرهف أن يخبرك بأن تقطيبة واحدة، تغني عن عقوبة الإعدام ».

فصاحت: «غنِّ!». ثم لمست البيانو مرة أخرى، وراحت تصاحبه وهو يغنِّي بإيقاع زاخر بالحياة.. وقلت في نفسي: «حان أن أتسلل إلى الخارج!». ولكن الصوت الذي تخلّل اللحن سمَّرني في مكاني. لقد أخبرتني مسز فيرفاكس أن مستر روشستر عذب الصوت، والواقع أنه غنَّى بصوت رخيم قويّ عميق، ألقى فيه شعوره وقوته فنفذا من الأذن إلى القلب، حيث أيقظا الأحاسيس بصورة عجيبة.. وانتظرت حتى انتهت آخر النبرات العميقة الزاخرة، وعاد الحديث يتدفَّق من جديد بعد أن كان قد توقَّف لحظات. وعندئذ بارحت الركن الذي كنت ألوذ به، وخرجت من الباب الجانبي الذي كان لحسن الحظ على مقربة مني، ثم أفضى بي ممر إلى البهو. وفيما كنت أجتازه تبيَّن لي أن صندلي مفكوك، فتوقَّفت لأربطه، وركعت من أجل ذلك على بساط عند أول الدرج. وسمعت باب قاعة المائدة يُفتح، ليخرج منه أحد السادة. وعندما نهضت على

عجل، وجدتني وجهًا لوجه معه.. مع مستر روشستر، الذي سألني: «كيف حالك؟ ».

- بخير يا سيدي .

- «لماذا لم تأتِ وتحدّثيني في قاعة الاستقبال؟ ».

وفكَّرت في أن ألقي عليه نفس السؤال، ولكني لم أشأ أن أمنح نفسي تلك الحرية فأجبت: «لم أشأ أن أضايقك، لأنك كنت مشغولًا يا سيدي ».

- «ماذا كنتِ تفعلين أثناء فترة غيابي؟ ».

- «لا شيء بالذات.. كنت أعلِّم أديل كالمعتاد ».

- «وكنت تزدادين شحوبًا عمَّا كنتِ عندما رأيتكِ لأول مرة! ماذا جرى؟ ».

- «لا شيء يا سيدي، لا شيء مطلقًا ».

- «هل أصابك برد في تلك الليلة، عندما كدت تغرقينني؟ ».

- «كلا إطلاقًا ».

- «عودي إلى قاعة الاستقبال، فقد غادرتِها مبكرة جدًا ».

- «أنا متعَبة يا سيدي ».

فتأمَّلني لحظة ثم قال: «ومكتئبة قليلًا.. لماذا؟ أخبريني !».

- «لا شيء.. لا شيء يا سيدي. لستُ مكتئبة ».

- «ولكني أؤكد لكِ أنكِ كذلك.. مكتئبة جدًا بحيث تكفي بضع كلمات أخرى لأن تملأ عينيكِ بالدموع.. بل إنني أرى الآن دمعة تلتمع فيهما وتسبح، وها هي ذي تسلك من خلال الأهداب إلى الوجنة. ولو كان لديَّ متسع من الوقت ولا أخشى أن يمر بنا خادم ثرثار، غرّ مهذار، لعرفت ماذا يعني كل هذا! حسنًا، سألتمس لكِ العذر الليلة، ولكن اعلمي أن عليكِ أن تظهري بحجرة الاستقبال كل مساء. هذه رغبتي فلا تهمليها. والآن اذهبي وارسلي صوفي إلى أديل. طابت ليلتك يا ...».

ثم توقّف عن الكلام، وعضَّ شفته وغادرني فجأة !

الفصل الثامن عشر

كانت هذه الأيام في قصر ثورنفيلد مرحة طروبًا، بقدر ما كانت زاخرة بالعمل والنشاط.. وكم كانت تختلف كل الاختلاف عن الشهور الثلاثة الأولى التي قضيتها تحت سقف ذلك القصر في سكون وتواتر رتيب ممل، وعزلة موحشة. وخُيِّل إليَّ أن جميع المشاعر الحزينة قد أقصيت عن القصر، وأن كل الإحساسات الكئيبة قد نُسيت، لتحل محلها الحياة النابضة في كل مكان، ولتشيع الحركة طوال كل يوم.. ولم يعد في وسعك الآن أن تجتاز الردهة التي كانت فيما مضى ساكنة هادئة، أو تدخل الحجرات الأمامية، التي كانت يومًا ما خالية من الناس، دون أن تلتقي بوصيفة رشيقة لإحدى السيدات، أو خادم متأنّقٍ لأحد السادة.. وكذلك كان المطبخ ومخزن الساقي وقاعة الخدم والبهو الأمامي، كلها زاخرة بالحياة. ولم تكن غرف الاستقبال تخلو وتهجع إلّا عندما ينطلق سكانها إلى الخلاء بدعوة من السماء الزرقاء والشمس الهادئة في ذلك الربيع البهيج. وحتى عندما كان الطقس يعتكر، أو كانت السماء تمطر بلا انقطاع، لم تكن أي رطوبة تقوى على أن تصد المدعوين عن الاستمتاع بإقامتهم. إذ سرعان ما كانت تتضاعف ضروب التسلية المنزلية وتتنوّع، بسبب توقف أسباب اللهو في الخارج .

ولقد تساءلت عمَّا سوف يفعلونه في أول مساء اقتُرح فيه إجراء تعديل على ما اعتادوا من أسباب التسلية، فإذا بهم يتحدَّثون عن التندُّر بالألغاز والأحاجي. غير أني لجهلي لم أفهم ما كانوا يقصدون.. وسرعان ما استُدعي الخدم، ونُقلت موائد حجرة الطعام، ووُزّعت الأنوار توزيعًا جديدًا، ووضعت المقاعد في نصف دائرة في مواجهة القنطرة التي تفصل بين الحجرتين.. وبينما كان مستر روشستر وسائر السادة يشرفون على هذه التغييرات، كانت السيدات يذرعن الدرج صاعدات نازلات، وهن ينادين وصيفاتهن . كما استُدعيت مسز فيرفاكس لتدلي لتُسأل عمَّا في القصر من أوشحة وملابس وأقمشة من كل نوع، وفُتحت صواوين خزانات خاصة في الطابق الثالث، ثم أُخرجت محتوياتها من جونيلات موشَّاة مستديرة كالأطواق، وأزياء سوداء وغلالات حريرية، وثياب بأهداب مزركشة بالدانتيلا.. إلى غير ذلك من أشياء أرسلت إلى الطابق الأرضي مع الخادمات، فاختيرت منها مجموعة أُرسلت إلى مقصورة تتصل بحجرة الاستقبال.. في تلك الأثناء، عاد مستر روشستر يستدعي السيدات ليلتففن حوله، وشرع يختار من بينهن عددًا تتألف منه فرقته، وهو يقول: «ستكون مس إنجرام من زمرتي بطبيعة الحال!». ثم اختار أخريات هنّ آمي إيشتون وشقيقتها لويزا ومسز دنت، وبعد ذلك التفت إليَّ، وكنت بالمصادفة

قريبة منه أثبِّت لمسز دنت مشبك سوارها الذي كان قد انفك، فسألني: «هل تلعبين؟». وهززت رأسي رافضة، فلم يلحّ. وكنت أخشى أن يفعل، ولكن تركني أعود في هدوء إلى مقعدي المعتاد، ثم انسحب مع زميلاته خلف الستار، بينما جلست الزمرة التي يرأسها الكولونيل دنت على المقاعد التي صُفَّت على شكل هلال. ولمحني مستر إيشتون، وبدا أنه اقترح إشراكي معهم، ولكن الليدي إنجرام رفضت الاقتراح على الفور، إذ سمعتها تقول :

- «كلا.. لن أقبل ذلك. فهي تبدو من الغباء بحيث لا تستطيع الاشتراك في لعب من أي نوع ».

وقبل أن تنقضي فترة طويلة، دقّ الجرس وارتفعت الستارة. ومن خلال القبو، شُوهد السير جورج لين الذي كان مستر روشستر قد اختاره ضمن فريقه، وقد التف بملاءة بيضاء، وانفتح أمامه على إحدى المناضد كتاب ضخم، ووقفت بجانبه آمي إيشتون تتدثَّر بمعطف مستر روشستر، وتمسك في يدها كتابًا آخر.. وقرع الجرس في مرح شخصٌ لم نره، وإذ بالصغيرة أديل، وقد أصرَّت على أن تكون من فريق الوصي عليها، تثب إلى الأمام، فتنتشر حولها الزهور من سلة كانت تحملها على ذراعها، ثم ظهرت مس إنجرام بقامتها البديعة، وقد ارتدت حلة بيضاء واتشحت بوشاح طويل والتف حول جبينها إكليل من الورود، وإلى جانبها كان يسير مستر روشستر، ثم اقتربا معًا وركعا أمام المنضدة. بينما اتخذت مسز دنت ولوزيا إيشتون مكانيهما خلفهما، وقد ارتدتا ملابس بيضاء، وتلا ذلك احتفال صامت كان من السهل أن تتبيَّن فيه حفلة زواج ما إن انتهت حتى تشاور الكولونيل مع أفراد زمرته متهامسين ثم صاح الكولونيل: «عروس!».. وإذ ذاك انحنى مستر روشستر، وهبطت الستارة، إذ عُرف ما يرمز إليه المشهد !

وانقضت فترة غير وجيزة، قبل أن ترتفع الستار مرة أخرى. وكشف ارتفاعها في هذه المرة عن مشهدٍ أكثر تنسيقًا من سابقه، إذ لاحظت أن حجرة الاستقبال قد رُفعت درجتين عن مستوى غرفة الطعام ووُضع على قمة الدرجة العليا حوض كبير من الرخام عرفت فيه أحد الأحواض التي تزيِّن البيت الزجاجي في الحديقة، ولا بد أنهم تكبَّدوا عناء في نقله، لكبر حجمه وثقله! وبجانب هذا الحوض، شُوهد مستر روشستر جالسًا على البساط، وقد ارتدى أوشحة، ووضع على رأسه عمامة! وكانت عيناه الحالكتان ولونه الأسمر وأساريره الشرقية، توائم ثيابه كل المواءمة، فبدا نموذجًا رائعًا لأمير شرقي. وسرعان ما ظهرت مس إنجرام وقد ارتدت بدورها ثوبًا شرقيًا ولفَّت حول خصرها وشاحًا قرمزيّ اللون وعقدت حول رأسها منديلًا موشًّى ورفعت إحدى ذراعيها البضَّتَيْن تسند بها جرَّة وضعتها برشاقة على رأسها، فكانت أشبه

بأميرة يهودية في العهود القديمة، بقوامها ووجهها ولون بشرتها وشكلها العام.. وكان ذلك هو الدور الذي تودّ بلا ريب أن تمثّله .

واقتربت من الحوض وانحنت كأنها تتأهَّب لتملأ جرَّتها، ثم رفعت رأسها مرة أخرى، فتظاهر الجالس على حافة البئر بأنه يخاطبها ويلتمس منها شيئًا، فبادرت تنزل جرّتها وتقدمها له ليشرب، وعندئذ أخرج من صدر ثوبه علبة فتحها وأخذ منها أساور وقرطين، فتظاهرت بالدهش والإعجاب، ثم طرح الحليّ الغالية عند قدميها، وثبت الأساور حول ذراعيها، والقرطين في أذنيها.. تمامًا كالمشهد الذي ورد في التوراة في قصة عازر ورفقة، لا تنقصه سوى الإبل !

ومرة أخرى تلاصقت رؤوس ثلّة المتكهنين.. وكان جليًا أنهم لم يتفقوا على الكلمة أو العبارة التي يصوِّرها ذلك المشهد، وأخيرًا تساءل الكولونيل دنت: «لوحة الكل؟»، وإذ ذاك نزلت الستارة مرة أخرى.. وعندما ارتفعت لثالث مرة لم يظهر من غرفة الاستقبال سوى جزء منها، وحجبت الباقي ستارة من قماش داكن خشن.. وكان الحوض قد نُقل لتوضع في مكانه منضدة من خشب أبيض ومقعد من مقاعد المطبخ، يكشفهما للأنظار نور خافت ينبعث من مصباح ذي غطاء من الباغة، بعد أن أطفئت جميع الشموع. ووسط هذا المنظر المتواضع، جلس رجل وقد اتكأ على ركبتيه بيدين مقبوضتين، مطرقًا إلى الأرض، فعرفت فيه مستر روشستر على الرغم من وجهه الملوَّث وملابسه المشعثة، إذ كان معطفه يتدلّى عند إحدى ذراعيه كما لو كان قد تمزَّق ظهره في عراك. وعلى الرغم من أساريره اليائسة المتجهِّمة، وشعره الكث المنتفش، عرفت معالمه.. وفي ما كان يتحرَّك سمعنا صليل سلسلة تكبل قدميه ومعصميه. وصاح الكولونيل: «إصلاحية!». وبهذا انحل اللغز .

ثم انقضت فترة كافية لأن يستعيد الممثلون ثيابهم العادية ويرجعوا إلى حجرة الطعام، ودخل مستر روشستر يقود مس إنجرام التي كانت تطري براعته في التمثيل قائلة :

- «أتعلم، لم أحبك كما أحببتك في شخصيتك الثالثة؟ أيّ قاطع طريق شهم مغوار كان يُحتمل أن تصبح لو أنك كنت في سن أصغر ببضع سنوات؟ ».

فسألها وهو يحول وجهه نحوها: «هل زال كل السناج عن وجهي؟ ».

- «نعم للأسف. إذ لا شيء يتناسب مع وجهك مثل هذا الطلاء الذي ينم عن إجرام !».

- «إذن فأنتِ تتمنين بطلًا يكون من قطّاع الطرق؟ ».

- «إن بطلًا إنجليزيًا من قطَّاع الطرق يلي في الأهمية عندي قاطع طريق إيطاليًا، ولا يبزهما سوى قرصان من الشرق ».

- «حسنًا. مهما أكن فلا تنسي أنني زوجك، بعد أن عُقد قراننا منذ ساعة أمام جميع هؤلاء الشهود !».

فقهقهت عاليًا وقد تضرَّجت وجنتاها. واسترسل مستر روشستر يقول :

- «والآن جاء دورك يا دنت !».

وما إن انسحبت الثُلة الأخرى حتى احتل روشستر وفرقته الأماكن الشاغرة. فجلست مس إنجرام على يمين زعيمها، بينما ملأ المتكهّنون الآخرون سائر المقاعد. ولم أعد إذ ذاك أرقب الممثلين، ولا عدت أنتظر رفع الستارة في لهفة وشوق، وإنما استأثر المتفرجون بكل انتباهي.. وأخذت عيناي تنجذبان على الرغم مني، ودون أن أملك مقاومة، نحو المقاعد المصطفَّة في نصف الدائرة، بعد أن كانتا عالقتين بالقنطرة التي تفصل بين القاعتين.. بل إنني لم أعد أفقه أي مشهد كان الكولونيل وفريقه يمثلونه، ولا أي كلمة وقع عليها اختيارهم، ولا كيف انطلقوا بعد ذلك.. لكني ما زلت أسمع المشاورة التي كانت تعقب كل مشهد، وأرى مستر روشستر وهو يستدير إلى مس إنجرام، وأراها وهي تستدير له. كما شاهدتها وهي تميل برأسها حتى تمس كتفه بجدائلها الفاحمة وتترك خصلاتها تتموَّج على وجنته! والحق أنني ما زلت أذكر حتى الآن بعض ما شعرت به في تلك الحظة إزاء ذلك المنظر .

ولقد أخبرتك - أيها القارئ - أنني تعلَّمت أن أحب مستر روشستر: لم يكن في وسعي ألّا أمضي في حبه لمجرَّد أنني وجدته يكف عن الاهتمام بي، أو لأنني كنت أقضي ساعات في حضرته فلا يحوِّل عينيه نحوي مرة واحدة، أو لأنني رأيت كل اهتمامه قد استحوذت عليه سيدة عظيمة لا تقبل أن يمسَّني طرف ثوبها أثناء مرورها، وتبادر فتشيح بعينيها السوداوين عن وجهي إن صادف أن وقعتا عليَّ وكأنها تحولهما عن شيء أحقر من أن يستأهل أي ملاحظة أو اهتمام! نعم، لم أقوَ على أن أكف عن حبه لمجرد أنني تأكدت من أنه لن يلبث أن يتزوَّج من هذه السيدة بالذات، ولا لأنني أقرأ نواياه نحوها في ما كان يبدو عليها من اطمئنان متعجرف، ولا لأنني كنت أشهد منه نحوها في كل ساعة ضربًا من التودد اللامبالي الذي يرمي إلى حملها على أن تجري هي وراءه، إلّا أنه كان في لامبالاته آسرًا، وفي عجرفته جارفًا لا يُقاوَم !

لم يكن في هذه الظروف ما يخفِّف من وقدة الحب أو يقصيه، بل كان فيها ما يدعو لليأس والقنوط. ولعل القارئ يرى في كثير من هذه الظروف ما يثير الغيرة، إذا كان في وسع امرأة في مكاني أن تغار من امرأة في مكان مس إنجرام، ولكنني لم أكن غيورًا أو أنني لم أشعر بالغيرة إلّا في ما ندر، لأن طبيعة الألم الذي كنت أقاسيه لا تنطوي على شيء من معنى هذه الكلمة.. لقد كانت مس إنجرام تحت مستوى الغيرة، أي أضأل من أن تثير هذه الشعور، ومعذرة لهذا القول الذي يبدو متناقضًا في ظاهره، فإنني أعني أن أقول: إنها كانت رائعة في مظهرها، ولكنه لم يكن مظهرًا أصيلًا. وكانت حسناء ذات ميزات عديدة مشرقة، ولكن عقلها كان خاويًا بقدر ما كان قلبها مجدبًا بطبيعته، لا تتفتَّح في تربته زهرة من تلقاء نفسها، ولا تينع ثمرة إلّا عنوة واصطناعًا.. أجل، لم تكن طيبة النفس، ولا صادقة في مظهرها، ولقد كانت تردِّد ما تقرؤه في الكتب من عبارات طنَّانة، دون أن تعرض رأيًا أو تكون لها فكرة خاصة أصيلة، كما كانت تتظاهر بالإحساسات المرهفة دون أن تعرف كيف تعطف وتترفَّق لأنها مجرَّدة من الصدق والحنان. ولطالما كشفت عن هذه الحقيقة بما كانت تنفّس به دون داعٍ من كراهية حقود للصغيرة أديل، فكانت تدفعها بغلظة واحتقار إذا اقتربت منها مصادفة، بل إنها كانت تطردها أحيانًا من الحجرة وتعاملها على الدوام ببرود وخشونة. وكانت عيون أخرى غير عيني ترقب هذه الظواهر الخلفية عن كثب وباهتمام ودقة.. نعم كان مستر روشستر - عريس المستقبل بالذات - يفرض رقابة مستمرة على العروس المزمعة، ومن هذه الفطنة، وهذا الحذر، وهذا الوعي منه لعيوب حسنائه، كان ينبع الألم الذي راح يضنيني! فقد رأيت أنه سوف يتزوجها لاعتبارات عائلية، وربما لأسباب سياسية، لأن مركزها وعلاقاتها كانت تلائمه. وشعرت بأنه لم يمنحها قلبه، لأن مؤهلاتها لم تكن جديرة بأن تفوز بهذا الكنز منه. وكانت هذه هي النقطة! النقطة التي مسَّت الأعصاب وأثارتها.. النقطة التي أكدت الحمَّى وغذتها، أي أنها لم تستطِع أن تخلب لبه وتستهوي قلبه !

ولو أنها وُفِّقت إلى الظفر في الحال، فخضع واستسلم لها ووضع قلبه عند قدميها، لغطيتُ وجهي واستدرت إلى الجدار، ولآثرت الموت - على سبيل المجاز - من أجلهما.. ولو أن مس إنجرام كانت امرأة طيبة نبيلة، وهبت القوة والحماسة والحنان والعقل، لوجدتني في نضال مع أمرين: الغيرة والقنوط! كنت إذ ذاك لا أملك إلّا أن أعجب بها ولو تمزَّق قلبي وتبدَّد، اعترافًا بتفوقها، ولقضيت بقية أيامي في هدوء وسكينة.. وكلما زاد تفوقها المطلق، تضاعف إعجابي بها وميلي للحياة الهادئة. أما وقد كانت الأمور على ما ذكرت، فإن مشاهدة جهود مس إنجرام لتفتن مستر روشستر، ومشاهدة ما كانت تمني به من فشل.. فشل لم تكن تفطن إليه، وإنما كانت تخال أن كل رمية كانت تصيب المرمى، فكانت تزدهي مغترَّة بأنها نجحت. في حين أن كبرياءها

واعتدادها بنفسها كانا يقصيان عنها الرجل الذي شاءت أن تقتنصه وتستهويه.. كانت مشاهدة هذا كله، تسلمني إلى انفعال لا ينقطع، وإلى كبت لا يرحم !

ذلك أنني كنت أرى - عندما فشلت هي - كيف كان من الممكن أن تنجح. كنت أعلم أن السهام التي كانت ترتطم بصدر مستر روشستر ثم تسقط عند قدميه دون أن تنال منه، كانت خليقة بأن تهز قلبه المتكبِّر، وأن تبعث الحب في نظراته العابسة، وأن تلين من وجهه الساخر، لو أن اليدين اللتين أطلقتاها كانت أبرع وأكثر ثباتًا من يدي مس إنجرام.. وأكثر من هذا، كنت أعلم أن غزو قلب مستر روشستر كان ميسورًا دون ما أسلحة !

ورحت أسائل نفسي: «لماذا لا تقوى على أن تكون أكثر تأثيرًا عليه، وقد تسنَّى لها أن تقترب منه إلى هذا الحد؟ إنها ولا شك لا تستطيع أن تحبه حبًا صادقًا، ولا تستطيع أن توليه قلبًا زاخرًا بالحب، وإذن فلا حاجة بها إلى رسم الابتسامات على شفتيها بهذا الإسراف، ولا إلى بذل نظراتها بغير حساب، ولا إلى اصطناع هذه المظاهر البالغة الإتقان، وهذه الرشاقة المتعدِّدة الألوان.. وإنما يخيَّل إليَّ أنها تغدو أقرب إلى فؤاده، لو أنها جلست ساكنة بجانبه، واقتصدت في كلماتها ونظراتها ..

لقد شاهدت في وجهه آيات مختلفة عن التجهُّم الذي يعلوه الآن، عندما كانت تخاطبه بمرح دونما تكلف أو افتعال، ومن غير اصطناع وتزويق ومناورات مرسومة! فهي لن تتكلَّف أكثر من تقبُّل المواقف من دون بهرجة وحيل ومناورات.. فتجيب، عندما يسألها، في غير تظاهر، وتخاطبه دون اصطناع الابتسام.. فبهذا المسلك لا يلبث أن ينمو، ويزداد رقة، ويملأ فؤاد المرء دفئًا وإشعاعًا! تُرى كيف سيتسنى لها أن ترضيه إذا ما أصبحا زوجين؟ ما أظنهما سيوفَّقان في ذلك.. ولكن، ربما توفّق بطريقة ما.. وعلى كل حال أنا على قناعة أن المرأة التي تتزوَّج منه ستغدو أسعد الزوجات في الدنيا !».

إنني لم أذكر حتى الآن أي شيء ينم عن استنكار لاعتزام مستر روشستر الزواج من أجل المصلحة وروابط النسب.. والحق أنني دهشت عندما اكتشفت أن تلك كانت نيَّته، لأنني كنت أظنه رجلًا لا يتأثَّر بمثل هذه العوامل المبتَذَلة في اختيار زوجته. على أنني كنت كلما أمعنت التفكير في مركزيهما وتعليمهما وما إلى ذلك، أزددت شعورًا بأنني غير محقة في الحكم عليه أو على مس إنجرام ولومهما على إقدامهما على التصرُّف وفقًا لآراء ومبادئ غُرست في نفسَيْهما منذ الطفولة.. كانت كل طبقتهما تدين بهذه المبادئ، وأعتقد أنها تتشبث بها لأسباب لا يمكنني إدراك كنهها.. وخُيِّل إليَّ أنني لو كنت سيدًا مثله، ما ضممت إلى صدري سوى امرأة أستطيع أن أحبها. ولكن لا بد أن هناك حجج واعتبارات

أجهلها، تحول دون الأخذ بهذا الرأي، وإلا لعمل الناس بمثل ما أريد. على أنني ما لبثت أن بدأت أزداد تسامحًا مع مخدومي في نقاط أخرى، كما فعلت في هذه النقطة، فتناسيت العيوب التي كنت أحصيها عليه. لقد كنت من قبل أحاول أن أدرس أخلاقه من كل النواحي، الطيبة والخبيثة، لأزنها وأصدر عليها حكمًا عادلًا، ولكني الآن لم أعد أجد فيها ما هو خبيث على الإطلاق. وغدت روح التهكّم التي كانت تنفِّرني، وروح الجفاء التي كانت يومًا ما تروِّعني، أشبه فقط بتوابل في طبق شهيّ، وجودها لاذع ولكن غيابها يجعل الطبق ماسخًا غير مستساغ! أما ذلك الشيء المبهم الذي لم أكن أدري أكان يعبِّر عن شرٍّ أم عن أسى، وعن عزم أم عن قنوط، والذي لم يكن يلمحه سوى الرقيب المتفرِّس، إذ كان يومض في عينيه من وقت لآخر ثم يختفي قبل أن يتيسر للمرء أن يكشف ما فيه من أغوار.. ذلك الشيء الذي كان يجعلني أوجس وأنكمش وكأنني أتخبَّط بين تلال بركانية، وأشعر بالأرض تميد وتفغر فاها.. ذلك الشيء، ظللت أراه من حين إلى آخر بقلب راجف، ولكن دون أن تشل أعصابي، وبدلًا من أجفل منه أصبحت أتلهّف عليه وأتكهن به. وخيّل لي أن مس إنجرام سعيدة لأنها قد تصل يومًا إلى أعماق تلك الأغوار السحيقة - الكامنة وراء عينيه - فتكشف على مهل عن أسرارها وتحلل طبيعتها.. وفيما كنت أقصر تفكيري عليه وعلى عروسه المستقبلية، لا أرى غيرهما ولا أسمع سوى حديثهما ولا أحفل بغير حركاتهما، كان بقية المدعوّين منهمكين في شؤونهم ومسرّاتهم. فكانت السيدتان لين وإنجرام مسترسلتين في حديثهما الهادئ، وهما تتبادلان الإيماءات برأسيهما المتوّجين بعمامتيهما، وترفعان أيديهما الأربع عندما تعبّران عن الدهش أو عن سر غامض أو فَزَع، تبعًا لموضوعات حديثهما وثرثرتهما، وكأنهما دميتان كبيرتان! أما مسز دنت الوادعة فكانت تتبادل الحديث مع مسز إيشتون الطيبة القلب، وكانتا، في بعض الأحيان تمنحاني كلمة مجاملة أو ابتسامة ملاطفة، بينما كان السير جورج لين والكولونيل دنت ومستر إيشتون يتناقشون في الأمور السياسية أو شؤون المقاطعة أو قضايا العدالة، في حين كان اللورد إنجرام يغازل آمي إيشتون، ولويزا تعزف وتغني لأحد ولدي السيد جورج لين أو تغني معه.. وماري إنجرام تصغي فاترة إلى حديث الابن الآخر. وكان الجميع يتفقون - أحيانًا - على أن يكفّوا عن ألعابهم ولهوهم ليراقبوا ويصغوا إلى الممثلين الرئيسيين. على أن مستر روشستر ومس إنجرام - الوثيقة الارتباط به - كانا حياة الجماعة وروحها.. وكان إذا تغيَّب هو عن الحجرة ساعة واحدة، جثم الوجوم على نفوس الضيوف، فإذا عاد، ارتدَّت للأحاديث نشوتها ودبَّت فيها الحياة .

وقد تجلَّت الحاجة ملحة إلى تأثيره المنعش، عندما دُعيَ ذات يوم إلى ميلكوت في بعض الأعمال، ولم يكن من المرتقب أن يعود إلّا في ساعة متأخِّرة.. وكان الأصيل ممطرًا. وكان من المتفق عليه أن يذهب المدعوون على الأقدام

للتفرج على إحدى خيام الغجر التي أقيمت حديثًا بالقرب من قرية هاي، فرؤيَ العدول عن هذا المقترح، ومضى بعض الرجال إلى حظائر الخيل، وصعد الشبَّان والشابات إلى غرفة البليارد، وجلست الليدي إنجرام تلعب الورق مع الليدي لين، بينما رفضت بلانش إنجرام كل محاولة بذلتها مسز دنت ومسز إيشتون لتحملاها على مبادلتهما الحديث، ثم عزفت على البيانو بعض ألحان عاطفية، ولكنها ما لبثت أن جاءت من المكتبة برواية، وألقت بنفسها على أريكة علَّ سحر القصة يلهيها عن السأم الذي استشعرته في غياب زميلها. وكانت الغرفة والقصر يرزحان تحت وطأة السكون، ما عدا أصوات مرَح تنبعث من حين إلى آخر من غرفة البليارد .

وتهادى الغسق، ودقَّت الساعة تنبّه إلى أن الوقت قد حان لارتداء ثياب العشاء، وإذا بأديل تصيح فجأة وهي جاثية بجانبي على قاعدة النافذة بحجرة الاستقبال: «ها هو ذا مستر روشستر قد عاد!». فاستدرت، واندفعت مس إنجرام من أريكتها. واشرأبَّت كذلك أعناق الآخرين من حيث كانوا يجلسون، عندما سُمعت جلجلة عجلات ووقع حوافر جياد على الطريق المغمورة بالمياه.. ثم اقتربت عربة البريد، فقالت مس إنجرام :

- «ما الذي جعله يعود بالعربة؟! لقد كان يركب جواده الأسود «مسرور» عندما رحل. أليس كذلك؟ وكان معه بايلوت.. فماذا فعل بالحيوانين؟ ».

وتقدَّمت نحو النافذة بقامتها الفارعة وثيابها الطويلة، مما اضطرني إلى الانحناء حتى كاد ظهري ينقسم. وكانت شدة لهفتها قد حالت دون أن تراني، فلما أحسَّت وجودي زمَّت شفتيها واتجهت إلى نافذة أخرى. وتوقفت عربة البريد ودق السائق جرس الباب ثم هبط سيد يرتدي بزة السفر ولكنه لم يكن مستر روشستر وإنما كان رجلا غريبًا طويل القامة متأنقًا، فصاحت مس إنجرام في وجه أديل :

- « كم تغيظينني أيتها القردة المتعبة! من حملك إلى النافذة لتعطي أنباء كاذبة؟». ثم ألقت عليَّ نظرة غاضبة، كما لو كانت الغلطة غلطتي .

ودار لغطٌ في البهو ثم ظهر القادم الجديد على الفور، فانحنى لليدي إنجرام باعتبارها أكبر السيدات الحاضرات سنًا، ثم قال :

- «يبدو أنني جئت في وقت غير ملائم يا سيدتي، لأن مستر روشستر متغيِّب عن المنزل، ولكني وصلت من رحلة طويلة جدًا، ولي من سابق معرفتي الوطيدة به ما يجعلني أبقى هنا حتى يعود »!

وكان مهذبًا في كلامه، وإن بدا لي في لهجته شيء غير عادي.. لم تكن لهجة أجنبية تمامًا، ولكنها مع ذلك لم تكن إنجليزية! ولعله كان في سن مستر روشستر تقريبًا - بين الثلاثين والأربعين - وكانت بشرته شاحبة. وفيما عدا ذلك كان جميل الوجه، لا سيما عندما يقع عليه البصر لأول مرة، ولكنك إذا أنعمت النظر إليه، اكتشفت شيئًا في وجهه لا يروق، أو شيئًا لا يوقع الرضا في النفس. كانت أساريره منتظمة ولكنها شديدة الارتخاء، وعيناه واسعتين جميلتين، ولكن الحياة فيهما بدت خاملة خاوية.. أو هذا ما خُيِّل إليَّ .

و دوَّى جرس ارتداء الملابس فانتشرت الجماعة. ولم أرَ ذلك الضيف الجديد إلّا بعد العشاء، فبدا مطمئنًا وادعًا، بيد أنني ازددت عدم ارتياح إلى أساريره، فقد خُيِّل إليَّ أنه في الوقت ذاته كان غير متزن، بل كان جامدًا، خاليًا من الحياة.. كانت عيناه تجولان دون أن يبدو في تجوالهما أي معنى، مما أكسبه شكلًا غريبًا لم أرَ له مثيلًا من قبل.. كان مليحًا، وليس في مظهره ما يصدّ عن المَيْل إليه، ولكنه أثار نفوري إلى درجة كبيرة، إذ لم يكن في وجهه الناعم البشرة، ذي الشكل البيضاوي، شيء من القوة.. ولا في أنفه الحاد وفمه الدقيق أي حزم.. ولم يكن يبدو على شيء من أساريره - حتى جبينه المنخفض الضيق - ما ينم عن أي تفكير.. كما لم يكن في تلك العين العسلية الخالية من التعبير، أي مظهر لقوة الشخصية والعزم !

كنت جالسة في ركني أتأمَّل الرجل في ضوء الثريا الموضوعة على حافة الموقد، وقد تسلَّط على وجهه، إذ كان يشغل مقعدًا كبيرًا بجوار المدفأة ولا يفتأ يقترب منها بين لحظة وأخرى وكأنه كان يشعر ببرد. ثم أخذت أقارن بينه وبين مستر روشستر، وأعتقد - مع الاحترام - أن الفارق بينهما لم يكن يعدو ما بين ذكر الوز الهزيل وبين الباز الجارح، أو بين الخروف وبين الكلب الكث الشعر الحاد العينين الذي يحرسه! ولقد ذكر مستر روشستر كصديق قديم له، ولا بد أنها كانت صداقة عجيبة، تقوم صورة حية للمثل القديم عن اجتماع النقيضين! وكان يجلس بالقرب منه اثنان أو ثلاثة من السادة، فتناهت إلى أذنيّ نتف من محادثتهم، ولم أستطِع في أول الأمر أن أتبيَّن معنى لما كنت أسمعه، لأن الجدال بين ماري إنجرام ولويزا إيشتون، وكانتا أقرب منهم إليَّ، غطَّى على حديثهم.. وكانتا تتحدثان عن الضيف الجديد، فوصفته كلتاهما بأنه «رجل جميل»، وقالت لويزا: إنه «مخلوق محبوب»، و«إنها شديدة الإعجاب به»، كما تحدَّثت ماري عن «فمه الصغير الجميل، وأنفه البديع». وكأنه مثلها الأعلى للفتنة. وصاحت لويزا: «يا لجبينه الذي ينطق بطيبة الخلق! إنه أملس جدًا، خالٍ من التجاعيد غير المنتظمة التي أمقتها كثيرًا! ويا لنظرته الوادعة، وابتسامته الهادئة ».

وما لبث مستر هنري أن دعاهما إلى الجانب الآخر من الحجرة، للبت في أمر خاص بالنزهة التي أرجئت إلى هاي. وإذ ذاك استطعت أن أركز انتباهي على الرجال الجالسين بجوار الموقد، وسرعان ما اكتشفت أن الزائر الجديد يُدعى مستر ميسون، وأنه قادم لتوِّه إلى إنجلترا من إحدى البلاد الحارة، مما كان السبب في سمرته وحرصه على الجلوس قرب المدفأة، وارتدائه المعطف في البيت. وما لبث ذكره لكلمات: جمايكا، وكينجستون، وسباتيش تاون، أن نمّ عن أنه كان يقيم في جزر الهند الغربية، كما اكتشفت لدهشتي أنه قد التقى لأول مرة بمستر روشستر في تلك الجزر! وتحدث عن كره صديقه للحرارة الشديدة، والعواصف والفصول الممطرة في ذلك الإقليم.. وكنت قد سمعت من مسز فيرفاكس أن مستر روشستر رحالة، ولكني لم أكن أعتقد أن أسفاره قد تجاوزت أوربا ولم أسمع ما يشير إلى أنه سافر إلى بلاد نائية !

وفيما كنت أفكّر في هذه الأشياء، وقع حادث لم يكن في الحسبان قطع حبل تأملاتي.. فقد اتفق أن فتح أحد الخدم الباب، فطلب منه مستر ميسون، وهو يرتعد، أن يجئ بمزيد من الفحم يلقيه في النار التي كانت قد خمدت. وعندما جاء الخادم بالفحم وهمَّ بالخروج، توقَّف بالقرب من مقعد مستر إيشتون، وأسرَّ إليه ببعض كلمات لم أسمع منها سوى «امرأة عجوز» و»متعبة جدًا». وأجابه مستر إيشتون القاضي: «قل لها أن ترحل وإلا أمرت بإرسالها إلى السجن!». فتدخل الكولونيل دنت، قائلًا: «كلا.. قف! لا تطردها يا إيشتون فقد تستفيد من الأمر.. الأفضل أن تستشير السيدات ».

ثم التفت إليهن وقال بصوت مرتفع :

- «لقد تحدثتن عن الذهاب إلى قرية هاي لزيارة خيام الغجر، ولكن ها هو ذا سام يقول إن إحدى العجائز الغجريات هنا في غرفة الخدم، وتلحّ في المثول أمام السادة، لتكشف لهم عن حظهم، فهل ترغبن في مقابلتها؟ ».

فصاحت الليدي إنجرام :

- «إنك بلا شك لن ترضى بتشجيع هذه المحتالة الدنيئة. اطردها في الحال بأي وسيلة !».

فقال الخادم :

- «ولكنني لا أستطيع حملها على الانصراف يا سيدتي.. ولا أحد من الخدم يقدر. إن مسز فيرفاكس معها الآن، تضرع إليها أن ترحل، ولكنها جلست على مقعد

في ركن من الغرفة، وقالت إنه لن يستطيع شيء أن يزحزحها من مكانها ما لم يُؤذَن لها في الحضور إلى هنا !».

فسألت مسز إيشتون: «وما الذي تريده؟ ».

- «أن تُنبئ السادة بحظوظهم.. وهي تقسم على أنها يجب أن تفعل ذلك، وأنها ستفعله ».

فقالت ابنتا مسز إيشتون في وقت واحد: «وما شكلها؟ ».

- «مخلوقة شمطاء، تذهل اللب بدمامتها يا آنسة! سوداء كالسناج !».

فصاح فردريك لين: «إذن فهي ساحرة حقيقية! دعوها تدخل بطبيعة الحال!». وقال أخوه: «الحق أنه من دواعي الأسف الشديد أن نطرح عنا مثل هذه الفرصة للمزاح». فصاحت مسز لين: «فيم تفكران يا ولديّ العزيزين!». وقالت ليدي إنجرام تقلّدها: «ولا يمكن أن أقبل مثل هذا العمل». وقالت بلانش المتعالية وهي تدور بكرسيها أمام البيانو: «بلى يا أماه.. أنت تستطيعين! إنني أتلهف على معرفة مستقبلي.. مر المرأة بالدخول يا سام ».

- «تذكري يا عزيزتي بلانش ...».

- «إنني أتذكر كل ما تريدين، ولكن إرادتي يجب أن تنفّذ. أسرع يا سام !».

وعندئذ صاح الشباب من السيدات والسادة: «نعم.. نعم.. نعم! دعها تدخل.. ستكون تسلية طريفة». ولكن الخادم تلكَّأ ثم قال: «إنها تبدو غاية في الفظاظة!». فصرخت فيه مس إنجرام: «إذهب!». فمضى الرجل. واشتد هرج الجماعة على التو. وقد سرَت فيهم حمَّى الفكاهة والنكات، إلى أن عاد سام يقول: «إنها ترفض المجيء وتقول إن ليس من واجبها أن تظهر أمام "قطيع من الرعاع " - هكذا قالت بالحرف - بل عليَّ أن أدخلها منفردة إلى إحدى الحجرات. وعلى الذين يرغبون في استشارتها أن يذهبوا إليها فرادى »!

فقالت الليدي إنجرام: «ها قد رأيتِ يا ابنتي الجميلة أنها تجاوزت حدودها.. اصغي إلى نصيحتى يا "ملاكي " و ...».

فقاطعتها «ملاكها» قائلة للخادم: «أدخلها إلى المكتبة فأنا أيضًا لا أريد أن أصغي إليها أمام قطيع الرعاع، بل يجب أن أخلو بها. هل بالمكتبة مدفأة؟ ».

- «نعم يا سيدتي ولكن يبدو أنها ثرثارة !».

- «كفى ثرثرة أنت يا أحمق، ونفّذ أمري !».

اختفى سام مرة أخرى، فعاد الغموض والانتعاش والترقّب إلى الذروة.. وعاد الخادم يقول: «إنها الآن على استعداد وتريد أن تعرف من ستكون أولى زائراتها ».

فقال الكولونيل: «أرى أنه يحسن أن ألقي عليها نظرة قبل أن تذهب إليها إحدى السيدات. قل لها يا سام إنني قادم ».

فمضى سام ولكنه رجع يقول: «هي تقول يا سيدي إنها لن تقابل أيًا من السادة، وأن لا حاجة تدعوهم إلى إزعاج أنفسهم بالاقتراب منها». ثم أردف يقول وهو يجاهد في حبس ضحكة تكاد تنفجر: «وهي لا تريد كذلك أي سيدات ولا تقبل إلّا الشابات غير المتزوجات !».

فصاح هنري لين: «والله إنها حسنة الذوق !».

وقامت مس إنجرام في وقار، ثم قالت بلهجة القائد المقبل على مخاطرة :

- «لسوف أكون الأولى في الذهاب ».

فصاحت أمها: «أواه يا حبيبتي! قفي يا عزيزتي.. فكري!». ولكن الفتاة مرت من أمامها في صمت شامخ واجتازت الباب الذي فتحه الكولونيل ثم سمعناها تدخل المكتبة. وأعقب ذلك سكون نسبي.. وقنعت الليدي إنجرام من الأمر بضرب كفَّيْها يأسًا وقنوطًا، بينما صرَّحت مس ماري بأنها من ناحيتها لا تجرؤ على مثل هذه المغامرة، في حين تضاحكت آمي ولويزا إيشتون في خفوت، وإن ظهر عليهما بعض الهلع .

انقضت الدقائق بطيئة كل البطء.. واكتملت خمس عشرة دقيقة قبل أن يفتح باب المكتبة، وتعود إلينا مس إنجرام.. تُرى هل ستضحك؟ هل ستأخذ الأمر على أنه دعابة؟ واستقبلتها العيون جميعًا بنظرة فضول مشبوبة، فقابلت الفتاة كل العيون بنظرة صدود وبرود! ولم تكن تبدو مستاءة، ولا مَرِحة.. بل مضت إلى مقعدها بخطوات ثقيلة، ثم جلست بصمت وسكون. وقال اللورد إنجرام: «حسنًا هيا يا بلانش؟». وسألتها ماري: «ماذا قالت لكِ يا اختاه؟». وقالت الأختين إيشتون: «ماذا ترين؟ بم تشعرين؟ هل هي حقيقة عرَّافة؟ ».

فأجابتهم مس إنجرام: «على رسلكم يا ناس! لا ترهقوني بالإلحاح. من السهل أن يثور العجب والشك في نفوسكم، بل يُخيَّل إليَّ من اهتمامكم الذي تعلقونه جميعًا، بما فيكم والدتي، على هذا الأمر، أنكم تعتقدون اعتقادًا مطلقًا بأن لدينا ساحرة حقيقية. لقد شاهدت الآن نورية من الأوغاد الرحَّل، مارست علم قراءة الكف فأخبرتني بمثل ما يقوله أمثالها عادة، وبذلك أكون قد أشبعت نزوتي. ولعله من الخير أن يرسل مستر إيشتون هذه الشمطاء إلى السجن في صباح الغد. كما كان يتوعَّد ».

ثم تناولت كتابًا واضطجعت في مقعدها زاهدة في أيّ حديث إضافي. وراقبتها حوالي نصف ساعة، فلم أرَها تقلب صفحة واحدة من الكتاب الذي كانت تحمله في يدها، بل رأيت وجهها يزداد اكفهرارًا، وتتبدى عليه أمارات الامتعاض وخيبة الأمل، فأدركت تمامًا أنها لم تسمع كلمة مواتية، وخُيِّل إليَّ من طول اكتئابها وصمتها أنها تعلِّق أهمية كبيرة، لا مبرِّر لها، على ما قالته العرّافة لها على الرغم من تظاهرها بعدم الاكتراث.. وفي تلك الأثناء صرَّحت ماري إنجرام وآمي ولويزا إيشتون أنهن لا يجرؤن على الذهاب منفردات رغم تلهفهن على الذهاب، فجرت مفاوضات على يدي الوسيط سام. انتهت بعد عناء بأن سمحت العرَّافة لهن بالظهور أمامها معًا. ولم تكن زيارتهن ساكنة كزيارة مس إنجرام، إذ سمعنا ضحكاتهن الهستيرية، وبعض صيحات تنبعث من المكتبة.. وأخيرًا، بعد نحو عشرين دقيقة، فتحن الباب على مصراعيه بعنف، وجئن يجرين عبر البهو كأنما مسَّهن الخبل، وكل منهن تصيح: «إنني واثقة من أنها ليست من البشر! إن لديها قدرة خارقة! يا للأشياء التي حدثتنا عنها! إنها تعرف عنَّا كل شيء !».

ثم غُصن لاهثات في المقاعد التي أسرع الرجال يقدمونها إليهن. ولما ألحَّ الباقون عليهن في طلب المزيد من الإيضاح صرَّحن بأن المرأة أخبرتهن بأمور قلنها وفعلنها وهن أطفال، كما وصفت الكتب وأدوات الزينة التي في مخادعهن الخاصة، ووصفت الهدايا التي قدَّمها إليهن الأقارب. وأكدن أنها قرأت ما كان يدور في رؤوسهن وأنها همست في أذن كل منهنّ باسم الشخص الذي تميل إليه، وأخبرتهن بما تتوق إليه نفس كل منهن! وهنا تدخَّل الرجال متوسلين أن يزدن النقطتين الأخيرتين إيضاحًا، ولكنهم لم يلقوا منهن سوى تضرُّج الوجنات بحمرة الخجل والحياء وبعض صيحات واختلاجات وضحكات! وفي تلك الأثناء قدمت غير الشابات العطور القوية والمراوح للفتيات، تعبيرًا عمّا يساورهن من قلق، لأنهن لم يستمعن إلى تحذيراتهن! بينما قهقه الشيوخ من السادة وتطوَّع الشبان بعرض خدماتهم على الحسناوات الحائرات، المنفعلات !

وفي غمرة الهرج والمرج، وفيما كانت عيناي وأذناي منصرفة إلى ذلك المشهد، سمعت نحنحة عند مرفقي، فاستدرت لأرى سام الذي خاطبني :

- «معذرة يا آنسة فإن الغجرية تقول إنه ما تزال بالحجرة شابة غير متزوجة لم تذهب إليها بعد، وتقسم ألا تذهب حتى تراها، وأظنها تعنيكِ، إذ لم تعد هناك غيرك، فماذا أقول لها؟ ».

فأجبته: «أود ذلك.. سأذهب من غير شك !».

وفرحت بفرصة لم أكن أتوقعها لإشباع الفضول الذي كان يضطرم في نفسي، فتسلَّلت من الحجرة دون أن تراني عين. لأن الجميع كانوا ملتفّين حول الفتيات المرتجفات العائدات لتوهن من لدى العرافة، ثم أغلقت خلفي الباب في هدوء .

وقال سام :

- «إذا شئت يا سيدتي انتظرتك في الردهة، وإذا أفزعتك ناديني فأدخل على الفور ».

- «كلا يا سام، عد إلى المطبخ فلست خائفة بحال !».

والواقع إنني لم أكن خائفة، بل كنت شديدة الاغتباط واللهفة .

الفصل التاسع عشر

بدت المكتبة تسبح في الهدوء عندما دخلتها. وكانت العرَّافة - إذا كانت تلك المرأة عرَّافة - مضطجعة في مقعد مريح، عند ركن المدفأة، وقد ارتدت معطفًا أحمر وقلنسوة سوداء، أو بالأحرى قبعة من قبعات الغجر العريضة الحافّة، شُدَّت بمنديل مخطَّط إلى ما تحت ذقنها، وكانت على المنضدة شمعة مطفأة، فانحنت العرافة فوق النار تقرأ على وهجها في كتاب صغير أسود يشبه كتاب الصلاة. وكانت تغمغم لنفسها بالكلمات شأن العجائز عندما يقرأن. ولم تكف عن المطالعة فور دخولي، وكأنما كانت ترغب في الانتهاء من إحدى الفقرات .

ووقفت فوق السجادة أدفئ يديَّ اللتين بردتا لجلوسي الطويل بعيدًا عن المدفأة في حجرة الاستقبال.. وشعرت إذ ذاك برباطة الجأش كعادتي دائمًا في الحياة، إذ لم أجد في الحقيقة شيئًا في مظهر الغجرية يزعزع الهدوء والسكينة وما لبثت أن طوَت كتابها. ورفعت عينيها إليَّ ببطء. وكانت حافة قبعتها تظلِّل جزءًا من وجهها، ولكني استطعت أن أراه عندما رفعته، فإذا به وجه غريب، تتناوب فيه السمرة والسواد. وقد برزت بعض خصلات من شعر خشن أشعث، من تحت عصابة بيضاء امتدت إلى ما تحت ذقنها، مغطية أكثر من نصف خديها، وفكّيها.. ورمقتني عينها على الفور بنظرة جريئة، مسددة، ثم قالت بصوت يماثل نظرتها جرأة، ويشبه أساريرها خشونة :

- «حسنًا.. أترغبين إذن أن تسمعي طالعك؟ ».

- «لا يهمني ذلك كثيرًا يا أماه، أنتِ وشأنك! ولكني أنبّهك إلى أنني لا أومن بذلك !».

- «إن قولك هذا يماثل جرأتك التي توقعتها منك وسمعتها في خطوك وأنت تعبرين عتبة الباب ».

- «حقًا؟ إنك حادة السمع ».

- «نعم وحادة البصر.. وحادة الذهن أيضًا !».

- «إنك تحتاجين إلى هذا كله في مهنتك ».

- «فعلًا، وخاصة عندما أتعامل مع زبائن مثلك. لماذا لا ترتعدين؟ ».

- «لأنني لست بردانة !».

- «ولماذا لم يشحب وجهك؟ ».

- «لأنني لست مريضة ».

- «ولماذا لا تثيرك حرفتي؟ ».

- «لأنني لست حمقاء !».

فأطلقت العجوز الشمطاء ضحكة توارت تحت القلنسوة والعصابة، ثم أخرجت غليونًا قصيرًا أسود، أشعلته وأخذت تدخِّن. وبعد أن نعمت فترة بذلك المهدِّئ لأعصابها، رفعت ظهرها المقوَّس، وانتزعت الغليون من بين شفتيها، ثم قالت في تروٍّ بالغ وهي تحملق في النيران :

- «أنتِ بردانة.. أنتِ مريضة.. أنتِ حمقاء !».

فقلت: «برهني على ذلك ».

- «سأفعل في إيجاز.. إنك تشعرين بالبرد لأنكِ وحيدة لا يشعل نيرانك الكامنة احتكاك.. وأنت مريضة لأن أسمى وأحلى ما يوهب من المشاعر للرجال، ينأى عنكِ ويبتعد.. وأنتِ حمقاء لأنك برغم ما تقاسين لا تشيرين إليه ليقترب منك، ولا تتقدمين نحوه خطوة واحدة لتلتقي به حيث يترقب !».

ثم أعادت غليونها القصير الأسود إلى شفتيها وراحت تدخن من جديد، بشدة ونهم، فقلت :

- «في وسعك أن تقولي هذا لكل إنسان تقريبًا، ما دمت تعلمين أنه يحيا وحيدًا، وليس له معين، في قصر كبير ».

- «في وسعي حقًا أن أقول هذا لكل إنسان تقريبًا، ولكن هل هذا يصدق على الجميع؟ ».

- «إذا كانوا في ظروفي ».

- «نعم.. هذا صحيح.. في ظروفك، ولكن آتيني بإنسان آخر له مثل ظروفك تمامًا ».

- «من السهل أن آتيك بالآلاف ».

- «يصعب أن تجدي مثلًا واحدًا. ولعلك تعلمين أن وضعك لا يوجد مثله: إنك قريبة جدًا من السعادة.. إنها في متناولك، وأسبابها مهيَّأة لكِ، ولا تحتاج إلّا إلى حركة تلمها وتجمعها، لأن المصادفة فرَّقت بينها قليلًا.. ولو أنك قربت بينها مرَّة، لحصلتِ على السعادة والهناء ».

- «أنا لا أفهم الأحاجي، ولم أستطِع في حياتي حل أحجية واحدة ».

- «إذا أردت مني أن أكلمك بمزيد من الوضوح، فأرني كفك ».

- «أظن عليّ أن أضع فيه بعض النقود، أليس كذلك؟ ».

قالت: «بالتأكيد !».

وأعطيتها شلنًا، فوضعته في جورب قديم، أخرجته من جيبها ثم طوته وأعادته إلى مكانه قبل أن تطلب مني أن أبسط لها يدي، فلمَّا فعلت، اقتربت بوجهها من كفي، ونظرت مليًا دون أن تمسَّها ثم قالت :

- «إنها كف بضَّة جدًا، لا يمكن أن أستبين فيها شيئًا، لأنها خالية من الخطوط. ومع ذلك فماذا في الكف؟ إن المصير لا يكتب فيها !».

فقلت: «إنني أصدقك في هذا». ولكنها استمرَّت في حديثها قائلة: «كلا.. إنه مسطور في الوجه، على الجبين، وحول العينين، بل في العينين، وفي خطوط الفم.. اركعي وارفعي رأسك!». فقلت وأنا أطاوعها :

- «آه.. إنك تهتدين إلى الحقيقة، ولذلك سأمنحك بعض ثقتي مؤقتًا !».

ثم جثوت على بعد نصف ياردة منها، فحرَّكت نيران الموقد إلى أن تألقت قطعة من الفحم فأرسلت وهجًا ألقى على وجهها ظلالًا قاتمة، بينما أضاء وجهي.. ثم تفحَّصتني قليلًا، وقالت :

- «إنني لأتساءل: بأي شعور جئتني، وأي أفكار كانت تساورك أثناء الساعات الطويلة التي قضيتها جالسة في تلك الحجرة مع أولئك الأغنياء، وهم يتحرَّكون

أمامك كأطياف تنبعث من فانوس سحري، ولا يدور بينك وبينهم حديث ودّي، وكأنهم أطياف أشكال بشرية، وليسوا أجسادًا حقيقية؟ ».

- «إنني كثيرًا ما أشعر بالتعب، وأحس أحيانًا بميل إلى النوم، ولكني لا أشعر بالحزن ».

- «إذن، فهل يراودك أمل خفيّ يرفعك ويسعدك بهمسات عن المستقبل؟ ».

- «كلا.. إن أقصى أمل يراودني أن أدَّخر من مرتبي ما يكفي لإنشاء مدرسة في بيت صغير أستأجره لنفسي ».

- «إنه لغذاء روحيّ تافه لا يقيم أودًا! ثم إن جلوسك عند قاعدة تلك النافذة.. ألا ترين أنني أعرف عاداتك؟ ».

- «لقد عرفتِها من الخدم ».

- «آه! إنك تحسبين نفسك لبيبة حاذقة. حسنًا.. ربما كان الأمر كذلك.. وإذا شئت الحق، فإنني تعرَّفت إلى واحدة من الخدم.. هي مسز بول ».

ووثبت واقفة إذ سمعت هذا الاسم، وأنا أقول في نفسي، «هل تعرفت إليها؟ إذن في الأمر مكيدة، برغم كل شيء ».

على أن المخلوقة العجيبة استرسلت في حديثها قائلة :

- «لا ترتاعي.. إنها مأمونة الجانب.. إن مسز بول أمينة وهادئة وفي وسع المرء أن يوليها ثقته. ولكني أعود فأقول: عندما تجلسين عند قاعدة النافذة، أما كنتِ تفكِّرين في غير مدرستك المرجوّة؟ أليس لك اهتمام خاص بواحد من الذين يحتلون الأرائك والمقاعد أمامك؟ أليس هناك وجه تدرسينه، أو شخص تتابعين حركاته بشيء من الفضول؟ ».

- «إنني أحب أن ألاحظ كل الوجوه وكل الأشخاص ».

- «ولكن، ألا تخصّين واحدًا دون الآخرين.. أو ربما اثنين؟ ».

- «أفعل ذلك كثيرًا.. عندما يبدو لي أن حركات اثنين أو نظراتهما توحي بقصة.. فإذا ذاك يسلّيني أن أرقبهما ».

- «وأي قصة ترغبين بسماعها؟ ».

- «أوه.. ، كل القصص عادة تدور حول موضوع واحد: مطارحة غرامية ثم وعد ينتهي بالكارثة نفسها.. وهي الزواج !».

- «وهل يروق لك هذا الموضوع المتكرِّر الممل؟ ».

- «إنني في الواقع لا أحفل به، لأنه لا يهمني ».

- «لا يهمك؟ إذا جلست شابة زاخرة بالصحة والحياة والجمال الفاتن والثروة والجاه.. وراحت تبتسم في وجه سيد، أنت ...».

- «أنا ماذا؟ ».

- «أنت تعرفينه.. وربما كنت تكثرين من التفكير فيه ».

- «أنا لا أعرف السادة هنا، وقلَّما تبادلت حرفًا مع واحد منهم.. أما عن التفكير فيهم، فإنه لا يتجاوز أنني أرى بعضهم جديرين بالاحترام. هم سادة مهيبون، في أوسط العمر وبعضهم شبانًا جريئين على جانب كبير من الجمال والحيوية والنشاط، ولكن، لا ريب في أن لهؤلاء جميعًا كل الحرية في فعل ما يرضيهم من دون أن أشعر بأن الأمر يهمني في كثير أو قليل !».

- «إذن فأنت لا تعرفين السادة هنا؟ ولم تتبادلي حرفًا مع واحد منهم؟ أتقولين هذا عن سيد البيت أيضًا؟ ».

- «إنه ليس في البيت ».

- «ملاحظة عميقة الغور، ومغالطة بارعة! لقد ذهب إلى ميلكوت في هذا الصباح وسيعود الليلة أو غدًا، فهل يقصيه هذا الظرف عن قائمة معارفك ويمسحه من الوجود؟ ».

- «كلا، ولكنني لا أرى أي علاقة لمستر روشستر بموضوعك !».

- «كنت أتحدَّث عن السيدات اللاتي يبتسمن في عيون السادة: ولقد انسكبت أخيرًا ابتسامات لا حصر لها في عينَيْ مستر روشستر، حتى فاضتا كوعائين أترعا حتى الحافة. ألم تلحظي ذلك؟ ».

- «لمستر روشستر كل الحق في أن يتمتع بصحبة ضيوفه ».

- «لا جدال في حقه هذا، ولكن ألم تلاحظي أنه قد حظيَ بأكبر نصيب من الأقوال التي دارت حول الزواج، وبأكثرها استمرارًا؟ ».

«إن لهفة السامع تُلهب لسان المتحدث!». قلت ذلك أحدِّث نفسي أكثر مما قصدت قوله للغجرية. فقد كانت الغجرية، بحديثها العجيب وصوتها وأطوارها، قد لقّتني في ما يشبه الحلم. فما كنت أتوقع أن تنبعث العبارة تلو العبارة من بين شفتيها على هذا النحو، إلى أن وجدتني أتخبط في حالٍ من الحيرة والغموض، وأتساءل: أي روح خفية كانت تقبع بالقرب من قلبي، وترصد حركاته ونبضاته؟

- «لهفة السامع! أجل لقد كان مستر روشستر يجلس الساعات وأذنه إلى الشفتين الفاتنتين المغتبطتين بمحادثته.. وكان يتلهَّف على الإصغاء وهو بادي الامتنان بالوقت الممتع الذي يُتاح له.. أما لاحظت ذلك؟ ».

- «بادي الامتنان! لا أذكر أنني اكتشفت على وجهه آيات الامتنان ».

- «اكتشفت! إذن فقد حلّلت وجهه؟ أي آيات رأيتها إذن غير الامتنان؟ ».

فلم أقل شيئًا.. بينما استطردت العجوز تسألني: «لقد رأيت الحب.. أليس كذلك؟ ثم تطلعت إلى المستقبل فرأيته قد تزوَّج وأسعد عروسه !».

- «ليس هذا بالضبط... إن مهارتك في السحر تخطئ أحيانًا ».

- «فماذا رأيت إذن؟ ».

- «لا يهم.. لقد جئت إلى هنا لأسأل وليس لأعترف.. هل صحيح أن مستر روشستر سيتزوج؟ ».

- «نعم.. من الحسناء مس إنجرام ».

- «قريبًا؟ ».

- «إن الظواهر تؤكد هذه الخاتمة . وأقول لك ذلك لأنه يبدو عليك أنك تريدين أن تسألي عنها لولا أن الجرأة تعوزك. ولا بد أنهما سيكونان زوجين سعيدين.. إنه ولا شك خليق بأن يحب مثل هذه السيدة الجميلة النبيلة، الذكية المهذبة. ومن المحتمل أنها تحبه.. إن لم يكن لشخصه فلأمواله، على الأقل، وإن كانت أمواله موقوفة. فبعد أن أخبرتها - سامحني الله - بذلك منذ ساعة، ارتسمت

على وجهها أمارات الدهشة والحزن، وتدلت شفتها، فنصحتها بأن تبحث عن خطيب آخر يحمل قائمة أطول بإيجاراته المستحقة، والتي لا تخضع لقيود !».

- «ولكني ما جئت يا أماه لأسمع مستقبل مستر روشستر، وإنما جئتك لأسمع حظي، فإذا بك لم تخبريني بشيء عنه !».

- «إن حظك ما زال موضع شك. وعندما درست وجهك وجدت كل سطر فيه يناقض الآخر، وإن كنت أعرف أن القدر قد وهبك قسطًا من السعادة.. عرفت ذلك قبل مجيئي إلى هنا هذا المساء! نعم، وهبك القدر قسطًا من السعادة، والأمر يتوقف على أن تمدي يدك لتأخذي هذا القسط، فهل ستمدين يدك؟ هذه هي المشكلة التي أدرسها. اركعي ثانية على السجادة !».

- «لا تستبقيني طويلًا لأن النار تلفح وجهي ».

وجثوت أمامها فلم تنحنِ فوقي، وإنما راحت تحملق فيَّ وهي مضطجعة، ثم بدأت تغمغم قائلة: «اللهب يتراقص في العين.. العين تلمع كالندى، وتبتسم فتبدو رقيقة زاخرة بالإحساس.. إنها حساسة، يتجلَّى في محيطها الصافي الأثر تلو الأثر، حتى إذا كفَّت عن الابتسام بدا فيها الحزن. وثقُل جفناها بتعب يوحي بالأسى الناجم عن الوحدة.. لقد تحوَّلت عني الآن، لأنها لم تعد تحتمل مزيدًا من الفحص والتدقيق، وكأنها تنكر حقيقة ما كشفت عنه بنظرة ساخرة متهكِّمة! أما الفم فيضحك أحيانًا وقد أحسّ بالفرح والابتهاج. وهو يميل إلى الإفصاح عما يدركه العقل، وإن أخلد إلى الصمت حول كثير مما يختلج به القلب، فهو بما فُطر عليه من رقّة لم يُخلق لكي يرزح تحت صمت الوحدة الأبدية، وإنما هو فمٌ خليق بأن يتكلَّم ، وأن يحس بالمودة البشرية نحو من يناجيه.. إن الفم يبشِّر بالخير! ولا أرى غريمًا لطالع سعيد، إلّا على صفحة الجبين.. هذا الجبين الذي يتظاهر بالقول: إن في وسعي أن أعيش وحيدًا إن تطلّب ذلك احترامي لنفسي، وتطلبته ظروفي، ولا حاجة تدعوني إلى بيع روحي لأشتري بها النعيم ، فقد وُلد معي كنزي. كنزٌ قادر على أن يبقيني على قيد الحياة إذا حُبست عني كل المباهج العارضة، أو إذا لم تتَح لي إلّا مقابل ثمن أعجز عن أدائه. ويقول الجبين: إن العقل يجلس ثابتًا وقد أمسك بأعنّة المشاعر، لا يدعها تفلت وتندفع إلى المهاوي الموحشة.. إن الأهواء قد تهتاج في صخب وعنف، والشهوات قد تتوهّم الأماني الكاذبة، ولكن التعقل سيكون صاحب الكلمة الفاصلة في كل جدال.. فهو الذي يدلي بالصوت الراجح في كل قرار. وقد تمر العاصفة والزلزال والنيران، ولكني سأتبع إرشادات هذا الصوت الصغير الذي يترجم ما يمليه الضمير .

لقد أجدتَ الحديث أيها الجبين، وسيلقى رأيك كل احترام.. وقد رسمت خططي، وهي خطط سليمة في رأيي، وفيها أصغيت إلى ما يهيب به الضمير ويشير به العقل. وأنا أعلم كيف يذبل الشباب سريعًا وتضوي زهرته، إذا ما خالطت كأس النعيم قطرة واحدة من خزيٍ أو ندم. إنني لا أنشد التضحية والأسى والفجور.. فمثل هذه الأمور لا تلائم مزاجي. وإنما أريد أن أكون مصدر تغذية وتنمية، لا مصدر سم وموت.. أريد أن أكتسب الشكر والاعتراف بالجميل، لا أن أعتصر قطرات الدم.. لا، ولا قطرات الدموع. يجب أن يكون حصادي من الابتسام والاعتزاز الحلو المذاق، كفى، كفى.. أظنني قد أصبت بلوثة من الهذيان، وخليق بي أن أطيل هذه اللحظة إلى ما لا نهاية، لولا أنني لا أجرؤ. لقد سيطرت حتى الآن على نفسي، وتصرفت وفقًا لما عاهدت عليه نفسي، ولكن التمادي قد يرهقني فوق ما تحتمل قواي.. ألا انهضي يا مس إير، وفارقيني.. لقد انتهت المسرحية !».

أين كنت؟ هل تراني استيقظت، أو أنني استغرقت في النوم؟ هل كنت أحلم؟ وهل ما زلت أحلم؟ كان صوت العجوز قد تغير، وبدت لي لهجتها وحركاتها مألوفة.. تمامًا كصورة وجهي في المرآة، وكحديثي الذي ينطق به لساني. ونهضت، ولكنني لم أبرح مكاني. بل تأمَّلت ما حولي، وحرّكت نيران الموقد، ثم عدت أتلفَّت نحو العجوز التي جذبت قلنسوتها وعصابتها حول وجهها، ثم أشارت لي مرة أخرى بأن أرحل.. وأضاءت النيران فظهرت يدها الممدودة. وكنت قد أفقت من ذهولي فلاحظت على الفور أن اليد الممتدة لم تكن يد عجوز عجفاء. وإنما كانت يدًا ملفوفة نَظِرة، ناعمة الأصابع متناسقة، وقد التمع خاتم عريض في خنصرها! وانحنيت أتأمَّله، فرأيتُ جوهرة شاهدتها مائة مرة من قبل! وعدتُ أتطلّع إلى الوجه الذي لم يكن في هذه المرة معرضًا عني. فوجدته قد تجرَّد من القلنسوة والمنديل ومال نحوي يسألني بصوته المألوف: «حسنًا يا جين.. هل عرفتني؟ ».

- «اخلع عنك عباءتك يا سيدي ثم ..».

- «ولكن في الخيط عقدة.. ساعديني !».

- «اقطعها يا سيدي !».

- «ها هي ذي.. إليك عني أيتها الثياب المستعارة !».

وتبدَّى مستر روشستر خارج الثياب التنكرية فصحت :

- «يا لها من فكرة عجيبة يا سيدي !».

- «ولكنها نُفّذت بدقّة. أليس كذلك؟ ألا ترين ذلك؟ ».

- «لقد وُفِّقت مع السيدات كل التوفيق ».

- «وهل لم أوفق معك؟ ».

- «إنك لم تمثِّل دور الغجرية معي ».

- «وأي شخصية مثلتها إذن؟ شخصيتي بالذات؟ ».

- «كلا.. شخصية لا يمكن تعليلها. وأعتقد أنك كنت تحاول استدراجي. وكنت تهذي لكي أهذي مثلك. وليس هذا من الإنصاف يا سيدي ».

- «أتصفحين عنِّي يا جين؟ ».

- «لا أستطيع قول شيء الآن، يجب أن أفكر. فإذا وجدت بعد التفكير والتأمل أنني لم أنزلق إلى حماقة شنيعة، فسوف أحاول أن أصفح عنك.. ولكن ما أقدمت عليه لم يكن من العدل ».

- «أوه. لقد كنت جد مستقيمة، مدقِّقة، حذرة، وعاقلة !».

فتأمَّلت وفكَّرت في كل ما حدث، وشعرت بارتياح، إذ كنت في الواقع قد اتخذت حذري منذ البداية، وتشكَّكت في وجود إحدى المهازل. فقد كنت أعلم أن الغجر وقارئي الكف لا يكشفون عن أنفسهم بمثل ما كشفت تلك العجوز عن نفسها، فضلًا عن أنني لاحظت صوتها المصطنَع وحرصها الشديد على أن تخفي أساريرها.. ولكن ذهني انصرف إذ ذاك إلى جريس بول.. تلك المرأة التي كانت تبدو لي لغزًا حيًا.. لغز الألغاز، كما كنت أعتبرها.. لكن مستر روشستر لم يخطر ببالي مطلقًا. وما لبث أن قال :

- «حسنًا.. فيم تفكرين؟ وما معنى هذه الابتسامة الوقور؟ !».

- «الدهشة وتهيئة النفس يا سيدي.. والآن، أظنني قد استأذنتك في الانصراف ».

- «كلا. ابقي لحظة، واخبريني ماذا يفعلون هناك في حجرة الاستقبال؟ ».

- «إنهم يتباحثون في أمر الغجرية على ما أعتقد ».

- «اجلسي.. واخبريني بما قالوه عني ».

- «يحسن ألّا أبقى طويلًا يا سيدي، لأن الساعة قد قاربت الحادية عشرة. آه، هل علمت أن غريبًا وصل إلى هنا بعد أن غادرتنا أنت في الصباح؟ ».

- «غريب؟ كلا.. من هو؟ لم أكن أتوقع حضور أحد! وهل انصرف؟ ».

- «كلا، فقد أخبرنا أنه يعرفك منذ زمن بعيد، وأن معرفته بك تسمح له أن ينعم بحرية البقاء هنا حتى تعود ».

- «يا للشيطان! هل قال لكم اسمه؟ ».

- «اسمه ميسون يا سيدي. وهو قادم من جزائر الهند الغربية، من سبانش تاون في جامايكا على ما أعتقد ».

وكان مستر روشستر واقفًا بجانبي وقد تناول يدي، وكأنه يقودني إلى أحد المقاعد، فلما سمع مني حديثي، شد على معصمي بحركة تشنُّجية وقد تجمَّدت الابتسامة على شفتيه. وظهر جليًا أنه فعلًا فد تشنَّج.. ثم قال ما يخاله الإنسان عبارة آلية تجمعت في كلمات: «ميسون جزائر الهند الغربية!». وراح يكرِّرها ثلاث مرات، وهو يزداد في كل مرة شحوبًا.. ولاح أنه لا يكاد يدري ما كان يقول، فسألته: «أتشعر بمرض يا سيدي؟». فقال وهو يترنَّح :

- «لقد أصابتني صدمة.. أصابتني لطمة يا جين !».

- «اتكئ عليَّ يا سيدي ».

- «لقد عرضت عليّ كتفك يا جين من قبل، فدعيني أتكئ عليها اليوم !».

- «نعم يا سيدي نعم.. وذراعي !».

فجلس ودعاني إلى الجلوس بجانبه، وهو ما زال ممسكًا بيدي بين راحتيه، يكاد يسحقها.. فيما يحملق في وجهي بنظرة زاخرة بالقلق والفزع، ثم قال :

- «يا صديقتي الصغيرة! بودِّي لو كنتُ في جزيرة هادئة معكِ أنتِ وحدك، وقد انجاب عني الكدر والخطر والذكريات المقيتة ».

- «هل في وسعي أن أعاونك يا سيدي؟ إنني أضحِّي بحياتي في خدمتك !».

- «سأنشد العون من يديك يا جين إذا ما احتجت إليه، أعدك بذلك ».

- «أشكرك يا سيدي. خبِّرني ماذا أفعل. وسأحاول على الأقل أن أفعل ».

- «آتيني الآن يا جين بكأس من النبيذ، من قاعة المائدة، إنهم الآن يتناولون العشاء. وأخبريني ما إذا كان ميسون معهم، وماذا يفعل؟ ».

وإذ ذهبت وجدتهم جميعًا في قاعة المائدة يتعشون، كما قال مستر روشستر.. ولم يكونوا جالسين حول المائدة، بل كان الطعام فوق البوفيه ويختار كل منهم ما طاب له منه. وقد وقفوا جماعات هنا وهناك، وأطباقهم وأكوابهم في أيديهم، والسرور والابتهاج يسودان.. وضحكاتهم وأحاديثهم عامة، منتعشة. أما مستر ميسون، فكان واقفًا بالقرب من المدفأة يتحدث إلى الكولونيل ومسز دنت في ابتهاج ومرح كالآخرين، فملأتُ كأسًا من النبيذ، ومس إنجرام ترقبني عابسة بمثل ما كنت أرقبها، ثم عدت إلى المكتبة .

كان شحوب مستر روشستر قد تلاشى وعاد إليه ثباته وعبوسه، فتناول الكأس من يدي وقال: «في صحتك أيتها الروح المواسية!». ثم ازدرد ما في الكأس واستدار إليَّ يقول: «ماذا يفعلون يا جين؟ ».

- «إنهم يضحكون ويتحدَّثون يا سيدي ».

- «ألا يبدو عليهم العبوس والدهشة، وكأنهم سمعوا شيئًا عجيبًا؟ ».

- «كلا. إطلاقًا.. إنهم يمزحون ويطربون ».

- «وميسون؟ ».

- «كان يضحك هو الآخر ».

- «لو جاء أولئك الناس وبصقوا في وجهي، فماذا تفعلين يا جين؟ ».

- «أطردهم من الحجرة يا سيدي.. إذا استطعت !».

فارتسمت على أساريره نصف ابتسامة وقال :

- «وإذ ذهبت إليهم فنظروا إليَّ في برود وتهامسوا فيما بينهم ساخرين، ثم انصرفوا وغادروني الواحد بعد الآخر؟ هل تنصرفين معهم؟ ».

- «لا أظن يا سيدي، بل سوف يتضاعف اغتباطي بالبقاء معك ».

- «لتعزيني؟ ».

- «نعم يا سيدي، لأسرِّي عنك ما استطعت ».

- «وإذا شهَّروا بك لتمسّكك بي؟ ».

- «قد لا أعرف شيئًا عن هذا التشهير، ولكنني لن أحفل به لو عرفته ».

- «إذن مستعدة لتحمّل الاتهام والتشهير من أجلي؟ ».

- «أجرؤ على ذلك إكرامًا لخاطر صديق. أي صديق يستحق، مثلك، أن أتمسَّك به ».

- «عودي الآن إلى الحجرة، واذهبي إلى ميسون على عجل، واهمسي في أذنه أن مستر روشستر قد عاد ويرغب في مقابلته، ثم أدخليه واتركينا !».

- «كما تريد يا سيدي ».

ونفَّذت مشيئته.. وحدَجني الجميع بنظراتهم عندما سرت وسطهم واتجهت مباشرة إلى مستر ميسون فأسرّيت إليه بالرسالة وتقدمته إلى المكتبة، ثم صعدت إلى الطابق العلوي. وهناك رقدت في فراشي إلى ساعة متأخرة، سمعت عندها الضيوف وهم يأوون إلى مخادعهم، وتبيَّنت صوت مستر روشستر وهو يقول: «من هنا يا ميسون.. هذه غرفتك ».

وكان يتكلم مبتهجًا، فاطمأنّ قلبي للهجته المرحة، ولم ألبث أن استغرقت في النوم .

الفصل العشرون

نسيتُ في تلك الليلة أن أسدل ستارتي - على غير عادتي - كما غفلت عن إسدال الستر الخشبي على النافذة، فكان من جرَّاء ذلك، أن القمر الذي كان بدرًا في أتمِّه، والليلة صافية لم يكد يبلغ في سراه تلك الرقعة المواجهة لحجرتي من صفحة السماء، حتى أطل على خلال زجاج النافذة العاري من الحجب.. وأيقظتني طلعته البهية، إذ صحوت في جوف الليل، ففتحت عيني على قرصه.. قرص في بياض الفضة وشفافية البلور.. كان جميلًا، ولكنه جد مهيب، جليل.. واستويت نصف جالسة في الفراش، ومددت ذراعي لأجذب الستارة، ولكن.. رحماك يا رب! يا لها من صرخة !

فقد مزَّقت شمل الليل، وهدوءه وسكونه، صرخة مروِّعة حادّة مدوية، سرَت في قصر ثورنفيلد من أقصاه إلى أقصاه! كفَّ وجيب قلبي، بل جمد قلبي في صدري، وشُلَّت يدي الممدودة، بينما تلاشت الصرخة، فلم تتجدد.. وما من ريب في أنه لم يكن في وسع الشخص الذي أطلق هذه الصرخة المروِّعة - أيًا كان - أن يكرِّرها مرتين متتاليتين.. بل إن الكواسر المجنَّحة على قمم جبال الأنديز ما كانت لتقوى على أن تطلق مثل هذه الصرخة التي تنكمش لها السحب واجفة! ولا بد لمن بعث مثل هذا الصوت القوي من أن يستريح قبل أن يكرِّر الجهد !

كانت الصرخة صادرة من الطابق الثالث، لأنها دوَّت من فوق رأسي .. أجل، في الحجرة القائمة فوق سقف حجرتي. ولم ألبث أن سمعت عراكًا.. وكان صراعًا عنيفًا، كما بدا لي من الضجة. وهتف صوت نصف مختنق: «النجدة! النجدة! النجدة!». ثلاث مرات متتابعة! ثم صاح: «ألا يأتي أحد؟». ثم سمعت عبر ألواح السقف الخشبية، والملاط، صوتًا يقول، والارتطامات دائرة في عنف وحشي: «روشستر! روشستر! ألا تعالَ بالله عليك !».

وفُتح باب إحدى الحجرات، وجرى شخص ما، أو اندفع، في الردهة.. وضربت قدم أرض الغرفة العليا مرة أخرى، ثم هوى جسم، وساد السكون! وكنت قد ارتديت بعض الثياب، برغم أن الرعب كان يهزّ كل أطرافي، وانطلقت من غرفتي.. وكان النائمون قد استيقظوا جميعًا، وتردَّدت في كل حجرة صيحات وغمغمات مذعورة.. وفُتحت الأبواب، الواحد تلو الآخر، وغُصَّت الردهة بالسادة والسيدات الذين هجروا مضاجعهم على السواء، يتساءلون في إرتباك: «أوه، ما هذا؟». «من الذي أصيب بالضرر؟». «وما الذي جرى؟». «هاتوا ضوءًا!». «هل شب حريق؟». «هل هناك لصوص؟». «إلى أين نجري؟». ولولا نور القمر

لكانوا في ظلام دامس.. وأخذوا يجرون هنا وهناك، ويلمون فلولهم.. وراح بعضهم يبكي، وبعضهم يتعثَّر، وقد سادهم اضطراب وقلق وتوتّر.. وصاح الكولونيل دنت: «أين روشستر بحق الشيطان؟ لم أجده في فراشه». فأتاه الرد :

- «ها أنذا! ها أنذا! هدِّئوا روعكم جميعًا، فإنني قادم !».

ثم فتح الباب القائم في نهاية الدهليز، وأقبل منه مستر روشستر يحمل شمعة. وكان هابطًا لتوه من الطابق العلوي، فجرت إليه إحدى السيدات وأمسكت بذراعه.. تلك كانت مس بلانش التي سألته: «أي حادث مروِّع وقع؟ تكلَّم! دعنا نعلم أسوأ ما في الأمر!». فأجاب: «فقط حاذرن أن توقعنني أو تخنقنني!». إذ كانت ابنتا الليدي إيشتون قد تعلقتا به كذلك، بينما اندفعت السيدتان الوالدتان، ليدي إنجرام وليدي إيشتون، نحوه في عباءتيهما الناصعتين، أشبه بمركبين شراعيين.. وما لبث أن صاح :

- «لا شيء هناك! لا شيء! إنها مجرَّد محاولة لتمثيل مسرحية «ضجّة كبيرة حول لا شيء» لشكسبير.. ألا ابتعدن يا سيداتي. وإلا أصبحت خطرًا !».

والواقع أنه بدا خطرًا، إذ أخذت عيناه السوداوان تطلقان الشرر بيد أنه هدَّأ نفسه جاهدًا، وعاد يقول: لقد انتاب كابوس إحدى الخادمات، وهذا كل ما هناك.. فهي مخلوقة عصبية، سريعة الهياج، خُيِّل إليها - في المنام - أنها ترى شبحًا، أو شيئًا من هذا القبيل، فتولَّتها نوبة من الفزع! والآن، لا بد من أن أراكم جميعًا في مخادعكم إذ لا سبيل للعناية بالخادم إلّا بعد أن يهدأ المنزل ويستتب السكون.. هيا يا سادة تفضلوا فاضربوا المثل للسيدات. وإني لواثق من أن مس إنجرام تستطيع التغلب على مخاوفها التي لا تجدي. هيا يا آمي ولويزا إلى مخدعكما كحمامتين وادعتين، وأنتما يا سيدتيّ (مخاطبًا الوالدتين) ستصابان ببرد إذا بقيتما أكثر من ذلك في هذا الجوالقارس !

وهكذا استطاع بالمداهنة تارة وبالأمر تارة أخرى، أن يحمل الجميع على العودة مرة أخرى إلى مخادعهم. أما أنا فلم أنتظر حتى يأمرني، بل انسحبت عائدة إلى غرفتي دون أن ينتبه أحد، كما غادرتها من قبل دون أن أثير انتباهًا.. على أنني لم أندسّ في فراشي، بل شرعت، على العكس، أرتدي ثيابي باعتناء.. فلعلني كنت الوحيدة التي سمعت الجلبة التي أعقبت الصرخة، والكلمات التي تخللتها، لأنها كانت منبعثة من الحجرة التي تعلو مخدعي، وقد أكدت لي أن الذي أشاع الفزع في القصر لم يكن كابوس خادم، وأن الإيضاح الذي ذكره مستر روشستر لم يكن سوى ابتكار منه لتهدئة ضيوفه، ولذلك

ارتديت ملابسي استعدادًا للطوارئ، حتى إذا انتهيت من ذلك جلست بجوار النافذة وأنا أتطلّع إلى الأرض الساكنة، والحقول المموَّهة بالفضة، أترقب ما قد يحدث، إذ خُيِّل إليَّ أن حادثًا لن يلبث أن يتلو تلك الصيحة وذاك العراك وذلك النداء !

كلا.. لقد عاد السكون، وتلاشت تدريجًا كل همهمة وكل حركة، فلم تنقضِ ساعة حتى هدأ القصر هدوء الصحراء، وكان النوم والليل قد استردا سلطانهما، بينما أفل القمر وأوشك على الغروب.. ولم أرتَح إلى الجلوس في البرد والظلام، ففكَّرت في أن أرقد على فراشي بملابسي. وغادرت النافذة، واجتزت السجادة في هدوء، وفيما كنت منحنية لأخلع حذائي، نقرت الباب يد حذرة، نقرًا خفيفًا، فسألت: «هل ثمة حاجة إليَّ؟». وسألني الصوت الذي توقَّعت أن أسمعه وأعني به صوت سيدي: «هل أنتِ مستيقظة؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «وفي ملابسك؟ ».

- «نعم ».

- «إذن، اخرجي بهدوء؟ ».

فأطعت.. وكان مستر روشستر واقفًا في الدهليز، يحمل شمعة، فقال :

- «إنني أحتاج إليك، فتعالي من هذه الناحية.. على مهلٍ، ولا تحدثي ضجة! وكان نعلاي رقيقين، فاستطعت السير في خفة الهرَّة على البلاط المكسو بالسجاد.. وتسلّل السيد في البهو، ثم صعدنا السلم، وما لبث أن وقف في الردهة المظلمة، ذات السقف المنخفض في الطابق الثالث المشؤوم، ثم سألني هامسًا: «هل لديك اسفنج في غرفتك؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «وهل لديك أي أملاح طيارة.. نشادر مثلًا؟ ».

- «نعم ».

- «ارجعي وهاتي الاثنين ».

فعدت وأخذت الإسفنج من فوق حوض الماء بغرفتي، والأملاح من درجي، ثم قفلت عائدة مرة أخرى. وكان في انتظاري يحمل في يده مفتاحًا. فاقترب من أحد الأبواب الصغيرة السوداء، وأولج المفتاح في القفل. وتوقف يخاطبني ثانية: «هل يصيبك مشهد الدم بالغثيان؟ ».

- «لا أظن، وإن لم أجرِّب ذلك من قبل ».

وسرَت في جسدي رعشة وأنا أجيبه، وإن لم أشعر ببرد أو إعياء. فقال: «ألا أعطيني يدك. فلن أجازف وأتركك معرَّضة للإغماء!». ووضعت يدي في يده. فقال: «إنها دافئة، وثابتة الأعصاب!». ثم أدار المفتاح ودفع الباب .

ورأيت غرفة أذكر أنني شاهدتها من قبل عندما جلتُ في القصر مع مسز فير فاكس. وكانت ثمة ستارة خلف الباب، ولكن هذه الستارة بدت الآن مشدودة إلى أنشوطة في أحد الجوانب، وظهر من خلفها باب كان مواربًا، يفضي إلى حجرة أخرى داخلية، كان ينبعث منها نور، وتتصاعد منها زمجرة أشبه بكلب يتعارك. فوضع مستر روشستر شمعته وقال: «انتظري لحظة !».

وتقدم إلى الحجرة الداخلية. فاستقبلته ضحكة عالية، بدت صاخبة في البداية، ولكنها انتهت بقهقهة جريس بول! إذن فقد كانت المرأة هناك! وقام مستر روشستر ببعض ترتيبات، دون أن ينبس ببنت شفة، وإن كنت قد سمعت صوتًا خافتًا يخاطبه. ثم خرج وأغلق الباب خلفه. وأوغل في الحجرة التي كنت أنتظره عند بابها، وهو يناديني: «تعالي يا جين!». فسرت إلى الجانب الآخر من سرير كبير، حجبت أستاره المسدولة جزءًا كبيرًا من الغرفة. وكان بالقرب من رأس السرير مقعد مريح. جلس فيه رجل يرتدي كل ملابسه ما عدا سترته.. وكان ساكنًا، مائل الرأس إلى الخلف، مغمض العينين، فرفع مستر روشستر الشمعة فوقه، وإذ ذاك عرفت في وجهه الشاحب، الذي يكاد يخلو من معالم الحياة، ذلك الغريب: ميسون، كما رأيت جنبه وذراعه مخضَّبين بالدماء !

وقال مستر روشستر: «أمسكي الشمعة!». فتناولتها، وجاء بحوض من الماء وقال: «وامسكي هذا!». فأطعت. وعندئذ أخذ الإسفنجة وغمسها في الماء، وبلّل وجه الرجل الذي كان أشبه بجثة هامدة. ثم طلب مستر روشستر قارورة «النشادر». وقربها من خياشيم مستر ميسون، فما لبث هذا أن فتح عينيه وهو يئنّ. فأزاح مستر روشستر قميص الجريح الذي كانت ذراعه وكتفه مضمَّدتَيْن، ثم أزال الدماء التي كانت تتدفَّق بسرعة. وغمغم مستر ميسون :

- «هل هناك خطر عاجل؟ ».

- «أوه، كلا.. إنه خدش بسيط. فلا تضطرب، وتجلّد! سآتيك بنفسي الآن بجرَّاح، وأرجو أن تستطيع الانتقال في الصباح من هذه الحجرة..» والتفت نحوي وقال: «اسمعي يا جين». فقلت: «سيدي؟ ».

- «سأضطر إلى ترككِ في هذه الحجرة مع هذا السيد نحو ساعة، وربما ساعتين. وعليك أن تمسحي الدم بالإسفنجة كما فعلت الآن، إذا عاد ينزف من جديد. أما إذا شعر السيد بالإغماء. فضعي على شفتيه كوب الماء الذي فوق حوض الغسيل، وقرِّبي من أنفه قارورة أملاحك الطيَّارة.. وعليك ألّا تتحدَّثي معه بأي موضوع! وأنت يا ريتشارد، لا تخاطبها وإلا عرَّضت حياتك للخطر، ولن أكون مسؤولًا عما يحدث لو أنك فتحت شفتيك أو تحرَّكت من مكانك !».

وتأوَّه الرجل المسكين ثانية، وبدا أنه لا يجرؤ على الحراك وكأنما شلَّ حركته الخوف -لا أدري أمن الموت أو من شيء آخر - ثم وضع مستر روشستر في يدي الإسفنجة التي تشبعت بالدماء. فرحت أستعملها كما كان يفعل. وبعد أن راقبني لحظة قال: «تذكَّري! لا حديث!». ثم غادر الحجرة .

وساورني شعور عجيب عندما دار المفتاح في القفل، وتلاشى وقع قدميه.. ها أنا ذي في الطابق الثالث حبيسة في إحدى حجراته المنخفضة السقف التي يحفّ بها الغموض.. والليل يلفّني، وتحت عينيَّ ويديّ منظر دموي، ولا يكاد يفصلني عن امرأة قاتلة سوى باب واحد! نعم كان ذلك مروّعًا.. أما ما عداه، فكان في مقدوري احتماله. ولكنني كنت أرتعد لمجرد التفكير في أن جريس بول قد تنقضّ عليَّ !

ومع ذلك، كان عليَّ أن أبقى في مكاني، وأن أرقب هذه السحنة الشاحبة، وهاتين الشفتين الزرقاوين اللتين حرم عليهما أن تنفرجا. وهاتين العينين اللتين أخذتا تغمضان، وتنفتحان، وتجولان في الغرف، وتحدِّقان فيَّ بين الفينة والفينة، وقد ارتسم فيهما الهلع.. كما كان عليَّ أن أغمس يدي بين آونة وأخرى في حوض ملئ بالماء والدماء. فأمسح الدم المنسال. وأرقب ضوء الشمعة وهو يخفت ويتلاشى في الظلال التي تتكاثف على الستائر العتيقة من حولي، أو تشتد اسودادًا تحت أستار السرير الواسع القديم، وتختلج بحركة غريبة فوق أبواب صوان كان في مواجهتي.. وكانت تلك الأبواب تحمل اثني عشر لوحًا من الزجاج، عليها رسوم كالحة لرؤوس اثني عشر من الرسل، يتوسَّط كل رأس منها لوحًا كأنه الإطار.. وكان ينتصب فوقها صليب من الأبنوس يعلوه تمثال للمسيح وهو في سكرات الموت.. وأخذت الظلال وبصيص ضوء الشمعة يرسمان أشكالًا وهما يهتزان ويحومان هنا وهناك، فتمثَّلت لي صورة الطبيب الملتحي لوك وهو يحني رأسه. وصورة القديس يوحنا بشعره الطويل

المتموِّج، ووجه يهوذا الشيطاني المقيت وقد تبدَّى خارجًا من أحد الألواح الزجاجية وبدا أنه يوشك أن ينجلي عن صورة الشيطان نفسه! ووسط كل هذا، كنت مضطرة إلى أن أنصت كما كنت أرقب.. أن أنصت إلى حركات تلك الوحشة الكاسرة أو الشيطانة القابعة في مخدعها، في الحجرة الداخلية.. على أنها - منذ زيارة مستر روشستر - كانت ساكنة، وكأنما استولى عليها سحر غريب، فلم أسمع طيلة الليل سوى أصوات ثلاثة، في فترات متباعدة صرير حاد صدر عن ألواح خشبية، وزمجرة رهيبة كتلك التي سمعتها في البداية وكأنها منبعثة من كلب، وأنين آدميّ عميق !

وما لبثت أفكاري أن أزعجتني، إذ رحت أتساءل: أي جريمة هذه التي تعيش في هذا القصر المنعزل، دون أن يقوى صاحبه على إبعادها أو إخضاعها؟ وما هذا السر الذي يتجلّى مرة في شكل حريق، ومرة أخرى في صورة دماء في سكون الليل؟ وأي مخلوقة هذه التي تنكَّرت في صورة وشكل امرأة عادية تنطق كأنها شيطانة ساخرة، أو طائر من الطيور الجارحة التي تجري وراء الجيَف؟ ثم هذا الرجل التافه، الأجنبي، الغريب، الذي كنت أعنى به.. ما الذي زُجَّ به في هذا الشرك من الرعب والفزع؟ ولماذا انصبّ عليه الحنق والغيظ؟ وماذا جاء به إلى هذا الركن من القصر في وقت غير ملائم؟ لقد سمعت مستر روشستر يختار له حجرة بالطابق الأسفل، فما الذي جاء به إلى هنا؟ وما الذي جعله الآن وادعًا ذلولًا إزاء الغدر العنيف الذي أحاق به؟ ولماذا ينصاع في هدوء إلى هذا المخبأ الذي أكرهه مستر روشستر على الاحتماء فيه؟ ولماذا اختار له مستر روشستر هذا المخبأ بالذات ليدفعه إليه دفعًا؟ لقد تعرَّض ضيف السيد للعدوان، بل إن حياة السيد نفسه تعرَّضت في مناسبة مضت لمؤامرة أثيمة، ولكنه حاول أن يتستر على كل من الحادثين، وأن يدفعهما إلى الظلام والنسيان، فلماذا؟

وها أنا ذي أخيرًا أرى مستر ميسون يخضع لمستر روشستر، وأرى إرادة الأخير القوية تسيطر سيطرة تامة على جمود الأول. وقد أكد لي ذلك ما دار بينهما من حديث قصير، كما بدا لي من لقائهما الأول تأثير مستر روشستر في ضيفه، فلماذا اكتأب السيد عندما سمع نبأ وصول مستر ميسون؟ ولماذا كان لمجرد ذكر اسم ذلك الرجل الذي ليست له إرادة أمامه، وقع الصاعقة على نفس روشستر منذ بضع ساعات؟ آه، لن أستطيع أن أنسى نظرته وشحوبه عندما همس إليَّ: «لقد أصابتني صدمة يا جين!»، ولن أستطيع أن أنسى كيف كانت ذراعه ترتعد وهو يعتمد بها على كتفي! لم يكن أمرًا خفيفًا ذلك الذي أمكنه أن يحيي روح فير فاكس روشستر القوية، وأن يهز كيانه المتين .

وعندما طال الليل وطال، صحت في أعماقي: «متى يأتي؟ متى يأتي؟». فقد كان مريضي يئن ويئن دون أن يأتي النهار أو يأتي العون. وكم رفعت المياه إلى شفتي ميسون الشاحبتين، وكم قدمت له الأملاح المنعشة، فكانت جهودي تذهب سدى، لأن قواه أخذت تخور بسرعة، سواء لفرط آلامه الجسدية والعقلية، أو بسبب ما فقده من دماء، أو للسببين معًا. ومن ثم أخذ أنينه يزداد، وتبدى عليه الخور، واهتاج كأنه هالك لا محالة، فخشيت أن يكون مشرفًا على الموت قبل أن أستطيع حتى مخاطبته .

وأخيرًا، انطفأت الشمعة، وفيما كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، شاهدت خيوطًا من الضياء فوق أهداب ستائر النافذة، فأدركت أن الفجر يقترب. وسرعان ما سمعت بايلوت ينبح خارج بيته البعيد في الحديقة، فانتعش الأمل في قلبي.. ولم يذهب هذا الأمل عبثًا، إذ لم تمضِ خمس دقائق أخرى حتى سمعت المفتاح يولَج والقفل يفتَح، بشيرًا بأن مهمتي في المراقبة قد انتهت، وهي مهمة لا يمكن أن تكون قد استغرقت أكثر من ساعتين، وإن خلت أنها ظلت أسابيع طويلة. ودخل مستر روشستر ومعه الجرَّاح الذي ذهب لاستدعائه، ثم قال لهذا الأخير :

- «والآن انتبه يا كارتر إليَّ، ليس لديك سوى نصف ساعة لتضميد الجرح وعصب الضمادة ونقل الجريح إلى أسفل، وإتمام كل شيء !».

- «ولكن، هل هو يقوى على الانتقال يا سيدي؟ ».

- «بلا شك فليس الأمر خطيرًا، ولكنه عصبي ولا بد من تهدئة نفسه. تعال اشرع في عملك !».

ثم جذب مستر روشستر الستارة الكثيفة ليدع الضوء ينفذ ما استطاع. وأدهشني وأبهج نفسي زحف الفجر، إذ رأيت خيوط النهار الوردية تشرع في إضاءة الشرق.. ثم اقترب مستر روشستر من ميسون، الذي أخذ الجرَّاح يضمِّد له جراحه، وسأله: «والآن يا صديقي الطيب، كيف حالك؟». فأجابه بصوت واهن: «أخشى أن تكون قد قضت عليَّ !».

- «لا شيء خطير.. تشجع! لن يمضي أسبوعان حتى تسترد صحتك. كل ما هنالك أنك فقدت قليلًا من الدم. أكد له يا كارتر أن لا خطر عليه ».

فقال كارتر وقد انتهى من حل الضمادات :

- «في وسعي أن أؤكد له ذلك وضميري مرتاح.. فقط كنت أريد أن أكون هنا قبل الآن، حتى أوفِّر عليه كل الدم الذي فقده، ولكن ما هذا؟ إن لحم الكتف ممزَّق، ومقطوع كذلك! لم ينشأ هذا الجرح من سكين.. هذا أثر أسنان !».

فدمدم ميسون: «لقد عضتني.. انقضّت عليَّ كنمرة ضارية عندما انتزع منها روشستر السكين ».

وقال روشستر: «كان يجدر ألّا تستسلم، بل كان عليك أن تواجهها ».

فأجاب ميسون: «ولكن ما الذي يملك الإنسان أن يفعله في مثل هذه الظروف؟ كان الأمر مخيفًا!». وارتجف وهو يسترسل قائلًا: «ولم أكن أتوقَّع منها ذلك لأنها كانت في البداية بادية الهدوء تمامًا ».

ورد صديقه: «لقد أنذرتك، وطلبت منك أن تكون على حذر عندما تقترب منها.. هذا إضافة إلى أنه كان في وسعك أن تنتظر إلى الغد لأكون معك. كانت حماقة منك أن حاولت مقابلتها الليلة.. وحدك !».

- «كنت أعتقد أنني أستطيع القيام بعمل ذي فائدة ».

- «تعتقد! تعتقد! إنني أضيق بسماع ذلك، ومع هذا فها أنت قد قاسيت وسوف تقاسي كثيرًا ما لم تستمع إلى نصيحتي، ولن أقول شيئًا بعد ذلك. هيا أسرع يا كارتر.. أسرع! فسوف تشرق الشمس بعد قليل، ويجب أن أراه وهو ينصرف ».

- «حالًا يا سيدي.. لقد ضمَّدت الكتف، ويجب أن أهتم بهذا الجرح الآخر في ذراعه، أظنها قد أعملت أسنانها هنا أيضًا ».

فقال ميسون: «لقد امتصت دمي وهدَّدت بأن تستنزف دماء قلبي !».

وشاهدت مستر روشستر يرتعد وقد تجلَّت عليه صورة عجيبة من الاشمئزاز والرعب والكراهية كادت تشوِّه أساريره، ولكنه اكتفى بأن قال :

- «هيا التزم الصمت يا ريتشارد ولا تهتم بترديد هذيانها ».

فكان الجواب: «ليتني أقوى على نسيانها !».

- «ستنساها عندما تغادر البلاد، وفي وسعك متى عدت من جمايكا أن تحسبها قد ماتت ودُفِنتِ، أو بالأحرى لا حاجة بك إلى التفكير فيها على الإطلاق !».

- «يستحيل أن أنسى هذه الليلة !».

- «هذا غير مستحيل: تشجَّع قليلًا يا رجل، فقد حسبت منذ ساعتين أنك قد مت، ومع ذلك فها أنت حي تتحدَّث إلينا.. ها قد انتهى كارتر منك أو كاد، وسوف أعيد إليك هندامك حالًا». ثم التفت نحوي لأول مرة منذ عودته وقال: «خذي هذا المفتاح يا جين، واذهبي إلى مخدعي فافتحي خزانة ملابسي واحضري قميصًا نظيفًا ورباط رقبة.. هيا أسرعي !».

فذهبت وبحثت عن الخزانة، وجئت بما طلبه. أخذ ما حملته وقال :

- «والآن اذهبي إلى الجانب الآخر من الفراش، إلى أن ينتهي من زينته، ولكن لا تغادري الحجرة فقد أحتاج إليك ثانية!». وما كدت أنسحب إلى حيث وجَّهني. حتى سرعان ما سألني :

- «هل كان إنسان ما يتحرَّك في الطابق الأسفل عندما هبطتِ؟ ».

- «كلا يا سيدي. كان كل شيء هادئًا ساكنًا ».

- «سننقلك بحذر من هنا يا ريتشارد، لصالحك وصالح تلك المخلوقة الشقية. لقد ناضلت طويلًا لتحاشي التعريض والتشهير، ولا أريد أن يحدث شيء من ذلك أخيرًا.. هيا يا كارتر ساعده على ارتداء صداره.. أين تركت معطفك الفرو؟ إنك لا تستطيع الرحيل ميلًا واحدًا من دونه في هذا الطقس اللعين البرودة. أهو في حجرتك؟ اجري يا جين واهبطي إلى حجرته المجاورة لحجرتي، فأحضري المعطف الذي ترينه هنالك !».

وجريت مرة أخرى.. ومرة أخرى عدت وأنا أحمل معطفًا ضخمًا مبطَّنًا ومذيَّلًا بالفراء، فقال سيدي الذي لا يعرف التعب :

- «لديَّ مهمة أخرى لكِ: يجب أن تعودي إلى حجرتي مرة أخرى. إنك للأسف قد غدوت بلون المخمل، ولن ينفعنا في وقت الشدة رسول أعرج! اذهبي إلى الدرج الأوسط في منضدة زينتي. فاخرجي منه قارورة صغيرة وكأسًا صغيرة تجدينهما هنالك.. أسرعي!». فجريت وعدت أحمل المطلوب فقال: «هذا حسن. والآن سآخذ مطلق الحرية يا دكتور في إعداد جرعة بمعرفتي وعلى مسؤوليتي الخاصة. هذا دواء منعش اشتريته في روما من دجَّال إيطالي كان يمكن أن تركله بقدمك، وهو شيء يا كارتر لا يُستعمل بلا تمييز وبلا حساب، ولكنه يصلح في حالة كهذه على سبيل المثال .. اعطني قليلًا من الماء يا جين!». ثم مد يده بالكأس الصغير فملأتها له حتى النصف. فقال: «هذا يكفي.

والآن بلَلي حافة فوهة القارورة». فلما فعلت قطر إثني عشرة قطرة من سائل قرمزيّ اللون، ثم قدمها إلى ميسون قائلًا :

- «اشرب فهذا سيمنحك الشجاعة التي تعوزك لساعة أو أكثر !».

- «سوف يؤذيني لأنه ملهب !».

- «اشرب! اشرب! اشرب !».

وأخيرًا رضخ ميسون، بعد أن وجد ألّا فائدة من المقاومة. وكان قد انتهى من ارتداء ملابسه. ولكنه لم يعد ملطخًا بالدماء أو مكتئب الأسارير.وبعد أن تجرَّع الدواء، وانقضت ثلاث دقائق، تناول مستر روشستر ذراعه وقال :

- «الآن، أنا واثق من قدرتك على الوقوف على قدميك.. حاول !».

فنهض الجريح. وقال مستر روشستر مستطردًا :

-«أسنده يا كارتر من تحت الكتف. وأنت يا ريتشارد، ابسط أساريرك واخطُ إلى الأمام.. هكذا !».

فغمغم مستر ميسون: «إنني أشعر بتحسُّن فعلًا !».

- «أنا واثق من ذلك. والآن، سيري أمامنا يا جين إلى السلم الخلفي وافتحي باب الممر الجانبي. ثم اطلبي من سائق مركبة البريد أن يستعد لقدومنا. وسوف تجدينه في الفناء، أو في الخارج غير بعيد، لأنني أمرته بألّا يقترب بعربته من الرصيف. وإذا شاهدتِ أحدًا هنا أو هناك فتعالي إلى قاعدة السلم وتنحنحي ».

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة والنصف، وأوشكت الشمس على الشروق، ولكني وجدت المطبخ ما زال مظلمًا ساكنًا، وباب الممر الجانبي مغلقًا، ففتحته بأقل ضوضاء ممكنة. وكان الهدوء يعمّ الفناء، ولكن البوابات كانت مفتوحة على مصاريعها. وشاهدت العربة في الخارج وقد تأهَّبت الجياد وجلس السائق في مقعده، فاقتربت وأبلغته بأن السيد قادم. وأومأ برأسه، فتطلعت حواليَّ بعناية واهتمام، ثم أنصتّ فوجدت السكينة ما زالت تغمض العيون، وستائر نوافذ الخدم ما تزال مسدولة، وقد شرعت الطيور تشقشق في أشجار الحديقة التي مالت أغصانها كإكاليل بيض، على الجدار الذي كان يؤلِّف

جانبًا من سياج الفناء. وكانت جياد العربة تضرب الأرض بأقدامها من حين إلى آخر.. وفيما عدا ذلك كان السكون يكتنف كل شيء .

واقترب السيد إذ ذاك مستندًا إلى مستر روشستر والجرَّاح، ولكنه كان يسير بسهولة ويسر، ثم ساعده الرجلان حتى ركب العربة، وتبعه كارتر. وعندئذ قال مستر روشستر للجراح :

- «اعتنِ به وابقِه في منزلك حتى يسترد صحته تمامًا، وسآتي بعد يوم أو اثنين لأرى كيف حاله.. وأنت يا ريتشارد، كيف حالك الآن؟ ».

- «إن الهواء العليل ينعشني يا فيرفاكس ».

- «حسنًا. دع النافذة مفتوحة من هذا الجانب يا كارتر، فليست ثمة رياح. في حفظ الله يا ديك !».

- «يا فيرفاكس ...».

- «ماذا؟ ».

- «اعتنِ بها وعاملها برفق ما استطعت ودعها ...».

ثم توقَّف وانفجر في البكاء، فأجابه مستر روشستر :

- «سأبذل قصاراي وسأنفِّذ ما تريد». ثم أغلق الباب ومضت العربة في طريقها. وفيما كان مستر روشستر يغلق أبواب الفناء، قال: « لكم أتمنى على الله أن يُنهي ذلك كله!». ثم سار يخطو ببطء نحو باب في الجدار المحيط بالحديقة. وكنت أحسب أنه قد فرغ مني، فتأهَّبت للعودة إلى القصر، ولكنني سمعته ينادي: «يا جين!». وكان قد فتح البوابة ووقف ينتظرني ثم قال :

- «تعالي حيث يوجد بعض الهواء المنعش.. لبضع دقائق.. فإن القصر مجرد سجن.. ألا تشعرين بذلك؟ ».

- «بل إنه يبدو لي قصرًا منيفًا يا سيدي ».

فأجاب: «إن عينيك يغشاهما نقاب من عدم الخبرة وقلّة التجربة، فأنت ترين سطح الأمور، من خلال مرآة مسحورة لا تتبينين معها أن القشرة الذهبية مادة لزجة غروية، وأن الجوخ الناعم مجرَّد نسيج عنكبوت، وأن الرخام حجر

خسيس، وأن الأثاث المصقول مجرد نفايات من الخشب ولحاء خشن، أما هنا (وأشار إلى خلوة مورقة دخلناها) فكل شيء حقيقي جميل نقي ».

وأخذ يتمشى في طريق تغشى حواشيه أشجار البقس والتفاح والكمثري والكرز من جهة، وتحف به من الجانب الآخر شتى أنواع الزهور التي تزدهر وتأتلق بعد أمطار أبريل وإشراق الربيع الجميل.. وكانت الشمس إذ ذاك تصعد في الشرق، وقد أضاءت بنورها أشجار الحديقة النامية المزهرة وما تحتها من مماشٍ وطرقات هادئة .

- «هل لك في زهرة يا جين؟ ».

وقطف أول زهرة على الغصن وقدَّمها إليَّ، فقلت: «أشكرك يا سيدي !».

- «هل تحبِّين هذه الشمس المشرقة يا جين؟ وهذه السماء بسحُبها العالية، التي ستنقشع عندما تدفأ أوصال النهار، وهذا الطقس الهادئ العليل؟ ».

- «نعم.. أحبها كل الحب ».

- «لقد قضيت ليلة ليلاء يا جين !».

- «نعم يا سيدي ».

- «ولقد امتقع وجهك بسببها.. هل خفت إذ تركتك وحدك مع ميسون؟ ».

- «خفت أن يخرج أحد من الحجرة الداخلية ».

- «ولكني أغقلت الباب جيدًا وحملت المفتاح في جيبي. إنني أكون راعيًا مهملًا إذا أنا تركت حملًا - حملي العزيز المدلَّل - على مقربة من كهف ذئب كاسر دون حراسة! لقد تركتك في مأمن !».

- «هل ستظل جريس تعيش هنا يا سيدي ».

- «أوه. نعم، لا تشغلي بالك بها.. أقصيها من رأسك ».

- «ومع ذلك يبدو أن حياتك ستظل في خطر ما بقيت هذه المرأة هنا ».

- «لا تخافي أبدًا فسوف أهتم بنفسي ».

- «هل ذهب الآن يا سيدي ذلك الخطر الذي كنت تخشاه؟ ».

- «لا أستطيع الجزم بذلك حتى يخرج ميسون من انجلترا.. ولا حتى بعد ذلك! إن من يريد الحياة لأجلي إنما يقف على أديم بركان قد ينفجر يومًا ويرسل حممًا من نار ».

- «ولكن مستر ميسون يبدو رجلًا سلس القيادة، واقعًا تحت تأثيرك بحيث لا يقوى إطلاقًا على أن يتحدَّاك أو يتعمَّد إيذاءك ».

- «أوه.. كلا؟ إن ميسون لن يتحدَّاني ولن يمسَّني عامدًا بأذى ولكنه ربما تسبَّب عن غير قصد، وبكلمة يتفوَّه بها، في حرماني إلى الأبد من السعادة، إن لم يكن من حياتي !».

- «اطلب منه يا سيدي أن يكون على حذر.. دعه يعرف ما تخشاه، بيِّن له كيف يتحاشى الخطر ».

ضحك باستخفاف، وأسرع يتناول يدي، ولكنه سرعان ما ألقاها عنه قائلًا :

- «لو كان هذا في وسعي يا ساذجة فمن أين يأتي الخطر. خطر الموت والإعدام في لحظة؟ منذ عرفت ميسون وأني أقول له : "افعل هذا " فيفعله، ولكني لا أستطيع أن ألقي عليه أوامري في هذا الصدد.. لا يمكن أن أقول له : "حذار من إيذائي يا ريتشارد !". إذ يجب أن يجهل أن إيذائي أمر ممكن. الآن يبدو لي أنكِ حائرة ولن أحيِّركِ أكثر.. إنك صديقتي، ألست كذلك؟ ».

- «بودي أن أخدمك يا سيدي وأن أطيعك في كل ما هو حق ».

- «تمامًا.. أراكِ تفعلين ذلك، وأرى آيات الرضا التام في مشيتكِ وفي طلعتكِ وفي عينيكِ ووجهكِ عندما تعاونيني وتحاولين إرضائي وتعملين من أجلي ومعي "في كل ما هو حق " كما تقولين.. ولو أنني طلبت إليكِ أن تفعلي ما ترينه خطأ لما تجلَّت عليكِ أمارات النشاط في خطوك الرشيق، ولا هذه الخفة في يديك النظيفتين، ولا هذه الحياة والملاحة في أساريرك، ولاستدارت صديقتي بوجه هادئ شاحب قائلة : "كلا يا سيدي. هذا مستحيل. لا أستطيع أن أعمل ذلك لأنه يجافي الحق والصواب !". دون أن يزعزعها أو يغيرها شيء. وكأنها نجم ثابت في مكانه. وأنت.. إن لك سلطانًا عليَّ، وفي وسعك أن تؤذيني، ومع ذلك لا أجرؤ على أن أكشف لك عن موضع الضعف والألم في نفسي، خشية أن تطعنيني في الحال بالرغم من إخلاصك وصداقتك !».

- «إذا كانت خشيتك من مستر ميسون لا تعدو خوفك مني، فأطمئن إلى سلامتك يا سيدي ».

- «هذا ما أرجوه من الله.. هذه ظلة يا جين فاجلسي !».

وكانت الظلة عبارة عن قوس في الجدار، تكتنفه أشجار اللبلاب، وتضم أريكة قديمة جلس عليها مستر روشستر وأفسح لي مكانًا إلى جانبه، ولكني وقفت أمامه فقال: «اجلسي، الأريكة طويلة تتسع لنا نحن الاثنين.. لا تتردَّدي في الجلوس بجانبي، أليس كذلك؟ هل هذا يجافي الحق والصواب يا جين؟».
فرددت بالامتثال لأنني رأيت في الرفض ما لا يتفق مع الحكمة .

- «والآن يا صديقتي الصغيرة، بينما الشمس تشرب الندى، وبينما الزهور جميعها في هذه الحديقة تصحو من غفوتها، والطيور تجيء لصغارها بالفطور من الحقول، والنحل يشرع مبكرًا في أولى نوبات عمله، سأضع بين يديك قضيتي التي يجب أن تعتبريها قضيتك.. ولكن انظري إليَّ أولًا، وخبِّريني أنكِ مرتاحة وغير خائفة من أن يكون في إبقائك هنا أي بأس، وأنه ليس في بقائك أي خطيئة ».

- «كلا يا سيدي. أنا راضية ».

- «إذن استعيني بخيالك وافرضي أنك لم تعودي فتاة حسنت تربيتها ونشأتها، وإنما أنت فتي شرس انغمس منذ نعومة أظفاره في المظاهر الزائفة. وتخيلي نفسك في بلد أجنبي بعيد، وتصوري أنك ارتكبت هنالك خطيئة كبرى، مهما تكن طبيعتها أو الدوافع إليها، تتبعك عواقبها الوخيمة طول العمر وتنغِّص عليك حياتك. تذكَّري أنني لم أقل «جريمة»، ولا أتحدَّث عن إراقة دم أو أي عمل إجرامي آخر يجعل مرتكبه مسؤولًا أمام القانون، ولكني أقول «خطيئة». ولقد غدت نتائج هذه «الغلطة» لا تُطاق، ولا سبيل إلى التخلُّص منها ومن عذابها: وتظلِّين تتخذين التدابير للخلاص، وهي تدابير غير عادية ولكنها لا تنافي القانون ولا تدعو للوم، ومع ذلك فأنتِ تعسة بائسة، لأن الأمل قد أغلق في وجهك وأنتِ ما زلت على أبواب الحياة، ولأن شمس حياتك قد كُسفت في رائعة النهار ولا أمل في أن تشرق من جديد قبل أن يأتي المساء ويحين الغروب.. وأصبحت الأوضاع الوضيعة القذرة هي الغذاء الوحيد للذكرى، فإذا بك تهيمين على وجهك هنا وهناك بحثًا عن الراحة في هذا المنفى، وتنشدين السعادة في اللهو، وأعني اللهو الجسدي الشهواني الذي لا يمت إلى القلب بصلة، ولذلك فهو يظلم العقل ويؤذي الشعور.. ثم تعودين إلى وطنك بعد سنوات من النفي الاختياري، وأنت مثقلة القلب، كسيرة الوجدان، لتجدي صديقًا جديدًا - لا يهم

كيف تجدينه ولا أين - وتلمسي في هذا الغريب الكثير من الفضائل الطيبة والسجايا التي ظللتِ تبحثين عنها عشرين عامًا دون أن تهتدي إليها.. وكلها طاهرة نقية لا غبار عليها ولا وصمة تشينها. مثل هذه الصحبة، تحيي موات النفس وتجدد القلب، فتشعرين بأن أيامك الحلوة قد عادت ومعها أمانيك العالية وأحاسيسك النقية، وترغبين في أن تبدئي حياتك من جديد، لتقضي بقية العمر في سعادة خليقة بإنسان خالد.. ولكن. هل يجوز لك - لتبلغي هذه الغاية - أن تتخطِّي عقبة العادات.. تلك العقبة التي لا يقرها ضمير ولا يتقبلها عقل؟ ».

وتوقَّف في ارتقاب الرد ولكن ماذا كان عساي أن أقول؟ ومن أين كانت لي القدرة على اقتراح جواب حكيم مقنع؟ يا له من طموح عابث! وهمست رياح في أشجار اللبلاب المحيطة بي، ولكن روحًا من الأرواح الرقيقة لم تعِرني لسانها لأقوى على النطق، بينما راحت الأطيار تغني على منابر الأشجار. وإن كان غناؤها - على حلاوته - غير واضح الألفاظ.. وعاد مستر روشستر يطرح سؤاله: «هل يجوز لهذا الشريد الخاطئ، وقد غدا يبحث عن الراحة ويضنيه الندم، أن يتحدى العالم ليضم إليه هذا الغريب الرقيق الأنيس، كيما يسترد لنفسه راحة البال ويجدد حياته؟ ».

فأجبته: «إن راحة الشريد وتوبة الخاطئ لا يتوقَّفان - يا سيدي - على رفيق من المخلوقات، لأن الرجال والنساء يموتون ويقضون، ولأن الفلاسفة يخطئون في حكمهم، والأتقياء قد يتخبَّطون في طيبتهم وإخلاصهم، فإذا كان بين من تعرفهم شخص يتعذَّب ويشعر بأنه مخطئ. فانصحه أن يتطلَّع إلى ما فوق أنداده في التماس القدرة على إصلاح ذات نفسه وشفاء أمراضه ».

- «ولكن الأداة! الوسيلة! إن الله الذي يخلق العمل، يهيئ له الوسيلة. لقد كنت أنا - وهذه حقيقة وليست على سبيل المثال - رجلًا دنيويًا شهوانيًا لا يقرّ له قرار، وأعتقد أنني اهتديت إلى الأداة والوسيلة لشفائي من ..».

وسكت، بيما مضت الطيور في تغريدها. وأوراق الشجر في حفيفها، وكدت أعجب: كيف لا تتوقَّف عن شدوها وهمساتها لتلتقط هذا الاعتراف المعلَّق على شفتي الرجل. ولكنها لو فعلت لكان عليها أن تنتظر طويلًا، لأن الصمت طال. وأخيرًا رفعت رأسي إلى المتحدِّث فوجدته ينظر إليّ بشوق. وما لبث أن قال بلهجةٍ أخرى، وبأسارير غير أساريره السابقة، إذ زايلتها الرقة والرزانة وغدت فظَّة متهكِّمة: «لقد لاحظتِ ولعي الرقيق بمس إنجرام، فهل تعتقدين أنها تستطيع أن تلهب في قلبي القوة والعزم، إذا أنا تزوجت منها؟». ثم نهض على الفور وسار إلى نهاية الممشى. وما لبث أن عاد يدندن بإحدى النغمات.

وإذ وقف أمامي وقال: «جين! جين! إنك شديدة الشحوب من جرَّاء السهر الطويل، فهل تسخطين عليَّ لإقلاق راحتك؟ ».

- «أسخط عليك؟ كلا يا سيدي !».

- «صافحيني إذن، تأكيدًا لقولك.. يا لأصابعك الباردة! لقد كانت دافئة في الليلة الماضية عندما لمستها عند باب الغرفة السرية! جين متى تسهرين معي مرة أخرى يا جين؟ ».

- «متى وجدت أنني ذات فائدة يا سيدي ».

- «قبل ليلة زواجي مثلًا. فأنا واثق أنني لا أقوى على النوم؟ أتعدينني بالجلوس معي واحتمال رفقتي؟ إليكِ أنتِ أستطيع التحدث عن محبوبتي لأنك رأيتها وعرفتها !».

- «نعم يا سيدي ».

- «إنها نادرة. أليس كذلك يا جين؟ ».

- «هي كذلك يا سيدي ».

- «إنها هيفاء.. حقيقة يا جين: فارعة الطول، سمراء، ممتلئة صحة وعافية، وشعرها يشبه شعر سيدات قرطاجنة.. يا إلهي! ها هما دنت ولين في حظائر الخيل! اذهبي عن طريق الدغل، عبر هذا الباب الصغير !».

فذهبت من طريق، ومضى هو من طريق آخر. وسمعته في الفناء يقول في ابتهاج: «لقد بكَّر ميسون عنكم جميعًا في الصباح، ورحل قبل أن تشرق الشمس. وقد صحوت في الساعة الرابعة لأودعه ».

الفصل الحادي والعشرون

إن الهواجس أمور غريبة.. وكذلك العواطف والمشاركة الوجدانية، والسمات المشتركة.. وهذه الأمور الثلاثة مجتمعة، تؤلِّف لغزًا واحدًا، لم توفَّق الإنسانية إلى حله بعد. إنني قط لم أسخر من الهواجس في حياتي، لأنني خبرت ألوانًا غريبة منها. كما أنني أؤمن بوجود العواطف، التي تحيِّر مظاهرها العقل البشري، ومثال ذلك ما يحدث بين قوم تباعدوا، وطال غيابهم، أو بين أقارب يعيشون أغرابًا بعضهم عن بعض، ولكنهم على تباعدهم يعزِّزون وحدة الأصل الذي ينتسب إليه كل منهم، إذا ما قُدِّر لهم أن يلتقوا.. أما السمات، أو النُذُر الخفية، فعلينا أن نعرف أنها ليست سوى مشاركة وجدانية بين الطبيعة والإنسان! عندما كنت صغيرة، لا أتجاوز السادسة من عمري، سمعت بيسي ليفن، المربية بقصر جيتسهيد، تقول ذات ليلة للخادم مارتا آبوت إنها رأت في المنام طفلًا صغيرًا، وأن رؤية الأطفال في الأحلام نذير مؤكَّد بمتاعب توشك أن تحل بالمرء، أو أحد أقاربه. وكان من المحتمل أن يمَّحي هذا الحديث من ذاكرتي، لولا أن وقع في أثره مباشرة ظرف ألصقه بذاكرتي، إذ دُعيت بيسي في اليوم التالي إلى أهلها، حيث كانت أختها الصغيرة تحتضر !

وكثيرًا ما أتذكر هذا الحادث، وذلك الحديث، في الفترة الأخيرة إذ لم تكن تمر بي ليلة، خلال الأسبوع الماضي، دون أن أحلم بطفل وليد، أهدهده أحيانًا بين ذراعَيَّ، أو أدللـه على ركبتي في أحيان أخرى، أو أرقبه وهو يلعب بالزنابق في المروج، أو يغمس يديه في المياه الجارية.. وكنت أراه طفلا كثير العويل في إحدى الليالي، وطفلًا ضاحكًا في ليلة أخرى، يتمسَّح فيَّ أحيانًا، ويهرب مني أحيانًا أخرى. وكيفما تشكلت الرؤيا، وأيًا كان موضوعها، فإنها تتعقبني سبع ليال متوالية، وتواتيني بمجرد دخولي عالم النعاس !

ولم يستهوني ذلك التكرار لفكرة واحدة.. وذلك التواتر الرتيب لصورة لا تتغيَّر، حتى لقد غدت أعصابي تهتاج كلما حان موعد إيوائي للفراش واقتربت ساعة ظهور الرؤيا. ولقد كنت في رفقة طيف هذا الطفل عندما صحوت في تلك الليلة المقمرة على صرخة ميسون. وبعد ظهر اليوم التالي، دُعيت للنزول إلى الطابق الأسفل، لأن شخصًا كان يريدني في حجرة مسز فيرفاكس. وكان ينتظرني، ويبدو من مظهره أنه خادم لأحد السادة.. وكان يرتدي ثوب الحداد، ويمسك بيده قبعة حولها شريط أسود. فلما رآني، وقف قائلًا :

- «أغلب الظن أنكِ لا تكادين تذكرينني يا آنسة، ولكن اسمي ليفن، وقد عملت حوذيًا لدى مسز ريد عندما كنت في جيتسهيد منذ ثماني أو تسع سنوات، وما زلت أعمل هنالك حتى الآن ».

- «أوه. روبرت! كيف حالك؟ إنني أذكرك جيدًا، فقد كنت أحيانًا تسمح لي بأن أركب فرس مس جورجيانا. وكيف حال بيسي؟ إنك متزوج؟ ».

- «نعم يا آنسة. إن زوجتي بأحسن حال، فشكرًا، وقد ولدت لي طفلًا آخر منذ شهرين، فصار لدينا الآن ثلاثة.. وهم وأمهم بخير !».

- «وهل الأسرة في القصر بخير كذلك يا روبرت؟ ».

- «يؤسفني أنني لا أحمل لكِ أنباء سارة عنهم، لأنهم في حالة سيئة جدًا ».

فقلت وأنا أرنو إلى ملابسه السوداء: «أرجو ألّا يكون قد مات أحد منهم ».

- «لقد مات مستر جون في مثل البارحة من الأسبوع الماضي بمسكنه في لندن ».

- «مستر جون؟ ».

- «نعم ».

- «وكيف احتملت أمه المصاب؟ ».

- «لم يكن يا آنسة مصابًا عاديًا، فقد كانت حياته غاية في التهوُّر، إذ انغمس في السنوات الثلاث الأخيرة في مسالك عجيبة، وكانت وفاته أليمة !».

- «سمعت من بيسي أنه لم يكن يحسن التصرف ».

- «يحسن التصرف؟ ليس هناك أسوأ مما فعل، فقد قضى على صحته وأمواله بين أسوأ الأقران من رجال ونساء، وغرق في الديون ودخل السجون.. ولقد أعانته أمه مرتين، ولكنه، كلما أطلق سراحه، كان يعود إلى رفاقه القدامى وعاداته السابقة. ولم يكن عقله سليمًا فاستغله الأوغاد الذين كان يعيش بينهم.. وقد جاء إلى جيتسهيد منذ حوالي ثلاثة شهور. وطلب إلى والدته أن تتنازل له عن كل شيء، فرفضت بعد أن قلت مواردها كثيرًا بسبب إسرافه وتبذيره، فارتدّ عائدًا، ولم يسمع به أحد حتى جاءنا خبر موته، ولا يعرف غير الله كيف مات، ولكنهم يقولون إنه انتحر !».

واعتصمت بالصمت لأن الخبر كان مروّعًا، فاستطرد ليفن يقول: «ولقد كانت سيدتي ذاتها معتلة الصحة منذ زمن، فهي وإن ازدادت بدانة، إلّا أنها لم تكن قوية، وكان ضياع الأموال، والخوف من الفقر يحطمانها.. ثم هبط عليها موت جون والطريقة التي قضى بها هبوط الصاعقة، ففقدت النطق ثلاثة أيام. ولكن يبدو أن حالتها تحسَّنت في يوم الثلاثاء الماضي، إذ أظهرت أنها تريد أن تفضي بشيء، وظلت تبدي إلى زوجتي إشارات وهي تتمتم، إلى أن فهمت بيسي بالأمس فقط أنها تنطق باسمك. وأخيرًا تفوَّهت قائلة :

- «جيئوني بجين.. ابحثوا عن جين إير.. أريد أن أتحدَّث إليها !».

ولم تكن بيسي واثقة من أنها في تمام عقلها، ومن أنها تعني ما قالت، ولكنها أخبرت ابنتها، وأشارت عليهما بدعوتك، فأهملت الاثنتان الأمر في البداية. ولكن القلق استبدّ بأمهما، وراحت تردِّد اسمك كثيرًا، ولذلك قبلتا أخيرًا أن ترسلاني في طلبك، فغادرت جيتسهيد بالأمس. فإذا أمكنك التأهُّب يا آنسة عدت بك في ساعة مبكرة من صبيحة الغد ».

- «نعم يا روبرت، لسوف أستعد، إذ يبدو أن من واجبي أن أذهب إليها ».

- «هذا هو رأيي كذلك يا آنسة، وقد قالت بيسي إنكِ لن ترفضي ولكني أظنكِ في حاجة إلى الاستئذان قبل الرحيل ».

- «نعم وسأفعل هذا الآن ».

ثم قدته إلى حجرة الخدم، وأوصيت به زوجة جون، بل وجون نفسه، ثم خرجت أبحث عن مستر روشستر.. ولكنه لم يكن في أي غرفة من غرف الطابق الأرضي، ولم يكن كذلك في الفناء، ولا في حظائر الخيل. وسألت مسز فيرفاكس إذا كانت قد شاهدته، فأخبرتني بأنها تعتقد أنه يلعب البليارد مع مس إنجرام، فأسرعت إلى غرفة البليارد، وكان صوت ارتطام الكرات، وغمغمة الأصوات تنبعثان من هناك، حيث وجدت مستر روشستر ومس إنجرام وفتاتَيْ إيشتون والمعجبين بهما، وقد انهمكوا جميعًا في اللعب، وكنت في حاجة إلى جرأة لكي أزعج خاطر مثل هذه الجماعة اللاهية. ولكن مهمتي لم تكن من نوع يمكن إرجاءه، فاقتربت من السيد، وكان يقف بجانب مس إنجرام التي استدارت ناحيتي عندما اقتربت منهما، وتطلعت إليَّ في تعالٍ وكبرياء وقد بدا في عينيها أنها تسأل : "ماذا يمكن أن تريد هذه الحشرة الزاحفة الآن؟ ". وعندما قلت في صوت خافت: مستر روشستر!. تحرَّكت وكأنها تهم بطردي، وما زلت أذكر الآن منظرها وهي تبدو غاية في الجمال والفتنة وقد ارتدت ثوبًا للصباح من الحرير الأزرق، وعقدت حول شعرها وشاحًا بلون السماء. وكانت

مبتهجة النفس باللعب، ولم تخفِّف عجرفتها من المرَح الذي تجلّى على قسماتها الشمَّاء.. وتحوَّلت تسأل مستر روشستر: «هل تريدك هذه المخلوقة؟ ».

والتفت مستر روشستر ليتبيَّن المخلوقة التي كانت تريده، وسرعان ما اختلج وجهه بحركة عجيبة - هي إحدى ظواهره العجيبة المبهمة - ثم ألقى عصا البليارد، وتبعني إلى خارج الغرفة، فأسند ظهره إلى باب حجرة الدراسة، بعد أن أغلقه، وقال: «ماذا يا جين؟ ».

- «أرجوك يا سيدي أن تمنحني إجازة لأسبوع أو اثنين ».

- «ما الأمر.. إلى أين تذهبين؟ ».

- «أذهب لأرى سيدة مريضة أرسلت في طلبي ».

- «أي سيدة مريضة؟ وأين تقيم؟ ».

- «في جيتسهيد في مقاطعة ...».

- «مقاطعة...؟ إنها على بعد مائة ميل! من تكون هذه التي ترسل في طلب الناس من هذه المسافة ليروها؟ !».

- «اسمها ريد.. مسز ريد ».

- «ريد من جيتسهيد؟ لقد كان في جيتسهيد قاضٍ يدعي ريد ».

- «إنها أرملته يا سيدي ».

- «وما شأنك بها؟ كيف تعرفينها؟ ».

- «كان مستر ريد خالي.. شقيق والدتي ».

- «يا لله! لم تخبريني بذلك قط، بل كنت تقولين دائمًا إنه ليس لك أقارب ».

- «ليس لي أقارب يعتزون بانتسابي إليهم يا سيدي، فإن مستر ريد توفي، ثم نبذتني زوجته ».

- «لماذا؟ ».

- «لأنني كنت فقيرة، وعبئًا عليها، وكانت تبغضني ».

- «ولكن هل ترك ريد أطفالًا؟ لا بد أن يكون لكِ أولاد خال، وبالأمس كان السير جورج لين يتحدَّث عن شاب يُدعى ريد في جيتسهيد، قال عنه إنه من أسوأ الأوغاد في المدينة، كما ذكرت إنجرام اسم فتاة تُدعى جورجيانا ريد من المكان نفسه، كانت موضع الإعجاب الشديد بسبب جمالها منذ موسم أو اثنين في لندن ».

- «لقد توفي جون ريد هو الآخر يا سيدي، فقد أفلس، وكاد يتسبَّب في إفلاس أسرته، ويُقال إنه انتحر، وقد صُدمت أمه بنبأ وفاته صدمة أصابتها بالفالج ».

- «وماذا في وسعك أن تفعلي من أجلها؟ هراء يا جين! لن أفكر قط في قطع مسافة مائة ميل لأزور سيدة ربما تموت قبل أن أصل إليها.. هذا إضافة إلى أنك تقولين إنها نبذتكِ ».

- «نعم يا سيدي ولكن كان ذلك منذ زمن بعيد. وكانت ظروفها تختلف كثيرًا عما هي عليه الآن.. لن يستريح بالي إذا أنا أهملت الآن رغباتها ».

- «كم ستمكثين هنالك؟ ».

- «أقصر مدة ممكنة يا سيدي ».

- «عديني بأن تمكثي أسبوعًا ».

- «لا أستطيع أن أعدك، فقد أضطر إلى الحنث بهذا الوعد ».

- «ستعودين مهما يكن، ولن يغريك أي عذر بأن تقيمي معها إقامة دائمة ».

- «أوه. كلا.. سأعود حتمًا، إذا جرت الأمور كما ينبغي ».

- «ومن سيرافقك؟ لن تسافري مائة ميل بمفردك ».

- «كلا يا سيدي، فقد أرسلت سائق عربتها ».

- «أهو شخص يوثق به؟ ».

- «نعم يا سيدي، فقد أقام مع الأسرة عشر سنوات ».

وفكّر مستر روشستر لحظة ثم قال: «ومتى ترغبين في السفر؟ ».

- «في ساعة مبكرة من صبيحة الغد يا سيدي ».

- «حسنًا.. لا بد لك من بعض المال، إذ لا يمكن أن تسافري دون نقود ».

وأردف مبتسمًا: «أظنك لا تملكين كثيرًا، لأنني لم أعطِك مرتبك بعد. كم تملكين في دنياك يا جين ».

فأخرجت كيس نقودي.. وكم كان هزيلًا! وقلت: «خمسة شلنات يا سيدي!». فتناول الكيس، وأفرغ في راحة يده ما كنت أدّخره، ثم راح يقهقه وكأنه يتلهى بضآلة هذا «الكنز». وسرعان ما أخرج حافظة نقوده، وقال وهو يقدِّم لي ورقة بقيمة خمسين جنيهًا: «إليكِ!». وكان مدينًا لي بخمسة عشر جنيهًا، فأخبرته بأنني لم أكن أملك ما أرد به الباقي. فقال: «لستُ أريد نقودًا كما تعلمين.. خذي هذا أجركِ!». ولكنني رفضت أن آخذ أكثر مما كنت أستحق، فتجهَّمت أساريره في أول الأمر، ثم قال وكأنه تذكر شيئًا: «حسنًا.. حسنًا.. يجدر بي ألّا أعطيك كل مالكِ حتى الآن، فقد تمكثين ثلاثة شهور إذا أخذت خمسين جنيهًا.. هاكِ عشرة جنيهات. ألا تكفي؟ ».

- «نعم يا سيدي وستكون مَدينًا لي بخمسة ».

- «عودي لأخذها إذن، وسأكون بمثابة مصرف تودعين فيه أربعين جنيهًا !».

- «في وسعي يا مستر روشستر أن أذكر لك موضوعًا خاصًا بالعمل ما دامت الفرصة سانحة ».

- «موضوعًا يخصّ العمل؟ إنني متلهِّف لسماعه !».

- «لقد تفضلت فأبلغتني يا سيدي بأنك ستتزوَّج في القريب العاجل ».

- «نعم وماذا بعد ذلك؟ ».

- «ينبغي في هذه الحالة يا سيدي أن تذهب أديل إلى المدرسة.. وأنا واثقة من أنك ستتفهّم ضرورة ذلك ».

- «لأبعدها عن طريق عروسي التي قد تدوسها بقدميها بشدة إن لم أفعل؟ إن اقتراحك معقول، ويجب بلا شك أن تذهب أديل إلى المدرسة كما تقولين. أما أنتِ فيجب بطبيعة الحال أن تمضِي مباشرة.. إلى الشيطان؟ ».

- «أرجو غير ذلك، ولكن يجب أن أبحث عن عمل آخر في مكان ما !».

فصاح بصوت رنَّان وقد لوى أسارير وجهه بصورة غريبة تبعث على الضحك: «أظنك ستتوسلين إلى مدام ريد العجوز أو ابنتيها أن تبحث لك إحداهن عن عمل؟ ».

- «كلا يا سيدي، لستُ على وفاق مع قريباتي بحيث أسألهن فضلًا.. ولكني سأعلن في الصحف ».

فزمجر قائلًا: «إنكِ لن تلبثي أن تطمعي في تسلُّق أهرام مصر! إنك تخاطرين بالإعلان، فليتني أعطيتك جنيهًا واحدًا بدلًا من عشرة، أعيدي إليَّ تسعة جنيهات يا جين، فإنني بحاجة إليها ».

فقلت وأنا أخفي يدي والكيس خلف ظهري :

- «وأنا في حاجة إليها كذلك، ولا أستطيع التخلي إطلاقًا !».

- «يا لكِ من بخيلة صغيرة! أترفضين تقديم مساعدة مالية لي؟ هاتي خمسة جنيهات يا جين ».

- «ولا خمسة شلنات يا سيدي.. حتى ولا خمسة بنسات ».

- «دعيني فقط ألقي نظرة على نقودك ».

- «كلا يا سيدي فلستُ أثق بك ».

- «جين !».

- «سيدي؟ ».

- «عديني بشيء واحد ».

- «سأعدك بكل ما أعتقد أنني قادرة على الوفاء به ».

- «لا تعلني في الصحف، واتركي التماس الوظيفة لي، وأعدك بأن أجدها لكِ في الوقت المناسب ».

- «يسعدني أن تفعل ذلك يا سيدي، على أن تعدني بدورك أن أكون وأديل في مأمن بعيد عن القصر، قبل أن تلجه عروسك ».

- «حسن جدًا.. حسن جدًا.. أقسم على ذلك! هل ستسافرين غدًا؟ ».

- «نعم يا سيدي، في ساعة مبكرة ».

- «هل ستنزلين إلى حجرة الاستقبال بعد العشاء؟ ».

- «كلا يا سيدي، يجب أن أتهيَّأ للرحيل ».

- «إذن ألا يجب أن يودِّع أحدنا الآخر لفترة وجيزة؟ ».

- «أظن ذلك يا سيدي ».

- «وكيف يؤدِّي الناس الوداع يا جين؟ علِّميني لأنني لست خبيرًا بذلك ».

- «إنهم يقولون : "وداعًا " ، أو شيئًا من هذا القبيل يفضلونه ».

- «إذن، قولي ذلك ».

- «أستودعك الله يا مستر روشستر إلى حين ».

- «وماذا ينبغي أن أقول؟ ».

- «العبارة نفسها إذا شئت يا سيدي ».

- «أستودعك الله يا مس إير إلى حين.. أهذا كل شيء؟ ».

- «نعم ».

- «أراها عبارة جافة، غير ودية.. بل أحب عبارة أخرى تضاف إلى هذه الطقوس، كأن نتصافح. ولكن كلا.. هذا أيضًا لا يكفيني، فهلا تفعلين غير قولك : "أستودعك الله " يا جين؟ ».

- «إن النية الطيبة يمكن أن تتمثَّل في كلمة واحدة صادرة من القلب، تؤدي ما تؤديه الكلمات المتعدِّدة ».

- «هذا محتمل، ولكن عبارة "أستودعك الله " هذه جوفاء باردة ».

وسألت نفسي: «إلى متى سيقف هكذا وظهره إلى الباب؟ فأنا أريد أن أسرع إلى حزم أمتعتي !».

ودق جرس العشاء، وعندئذ غادرني على الفور دون أن ينطق بحرف آخر، ولم أرَه مرة أخرى طوال اليوم، ثم رحلت قبل أن يستيقظ في الصباح .

بلغت قصر جيتسهيد في حوالي الخامسة بعد الظهر من أول مايو، فدخلت إلى مسكن البوّاب قبل أن أسعى إلى القصر. ووجدت المسكن نظيفًا، أنيقًا، وقد تدلّت على النوافذ المزيَّنة ستائر صغيرة بيضاء، وبدت الأرضية غاية في النظافة، بينما كانت المدفأة تلمع وقد اشتعلت فيها النيران، ورأيت بيسي جالسة على أريكة بقرب المدفأة، تُرضع وليدها، بينما كان ابناها روبرت وأخته، يلعبان في أحد الأركان. وعندما دخلت صاحت مسز ليفن :

- «ليبارككِ الله! كنت أعرف أنكِ سوف تأتين !».

فقبَّلتها وقلت: «نعم يا بيسي، وأرجو ألا أكون قد تأخرت. كيف حال مسز ريد؟ أرجو أن تكون على قيد الحياة ».

- «نعم إنها على قيد الحياة، بل هي أكثر انتباهًا واستجماعًا لقواها عمَّا كانت، ويقول الطبيب: إن حياتها قد تطول أسبوعًا أو اثنين، ولكنه لا أمل في أن تشفي نهائيًا ».

- «هل ذكرت اسمي أخيرًا؟ ».

- «كانت تتحدَّث عنكِ في الصباح وتتمنَّى مجيئك، ولكنها الآن نائمة، أو تركتها كذلك عندما كنت بالطابق العلوي منذ عشر دقائق. وهي تغرق عادة في سبات عميق طوال النهار، ولا تصحو قبل السادسة أو السابعة. هل تستريحين هنا ساعة يا آنسة ثم أصعد معكِ؟ ».

وعندئذ دخل روبرت - زوجها - فوضعت طفلها النائم في مهده، ومضت لتستقبله. ثم ألحّت في أن أخلع قلنسوتي، وأن أتناول الشاي، لأنني - كما قالت - كنت أبدو شاحبة متعبة. وفرحت بحفاوتها. فتركتها تخلع عني معطف السفر كما كانت تفعل وأنا طفلة، وتزاحمت على رأسي ذكريات الماضي، وأنا أرنو إليها وهي تتحرَّك هنا وهناك: تعد الصينية وطاقمًا أنيقًا من الصيني. ثم تقطع الخبز والزبدة، والكعك، وتربِّت بين الفينة والأخرى على روبرت الصغير

أو جين الصغيرة، بمثل ما كانت تفعل معي في الأيام السالفة. وقد ظلت بيسي محتفظة بطابعها الرشيق وخطوها الخفيف ونظراتها الطيبة !

ولمَّا أُعِدَّ الشاي. حاولت الاقتراب من المنضدة، ولكنها طلبت مني، بلهجتها القديمة الحازمة، أن أبقى في مكاني كي تقوم هي بخدمتي. ثم وضعت أمامي منضدة صغيرة يعلوها قدح وطبق به الخبز .. تمامًا كما اعتادت أن تحرص على راحتي، وتقدِّم لي بعض الطعام اللذيذ الخاص، الذي كانت تسرقه وتحمله إليَّ! فابتسمت وأذعنت كما كنت أفعل في الأيام الخالية .

وأرادت أن تعرف إن كنت سعيدة في قصر ثورنفيلد، وكيف تعاملني سيدة القصر. فلما أخبرتها بأن سيد القصر أعزب، سألتني ما إذا كان ظريفًا، وهل ملت إليه، فقلت لها إنه رجل دميم، ولكنه سيد بالمعنى الصحيح، وأنه يعاملني برفق، مما يجعلني راضية. ثم أخذت أصف لها المدعوين المرحين الذين كانوا يقيمون في القصر منذ عهد قريب، فراحت تصغي إلى التفاصيل باهتمام، لأنها كانت من الموضوعات التي تحبها وتبتهج لسماعها ..

وسرعان ما انقضت ساعة في مثل هذا الحديث، فقامت تُلبسني قلنسوتي، ومعطفي، ثم غادرنا معا مسكن البواب إلى القصر، كما كنت أرافقها منذ تسع سنوات، يوم هبطت الممر الذي أصعده الآن، مغادرة القصر في صباح يوم غائم قارس من أيام يناير، وقلبي زاخر بالألم والمرارة لذهابي إلى ملجأ لوود البعيد، كما لو كنت مذنبة أو منبوذة. ومرة أخرى نهض أمامي ذلك السقف الذي كان يحتضن أعداء لي، فإذا الشك يملأ قلبي والألم يملأ نفسي، فأشعر بأنني شريدة تهيم على وجه الأرض. ولكن سرعان ما عاودتني الثقة بالنفس وبقدرتي، فخفَّت حدَّة الشعور بالظلم، والتأم جرح الشرور التي نزلت بي، وانطفأت نيران السخط المتأجِّجة في صدري .

وقالت بيسي وهي تتقدمني خلال البهو: «ستذهبين أولًا إلى حجرة الإفطار لأن السيدتين الصغيرتين ستكونان هنالك ».

ودخلت الحجرة بعد لحظة، فوجدت كل شيء فيها كما كان يوم قُدّمت لأول مرة إلى مستر بروكلهرست. ولكني وجدت أهل القصر قد تغيروا حتى كدت لا أعرفهم.. لقد ظهرت أمامي شابتان، إحداهما فارهة الطول - في قامة مس إنجرام تقريبًا - مسرفة النحافة، ذات وجه شاحب زاده ثوبها الأسود البسيط شحوبًا، وقد علَّقت في صدرها مسبحة وصليبًا كإحدى الراهبات، فأيقنت أنها إليزا، وإن لم أعثر على شيء من وجوه الشبه بينها في حاضرها وبين ما كانت عليه وهي طفلة صغيرة.. وكانت الأخرى جورجيانا، بلا ريب. ولكنها لم تكن

جورجيانا الفتاة النحيلة التي أتذكرها عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها، وإنما صارت شابة بدينة، جميلة الأسارير، ذات عينين ناعستين زرقاوين، وشعر ذهبي. وكانت ترتدي ثوبًا أسود كذلك، ولكنه من طراز حديث، غير طراز ثوب أختها المحتشم. وكان في كل من الفتاتين شبَه بأمهما. وإذ تقدَّمت نحوهما، قامتا لتحيتي، وخاطبتاني باسم «الآنسة إير». ونطقت إليزا تحيتها بصوت مقتضب دون أن تبتسم ثم عادت فجلست تحدق في الموقد وكأنها نسيتني. أما جورجيانا فقد أضافت إلى قولها: «كيف حالك؟»، بضعة أسئلة عادية عن رحلتي والطقس بصوت متراخٍ، بطيء، وهي ترمقني بزاوية عينها. وتتفحصني من مفرقي إلى أخمص قدمي .

ولقد كان للفتاتين طريقة خاصة في التهكم عليَّ دون أن تعبِّرا عن ذلك بالكلام، وذلك بالاستعانة بنظرة خاصة متعجرفة. وبلهجة باردة تزخر بعدم الاكتراث، دون الالتجاء إلى كلمة أو عمل ينم عن فظاظة. على أن السخرية لم تعد تؤثِّر فيَّ - سواء كانت مستترة أم صريحة - كما كانت تؤثِّر من قبل. وإذ جلست بين ابنتي خالي، أدهشني كيف احتملت في يسر ولامبالاة إهمال إحداهما لشأني، وسخرية الأخرى مني. ذلك لأنني كنت أفكِّر في أشياء أخرى، فقد استيقظ في نفسي خلال الشهور الأخيرة من المشاعر ما لا يقوى أي شيء آخر على إثارته.. واهتاجت في صدري من الآلام والمسرات ما كان يفوق أي شيء في وسعهما أن يهيّجاه.. وهكذا لم أحفل بما كان يبدو منهما من طيبة أو شر. وما لبثت أن التفت إلى جورجيانا متسائلة في هدوء: «كيف حال مسز ريد؟». فقالت: «مسز ريد؟ آه، تعنين ماما! إنها في حالة سيئة، وما أظنك ستتمكنين الليلة من رؤيتها !».

- «أكون شاكرة لو صعدتِ إلى غرفتها وأبلغتِها أنني قد وصلت ».

فارتجفت وأمعنت في النظر إليَّ بعينيها الزرقاوين.. واستطردت أقول :

- «الذي أعلمه أنها ترغب في رؤيتي بصفة خاصة، ولا أحب أن أؤجل رغبتها هذه ما استطعت ».

فقالت ليزا: «إن والدتي تكره أن يقلق راحتها إنسان في المساء». وسرعان ما نهضت فتناولت قلنسوتي وقفازيَّ بهدوء قائلة إنني ساذهب إلى بيسي في المطبخ، لأسالها ما إذا كان في وسعي أن أقابل مسز ريد في تلك الليلة. وإذ وجدت بيسي بعثت بها في تلك المهمة، وبدأت في إتخاذ إجراءات أخرى .

لقد كنت فيما مضى أجفل من التحدي، ولو أنني قُوبلت منذ عام بمثل هذه المقابلة الفاترة لكنت قد غادرت جيتسهيد في الصباح التالي.. لكنني - في هذه

المرة - رأيت أن مثل هذا التفكير ينطوي على حماقة، لا سيما بعد أن قطعت مائة ميل لأرى خالتي، ومن ثم كان لا بد من أن أمكث حتى تتحسَّن حالها أو تموت. أما صلف ابنتها أو حماقتها فمسألة كنت أرى أن أدعها جانبًا وألّا أفكِّر فيها. ولذلك خاطبت مدبِّرة المنزل وطلبت إليها أن تعدّ لي حجرة، وأخبرتها بأنني قد أظل ضيفة هنا لمدة أسبوع أو اثنين، ثم أمرت بأن تُحمل حقيبتي إلى حجرتي .

ولكنني التقيت بيسي عند رأس الدرج، فلما رأتني قالت: «إن السيدة مستيقظة، وقد أخبرتها بقدومك. هيا لتري هل تعرفك الآن !».

ولم أكن في حاجة إلى من يقودني إلى الغرفة التي طالما استُدعيت إليها في الماضي، لأستمع إلى كلمات التأنيب والتقريع. فتقدمت بيسي، وفتحت الباب بهدوء.. ورأيت مصباحًا تحيط به ظلة على المنضدة، إذ كان الظلام قد بدأ يرخي أستاره، وكان السرير الكبير، ذو الأعمدة الأربعة، والستائر العنبرية اللون، قائمًا كما عهدته منذ زمن بعيد.. كذلك كانت منضدة الزينة، والمقعد ذا المسندين، والمقعد الصغير الذي كثيرًا ما حُكم عليَّ بأن أركع عليه وأطلب المغفرة والصفح عن الذنوب التي لم أرتكبها! وتطلعت إلى ركن قريب، وأنا أتوقَّع أن أرى جسدًا نحيلًا بغيضًا يقبع فيه، بارتقاب أن ينقضّ عليَّ كالعفريت ويوثق يدي المرتعدة أو عنقي.. وأعني جسد جون ريد كما كان في الماضي! ثم اقتربت من الفراش، وفتحت الستائر وانحنيت على الوسائد العالية .

كنت أذكر وجه مسز ريد، فنظرت في لهفة إلى صورتها المألوفة. ومن بواعث الغبطة أن الزمن يطفئ الرغبة الجامحة في الانتقام، ويخمد جذوة الحقد والكراهية.. فلقد فارقت هذه المرأة وقلبي زاخر بالمرارة والبغضاء، ولكني عدت إليها الآن وليس في نفسي سوى الأسى لآلامها والرغبة القوية في أن أنسى وأصفح عن كل أذاها، وأن نتصافى وأمسك يدها في حب ومودة.. ورأيت الوجه المألوف بصرامته وقسوته. وشاهدت عينيها الغريبتين اللتين لم يكن أي شيء يقوى على أن يلين نظراتهما.. ورأيت الجبين المرتفع الآمر المستبد، الذي طالما قطب في وجهي متوعِّدًا، ناقمًا.. وعادت إلى ذاكرتي فظائع الطفولة وأحزانها وأنا أرقب ذلك الجبين! ومع ذلك فقد ملت عليها وقبَّلتها، فنظرت إليَّ وقالت: «أهذه جين إير؟ ».

- «نعم يا خالتي ريد. كيف حالك يا خالتي العزيزة؟ ».

وكنت قد أقسمت ذات مرة ألّا أدعوها خالتي، ولكنني لم أرَ ذنبًا في أن أنقض هذا القَسَم الآن. وكانت أصابعي قد أطبقت على يدها، التي أبرزتها فوق

الغطاء، ولو أنها أطبقت بدورها على أصابعي لشعرت بغبطة صادقة،.ولكن يبدو أن الطبائع الجافة لا تلين بتلك السرعة، وأن البغضاء الطبيعية لا تُجتَثّ بسهولة. إذ إن مسز ريد سحبت يدها بعيدًا، وأشاحت عني بوجهها، وقالت إن الليل حار، ثم عادت ترمقني بنظرات باردة كالجليد، فأدركت في الحال أن رأيها فيَّ وشعورها نحوي لم يتغيَّرا! أو لا يمكن أن يتغيَّرا! كما أدركت من عينها الجامدة المتحجِّرة التي لا تلين أو تدمع، أنها مصمِّمة على أن تتهمني بالشر إلى النهاية، لأنها إذا اعتقدت أنني طيبة فلن تصيب سرورًا من ذلك وإنما سيتولاها شعور بالغَمّ! وأحسست بألم، ثم بغَيْظ، ثم بعزم على إذلالها.. وعلى أن أكون سيدتها برغم طبيعتها وإرادتها معًا.. وكانت دموعي قد طفرت كعادتي في الطفولة، ولكني سرعان ما رددتها إلى مآقيَّ، وجئت بمقعد إلى جوار الفراش، فجلست ثم انحنيت على الوسادة قائلة: «لقد أرسلتِ في طلبي، وها قد جئت وسأبقى لأرى كيف تتطوَّر حالتك ».

- «أوه. بالطبع، هل قابلت ابنتيَّ؟ ».

- «نعم ».

- «حسنًا.. يمكن أن تخبريهما أنني أريد أن تبقي هنا إلى أن أتمكن من محادثتك في أمور تدور برأسي. لقد تأخَّر الوقت الليلة، وإني لأجد مشَقّة في تذكّرها، ولكن ثمة شيئًا واحدًا أريد أن أقوله.. دعيني أر ..».

وتبيَّن لي من نظرتها الحائرة وتغيُّر لهجتها مبلغ ما أصاب جسمها القوي من ضعف. وفيما كانت تتقلَّب في فراشها، جذبت الغطاء حول جسمها، ولكن مرفقي كان مرتكزًا على طرف منه، فاهتاجت وقالت :

- «اعتدلي في جلستك. لا تضايقيني بالتشبث بالغطاء. هل أنت جين إير !».

- «أنا جين إير ».

- «لقد لاقيت من هذه الطفلة ما لا يتصوره إنسان. فيا لها من عبء ثقيل على كاهلي، ويا للمضايقات التي كانت تحدثها في كل يوم وفي كل ساعة، بطبعها الغامض، ونزعاتها غير المفهومة، ونوبات العناد والهياج، والمراقبة الدائمة لكل حركة من حركاتنا.. بل إنني لأجهر بأنها خاطبتني ذات مرة مثل مجنونة أو شيطانة! أبدًا لم تحدّثني طفلة أو تنظر إليَّ في حياتي كما فعلت هذه الطفلة. ولذلك فقد اغتبطت عندما تخلَّصت منها وأبعدتها عن القصر. ما حالهم معها في لوود؟ لقد تفشَّت الحمى هناك ومات كثير من التلميذات، ومع ذلك فإنها لم تمت. ولكنني قلت إنها ماتت.. وأتمنى أن تموت !».

قلت: «يا لها من رغبة عجيبة يا مسز ريد! لماذا تكرهينها إلى هذا الحد؟ ».

- «لقد كنت أكره أمها دائمًا، لأنها كانت شقيقة زوجي الوحيدة، وكان يحبها. وقد عارض إرادة الأسرة كلها عندما تبرَّأت منها بسبب زواجها الوضيع. وعندما جاءه خبر موتها بكى كالمعتوه، وأرسل في طلب الطفلة رغم توسلاتي إليه أن يعهد بها إلى مربية ويدفع نفقات تربيتها.. ولقد كرهتها عندما وقعت عليها عيناي لأول مرة، إذ كانت مخلوقة سقيمة دائبة العويل والبكاء.. تبكي طوال الليل في مهدها، ولم تكن تصرخ صراخًا كغيرها من الأطفال، وإنما كانت تنشج وتئنّ وتبكي بصوت خافت. ولقد رثى ريد لها، فكان يعطف عليها ويرعاها بنفسه، ويُعنى بها كما لو كانت ابنته.. بل أكثر مما كان يُعنى بأولاده حين كانوا في سنها.. وكان يحاول أن يغري أولادي بالتودّد لهذه المتسوِّلة الصغيرة، ولكن أطفالي الأعزاء لم يكونوا يطيقونها، فغضب منهم عندما أظهروا نفورهم منها. ولقد اعتاد، خاصة أثناء مرضه الأخير، أن يُرقِدها معه في فراشه، حتى إذا لم يبقَ على موته إلّا ساعة، أكرهني على أن أقسم له على أن أكفلها.. وكنت أوثر أن يعهد إليَّ بطفل مسكين من أبناء الملاجئ، على أن يعهد إليَّ بهذه المخلوقة! ولكنه كان ضعيفًا بفطرته! إن جون لا يشبه أباه، وإنما يشبهني، ويشبه إخوتي، فهو يشبه آل جيبسون، لأن آل ريد.. آه، كم أتمنى أن يكفّ عن تعذيبي بخطاباته التي يرسلها يوميًا في طلب نقود! لم يعد لديَّ مال أمنحه إياه، فنحن ننحدر إلى الفقر، ولا بد من أن أسرِّح نصف الخدم، وأن أغلق جزءًا من القصر، أو أن أؤجره! ولست أحتمل ذلك، ولكن ما حيلتي؟ إن فوائد الديون تلتهم ثلثَيْ مواردي، وجون يقامر بدرجة بشعة، ويخسر دائمًا.. مسكين ولدي! إنه فريسة للمحتالين.. لقد انحطّ وتدهور.. أصبحت نظرته فظيعة، ومظهره.. إنني لأشعر بالخجل عندما أراه !».

وكان الانفعال قد استبدَّ بها، فقلت لبيسي التي كانت تقف عند الجانب الآخر من الفراش: «أظن من الخير أن نتركها الآن ».

- «أظن ذلك يا آنسة، ولكنها كثيرًا ما تتحدَّث هكذا عندما يقترب الليل، فإذا جاء الصباح هدأت ».

وعندما نهضتُ صاحت مسز ريد: «قفي.. لديَّ شيء آخر أود أن أقوله: إنه يتهدَّدني.. يتهدَّدني دائمًا بموته أو موتي، وقد حلمت به أحيانًا كثيرة وهو ملقى وفي عنقه جرح، أو بوجه منتفخ، أسود. لقد غدوت في مأزق وثقلت همومي، فماذا أفعل؟ وكيف أحصل على نقود؟ ».

فأخذت بيسي تغريها بتناول جرعة مهدئة. وتمكنت من ذلك بصعوبة شديدة، فلم تلبث مسز ريد أن هدأت، ثم استغرقت في النوم، وإذ ذاك فارقتها .

وانقضى أكثر من عشرة أيام قبل أن أستطيع مخاطبتها مرة أخرى، فقد ظلت تهرف أو تستغرق في سبات عميق؛ فأمر الطبيب بمنع كل ما قد يثير أعصابها. واستطعت في خلال هذه الفترة أن أوثق علاقاتي مع إليزا وجورجيانا. وكانتا تبديان في أول الأمر برودًا شديدًا نحوي، فكانت إليزا تقضي سواد يومها في الحياكة والتطريز، أو في القراءة والكتابة، وهي لا تكاد تخاطبني أو تخاطب أختها بحرف، أما جورجيانا فكانت توجه إذ ذاك حديثًا فارغًا إلى عصفورها الكناري، دون أن تكترث بي! ولكني كنت قد عقدت العزم على ألّا أدع الحيرة والحرج يتوليانني لافتقاري إلى ما يشغلني ويسلبني. فجئت معي بأدوات الرسم، ووجدت فيها ما أنشد. ورحت أحمل أقلامي وأوراقي وأجلس بجوار النافذة بعيدًا عنهما، وأنهمك في ما يعنّ لي من مناظر تتمثَّل لخيالي، إلى أن شرعت صباح يوم في رسم وجه إنسان لم أحفل بشكله ولا بماهيته، بل تناولتُ قلمًا أسود طريًا، شحذت سنه، وعكفت على العمل، وسرعان ما رسمت على الورقة جبينًا بارزًا، عريضًا، ووجهًا شبه مربع.. وسرني هذا الشكل، فراحت أصابعي تعمل مسرعة لتملأ الوجه بالملامح، وكان لا بد من حاجبين مستقيمين، ثقيلين، تحت هذا الجبين.. وتلا ذلك - بحركة طبيعية - أنف بديع الشكل، مستقيم، واسع الفتحتين، ثم فم مرن، ليس ضيقًا، فذقن تدل على العزم. تتوسّطها ثغرة غائرة.. وكان لا بد من شاربين أسودين، وبعض الشعر الأسود المسدل على الصدغين، تتهدَّل منه خصلات على الجبين.. وبقيت العينان، إذ تركتهما للنهاية، لأنهما كانتا تتطلَّبان عناية وجهدًا، فرسمتهما واسعتين جميلتين، بأهداب طويلة سمراء، وإنسانين مؤتلفين، كبيرين. وقلت لنفسي: «بديع! ولكنه ليس دقيق الشبه.. لا تزال الملامح بحاجة إلى مزيد من القوة والعزم !».

فضاعفت من دكنة الظلال السوداء، حتى تزداد الملامح البيضاء إشراقًا.. وما لبثت لمسة أو لمستان حتى حققتا النجاح المنشود.. وإذا أمامي وجه صديق، ففيم كان يعنيني أن توليني هاتان الفتاتان ظهريهما؟ وتأملته، ثم ابتسمت لهذا الشبه الناطق، واستغرقت في التأمل، مغتبطة .

واقتربت مني إليزا دون أن أشعر بها وسألتني: «هل هذه صورة لإنسان تعرفينه؟». فأجبتها بأنها مجرَّد صورة رأس من وحي الخيال، ثم بادرت أخفيها تحت الأوراق الأخرى. ومن الطبيعي أنني كذبت. لأن الصورة كانت في الواقع تمثِّل مستر روشستر تمثيلًا أمينًا جدًا، ولكن ماذا كان يهمها أو يهم أحدًا سواي من أمرها؟ وتقدَّمت جورجيانا بدورها، فألقت نظرة.. وسرَّتها الرسوم الأخرى،

ولكنها وصفت الصورة الأولى بأنها: «رجل دميم». وتبدَّت الدهشة والعجب عليهما لمهارتي، فعرضت أن أرسم لكل منهما صورة، فجلست كل منهما بدورها أمامي، حتى رسمت لها صورة تخطيطية. وعند ذلك أخرجت جورجيانا مجموعة من صورها في ألبوم، فوعدتها بأن أضيف إليها بعض الألوان المائية، فسرعان ما صفت نفسها، واقترحت أن نتمشَّى في الحديقة.. وقبل أن تنقضي ساعتان أخريان، خضنا معًا في أمور خاصة وحديث شخصي، وأتحفتني بوصف الشتاء الذي قضته في لندن منذ عامين، والإعجاب الذي أثارته في قلوب الناس هناك، وما لقيته من ضروب الرعاية والاهتمام، بل لقد ألمعت إلماعًا إلى بعض غزواتها. وفي أثناء العصر والمساء، توسَّعت جورجيانا في هذه الموضوعات، فذكرت لي أحاديث عديدة متباينة ناعمة، ووصفت لي وقائع غرامية. وقصارى القول قصَّت عليَّ رواية ضخمة عن الحياة العصرية الراقية.. وأخذت الأحاديث تتابع يومًا بعد يوم، وكانت تدور دائمًا حول موضوع واحد.. حول نفسها، وعشاقها، وشجونها. ومن عجب أنها لم تشِر بكلمة واحدة إلى مرض أمها، ولا إلى وفاة شقيقها، ولا إلى الحال السيئة التي تردَّت فيها الأسرة، إذ كان يبدو أن أفكارها كانت مستغرقة في ذكريات المرح الماضي، وأمل العودة إلى الملذات! أما أمها المريضة، فلا تراها في اليوم سوى بضع دقائق، لا أكثر !

وظلت إليزا لا تتحدَّث إلّا لمامًا. وكان جليًا أن ليس لديها وقت للكلام، فإنني لم أرَ في حياتي إنسانًا أكثر انهماكًا منها في العمل، ومع ذلك فقد كان من العسير معرفة ما تعمله، أو بالأحرى اكتشاف ثمرة كَدّها واجتهادها! وكانت تنبه إلى وجوب إيقاظها في ساعة مبكرة، وإن لم أدرِ فيم كانت تشغل نفسها قبل تناول الإفطار.. على أنها كانت بعد الفطور، توزِّع وقتها أجزاء منتظمة، وتجعل لكل ساعة مهمة معينة. فكانت تخصِّص ثلاث حصص من يومها للمطالعة والقراءة في كتاب عرفت بعد البحث والتنقيب أنه كان كتاب صلاة. وسألتها عن أهم ماراقها فيه، قالت: «قواعد الصلاة». كذلك كانت تخصِّص ثلاث ساعات لتطريز قماش قرمزي مربَّع بخيوط من القصب، ولما سألتها عن هذا القماش الذي كان في حجم السجادة، قالت إنه غطاء لمحراب في كنيسة جديدة أقيمت حديثًا في جيتسهيد. كما أنها كانت تكرِّس ساعتين لكتابة مذكراتها، وساعتين للعمل بنفسها في حديقة المطبخ، حيث كانت تزرع الخضر. وكانت تخصِّص ساعة لتنظيم حساباتها... وبدا أنها كانت بذلك في غنى عن أي أنس أو أي حديث. وأعتقد أنها كانت سعيدة بطريقتها الخاصة في الحياة، وأنها كانت مكتفية بهذه المعيشة الرتيبة التي كانت تسير على وتيرة واحدة، فلم يكن يغضبها سوى أمر واحد، هو أن يقع حادث عارض يحملها على تغيير نظامها الدقيق !

وأخبرتني ذات مساء - وهي أكثر رغبة في التحدُّث معي عن عادتها - أن سلوك جون وما كان يتهدَّد الأسرة من خراب قد سببًا لها حزنًا شديدًا، ولكنها حزمت أمرها، لتُعنى بتأمين مستقبلها.. فإذا ما ماتت أمها، إذ لم يكن من المحتمل أن تشفى، أو أن تبقى طويلًا على قيد الحياة، كما قالت في هدوء - فسوف تبادر إلى تحقيق أمنية طالما تاقت إليها، وهي أن تأوي إلى مكان تسوده عادات منتظمة، ولا تنفذ إليه المتاعب أبدًا، حيث تقيم بينها وبين العالم المستهتر سياجًا. وإذا سألتها عمَّا إذا كانت جورجيانا سترافقها، قالت: «بالطبع لا!». فما كانت تجمع بينها وبين جورجيانا قواسم مشتركة في أي يوم من عمريهما.. وما كانت لتحتمل معاشرتها، ومن ثم فلجورجيانا أن تسير في طريقها الخاصة، ولها هي أن تنطلق في الطريق التي اختارتها .

وكانت جورجيانا - عندما لا تفضي إليَّ بدخيلتها - تقضي معظم وقتها في الاضطجاع على الأريكة وهي متبرِّمة باكتئاب القصر، متلهِّفة على أن تتلقَّى من خالتها دعوة إلى المدينة، قائلة: «آه لو استطعت أن أبتعد شهرًا أو اثنين، حتى ينتهي كل شيء!». ولم أشأ أن أسألها عما كانت تعنيه بقولها: «حتى ينتهي كل شيء»، ولكني أحسبها كانت تشير إلى موت أمها المنتظر، والفترة الكئيبة التي تستغرقها مراسم الجنازة. ولم تعد إليزا تكترث عمومًا ببلادة أختها وشكاواها، ولكنها حملت عليها ذات يوم بعد أن فرغت من دفتر حساباتها، وطوت تطريزها إذ قالت لها :

- «لم يدب على الأرض قط يا جورجيانا حيوان أسخف وأشد عجرفة منك، وليتك لم تخلقي لأنك لا تستفيدين من الحياة.. وبدلًا من أن تعيشي من أجل نفسك وفي نفسك ومع نفسك، كما ينبغي لكل عاقلة أن تعيش، تسعين لأن تكوني عالة على غيرك! وإذا لم تجدي من يرضى بحمل هذا الحِمل البدين، الغث، العديم الجدوى، رحت تصرخين شاكية من سوء المعاملة والإهمال وسوء الحظ! ثم إنك ترين العالم سجنًا بغيضًا، إذ لم تكن حياتك مشهدًا دائم التغير والإثارة! إنك لتريدين من الناس أن يعجبوا بكِ، ويتودَّدوا إليكِ، ويتملَّقوكِ. كما تريدين وجود الموسيقى والرقص والمجتمعات وإلا تولاك الخمول وأدركِكِ الموت! أليس لكِ عقل يساعدك على ابتداع وسيلة تجعلك مستقلة عن كل جهد وعزيمة إلَّا جهدكِ وعزيمتكِ؟ خذي يومًا وقسِّمي ساعاته بنظام، وخصِّصي لكل ساعة عملًا تؤدينه، ولا تتركي ربع ساعة، بل ولا عشر دقائق دون أن تفيدي منها، ولتؤدِّي كل مهمة في موعدها، وبنظام دقيق، فإذا اليوم ينقضي قبل أن تفطني إلى أنه بدأ، ولا تدينين لأحد بفضل مساعدتك على التخلُّص من الملل.. وعندئذٍ لن تحتاجي إلى صحبة أحد أوعطفه، أو مواساته.. ستجدين أنك عشت كما ينبغي لأي امرئ مستقل أن يعيش. خذي هذه النصيحة، وهي الأولى والأخيرة التي أقدمها لكِ - فلا تعودي محتاجة إليَّ،

ولا إلى أي امرئ آخر.. أما إذا أهملتها، فامضِ في توسلاتكِ، وشكواكِ، وتحمَّلي نتائج حماقتك مهما تكن. دعيني أحدثك ببساطة وصراحة، فاستمعي إليَّ: لسوف أنفض يدي منك بعد موت أمنا.. ومنذ أن يُنقل جثمانها إلى القبر سنفترق، وكأن كلا منا لم تعرف الأخرى.. ولا تحسَبي أنني سأدعك ترتبطين بي بأي رباط يثقلني، مهما يكن تافهًا، لمجرد أن القدر شاء أن نُولد من أم واحدة وأب واحد.. دعيني أخبرك بأنه لو قُدِّر للجنس البشري بأسره أن يفنى، فيما عدانا وأننا مكثنا وحيدتين على ظهر الدنيا، فسوف أتركك في هذا العالم القديم، وأذهب إلى العالم الجديد ».

وأطبقت شفتيها بعد ذلك. فردّت عليها جورجيانا: «ما كنت بحاجة لهذه الحملة القاسية، فكل مَنْ عاشركِ يعرف أنك أكثر المخلوقات الكائنة أنانية وجحودًا. كما أنني أعرف كراهيتك القديمة لي، فقد جربتها من قبل في الدور الذي لعبته في ما يتعلَّق باللورد فير، إذ لم تطيقي أن أرتفع إلى مستوى أرفع من مستواك، أو يكون لي لقب رفيع، أو أقابَل بمظاهر الإعجاب في الأوساط التي لا تجرؤين على الظهور فيها بوجهك هذا، فلعبت دور الجاسوسة والواشية، وقضيت على آمالي إلى الأبد!». وأخرجت جورجيانا منديلها، فراحت تتمخط باكية زهاء ساعة، بينما جلست إليزا باردة جامدة منهمكة في التطريز بجد واجتهاد .

إن بعض الناس لا يقيمون وزنًا كبيرًا للشعور الصادق الكريم، لكن ها هما نفسان جعلهما الافتقار إلى هذا الإحساس جد مختلفتين. فكانت إحداهما لاذعة لا تطاق، والأخرى تافهة تستوجب الازدراء. ذلك لأن العاطفة من غير عقل ليس في الحقيقة سوى شراب لا طعم له، بينما العقل الذي لا تلطفه العاطفة لا يعدو أن يكون لقمة شديدة المرارة، عسيرة المضغ، يشق على الإنسان أن يزدردها .

وكان الأصيل مطيرًا شديد الرياح، فما لبثت جورجيانا أن نامت على الأريكة وهي تتصفَّح إحدى الروايات، بينما ذهبت إليزا إلى الكنيسة الجديدة، لحضور قدَّاس بمناسبة عيد أحد القديسين، فقد كانت متشددة في أمور الدين على الشكليات والرسميات، لا يصدّها أي طقس عن أن تؤدِّي ما تعتبره من واجباتها الدينية، وكانت تذهب إلى الكنيسة ثلاث مرات في يوم الأحد، وفي الأيام التي تقام فيها الصلوات، سواء أكان الجو جميلًا او رديئًا .

ورأيت من واجبي أن أصعد إلى الطابق العلوي، فأتفقَّد حال المريضة التي رقدت في فراشها مهمَلة من الجميع تقريبًا، حتى من خدمها ومن ممرضتها التي كانت تتسلَّل من الغرفة كلما استطاعت. ولقد كانت بيسي أمينة حقًا،

ولكنها كانت مضطرة إلى العناية بأسرتها، فكانت لا تأتي إليها إلّا إذا سنحت لها الفرصة. وصحَّ ما توقعت، فإذا المريضة لم يكن يرعاها أحد، ولا تقف بجانبها ممرضة، وكانت نائمة وقد غاص وجهها الشاحب بين الوسائد، وبدأت النيران في المدفأة تخمد وتنطفئ، فجدّدتها ورتبت الفراش، ثم وقفت أحدِّق في من لم تعد تقوى على أن تحدِّق بي.. ومضيت إلى النافذة، فإذا الأمطار تصفع زجاجها، والرياح تهب قوية مزمجرة، فقلت في نفسي :

- «هنا ترقد مخلوقة سرعان ما سوف تبتعد عن حرب العناصر الأرضية، فإلى أين تذهب الروح التي تناضل الآن لتغادر مسكنها المادي بعد أن تنطلق متحرِّرة؟ ».

وفيما كنت أفكر في هذا السر العظيم، تذكَّرت هيلين بيرنز، زميلة الدراسة، وكلماتها الأخيرة، وهي على فراش الموت، عن إيمانها واعتقادها في المساواة بين الأرواح التي تحرَّرت من أجسادها. وكنت ما أزال أصغي بفكري إلى لهجتها التي ما زالت أذكرها، كما كنت أستحضر وجهها الشاحب الواهن، ونظرتها السامية وهي راقدة في فراش الموت تتعجَّل العودة إلى ربُ الأرباب، حين سمعت خلفي في الفراش غمغمة صوت واهن: «من هذا؟ ».

وكنت أعلم أن مسز ريد لم تتكلَّم منذ أيام، فهل تراها أفاقت؟ وذهبت إليها وقلت: «أنا.. أيتها الخالة ريد!». فكان جوابها: «من.. أنا؟ من أنت؟ ».

وتطلَّعت إليَّ في دهشة، ونوع من الفزع، وإن لم يبلغ حد الذعر المهتاج، ثم قالت: «إنك غريبة عني تمامًا.. أين بيسي؟ ».

- «إنها في الخارج يا خالتي ».

- «خالتك؟ من ذا الذي يدعوني خالته؟ أنت لست من آل جيبسون! إنني أعرف هذا الوجه وهاتين العينين وهذا الجبين، إنك تشبهين جين إير !».

ولم أقل شيئًا مخافة أن أسبب لها صدمة إذا أنا أفصحت لها عن شخصيتي ..

واسترسلت: «ومع ذلك أخشى أن أكون مخطئة لأن أفكاري تخدعني.. إنني أريد أن أرى جين إير، وأتوهَّم فيك بعض الشبه! فهي لا بد قد تغيَّرت كثيرًا في الأعوام الثمانية التي مضت!». فأخذت أؤكد لها في رفق أنني جين إير التي تريد رؤيتها، حتى إذا أدركت أنها وعت ما قلت تمامًا، أخبرتها كيف أرسلت بيسي زوجها إلى ثورنفيلد، وكيف لبيت الدعوة وجئت على عجل، فقالت بعد قليل: «أنا أعلم أنني جد مريضة، فقد حاولت منذ دقائق أن أتقلب في فراشي،

فوجدتني لا أستطيع الحراك. عليَّ أن أريح ضميري قبل أن أموت، لأن ما نستخف به ونحن في صحة جيدة، يثقل كاهلنا في مثل هذه الساعة.. هل الممرضة في الغرفة؟ هل هناك أحد غيرك في الغرفة؟ ».

وإذ أكدت لها أننا كنا وحدنا، قالت: «حسنًا، لقد أخطأت في حقك مرتين، خطأ أندم عليه الآن، فأنا أولًا نكثت بالعهد الذي قطعته على نفسي لزوجي، وهو أن أربيك كما لو كنت ابنتي، وثانيًا..». ثم سكتت وراحت تحدث نفسها قائلة: «وعلى كل فليس لهذا الأمر أهمية.. إنني قد أشفى، فيكون شعوري بأنني أذللت نفسي لها مبعث ألم لي ».

وحاولت عبثًا أن تنقلب على الجنب الآخر، ولكنها لم تستطع. وتغيرت أساريرها، وبدا أنها تعاني إحساسًا داخليًا، لعله كان نذيرًا بآخر آلامها في الحياة. إذ إنها لم تلبث أن قالت: «يجب أن أتغلَّب على ذلك، لأن العالم الآخر أمامي، ويحسن بي أن أخبرها.. اذهبي إلى صوان ملابسي وافتحيه، وأخرجي منه خطابًا ترينه هناك». فأطعت أوامرها.. ثم قالت: «اقرئي الخطاب!». وكان خطابًا قصيرًا، جاء فيه :

«سيدتي

هل تتكرَّمين بأن ترسلي عنوان ابنة أخي جين إير، وأن تخبريني كيف حالها، لأن في نيتي أن أكتب في القريب العاجل طالبًا إليها أن تأتي إليَّ في ماديرا، بعد أن بارك الله جهودي وأصبحت في سعة، ولمَّا لم تكن لي زوجة ولا ولد، فإنني أرغب في أن أتبنّاها في حياتي، وأوصي لها عند موتي بكل ما أتركه .

وتفضلي يا سيدتي... إلخ

جون آير - ماديرا »

وكان تاريخ الخطاب يرجع إلى ثلاث سنوات، فسألتها: «لماذا لم أسمع بهذا من قبل؟ ».

- «لأنني كنت أكرهك كراهية بالغة، حالت دون أن أمدّ لك يدًا تنتشلك وترفعك: ولن أنسى سلوكك معي يا جين ولا الحقد الذي عصفت به في وجهي ذات يوم، ولا اللهجة التي صارحتني بها بأنك تمقتينني وتعتبرينني أشرّ مخلوقة في الوجود، ولا النظرة والصوت اللذين لم يكونا يناسبان طفولتك عندما أكدت لي أن مجرَّد التفكير فيَّ يقزّزك وأنني عاملتك بقسوة شديدة. لم يكن في وسعي أن أنسى مشاعري عندما هببت ونفثت سموم ذهنك. لقد خفت وكأنك كنت

وحشًا ضاريًا، ضربته أو دفعته، فتأملني بعينين آدميتين. وراح يلعنني بصوت إنساني! أعطيني بعض الماء.. هيا أسرعي !».

فقلت وأنا أقدِّم لها جرعة الماء التي طلبتها: «لا تعودي يا مسز ريد العزيزة إلى التفكير في كل هذا، انسي ذلك ولا تهتمّي، واغفري لي حدة اللسان، لأنني كنت يومها طفلة صغيرة عمري ثمان أو تسع سنوات». فلم تكترث لشيء مما قلت، وإنما تنهَّدت بعد أن تذوَّقت الماء، ثم استطردت تقول: «أقول لك إنني لم أستطِع أن أنسى ما مضى، ولكني انتقمت لنفسي، لأنني لم أحتمل أن أرى عمَّكِ يتبناكِ، أو أن أراكِ في راحة وهدوء، فكتبت إليه أنني آسفة إذ أخيِّب رجاءه، فإن جين إير قد توفِّيت بحمَّى التيفوس في لوود! والآن.. لك أن تكتبي ما تشائين، وأن تكذِّبي قولي، وأن تكشفي عن زيفي بأسرع ما تستطيعين.. لقد ولدتِ لتكوني سببًا في تعذيبي، على ما أظن، ولولاكِ لما اقترفت الجرم الذي تنغِّص ذكراه ساعاتي الأخيرة !».

- «ليتكِ تكفِّين عن هذه الأفكار يا خالتي وتنظرين إليَّ بعين العطف والغفران ».

- «إن لك طبعًا رديئًا يا جين.. طبعًا لا أستطيع إلى اليوم أن أفهمه، إذ كيف استطعت الهدوء والصبر تسع سنين على معاملتنا، ثم هبَّيت في السنة العاشرة كالنار العاتية العنيفة؟ هذا ما لم أستطع إدراكه !».

- «ليست طباعي سيئة كما تتوهمين. أنا فعلًا عصبية، ولكني لست حقودًا أو محبة للانتقام. ولكم كان يسعدني في طفولتي أن أحبكِ لو أنكِ هيأتِ لي السبيل، وكم أتمنى الآن بإخلاص أن أكون معك على وئام وصفاء.. هيَّا قبِّليني يا خالتي !».

وقدمت لها خدي حتى التصق بشفتيها، ولكنها لم تقبِّله بل قالت إنني أضايقها بالاتكاء على الفراش، ثم رغبت مرة أخرى في أن تشرب.. ولما أسندتها بذراعيّ، أمسكت يدها الباردة كالثلج، فجذبت أصابعها الواهنة، ونأت بنظراتها عني.. وأخيرًا قلت: «سواء أأحببتيني أم كرهتني، فإنني قد صفحت عنكِ كل الصفح، فاطلبي من الله غفرانه، واهدئي بالًا !».

مسكينة هذه المرأة المعذَّبة! لقد أضاعت فرصة تغيير طباعها وأفكارها. وما دامت قد عاشت تكرهني، فسوف تقضي وهي ما تزال تكرهني .

ودخلت الممرضة إذ ذاك تتبعها بيسي، فتمهَّلت لعلّي أرى دليلًا على حبها، ولكنها لم تبدِ شيئًا من ذلك، ثم اشتدت بها الغيبوبة فلم تفِق منها حتى أسلمت

الروح في منتصف الليل، ولم أحضر موتها لأغمض عينيها، ولا حضرته واحدة من ابنتيها، ولكنهما أخبرتاني في الصباح أن كل شيء قد انتهى، فذهبت مع إليزا لنراها، بينما انفجرت جورجيانا في بكاء عال، وقالت إنها لا تجرؤ على الذهاب معنا، وهناك.. كانت سارة ريد مسجَّاة.. سارة ريد، التي كانت ذات يوم قوية نشيطة، أصبحت جامدة ساكنة، وقد غطَّى جفنها البارد عينها المتحجِّرة. وكان جبينها وملامحها الصارمة ما تزال تكسوهما مسحة الروح المتصلِّبة التي لا تلين، فكانت جثة عجيبة كئيبة .

رنوت إليها في أسى وألم، دون ما شعور رقيق أو رثاء، أو رجاء، أو قنوط.. مجرَّد ألم من أجل همومها وشقائها، لا لمصابي فيها. واكتئاب وحزن أمام رهبة الموت على هذه الصورة، لكن من غير دموع !

ونظرت إليزا إلى أمها في صمت، ثم قالت في النهاية: «كان يمكن ببنيتها القوية أن تبلغ من العمر أرذله، لولا أن قصف عمرها الهَمّ والكدر !».

ثم إن التشنّج قلّص شفتيها للحظة، حتى إذا انقضت، استدارت وغادرت الحجرة. فتبعتها من دون أن تذرف إحدانا دمعة واحدة !

الفصل الثاني والعشرون

لم يكن مستر روشستر قد منحني إجازة لغير أسبوع واحد، ومع ذلك انقضى شهر قبل أن أغادر جيتسهيد. وكنت أردت أن أسافر بمجرد تشييع الجنازة، ولكن جورجيانا توسَّلت إليَّ أن أبقى إلى أن تتمكَّن من السفر إلى لندن حيث دعاها خالها مستر جيبسون الذي كان قد جاء ليشرف على دفن أخته ويسوِّي أمور العائلة. وحدَّثتني جورجيانا عن خوفها من أن تُترك وحدها مع إليزا، التي لا تلقى منها عطفًا في حزنها، ولا عونًا على مخاوفها، ولا مساعدة في استعداداتها للسفر، فاحتملت من ولولتها وتأوُّهاتها الأنانية قدر ما وسعني، وبذلت قصارى جهدي في حياكة ملابسها وحزمها، ولو أنها كانت تؤثر الكسل والخمول وتتركني أعمل وحدي، حتى لقد خاطبتها في سريرتي: «لو قدَّر عليك وعليَّ أن نعيش معًا على الدوام - يا ابنة الخال - لوجب أن نبدأ حياتنا على أساس جديد، فما كنت أقبل بخنوع أن أحمل العبء وحدي، بل كنت أعيّن لك نصيبك من العمل، واضطرك إلى أدائه، وإلا بقي كما هو بلا أداء.. وكنت لأصر أيضًا على أن تكتمي في صدرك بعض هذا الكلام الفارغ، والتشدّق بهذه الشكاوى غير الصادقة! ولولا أن قرابتنا هذه مؤقتة وزائلة، ولولا أن هذا الظرف محزن، لما رضيت بهذا الإذعان !».

وأخيرًا، ودَّعت جورجيانا عند سفرها.. ولكن جاء دور إليزا إذ طلبت مني هي الأخرى أن أبقى معها أسبوعًا آخر، لأن خططها كانت تحتاج إلى كل وقتها واهتمامها. وكانت تعتزم الرحيل إلى بلد غير معروف، فكانت تقضي نهارها في حجرتها وقد أغلقت عليها بابها بالمزلاج، وراحت تملأ حقائبها وتفرغ أدراجها وتحرق أوراقها، دون أن تتصل بأحد، تاركة لي شؤون المنزل ومقابلة الزوار والرد على خطابات التعزية. ثم جاءتني صباح يوم تخبرني أنني مطلقة الحرية.. وقالت :

- «إنني أشكر لكِ خدماتك الغالية، وسلوككِ الرشيد! وإنه لفارق كبير بين أن يعيش الإنسان معكِ وبين أن يعيش مع مخلوقة مثل جورجيانا! إنكِ تؤدين واجبك في الحياة بنفسكِ، دون أن تكوني عالة على غيرك. غدًا سأقلع إلى أوربا، وسأقيم بالقرب من مدينة ليل في دار دينية، لك أن تسميها ديرًا. وهناك سأقضي العمر في راحة بال وهدوء. وسوف أكرِّس نفسي بعض الوقت لأداء الامتحان في المبادئ الكاثوليكية الرومانية.. ثم لدراسة نُظمها، حتى إذا وجدتها - كما أكاد أعتقد - خير ما يهيِّئ العمل بنظام وترتيب، اعتنقت المذهب الروماني، وربما دخلت الدير ».

ولم أبدِ دهشتي إزاء ما اعتزمته، كما لم أحاول أن أثني إراداتها، لاعتقادي بأن هذا ربما ناسبها، وربما كان أجدى لها، وعندما ودَّعتني قالت: «أستودعكِ الله يا ابنة العمة. أرجو لكِ أطيب التمنيات، فإنك ذات عقل لا بأس به ».

فأجبتها قائلة: «وأنتِ لست مجرَّدة من العقل يا ابنة الخال ليزا، ولكنكِ بعد عام واحد سوف تقبرين نفسك في دير فرنسي، وإن كان هذا ليس من شأني ولا يهمني ما دمتِ تجدين في عملك هذا ما يلائمك ».

- «إنك على حق !».

ثم سارت كل منا في طريقها الخاص. وبما أنه لن تسنح فرصة أخرى لذكرها ثانية، أو الإشارة إلى شقيقتها، في وسعي أن أذكر أن جورجيانا اقترنت برجل غنيّ طاعن في السن، وأن إليزا التحقت فعلًا بالدير وهي الآن رئيسته، بعد أن اجتازت المراحل الدينية، وقد وقفت عليه حياتها .

بأي شعور يعود الناس إلى أوطانهم بعد غياب طويل أو قصير؟ لست أدري لأنني لم أجرب هذا الشعور من قبل.. ولقد خبرت فيما مضى شعوري عند العودة إلى جيتسهيد - وأنا طفلة - بعد نزهة طويلة على الأقدام، لألقى التقريع والتأنيب بسبب ما كان يبدو عليَّ من برودة أو اكتئاب! كما عرفت فيما بعد، شعوري وأنا عائدة من الكنيسة إلى لوود متلهفة على وجبة طيبة ونار قوية فلا أجد هذه أو تلك! وما شعرت في عودتي إلى إحداهما بسرور واشتياق، إذ لم تكن هنالك جاذبية تتضاعف كلما اقتربت.. أما العودة إلى ثورنفيلد فإنني لم أكن قد جربتها بعد !

وبدت رحلتي شاقة.. شاقة جدًا، إذ قطعت في اليوم الأول خمسين ميلًا، ثم خمسين أخرى في اليوم الثاني.. وكانت أفكاري تدور في اليوم الأول حول مسز ريد وساعتها الأخيرة وموتها وجنازتها.. وحول جورجيانا التي تمثلتها في خاطري تمرح في قاعة الرقص.. وحول إليزا وقد قبعت في إحدى حجرات الدير الموحشة.. ثم رحت أحلل ما كان عليه سلوك كل منهما، وما كان فيه من أمور غريبة، إلى أن جُنَّ الليل فتبدَّدت هذه الأفكار، حتى إذا رقدتُ على فراش السفر، عاودتني من جديد ..

كنت عائدة إلى ثورنفيلد.. لكن، كم كان مقدَّرًا لي أن أمكث هناك؟ مدة قصيرة كما كنت أعتقد جازمة، لقد علمت من الخطابات التي أرسلتها مسز فيرفاكس أن الضيوف غادروا القصر، وأن مستر روشستر سافر إلى لندن منذ ثلاثة أسابيع، ولكن لن يلبث أن يعود بعد أسبوعين. وقد استنتجت مسز فيرفاكس من سفره، أنه ذهب ليعد العدة لحفلة زواجه، إذ تحدَّث عن شراء

عربة جديدة. وكانت ترى في زواجه بالآنسة إنجرام شيئًا غريبًا، ولكنها بعد كل ما سمعته من الناس، وما رأته بعيني رأسها، لم تعد تشك في أن هذا الزواج واقع بعد قليل. ولما تذكَّرت هذه الأقوال - أثناء رحلتي - قلت في نفسي أن لها أن تشك ما شاءت، ولكني لا يساورني أدني شك أو ارتياب .

وكان السؤال الذي تلا ذلك هو: «إلى أين أذهب؟». لقد حلمت أمس بالآنسة إنجرام ورأيتها تغلق أبواب ثورنفيلد في وجهي، وتشير إلى طريق آخر، كما رأيت مستر روشستر في منامي وقد عقد ذراعيه على صدره، وراح يبتسم منها ومني، ابتسامة زاخرة بالسخرية والاستخفاف .

ولم أكن قد ذكرت لمسز فير فاكس موعد عودتي بالضبط، لأنني لم أشأ أن تنتظرني العربة في ميلكوت، بل عوَّلت على أن أقطع الطريق سيرًا على الأقدام في صمت وهدوء. وفعلًا، غادرت فندق جورج في حوالي السادسة من إحدى أمسيات شهر يونيو، بعد أن تركتُ حقيبتي لدى حارسه . واتخذت الطريق القديم إلى ثورنفيلد.. وكان طريقًا يمتد الشطر الأكبر منه خلال الحقول، وقليلًا ما يجتازه أحد. ولم تكن الليلة من ليالي الصيف الصحوة ولا البديعة، وإن كان الهواء عليلًا.. وكان الفلاحون منهمكين في الحصاد على طول الطريق.. ومع أن السماء لم تكن خالية من السحب، إلّا أنها كانت تبشِّر بجو طيب إلى فترة طويلة، و حيثما كان من الممكن رؤية زرقة السماء، فقد بدت خفيفة، وثابتة.. كما كانت سحبها عالية ورقيقة.. كذلك كانت الريح الغربية دافئة، لا يبين فيها مطر ولا رطوبة.. وكأنما اشتعلت فيها نار، خلف ستار من البخار المرمري.. وخلال ثغرات السحب، كانت أشعة الشمس الراحلة، تبدو ذهبية مشوبة باحمرار ..

ورحت أشعر باغتباط كلما قصر الطريق أمامي.. وقد بلغ من عنفوان غبطتي أن توقَّفت مرة عن السير لأسائل نفسي عن سر هذا الفرح، ولأذكِّر عقلي بأن هذا الذي كنت أسعى إليه ليس منزلي، ولا هو مقرّ دائم لي، ولا هو مكان يضم أصدقاء مشغوفين بي، يترقبونني وينتظرون وصولي. وقلت في نفسي: «من المؤكَّد أن مسز فيرفاكس ستقابلني باسمة، وستصفِّق أديل وتجري لاستقبالي، ولكنكِ تعرفين جيدًا أنكِ إنما تفكرين في شخص آخر غيرهما، وأن هذا الشخص لا يفكِّر فيك !».

ولكن ما أشد عناد الشباب، وما أشد العمى الناشئ عن قلة التجارب! لقد أكَّد لي الشباب وقلة التجربة أنني سوف أغتبط كل الاغتباط إذ أحظى برؤية مستر روشستر مرة أخرى، سواء نظر إليَّ باهتمام أم لم ينظر. وراحا يهيبان بي قائلَين: «أسرعي. أسرعي. كوني إلى جانبه هذه الأيام أو الأسابيع القليلة

الباقية، قبل أن تفارقيه إلى الأبد!» وكظمت إذ ذاك في صدري ألمًا متجدِّدًا مبرحًا، وأسرعت في طريقي لا ألوي على شيء .

وكان العمال يحصدون في أراضي ثورنفيلد، أو بالأحرى كانوا قد فرغوا من عملهم وبدأوا يعودون إلى منازلهم. ولم يعد أمامي سوى حقل أو اثنين أجتازهما ثم أعبر الطريق إلى أبواب القصر الخارجية.. وكانت الزهور كثيرة متناثرة على طول الطريق، ولكن الوقت لم يكن يتسع لأقطف شيئًا منها، فقد أردت الوصول إلى القصر بأسرع ما كنت أستطيع.. وأخيرًا عبرت الطريق، لأجد مستر روشستر جالسًا على مقعده فوق سلم السياج، وفي يده قلم ودفتر يكتب فيه! ولم يكن شبحًا، ومع ذلك فقد خارت أعصابي، وبقيت لحظة لا أملك زمام حواسي.. فما معنى هذا؟ لم يكن يخطر لي ببال قط أنني سوف أرتجف هكذا عندما أراه، وأنني سوف أفقد القدرة على الكلام والحراك في حضرته. إذن لا بد لي من العودة، طالما أستطيع التحرك من مكاني، حتى لا أضع نفسي أمامه موضع السخرية والتهكم! وكنت أعرف طريقًا آخر إلى المنزل.. ولكن ما كان ليجديني أن أعرف عشرين طريقًا، إذ إن عيني مستر روشستر وقعتا عليَّ، وسرعان ما ألقى دفتره وقلمه جانبًا، ثم هتف قائلًا :

- «هالو.. هل عدتِ؟! تقدمي.. تقدَّمي من فضلك !».

وأحسبني تقدمتُ وإن لم أدرِ كيف تقدمت، لأنني لم أكد أفطن إلى حركاتي، بل قصرت همِّي على التظاهر بالهدوء، وعلى السيطرة على عضلات وجهي التي شعرت بها تتمرَّد بكل وقاحة على إرادتي، وتحاول جاهدة أن تطبع على أساريري صورة كنت معوِّلة على إخفائها. ولكني كنت أحمل قناعًا، فأسدلته على وجهي وتقدَّمت من السيد فابتدرني قائلًا :

- «وها هي ذي جين إير؟ هل أنت قادمة من ميلكوت.. وسيرًا على الأقدام؟ نعم فهذه إحدى حيلك.. لم ترسلي في طلب العربة وتأتي كغيرك من الناس العاديين، ولكنك آثرت المجيء خفية في الغسق مثل حلم أو خيال! بالله ماذا فعلت طوال هذا الشهر؟ ».

- «قضيته مع زوجة خالي التي توفيت، يا سيدي ».

- «هذا جواب من إجاباتكِ المأثورة عنكِ يا جين! احفظيني يا ملائكة، لقد جاءت جين إير من العالم الآخر.. من مدينة الموتى.. وبادرت تخبرني بذلك بمجرد أن لقيتني هنا وحيدًا وسط الظلام! لو أنني أوتيت الجرأة للمستك بيدي لأتبيَّن هل أنت جسم أو خيال يا شيطانة! ولكني لو وجدت الجرأة فلن أمسك بغير سراب خادع، أزرق اللون. يا لك من شاردة.. وأيّ شارِدة!». وتوقَّف لحظة عن الكلام،

ثم استرسل قائلًا: «لقد غبتِ عني شهرًا كاملًا ونسيتني كل النسيان.. أقسم على ذلك !».

وكنت أعلم أن في لقاء سيدي مرة أخرى سرورًا وابتهاجًا، رغم أنه لن تنقضي فترة وجيزة حتى تنقطع صلتي به، ورغم إيماني بأنني لستُ شيئًا مذكورًا لديه. ولكنه أوتيَ قوة غريبة، كانت تبعث السعادة حتى في الفتات الذي يتناثر من مائدته الدسمة، وتبتهج به الطيور الضالة الغريبة من أمثالي. والواقع أن كلماته الأخيرة كانت بلسمًا دلّني على أنه يعلِّق أهمية كبيرة على أن أذكره أولاً، ثم ها هو يشير إلى ثورنفيلد على أنه منزلي وليته كان كذلك !

ولم يبارح السيد مكانه عند السلم، ولم أجد بي ميلًا إلى مغادرته، فسألته هل كان في لندن، فأجاب: «نعم.. وأحسبك استنتجت هذا بثاقب فكرك؟ ».

- «بل لقد أخبرتني به مسز فيرفاكس في إحدى خطاباتها ».

- «وهل أخبرتك بسر سفري؟ ».

- «أوه. نعم يا سيدي، فكل إنسان يعرف مهمتك ».

- «يجب أن تشاهدي العربة يا جين لتري هل تناسب مسز روشستر، وهل ستبدو فيها كالملكة وهي تضطجع بين الوسائد الأرجوانية. كم أود يا جين أن أكون بمظهري الخارجي ندًا لها. اخبريني يا ساحرة، هل في وسعك أن تزوديني بتعويذة أو شرابًا سحريًا، أو أي شيء يجعلني رجلًا جميلًا !».

- «إن هذا فوق قوة أيّ ساحرة يا سيدي!».ثم قلت في نفسي: «إن الرقية التي تحتاج إليها هي عين المحب، فأنت جميل فيها، ولعبوسك في نظرها قوة أين منها قوة الجمال!». وكانت لمستر روشستر القدرة على أن يقرأ أحيانًا ما يدور في خاطري ببراعة لا أستطيع إدراكها، فلم يعن في هذه المرة بالجواب الذي نطق به لساني، بل ابتسم ابتسامة ذات معنى لم تكن تظهر على فمه إلّا فيما ندر. وأخيرًا أفسح لي الطريق قائلًا :

- «سيري يا جانيت واصعدي إلى المنزل، وضعي قدمك المتعبة الصغيرة الجوَّالة على عتبة قصر أحد أصدقائك !».

ولم يكن في وسعي إلّا أن أطيعه بصمت، دون حاجة إلى مزيد من الكلام، فعبرت السياج معتزمة أن أمضي في طريقي، ولكن سرعان ما استدرت، أو بالأحرى أكرهتني قوة قاهرة على أن أستدير، ثم نظرتُ إليه وقلت :

- «أشكرك يا مستر روشستر على عطفك. إنني في منتهى السعادة لعودتي إليك، وإن داري لهي حيث توجد أنت.. داري الوحيدة !».

ثم هرعت بسرعة ما كان ليستطيع معها أن يلحق بي لو أنه شاء! وجُنّت أديل الصغيرة عندما شاهدتني، واستقبلتني مسز فير فاكس بحفاوتها الصادقة، بينما ابتسمت ليا، وقالت لي صوفي: «مساء الخير». وهي بادية السرور .

كان ذلك ممتعًا يدعو للبهجة، إذ ليس ثمة سعادة أكبر من أن تكون محبوبًا من زملائك وأقرانك وأن تشعر بأن حضورك قد زادهم راحة ومتعة .

وفي ذلك المساء، أغمضت عيني حتى لا أرى المستقبل. وسددت أذني عامدة كي لا أسمع الصوت الذي لم يكن ينفك ينذرني بالفراق القريب والأحزان القادمة. فجلست بعد تناول الشاي مع مسز فيرفاكس - وأديل تلعب أمامنا - ودخل علينا مستر روشستر دون سابق إنذار. فلما رآنا على تلك الحال، بدا عليه السرور. ورحت بدوري أتوسَّل إلى الله أن لا يفرق بيننا بعد زواجه، وأن نعيش معًا في مكان واحد تحت رعايته وفي حمايته، وألّا نحرم دفء وجوده معنا .

وانقضى على عودتي إلى ثورنفيلد هول شهران (اسبوعان) كانا زاخرين بالهدوء المريب المشوب بالغموض.. فلم نتحدَّث بشيء عن زواج سيد الدار، ولم أشهد أي استعدادات لمثل هذه المناسبة.. ولم يكن يمضي يوم تقريبًا دون أن أسأل مسز فيرفاكس عما إذا كانت قد سمعت شيئًا، فكانت تجيبني دائمًا بالنفي.. بل لقد قالت لي إنها وجهت إليه سؤالًا صريحًا عن موعد قدوم عروسه، فلم يجبها إلّا بكلمة مازحة، وبابتسامة من ابتساماته الغامضة التي لا تدرك منها شيئًا على الإطلاق.. على أن شيئًا واحدًا في مسلكه أثار دهشتي بوجه خاص.. وهو انقطاعه عن الرحلات وعدم زيارته لقصر إنجرام.. صحيح أن المسافة إلى ذلك القصر لم تكن تقل عن عشرين ميلًا، ولكن ما قيمتها في نظر العاشق. وكيف يهتم رجل اشتهر بركوب الخيل مثل مستر روشستر بمسافة كهذه؟ لذلك أخذت تجيش في صدري آمال ما كان من حقي أن أنعم بها! وخُيِّل إليَّ أن أحد الفريقين، أو كليهما، قد عدل عن الزواج وغيَّر رأيه. واعتدت أن أتفرَّس في وجه مخدومي أحيانًا، لعلّي أقرأ فيه ما يدل على الحزن أو الاكتئاب القاسي، ولكنني لا أذكر أن هذا الوجه كان في يومٍ مضى أكثر صفاءً ويخلو من أيّ اكتئاب! وكنت إذا قضيت وتلميذتي لحظات معه، أشعر بأن قواي قد خارت، وبأنني غرقت في بحر من الغمّ، فيبتهج هو لهذه الظاهرة.. ثم راح يكثر من دعوتي إلى حضرته، ويضفي عليَّ من حنانه، ولكن.. وا أسفاه، إنني لم أحبه من قبل كما أصبحت أحبه إذ ذاك !

الفصل الثالث والعشرون

انتصف الصيف في انجلترا مشرقًا بسماء صافية، وشمس متألقة، ظلا يتتابعان في توالٍ قليلًا - بل نادرًا - ما تحظى به بلادنا التي تطوّقها الأمواج. فكأنما وفدت من الجنوب فترة من الأيام الإيطالية، كما يفد سرب من الطيور الرحلة البديعة، فيحط على قمم تلال البيوت المشرفة على البحار. وكان التبن قد نُقل إلى المخازن بعد الحصاد، وازدهرت الحقول حول ثورنفيلد، وقد انبثَّت خضرة النباتات الجديدة في جنباتها.. وابيضّت الطرق ولوَّحتها الشمس بحرارتها. وكانت الأشجار في عنفوانها، فبدا الفرق واضحًا بين السياج والغابة المورقة المزدهرة. وبين المراعي الخاوية، التي لفحتها الشمس حتى تشقَّقت أرضها !

وكانت أديل قد أوت إلى فراشها مع غروب الشمس في إحدى أمسيات الصيف. بعد أن نال منها التعب، إذ ظلَّت نصف النهار تقطف التوت.. فعُنيتُ بها حتى استغرقتُ في النعاس، ثم غادرتها وسعيتُ إلى الحديقة.. وكانت تلك أحلى ساعات اليوم الأربع والعشرين، إذ استُنفدت نيران النهار المشبوبة، وأخذ الندى يتساقط على السهول التي كان الحر يخنق أنفاسها، وعلى القمم العالية التي حرقتها الشمس.. وحيث غربت الشمس في بساطة، لا تشيعها مواكب السحب، انتشرت أرجوانية بديعة، تتألق بوميض كوميض جوهرة حمراء، وتتوهج كنار الفرن على قمة أحد التلال، ثم تمتد نحو السماء وفي الفضاء، وهي ترقّ وتخف، حتى تكسو نصف السماء.. وكانت للشرق فتنته هو الآخر.. فتنة بديعة، داكنة الزرقة، يشبع فيها تألق جوهرة متواضعة، ويبرز خلالها نجم وحيد.. ولن يلبث أن يزدهي بالقمر، ولكن القمر كان لا يزال - في تلك الساعة - محتجبًا وراء الأفق !

وتمشّيت برهة في الممر المرصوف، ثم شممت عبيرًا مألوفًا.. دخان سيجار كان يتسلَّل من إحدى النوافذ.. ولمحت فتحة في نافذة المكتبة لا تزيد على عرض الكف، فخشيت أن يراني أحد من خلفها، ومن ثم اختصرت الطريق إلى جوف البستان.. ولم تكن في الأراضي المحيطة بأسرها بقعة أكثر حمى وعزلة، وأقرب إلى الجنة، من هذه البقعة. فقد كان يفصلها من أحد الجوانب عن فناء القصر جدار شاهق، ويفصلها عن المروج، من جانب آخر، طريق تحف به أشجار الزان.. وفي أقصاها، كان ثمة سياج منخفض، هو الفاصل الوحيد بينها وبين الحقول الموحشة.. وفيما كنت أتنقل بين الزهور اليانعة، تحت ضوء القمر وقد بزغ من ناحية الشرق، توقَّفت، لا لأنني رأيت أحدًا أو

سمعت صوتًا، ولكن لأنني شممت عبيرًا نبَّهني.. عبيرًا طغى على شذى الورود والياسمين والقرنفل والزهور البرية.. ولكنه لم يكن عبير ورد ولا عبير زهور.. بل عرفت بجلاء أنها رائحة دخان سيجار مستر روشستر، فوقفت أتلفَّت حولي، وأرهف السمع. فلم أرَ غير الأشجار المحمَّلة بثمارها، ولم أسمع سوى تغريد الطيور.. لم أرَ جسمًا يتحرَّك أو أسمع وقع قدمين، ولكن الرائحة كانت تشتد.. فكان لا بد لي من أن أفر! وبادرت إلى الباب المفضي إلى الأدغال، فرأيتُ مستر روشستر قادمًا! ووقفت جانبًا، أحدّث نفسي بأنه لن يلبث أن يرتد عائدًا من حيث أتى، وأنه لن يراني إذا لم أتحرَّك من مكاني. ولكن كلا.. كان مثلي، قد وجد في السماء مبعث اغتباط وسرور، ولم يكن تأثير هذه الحديقة القديمة في نفسه بأقل من تأثيرها في نفسي، فأخذ يتمشَّى خطوة فخطوة، وهو يتطلَّع تارة إلى ثمار الأشجار، وتارة أخرى يقطف بعض الزهور.. إلى أن عثر على فراشة كبيرة فانحنى فوقها ليتأملها وهو يوليني ظهره. وإذ ذاك خطر لي أن أتسلَّل بخطوات خفيفة لعلي أستطيع الإفلات دون أن يراني وهو منهمك في تأمل الفراشة .

وسرت على العشب خشية أن يفضحني وقع حذائي على الأرض المرصوفة بالحصى. وكان السيد واقفًا بين أحواض الزهور، على مسافة ياردة أو اثنتين من حيث كان عليّ أن أجتاز الطريق.. ولكني لم أكَد أجتاز ظله، حتى خاطبني بصوت هادئ دون أن ينظر إليَّ.. «تعالي يا جين انظري إلى هذه الفراشة!». وعجبت كيف أحسّ بي مع أنني لم أحدث صوتًا، فارتجفت في البداية، ولكنني تقدَّمت إليه فأكمل: «انظري إلى جناحيها.. إنها تذكِّرني بحشرة كبيرة في جزر الهند الغربية.. وقلما يرى الإنسان بين هوام الليل فراشة كهذه في انجلترا. ها هي قد طارت». وحلَّقت الفراشة بعيدًا، فأخذت بدوري أتراجع مجفلة، ولكن مستر روشستر تبعني إلى أن بلغنا الباب، ثم قال: «ارجعي فلا يحسن أن يأوي الإنسان إلى المنزل في مثل هذه الليلة الجميلة. ولا شك في أن أحدًا لا يحب أن يمضي إلى فراشه في وقت تغرب فيه الشمس مع طلوع القمر !».

من العيوب التي أعترف بها، عجزي عن الكلام أحيانًا في وقت الحاجة. وهذا العجز لا يداهمني إلّا حين أقع في مأزق أو أزمة، وأغدو في حاجة إلى كلمة أو عبارة تخرجني منهما.. ولم أكن متحمّسة للتمشِّي مع مستر روشستر في الحديقة، في مثل تلك الساعة، ولكني لم أجد عذرًا لمرفض طلبه، فتبعته بخطوات ثقيلة، بينما كانت أفكاري تعمل بدأب لعلها تهتدي إلى وسيلة للخلاص. على أن الرجل كان في حالة من الهدوء والرزانة أخجلتني ..

وخاطبني قائلًا: «إن ثورنفيلد مكان يشرح الصدر ويبهج النفس في فصل الصيف. أليس كذلك يا جين؟». فقلت: «هو ذلك يا سيدي ».

- «لا شك أنك تعلّقت بثورنفيلد بعض الشيء، ويشجعني على هذا الاعتقاد ما أعرفه من حبك للطبيعة والجمال ».

- «الواقع أنني متعلِّقة بها ».

- «وأرى كذلك أنك متعلِّقة بتلك الطفلة الرعناء أديل والسيدة الطيبة القلب فيرفاكس ».

- «نعم أحبهما كثيرًا يا سيدي ».

- «هل يحزنك أن تفارقيهما !».

- «نعم !».

فتنهَّد وقال: «واحسرتاه!». ثم سكت برهة، وأكمل: «هذه سُنَّة الحياة دائمًا، فما إن يستقر بك المقام في مكان طيب، حتى يناديك صوت إلى القيام واستئناف السير، لأن ساعة الراحة قد انتهت !».

- «وهل لا بد لي من استئناف السير يا سيدي؟ هل لا بد من مغادرة ثورنفيلد؟ ».

- «هذا ما أظنه يا جين، وهو من دواعي أسفي، ولكن لا مفرّ منه ».

وكانت كلماته ضربة قاصمة، ولكني لم أدعها تسلبني قواي أو تهدم عزيمتي، فقلت :

- «حسنًا يا سيدي، سأكون مستعدة متأهبة، متى صدر الأمر بالرحيل». فقال: «بل آن الأوان، ويجب أن أصدر الأمر بذلك.. الليلة !».

- «إذن فقد عوَّلت على الزواج؟ ».

- «تمامًا.. بالضبط! لقد أدركت الحقيقة بما عرف عنك من فطنة وذكاء ».

- «حالًا يا سيدي؟ ».

- «حالًا يا.. آنسة. إنك تذكرين أنني أشرت إلى رغبتي في أن أضع عنقي في أنشوطة الزواج المقدسة، وأن أدخل في زمرة المتزوِّجين، وأن أضم إلى صدري مس إنجرام.. وإنها لتفوق سعة الذراعين، ولكن هذا خارج عن

موضوعنا، والإنسان لا يجد بكثرة مخلوقات في بهاء بلانش الحسناء. آه، كنت أقول.. أصغي إليَّ يا جين! أحب أن أذكرك بأنكِ أنتِ التي اقترحت أولًا، بما لكِ من فطنة أحترمها، وببعد النظر، والحكمة، والتواضع، التي تلائم مكانتك، أن ترحلي أنت وأديل الصغيرة عن القصر إذا ما تزوَّجتِ من مس إنجرام. وإني لأتجاوز عما في اقتراحك من تعريض بمحبوبتي، ومن المؤكَّد أنني سأنساه عندما تبعدين يا جانيت عن القصر، ولن أذكر منه سوى ما انطوى عليه من حكمة اتخذتها قانونًا أتصرَّف بموجبه.. فلا بد من إلحاق أديل بمدرسة.. أما أنت يا مس إير، فلا بد لك من مركز جديد !».

فقلت: «أجل يا سيدي.. سأعلن في الصحف فورًا عن وظيفة، وفي خلال ذلك أظن..»، وهممت بأن أقول: «أظن أن بوسعي أن أقيم في القصر حتى أجد لنفسي مأوى آخر». ولكني أمسكتُ، ولم أمضِ في حديثي خشية أن يخونني صوتي فلا أقوى على النطق بجملة ثقيلة كهذه. وعاد مستر روشستر إلى حديثه فقال :

«إنني أرجو أن أزف بعد شهر تقريبًا. وفي هذه الأثناء، سأبحث لك عن عمل ومأوى ».

- «شكرًا يا سيدي، ويؤسفني أن أسبب لك ..»

- «لا تعتذري، فإني أعتقد أن مَن تقوم مثلك بعملها خير قيام، لها حق أن تطلب العون من مخدومها في أمر بسيط كهذا. والواقع أنني سمعت من حماتي القادمة الليدي إنجرام عن وظيفة أظنها تلائمك، وهي أن تتولي تعليم خمس بنات لمسز ديونيسيونين أوجال سيدة قصر بيترنت بمقاطعة كونوت بأيرلندا.. وأعتقد أنك ستحبين أيرلندا، إذ يقولون إن أهلها طيبو القلب ».

- «إنها بعيدة يا سيدي ».

- «لا بأس في ذلك، فإن فتاة راجحة العقل مثلك لا تعارض في السفر ».

- «ليس السفر هو الذي يهمني، وإنما.. المسافة. ثم إن البحر يفصل..». وأمسكتُ، فقال: «يفصل ماذا؟». قلتُ: «أيرلندا عن انجلترا، وعن ثورنفيلد. وعن..». فتساءل: «وماذا؟». فقلتُ: «وعنك أنت يا سيدي !».

نطقتُ بذلك على الرغم مني، وطفرت الدموع من عيني دون إرادتي، ولكني لم أبكِ بصوت يسمع. بل تجنَّبت إصدار أي صوت.. كانت فكرة مسز أوجال

وبيترنت قد أشاعت في قلبي برودة قارسة.. وكانت فكرة الأمواج التي تفصل بيني وبين السيد الذي أتمشَّى الآن إلى جانبه، أشد برودة، وعدت أقول :

- «إنها مسافة بعيدة يا سيدي ».

- «لا شك في بعد المكان: وفوق هذا، متى وصلت إلى هناك فإنني لن أراكِ يا جين: هذه حقيقة لا ريب فيها لأنني لم أزر أيرلندا ولا أميل إلى الذهاب إليها. لقد كنا صديقين حميمين يا جين. أليس كذلك؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «ومتى كان الأصدقاء على وشك الفراق فإنهم يقضون معًا ودائمًا وقتهم القصير الباقي: فتعالي نتكلّم نحو نصف ساعة عن السفر وما سوف يتلوه من فراق.. تعالي نستجلي محاسن هذه الكواكب التي شرعت تأتلق في السماء.. ها هي ذي شجرة البندق، وها هو مقعد بجانب جذعها، فتعالي نجلس الليلة في هدوء وسلام، فقد لا يُتاح لنا أن نجلس معًا مرة أخرى ».

ثم أجلسني على المقعد وجلس بجانبي، واستطرد: «إن المسافة إلى أيرلندا طويلة يا جين، وإنه ليحزنني حقًا أن أبعث صديقتي الصغيرة في هذه الرحلة الشاقة، ولكن إذا لم يكن في وسعي ما هو خير من ذلك، فما حيلتي؟ أتعتقدين أن بيني وبينك صلة من القرابة يا جين؟». وكان قلبي زاخرًا بالأسى فلم أقوَ على الرد بكلمة. فأكمل: «ذلك لأنني أشعر أحيانًا بشعور غريب نحوك، لا سيما عندما تكونين قريبة مني كما أنت الآن.. بل يُخيَّل إليَّ أن تحت أضلعي اليسرى خيطًا رُبط رباطًا وثيقًا بخيط يماثله مشدود إلى أضلعك الصغيرة، ولذلك أخشى أن ينقطع هذا الرباط الوثيق إذا فصلت بيننا هذه المسافة الشاسعة، وعندئذ قد تدهم الآلام قلبي وتدميه. أما أنت فسوف تنسينني». فهتفتُ: «لن يكون هذا قط يا سيدي فإنك تعلم..». ولم أستطع المضي إلى أكثر من ذلك، فقال: «هل تسمعين يا جين هذا البلبل الذي يغرِّد هناك في الغابة؟ أصغي إليه». وفيما كنت أصغي، رحت أنشج باكية، لأنني لم أعد أحتمل أكثر من ذلك.. كنت مضطَّرة إلى الاستسلام لأحزاني فراحت تعصف بكياني من رأسي إلى أخمص قدميّ. وأخيرًا.. عندما استطعت الكلام قلت: «ليتني لم أولد ولم تقع عيناي على ثورنفيلد!». فسألني: «هل ذلك لأنك آسفة على فراقها؟ ».

واستبد بي الانفعال الشديد، وقد أهاجه في نفسي الحزن والحب الذي كان بين جنبيَّ يحاول أن يفرض سلطانه، ويناضل لكي تكون له السيطرة والغلبة، ولكي يعيش، وينهض، ويتحكَّم أخيرًا، و.. يتكلّم، فقلت :

- «يحزنني أن أغادر ثورنفيلد لأنني أحب ثورنفيلد.. أحبها، لأنني عشت فيها عيشة راضية ممتعة.. فلم يدسني أحد ولم يرعبني مخلوق، ولم أُدفن مع عقول وضيعة، ولا حُرمت من التمتع بكل ما يأتلق ويسمو. وفيها تحدَّثت وجهًا لوجه مع من أحبه وأجلّه وأجد فيه البهجة والسرور.. مع العقل الوثَّاب الأصيل، الواسع الأفق.. لقد عرفتك يا مستر روشستر، فمن دواعي حزني العميق وجزعي الشديد أن أجدني مضطرة إلى فراقك إلى الأبد، بل إنني أرى الرحيل ضرورة.. وإنها لتبدو محتومة كضرورة الموت !».

فسألني على الفور: «فيم تجدين هذه الضرورة؟ ».

فقلت متسائلة : «فيم؟ إنك أنت الذي وضعتها أمامي يا سيدي ».

فتساءل: «في أي شكل ».

فقلت: «في صورة مس إنجرام.. امرأة نبيلة وجميلة.. عروسك !».

وهتف: «عروسي؟ أي عروس؟ أنا لا عروس لي ».

فقلت: «ولكنك لن تلبث أن تحظى بعروس ».

فصرف بأسنانه وقال: « سأحظى.. أجل.. سأحظى !».

فقلت: «وإذن فلا بد أن أذهب.. لقد قلت ذلك بنفسك ».

فقال: «كلا، بل يجب أن تبقي.. أقسم لك وسأبرّ بقسمي !».

فقلت والانفعال يكاد يثيرني: «أقول لك يجب أن أذهب. أتعتقد أن في وسعي البقاء حتى لا أصبح شيئًا في نظرك؟ أتظنني آلة لا حس لها ولا شعور؟ أتحسبني أطيق أن يخطف خبزي من فمي، وأن تنسكب من وعائي قطرة حياتي؟ أتخالني مخلوقة بلا روح ولا قلب، لأنني فتاة فقيرة، نكرة.. خالية من الجمال؟ كلا يا سيدي، إنك مخطئ في ذلك، فإن لي روحًا لا تقل عن روحك وقلبًا يحس كقلبك.. ولو أن الله وهبني شيئًا من الجمال، وبعضًا من المال، لجعلتك تشعر لفراقي بمرارة كتلك التي أشعر بها لفراقك.. إنني لا أتحدَّث إليك كما يقضي العرف والتقاليد المصطلح عليها، ولا عن طريق الجسد الفاني، ولكنها روحي هي التي تخاطب روحك وكأنهما اجتازتا القبر ووقفتا متساويتين عند قدمَيْ الله.. كما هو الوضع الحقيقي !».

فكرَّر مستر روشستر قولي: «كما هو الوضع الحقيقي!». ثم أضاف وهو يحتويني بين ذراعيه ويضمني إلى صدره، ويضغط شفتيه على شفتيّ: «هكذا!». فقلت: «أجل، هكذا يا سيدي.. ومع ذلك، فهو ليس كذلك! لأنك رجل متزوج أو في حكم المتزوج ومخطوب لفتاة دونك شأنًا.. فتاة لا تعطف عليك، ولا أظنك تحبها حبًا صادقًا، لأنني سمعتك ورأيتك تسخر منها. إنني أحتقر مثل هذه الرابطة ولذلك فأنها أفضل منك.. دعني أذهب !».

- «إلى أين يا جين؟ إلى أيرلندا؟ ».

- «نعم إلى أيرلندا، فقد صارحتك بما في نفسي، وفي وسعي الآن أن أذهب إلى أي مكان ».

- «هدِّئي روعك يا جين ولا تناضلي هكذا، كطائر برّي جنّ ذعرًا فراح يشد ريشه من يأسه !».

- «لست طائرًا، ولا توجد شبكة لاقتناصي، وإنما أنا إنسانة حرة، ذات إرادة مستقلة تفرض عليَّ أن أتركك ».

وبذلت مجهودًا آخر خلصني منه، ثم وقفت أمامه منتصبة القامة فقال :

- «إرادتك ستقرِّر مصيرك، وأنا أقدِّم لك قلبي ويدي وجزءًا مما أملك ».

فقلت: «هذه خدعة منكَ لا يسعني إلّا أن أسخر منها !».

فقال: «بل إنني أسألك أن تقضي حياتك إلى جانبي، وأن تكوني روحي الثانية وخير شريكة لي على الأرض ».

فقلت: «لقد اخترت فعلًا مَنّ تجعلها كذلك، فعليك أن تحترم قرارك وتتمسَّك به !».

فهتف قائلًا: «اهدئي قليلًا يا جين، فإنكِ شديدة الإنفعال !».

وهبَّت ريح خفيفة على طريق أشجار الغار، فهزَّت غصون شجرة البندق ثم راحت تبتعد وتبتعد حتى تلاشت، فلم يبقَ غير صوت البلبل. ورحت أبكي وأنا أصغي إليه، بينما جلس هو هادئًا ينظر إليَّ برفق واهتمام. ومرّت فترة قبل أن يقول: «تعالي إلى جانبي يا جين، تعالي نتصارح ليفهم كل منا الآخر !».

فقلت: «لن آتي إلى جانبك مرة أخرى، فقد انتزعت نفسي منك ولا أستطيع العودة ».

قال: «ولكنني أدعوك يا جين كزوجتي، لأنكِ أنتِ التي أعتزم أن أتزوَّجها».
فأخلدت للصمت ظنًا مني أنه يسخر بي، ولكنه قال: «تعالي يا جين.. تعالي ».

فقلت: «إن عروسك تحول بيننا ».

وإذ ذاك غادر مقعده، وبخطوة واحدة صار بجانبي. ثم جذبني إليه قائلًا :

- «إن عروسي هنا.. إنها شبيهتي، هل تتزوجينني يا جين؟ ».

وكنت ما أزال في شك من قوله، فبقيت على صمتي وأنا أحاول التخلص من قبضته.. إلى أن قال: «هل ترتابين فيَّ يا جين؟». قلت: «كل الارتياب».
وسألني: «ألا تثقين بي؟». فأجبت: «ولا مثقال ذرة». وإذ ذاك قال محتدًّا :

- «هل أنا كذَّاب في عينيكِ؟ لسوف تؤمنين بي يا ملحدة! أي حب أكنّه في قلبي لمس إنجرام؟ لا شيء، كما تعلمين.. ثم أي حب تكنه هي لي في قلبها؟ لا شيء. ولقد تجشَّمت عناء إثبات ذلك، فرحت أروِّج إشاعة بلغت مسامعها، وفحواها أن الثروة التي أمتلكها لا تساوي ثلث قيمتها الظاهرية، ثم زرتها بعد ذلك لأرى مبلغ أثر هذه الإشاعة على نفسها، فوجدت فتورًا منها ومن والدتها. أما أنتِ.. أنتِ أيتها المخلوقة الغريبة العجيبة التي لا تمت إلى هذه الأرض بصلة.. فإنني أحبكِ كما لو كنتِ من لحمي. إنكِ أنتِ.. أيتها الفقيرة المغمورة الضئيلة البسيطة.. أنتِ التي أتوسَّل إليها أن تقبلني زوجًا؟ ».

صمتُّ وقد رأيتُ لهجة الجد في صوته وآمنتُ بصدقه :

- «ماذا! أنا! أنا التي ليس لها صديق في العالم سواك؟ إذا كنت صديقًا لي فاعلم أنني لا أملك من المال إلّا ما أعطيتنيه ».

فقال: «أنتِ يا جين التي يجب أن أحظى بها لنفسي.. لذاتي. فهل تقبلين أن تكوني لي؟ قولي نعم، بسرعة !».

فقلت: «دعني أتطلَّع إلى وجهك. تحوَّل نحو ضوء القمر !».

وتساءل: «لماذا؟»، فقلت: «لأنني أريد أن أقرأ أساريرك.. استدر !».

واستدار نحو الضوء قائلًا :

- «إليكِ.. ولن تجدي على وجهي سوى صورة ليست أوضح من صفحة مغضَّنة مشوَّشة، مكتوبة بخط لا يُقرأ.. هيا اقرئي ولكن أسرعي لأنني أتألم !».

ورأيتُ على وجهه المتضرِّج بحمرة الخجل آيات الاضطراب والانفعال، وشاهدتُ في عينيه بريقًا عجيبًا. وسرعان ما صاح :

- «إنكِ تؤلمينني يا جين! إنكِ تعذبينني بهذه النظرة المتفحِّصة برغم إخلاصها وكرمها ».

فقلت: «كيف أقوى على أن أؤلمك؟ إذا كنت صادقًا وجادًا في طلبك، فإن شعوري نحوك هو الامتنان والوله.. وليس في ذلك تعذيب لك أو إيلام !».

فصاح ثائرًا: «الامتنان! اقبليني بسرعة يا جين، وقولي: سوف أقترن بك يا إدوارد.. ناديني باسمي !».

فسألته: «أجادٌ أنت؟ أتحبني حقًا؟ هل بك رغبة صادقة في أن أكون زوجتك؟ ».

- «كل الرغبة.. وإذا كانت هناك يمين تقنعك أقسمتها !».

- «إذن سأتزوجك يا سيدي ».

- «ناديني باسمي «إدوارد» يا زوجتي الصغيرة ».

غمغمتُ: «يا عزيزي إدوارد!». وإذ ذاك قال: «إذن تعالي إليَّ.. تعالي كلك إليَّ!». ثم ضمَّني إلى صدره وهمس في أذني وقد ألصق خده بخدي: «أسعديني، وسأوفِّر لك سعادتك». وما لبث أن هتف بعد فترة وجيزة: «عفوك يا إلهي! جنّبني يا ربي تدخّل الإنسان، فقد ظفرت بها، وسوف أتشبَّث بها !».

- «ليس هناك من يتدخل بيننا، فليس لي أقارب يتدخَّلون في شؤوننا ».

- «.. وهذا خير ما هنالك ».

كنت أجلس بجانبه، وقد انجاب عني كابوس الفراق، ودُعيت إلى جنة الارتباط به، فلم أعد أفكر في غير كأس السعادة التي كنت أشربها مترعة، وراح يسألني مرارًا: «هل أنتِ سعيدة يا جين؟». فكنت أجيبه المرة بعد الأخرى: «نعم»، فغمغم بعدها قائلًا :

- «هذه هي التوبة.. لسوف تكون كفَّارة! ألم أجدها يتيمة، عديمة الصديق، محرومة من الراحة؟ ثم، ألن أرعاها، وأحبها، وأواسيها؟ ألا يملأ الحب قلبي، والعزم الراسخ قراري؟ إنها تكفير عن خطاياي، ولسوف يتقبَّلها الله كفَّارة، فإني أعلم عن يقين أن خالقي يتقبَّل أعمالي. أما حكم الدنيا على عملي، فإني أنفض يدي منه.. وأما رأي الإنسان، فإني أتحداه !».

ولكن ما الذي أصاب الليل؟ لم يكن القمر قد اختفى بعد وراء الأفق، ومع ذلك فقد شملنا ظلام، حتى كدت لا أتبيَّن وجه سيدي برغم قربه مني.. وما الذي ألمَّ بشجرة البندق؟ لقد راحت تتلوَّى وتتأوَّه، بينما أخذت الرياح تزأر في الطريق التي تحفّ بها الأشجار، ثم تهبّ علينا مجتاحة ..

وقال مستر روشستر: «يجب أن ندخل فقد انقلب الطقس.. لولا ذلك لجلست معك حتى الصباح يا جين!». فقلت في نفسي: «وأنا أيضًا ».

ولعله كان يحسن أن أجيبه بهذا القول، ولكن السماء سرعان ما أبرقت، وأرعدت، وأمطرت، حتى اضطررت إلى إخفاء عينيَّ الزائغتين في كتف مستر روشستر.. وتدفَّقت الأمطار، فدفعني مستر روشستر إلى الممر، ثم خلال الحديقة، إلى المنزل، وقبل أن نبلغ عتبته، كانت ملابسنا قد ابتلت تمامًا. وفيما كان ينتزع شالي في البهو، وينفض الماء عن شعري، أطلَّت مسز فيرفاكس من باب حجرتها، فلم أرَها في البداية ولم يرَها مستر روشستر كذلك. وكان المصباح مضاء والساعة تدق الثانية عشرة فقال :

- «أسرعي إلى خلع ملابسك المبللة، وقبل أن تذهبي.. طابت ليلتك.. طابت ليلتك يا حبيبتي !».

ثم قبَّلني مرارًا. ولما استطعت أن أفلت من ذراعيه وأرفع عيني، شاهدت المرأة الأرملة واقفة وعلى وجهها آيات الشحوب والتجهُّم والدهش، فلم أفعل سوى أن ابتسمت لها، وبادرت أصعد الدرج وأنا أقول في نفسي :

- «أستطيع أن أوضِّح لها الأمر في وقت آخر !».

ومع أنني لم أكد أبلغ حجرتي حتى شعرت بالألم للفكرة التي ستفسِّر بها ما رأته، ولكن سرعان ما امّحى كل شعور آخر أمام سعادتي وابتهاجي.. وكانت الرياح تهب بقوة، والرعد يقصف عميقًا مدوِّيًا، والبرق يومض في حدة وبلا انقطاع، والأمطار تهطل هادرة كالشلال أثناء العاصفة التي دامت ساعتين. ومع ذلك، لم يساورني أتفه خوف أو فزع لأن مستر روشستر أقترب من بابي

ثلاث مرات أثناء ذلك ليسألني هل أنا في أمان وسلام وهدوء بال، فكان في ذلك عزاء وقوة أواجه بهما كل شيء !

وقبل ان أغادر فراشي في الصباح التالي، قدمت أديل الصغيرة مهرعة لتخبرني بأن صاعقة انقضّت خلال الليل على شجرة البندق الكبيرة، في نهاية البستان، فأطاحت بنصفها !

الفصل الرابع والعشرون

عندما نهضت من فراشي وارتديت ملابسي، رحت أقلّب الفكر في ما وقع وأتساءل: أكان حلمًا من الأحلام؟ ولم أستوثق من أنه حقيقة حتى قابلت مستر روشستر ثانية وسمعته يجدِّد لي حبه وعهوده .

وفيما كنت أنسِّق شعري، تطلَّعت إلى وجهي في المرآة فشعرت بأنه لم يعد خاليًا من البهاء، وبدا الأمل على محيَّاه، والحياة على صفحته، وخُيِّل إلي أن عينيَّ قد رأتا نبع السعادة واستمدتا من أمواجه الرقراقة وميضها المتألّق. ولطالما خفت أن أتطلَّع إلى عيني سيدي خشية ألّا تروقه نظرتي، أما الآن فبتّعلى يقين أنني أستطيع أن أرفع وجهي إليه دون أن يفتر حبه مما يراه. ثم ارتديتُ ثوبًا بسيطًا، ولكنه خفيف وفاتح اللون. ويبدو أنه كان أنسب ثوب لجسمي، لأنني لم ألبس غيره بهذه الفرحة وهذا الابتهاج.. ولم أدهش عندما جريت هابطة إلى البهو، من أن أرى أن صباحًا مشرقًا قد أعقب عواصف الليل، ومن أن أحس خلال الباب الزجاجي المفتوح بنسيم منعش يحمل عبير الزهور، إذ أيقنت من أن الطبيعة تشاطرني سعادتي.. ولمحت امرأة متسوِّلة تقبل في الطريق مع طفل صغير، وقد لاحا شاحبين، هزيلين، مهلهلَيْ الثياب، فهرعت إليهما، ومنحتهما كل ما وجدت في كيسي، وكان ثلاثة أو أربعة شلنات.. وسواء قل هذا المبلغ أو كثر، فإنه كان كل ما معي، وقد أحببت أن يشاركاني فرحتي! وكانت الطيور تزقزق، والبلابل تغرِّد مبتهجة، ولكن شيئًا لم يكن يعادل قلبي في طربه وموسيقاه.. ولم ألبث أن فوجئت بمسز فيرفاكس تطل من النافذة بأسارير واجمة، وقالت تخاطبني بلهجة جادة :

- «يا آنسه جين.. هل تتفضَّلين بالمجيء لتناول الإفطار؟ ».

وظلَّت أثناء الطعام صامتة، فاترة، فلم أشأ أن أبدِّد ما بها، وقلت لنفسي يجب أن أنتظر حتى يبسط لها سيدي الأمر، ويجب أن تنتظر بدورها.. وتناولت ما استطعت من طعام، ثم أسرعتُ إلى الطابق العلوي حيث التقيت بأديل خارجة من غرفة الدراسة فسألتها :

- «إلى أين أنتِ ذاهبة؟ حان وقت الدرس ».

- «أمرني مستر روشستر بالذهاب إلى غرفة الأطفال ».

فسألت: «وأين هو؟». فأشارت إلى الحجرة التي خرجت منها وقالت: «هناك». ودخلت الغرفة فوجدته واقفًا، وبادرني قائلًا: «تعالي حيِّيني تحية الصباح!»، فتقدَّمت مغتبطة.. ولم يكن ما تلقَّيته مجرَّد كلمة باردة، أو مصافحة باليد، وإنما كان عناقًا وقبلة.. ولاح لي أن من الطبيعي، وأن من المبهج أن أحظى بحبه وعناقه. وقال: «إنكِ يا جين تبدين في هذا الصباح متألِّقة، باسمه، جميلة.. إنكِ جميلة حقًا.. أفهذه شيطانتي الشاحبة الذابلة؟ أحقًا تحوَّلتِ إلى هذا الوجه المشرق، والخدين اللذين تتوسطهما غمازتان، والشفتين الورديتين، والشعر الكستنائي الأملس، والعينين العسليتين المتألقتين؟ ».

(ولقد كانت عيناي خضراوين، ولكن، ليتجاوز القارئ عن هذا الخطأ، فقد لاحتا في نظره مصطبغتين بلون جديد !)

- «إنها جين إير يا سيدي ».

- «ستصبح عما قريب جين روشستر.. بعد أربعة أسابيع يا جانيت.. لا أكثر! هل تسمعين؟ ».

أجل، سمعت قوله وإن لم أفقه معناه، إذ شعرت برأسي يدور، فالشعور الذي بعثه هذا القول في نفسي كان أقوى من الفرح والاغتباط.. كان شعورًا أذهلني وكان يرسل الخوف إلى قلبي. فسألني مستر روشستر :

- «لقد تضرَّج وجهك ثم امتقع، فلماذا يا جين؟ ».

- «لأنك أطقلت عليَّ اسمًا جديدًا له وقع عجيب في أذني ».

- «نعم يا مسز روشستر.. الصغيرة! عروس إدوارد روشستر ».

- «لن يكون هذا يا سيدي ولا يُحتمل، لأن البشر لا ينعمون بالسعادة الكاملة المطلقة في هذا العالم .. إن مجرَّد تصوَّر أنني سأصيب كل هذا الحظ، يبدو لي أشبه بخرافة أو حلم يراودني في يقظتي ».

- «ولكن في وسعي أن أحقِّقه وسأحقِّقه! وقد قطعت اليوم الخطوة الأولى، فكتبت إلى وكيل أعمالي في لندن كي يبعث إليّ باللآلئ التي هي ميراث تتداوله سيدات ثورنفيلد، وآمل أن ألقي به في حجرك، لأنني سأوليك كل اهتمام يمكن أن أوليه لأيّ فتاة كان يحتمل أن أتزوجها من بنات النبلاء ».

- «أوه يا سيدي. دعك من اللآلئ.. لا أريد أن أسمع عنها شيئًا، لأن اللآلئ لجين إير شيء له في السمع وقع غريب غير طبيعي، ولذلك لا أريدها !».

- «سوف أضع بيدي عقد الماس حول جيدك، والأساور حول هذين المعصمين، وأزيِّن هذه الأصابع الصغيرة بالخواتم !».

- «كلا.. يا سيدي.. فكِّر في موضوع آخر وتكلَّم في أمور غير هذه، ولا تخاطبني كما لو كنت حسناء.. لا تنس أنني مربية بسيطة في خدمتك !».

- «إنك حسناء في عينيّ.. حسناء يتمناها قلبي، رقيقة كالنسيم !».

- «تافهة لا وزن لها.. هذا ما تعنيه! أأنت تحلم يا سيدي، أو أنك تسخر مني؟ بالله لا تمعن في تهكمك !».

ولكنه استرسل دون أن يحفل بقولي: «سأحمل العالم على أن يعترف بجمالك أيضًا.. سأكسوكِ بالدانتيلا والحرير، وستزينين شعركِ بالورود والزهور، وسأغطي الرأس الذي أحبه بوشاح أميرة من الأميرات ».

وشعرت بأنه يتعمَّد أن يغرِّر بي أو بنفسه فقلت: «إنك لن تعرفني إذ ذاك.. لن أكون جين إير، بل سأصبح قردة ترتدي ثوب مهرِّج! إنني لا أدَّعي أنك جميل وإن كنت أحبك حبًا طاغيًا يمنعني من تملقك، فلا تتملقني !».

ولكنه لم يحفل بقولي، بل استطرد: «سأرافقك اليوم في العربة إلى ميلكوت لكي تختاري ثيابًا لكِ، فقد أخبرتك بأننا سوف نتزوَّج بعد أربعة أسابيع، وسيتم زواجنا، في الكنيسة القريبة من هنا، بهدوء، ثم نسافر فورًا إلى لندن، وبعدها بفترة، سأحملكِ يا درَّتي إلى مناطق أقرب إلى الشمس.. إلى كروم فرنسا، وسهول إيطاليا. وسترين عندئذ كل ما ذاع ذكره في التاريخ القديم، وكل ما عُرف في العصر الحديث. وسوف تتذوقين طعم الحياة في المدن، وستعرف جين كيف تقدِّر قيمتها بمجرد مقارنة نفسها بالأخريات !».

- «هل سأسافر؟ ومعك أنت يا سيدي؟ ».

- «ستقضين فترات في باريس وروما ونابولي وفلورنسا والبندقية وفيينّا. كل أرض جبتها أنا، ستطئينها أنتِ بقدميك.. أينما ذهبت ستذهبين معي يا ملاكي. لقد فررت إلى أوربا منذ عشر سنوات، ورحت أتنقَّل في أرجائها كالمجنون، دون رفيق سوى ما كنت أحمله في قلبي من النقمة والكراهية والحنق، وسأعود الآن لزيارتها بقلب شُفيَ وتطهَّر، ومعي ملاك حقيقي يرفِّه عني !».

فضحكت منه وقلت: «لست من الملائكة، ولن أكون ملاكا حتى أموت.. سوف أكون أنا جين إير يا مستر روشستر. لا تتوقَّع ذلك، ولا تطلب مني شيئًا سماويًا لأنكَ لن تحصل عليه، كما أنني لن أطلب ذلك منك! ولستُ أتوقَّع منك أن تكون ملاكًا!». فقال: «وماذا تتوقَّعين مني؟ ».

- «ربما ظللت كما أنت الآن لفترة قصيرة، ثم لن تلبث أن يتولاك الفتور وتغدو متقلِّبًا، ثم صعبًا، ويصعب إرضاءك. وبعدها ستألفني، وربما عدت تميل إليَّ مرة أخرى.. أقول: تميل إليَّ، ولا أقول تحبني، لأن حبك سوف يتبخَّر بعد ستة أشهر أو أقل. فقد قرأت في الكتب التي ألَّفها الرجال أن هذه الفترة هي أقصى مدة يبقى فيها الزوج على حبه.. ومع ذلك فإنني أرجو - باعتباري صديقة سيدي ورفيقته - ألّا تسأمني وتملّني إلى هذا الحد يومًا ».

- «أسأم! أميل إليكِ ثانية! لسوف أجعلكِ تعترفين بأنني لا أميل إليكِ، وإنما أحبكِ حبًا صادقًا عارمًا ».

- «ومع ذلك، أفلست متقلِّب الأهواء يا سيدي؟ ».

- «مع النساء اللائي يغرينني بوجوههن وجمالهن الظاهري فقط.. وأصبح شيطانًا عندما أكتشف أنهن بلا أرواح أو قلوب، وعندما يظهرن لي السخف والتفاهة وربما الغباء والفظاظة وسوء الطبع، ولكنني محب حنون، صادق، للعين الصافية واللسان الفصيح والروح المتأجِّجة والطبع الذي يلين ولكنه لا ينكسر.. فهو تارة مرن مطواع، وتارة صلب متماسك !».

وسألت «هل صادفت مثل هذا الطبع يا سيدي؟ هل أحببت في حياتك

واحدة من هذا الصنف؟». فهتف: «إنني أحبها الآن». قلت: «أعني قبلي،

إذا كنت أنا قد بلغت حقًا ذلك المثل الأعلى الذي تطلبه». فقال :

- «لم أصادف مثيلًا لكِ من قبل يا جين. إنك تبعثين الغبطة في نفسي وتسيطرين عليَّ. إنكِ تظهرين بمظهر الخضوع والامتثال، فأحب فيكِ هذا اللين، وعندما أداعب جدائل شعركِ الناعم بأصابعي تسري النشوة إلى قلبي، لقد غُلبت على أمري وقهرت، ومع ذلك فإنني أشعر في اندحاري بحلاوة يعجز لساني عن الإفصاح عنها، وألمس في قهري لذَّة دونها أعظم ظفر وانتصار، لماذا تبتسمين يا جين؟ ما معنى هذه الصورة المبهمة الساذجة التي أراها على وجهك وسحنتك؟ ».

- «كنت أفكر - واغفر لي الفكرة لأنني لم أتعمدها - في هرقل وشمشون وساحرتَيْهما ».

- «أهكذا أيتها الشيطانة الصغيرة؟ ».

- «صه يا سيدي فإنك لا تتحدَّث الآن بحكمة تفوق ما أبداه كل من هذين الرجلين في أعمالهما. ومع ذلك فلو أنهما كانا متزوِّجين لعوَّضا بقسوتهما كزوجين، ما أبدياه من رفق وحنان كعاشقَيْن، وهو ما أخشى أن تفعله.. وإني لأتساءل بماذا تجيبني إذا جئتك بعد عام وسألتك أن تسدي إليَّ معروفًا ليس من مصلحتك أن تسديه؟ »

- «سليني الآن ما شئتِ يا جين !» ، .

- «سأفعل يا سيدي، فالواقع أنني أعددت ملتمسي ».

- «تحدَّثي! أما إذا رفعتِ عينيك وابتسمت بهذه الأسارير، فسوف أقسم أن أجيبك قبل أن أعرف سؤالك.. وبهذا سأبدو كأحمق !».

- «عفوًا يا سيدي.. إنما أطلب إليك ألّا ترسل في طلب اللآلئ، وألّا تتوِّج رأسي بالورود والزهور، وإلا وجب أيضًا أن تضع شريطًا من الدانتيلا الذهبية على طرف منديلك هذا البسيط !».

- «وفي وسعي كذلك أن أطلي الذهب النقي بطبقة أخرى من الذهب إذا طلبت! إن طلبكِ مُجاب إذن في الوقت الراهن، وسأرسل لأسحب أوامري الأولى.. ولكنكِ لم تطلبي شيئًا حتى الآن، بعد أن توسلتِ إليَّ أن أسحب الهدية التي أردت تقديمها إليكِ. هيَّا جرِّبي ثانية !».

- «إذن تكرَّم عليَّ بمنحة أخرى.. أريد الوقوف على أمر يريح بالي ».

فتبدَّى على وجهه القلق ثم قال على الفور: «ماذا؟ ماذا؟ إن هذا التماس خطير، وكان يجدر ألّا أقطع على نفسي عهدًا بأن أجيب كل ما تطلبين ».

- «ليس في إجابة طلبي أي خطر يا سيدي ».

- «إذن قولي ماذا تريدين؟ إنني أوثر أن تطلبي نصف مقاطعتي على أن تسأليني عن سر من الأسرار ».

- «ماذا أفعل بنصف ما تمتلك؟ أتحسَبني مرابيًا يهوديًا؟ إنني أفضّل الظفر بثقتك. ترى هل تقصيني عن ثقتك إذا فتحت لي مغاليق قلبك؟ ».

- «أهلًا بكِ موضعًا لثقتي في ما يستحق يا جين، ولكن لا تطلبي لنفسكِ بالله عبئًا ثقيلًا، ولا تتلهَّفي على السم، ولا تتحوَّلي على يدي إلى مجرد امرأة.. حواء !».

- «لم لا يا سيدي؟ أخبرتني لتوك بأنك تحب كثيرًا أن تُقهر وتجد لذة في الإلحاح والإغراء، فهلا ترى جديرًا بي أن أفيد من هذا الاعتراف، فأشرع في التزلُّف والتضرُّع، بل وفي البكاء والغضب عند اللزوم لتجريب سلطاني؟ ».

- «إنني أشفق عليكِ من مثل هذه التجربة.. كابري.. واسترسلي.. وسوف تنالين بغيتك !».

- «أحقًا يا سيدي؟ أتستسلم على الفور؟ ما أشد عبوسك الآن! لقد أصبح حاجباكِ في كثافة إصبعي، وغدا جبينك، على حد قول الشعراء، «كعاصفة جهنّمية!» وهل ستكون هكذا بعد الزواج يا سيدي؟ ».

- «إذا كان هذا سيغدو مظهركِ أنتِ الأخرى بعد الزواج! ولكن ماذا تريدين أن تسأليني.. هيا أفصحي أيتها المخلوقة !».

- «إنك تنتقص الآن من ظرفك ولطفك، ولكني أوثر الخشونة كثيرًا على التملّق.. ولذلك أفضِّل أن أكون «مجرد مخلوقة»، على أن أكون «ملاكًا»! أما سؤالي فهو: لماذا كبَّدت نفسك العناء لتحملني على الاعتقاد بأنك تريد الزواج من مس إنجرام؟ ».

فهتف: «أهذا كل شيء؟ أحمد الله على أنه لم يكن أسوأ من ذلك!».
وانبسطت أساريره ثم نظر إليَّ باسمًا، وأخذ يداعب شعري، وكأنما سره أن يفلت من خطر يتهدَّده. ثم أضاف: «أظن من واجبي أن أعترف لكِ، وإن كان في اعترافي ما قد يثير غضبكِ بعض الشيء يا جين، بعد أن تبيَّنت أي روح متَّقدة تتملَّكك عندما تغضبين.. فقد اتَّقدت غضبًا في ضوء القمر في الليلة الماضية، عندما تمرَّدت على القدر وطالبت بأن تكوني ندًا لي في مركزي.
وعلى ذكر هذا أقول إنكِ أنتِ التي تقدمت بهذا العرض يا جانيت ..

فقلت: «هو ذلك فعلًا، ولكن لا تخرج عن الموضوع يا سيدي، أرجوك. ماذا لديك عن مس إنجرام؟». وإذ ذاك قال: «حسن. لقد تظاهرت بمغازلة مس إنجرام

لكي أجعلك تجنِّين بحبي، كما أنا مجنون بحبك. وكنت أعلم أن الغيرة خير حليف أستطيع اللجوء له حتى أصل إلى ما أهدف إليه !».

- «مدهش! إنك الآن تتضاءل وتصغر! والحق أن تصرفك كان يدعو للعار والخزي والفاضح.. ألم تفكِّر في شعور مس إنجرام يا سيدي؟ ».

- «كان شعورها مركزًا في شيء واحد، هو الكبرياء.. وهذا هو ما يجب إذلاله. هل أحسستِ بالغيرة يا جين؟ ».

- «دعنا من هذا يا مستر روشستر، فإنه لا يعنيك. وأجبني الآن في صدق وأمانة للمرة الثانية: ألا تعتقد أن مس إنجرام لن تتألَّم لنقضك عهدها ولغزلك غير الصادق؟ ألا تشعر المسكينة بأنها مهجورة منبوذة؟ ».

- «مستحيل! لقد أخبرتك بأنها هي التي هجرتني ونبذتني في لحظة واحدة بعد أن أخمدت نارها فكرة تعسّري وإفلاسي !».

- «إن لك يا مستر روشستر عقلية عجيبة.. وأخشى أن تكون مبادئك في بعض الأمور غريبة وشاذة ».

- «إن مبادئي لم تعرف يومًا التهذيب ولم تطبّق بعد يا جين، ولعلها نحرفت في بعض الأحيان نتيجة افتقارها إلى الرعاية والعناية ».

- «أخبرني مرة أخرى بجد وصدق: هل في وسعي أن أنعم بالخير العميم الذي أغدقته عليَّ، دون أن أخشى أن يُقاسي غيري الألم المرير الذي قاسيته منذ فترة ».

- «اطمئني أيتها الفتاة الصغيرة الطيبة، فليس في العالم إنسان آخر يحمل لي في قلبه حبًا نقيًا مثل حبك.. إنني أبسط على روحي ذلك البلسم الناعم.. وأعني به الإيمان بحبك !».

فحوَّلت شفتيّ إلى اليد التي وضعها على كتفي وقبَّلتها بدافع من حب كنت أعجز عن تصديقه، وتعجز الكلمات عن وصفه. وما لبث أن قال :

- «اسألى المزيد، فإنه يلذ لي أن أتقبَّل السؤال فأطيع ».

فقلت: «أرجو أن تبلغ مسز فيرفاكس ما استقر عليه رأيك يا سيدي، فقد رأتني بالأمس في البهو معك، فهالها ما رأته! فسِّر لها موقفنا قبل أن أراها ثانية، لأنه

يؤلمني أن تظن بي الظنون سيدةٌ صالحة مثلها !».

- «اذهبي إلى غرفتك واستعدّي، لأنني أريد أن أرافقك إلى ميلكوت في هذا الصباح. وسأنتهز فرصة استعدادك للخروج، فأذهب لمقابلتها وأشرح لها الأمر. أترينها يا جانيت تعتقد أنكِ بعتِ الدنيا من أجل الحب؟ ».

- «بل أعتقد أنها حسبتني قد نسيتُ الفارق بين مركزي ومركزك يا سيدي ».

- «مركزي! مركزك! إن مركزك في قلبي وفوق أعناق من يهينونك الآن أو في ما بعد.. هيا اذهبي !».

وسرعان ما ارتديتُ ملابسي. وعندما سمعتُ مستر روشستر يغادر حجرة مسز فيرفاكس، هبطتُ إليها مسرعة، فإذا السيدة العجوز تنظر في كتاب الصلاة، لأن التوراة كان مفتوحًا أمامها، وعليه نظارتها. وكانت قد توقَّفت عن قراءتها بعد زيارة مستر روشستر، وأخذت تحملق شاردة اللب في الجدار المقابل، وقد بدت عليها الدهشة التي أثارتها الأنباء غير المتوقَّعة. فلما رأتني، أفاقت من تأملاتها، وحاولت أن تبتسم، ثم غمغمت ببعض كلمات هنَّأتني بها: ولكن الابتسامة ما لبثت أن غاضت، وجفَّت الكلمات. ثم وضعت نظاراتها على عينيها وطوت الكتاب، ودفعت مقعدها إلى الخلف بعيدًا عن المنضدة وخاطبتني قائلة :

- «إنني أشعر بالدهشة، ولا أكاد أدري ما ينبغي أن أقوله لكِ يا مس إير! لا شك في أنني كنت أحلم. أليس كذلك؟ لقد تأخذني أحيانًا سنة من النوم، فأتصوَّر أشياء لم تحدث على الإطلاق، وكم خُيِّل إليَّ في غفواتي أن زوجي العزيز، الذي قضى منذ خمسة عشر عامًا، قد جاء وجلس بجانبي، وأخذ يناديني باسمي آليس، كما اعتاد أن يفعل. فهل في وسعك الآن أن تؤكدي لي أن مستر روشستر طلب الزواج منكِ؟ لا تضحكي مني، لأنني واثقة من أنه جاءني فعلًا منذ خمس دقائق وأخبرني أنكِ سوف تصبحين زوجته بعد شهر واحد!». فأجبتها: «لقد قال لي الشيء نفسه!». فهتفت: «حقًا؟ وهل تصدقينه؟ وهل قبلتِ؟». وإذ قلت: «نعم»، نظرت إليَّ في عجب وحيرة، وقالت: «لم يخطر لي ذلك ببال، لأنه رجل متكبِّر ككل آل روشستر، ولأن أباه على الأقل كان محبًّا للمال.. ثم إنه يوصف دائمًا بالدقة والحذر، فهل يقصد فعلًا أن يتزوجك !».

- «هذا ما يقوله ».

وراحت تتأمَّلني، فقرأت في عينيها أنها لا تجد فيَّ فتنة تكفي لتبرير هذا اللغز.. ثم قالت: «هذا ما لا أتصوَّره! ولكن لا شك في صحة الخبر لأنك تؤيدينه.. أما

كيف ذلك، فلستُ أدري، ولا أستطيع أن أجزم، لأن من الأمور التي يحبِّذها الناس في مثل هذه الأحوال: المساواة في المركز والثراء.. ثم إن هناك عشرين عامًا بينك وبينه، فهو أجدر بأن يكون لكِ بمثابة الأب !».

صحت مستاءة: «كلا يا مسز فيرفاكس.. إنه لا يكبرني إلى الدرجة التي تجعله بمثابة الأب، ولا يخطر هذا برأس من يرانا معًا، ثم إنه يبدو كشاب في الخامسة والعشرين ».

فسألتني: «أهو الحب الذي جعله يقدم على الزواج منكِ حقًا؟ ».

وتألَّمت لبرودها وشكوكها، فاغرورقت عيناي بالدموع. وقالت الأرملة: «يؤسفني أن أكدِّر خاطرك، ولكنكِ صغيرة قليلة الخبرة بالرجال، فأردت أن أحذركِ، لأن المثل القديم يقول : "ليس كل ما يلمع ذهبًا ". وأخشى في هذه الحالة أن يوجد شيء يختلف عما تتوقعينه وأتوقعه». فتساءلت متألِّمة: «ولماذا؟ هل أنا غريبة الخلقة؟ هل يستحيل أن يشعر نحوي مستر روشستر بحب خالص؟». فقالت: «لا.. أنتِ على غير حال، بل إنكِ تحسَّنت كثيرًا في المدة الأخيرة. وأعتقد أن مستر روشستر مغرم بكِ، إذ طالما لحظت أنه يدللك، وقد مرَّت بي أوقات ساورني فيها القلق بسبب اهتمامه الواضح بكِ، وأحببتِ أن أحذِّرك، ولكني لم أشأ أن أفترض احتمال وقوع أي شيء، كما كنت أعلم أن مثل هذه الفكرة قد تغضبك.. ونظرًا لما أعهده فيكِ من التبصُّر بالأمور، وشدة الحياء والحساسية، فقد ساورني الأمل في أنكِ ستعرفين كيف تصونين نفسكِ. إنني لا أستطيع أن أصف لكِ ما قاسيته ليلة أمس من الآلام عندما بحثت في جميع أرجاء القصر فلم أجدكِ ولم أجد السيد.. وأخيرًا رأيتكِ قادمة معه في منتصف الليل !».

فقاطعتها بصبر نافد: «لا تبالي بهذا الآن.. يكفيك أن تعلمي أن كل شيء سار في طريق سليمة ».

فقالت: «وآمل أن ينتهي أيضًا نهاية سليمة. ولكن.. تأكدي أن المزيد من الحذر والانتباه والتفكير سيكون في صالحكِ. حاولي أن تبقي مستر روشستر على مسافة، ولا تثقي بنفسك ولا به، لأن السادة الذين في مثل مركزه لم يتعوّدوا أن يتزوّجوا من مربيات أطفالهم ».

والحق أنني ازددت سخطًا وانفعالًا، ولكن أديل أقبلت إذ ذاك - لحسن الحظ - وهي تصيح: «دعيني أذهب.. دعيني أذهب أنا كذلك إلى ميلكوت. إن مستر روشستر لا يريدني مع أن في العربة الجديدة متّسَعًا لي.. توسَّلي إليه أن يدعني أذهب يا آنسة!». فقلت متلطِّفة: «سأفعل يا أديل». ثم أسرعت معها

وقد ابتهجت لتخلصي من مرشدتي الكئيبة. وكانت العربة قد أعدَّت، وهي تقف أمام المدخل، بينما كان السيد يذرع الإفريز ومن خلفه كلبه بايلوت يتبعه كيفما تحرّك. فقلت أسأله: «تستطيع أديل أن ترافقنا.. أليس كذلك يا سيدي؟ ».

فصاح: «قلت لها: كلا.. لست أريد ثرثارات، ولن أصطحب أحداً غيرك ».

- «دعها تذهب معنا يا مستر روشستر، أرجوك.. يحسن ذلك ».

- «كلا.. سوف تقيّد حريتنا ».

وكان غاية في الحزم سواء في نظرته أو لهجته. واستبدت بي تحذيرات مسز فير فاكس وشكوكها، فشعرت بشيء من القلق يغالب آمالي، وأحسست بأنني فقدت نصف نفوذي عليه، وأنني أكاد أخضع برغمي لإرادته.. ولكنه نظر إلى بوجهي عندما ساعدني على ركوب العربة وسألني :

- «ماذا جرى؟ لقد غار إشراقكِ، فهل حقًا تريدين هذه الثرثارة معنا؟». فقلت: «أفضّل أن تأتي معنا يا سيدي». فصاح يخاطب أديل: «إذن أسرعي وهاتي قبعتك بسرعة البرق!». فأطاعته بأقصى سرعتها.. بينما قال يحدِّثني: «لا بأس من أن نجد من يعكِّر علينا صفونا في هذا الصباح، ما دمتُ سأحظى بكِ عن قريب.. بكِ وبأفكاركِ وأحاديثكِ ورفقتكِ.. طيلة العمر !».

ولما عادت أديل واستقلَّت العربة، جعلت تقبِّلني اعترافًا بجميلي، ولكن مستر روشستر أجلسها بجانبه من الناحية الأخرى، فلم تجرؤ على التكلُّم أو مطالبته بشيء.. بيد أنها أخذت تسترق النظر إلى حيث جلست، وهي متبرِّمة بجارها المتجهِّم، فقلت أضرع إليه: «دعها تأتي إليَّ حتى لا تزعجك يا سيدي، وهنا في هذه الناحية مُتَّسع». فرفعها وناولني إياها كأنها جرو صغير ثم قال وهو يبتسم: «هل ألحقها بمدرسة؟». وسمعته أديل، فسألت إن كانت ستذهب من دون الآنسة. وكان جوابه: «نعم من دون الآنسة لأنني سآخذها إلى القمر حيث أبحث عن كهف في واد من الأودية البيضاء بين قمم البراكين، وهناك ستعيش الآنسة معي وحدي !».

فاعترضت الصغيرة قائلة: «إنك لن تجد ما تأكله وسوف تجعلها تموت جوعًا». فقال: «بل سأجمع لها المنَّ في الصباح والمساء. لأن السهول وسفوح التلال في القمر زاخرة بالمنِّ يا أديل ».

- «إنها ستحتاج إلى أن تدفئ نفسها.. فمن أين تأتي لها بالنار؟ ».

- «إن جبال القمر تنفث نارًا، فإذا شعرت بالبرد حملتها إلى قمة عالية، ووضعتها على حافة فوهته ».

- «ستسوء حالها، وسوف تبلى ملابسها، فمن أين تأتي بغيرها؟ ».

وتجلَّت على مستر روشستر الحيرة فسعل وقال: «ماذا كنتِ تصنعين أنتِ يا أديل؟ فكِّري جيدًا.. هل تنفعها سحابة بيضاء أو قرنفلية لعمل جلباب؟ وهل يمكن صنع وشاح جميل من قوس قزح؟». فأجابته بعد تفكير: «إنها أحسن حالًا كثيرًا.. في وضعها الحالي، وفوق ذلك فإنها لن تلبث أن تمل الحياة معك وحدك في القمر. ولو كنت في مكانها لما رضيت بالذهاب معك!». قال: «ولكنها رضيت وقد عاهدتني على ذلك ».

- «ولكنك لا تستطيع أخذها إلى القمر، لأنه لا يوجد طريق إلى هناك، كما أنكما لا تستطيعان الطيران ».

وكانت العربة قد خرجت من بوابات ثورنفيلد وسارت خفيفة في الطريق إلى ميلكوت، حيث تراكمت الأتربة بعد العاصفة، وبدت الأشجار الشامخة على الجانبين لامعة خضراء وقد أنعشها المطر، فقال مستر روشستر :

- «انظري إلى هذا الحقل يا أديل، لقد كنت أتمشَّى فيه ذات مساء منذ أسبوعين، عندما تولاني التعب، فجلست أستريح على السياج، وهناك أخرجت دفترًا صغيرًا وقلمًا ثم أخذت أكتب عن حادث سيئ أصابني منذ زمن بعيد، وعن رغبتي في التمتع بأيام سعيدة مقبلة.. وفيما كنت أكتب بسرعة، وعلى الرغم من الظلام، رأيت مخلوقة تقف أمامي على بعد خطوتين! ونظرتُ إليها فرأيتها ضئيلة الجسم، وقد أسدلت على وجهها خمارًا! وأشرتُ إليها أن تتقدم ففعلت، ووقفت على الفور عند ركبتي.. ولم أتكلَّم معها قط، ولا تحدَّثت هي إليَّ بصوت مسموع، ولكني قرأت كلامها في عينيها كما قرأت هي حديثي في عيني.. وهذا ما قالته: «إنها جنِّية جاءت من أرض الأقزام. وكانت مهمتها أن تسعدني. ومهمتي أن أذهب بها بعيدًا عن العالم الأرضي إلى مكان منعزل كالقمر مثلًا. فأومأت برأسها نحو التل، ثم حدَّثتني عن الكف المرمري والوادي الفضِّي اللذين نستطيع الإقامة فيهما، فقلت إنني أود الذهاب، ولكني ذكرتها، كما ذكّرتني الآن يا أديل، بأنه ليس لي أجنحة أطير بها. فقالت: «أوه، هذا لا يهم! هاك تعويذة تزيل كل العقبات ».

ثم ناولتني خاتمًا بديعًا من الذهب وقالت: «ضعه في خنصر يسراك أصبح ملكك وتصبح ملكي! وسوف نغادر الأرض ونقيم في جنتنا بعيدًا من هنا !».

ثم أومأت نحو القمر مرة أخرى.. وهذا الخاتم يا أديل في جيب سترتي متنكرًا في صورة جنيه ذهبي، ولكني أعتزم حالًا أن أحوِّله إلى خاتم مرة أخرى!». فقالت الصغيرة :

- «ولكن ما شأن الآنسة بذلك؟ لا يهمني أمر الجنية.. فقد قلت إنها هي التي ترغب في أن تأخذها إلى القمر!». فقال وهو يهمس همسًا يثير فضول الفتاة: «الآنسة جنِّية !».

ودعوت أديل إذ ذاك إلى ألّا تعير مزاحه أهمية، بيما أظهرت هي من جانبها ذخيرة من التشكُّك، ودمغت مستر روشستر بأنه «كذَّاب حقيقي!»، وأكدت له أنها لا تبالي بقصصه عن العفاريت، وأنه لا وجود للعفاريت الآن على الأقل، وأنها واثقة من أنهم لا يمكن أن يظهروا أو أن يعطوه خواتم، أو يعرضوا عليه أن يعيش معهم في القمر .

وكانت الساعة التي قضيتها في ميلكوت مضجرة بالنسبة لي، إذ أكرهني مستر روشستر على أن أختار ستة فساتين.. وهي مهمة أكرهها، فتوسَّلت إليه أن يعفيني منها، ولكنه أبي إلّا أن ننتهي من ذلك، على أنني استطعت بتوسلات هامسة أن أنقص العدد إلى اثنين أقسم أن يختارهما بنفسه. ورحت أرقبه في قلق وهو يتنقل بين المتاجر. ووقع اختياره على ثوبين. لكني وجدت لونهما زاهيًا لامعًا بحيث لا أجرؤ على ارتدائهما. وبعد عناء شديد استطعت أن أغريه بأن يستبدل بهما ثوبًا أسود من الحرير، وآخر فضيًا في لون اللآلئ .

وسررت عندما غادرت متجر الملابس ثم محل المجوهرات بعد ذلك. وكان وجهي يتضرَّج بحمرة الحنق والمذلة كلما ابتاع لي شيئًا، حتى عدت إلى العربة واتخذت فيها مكاني كالمحمومة المنهوكة، فتذكَّرت، وسط دوامة الأحداث قاتمها ومشرقها - أنني نسيت خطاب عمّي إلى مسز ريد واعتزامه أن يتبنَّاني ويجعلني وريثه، وقلت أحدِّث نفسي: «سيكون في ذلك عزاء لي في الواقع، فلو أن لديَّ شيئًا من الاستقلال، لما قبلت أن يكسوني مستر روشستر كما لو كنت دمية!». وعقدت العزم على أن أكتب إلى ماديرا بمجرد عودتي إلى القصر، فأزف لعمّي خبر زواجي القريب.. ولما كان من المحتمل أن يصبح مستر روشستر وريثًا لبعض ثروتي القادمة، فقد رأيتُ أن أتركه الآن ينفق عليَّ. وبهذه الفكرة ارتحت نفسًا، وجسرت على أن أقابل نظرات سيدي وحبيبي التي كانت تبحث دائمًا عن نظراتي، في حين أنني كنت دائمًا أتحاشى وجهه وعينيه! وابتسم فخُيِّل إليَّ أنها ابتسامة سلطان يلقيها على جارية أغدق عليها ذهبه ومجوهراته، فشددت على يده بكل قوتي، وكانت دائمًا تبحث عن يدي، ثم دفعتها إليه وقد بدت عليها آثار ضغطي الشديد المنفعل، وقلت:

«ليس ثمة ما يدعوك إلى النظر إليَّ هكذا، وإذا فعلت فلن أرتدي إلى النهاية غير ثوبي الذي كنت أرتديه في لوود، ولن أتزوَّج إلّا مرتدية هذا الثوب المصنوع من التيل الأبيض. أما أنت ففي وسعك أن تصنع لنفسك ثيابًا من الثوب الفضي وعددًا لا حصر له من الصدارى من الثوب الحريري الأسود!». فقهقه عاليًا وفرك يديه ثم صاح: «ها ها ما أجمل أن أراكِ وأن أسمعكِ! إنكِ غريبة الأطوار، لاذعة اللسان، ولكنني أوثركِ على جواري السلطان من الحور ذوات العيون الغزلانية ».

وآلمتني هذه الإشارة مرة أخرى فقلت: «أنا لا أحتمل قط أن تشبّهني بحريم السلطان، وإذا كانت لديكِ شهوة من هذا القبيل فلتذهب يا سيدي إلى أسواق اسطمبول فورًا ولتدفع لأحد تجار الرقيق بعضًا من أموالك التي لا ندري فيم تنفقها هنا؟ ».

- «وماذا تفعلين يا جانيت عندما أساوم في شراء مثل هذه الأطنان من اللحم، ومن هذه العيون الغزلانية النجل؟ ».

- «أعدّ نفسي للسفر مبشِّرة بالحرية بين من وقعن أسيرات أغلال الرق، بما فيهن جواريك يا سيدي، وسأعرف كيف أصل إليهن وأشعل في صدورهن نار الثورة، وفي قلوبهن روح العصيان، فلا تلبث أن تجد نفسك رازحًا بين أيدينا في الأصفاد والأغلال، أما أنا فلن أرضى بتحطيم قيودك حتى توقِّع عهدًا، يصبح أعظم عهد وقَّعه حاكم مستبد من حيث الكرم والسخاء والتساهل ».

- «يرضيني أن أكون تحت رحمتك يا جين ».

- «لن أعرف معنى الرحمة والشفقة ما دمت تنظر إليَّ بهذه العين.. وما دامت هذه نظرتك، فلا شك عندي في أن أول ما سوف تعمله بعد إطلاق سراحك هو نقض العهد الذي قطعته مكرهًا على نفسك !».

- «ما هذا يا جين؟ أخشى أن تضطريني إلى حفلة زواج خاصة غير تلك التي تُقام عادة أمام المذابح! أراكِ ترمين إلى شروط خاصة غريبة، فما هي؟ ».

- «لا أطمع في غير راحة البال يا سيدي.. فلا أريد أن ترهقني بالالتزامات المتعدِّدة. هل تذكر ما قلته عن سيلين فارنس؟ عن اللآلئ والكشمير وغير ذلك مما كنت تغدقه عليها؟ لن أكون سيلين الثانية، بل أفضِّل أن أظل معلِّمة لأديل وأن أكتسب بذلك طعامي ومسكني وثلاثين جنيهًا في السنة، وأن أشتري من هذا المرتب ما أريد من ثياب. أما أنت فلا أطمع منك في غير ...».

- «في غير ماذا؟ ».

- «في غير الاحترام.. وإذا منحتك احترامي في مقابل احترامك لي، فلن يبقى أحد منا مدينًا للآخر بشيء ».

فقال مستر روشستر: «ليس لكِ مثيل في فطنتك الباردة المعتدَّة، وفي كبريائك الغريزية المحضة ».

وكنَّا قد اقتربنا إذ ذاك من ثورنفيلد، فسألني: «هل يسرك أن تتناولي العشاء معي الليلة؟ ».

- «كلا.. شكرًا يا سيدي ».

- «هل لي أن أسألك عن معنى "كلا.. شكرًا يا سيدي " ؟ ».

- «لم أتناول معك طعام العشاء من قبل يا سيدي، ولا أرى الآن ما يدعوني إلى ذلك حتى ...».

- حتى ماذا؟ إنه يسرك دائمًا أن تنطقي بالجمل ناقصة !».

- «حتى يصبح هذا أمرًا لا يحق لي أن أمتنع عنه !».

- «أتحسبين أنني ألتهم طعامي كالغول، وتخشين مشاركتي في تناول الطعام ».

- «لم أكوِّن بعد فكرة في هذا الشأن يا سيدي، ولكني أريد أن أظل على طريقتي المألوفة لشهر آخر ».

- «بل ستتحرَّرين من عبودية تربية الأطفال في الحال ».

- «معذرة يا سيدي، الواقع أنني لن أفعل، بل سوف أستمر في عملي، وسأتحاشى طريقك طوال المساء كعادتي، ولك أن ترسل في طلبي في المساء إذا ما لمست في نفسك رغبة في مقابلتي، وعندئذ سآتي حالًا ولكني لن أفعل أكثر من ذلك !».

- «أنا بحاجة للتدخين أو إلى قليل من السعوط يا جين لتهدئة خواطري أمام كل هذا، ولكني للأسف لا أحمل معي سجائر أو سعوطًا فاصغي إليَّ. هذا وقتك أيتها الطاغية الصغيرة، ولكن سوف لا تنقضي فترة وجيزة حتى يكون الأمر

لي، ومتى قبضت على زمامك فسوف أشدك بسلسلة كهذه - وأشار إلى سلسلة ساعته - نعم سألبسك في صدري مخافة أن تضيع جوهرتي !».

قال ذلك وهو يساعدني على مغادرة العربة. وفيما كان منشغلًا مع أديل، انتهزت الفرصة وأسرعت إلى حجرتي. وعندما جاء المساء أرسل يدعوني، وكنت قد أعددت له ما يشغله، إذ اعتزمت ألّا أقضي معه الوقت كله في حديث مقصور علينا نحن الاثنين فقط.. ولقد تذكَّرت صوته الرخيم، وكنت أعرف أنه يجب أن يغني، شأنه في ذلك شأن من يجيد الغناء.. ولم أكن ذات صوت جميل، كما أنني كنت - بحسب حكمه القاسي - لا أجيد الموسيقى، ولكني كنت أغتبط بسماع الصوت الرخيم.. لذلك لم تكد الظلمة ترخي أستارها في ذلك المساء حتى نهضت من مكاني وفتحت البيانو، ثم توسَّلت إليه أن يغنِّي. فقال لي إنني ساحرة ماكرة، ووعدني بالغناء في فرصة أخرى، ولكني أكدتُ له أنه ليست هناك فرصة أكثر ملاءمة من الوقت الحاضر. فسألني هل أحب صوته؟ وكنت غير حريصة على إشباع زهوه المفرط، ولكني رضيت لمرة واحدة - تمشيًا مع مقتضايات المناسبة - أن أتملَّق غروره، بل أن أثيره فقلت: «أحبه جدًا». وإذ ذاك قال: «إذن عليك أن تعزفي في مصاحبتي». فقلت: «حسنًا يا سيدي.. سأحاول !».

وفعلًا حاولت، ولكنه سرعان ما دفعني عن مقعدي في غير لطف أو دماثة، واغتصب مكاني، وهذا ما كنت أرغب فيه، ثم راح يعزف لنفسه، لأنه كان ماهرًا في العزف مهارته في الغناء، بينما بادرت أنا إلى النافذة. وفيما كنت جالسة هناك أطل على الأشجار الساكنة والمروج المظلمة، شرع يغنِّي المقطوعة التالية بصوت رخيم وأنغام حلوة :

إن أخلص الحب الذي يمس سويداء القلب المتَّقدة/ قد سرى مني في كل شريان/ وانطلق مسرعًا/ يتدفَّق في مجرى الحياة !

كان قدومها أملي في كل يوم/ وكان فراقها مبعث آلامي/ فإذا تمهَّلت في خطوها/ فكأنما الثلج يجري في عروقي !

حلمت بأن أقصى السعادة/ أن يبادلني من أحببت الحب/ وبهذا الأمل الجميل أسرعت/ في لهفة الأعمى ونشوته .

ولكن الشقة بين حياتنا كانت واسعة وعرة المسالك.. خطيرة خطورة الأمواج المزبدة.. في المحيط الثائر .

وكانت هذه الشقة بيننا/ كطريق يعبث فيها اللصوص/ محفوفة بالمخاطر مثل تيار جارف/ من التيارات الخطرة المصطخبة .

فاقتحمت الأهوال وسخرت بالعقبات/ وتحديت نذر الشر/ بل حيث تكمن الأخطار وينبغي الحذر/ كنت أمضي متهوِّرًا .

وطرت كأنني في حلم/ نحو قوس قزحي المندفع بسرعة البرق/ حتى تجلَّى لناظري في أبهى صورة/ هذا القوس: وليد البرق والمطر !

وعلى سحب الظلام المدلهمَّة/ ظل يتألَّق السرور الرقيق/ فلم أعد أحفل بالمصائب المتجمِّعة/ مهما تكاثفت وتجهّمت !

ولم أعد أبالي في هذه اللحظة الحلوة/ بأن كل ما اجتحته وغلبته/ لن يلبث أن يأتي على جناح الطير قويًا مسرعًا/ طالبًا الثأر المريع !

وإذا كانت بغضاء التعالي صرعتني/ وإلى محكمة الحق قدمتني/ ثم بقواها الطاحنة العابسة هدَّدتني، بالعداوة الأزلية إلى الأبد .

فقد وضعت حبيبتي يدها الصغيرة/ في يدي بإخلاص نبيل/ وأقسمت على أن رابطة قدسية لا تنفصم/ سوف تربط بين روحينا !

وقد أقسمت حبيبتي وهي تختم حبها بقبلة/ أن تعيش معي وتموت معي/ وبذلك نعمت أخيرًا بالسعادة القصوى/ لأن حبها لي لم يكن أقل من حبي لها !

***

ثم نهض وتقدَّم نحوي، فرأيت وجهه متَّقدًا وعينيه تلتمعان، وقد ارتسم الحنان والوجد على كل أساريره، فأجفلت لأول وهلة، ثم استجمعت قواي ووجدتني إزاء مشهد ناعم، ومكاشفة غرامية جريئة لم أكن أستسيغها، فقلت لنفسي: يجب أن أهيئ وسيلة للدفاع. وكان أن شحذت لساني، حتى إذا اقترب مني سألته في حدة وخشونة: من هي هذه التي يعتزم أن يتزوجها الآن؟ فقال: «يا له من سؤال عجيب.. تسأله حبيبتي جين !».

- «حقًا! إنني أعتبره سؤالًا طبيعيًا وضروريًا بعد أن تكلم الشاعر عن زوجته المستقبلية التي ستموت معه، فماذا يعني بهذه الفكرة الوثنية؟ إنني لا أعتزم الموت معه، وله أن «يتأكَّد» من ذلك !».

فقال إن كل ما أتوق إليه وأصلَي من أجله، هو أن أحيا معكِ، لأن الموت ليس مما يُرجى لمخلوقة مثلكِ. فقلت: «بل إن الموت حق عليَّ، كما هو حق عليك، متى حانت المنية، ولكني لا أتعجَّله، بل أرتقبه على مهل». فسألني أن أصفح عن فكرته الأنانية، وان أؤكد غفراني بقبلة، ولكنني رفضت، وسألته أن يعفيني.. وإذ ذاك، سمعت نفسي ترميني بالقسوة والجمود، وتقول إن أي امرأة أخرى في مثل هذا الموقف كانت تذوب وجدًا أمام هذا الغناء والإطراء! ورحت أؤكد له أنني جامدة بطبيعتي، وأنه سوف يجدني على هذا الطبع في كثير من الأوقات. والواقع أنني قرَّرت أن أبدي له - في طباعي - كثيرًا من المواضع الخشنة، قبل أن تنتهي الأسابيع الأربعة، كي يعرف جيدًا أي صفقة كان مقدمًا عليها، قبل أن يتم إبرامها، لعله أن يرجع عنها.. ولكنه ما لبث أن سألني: «هل لكِ أن تلتزمي الهدوء وأن تتكلمي بالمنطق والحكمة؟ ».

- «نعم سألتزم الهدوء بناء لطلبك.. أما من ناحية التكلم بالحكمة، فإنني أطري نفسي، لأنني فعلت ذلك ».

فاغتاظ وأطلق أصوتًا تعبّر عن نفاد الصبر والتبرّم! وقلت لنفسي: «حسنًا.. لك أن تتململ وأن تتبرَّم كما تشاء، ولكن هذه - كما أعلم - خير طريقة أسلكها معك، فإنني أحبك فوق ما يقوى لساني على التعبير، ولكني لا أريد الغرق في بحر العواطف. وأريد بهذا الوخز أن أبعد بك عن شفا الهوة، وأجعل بيني وبينك حدًا فاصلًا لما فيه خيري وخيرك!». وبهذه الطريقة أخذت أنفخ في مرجل الغضب في نفسه - في الليالي التالية - فكان يسير إلى نهاية الحجرة.. وإذ ذاك كنت أنهض وأقول بلهجتي الطبيعية الزاخرة بالاحترام: «طابت ليلتك يا سيدي!». ثم أنسلّ من باب الحجرة الجانبي وأنصرف .

وسلكت هذه الطريقة طوال مدة التجربة وفترة الاختبار، فوُفِّقت فيها كل التوفيق، وكنت أراه يغضب ويتكدَّر، ولكنه كان يجد في ذلك لذة - بوجه عام - إذ كان يرضيه أن أواجه جبروته بوداعة الحمل وهدوء الحمائم.. وكنت في حضرة الآخرين شديدة الاحترام والهدوء، كما هي عادتي. فلم أكن أعارضه أو أعاكسه إلّا في أحاديثنا الليلية، إذ ظل يستدعيني عندما تدق الساعة السابعة من كل مساء. ولم يكن يستقبلني بألفاظ الحب والتدليل، وإنما كان يدعوني "دمية مستفزّة " ، "عفريتةخبيثة " ، "متقلِّبة " ، "بلهاء ".. وغير ذلك من الألفاظ، كما كان يدلِّلني بتجهُّم من وجهه بدل الابتسام، ويضغط على يدي أو يقرص ذراعي، أو يعرك أذني، بدلًا من أن يطبع قبلة على وجنتي! والواقع أنني فضَّلت هذه المجاملات الخشنة على غيرها في فترة الاختبار. كما لاحظت أن مسز فيرفاكس قد ارتاحت لهذه الخطة التي انتهجتها، وأن قلقها من ناحيتي قد تبدَّد، فأدركت أنني أسلك سبيل الصواب.. في حين كان مستر روشستر

يؤكِّد لي أنني أضايقه، وراح يتهدَّدني بالانتقام الذريع في أقرب فرصة، لسلوكي هذا، فكنت أضحك من تهديداته وأقول في نفسي: «لقد أمكنني أن أوقفك الآن عند حدك، وفي وسعي ذلك فيما بعد! وإذا أعجزتني هذه الوسيلة عمدت إلى وسيلة غيرها !».

ومع ذلك فإن مهمتي لم تكن سهلة ميسورة، إذ كنت أوثر في بعض الأحيان أن أرضيه من أن أغضبه، فقد أصبح زوجي المرتقب أغلى عندي من العالم بأجمعه، بل صار كل أملي في الحياة !

الفصل الخامس والعشرون

انتهى شهر مطارحة الغرام، وكنا قد أخذنا نعد ساعاته الباقية على الأصابع. ولم نرجئ ما يستلزمه اليوم السابق للزفاف من استعدادات لمقدمه. ولم يكن لديَّ - أنا على الأقل - ما أعمله بعد أن ملأت الحقائب وحزمتها وأغلقتها بالمفتاح ثم ربطها بالحبال وصففتها في خط طويل بجانب جدار حجرتي الصغيرة، لتكون في مثل تلك الساعة من اليوم التالي لتكون في طريقها إلى لندن، كما سأكون أنا بمشيئة الله، أو على الأصح السيدة «جين روشستر» التي لم أعرفها بعد! ولم تكن البطاقات التي تحمل عنواني قد لصقت بعد على صناديق السفر الأربعة، بل ظلَّت في الدرج.. وكان مستر روشستر قد كتب على كل منها بخط يده: «مسز روشستر - فندق لندن». ولم أستطِع أن أغري نفسي على لصقها أو تكليف أحد آخر بذلك، فإن مسز روشستر لم تكن موجودة بعد، وما كانت ستولد قبل الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، ومن ثم كان من الواجب أن أنتظر ريثما أستوثق من أنها قد أتت إلى العالم حية قبل أن أعزو إليها كل هذه الأمتعة! كان يكفي أن أرى أمامي صوان الملابس وقد اكتظ بثياب لها، حلَّت محل ثوبي الأسود الذي جئت به من لوود وقلنسوة من القش. وكان بين تلك الملابس ثوب العرس: فستان في لون اللآلئ، وخمار في كثافة البخار.. ووجدتني أغلق الصوان لأحجب عن عيني هذا «الجهاز» الذي بدا لي في هذه الساعة - التاسعة مساء-غريبًا تشع منه في عتمة الحجرة ظلال كالأشباح! وقلت لنفسي: «سأدعك وشأنك أيها الحلم الأغر، فإنني محمومة! إنني أسمع الرياح تهب وتعوي، وسأخرج لأحسّ بها !».

لم أكن محمومة لمجرد العجلة في ترتيب المعدات اللازمة، ولا لمجرد ترقب الانقلاب الكبير - وهو الحياة الجديدة التي ستبدأ غدًا. وإن كان للأمرين نصيبهما بلا ريب في اضطرابي وثورتي التي جعلتني أسرع في تلك الساعة المتأخِّرة إلى الحديقة المظلمة.. ولكن كان هناك سبب ثالث أثَّر في نفسي تأثيرًا أكبر: كانت في قلبي فكرة عجيبة قلقة! ولم يكن أحد غيري قد علم أو رأى هذا الحادث الذي وقع في الليلة الماضية، فقد كان مستر روشستر غائبًا في تلك الليلة عن القصر، ولم يكن قد عاد بعدُ من ضيعة صغيرة تتألف من مزرعتين او ثلاث، على مسافة ثلاثين ميلًا، ذهب إليها ليسوِّي بنفسه بعض الأمور قبل سفره من إنجلترا.. وفيما كنت أترقَّب عودته لأفضي إليه بما أثقل قلبي وأسأله إيضاح اللغز الذي يبلبل أفكاري، ولكن: انتظر أيها القارئ حتى يأتي، ومتى كشفت له عن سرّي، شاركتنا إياه.. وتعال أروي لك الحادث !

قصدت إلى البستان تدفعني إلى الاحتماء به الرياح التي كانت تهب شديدة طوال النهار من الجنوب دون أن تحمل قطرة واحدة من الأمطار. وبدلًا من أن تهدأ هذه الرياح مع اقتراب الليل، زادت في حدتها وتضاعف زئيرها، وظلَّت الأشجار تميل في اتجاه واحد، ولا تكاد تستقيم أغصانها مرة واحدة، بل ظلَّت منحنية الرءوس نحو الشمال، بينما كانت السحب تنتقل متتابعة متراكضة، كتلة إثر أخرى، بحيث لم تكن تبدو من السماء الزرقاء رقعة صغيرة في ذلك اليوم من أيام شهر يوليو.. ولم يكن قلبي خلوًا من السرور والاغتباط عندما جريت أمام الرياح لكي أسلم أفكاري المكدودة للهواء المدوِّي حولي في الفضاء، وهبطت الممر الذي تحوطه الأشجار، لأواجه حطام شجرة البندق.. وفيما كنت أتأمَّل جذعها الأسود المشقوق، شاهدت النسغ قد جف في جوفه، والفروع مرمية على الجانبين ميتة.. وكان من المؤكد أن عواصف الشتاء القادم ستدفع ببعض بذور الشجرة إلى الأرض، فلا تلبث أن تنمو شجرة جديدة.. على أنها بوضعها الراهن كانت هالكة. فقلت أخاطبها وكأنها تسمعني: «لقد أحسنتِ بتماسكك، ويبدو لي برغم ما أصابك أن بك قبسًا من الحياة بفضل الجذور الأمينة، وإن كنت ستحرمين الأوراق الخضراء، ولن تُرى الطيور تعشش بين فروعك أو تغني على منابرك.. ولكنك لست في وحشة، لأن لكل غصن من غصونك رفيقًا يواسيه في محنته !».

وعندما رفعت رأسي إلى الفروع، ظهر القمر في تلك البقعة من السماء وقد احمرَّ قرصه وكأنه كان يلقي عليَّ نظرة حائرة موحشة، ثم اختفى ثانية وراء سحابة قاتمة.. وكانت الرياح قد سكنت حول ثورنفيلد بضع لحظات، ولكنها كانت تعول بعيدًا فوق الغابات والأمطار بصوت مروِّع لم يسعني أن أصغي إليه، فأطلقت لساقيَّ العنان مرة أخرى.. ورحت أجوب أنحاء البستان أجمع التفاح المتساقط من أشجاره فوق الحشائش الكثيفة، ثم انهمكت في فرز الناضج منه وحملت ما جمعته إلى مخزن القصر، وما لبثت أن مضيت إلى المكتبة، لأجد النار مشتعلة في المدفأة، فوضعت المقعد الكبير ذا المسندين بجانبها، ثم جذبت المنضدة، وأسدلت الستار، وأعددت الشموع للإضاءة .

بيد أنني، عندما أتممت هذه الترتيبات، وجدتني أزداد قلقًا بحيث لم أعد أطيق الإخلاد إلى الجلوس بهدوء، ولا البقاء في المنزل. ودقت الساعة الصغيرة في الحجرة، كما دقت الساعة العتيقة في البهو، عشر دقات، فقلت لنفسي: «لقد تقدم الليل! سأنزل إلى البوابات الخارجية، فإن القمر يظهر بين فينة وأخرى بحيث أستطيع أن أتبيَّن جزءًا كبيرًا من الطريق. ولعلّي أرى مستر روشستر قادمًا، فأوفِّر على نفسي بعض لحظات من الترقّب والقلق !».

وكانت الأمطار قد انقطعت، ولكن الرياح ظلّت تزأر عاليًا بين الأشجار الضخمة التي تظلل البوابات. أما الطريق - على مدى ما تبينته - فكان ساكنًا موحشًا، لا تشاهد على يمينه وعلى يساره غير ظلال السحب التي كانت تجتازه من وقت إلى آخر، كلما أطل القمر من خلالها.. وفيما كنت أتطلَّع حوالي، ترقرقت في عيني دمعة سخيفة.. دمعة اليأس ونفاد الصبر.. فخجلت وجففتها، وأخذت أتسكَّع في الطريق إلى أن احتجب القمر تحت ستار من السحب الكثيفة، واشتدت ظلمة الليل، وبدأت الأمطار تهطل ثانية والعاصفة تسوقها أمامها بقوة وسرعة. فهتفت وقد استبدت بي الوساوس من السوداء: «ألا ليته يأتي! ليته يأتي!». لقد كنت أرتقب وصوله قبل موعد الشاي، وها هو ذا الظلام قد أرخى سدوله، فما الذي حال دون عودته؟! هل أصابه حادث؟ وتذكَّرت حادث الليلة الماضية، ففسَّرته بأنه نذير لمصيبة أو كارثة، وخشيت أن تكون آمالي أكبر من أن تتحقق، فقد حظيت أخيرًا بنعيم كبير، حتى خُيِّل إليَّ أن سعادتي قد بلغت ذروتها ووجب أن تأخذ في الأفول .

وقلت لنفسي: لن أستطيع العودة إلى المنزل ولا الجلوس بحوار المدفأة، وهو ما يزال في الخارج في هذا الطقس القاسي! يجب أن أنطلق لألقاه !».

وسرت بسرعة، ولكن دون أن أبتعد كثيرًا. ولم أكد أقطع ربع ميل حتى سمعت وقع حوافر، ورأيت فارسًا يعدو بكل قوته وإلى جانبه يجري كلب، فقلت: «لتذهبي عني أيتها الوساوس! ها هو ذا على ظهر جواده «مسرور» يتبعه كلبه بايلوت.. وشاهدني - لأن القمر كان قد شق لنفسه ثغرة زرقاء بين السحب - فرفع قبعته ثم لوَّح بها حول رأسه، فأسرعت لمقابلته.. ومد يده وانحنى على السرج وهو يقول :

- «ها أنتِ ذي ترين أن لا غنى لكِ عني! هذا واضح! ضعي قدمك الصغيرة على طرف حذائي وأعطني يديك.. هيا اصعدي !».

فأطعته وقد جعلتني الفرحة خفيفة رشيقة، ووثبت إلى ظهر الجواد أمامه، فحياني بقبلة حارة وببضع كلمات تنم عن فوزه المزهو، احتملتها قدر ما استطعت، إلى أن سألني وسط مظاهر فرحته: «ماذا حدث يا جين حتى تأتي لمقابلتي في مثل هذه الساعة؟ هل جرى شيء؟ ».

فقلت: «كلا، وإنما خُيِّل إليَّ أنك لن تأتي أبدًا، فلم أقو على احتمال قلق انتظارك في المنزل وخاصة مع هذا المطر وهذه الرياح !».

- «مطر ورياح؟ آه، حقًا! أجل. إنك تقطرين ماء كحورية البحر. لفّي معطفي حولكِ.. ولكنني أراكِ محمومة يا جين وقد التهب خداك ويداك، ولذلك أسألك

مرة أخرى: ماذا حدث؟ ».

فقلت: «لا شيء الآن، فلم أعد خائفة ولا تعيسة !».

- «إذن فقد كنت خائفة وتعيسة؟ ».

- «تقريبًا.. ولكني سأقص عليك الأمر شيئًا فشيئًا يا سيدي. وأظنك ستضحك ساخرًا مما يؤلمني !».

- «سأسخر منكِ من كل قلبي، بعد أن ينتهي الغد بخير، أما قبل ذلك فلا أجرؤ، لأن فوزي بمكافأتي لم يتقرر بعد.. لكن أهذا أنتِ، أنتِ التي ظللت طوال الشهر الماضي تنزلقين من يدي مثل السمكة، وتخزينني بشوكة كالوردة، فلا أضع يدي على جزء من جسمك حتى تدميني إبرك! أما الآن فيُخيَّل إليَّ أنني أحمل بين يدي حملا شاردًا من الحملان الوادعة، هل غادرت حظيرتك لتقابلي راعيك يا جين؟ ».

- «كنت مشتاقة إليك، فلا تتباهى! ها قد بلغنا ثورنفيلد فدعني أهبط ».

ونزلت إلى الممر المرصوف. وعندما تناول منه جون عنان جواده، تبعني إلى البهو وأمرني بأن أسرع فأرتدي ملابس جافة، ثم أعود إليه في المكتبة. وقبل أن أبلغ الدرج، استمهلني وطلب مني ألّا أبطئ في العودة. ولم أبطئ فقد رجعت بعد خمس دقائق لأجده يتناول العشاء. فقال :

- «اجلسي واحتملي رفقتي يا جين. شكرًا لله على أن هذه ستكون الأكلة الأخيرة لك في ثورنفيلد لمدة طويلة». فجلست بالقرب منه وأخبرته بأنني لا أستطيع أن أتناول طعامًا. فقال: «وهل ذلك لأنك مأخوذة بما أمامك من أمل في الرحيل يا جين؟ وهل التفكير في السفر إلى لندن هو الذي انتزع منك شهوة الأكل؟ ».

- «إن آمالي ليست واضحة لعيني الليلة، ولا أكاد أدري ماذا يدور في رأسي من أفكار، إذ يُخيَّل إليَّ أن كل ما في هذه الحياة باطل زائف ».

- «ما عداي.. أنا مادّي ملموس.. المسيني بيدك !».

- «بل أنت أقرب ما في الحياة كلها للوهم يا سيدي.. أنت مجرد حلم !».

فلوَّح بيده أمام عينيَّ وقال: «أهذا حلم؟». وأقصيت يده عن وجهي وقلت: «إنها حلم برغم أنني مسستها.. هل فرغت من عشائك يا سيدي؟». وإذ أجاب: «نعم يا جين». دققت الجرس وأمرت بحمل الصينية.. حتى إذا عدنا وحيدين، حركت نيران المدفأة، ثم تناولت مقعدًا خفيضًا، وجلست عند ركبته، وقلت: «كاد الليل ينتصف!». فقال: «نعم، ولكن تذكري يا جين أنك وعدتني بأن تظلي ساهرة معي طوال الليلة السابقة للزفاف». فقلت «فعلًا، وسأفي بوعدي لساعة أو اثنتين على الأقل، إذ لا رغبة لي الآن في النوم ».

- «هل فرغت من جميع ترتيباتك؟ ».

- «جميعها يا سيدي ».

- «وأنا الآخر أعددت كل شيء، وسنغادر ثورنفيلد غدًا بعد نصف ساعة من عودتنا من الكنيسة ».

- «حسنًا يا سيدي ».

- «يا لها من ابتسامة عجيبة هذه التي اقترنت بقولك "حسنًا " ، ويا للبقعة الحمراء اللامعة التي تخضِّب خديك! وما هذا البريق الغريب الذي تأتلق به عيناك؟ هل أنت بخير؟ ».

- «أظنني كذلك ».

- «تظنين؟! ماذا جرى! اخبريني، بماذا تشعرين؟ ».

- «لا أستطيع يا سيدي. ما من كلمات تستطيع التعبير عما أشعر به. بودي ألّا تنتهي هذه الساعة، فمن يدري ماذا يخبئ القدر في الساعة التالية؟ ».

- «هذه وساوس يا جين، فقد نال منك الإفراط في الانفعالات والمتاعب ».

- «أتشعر يا سيدي بأنك هادئ وسعيد؟ ».

- «هادئ؟ كلا، ولكني سعيد.. كل السعادة؟ ».

وتطلعت إلى وجهه لأقرأ فيه آيات النعيم والسعادة. فوجدته حارًا متورِّدًا. وأضاف: «امنحيني ثقتك يا جين، واقصي عن رأسك هذا العبء الذي يرهقه بأن تفضي إليَّ بما يتعبك. ماذا تخشين؟ أتخشين ألّا أكون زوجًا طيبًا؟ ».

قلت: «هذه أبعد فكرة عن رأسي!». فعاد يتساءل: «إذن، فهل تخشين الدنيا الجديدة التي أنتِ مقبلة عليها؟ أو تخشين الحياة الجديدة التي تنتقلين إليها؟». فقلت: «كلا؟». وعندئذ هتف :

-«إنك تحيّرينني يا جين! إن منظرك ولهجتك ينمَّان عن حزن واضح يربكني ويؤلمني، فأفصحي !».

- «إذن أصغ إلى يا سيدي.. أما كنت بعيدًا عن القصر في الليلة الماضية؟ ».

- «نعم كنت.. وقد سمعتك منذ هنيهة تشيرين إلى أن أمرًا وقع في غيابي، وربما كان أمرًا لا أهمية له، ولكنه - بالاختصار - أزعجك فاخبريني به، هل قالت لك مسز فيرفاكس شيئًا؟ أسمعت الخدم يتحدثون عن شيء؟ هل جرح أحد كرامتك المرهفة؟ ».

فأجبت قائلة: «كلا ياسيدي». وفي تلك اللحظة، شرعت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة، فانتظرت حتى فرغت من دقاتها ثم مضيت أقول: «كنت منهمكة طوال نهار أمس في عمل متصل، ولكنني كنت غاية في السعادة، لأنني لم أكن أخشى دنياي الجديدة أو غيرها، بل كنت أشعر بمنتهى الهناء في مجرَّد الأمل في أن أحيا معك لأنني أحبك! كلا يا سيدي، لا تغازلني الآن، بل دعني أتكلم دون مقاطعة.. لقد أحسنت الظن في أمسي بالأقدار، واعتقدت أن الظروف تحالفني وتحالفك. وكان يومًا هادئًا جميلا - إن كنت تذكر - مما أقصى عن رأسي كل خوف عليك أو على سلامتك في رحلتك، فأخذت أتمشَّى قليلًا في الدرب المرصوف بالحديقة بعد أن تناولت الشاي، وأنا أفكِّر فيك وأراك في خيالي قريبًا مني بحيث لا أفتقد وجودك فعلًا بجانبي.. ثم فكرت في الحياة الماثلة أمامي.. حياتك يا سيدي! إنها دنيا تفوق دنياي في اتساعها وإثارتها، وفي عمق غورها، حتى لتبدو مسالكها الضحلة أعمق كثيرًا من أغوار البحر الذي تصبّ فيه الأنهار. وإنني لأعجب كيف يشبه كتاب الأخلاق هذا العالم بالبيداء الموحشة، في حين أنني أراه في عيني وردة متفتِّحة؟ ثم غربت الشمس فبرد الهواء وتلبَّدت السماء، وعندئذ أسرعت إلى القصر وإذا بصوفي تستوقفني لتدعوني لمشاهدة ثوب الزفاف.. ورأيت تحته في الصندوق هديتك.. هذا الخمار الذي دفعك تبذيرك الشديد إلى أن ترسل في طلبه من لندن، لأنك - فيما يبدو - قررت أن تغريني بهذه الهدية الغالية بعد أن رفضت قبول المجوهرات! وفيما كنت أبسط هذا الخمار أمامي، ابتسمت لأنني أزمعت أن أداعبك من ناحية ذوقك الأرستقراطي وفي محاولتك إظهار عروسك الفقيرة بمظهر النبيلات.. فكرت في أن أضع على رأسي القماش البسيط غير المزركش الذي كنت قد أعددته لنفسي كفتاة متواضعة الأصل،

ثم أذهب إليك وأسألك: «ألا يكفي ذلك لامرأة لا تستطيع أن تأتي لزوجها بثروة أو جمال أو جاه؟». وتصوَّرت منظرك إذ ذاك وسمعت ردودك الصارمة، وتنصلك في كبرياء من أي حاجة إلى زيادة ثروتك أو رفع مستواك بالزواج من فتاة موسرة أو كريمة الحسَب والنسَب ».

وهنا قاطعني مستر روشستر قائلًا: «كيف تقرئين أفكاري يا ساحرة؟ ولكن ماذا وجدت في الخمار غير تطريزه؟ ترى هل عثرت على سم أو خنجر حتى تتجلّى عليك أمارات الحزن والأسى هكذا؟ ».

فقلت: «كلا يا سيدي، فإنني لم أجد فوق رقّة الصناعة وجمالها، سوى ما ينم عن كبرياء آل روشستر.. وهذا شيء اعتدته ولم يعد يروِّعني، ولكن يا سيدي.. عندما اشتدت الظلمة، هبَّت الرياح.. ولكنها لم تكن كما هي الآن، صاخبة مهتاجة، وإنما كانت تنوح وتئن بشكل يثير الفزع، فتمنَّيت أن تكون بالمنزل: وجئت إلى هذه الحجرة. فلما وجدت مقعدك خاليًا، انتابتني رجفة.. وما لبثت أن أويت إلى فراشي، ولكنني لم أستطع أن أغمض عيني، إذ تملَّكني قلق غريب! وكانت الرياح ما تزال تعصف بصوت خُيِّل إليَّ أنه صراخ مكتوم حزين، سواء في القصر أو خارجه. وأخيرًا تبيَّنت أن الصوت كان عواء كلب بعيد. وما لبث أن انقطع فاستراحت نفسي! ولما استغرقت في النوم، استرسلت في أحلام دارت حول الليلة الرهيبة، ثم ما لبثت أن انتقلت إلى التفكير فيك، والرغبة في أن أكون معك، وأحسست إحساسًا عجيبًا بأن هناك شيئًا ما يحول بيننا.. وكنت في المرحلة الأولى من نومي أسير في طريق مجهول، كثير الحفر والتعاريج تحيط به بقاع موحشة، وتتساقط عليه أمطار غزيرة.. وكنت أحمل بين ذراعي طفلا صغيرًا - جد ضئيل - لا يقوى على المشي، وقد أخذ يرتجف مولولًا بصوت حزين كان يخرق أذنيَّ. وخلتك يا سيدي في الطريق أمامي، فاستجمعت قواي لألحق بك، وبذلت الجهد تلو الجهد كي أناديك وأضرع إليك أن تقف، ولكن حركاتي كانت مقيَّدة.. وتلاشى صوتي بينما أحسست بأنك تمعن في الابتعاد عني في كل لحظة !».

- «وهل ما زالت هذه الأحلام تضايقك وتثقل عليك يا جين، وأنا على مقربة منك؟ يا لك من مخلوقة عصبية صغيرة! انسي هذا الهم الموهوم ولا تفكري في غير السعادة الحقيقية! تقولين إنك تحبينني يا جين.. نعم لن أنسى ذلك ولا يسعك إنكاره، لأن هذه الكلمات لم تمت على شفتيك، ولكنني سمعتها واضحة، ناعمة، في حلاوة الموسيقي، عندما قلت : "أعتقد أنه شيء رائع أن أتمنى الحياة معك يا إدوارد لأنني أحبك !". أتحبينني يا جين؟ أعيدي ذلك على مسمعي ».

- «أحبك يا سيدي.. أحبك من كل قلبي ».

فقال: «حسنًا». وصمت للحظات ثم أكمل: «هذا غريب، ولكن الجملة اخترقت صدري على نحوٍ مؤلم. لماذا؟ لأنك - فيما أعتقد - قلتها بصوت حاد، وفي تحمّس المتعبِّد، ولأن في نظرتك الآن إليَّ، روح الصدق والحق والتفاني.. وهو كثير جدًا، حتى إنني لأخال أن روحًا بجانبي لا إنسانة، فانظري إليَّ نظرة خبيثة يا جين، وارسمي على وجهك ابتسامات قاسية حية مثيرة، وقولي إنك تكرهينني.. عاكسيني.. كدِّريني! افعلي كل شيء يحرِّكني ويثيرني، فإنني أفضّل أن تغيظيني على أن تملي نفسي بالحزن والأسى !».

- «سأرضيك بما شئت من مناكدة وإثارة بعد أن أفرغ من قصتي، فاسمعها إلى النهاية ».

- «ظننتك قد فرغت من قصتك كلها يا جين، وحسبت أنني اهتديت إلى مبعث الحزن في أحلامك !».

وهززت رأسي، فقال: «ماذا؟ ألديكِ المزيد؟ ولكنني لن أعتقد أنه على شيء من الأهمية.. وأنبِّهك مقدمًا إلى أنني لن أصدِّق منه شيئًا.. استمري !».

وأدهشني قلقه الواضح، وما بدا عليه من نفاد الصبر، ولكنني استرسلت أقول: «رأيت حلمًا آخر يا سيدي.. شاهدت قصر ثورنفيلد أطلالًا موحشة ينعق فيها البوم والخفافيش. ولم يبقَ من واجهته الفخمة سوى جدار واحد عالٍ متصدِّع، فأخذت أتجوَّل - في ليلة مقمرة - وسط الحشائش التي نبتت في داخله، وإذ بقدميّ تتعثَّران في حافة رخامية ثابتة.. جزء من أطلال سياج.. وكنت أتلفَّع بشالي، وأحمل الطفل المجهول بين ذراعيَّ، فلم ألقه رغم تعبي وثقله الذي كان يعرقل سيري، وما لبثت أن سمعت جوادًا يركض من بعيد، فأيقنت أنك أنت القادم، لأنك كنت قد رحلت منذ زمن بعيد، فأسرعت أتسلَّق الجدار بأمل أن ألمحك من قمته، وإذا بالأحجار تنهار تحت قدمي، والأغصان تلتوي بعد أن تعلَّقت بها. ولف الطفل ذراعيه حول عنقي حتى كاد يخنقني، ولكني وصلت في النهاية إلى القمة، ورأيتك أشبه بنقطة بيضاء تزداد تضاؤلا في كل لحظة.. ثم اشتدت الرياح، فلم أعد أستطيع الوقوف، وجلست فوق قمة الجدار. ورحت أهدِّئ من روع الطفل الخائف في حجري، وإذا بك تدور حول منعرج في الطريق.. وانحنيت إلى الإمام لألقي عليك نظرة أخيرة، ففقدتُ توازني وسقطت. ثم صحوت من نومي !».

- «ولكن الحلم قد انقضى وتبدَّد !».

- «بل هذه هي المقدمة فقط يا سيدي، وستأتي القصة بعد ذلك: فما إن استيقظت حتى بهر عينيَّ نور، فخُيِّل إليَّ أن النهار قد أقبل.. ولكنني كنت مخطئة، إذ لم يكن النور سوى لهب شمعة. وظننت أن صوفي وفدت على الغرفة.. وكانت ثمة شمعة على مائدة الزينة، كما كان باب الخزانة التي علقت فيها ثوب الزفاف والخمار قبل أن آوي إلى فراشي مفتوحًا.. وسمعت حفيفًا بداخلها، فقلت: «ماذا تفعلين يا صوفي؟». ولم يجبني أحد، وإنما مرق شخص من الخزانة، فتناول الضوء ورفعه عاليًا، وراح يتأمل الثياب المعلقة.. وصرخت مرة أخرى: «صوفي! صوفي!»، ولكن الشخص ظلَّ صامتًا.. وكنت قد استويت جالسة في سريري، فملت إلى الأمام.. ودهشت في البداية، ثم استولت على الحيرة والخوف.. ثم تجمَّد الدم في عروقي. لم يكن الشخص صوفي.. ولا ليا.. ولا مسز فيرفاكس.. لا، لم يكن أيا منهن، وإني لمتأكدة من هذا.. ثم، وفوق كل هذا، لم يكن كذلك تلك المرأة الغريبة الأطوار.. جريس بول !».

فقاطعني سيدي: «يجب أن يكون واحدة منهن ».

- «لا يا سيدي، أؤكد لك، في صدق وإخلاص، أنه لم يكن واحدة منهن. إن الشخص الذي رأيته منتصباً أمامي كان مخلوقاً لم تقع عليه عيناي قط من قبل ضمن نطاق قصر ثورنفيلد. كان طوله وشكله العام غريبين عليّ ».

- «صفيه لي، يا جين ».

- «لقد بدا، ياسيدي، امرأة، فارعة الطول، ضخمة الجسم، شعرها منفوش تتدلى غدائره طويلة على ظهرها. ولست أدري ماذا كانت تلبس: كان شيئاً أبيض، ولكني لا أستطيع القول هل كان ثوباً أم شرشفاً أم كفناً ».

- «هل رأيت وجهها؟ ».

- «أنا لم أره بادئ الأمر. ولكنها سرعان ما تناولت خماري من موضعه، ورفعته عالياً، وحدَّقت إليه طويلاً، ثم طرحته على رأسها واستدارت إلى المرآة. وفي تلك اللحظة رأيت انعكاس الوجه والأسارير، في وضوح كامل، على المرأة المستطيلة المظلمة ».

- «وكيف كانت؟ ».

- «رهيبة ومروِّعة-أوه، يا سيدي، أنا لم أرَ في حياتي وجهاً مثل ذلك الوجه! كان وجهاً متغير اللون... وجهاً وحشياً. لشد ما أتمنى لو أنسى دوران تلك العينين الحمراوين في محجرَيهما، وانتفاخ تلك الملامح الرهيبة المكفهرَّة ».

- «ولكن هذا الشبح، يا سيدي، كان أرجوانياَ: كانت شفتاه متورّمتين داكنتين، وجبينه متغضناً. وكان حاجباه الأسودان مرفوعين رفعاً مسرفاً فوق العينين المحتقنتين. هل أقول لك بأي شيء ذكرتني هذه المرأة؟ ».

- «في إمكانك أن تقولي ».

- «بالشبح الألماني الشرير... بالشبح المصاص لدماء النيام ».

- «آه... وماذا فعلتِ بعد ذلك؟ ».

- "لقد نزعت خماري عن رأسها الرهيب، ومزّقته قطعتين، ثم طرحت كلتا القطعتين على الأرض وداست عليهما ».

- «وبعد ذلك؟ ».

- «بعد ذلك أزاحت ستارة النافذة وأطلّت منها: لعلها رأت الضحى يرتفع، لأنها سرعان ما حملت الشمعة وانكفأت إلى الباب. ثم وقفت عند سريري وأنشأت تحدّق إليّ بعينيها الناريتين... لقد قرّبت شمعتها نحو وجهي، وأطفأتها تحت عينيّ. وأحسست بوجهها يتأجج فوق وجهي، وغبت عن الوعي: للمرة الثانية في حياتي-للمرة الثانية فحسب-أغمي عليّ من شدة الذعر ».

- «ومن كان إلى جانبك عندما ثبت إلى رشدك ».

- «لا أحد، يا سيدي، غير ضوء النهار. لقد نهضت، وغسلت رأسي ووجهي بالماء، ثم شربت جرعة كبيرة، واستشعرت أني لم أكن برغم وهن قواي، مريضة، ووطّنت النية على ألّا أفضي بنبأ ذلك إلى أحد غيرك. والآن، يا سيدي، قل لي من كانت تلك المرأة؟ ».

- «إنها مخلوقة من مخلوقات عقلك المستثار أكثر مما ينبغي، ذلك أمر لا ريب فيه. إن علي أن أكون لطيفاً يا كنزي. فأعصابك المرهفة لم تخلق للمعاملة الخشنة ».

- «صدقني يا سيدي إذا قلت لك إنّ اللوم لا يقع على أعصابي. كانت المخلوقة حقيقية، ولقد حدث ذلك فعلاً ».

- «وأحلامك السابقة، هل كانت حقيقية أيضاُ؟ هل استحال قصر ثورفيلد إلى طلل؟ هل فصلني عنك طائرٌ لا سبيل إلى قهره؟ هل فارقتك من غير دمعة...

من غير قبلة... ومن غير كلمة؟ ».

- «إن هذا لمَّا يحدث بعد ».

- «وهل ترينني على وشك أن أفعل ذلك، كيف، وها هو ذا اليوم الذي سيجمع ما بين روحينا إلى الأبد قد أطلّ علينا فعلاً؟ وما إن تتّحد روحانا حتى تزايلك هذه المخاوف الذهنية: أنا أضمن لك ذلك ».

- «مخاوف ذهنية، يا سيدي! لشد ما أتمنى لو أستطيع الاعتقاد أنها لم تكن إلّا مخاوف ذهنية. إني لأتمنى ذلك الآن، أكثر من أي وقت آخر، ما دمت حتّى انت نفسك عاجزاً عن حلّ لغز تلك الزائرة الرهيبة ».

- «وما دمت أنا عاجزاً عن ذلك، يا جين، فلا بد أن تلك الزائرة كانت زائرة وهمية ».

- «ولكني لم أكد أنهض من فراشي هذا الصباح، يا سيدي، ولم أكد أجيل طرفي في الحجرة لكي أستمد من مشهد الأشياء البهيج في وضح النهار شجاعة وعزاء حتى رأيت هناك، هناك على السجادة، ما جعلني أرتعد: لقد رأيت الخمار وقد شُطر، من أعلى إلى أدنى، شطرين اثنين !».

ورأيتُ مستر روتشيستر يجفل ويرتعد. ثم إنه سارع إلى تطويقي بذراعيه وهتف: «إذا صح أن شيئاً خبيثاً قد وقع لك الليلة البارحة فاحمدي الله على أن الخمار هو وحده الذي أُصيب بأذى. أوه، لشدّ ما يروعني مجرّد التفكير في ما كان يمكن أن يحدث !».

وكان يلهث، وضمّني إليه في قوة جعلتني لا أكاد أقوى على التنفّس. وبعد صمت استمرّ بضع دقائق، أردف في بِشر :

- «والآن، يا جين، سوف أشرح لك كل شيء. لقد كان ما رأيته مزيجاً من الحلم والحقيقة. فما من ريب في أن امرأة قد دخلت غرفتك، وأن تلك المرأة كانت- بل يجب أن تكون-غرايس بول. لقد قلت أنت نفسك إنها مخلوقة عجيبة، وإن لكِ، بما تعرفينه عنها، حقّاً في أن تصفيها بهذا الوصف. أتذكرين ما فعلته بي؟ وما صنعته بمايسون؟ لقد لاحظت دخولها وأعمالها وأنت في حالٍ وسطٍ بين النوم واليقظة. ولكنك، عزَوتِ إليها-وأنت في حالٍ من الحمى والهذيان-مظهراً عفريتياً غير مظهرها الحقيقي: إن الشعر الطويل المنفوش، والوجه الأسود المنتفخ، والقامة المغالى فيها ليست غير تلفيق من تلفيقات الخيال، وثمرة من ثمرات الكابوس. أما تمزيق الخمار تمزيقاً حقوداً فكان حقيقياً. وهو يتّفق

ومزاجها وطريقتها. أنا أرى أنك لتتساءلين لماذا أبقي على مثل هذه المرأة في بيتي، ألا فاعلمي أني سوف أفضي إليك بالسبب بعد أن ينقضي على زواجنا عام ويوم واحد، ولكن ليس الآن. أيقنعك هذا، يا جين؟ هل تقبلين حلّي للغز؟ ».

وفكرت ملياً، فبدا لي حقًا، أن تفسيره ذاك هو التفسير الوحيد الممكن. أنا لم أقتنع، ولكني حاولت التظاهر بذلك لكي أرضيه. وليس من ريب في أن كلامه كان قد سرَّى عن نفسي، فأجبته بابتسامة راضية .

وإذ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة منذ فترة غير يسيرة فقد أخذت الأهبة لمفارقته .

فسألني وأنا أشعل شمعتي: «أتنام صوفي مع أديل في حجرة الأطفال؟ ».

-«نعم، يا سيدي ».

- «إن في سرير أديل الصغير متسعاً لك. أقترح عليك أن تشاطريها إيّاه، هذه الليلة، يا جين. فالحادثة التي رويتها قد تثير أعصابك، وأني لأفضّل ألّا تنامي وحدك. عديني بأن تنامي في حجرة الأطفال ».

- «إن ذلك ليسعدني كثيراً، يا سيدي ».

- «أحكمي إقفال الباب من داخل. وايقظي صوفي عندما تصعدين بحجّة أنّك تريدين منها أن توقظك في ساعة مبكرة من صباح غد، حتى ترتدي ملابسك وتتناولي فطورك قبل الساعة الثامنة.؟ والآن، اطردي الأفكار القاتمة، والصور الكئيبة، يا جانيت. ألا ترين كيف هدأت الريح واستحال زئيرها إلى وشوشات ناعمة؟ ألا تلاحظين أن حبات المطر كفَّت عن النقر على زجاج النافذة؟ (وهنا رفع الستارة) يا له من ليل رائع !».

والواقع أنه كان ليلاً رائعاً. كان نصف السماء صافياً لا تشوبه شائبة. وكانت السحب، وقد احتشدت الآن أمام الريح التي أخذت تهبّ من ناحية الغرب، تنكفئ نحو الشرق في صفوف طويلة مفضَّضة. وكان القمر يسفح النور في طمأنينة .

وقال مستر روتشيستر وهو يحدّق على نحو مستطلع: «وكيف حال جانيتي الحلوة الآن؟ ».

- «الليل رائق، يا سيدي، وكذلك أنا ».

- «ولن تحلمي الليلة، أحلاماً كلها فراق وأسى. بل ستحلمين بالحب السعيد والزواج الهانئ ».

ولقد تحققت هذه النبوءة نصف تحقّق ليس غير. صحيح أني لم أحلم بأمور سيئة، ولكني لم أحلم بالبهجة أيضاً، ذلك أن جفنيَّ لم يعرفا الإغماض قط. لقد طوّقت أديل الصغيرة بذراعي وأخذت أتأمل نوم الطفولة العميق، الرصين، البريء، وارتقب انبلاج الصباح. كانت حياتي كلها يقظى مضطربة في كياني، فما إن نهضت الشمس بازغة حتى نهضت أنا أيضاً. وأذكر أن أديل تشبّثت بي عندما فارقتها، وقبّلتها وأنا أُقصي يديها الصغيرتين عن عنقي. لقد ملْتُ عليها ورحت أبكي في انفعال عجيب، ثم فارقتها خشية أن تعكّر تنهّداتي صفو رقادها العميق. لقد بدت في عينيّ رمزًا لحياتي السالفة، أما هو-مَنْ كان عليّ الآن أن أرتدي ملابسي للقائه-فقد بدا في عينيَّ وكأنه النموذج المخيف، ولكن المحبوب، لأيامي القادمة المجهولة .

الفصل السادس والعشرون

قدمت صوفي في الساعة السابعة لتساعدني على ارتداء ملابسي. والواقع أنها تباطأت كثيرًا في تأدية مهمتها، حتى عيل صبر مستر روشستر لتأخُّري، فيما أعتقد، فأرسل يسأل عن السبب في عدم مجيئي. وكانت صوفي إذ ذاك تشد خماري الأبيض المربَّع البسيط الذي كنت أريده في البداية، لتثبته إلى شعري بدبوس. فبادرت أغادرها بأسرع ما استطعت، ومن ثم صاحت بالفرنيسة: «قفي! انظري إلى نفسك في المرآة فإنك لم تختلسي نظرة واحدة على صورتك!». فعدت ثانية إلى الحجرة لأرى في المرآة جسمًا يرتدي ثوبًا وخمارًا، ولا يشبهني إطلاقًا بحيث خُيِّل إليَّ أنني أرى صورة فتاة غريبة عني! وسمعت صوتًا ينادي: «يا جين!»، فهرعت إلى حيث استقبلني مستر روشستر عند السلم قائلًا: «أيتها المتلكِّئة! لقد التهب رأسي بنفاد الصبر، وأنت تتأخَّرين حتى الآن !».

وذهب بي إلى حجرة المائدة. حيث جعل يتأملني من مفرقي إلى أخمص قدمي. وما لبث أن وصفني قائلًا: إنني "جميلة كالزنبقة " وإنني لم أكن كل ما تزدهي به حياته فحسب، وإنما كنت "غاية ما تشتهي عيناه !". وإذ قال إنه يمهلني عشر دقائق لأتناول فطوري. دق الجرس، فلبَّاه أحد الخدم الذين استأجرهم أخيرًا. وإذ ذاك سأله: «هل أعد جون العربة؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «وهل أنزلتم الحقائب؟ ».

- «إنهم يفعلون ذلك الآن يا سيدي ».

- «اذهب إلى الكنيسة وتأكَّد من وجود مستر وود الكاهن مع الكاتب هناك ثم عد واخبرني ».

وكانت الكنيسة - كما يعلم القارئ - تقع وراء الأبواب الخارجية للقصر مباشرة. لذلك عاد الخادم بسرعة يقول :

- «إن مستر وود في قاعة الثياب يرتدي الزي الكهنوتي يا سيدي ».

- «والعربة ».

- «إنهم يلجمون جيادها ».

- «لسنا نريدها للذهاب إلى الكنيسة، وإنما يجب أن تكون مستعدة عند عودتنا، وأن تكون كل الصناديق والحقائب معدَّة ومحزومة وأن يكون السائق في مقعده ».

- «حسنًا يا سيدي ».

ثم سألني مستر روشستر: «أمتأهِّبة أنتِ يا جين؟». فنهضت واقفة. ولم نكن ننتظر أحدًا من أصدقاء العريس أو صديقات العروس أو الأهل والأقارب، بل كنت وحدي مع مستر روشستر. وكانت مسز فيرفاكس تقف في البهو عندما اجتزناه، فهممت بأن أخاطبها لولا أن يدي كانت في قبضة من حديد، كما كانت خطوات مستر روشستر الواسعة تستحثني حتى كاد يتعذَّر عليَّ أن أسايرها. وكان في وسعك أن تدرك لأول وهلة أنه لن يتسامح في لحظة واحدة نتأخرها، مهما كانت الأسباب! فما أحسب أن عريسًا بدا مثله في عزمه البالغ وحرصه على بلوغ غايته. مما نمَّ عنه جبينه الذي انعقد في إصرار على عينين متوهِّجتين مستعرتين !

ولم أدرِ ما إذا كان الطقس جميلًا أو سيئًا في ذلك اليوم، لأنني سرت في طريقي لا ألتفت إلى سماء أو إلى أرض، وقد علق قلبي، وعيني، بمستر روشستر، أملًا في أن أرى الشيء الخفي الذي كان يسدد إليه نظراته، طوال الطريق، في قسوة وحِدّة. وأن أتبيَّن الخواطر التي لاح أنه كان يصارعها وكانت تصارعه بقوة.. وما لبث أن توقَّف عند مدخل صحن الكنيسة، وإذ ذاك فقط، أدرك أنني متهدِّجة الأنفاس، فقال :

- «أترينني قاسيًا في حبي؟ تمهَّلي لحظة، واتكئي عليَّ يا جين !».

وما يزال في وسعي أن أتذكَّر صورة بيت الله الأبيض القديم، الذي قام أمامي في هدوء ودعة. ومنظر غراب أسْحم يدور حول برج الكنيسة، ثم منظر السماء المتورِّدة اللون في ذلك الصباح، كما أنني أذكر شيئاَ عن الآكام الخضراء المتناثرة حول القبور. ولم أنسَ بعدُ أنني رأيت رجلين غريبين، كانا يهيمان بين الروابي الخفيضة، ويقرآن ما سُطر على شواهد القبور القليلة التي كانت الطحالب تكسوها. وقد استلفتا انتباهي لأنهما اتجها إلى مؤخِّر الكنيسة بمجرد أن وقعت أعينهما علينا. فلم أشك لحظة في أنهما سيدخلان من الباب الخلفي لمشاهدة الحفلة، أما مستر روشستر فلم يلحظهما لأنه كان مشغولا بالنظر إلى وجهي الذي هربت منه الدماء.. وشعرت بعرق بارد يتصبَّب

على جبيني، وأحسست ببرودة تسري في وجنتي وشفتي. حتى إذا بادرت إلى استجماع قواي سار معي برفق ونحن نتجه إلى مدخل الكنيسة .

ودخلنا الهيكل الهادئ المتواضع، فرأيت الكاهن ينتظرنا في ثوبه الكهنوتي الأبيض عند المذبح - الذي كان متواضعًا كذلك - والكاتب بجانبه. وكان الهدوء شاملًا ولا أحد سوى شبحين كانا يتحرَّكان في ركن بعيد. وصدق حدسي، إذ إنهما لم يكونا سوى الرجلين الغريبين. وقد تسلَّلا إلى داخل الكنيسة قبلنا، وما لبثا أن وقفا أمام القبو الخاص بموتى آل روشستر، وأوليانا ظهريهما ليتطلَّعا، من خلال القضبان الحديدية، إلى المقبرة الرخامية العتيقة، حيث ركع تمثال أحد الملائكة في حراسة رفات دامر روشستر، الذي ذُبح في مارستون مور أثناء الحروب الأهلية، ورفات زوجته إليزابيث .

واتخذنا مكاننا عند قضبان الهيكل المقدس. وإذ سمعت خطوًا محاذرًا خلفي، نظرت من فوق كتفي فرأيت أحد الغريبين - وهو من الطبقة الراقية بلا مراء - يتقدَّم في الكنيسة نحونا.. ثم بدأت المراسم، فتلا الكاهن مقاصد الحياة الزوجية، ثم تقدَّم خطوة إلى الأمام، وانحنى قليلًا أمام مستر روشستر واستطرد: «إنني أسألكما، بل أحتِّم عليكما أن تعترفا، كما ستعترفان يوم الدينونة الرهيب حين تتكشف أسرار القلوب جميعًا، ما إذا كان ثمة ما يحول دون ارتباط أحدكما بالآخر شرعًا بالزواج. إذ عليكما أن تثقا من أن الكثيرين الذين يرتبطون بغير كلمة الله. لا يجمع الله بينهم، ولا تقر الشرائع زواجهم !».

وسكت طبقًا للعادة.. ولكن، متى بدد السكون الذي يعقب هذه العبارة عادة أي جواب؟ إنه أمر لا يحدث ولو مرة في كل مائة عام! ولم يرفع الكاهن عينيه عن كتابه، بل أمسك أنفاسه لحظة، ثم بسط يده نحو مستر روشستر، وهم بأن يسأله: «هل تقبل هذه المرأة زوجة لك؟». ولكن صوتًا واضحًا انبعث عن قرب قائلًا: «لا يمكن أن يتم هذا الزواج، وأجاهر بأن هناك عقبة ».

فرفع الكاهن عينيه إلى المتكلِّم ووقف صامتًا كالأخرس، وكذلك فعل الكاتب، بينما تحرَّك مستر روشستر قليلا كأن زلزالًا هزَّ الأرض تحت قدميه، ثم ثبَّت قدميه في مكانيهما تحفُّزًا، وقال دون أن يلتفت برأسه أو عينيه: «استمر!». وما إن نطق بهذه الكلمة، بصوت خفيض ولكنه عميق، حتى ساد المكان صمت شامل. وما لبث مستر وود أن قال: «ليس بوسعي أن أستمر قبل بعض التحرِّي عن صحة ما قيل، وحتى يقوم الدليل على صدقه أو زيفه». وهنا عاد الصوت من خلفنا يقول: «يجب وقف حفلة الزواج تمامًا ولديَّ البرهان على دعواي.. إن هناك عقبة لا يمكن تذليلها تحول دون هذا الزواج ».

وسمع مستر روشستر ذلك، ولكنه لم يكترث، بل ظل صامدًا لا ينثني، ولم يبدِ حراكًا اللهم إلّا ليتشبث بيدي، وما كان أشد قبضته وأدفأها! وكم كان وجهه الشاحب الحازم الضخم يشبه الرخام في تلك اللحظة.. وشد ما كانت عيناه تأتلقان في يقظة تخفي تحتها ضراوة !

وبدت الحيرة على مستر وود فقال: «وما طبيعة هذه العقبة؟ ربما أمكن تذليلها إذا وضحت لنا !».

فكان الرد: «يصعب ذلك فقد وصفتها بأنها لا تُذلَّل وقد تكلَّمت ناصحًا !».

ثم تقدَّم المتكلِّم ومال على قضبان الحاجز، واستطرد في وضوح وهدوء وثبات دون أن يرفع صوته: «إنها بكل بساطة تتمثل بوجود زواج سابق. إن لمستر روشستر زوجة على قيد الحياة !».

واهتزت أعصابي عند سماع هذه الكلمات الخفيضة كما لم تهتز من قبل لقصف الرعد، وفعلت نيرانها بدمي ما لم يفعله صقيع ولا نار من قبل.. بيد أنني لم أفقد روعي ولم أخشَ إغماء، وإنما تطلَّعت إلى مستر روشستر وحملته على أن ينظر إليَّ بوجه يشبه الصخر الشاحب، وبعينين تقدحان شررًا. ولم ينكر شيئًا، وإن بدا عليه الإصرار على أن يتحدَّى كل شيء! ومن دون أن ينطق بحرف أو يبتسم، ومن دون أن يبدو عليه أنه كان يراني مخلوقة آدمية. طوَّقني بذراعه، وسمّرني إلى جانبه. ثم سأل الدخيل المتطفِّل :

- «من أنت؟ ».

- «اسمي بريجز. محام بشارع... في لندن ».

- «وهل تريد أن تلصق بي زوجة؟ ».

- «أريد أن أذكرك يا سيدي بوجود زوجتك التي يعترف بها القانون إذا كنت أنت لا تعترف بها ».

- «تكرَّم ببيان عنها.. عن اسمها ووالديها ومكان إقامتها ».

فقال المحامي: «بالتأكيد!». ثم أخرج مستر بريجز في هدوء ورقة من جيبه، وراح يقرأ ما فيها بنبرة رسميّة: «أؤكد. وفي وسعي أن أقيم البرهان على أنه في يوم 20 أكتوبر سنة.. بعد الميلاد (منذ خمسة عشر عامًا) تزوَّج إدوارد فيرفاكس روشستر صاحب قصر ثورنفيلد هول بإقليم... وصاحب ضيعة

فرندين بمقاطعة... بإنجلترا، من أختي بيرثا أنطوانيتا ميسون، ابنة جوناس ميسون التاجر وأنطوانيتا ميسون زوجته. الخلاسية المولد، بكنيسة... في سبانش تاون بجاميكا، ويمكن الحصول من سجلات تلك الكنيسة على وثيقة الزواج. وفي حوزتي الآن نسخه منها - التوقيع: ريتشارد ميسون ».

- «إن هذه الوثيقة - إذا صحّت - قد تثبت أنني تزوجت، ولكنها لا تثبت أن المرأة المذكورة هنا على أنها زوجتي ما زالت على قيد الحياة !».

فأجابه المحامي: «لقد كانت على قيد الحياة منذ ثلاثة أشهر ».

- «كيف علمت؟ ».

- «لديَّ شاهد على هذه الحقيقة لا يستطيع أحد، حتى أنت، دحض شهادته ».

- «قدِّمه أو اذهب إلى الجحيم !».

- «سأقدِّمه على الفور. ليتفضَّل مستر ميسون بالتقدم ».

فلما سمع مستر روشستر ذلك الاسم، صرف على أسنانه وبدت عليه رعدة تشنُّجية. وكنت بجواره، فشعرت برعشة الحنق واليأس تجري في أوصاله. وكان الرجل الغريب الثاني - الذي تلكَّأ بعيدًا - قد اقترب وظهر من وراء كتف المحامي بوجهه الشاحب، فإذا به ميسون نفسه! واستدار مستر روشستر يحملق فيه بنظرة حانقة، كالنظرات التي سبق أن وصفتها، ولكنها كانت في هذه المرة عفراء، أي تختلط ظلمتها ببريق دمويّ، بينما احتقن وجهه وتألَّقت وجنتاه السمراوان وجبينه الشاحب بالنيران المتأجِّجة في صدره وقلبه.. ثم تحرَّك ورفع ذراعه القوية. وكان من الممكن أن يلطم ميسون ويصرعه على أرض الكنيسة، بعد أن أذهلته الضربة التي نزلت على رأسه، ولكن ميسون أجفل مبتعدًا، ثم صاح في صوت واهن «يا إلهي!». وأحس مستر روشستر نحوه باحتقار هدّأ من انفعاله، فإذا حنقه يخبو.. واكتفى بأن سأله: «ما الذي لديك؟». فانبعث من شفتي ميسون جواب لا تستبينه الأذن .

- «سحقًا لك إذا لم تتكلَّم بوضوح.. إني أسألك مرة أخرى: ماذا تريد أن تقول؟ ».

فقاطعه الكاهن: «يا سيدي. يا سيدي. لا تنسى أنك في مكان مقدس!». ثم توجَّه إلى ميسون يسأله في رفق :

- «هل تعلم علم اليقين أن زوجة هذا السيد على قيد الحياة أم لا؟ ».

وحثَّه المحامي قائلًا: «تشجَّع.. تكلم !».

- «إنها تقيم الآن في قصر ثورنفيلد هول، فقد شاهدتها هناك في أبريل الماضي، وأنا شقيقها !».

فصاح الكاهن: «في ثورنفيلد هول؟ مستحيل! إنني أقيم في هذه المنطقة منذ زمن قديم يا سيدي، ولم أسمع قط بوجود زوجة لمستر روشستر في ثورنفيلد هول ».

وشاهدت ابتسامة متجهِّمة تلوي شفتي مستر روشستر، ثم غمغم قائلًا: «كلا والله! لقد بذلت كل جهد كي لا يسمع أحد بها تحت هذا الاسم، ولا يعلم بقصتها!». ثم أطرق حوالي عشر دقائق ناقش فيها نفسه. وما لبث أن اعتزم شيئًا أعلنه قائلًا :

- «كفى! سوف ينطلق مني التصريح بكل شيء كما تنطلق الرصاصة. اطوِ كتابك يا وود واخلع عنك ثوبك الكهنوتي!». ثم التفت إلى الكاتب وقال: «وأنت يا جون جرين، غادر الكنيسة فلن يتم اليوم زفاف !».

فأطاعه الرجل. واستطرد مستر روشستر في جرأة واندفاع :

- «إن تعدُّد الزوجات كلمة بشعة! ومع ذلك فقد قصدت أن أكون زوجًا لاثنتين، ولكن القدر خيَّب رجائي، أو هي العناية الإلهية التي عاقتني عن ذلك. ولست الآن خيرًا من شيطان رجيم، بل إنني أستحق بلا شك - كما يجدر بالكاهن أن يقول - أقسى عقاب يفرضه الله. حتى النار التي لا تخبو والديدان التي لا تشبع.. لقد فشلت خطتي يا سادة، فإن ما قاله هذا المحامي وعميله صحيح. إذ تزوجت، وما زالت المرأة التي تزوجتها على قيد الحياة!! لقد قلت يا وود إنك لم تسمع قط بوجود زوجة لي في ذلك القصر، ولكني أعتقد أنك طالما ملت بأذنك لتلتقط أخبار المجنونة الخفية التي وضعتها هناك تحت الحراسة والرقابة. وقد أسرّ إليك بعضهم بأنها أخت غير شقيقة لي، وأسرَّ الآخرون بأنها خليلة منبوذة، ولكني أخبرك الآن بأنها زوجتي التي اقترنت به منذ خمسة عشر عامًا، واسمها برتا ميسون، وهي شقيقة هذا الرجل الثابت العزم! الذي يريك الآن بأطرافه المرتعدة ووجنتيه الشاحبتين أي قلبٍ جريء يمكن أن يحمله الرجال بين ضلوعهم!! لكن اطمئن يا "دِك " ، ولا تَخشَ قط فإنني أوثر أن أضرب امرأة على أن أضربك! إن برتا ميسون مجنونة، ومن سلالة أسرة مجنونة، كلهم بلهاء معتوهين تلوّثت عقولهم لثلاثة أجيال. فقد كانت أمها

الخلاسية مجنونة وسكيرة، وقد اكتشفت ذلك بعد أن تزوجت الابنة لأنهم كانوا يتكتمون أسرار العائلة! وسرعان ما قلدت برتا أمها - كأي ابنة بارة - في كلا الأمرين». واستطرد في سخرية مريرة: «وغدت لي شريكة حياة فاتنة، نقية، عاقلة، حبيبة!! إن في وسعكم أن تتصوروا كيف كنت رجلًا سعيدًا تعاقبت عليّ مشاهد رائعة! كانت تجربة من السماء والنعيم، لو تعلمون! ولكنني لن أزيدكم شرحًا بل أدعوك يا بريجز، وأنت يا وود، وأنت يا ميسون، إلى القصر كي تشهدوا مريضة مسز بول، وأعني زوجتي. سترون أي مخلوقة خُدعت فيها وتزوجتها، ثم احكموا بما إذا كان من حقي، أن أفصم الرابطة بيني وبينها وأبحث عن الحنان والمشاركة الوجدانية مع إنسانة من البشر ».

ثم نظر إليَّ واسترسل يقول: «إن هذه الفتاة لا تعرف، يا وود، هذا السر البغيض أكثر مما تعرفه أنت. بل إنها كانت تعتقد أن كل شيء عادل وشرعي، ولم يدُر بخاطرها قط أنها سوف تتردَّى في حبائل زواج زائف، من رجل شرير غدَّار مرتبط بشريكة شقية مجنونة متوحشة! تعالوا جميعًا.. اتبعوني !».

ثم غادر الكنيسة وهو ما زال يشد قبضته على يدي، والسادة الثلاثة يتبعونه. وعند مدخل باب البهو، وجدنا العربة، فقال للحوذي ببرود وفتور: «عد بها يا جون إلى الحظيرة إذ لا حاجة لنا بها اليوم!». وإذ ولجنا القصر، تقدَّمت مسز فيرفاكس وصوفي وليا للقائنا وتحيتنا، ولكن السيد صاح فيهن :

- «ابتعدوا جميعًا.. ابعدوا عني تهانيكم! لا أحتاج إليها، إذ إنها قد تأخَّرت خمسة عشر عامًا !».

وواصل السير مرتقيًا الدرج وهو ما زال يمسك بيدي ويشير إلى السادة أن يتبعوه، حتى إذا بلغنا الطابق الأول واجتزنا الردهة ثم تقدمنا وواصلنا الصعود إلى الطابق الثالث، فتح لنا مستر روشستر الباب الأسود الخفي بمفتاحه الخاص، وأدخلنا حجرة مغطَّاة بالسجاجيد، فيها سرير كبير وصوان بديع، ثم قال: «إنك تعرف هذه الحجرة يا ميسون. فقد عضتك وطعنتك هنا !».

ثم رفع الستار عن الجدار ليكشف عن الباب الثاني المفضي للحجرة الداخلية، وفتحه بدوره. كانت حجرة خالية من النوافذ، فيها موقد مشتعل يحيط به سياج عالي قوي. ومصباح يتدلَّى من السقف بسلسلة. وكانت جريس بول منحنية على النار تطهو شيئًا في مقلاة. وفي الظل الداكن، في ركن بعيد، كان ثمة شبح يذرع الغرفة بسرعة ولا يستطيع المرء أن يحكم لأول وهلة هل كان شبح حيوان كاسر، أو أنه كان مخلوقا آدميًا، إذ كان يحبو على أربع، ويهمهم ويزمجر

كوحش عجيب. ولكنه كان مكسوًا بالثياب، وكمية من الشعر الأشيب الحالك المنفوش تخفي الرأس والوجه.. وقال مستر روشستر :

- «صباح الخير يا مسز بول! كيف حالك وحال «الأمانة» التي في عهدتك؟ ».

- «حالنا لا بأس به يا سيدي.. أشكرك !».

وبعد أن رفعت الطعام المغلي بعناية من موقد التسخين، قالت: «إنها فظة شرسة ولكنها ليست خطرة». وارتفعت إذ ذاك صرخة وحشية كأنها جاءت تكذيبًا لهذا التصريح الذي انطوى على مجاملة لها. ثم وقفت الضبعة البشرية على قدميها الخلفيتين. فصاحت جريس :

- «آه يا سيدي لقد رأتك وخير لك ألّا تبقى ».

- «بضع دقائق فقط يا جريس، يجب أن تمنحيني بضع لحظات ».

- «احترس إذن يا سيدي.. احترس بالله عليك !».

وجأرت المجنونة، ودفعت عن وجهها خصلات شعرها الكث، ثم حملت كالوحشة تحدّق في زوارها، فتبينت جيدًا وجهها القرمزي وتقاطيع وجهها المنتفخ. وإذ تقدمت مسز بول، دفعها مستر روشستر جانبًا وقال :

- «أفسحي لي الطريق، فهي على ما أعتقد لا تحمل الآن سكينًا، كما أنني على حذر منها ».

- «إن الإنسان لا يعرف ما لديها يا سيدي، لأنها غاية في الدهاء، ويتعذَّر على ذوي الفطنة والتمييز تصور مكرها !».

فغمغم ميسون بصوت هامس: «يجدر بنا أن نتركها». وإذ ذاك صاح به صهره: «ألا اذهب إلى الجحيم!». بينما صرخت جريس: «حذار ».

فارتدّ السادة الثلاثة إلى الخلف بحركة آلية تلقائية، وجذبني مستر روشستر خلفه.. فانقضّت المجنونة عليه تمسك عنقه بعنف وتغرز أسنانها في وجنته، ثم دار بينهما العراك. كانت امرأة ضخمة الجسم وفي مثل قامة زوجها، فضلًا عن أنها كانت مفرطة في البدانة فأبدت قوة الرجال في عراكها. وكادت تخنقه أكثر من مرة برغم أنه رياضي! وكان في وسعه أن يتغلَّب عليها بضربة مسدَّدة، ولكنه أبى أن يضربها مكتفيًا بأن يصارعها. وأخيرًا أمسك بذراعيها،

فناولته جريس بول حبلا شدّهما به خلفها، ثم أوثقها بحبل آخر إلى أحد المقاعد. وقد تمت هذه «العملية» وسط أبشع الصرخات والحركات المذعورة.. وأخيرًا، استدار مستر روشستر إلى المجموعة وتطلع إليهم في ابتسامة امتزجت فيها المرارة بالسخرية والأسى، وقال :

- «هذه زوجتي، وهذا هو كل ما عرفت من عناقها كزوجة.. هذا كل ما تمنحني من مظاهر المودّة والتدليل التي أتعزّى بها في ساعات الفراغ ».

ثم وضع يده على كتفي ومضى يقول :

- «هذه هي التي أردتها.. هذه الشابة التي تقف في هدوء ورزانة عند فوهة الجحيم، وتتطلّع في ثبات إلى الشيطانة التي تقفز أمامها! أردتها فقط أملًا بشيء من التغيير بعد طبخة حريفة. انظر يا وود، وأنت يا برجز، إلى الفارق بين الاثنين وقارنا بين هاتين العينين الصافيتين، وتلك الكرتين الملتهبتين هناك، والجسم البدين المنتفخ، ثم احكما بعد ذلك يا رجل الدين ويا رجل القانون، وتذكَّرا أنه كما يدين المرء يدان... هيا اخرجوا جميعًا الآن حتى أغلق الباب على درتي الغالية !».

وانسحبنا جميعًا. وبقيَ مستر روشستر بضع لحظات ليصدر بعض أوامره إلى مسز بول.. وفي أثناء هبوطنا الدرج، خاطبني المحامي قائلًا :

- «أنتِ خالصة من كل لوم يا سيدتي وسيغتبط عمك جون إير بذلك، لو أنه بقيَ على قيد الحياة حتى عودة مستر ميسون إلى ماديرا ».

- «عمي؟! ما أخباره؟ هل تعرفه؟ ».

- «إن مستر ميسون يعرفه. فلقد كان مستر إير عميلًا لمؤسسته في فونشال (عاصمة جزر ماديرا) لبضع سنوات. وتصادف عندما تلقَّى عمك خطابك الذي ذكرت فيه أنك اعتزمت الزواج من مستر روشستر، أن كان مستر ميسون معه، إذ سافر إلى ماديرا لسيتكمل نقاهته بعد الحادث الذي وقع له هنا تعرفينه، وقبل عودته إلى جاميكا، فأبلغه عمك النبأ لأنه كان يعلم أن له صلة بسيد يُدعى روشستر، وشد ما دهش مستر ميسون واغتم. ثم شرح جلية الأمر لعمك الذي يؤسفني أن أقول إنه الآن مريض وطريح الفراش في حالة انهيار قد لا ينجو منها، ولذلك لم يقوَ على أن يأتي إلى انجلترا بنفسه ليخلِّصك من الشرك الذي وقعت فيه ولكنه توسَّل إلى مستر ميسون أن يسرع إلى اتخاذ التدابير اللازمة لمنع هذا الزواج الزائف، كما أحاله عليَّ لمساعدته، فاسرعت ما وسعني الإسراع. وأحمد الله على أنني لم أتأخَّر عن الوقت المناسب،

وخليق بك أن تحمدي الله معي. ولو لم أكن موجسًا من أن عمك سيموت قبل وصولك إلى ماديرا لنصحتك بمرافقة مستر ميسون عند عودته. ولذلك أرى من الخير أن تبقي في انجلترا إلى أن تصلك أنباء من عمك أو عنه. ثم التفت إلى مستر ميسون وسأله: هل هناك شيء آخر يدعونا للبقاء؟ ».

فأجابه هذا في لهفة: «كلا.. كلا.. هيا بنا». وخرجا من باب البهو دون أن ينتظرا مستر روشستر لسيتأذناه في الانصراف. وبقيَ الكاهن ليتبادل بعض عبارات لائمة أو مواسية مع ابن أبرشيته - روشستر - حتى إذا انتهى من مهمته، غادر القصر بدوره.. وسمعته يرحل وأنا واقفة عند باب حجرتي الموارب، بعد أن انسحبت إليها. وإذ خلا القصر، أغلقت حجرتي بالمزلاج حتى لا يتطفَّل عليَّ أحد، ثم شرعت - لا في البكاء ولا في العويل، لأنني كنت أهدأ من أن أفعل ذلك - وإنما في خلع ثوب الزفاف بحركة آلية، ثم ارتديت ثوبي العادي الذي كنت ألبسه في اليوم السابق لآخر مرة كما زعمت، وجلست بعد ذلك وأنا أحسّ الوهن والتعب، فاتكأت بذراعي على المنضدة وألقيت رأسي عليها ثم أخذت أفكر في أن دوري، حتى تلك اللحظة، لم يكن يعدو مجرَّد أن أسمع وأن أشاهد وأن أتأثَّر، ووجدت نفسي مطاردة أو منقادة، أو مراقبة.. أرى الحادث يندفع وراء الحادث، والفضيحة تتلو الفضيحة، والسر ينكشف تلو السر.. والآن لا أملك سوى التفكير !

وفيما عدا مشهد المجنونة القصير، انقضى الصباح في هدوء تام.. حتى حادث الكنيسة لم يثر أي جلبة ولم تنفجر فيه الانفعالات، أو ترتفع المهاترات والخلافات، ولم يصحبه تحد أو صراخ أو دموع أو بكاء، بل قيلت في أثنائه كلمات قليلة، وأثير الاعتراض في هدوء نسبي، وألقى مستر روشستر بعض أسئلة جافة مقتضبة تلقَّى عنها إجابات وإيضاحات وأدلة، اعترف سيدي بعدها بالحقيقة، وشاهدنا الدليل الحي ماثلا أمام عيوننا، ثم رحل المتطفِّلان وانتهى كل شيء !

كنت في حجرتي كالعادة، بمفردي، دون تغيير ملحوظ. فلم يؤذني أحد أو يتعرّض لي، ومع ذلك فأين كانت جين إير الأمس بحياتها وآمالها؟ إن جين إير التي كانت امرأة متقدة النشاط، تملؤها الآمال، وكادت تصبح عروسًا، عادت فتاة باردة كما كانت، بعد أن شحبت حياتها وتقوَّضت آمالها وحل عليها صقيع رأس السنة في أوج الصيف. وهبَّت عواصف الشتاء المدوِّية في شهر يونيو، وأتلف الجليد التفاح الناضج، وسحق الثلج الورود اليانعة، ولفَّ الحقول كفن من الجليد. أما الطرقات الصغيرة التي كانت تزدان في ليلة أمس بالزهور، فقد أقفرت وصارت وعرة المسالك بسبب ما غطاها من الجليد.. وأما الغابات التي كانت عطرة مورقة منذ أربع وعشرين ساعة كأنها أحراش المناطق

الاستوائية، فقد غدت الآن موحشة مهملة بيضاء ناصعة كأنها غابات الصنوبر في شتاء النرويج !

ذلك لأن آمالي جميعها قد قضى عليها القدر بضربة خفية.. ورحت أتأمَّل أمانيَ العزيزة التي كانت بالأمس زاهرة زاهية فإذا بها قد ذبلت وغدت يابسة لا يمكن قط أن تسترد الحياة! وعدت إلى حبي الذي خلقه سيدي فرأيته يرتجف في قلبي، أشبه بطفل مريض في مهد بارد - لفرط ما أصابه من العلل والآلام - دون أن يقوى على البحث عن ذراعي مستر روشستر أو صدره ليستمد الدفء! أواه! لن يستطيع قلبي الالتجاء إليه لأن الإيمان قد تبدَّد والثقة قد تلاشت، ولأن مستر روشستر لم يعد لي كما كان من قبل، ولا كما كنت أتصوره. ولست أعزو إليه أي نقيصة، ولا أقول إنه غدر بي، وإنما زايل فكرتي عنه كل اطمئنان إلى الحقيقة الخالصة من أي شائبة! ولم يعد هناك بد من الرحيل بعيدًا عنه.. وكان هذا جل ما تراءى لي وما أحسست به، ولكن: متى، وكيف، وإلى أين؟ لم أهتدِ بعدُ إلى رأي، غير أنني لم أرتب في أن مستر روشستر نفسه لن يلبث أن يعجِّل بإقصائي عن ثورنفيلد. فقد لاح لي أن من غير الممكن أن يكون قد شعر نحوي بحب حقيقي، وإنما كان الأمر كله مجرد نزوة طارئة هدأت، ولن يعود السيد بحاجة إليَّ.. بل إنني بت أخشى أن أعترض طريقه، إذ لا بد أنه غدا يعاف رؤيتي.. آه، لكم كنت عمياء، ولكم كان مسلكي ضعيفًا! أجل، كانت عيناي مكفوفتين، ومغمضتين !

وخُيِّل إليَّ أن الظلمة تدور حولي كالدوامة، وأن أفكاري غدت سوداء، تنساب في اضطراب السيل وتدفقه.. كنت أبدو - وقد نبذتني نفسي، بلا حول ولا قوة - وكأنما ألقيَ بي في حوض نهر جاف، ثم سمعت فيضًا ينساب منحدرًا من جبال بعيدة، وأحسست بسيوله تقترب مني، دون أن أجد من نفسي رغبة في النهوض، أو قدرة على الفرار، فرقدت خائرة القوى أتلهَّف على الموت، ولا تراودني سوى فكرة واحدة.. ذكرى الله، تبدَّت في صلاة صامته تسبح كلماتها في خاطري كشيء يجب أن أهمس به دون أن أقوى على النطق به: «اللهم لا تبتعد عني لأن العناء قريب ولا أحد في عوني !».

كان السيل قريبًا.. ولكني لم أتضرّع بالدعاء إلى السماء كي تقيني منه، ولم أضم يدي أو أثني ركبتي أو أحرِّك شفتي.. ثم اقترب السيل ودهمني بكل قوته واندفاعه، فإذا كل إحساسي المضعضع بالحياة، وحبي المضيع، وآمالي الخايبة. وإيماني المصعوق.. إذا بها جميعًا تنصب على رأسي كتلة واحدة.. وكانت ساعة مريرة رهيبة يصعب وصفها.. والواقع أن الماء نفذت إلى نفسي، فإذا بي أغرق في حمأة عميقة، دون أن أجد أرضًا أضع عليها قدمي، وما لبثت أن بلغت المياه العميقة ثم جرفتني السيول !

الفصل السابع والعشرون

ورفعت رأسي - في الأصيل - وتلفَّت حولي فرأيت الشمس الغاربة ترسم على الجدار صورة غروبها، ورحت أتساءل: «ماذا أعمل؟»، فجاءني الرد من نفسي: «غادري ثورنفيلد في الحال!». وكان ردًا سريعًا مروِّعًا جعلني أصمّ أذني. وأعترف بأنني لم أكن أطيق إذ ذاك سماع مثل هذه الكلمات.. ورحت أجادل نفسي: «ليس اسوأ ما في الأمر أنني لم أعد زوجة إدوارد روشستر، ولكن استيقاظي من أحلامي الرائعة لأجدها كلها زائفة كاذبة، هو الأمر الرهيب الذي لا أقوى على احتماله والتغلب عليه. كما لا يمكن أن أحتمل، أو أن أقدم على مغادرة سيدي في إصرار، وفي الحال، وإلى الأبد !».

ولكن صوتًا من أعماقي أهاب بي أن ذلك في وسعي، وأن من واجبي أن أفعله، ورحت أصارع هذا القرار وأملي أن أكون من الضعف بحيث أتحاشى الطريق المؤلم الذي يفضي إلى عذاب آخر رأيته مبسوطًا أمامي! وعندئذ ثار «الضمير» وتحوَّل إلى طاغية أمسك بخناق «الهوى» ثم قال يؤنِّبه: إنه قد دَسّ قدمه الناعمة في حمأة موحلة، وأقسم أن يلقيه بذراع حديدية في أعماق الآلام والأوجاع.. وعندئذ صرخت: «سأتمزق إربًا إذن! أما من معين؟». وانقضى الصباح في هدوء تام. وأجاب الهاتف: «كلا بل إنك ستمزقين نفسك دون أن يساعدك أحد! سوف تفقئين عينك اليمني وتقطعين بنفسك يدك اليمنى. وسيكون قلبك الضحية وستكونين أنت الكاهن الذي يذبحه !».

وإذ ذاك نهضت فجأة وقد استبدَّ بي الرعب لوحدتي القاسية مع هذا القاضي الذي لا يرحم، ومع هذا الصمت الذي يخترقه مثل هذا الصوت الرهيب! وإذ انتصبت واقفة، سبح رأسي، وأدركني غثيان فطنت إلى أنه ناشئ عن ثورتي وخلوّ معدتي لأنني لم أذق طعامًا ولا شرابًا في ذلك اليوم.. حتى الفطور لم أجد وقتًا لتناوله. وفطنتُ، وقلبي يخفق بألم عجيب، إلى أنني إذا ظللت في معزلي هذا فلن يسأل عني أحد أو يدعوني إنسان للنزول.. حتى أديل الصغيرة لن تطرق بابي.. بل إن مسز فيرفاكس لن تبحث عني! ثم غمغمت وأنا أرفع المزلاج: «إن الأصدقاء ينسون دائمًا من يتخلَّى عنهم الحظ!». وخرجت لأتعثَّر بشيء في طريقي، وكنت ما أزال غائمة العينين واهنة الأطراف لا أقوى على استجماع قواي الخائرة، فسقطت.. لا على الأرض، وإنما تلقفتني ذراع ممدودة، فرفعت عيني لأجدني مستندة إلى مستر روشستر وقد جلس على مقعد عند عتبة غرفتي. ثم قال :

- «ها قد خرجتِ أخيرًا! لقد انتظرتك طويلًا، وأرهفت السمع دون أن تتناهى إلى أذني حركة أو نشيج. ولو أن هذا السكون المطبق الشبيه بسكون الموت استمر خمس دقائق أخرى، لفتحت الباب عنوة كلص.. هل تجفلين مني؟ لماذا تغلقين عليك الباب وتستسلمين وحدك للأحزان؟ إنني أوثر أن تأتي وتعنّفيني في قسوة! إنك شديدة الانفعال سريعة التأثر ولذلك كنت أتوقّع منك مثل هذا المشهد فأعددت نفسي لوابل من الدموع الحارة والعبرات، وما كنت أرجو سوى أن تذرفيها على صدري بدل أن تتلقاها الأرض التي لا تحس ولا تشعر، أو يتلقفها منديلك الصغير المبلل. بل أحسبني مخطئًا فإني أرى وجنتك شاحبة وعينك ذابلة دون أثر فيها للدموع، فأغلب الظن إذن أن قلبك كان يبكي دمًا! حسنًا يا جين! أما من كلمة تقريع؟ أما من شيء أشد مرارة وأنكى وخزًا؟ أما من شيء يؤلم الشعور أو يلدغ العاطفة؟ إنك تجلسين هادئة حيث وضعتك وتتطلعين إليَّ بنظرة واهنة سلبية! ما أردت يا جين ان أصيبك بهذا الجرح.. إن المرء الذي لا يملك سوى شاة صغيرة يعتز بها كما لو كانت ابنته، ويدعها تأكل من خبزه وتشرب من كأسه، وترقد في حِجره، قد يضطر لخطأ ما إلى ذبحها.. ولكنه لن يعاني إذ ذاك من الندم على غلطته الدامية، ما أعاني من الحسرة على غلطتي.. فهلا صفحتِ؟ ».

ولقد صفحت عنه أيها القارئ في الحال، وعلى الفور، بعد أن تبدَّى في عينيه ما نم عن ذلك الندم العميق، وما تجلَّى في لهجته من هذا الأسى الحقيقي، وما ظهر على طلعته من رجولة صادقة. هذا، فضلا عما كان في كل شكله وهيأته من حب لا يتبدَّل ولا يتغيَّر.. أجل، لقد غفرت له كل شيء.. غفرت في صميم فؤادي. وإن لم أعبّر عن ذلك بقول أو تظاهر. وكأنما رابه إخلادي الطويل إلى الصمت والاستكانة اللذين كانا نتيجة الضعف أكثر مما كانا نتيجة الإرادة. فما لبث أن سألني: «أتدركين أنني وغد يا جين؟ ».

- «نعم يا سيدي ».

- «إذن قولي ذلك في عنف وحدّة ولا تأخذك بي رحمة !».

- «لا أستطيع.. إنني متعبة ومريضة، وفي حاجة إلى بعض الماء ».

فتنهَّد تنهيدة واحدة، ثم حملني بين ذراعيه إلى الطابق الأسفل. ولم أدرِ في أول الأمر إلى أي حجرة حملني، لأن كل شيء كان غائمًا في ناظري، ثم سرعان ما استشعرت دفء النيران المنعش بعد أن كنت محاطة في حجرتي ببرودة جليدية برغم أننا كنا في الصيف! ثم سكب خمرًا بين شفتيَّ فتذوقتها وانتعشت. وما لبثت أن تناولت طعامًا قدَّمه إليَّ فاستردت قواي وتبيَّنت أنني

في حجرة المكتبة، أجلس على مقعد السيد، بينما جلس هو على مقربة مني. وحدثت نفسي قائلة: ليتني أغادر الحياة الآن دون ألم شديد، فإن هذا خير لي، إذ لن اضطر إلى بذل الجهد في انتزاع نياط طلبي وأنا أفصله عن قلب مستر روشستر الذي يبدو ألّا مفر من فراقه، وإن كنت لا أحب أن أتركه ولا أستطيع مغادرته!». وسألني إذ ذاك: «كيف أنت الآن يا جين؟ ».

- «أحسن كثيرًا يا سيدي، ولن ألبث أن أصبح بخير ».

- «تذوَّقي النبيذ مرة أخرى يا جين ».

فأطعته، وعندئذ وضع الكأس على المنضدة ثم وقف أمامي يتفرَّس فيَّ متمعنًا. وفجأة.. ابتعد وقد ندَّت عنه صيحة مكتومة زاخرة بالانفعال ثم أسرع ليعبر الحجرة ثم يعود من فوره فينحني عليَّ وكأنه يهم بتقبيلي، ولكني تذكَّرت أن الغزل قد بات محظورًا علينا. فأشحت بوجهي عنه. ودفعت وجهه بعيدًا. فصاح على التو: «ماذا؟! أواه، لقد عرفت! إنكِ لا تريدين تقبيل زوج برتا ميسون وتعتبرين ذراعيَّ مليئتين، وصدري ملكًا لغيرك.. أليس كذلك؟ ».

- «على كلٍّ، ليس لي مكان بقربك أو حق في قلبك يا سيدي ».

- «لماذا يا جين؟ سأكفيك مشقة الحديث الطويل وأتولَّى عنكِ الجواب، لأنني متزوج، أليس هذا ردك كما أتوقعه؟ ».

- «نعم ».

- «إذا كان هذا ما تظنينه، فإن رأيك فيَّ يجب أن يكون عجيبًا.. ولا بد أنك تعدّينني متهتكًا خليعًا يتآمر عليك، ووغدًا وضيعًا دنيئًا تظاهر لك بحب كاذب زائف ليجتذبك إلى فخ محبوك الأطراف عن قصد وعمد فيجردك من الشرف ويسلبك كرامتك واعتزازك بنفسك.. ما قولك في هذا؟ أراك لا تقوين على قول شيء: أولًا لأنكِ ما زلتِ ضعيفة واهنة ولا تكادين تقوين على تمالك أنفاسك، وثانيًا لأنك لا تستطيعين بعد أن تعوِّدي نفسك على اتهامي وشتمي.. وفوق ذلك إن مجاري الدموع في عينيكِ مفتوحة، وسوف تتفجَّر إذا ما أكثرت من الكلام! لا رغبة لديك في الاعتراض والتعنيف وإشهاد الناس علينا، ولكنك تفكرين في ما يجب عمله، وترين في الكلام أمرًا لا يجدي ولا ينفع.. إنني أعرفك وآخذ منك حذري !».

- «لا رغبة لديَّ في أن أعمل ضدك يا سيدي ».

ونبهني صوتي المرتجف إلى ضرورة الإيجاز والاقتضاب، فلم أزد .

ولكنه أجاب قائلًا: «إنك لا ترغبين في العمل ضدي بالمعنى الذي تفهمينه، ولكنك ترسمين خطتك للقضاء عليَّ بالمعنى الذي أفهمه. فقد صدقت في قولك إنني رجل متزوج فيجب أن تتجنبيني وأن تبتعدي عن طريقي بمثل ما رفضت منذ لحظة أن تقبليني لأنك اعتزمت أن تجعلى نفسك إنسانة غريبة عني تمامًا، وألّا تعيشي تحت هذا السقف إلّا كمعلمة لأديل، وإذا وجهت إليك كلمة وِدّ أو اجتذبتك نحوي بشعور الصداقة، فسوف تقولين : "لقد كاد هذا الرجل أن يتخذ مني خليلة له، فيجب أن أكون في علاقتي به كالثلج والحجارة ". وإني لأدرك أن بوسعك أن تصبحي كذلك فعلًا !».

فجلوت صوتي وثبَّتّ نيرانه لأردّ قائلة: «لقد تغيَّر كل شيء حولي يا سيدي، فيجب أن أتغيَّر بدوري. هذا أمر لا شك فيه.. ولكي أتحاشى كل تحوُّل في مشاعري وكل صراع مع ذكرياتي وصلاتي، لا أجد أمامي سوى طريق واحد، هو ضرورة البحث لأديل عن معلمة أخرى !».

- «أوه! إن أديل سوف تذهب إلى المدرسة، فقد قرَّرت ذلك منذ قليل، كما أنني لا أريد أن أعذِّبك بذكرياتك البغيضة وصِلاتك القديمة بثورنفيلد هول.. هذا المكان اللعين.. هذا القبو العاتي الذي يعكس على ضياء السماء الفسيحة شحوب الموت.. هذا الجحيم الحجريّ الضيق، وشيطانته الحقيقية التي تجعله أسوأ من كل ما تتصوَّر! سوف لا تقيمين هنا يا جين، ولا أنا! فقد أخطأت في أن جئت بك إلى ثورنفيلد هول برغم ما أعلمه عن هذا المكان الذي تسكنه العفاريت. ولقد أمرتهم بأن يخفوا عنكِ لعنة هذا المكان قبل أن تقع عليكِ عيناي، لأنني خشيت ألّا أحصل على معلِّمة لأديل إذا علمت أي مرشحة بوجود الشيطانة التي ستضطر إلى الإقامة معها. ولم أكن أعتزم نقل هذه المجنونة إلى مكان آخر، مع أنني أملك دارًا قديمة في ضيعة فرندين أكثر عزلة من هذا القصر. وكان في مقدوري أن أنقلها إلى هناك ليعيش أهل ثورنفيلد في سلام وطمأنينة، لولا أني خوفي من الظروف الصحية في قلب الغابة أثار ضميري.. كان من المحتمل أن تعجِّل الجدران الرطبة بخلاصي منها. ولكن لكل وغد عيبًا، وعيبي أنني لا أميل إلى القتل غير المباشر، ولو لأكثر الناس نصيبًا من بغضائي !

ولقد أخفيت عنكِ مكان المجنونة القريب. فكنت في ذلك كمن يغطِّي طفلًا بمعطفه ثم يرقده بالقرب من شجرة الأوبا - السامة. فالعيش بجوار هذه المجنونة سام! لسوف أغلق ثورنفيلد هول وأسمّر بابه الخارجي، وأسد نوافذ الطابق الأرضي بالألواح الخشبية، وأعطي مسز بول مائتي جنيه في السنة

لتعيش هنا مع زوجتي، كما تسمِّين هذه الشوهاء الرهيبة.. وجريس بول لا تتردَّد في عمل أي شيء من أجل النقود، وسوف تستعين بابنها، الذي يشتغل حارسًا في جريسمبي ديتريت، ليحتمل رفقتها ويبادر إلى مساعدتها في نوبات الهياج، عندما تحاول زوجتي - كعادتها - حرق الناس في مضاجعهم بالليل، أو طعنهم وفصل لحومهم من عظامهم بأسنانها، وما إلى ذلك ».

فقاطعته قائلة: «إنك شديد القسوة على تلك السيدة التعسة يا سيدي.. إنك تتحدَّث عنها بمقت، وحقد ونقمة. وهذه قسوة، إذ لا حيلة لها في جنونها ».

- «يا جين، يا حبيبتي الصغيرة - هكذا سأناديكِ، وهكذا أنت بالنسبة إليَّ - إنك لا تدرين ماذا تقولين. إنك تسيئين الحكم عليَّ مرة أخرى.. إنني لا أكرهها لأنها مجنونة. هل تظنينني أكرهك إذا مسَّك خبل؟ ».

- «أظن ذلك يا سيدي ».

- «إذن فأنت مخطئة، ولا تعرفين شيئًا عني، أو عن مدى الحب الذي يمكن أن يزخر به قلبي.. إن كل ذرة من بدنك عزيزة لديَّ كأنها من لحمي، سواء كانت سليمة أم عليلة. وعقلك كنزي الغالي، ومهما اختلّ فسيظل كنزي كذلك.. وإذا أنت هدأتِ فسوف تكون ذراعاي مأواك، وليس ذلك القميص الضيق، وإذا اهتجت فإن قبضتك تغدو كوقع السحر عندي، وإذا هاجمتني بوحشية، كما فعلت تلك المرأة صباح اليوم، تلقيتك على صدري لأضمّك إليَّ، دون أن أجفل منك كما جفلتُ منها متقزِّزًا.. أما في لحظات الهدوء فلن يحرسك أو يمرِّضك سواي، وفي وسعي أن ألازمك بحنان لا يدركه تعب رغم أنك لن تكافئيني على ذلك بابتسامة! لن أملّ من التطلُّع إلى عينيك، وإن لم يعد ينبعث منهما شعاع ينم عن أنك تعرفينني.. ولكن لماذا أتبع مثل هذه الأفكار المتلاحقة؟ كنت أتحدَّث معك عن نقلك من ثورنفيلد.. إن كل شيء معَدّ كما تعلمين وستسافرين غدًا. فقد أطلب إليك يا جين أن تحتملي المبيت ليلة أخرى تحت سقف هذا القصر، ثم تودعينه وتودّعين آلامه وأهواله إلى الأبد! ولديَّ مكان يمكن أن تحتمي فيه من الذكريات البغيضة والتطفل الكريه، ومن الزيف والنميمة !».

فقاطعته قائلة: «خذ أديل معك يا سيدي، وسوف تؤنسك !».

- «ماذا تعنين يا جين؟ لقد قلت لك إنني سأرسلها إلى المدرسة. ثم ما حاجتي إلى طفلة ترافقني.. طفلة ليست من صلبي. وإنما ولدَتها راقصة فرنسية فاجرة؟ لماذا كل هذه الفجاجة.. لماذا تفرضينها عليَّ كرفيقة؟ ».

- «لقد حدثتني عن رغبتك في التقاعد والاعتزال يا سيدي.. وهما من بواعث الهم والاكتئاب.. لا سيما بالنسبة إليك ».

فقال ثائرًا: «الاعتزال! الوحدة! أرى من واجبي أن أبسِّط لك الأمر، ولا أدري أي غموض هذا الذي يرتسم على أساريرك ويجعلك أشبه بأبي الهول! إنكِ أنتِ التي يجب أن تشاطريني وحدتي. أفهمت؟». فهززت رأسي ..

كنت في حاجة إلى شيء من الشجاعة أمام ثورته حتى أستطيع أن أجازف بالتعبير - ولو في صمت - عن رفضي. وكان يذرع الحجرة بسرعة. فتوقَّف فجأة وكأن قدميه سُمّرتا إلى بقعة واحدة، ثم تفرَّس في وجهي طويلًا وبقسوة، فحوَّلت عنه عينيَّ لأثبِّتهما في نيران المدفأة محاولة أن أبدو أمامه هادئة رابطة الجأش. وأخيرًا قال في هدوء لم أتوقعه من نظرته :

- «ها هنا الثغرة في أخلاق جين! إن بكَرَة الخيط الحريري قد انسابت حتى الآن ناعمة ملساء ولكني لم أشك أبدًا في أن تأتي عقدة تعرقل سيرها وتحيِّر العقل، وها هي ذي قد أتت لتبعث الكدَر والحنق والمتاعب التي لا تنتهي. يا إلهي! كم أتمنَّى أن تكون لي قوة شمشون فأحطِّم كل قيد وكأني أحطِّم حبلًا من الكتَّان!». وعاد يذرع الحجرة من جديد، ثم ما لبث أن توقَّف مرة أخرى أمامي مباشرة، وانحنى مقتربًا بشفتيه من أذني وقال : «هلا أصغيتِ يا جين إلى صوت العقل؟ إذا لم تفعلي فسوف، ألتجئ إلى العنف؟ ».

وكان صوته مبحوحًا، ونظرته كنظرة من يُوشك أن يحطم قيدًا لا يحتمل ثم يندفع في ثورة هائجة. وأدركت أنني إذا مكثت لحظة أخرى سادرة في برودي فلن أتمكّن من الوصول إلى شيء معه.. كان الحاضر كل ما يجب أن أمسك بعنانه وأكبحه في نفسي، وكل حركة نافرة أو جافة أو خائفة كفيلة بأن تقرِّر مصيري ومصيره، ولكنني لم أكن خائفة بحال من الأحوال، بل إنني استشعرت قوة داخلية وشعرت أنه لدي من النفوذ عليه ما يساندني. وكانت الأزمة خطيرة، وإن لم تخلُ من السحر الذي يحسّه الهندي وهو ينزلق في قاربه في التيار، فمددت يدي وأمسكت بيده المتشنجة. وإذ ذاك استرخت أصابعه الملتوية، فقلت له في رفق: «اجلس. سأحدثك طويلا كما تريد، وسأصغي إلى كل ما تريد قوله، سواء كان معقولًا أم غير معقول !».

وجلس، ولكني لم آذن له في الحديث على الفور، لأنني كنت أصارع دموعي. وقد عانيت كثيرًا من الآلام في حبسها لأنني كنت أعلم أنه يود أن يراني باكية. ولكني عدت فآثرت أن أطلق لها العنان كما تشاء، ولو أغضبه ذلك! وهكذا

بكيت بحرقة، وإذا بي أسمعه يتضرَّع إليَّ أن أهدأ. فقلت له إن هذا لم يكن في وسعي ما ظل هو ثائرًا مهتاجًا. وإذ ذاك قال :

- «ولكني لست غاضبًا يا جين، وإنما أنا أحبك فحسب، وقد رأيت على وجهك الصغير الشاحب دلائل الجمود والبرود والإصرار، فلم أطق رؤيتك على هذه الحال. كفِّي الآن وكفكفي دموعك !».

وكشف صوته الناعم عن هدوئه فهدأت بدوري. وحاول إذ ذاك أن يعتمد برأسه على كتفي، ولكني لم أدعه.. ثم أراد أن يجذبني إليه فأبيت، وعندئذ قال في لهجة بالغة الحزن والمرارة إلى درجة هزت أعصابي :

- «جين! جين! إنتِ لا تحبينني إذا. لم يعجبك مني سوى مركزي والمركز التي تتبوؤه من تكون زوجتي، فلما رأيت الآن أنني لا أستأهل أن أكون زوجًا لك، انكمشتِ وأجفلتِ من لمسي وكأنني ضفدع أو قرد !».

أثّرت في نفسي هذه الكلمات، ولكن ما الذي كان في وسعي أن أفعل أو أقول؟ ولعله كان من الواجب أن أفعل أو أن أقول شيئًا، ولكنني كنت أتعذَّب بالندم لإيذائي مشاعره. ولم يسعني أن أقاوم رغبتي في وضع بلسم شاف على الجرح الذي أدميته فقلت :

- «إنني أحبك أكثر من أي وقت مضى ولكن.. لا ينبغي أن أظهر هذا الشعور أو أطلق له العنان.. بل يجب أن تكون هذه آخر مرة أعرب لك فيها عن شعوري ».

- «آخر مرة يا جين! ماذا؟ أتحسَبين أنك تستطيعين العيش وأنت ترينني في كل يوم ثم تمضين في برودك ونأيك عني، وأنت ما زلت تحبينني؟ ».

- «كلا يا سيدي. هذا ما لا أشك فيه.. إن ثمة طريقة واحدة، ولكنك قد تهتاج إذا ذكرتها لك ».

- «أوه. أذكريها! وإذا عصف بي الغضب فلديك حيلتك: البكاء !».

- «مستر روشستر.. يجب أن أغادرك !».

- «إلى متى يا جين؟ لبضع دقائق حتى تسوِّي شعرك الذي تشعَّث قليلا، وحتى تغسلي وجهك شبه المحموم؟ ».

- «يجب أن أغادر أديل وثورنفيلد.. يجب أن أفارقكم مدى الحياة! يجب أن أبدأ حياة جديدة بين وجوه غريبة ومشاهد غريبة !».

- «طبعًا، وقد أخبرتك بأن هذا ضروري. ولسوف أتجاوز عن أنك ترومين فراقي. لأفهم قولك على أنك تعنين - ولا بد - أن تصبحي جزءًا مني. أما عن الحياة الجديدة، فلا ضير هناك.. إنك على كل حال ستصبحين زوجتي، لأنني لست متزوجًا! ستكونين مسز روشستر اسمًا وفعلًا، وسألازمك ما دمتُ حيًّا.. وسوف تنتقلين إلى قصر أمتلكه في جنوب فرنسا.. فيلا بيضاء على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، حيث تنعمين بالسعادة في أمان وتحيين حياة صافية ولا تخشين أن أغريك بارتكاب إحدى المعاصي وأن أتخذك خليلة. لماذا تهزّين رأسك؟ يجب أن تكوني عاقلة يا جين وإلا هاجت ثائرتي مرة أخرى ».

وكان صوته ويده يهتزان، وخياشيمه الكبيرة تتسع، كما تألقت عيناه، ولكني جرؤت على الكلام فقلت :

- «إن زوجتك ما تزال حية وهذه حقيقة أنت اعترفت بها بنفسك هذا الصباح، فإذا أنا عشت معك كما تهوى صرتُ لك خليلة.. أما القول بغير ذلك فسفسطة وزيف !».

- «أنا لست من رقيقي الطبع يا جين فلا تنسي ذلك، كما أنني لست ممن يقوون على الاحتمال الطويل.. لست باردًا أو هادئًا، ولذلك أرجو إشفاقًا عليَّ - وعلى نفسك - أن تضعي إصبعك على نبضي لتحسّي تسارعه، ثم حاذري !».

وكشف عن رسغه وقدَّمها إلي. ووجدت الدماء تهرب من وجنتيه وشفتيه، وقد استحال لونها إلى الزرقة، فشمل الحزن كل نفسي، لأن إثارته إلى هذا الحد المضني - الذي كان يكرهه - ضرب من القسوة.. وكان خضوعي في الوقت ذاته - أمرًا مستحيلا، ففعلت ما يفعله غيري من البشر بغريزته عندما يساق إلى نهاية الشوط: التمست العون من قوة تسمو على الإنسان، وصحت على غير إرادتي: «ساعدني يارب !».

وفجأة صاح مستر روشستر: «ما أحمقني! لقد ظللت أحدثها بأنني لست متزوجًا دون أن أبسط لها الأسباب. فقد نسيت أنها لا تعلم شيئًا عن أخلاق تلك المرأة وعن الظروف التي لابست زواجي البغيض بها.. وأنني لواثق من أن جين سوف تتفق معي في الرأي عندما تعرف كل ما أعرفه! فقط ضعي يدك في يدي يا جانيت لكي أرى بحاسّتَيْ اللمس والبصر أنك قريبة مني، وسأبسط لك في إيجاز حقيقة الأمر، فهل تستطيعين الإصغاء إليَّ ».

- «نعم يا سيدي.. ولساعات إذا شئت !».

- «كلا فلست أسألك سوى بضع دقائق يا جين.. هل سمعت أنني لم أكن أكبر إخوتي في القصر وأنه كان لي أخ يكبرني؟ ».

- «أذكر أن مسز فيرفاكس أخبرتني بذلك ».

- «وهل سمعت أن أبي كان رجلا بخيلًا محبًا للمال؟ ».

- «فهمت شيئًا من هذا القبيل ».

- «حسنًا يا جين. لما كانت هذه طباع أبي فإنه لم يكن يطيق مجرد التفكير في تقسيم ممتلكاته ليترك لي نصيبًا عادلًا، ومن ثم استقر رأيه على أن يرث أخي رولاند كل شيء. ولكنه لم يرتضِ لي حياة الفقر فمضى يبحث لي عن زوجة غنية. وكان صديقه القديم مستر ميسون مزارعًا من جزر الهند الغربية وتاجرًا كبيرًا، عرف أبي أنه أنجب ابنًا وابنة، وأنه آثر الأخيرة بثلاثين ألف جنيه، وما إن غادرت الكلية، حتى أوفدني أبي إلى جامايكا لأخطب الفتاة، دون أن يشير إلى ثروتها، بيد أنه قال إنها فتنة المدينة. ولم يكن كاذبًا في ذلك، إذ وجدتها جميلة من طراز بلانش إنجرام: هيفاء سمراء مهيبة القوام، أرادت أسرتها أن تستحوذ عليَّ لنبل محتدّي، ونجحت في ذلك.. كانوا يبرزونها لي في المجتمعات في أبهي فتنتها، فيحيط بها الرجال معجَبين وهم يغبطونني عليها. ووجدتني مبهور العواطف، منساقًا للإغراء، لا أدري حقيقة أمري. فقد كنت غرًا قليل التجربة، ولم أنفرد بها أو أطيل معها الحديث على حدة، فخُيِّل إليَّ أنني أحببتها..
وليست هناك حماقة تسلب اللبّ وتعجل بمصير الإنسان كالتنافس الأبله في المجتمعات، والاندفاع وراء العاطفة، وتهوّر الشباب وعدم بصيرته. وهكذا شجَّعني أهل الفتاة ودفعني تزاحم المتنافسين عليها، وبهرتني هي بسحرها، فتمّ الزواج قبل أن أدرك أين أنا! آه، كم أحتقر نفسي عندما أفكِّر في هذه التمثيلية! وكم أتألم في قراراتي للإزدراء لنفسي الذي يستبد بي، فإنني لم أحبها ولم أحترمها قط، بل إنني لم أكن أكاد أعرفها، أو أطمئن إلى وجود فضيلة واحدة في طبيعتها، أو ألمس في عقلها أو خلقها شيئًا من الخفر أو الأريحية أو الصراحة أو التهذيب.. وتزوّجتها مع ذلك، فكم كنت أبله حقيرًا قصير النظر! أما أمها فإنني لم أرَها، وفهمت أنها كانت ميتة، فلما انقضى شهر العسل أدركت خطئي. إذ علمت أن الأم مجنونة في مستشفى المجاذيب، وأن لزوجتي كذلك أخًا يصغرها أبله تمامًا، أما أخوها الكبير - الذي رأيته - فسوف يلقى على الأرجح المصير نفسه يومًا ما، ولكني لا أستطيع أن أكرهه، وإن أبغضت كل أقاربه، بسبب ما كان يظهر لأخته من حب يتبدَّى في اهتمامه بهذه

البائسة المنكودة، وبسبب أنه كان يلازمني كثيرًا ملازمة الكلب لصاحبه. وكان أبي وأخي رولاند يعرفان ذلك كله، ولكن تفكيرهما كان مقصورًا على الثلاثين ألف جنيه، فاشتركا في المؤامرة التي دُبِّرت ضدي !

واستطرد قائلًا: «هكذا انكشفت لي الحيلة الخسيسة الدنيئة.. ولولا طريقة إخفاؤها عني ما جعلتها موضوعًا لتأنيب زوجتي وتقريعها، حتى بعد أن وجدت طباعها تتنافى مع طباعي، وميولها تتباين مع ميولي، وعقلها ضيق الأفق يستحيل التسامي به إلى ما هو أفسح من رقعته المحدودة. ووجدت أنني لا أستطيع أن أقضي معها أمسية واحدة، بل ساعة واحدة من النهار، في راحة وسلام، وأنه لا سبيل إلى أن نتبادل الحديث معًا، لأنني كنت إذا بدأت الكلام في موضوع ما، تلقَّت هي حديثي بفظاظة وخشونة وغباء، ووجدت ألّا سبيل لي في منزلي إلى هدوء أو استقرار.. بل إن خادمًا واحدًا لم يقوَ على احتمال ثورتها العنيفة وطباعها البلهاء وأوامرها السخيفة المتناقضة التي كانت تفرضها فرضًا. وحاولت أن أكبح عواطفي، وأن أتجنَّب التقريع والتوبيخ، فأوجزت في احتجاجاتي، وحاولت أن أطوي صدري على ما كان ينتابني من ندم وتقزّز، وكتمت ما كنت أحس به من كراهية وبغضاء .

وصمت للحظات، ثم أكمل: لست أريد يا جين أن أثقل عليك بالتفاصيل المقيته، بل تكفي بضع كلمات قوية للتعبير عمَّا أريد قوله، فقد عشت مع المرأة التي بالطابق العلوي أربع سنوات ذقت منها خلالها الأمرَّين. إذ تغيّرت طباعها بسرعة عجيبة مخيفة، وتجلَّت رذائلها بقوة لا تجدي معها غير القسوة التي لم أشأ أن أعمد إليها. كانت قزمة في عقليتها، عملاقة في نزواتها ونزعاتها الشريرة التي جرَّت عليَّ أبشع اللعنات.. أجل، إن برتا ميسون ابنة صادقة لأم مجنونة. وقد جلبت عليَّ كل ألوان العذاب المقيت المهين الذي يلاحق أي رجل أوثق برباط مع زوجة مختبلة العقل، سكيرة، وغير عفيفة !

وفي تلك الأثناء توفِّيَ أخي الأكبر، وفي نهاية السنوات الأربع مات والدي كذلك، فأصبحت غنيًا. ولكن ما كان أشد فقري - في الحقيقة والواقع - بمعاشرة هذه المخلوقة البغيضة التي باتت شريكتي في الحياة، والتي يعتبرها القانون والناس جزءًا مني، ولم يعد في وسعي أن أتخلَّص منها بأية وسيلة شرعية. إذ كان الأطباء قد اكتشفوا إذ ذاك أنها مجنونة! أنت غير مرتاحة إلى قصَّتي يا جين. إذ أرى على وجهك دلائل الامتعاض، فهل تحبين أن أؤجل البقية إلى يوم آخر؟ ».

- «كلا يا سيدي، أتممها الآن.. إنني أرثى لك.. أرثى لك حقًا !».

- «إن الرثاء من بعض الناس يا جين عاطفة مهينة مزرية، يجدر بالمرء أن يرميها في وجوه من يقدمونها، إذ إنها وليدة قلوب مليئة بالحقد والأنانية، وإنه لما يدعو إلى الألم أن يسمع الإنسان كيف تقابل ويلات الناس ونكباتهم بالإزدراء الذي يُعبَّر عنه برثاء بغيض ينصب على رؤوس من احتملوا وقاوموا! أما رثاؤك لي يا جين فمن نوع آخر أراه يرتسم على وجهك ويلتمع في عينيك وينبض به قلبك، وترتعد له يدك وهي في يدي... إن رثاءك يا حبيبتي منبعث من قلب طاهر كقلب الأم المضناة، فلا يسعني سوى أن أتقبله يا جين، وأفتح صدري !»

- «استمر يا سيدي. ماذا فعلت عندما وجدت أنها مجنونة؟ ».

- «كنت على شفا هوة اليأس والقنوط يا جين. ولم يحل بيني وبينها سوى بقية من احترام للنفس. نعم، كنت ملطَّخ الشرف في أعين الناس، ولكني أصررت على أن أكون نقيًا في عيني نفسي. وأن أنأى عن دنس جرائم هذه المرأة وأن أبتعد عن عيوبها ونقائصها العقلية.. وبرغم ذلك ظل المجتمع يقرن اسمها باسمي، وظللت أراها وأسمع صوتها وأتنفَّس الهواء المشبَّع بأنفاسها - والعياذ بالله - كما أنني لم أنسَ أنني كنت يومًا زوجها، وإن كانت هذه الذكرى - وما تزال - بشعة مقيتة إلى درجة لا تُوصف! وفضلًا عن هذا فإنني كنت أدرك أن ليس بوسعي أن أكون زوجًا لزوجة أخرى أفضل، ما دامت هي على قيد الحياة. ومع أنها تكبرني بخمس سنوات - فقد كذبت أسرتها وأبوها حتى في ما يختص بسنها - إلّا أنها من المحتمل أن تعيش قدر ما أعيش، لأنها أوتيت من قوة البنية بقدر ما لديها من خبَل. وهكذا وجدتني في السادسة والعشرين من عمري بلا أمل في الحياة !.

«وحدث ذات ليلة أن استيقظت على صرخاتها، إذ كنا قد حبسناها بطبيعة الحال، مذ قطع الأطباء بجنونها.. وكانت ليلة من ليالي جزر الهند الغربية النارية، كما يصفون الطقس الذي يسبق العواصف هناك! وإذ عز عليَّ أن أعود للنوم، غادرت فراشي وفتحت النافذة. ولكن الهواء كان أشبه بعيون كبريتية، فلم أجد في ما كان حولي ما ينعش النفس. وأقبل البعوض يطن في عناد ويحوم في الحجرة. وتناهى إلى سمعي هدير البحر مكتومًا، وقد انعقدت السحب القاتمة. وانحدر القمر إلى المغيب بين الأمواج، فبدا عريضًا محمرًا كقنبلة انطلقت من مدفع، وراح يرنو بنظرة دموية أخيرة للعالم الذي كان يرتجف أمام العاصفة المقبلة! وأثّر الجو والمنظر في نفسي، كما امتلأت أذناي بالشتائم التي كانت المجنونة ما تزال تصرخ بها، والتي كانت تخلطها من آن لآخر باسمي في لهجة حاقدة بشعة، وفي تعبيرات وقحة تأبى أن تفوه بها عاهرة! وكانت كل كلمة تتناهى إلى مسمعي وإن فصلتني عنها حجرتان. إذ إن

الجدران في بيوت الهند الغربية رقيقة، لا تحجب مثل تلك الصرخات الشبيهة بعواء الذئب. وأخيرًا قلت : "إن هذه الحياة جحيم.. فهذا هواء جهنم، وهذه هي الأصوات التي تنبعث من جوفها الذي لا قرار له! إن من حقي أن أتخلّص منها إذا استطعت، فإن آلام هذه الحال القاتلة ستخنق روحي.. إنني لا أخشى الجحيم المقيم الذي يؤمن به المتعصِّبون، فليس من مصير أسوأ من حياتي الراهنة.. لأتخلَّص مما أنا فيه، ولأطلق روحي لبارئها !".

قلت ذلك وأنا أجثو على ركبتي بجوار حقيبة مفتوحة مليئة بمسدسات محشوّة بالرصاص. وكنت قد عزمت على الإنتحار، ولكن هذه الفكرة لم تتملكني سوى لحظة واحدة عاد بعدها صوابي ليتغلَّب على رغبتي في القضاء على نفسي.. وإذ ذاك هبت رياح منعشة من ناحية أوروبا، ثم انسابت من المحيط إلى الحديقة. وثارت العاصفة وأرعدت وتوهَّجت، ثم صفا الهواء، وعندئذ رسمت خطة وعوَّلت على قرار.. فبينما كنت أتمشَّى تحت أشجار البرتقال في الحديقة المبلَّلة، وبين أشجار الرمان والأناناس، والفجر من حولي يضئ الأقاليم الاستوائية، فكرت يا جين، فاصغي لما ساورني، لأن الحكمة هي التي حملت إليّ العزاء في تلك الساعة، وهي التي هدتني إلى الطريق الصحيح الذي يجب أن أسلكه .

وكانت الرياح المنعشة القادمة من أوروبا ما تزال تهمس بين أوراق الشجر التي انتعشت، والمحيط الأطلسي يهدر في انطلاق بديع. وما لبث قلبي الذي طال جفافه واحتراقه أن تحرك لتلك الأنغام، وامتلأ بدم حيّ، كما تاق كياني للتجديد وتعطَّشت روحي إلى هواء نقي، ورأيت الأمل ينبعث، وشعرت بأن تجدد القلب سهل ميسور. ومن خميلة مزهرة في نهاية الحديقة، رحت أتطلَّع إلى البحر الذي كان يفوق السماء زرقة. فرأيت العالم القديم بعيدًا وقد تفتَّحت أمامي الأماني هكذا :

«حدثني الأمل قائلًا : "اذهب وعِش في أوربا، حيث لا يعرف أحد أي اسم ملطَّخ تحمله، ولا أي عبء قدر جثم على كاهلك. وفي وسعك أن تأخذ المجنونة معك إلى إنجلترا حيث تحبسها في ثورنفيلد وسط رعاية واحتياطات شديدة، ثم ارحل حيث شئت واتخذ لنفسك الحياة التي تروق لك وتحبها، لأن المرأة التي دنَّست اسمك ولطَّخت شرفك وقضت على زهرة شبابك ليست زوجتك، ولست أنت زوجها. ويكفي أنها تلقى من العناية بحسب ما تتطلبه حالها، وأنك فعلت كل ما يتطلبه منك الله والإنسانية. أما حقيقتها وعلاقتها بك فأمران يجب أن يُطويا في سجلات النسيان، فلا ترو لأحد قصتهما.. ولتدعها في أمان وتستَّر على هوانها، ثم غادرها إلى الأبد !».

وعملت بهذا الاقتراح بكل دقة. ولم يكن أبي وأخي قد أذاعا خبر زواجي بين معارفهما، لأنني ألححت عليهما، في أول خطاب أرسلته بعد زواجي، أن يكتما خبر هذه الرابطة بعد أن بدأت أستشعر التقزز البالغ منها ومن عواقبها. وبعد أن رأيت على ضوء الأسرة التي صاهرتها وحالها وطباعها أي مستقبل بغيض كان ينبسط أمامي. ولم يلبث نبأ المرأة المخبولة المبتذلة التي اختارها أبي زوجة لي أن تناهي إليه، فأصبح وجهه يتضرج بدماء الخجل لانتسابها إليه، وأصبح أكثر مني رغبة في كتمان أمرها !

نقلتها إذن إلى انجلترا. وما كان أفظع الرحيل مع هذه الوحشة في سفينة واحدة! وكم ابتهجت نفسي عندما بلغت بها ثورنفيلد، فوضعتها في الغرفة الخفية التي بالطابق الثالث، والتي اتخذتها هذه «الحيوانة» الكاسرة عرينًا لها عشر سنوات طوال، تحت رعاية جريس بول وإشرافها.. فهذه المرأة والجراح الدكتور كارتر - الذي ضمَّد جراح ميسون - هما الوحيدان اللذان أطلعتهما على هذا السر الرهيب. ولعل مسز فيرفاكس قد استرابت في الأمر، ولكنها لا تدري شيئًا عن الحقيقة. وعلى الرغم من أن جريس قامت بمهمتها في الحراسة على أكمل وجه، إلّا أنه حدث بسبب غلطة ارتكبتها - وإن نغصت عليها صفو مهنتها - أن يقظتها تراخت أكثر من مرة. وتلك المجنونة ماكرة بقدر ما هي شريرة مؤذية، فلذلك لم يفتها أن تنتهز غفلة من حارستها، فحصلت على ذلك الخنجر الذي طعنت به أخاها. كما سرقت المفتاح مرتين في أثناء الليل، في الأولى حاولت أن تحرقني في فراشي، وفي المرة الثانية زارتكِ تلك الزيارة الرهيبة. وإني لأشكر العناية الإلهية أن صانتك فاقتصرت المجنونة على أن تصب جام غضبها على خمار زفافك.. إذ إنه لا بد قد أعاد إليها ذكريات غامضة عن أيام عرسها. ولست أحتمل مجرَّد تصور ما كان يُحتمل أن يحدث! إن الدم ليجمد في عروقي حين أفكر في الوحش الذي انقضّ هذا الصباح على عنقي، وخيم بطلعته القرمزية القاتمة على عش حبي ».

وعندما توقف سألته :

- «وماذا فعلت يا سيدي بعد أن جئت بها إلى هنا؟ إلى أين ذهبت؟ ».

- «ماذا فعلت يا جين؟ تحوَّلت إلى طيف.. إلى سراب! وإلى أين ذهبت؟ رحت أتجوَّل كالأرواح الهائمة.. سعيت إلى أوربا ورحت أضرب في مناكبها، وأطوف بلدانها، وقد وضعت نصب عينيَّ أن أبحث عن امرأة طيبة ذكية أستطيع أن أهيم بها حبًا، وتكون على نقيض تلك الشيطانة التي تركتها في ثورنفيلد ».

- «ولكنك لم تكن تملك أن تتزوج يا سيدي ».

- «كنت قد قرَّرت ذلك وأقنعت نفسي بأن في وسعي أن أتزوَّج.. بل أقنعت نفسي بأن من الواجب أن أتزوَّج. ولم يكن في نيتي أن أخذع أحدًا كما خدعتك، بل كنت أعتزم بسط قصتي في بساطة وعرض مقترحاتي في صراحة. وبدا لي أن من المعقول جدًا أن يعتبرني حرًا في أن أحب وأن أحظى بالحب. ولم أشك في وجود امرأة تستطيع فهم قضيتي. فتقبلني زوجًا على الرغم من اللعنة التي تثقل عاتقي ».

- «وبعد ياسيدي؟ ».

- «إن فضولك يا جين يحملني على الابتسام، إذ تفتحين عينيك كطائر متلهِّف، وتند منك بين الحين والآخر حركة تنبئ عن قلق، وكأن المعلومات التي يزخر بها حديثي لا تكفيكِ، فأنت تودين، بسرعة، أن تعرفي قرارة قلبي.. ولكن قبل أن أسترسل في الحديث، خبِّريني: ما الذي تعنيه بعبارة "وبعد يا سيدي؟ ". إنها عبارة صغيرة منك، ولكنها طالما استدرجتني إلى حديث لا ينتهي، ولا أدري السبب في ذلك ».

- «إنما أعني: ماذا بعد ذلك؟ كيف سرت في طريقك، وماذا نجم عن مثل هذا الحادث؟ ».

- «تمامًا! وما الذي ترغبين في معرفته الآن؟ ».

- «هل وجدت من أحببتها، وهل طلبت إليها أن تتزوجك، وماذا قالت؟ ».

- «في وسعي أن أجيب عن: هل وجدت من أحببتها، وهل طلبت إليها أن تتزوجني.. أما ما قالته فسيدوَّن في سجلّ القدر. فلقد قضيت عشر سنوات أهيم هنا وهناك، أعيش فترة في عاصمة، ثم أغادرها إلى غيرها.. فأنا حينًا في سانت بطرسبرج، وحينًا في باريس، وفي روما ونابولي والبندقية. وبفضل ما كنت أمتلك من مال، ومن جواز سفر يحمل اسمًا قديمًا، فقد كان بوسعي أن أختار الوسط الذي أريد، إذ لم يكن أي وسط يغلق أبوابه في وجهي. فرحت أبحث عن زوجة نموذجية بين السيدات الإنجليزيات، والكونتيسات الفرنسيات، والسنيورات الإيطاليات، والجرايفينات الألمانيات، دون أن أهتدي إلى ضالتي. وكان يُخيَّل إليَّ أحيانًا - لفترة عابرة - أنني لمحت نظرةً وسمعت صوتًا ورأيت قوامًا يحقق حلمي، ولكني كنت لا ألبث أن أثوب إلى رشدي! لا تحسبي أنني كنت أنشد الكمال سواء في العقل أو الجمال، ولكني كنت أتلهَّف فقط على من تلائمني، وتكون على نقيض هذه الخلاسية. وعبثًا حاولت، إذ لم أجد بينهن من يمكن أن أسألها أن تتزوجني لو أتيحت لي الحرية، بعد كل ما عانيت من المخاطر والأهوال والخوف من الأواصر التي لا تتلاءم معي. وجعل اليأس مني

شخصًا مستهترًا فحاولت الانغماس في الملذّات.. وليس في الفسق، فإنني كنت أكرهه وما زلت أكرهه! وكانت كل متعة فيها صخب تقربني من المرأة التي كنت أهرب منها، ومن ثم كنت أسارع إلى تجنبها! ومع ذلك فإنني لم أستطِع العيش بمفردي فجرَّبت معاشرة الخليلات، وقع اختياري أولًا على سيلين فارنس، وهذه خطوة تجعل المرء يحتقر نفسه كلما تذكرها، وأنت تعرفين ماذا كانت وكيف انتهت صلتي بها. وأعقبتها اثنتان: إحداهما إيطالية تُدعى جياشينتا، والأخرى ألمانية تُدعى كلارا. وكانت كل منهما آية في الجمال، ولكن ما الذي صار إليه جمالهما في عيني بعد بضعة أسابيع؟ كانت جياشيتنا امرأة عنيفة، وضيعة الأخلاق والمبادئ، فسئمتها بعد ثلاثة أشهر، بينما كانت كلارا أمينة وهادئة، ولكنها كانت ثقيلة بلا عقل ولا عاطفة. كما أنها كانت لا تثير شعرة في جسدي، فاغتبطت بأن أمنحها مبلغًا كبيرًا يكفل لها العيش الرغد، وهكذا تخلَّصت منها برفق! ولكني أرى من تعبيرات وجهكِ يا جين أنك لا تأخذين عني الآن فكرة طيبة، فهل تحسبينني وغدًا مستهترًا ولا يتقيد بمبدأ؟ !».

- «إنني لا أحبك بمثل ذلك الحب الغامر.. هذا هو الواقع يا سيدي. أفلا ترى أنه من الخطأ على الأقل أن تحيا بهذه الطريقة: تعاشر هذه العشيقة ثم تلك؟ أراك تتحدث عن هذه الأمور كما لو كانت طبيعية !!».

- «هكذا كنت أحيا. وهذا لا يعني أنني كنت أحب هذه الطريقة! لقد كانت مجرد وسيلة للبقاء في الحياة ولا أحب أن أعود إليها بحال، فإن استئجار محظية هو في عيني بمثابة استرقاق جارية، كلاهما دنيء بطبيعته وبوضعه. وفي العيش مع الأدنياء تدهور وانحطاط، ولذلك فإنني أكره التفكير في الفترة التي قضيتها مع سيلين وجياشيتنا وكلارا !».

وشعرت بصدق هذه الكلمات. واستخلصت منها النهاية الأكيدة. فلو أنني نسيت نفسي والتعاليم التي غُرست في أعماقي، فغدوت مثل هذه الفتيات التعسات - مبررة فعلتي بأي مبرِّر، أو بأي حجة، أو منساقة لأي إغراء - لاستشعر نحوي نفس هذا الشعور الذي يدنّس ذكراهن في ذهنه.. ولم أبح بهذا الاقتناع، مكتفية بأن أشعر به، فكتمته في فؤادي عسي أن يستقرّ فيه ليكون في عوني وقت الضيق !

- «والآن يا جين، لماذا لا تقولين : "وبعد يا سيدي؟ ". إنك تبدين مهدومة وأراكِ ما زلتِ تستنكفين ما فعلت، ولكن دعينا نصل إلى ما أرمي إليه: فقد تخلَّصت في يناير الماضي من كل خليلاتي، إذ تولاني تفكير قاسٍ مرير، نتيجة الحياة غير المجدية. الهائمة، الموحشة، التي نخرها القنوط والخيبة، فإذا بي أشعر

بكراهية بغيضة لكل الناس، لا سيما النساء منهم، لأنني بدأت أعتنق الرأي القائل عن عقل وإخلاص: إن المرأة المحبة المخلصة غير موجودة، وليست إلّا حلمًا من الأحلام! وكانت شؤوني قد أرجعتني إلى إنجلترا. وفيما كنت راكبًا جوادي بعد ظهر يوم شديد البرد من أيام الشتاء، وقد أشرفت على ثورنفيلد هول - هذا المكان البغيض الذي لم أكن أتوقَّع فيه سلامًا ولا هناء - شاهدت في طريق هاي شبحًا صغيرًا يجلس وحيدًا في هدوء، فواصلت السير دون اكتراث مارًا بشجرة الصفصاف القطبية في الاتجاه الآخر دون أن أدري ما سيكون لهذا الشبح من شأن في حياتي، ولا أن ينبهني شيء في قرارة نفسي إلى أن المرأة التي سيكون لها الحُكم الفاصل في حياتي، وإلى أن الجنيَّة التي ستقودني إلى الخير أو إلى الشر، كانت تنظر لي متنكرة في شخصية متواضعة. أجل، لم أفطن لذلك، حتى عندما تقدمَت بكل جدية تعرض مساعدتها لإنهاضي من عثرتي عندما كبا بي جوادي «مسرور».

«كما كانت مخلوقة مهزولة أشبه بالأطفال! لقد خُيِّل إليَّ أنها عصفور وثب عند قدمي وعرض عليَّ أن يحملني على جناحه الصغير! وكنت فظًا. ولكن هذه المخلوقة لم تنصرف بل وقفت أمامي في إلحاح عجيب تتطلع إليَّ وتحدثني فيما يشبه الأمر بأنه عليَّ أن أتقبَّل العون ومن يدها بالذات.. وفعلًا عاونتني.. وما إن ضغطت على كتفها الهزيلة، حتى تسرَّب إلى جسمي إحساس جديد.. ثم طبت نفسًا عندما علمت أن هذه «القزمة» على صلة بمنزلي، وبالتالي سأراها.. ولولا ذلك ما تركتها تمضي في سبيلها وتختفي وراء السياج القاتم دون ندم غير عادي! ثم سمعتك تعودين إلى المنزل في تلك الليلة يا جين، وإن لم يخطر ببالك أنني كنت أفكر فيك أو أرتقب عودتك. وفي اليوم التالي، لاحظتك خفية نحو نصف ساعة وأنت تلعبين مع أديل في الدهليز، إذ كان اليوم بارد والجليد يتساقط، فلم يكن في وسعكما الخروج.. ولقد شغلت أديل اهتمامك برهة، ومع ذلك فقد خُيِّل إليَّ أن أفكارك كانت تهيم في مكان آخر. ولكنك كنت بالغة الصبر في معاملتك لأديل يا صغيرتي جين، فظللت تحدثينها وتسلّينها طويلا.. حتى إذا غادرتك الطفلة في النهاية، غرقت على الفور في لجة عميقة من أحلام اليقظة، ورحت تذرعين الدهليز بخطوات بطيئة، وكنت بين الفينة والأخرى - كلما مررت بالنافذة - تطلّين على الجليد الكثيف المتساقط وتصغين إلى نحيب الرياح. ثم تعودين إلى ذرع الدهليز وأنت سادرة في أحلامك! وأغلب الظن أن أحلام اليقظة تلك لم تكن قائمة، لأن عينيك كانت تشعان بسرور واغتباط، وكانت انفعالاتك تتجلّى على أساريرك ناعمة، لا تدل على شعور بمرارة أو اكتئاب أو وسوسة.. كانت نظرتك تشي بأفكار الشباب الحلوة التي تحلق مع الروح على أجنحة الأمل إلى سماء المُثُل العالية. وأخيرًا، أفقت من أحلامك على صوت مسز فيرفاكس تنادي إحدى الخادمات، وبالابتسامة التي ابتسمتها يا جانيت إذ ذاك لنفسك.. كانت ابتسامة

تزخر بالمعاني.. ابتسامة أريبة تلقي ضوءًا على شرود أفكارك، وكأنها تقول: «إن أحلامي لذيذة للغاية، ولكن يجب ألّا أنسى أنها مجرد أوهام خيالية.. إن في رأسي جنة نضيرة الأزهار وسماء وردية اللون، ولكن أمامي طريقًا وعرًا، وحولي تتجمَّع العواصف السود.. ثم أسرعت تهبطين الدرج إلى الطابق السفلي، وطلبت إلى مسز فيرفاكس نوعًا من العمل لعله الحساب الأسبوعي لنفقات القصر أو شيء من هذا القبيل، فاستأت أنا لاختفائك عن عيني !

وترقَّبت المساء في صبر نافذ، لأدعوك إلى حضرتي. فقد شككت في أن تكون لك طباع غير عادية ولا قبل لي بها. فأردت أن أسبر غورها وأتعرَّف عليها جيدًا. ورأيتك تدخلين الحجرة بمظهر جمع بين الحياء واستقلال الشخصية، كما أنكِ كنتِ في ثياب عجيبة كما أنت الآن.. واستدرجتك إلى الكلام، فسرعان ما وجدتك مشحونة بالمتناقضات العجيبة: فقد كانت ثيابك وطباعك تخضع لقيود شديدة، وكان مظهرك ينم في أغلب الأحيان عن خفر وحياء، ولكنه في مجموعه كان يدل على أنك مثقفة، وغير مختلطة بالمجتمع.. كنت شديدة الخوف من التعرُّض بلا داع إلى الهراء والأخطاء، ولكنك - إذا ما وُجّه إليك حديث - كنت ترفعين إلى وجه محدثك عينًا حادة جريئة متألِّقة، وظهر في كل لمحة من لمحاتكِ أنكِ ذات سلطان ينفذ إلى أعماق محدّثك، فإذا ضيق عليك الأسئلة جاءت ردودك حاضرة سديدة.. وسرعان ما ألفتني وأعتقد أنك شعرت بالتجاوب بينك وبين مخدومك المتجهِّم العبوس يا جين. لأن ثورتك كانت تخبو لأقل تهدئة من ناحيتي. ولأنك لم تعجبي بما أتصف به من عبوس وفظاظة، ولم تخافي ولم تجزعي ولم تستائي لشراستي، بل كنت ترمقينني وتبتسمين من حين إلى آخر ببساطة تجلّ عن الوصف، فقنعت بما رأيت ورضيت بما شاهدت وتمنيت المزيد، ولكن ظللت لمدة طويلة أعاملك معاملة ترمي إلى إقصائك، فلم أسع للاختلاط بك إلّا فيما ندر، لأنني أردت أن أطيل حبل القصة من جهة، ولأنني خشيت من جهة أخرى أن تذبل الزهرة إذا أكثرت من تداولها، فتضيع رائحتها الساحرة.. وما كنت أعرف وقتذاك أن ازدهارها ليس زائلا، وإنما هو إشراق دائم كتألق الجوهرة لا يتلاشى ولا يمَّحي. هذا إلى أنني أردت أن أعرف ما إذا كنت تنشدين رؤيتي إذا تجنبتك، ولكنك لم تحفلي بي يا جين وظللت تلازمين حجرتك، فإذا التقيت بي عرضًا واتفاقًا، لم تظهري نحوي إلّا ما يفرضه عليك واجب الاحترام .

وكانت أساريرك العادية في تلك الأيام يا جين تنم عن التفكير العميق. ولم تكن شاحبة، لأنك لم تكوني تعانين إذ ذاك همًا ولا قنوطًا.. وكذلك لم تكن متهللة، إذ كانت آمالك قليلة بسيطة ولم تكن في حياتك غبطة حقيقية.. ولقد ساءلت نفسي عما جال بخاطرك عني، وعما إذا كنتِ قد فكرتِ لحظة بي.. ولكي أتبين ذلك ظللت أراقبك، فإذا في نظراتك شيء من الفرح، وفي تصرفاتك ما

ينم عن سماحة، وفي حديثك ما يكشف عن قلب ودود. وما كان حزنك سوى ضجر تولّد عن حجرة الدراسة الساكنة، وعن الحياة الرتيبة، الجامدة! وتركت نفسي تنعم بمعاملتك بالحسنى. وسرعان ما تحركت عواطفك بهذه الشفقة ولانت أساريرك ونبراتك.. وأصبحت أحب سماع اسمي تنطق به شفتاك بلهجة تشف عن الامتنان والسعادة، كما اعتدت أن أتحين الفرص للقائك في تلك الأيام يا جين، ورأيتك في حيرة. وشاهدت قلقًا في نظراتك، إذ لم تكوني تدرين هل سأمثّل معك دور السيد فأعاملك بشدة وحزم، أو أنني سأتخذ دور الصديق فأبدي لك الود والعطف.. ولكنني كنت قد أصبحت متيّمًا في هواك إلى درجة حالت دون أن أقوم إزاءك بالدور الأول. فكنت إذا مددت إليك يدي في وِدّ، تهلّل وجهك الصغير وتورَّدت أساريرك المشتاقة حتى أصبحت أجد عناء كثيرًا في منع نفسي من أن أضمك إلى صدري ».

فقاطعته وأنا أكفكف دموعي خلسة: «لا تحدِّثني مرة أخرى عن تلك الأيام يا سيدي!». فلقد كانت كلماته تعذِّبني، لأنني كنت قد عرفت ما يجب أن أفعله.. وأن أفعله بسرعة، ومن ثم فقد كانت تلك الذكريات والاعترافات تزيد في صعوبة مهمتي. وأجابني قائلًا: «كلا يا جين.. لا ضرورة إلى التحدث عن الماضي إذا كان الحاضر أكثر منه أمنًا، والمستقبل أكثر إشراقًا وتألقًا !».

وارتجفت لهذا التأكيد الذي يدل على أنه رجل مسلوب القلب. ولكنه استرسل يقول: «ها أنتِ ذي قد رأيتِ قضيتي.. أليس كذلك؟ فبعد شباب ورجولة انقضيا في بؤس لا يُوصف ووحدة موحشة. عثرت على ضالتي المنشودة، والتقيت بمن أستطيع أن أحبها حبًا صادقًا.. عثرت عليكِ أنتِ.. أنتِ عاطفتي وذاتي الفضلى وملاكي الرائع! وإني لمرتبط بكِ برباط قوي، وأراكِ فتاة طيبة موهوبة مليحة، وأحمل لكِ في قلبي حبًا عاتيًا يهفو إليكِ ويجتذبكِ إلى سويدائي وإلى منبع حياتي، ويدفع وجودي إلى أن يلتف حولكِ، وإلى أن يشتعل في لهيب صاف مشبوب بصهرك وإياي في كيان واحد! كان شعوري هذا ومعرفتي هذه سر إصراري على أن أتزوَّجك. وإذا قلت لك الآن أن لي زوجة فإن هذا القول يعد سخرية فارغة، لأنك تعلمين أنها شيطانة لا زوجة! لقد أخطأت فعلًا في إخفاء هذه الحقيقة عنك، وعذري أنني كنت أخشى ما أعهده من عناد في أخلاقك.. إنه جبن مني بلا ريب، فقد كان عليّ أن أبسط لك قضيتي كما بسطتها الآن، ثم أتوسل إلى نفسك النبيلة وإلى كرم أخلاقك، ثم أكشف لك بصراحة عن تاريخ حياتي المعذَّبة وأصف لك مدى جوعي وعطشي إلى حياة أسمى وأفضل.. حتى إذا ما أبديت لك عزمي الذي لا ينثني على أن أحب وأخلص حينما أجد الحب والإخلاص، كان لي أن أسألك أن تبادليني العهد على الوفاء.. فهلّا عاهدتني يا جين؟ ».

وران السكون بيننا لحظة قال بعدها: «لماذا تسكتين يا جين؟ ».

وكنتُ أعاني عذابًا مضنيًا، وكأنما راحت تعتصر أحشائي قبضة من حديد ملتهب.. كانت لحظة عصيبة زخرت بالصراع والظلام والاحتراق! ما كان في الدنيا إنسان يهفو إلى أن يلقى من الحب ما كنت ألقى.. وكنت أعبد هذا الذي يحبني عبادة مطلقة، ولكن واجبي كان يحتم عليَّ أن أنبذ هذا الحب وهذا المعبود! كان كل واجبي ينحصر في كلمة واحدة، بغيضة.. الرحيل !.

وعاد يسألني: «أتفهمين يا جين ما أريده منك؟ لا أريد سوى هذا الوعد: سأكون لك يا مستر روشستر !».

وقلت له: «بل إنني لن أكون لك يا مستر روشستر !».

وران سكون مطبق آخر، قبل أن يستأنف السيد حديثه بصوت رقيق انفطر له قلبي، وأحالني كالحجر البارد لفرط الإشفاق والهلع. فقد بدا كصوت أسد يلهث وهو يقول :

- «أتعنين يا جين أنك ستتخذين لك في هذا العالم طريقًا غير طريقي؟ ».

- «نعم أعني ذلك ».

فانحنى عليَّ وضمَّني إلى صدره، ثم عاد يقول :

- «وهل ما زلت تعنينه الآن؟ ».

- «نعم أعنيه ».

فطبع قبله رقيقة على وجنتي وجبيني ثم قال: «والآن ».

فبادرت إلى انتزاع نفسي تمامًا من أحضانه وقلت: «نعم أعنيه !».

- «أواه يا جين.. هذه قسوة! هذا شر! هل من الشر أن تحبيني؟ ».

- «بل من الشر أن أطيعك ».

فارتفع حاجباه عن نظرات شرسة توهَّجت على أساريره. ثم نهض من مكانه. ولكنه تجلَّد بينما اتكأتُ بيدي على ظهر أحد المقاعد خشية السقوط، وقد ارتجف جسمي واستبد بي الخوف. ولكنني ظللت مصرة على ما اعتزمت،

فقال: «لحظة واحدة يا جين.. القي نظرة واحدة على حياتي البائسة قبل أن تذهبي. إنك تأخذين معك كل سعادتي. فماذا يتبقَّى لي بعدها؟ ليس إلّا تلك المجنونة بالطابق العلوي. جثة أشبه بالجثث المدفونة في فناء الكنيسة، فماذا أفعل يا جين؟ وأين أنشد الرفيق؟ وأي أمل يبقى لي في الحياة؟ ».

- «أفعل مثلي: ثق في الله، وفي نفسك، وآمن بالسماء، وتمسك بالأمل في أن نلتقي فيها !».

- «إذن لن ترضخي؟ ».

- «كلا ».

فقال بصوت مرتفع :

- «إذن فأنت تقضين عليَّ بأن أعيش شقيًا وأن أموت ملعونًا؟ ».

- «بل أنصحك بأن تعيش بلا خطيئة، وأتمنى لك أن تموت في هدوء وسلام !».

- «إذن فأنت تنتزعين مني الحب والبراءة، وتردّينني إلى الشهوات والرذيلة؟ ».

- «أنا لا أحملك على مثل هذه الحياة يا مستر روشستر، اللهم إلّا إذا كنت أرتضيها لنفسي.. إنما ولدنا لكي نصارع ونحتمل.. هذا مصيرك ومصيري. وسوف تنساني قبل أن أنساك !».

- «إنك بهذه الكلمات تصمينني بالكذب والرياء. وتستهينين بشرفي. لقد صارحتك بأني لن أجد لي رفيقًا غيرك، ولكنك تواجهينني بأنني لن ألبث أن أتغيَّر فأنساكِ.. ألا ما أقسى حكمك، أيكون دفعي نحو اليأس والقنوط خير من مخالفة قانون بشري؟ مخالفة لن تؤذي أحدًا، فأنتِ بلا أقارب أو معارف تخشين غضبهم إذا ما عشت معي !».

كان هذا صحيحًا.. وكان ضميري وعقلي قد تألّبا ضدي، واتهماني بأنني أجرم في حقه إذ أقاومه. وصاح شعوري عاليًا بدوري: «أواه! أخضعي! فكري في شقائه.. فكري في الخطر الذي يتهدده. فكري في حاله عندما تغادرينه وحيدًا.. تذكري اندفاعه وتهوّره في حبكِ، وفكري في ما قد يجره عليه اليأس.. هيا خففي عنه وانقذيه.. أخبريه بأنك تحبينه وأنك ستكونين له.. من ذا الذي يهتم بك في العالم غيره، ومن الذي يضيره ما تفعلين؟ ».

ورغم ذلك، فقد ظل الجواب الذي لا يُغلَب ولا يُقهر: «سأعنى بنفسي.. وكلما بقيت في عزلة وبلا صديق أو عائل، زدت احترامًا لنفسي وتمسكًا بالشرائع التي سنّها الله وأقرَّها البشر: نعم، سأتمسَّك بالمبادئ التي أعتنقها وأنا في سلامتي العقلية، ليس وأنا مخبولة بانفعالاتي كما أنا الآن، فإن قيمة الشرائع والمبادئ ليست في الأوقات التي تخلو من الإغراء، وإنما هي في مثل هذه اللحظات التي يتمرَّد فيها الجسد والروح على صرامة تلك المبادئ والشرائع. فهي صارمة حقًا، ولكنها ستظل مصونة حصينة. وإذا كان في وسعي أن أنتهكها لمصلحتي، فأي قيمة لها إذن؟ إن لها قيمتها كما كنت أعتقد دائمًا، فإذا كففت عن الاعتقاد الآن، فما ذلك إلّا لأنني مجنونة.. مجنونة بسبب النار التي تسري في شراييني، وبسبب نبضات قلبي التي لم أعد أقوى على ملاحقتها وإحصائها.. لم يبقَ لي الآن سوى الوقوف بجانب الآراء القديمة والإرادة السابقة، وسوف أقف عندها لا أريم ولا أتحرَّك؟ ».

وقد فعلت ذلك! ورأى مستر روشستر مما ارتسم على أسارير وجهي أنني اعتزمت ذلك.. وكان غضبه قد بلغ الذروة فعوَّل على أن يهدِّئ من سورته مهما حدث، ولذلك عبر الحجرة وأمسك بذراعي ثم أمسك بخصري وراح يصليني بنظراته الملتهبة، فشعرت في تلك اللحظة بعجزي الجسدي، ولكني بقيت محتفظة بقواي العقلية. وأحسست بأنني لذلك في مأمن تام وسلامة كاملة.. ومن حسن الحظ أن العين تترجم ما يدور بالنفس ترجمة أمينة دون أن تدري، وكنت قد رفعت عيني إلى عينه، وفيما كنت أتفرَّس في وجهه الثائر، ندت عن صدري زفرة - برغمي - إذ كان يشد بقوة على خصري. ووجدت قواي تخور فقال وهو يصرف على أسنانه: «ما رأيت في حياتي قط مخلوقة كهذه.. غاية في الضعف، وغاية في الصلابة! إنها لتبدو في يدي مجرّد قصبة!». وهزَّني بقوة وهو يقول: «إنني أكاد ألويها بين إصبعي وإبهامي، ولكن أي نفع أجنيه إذا أنا لويتها أو حطمتها أو سحقتها؟ أنظر إلى هذه العين! تأمّل النظرة العنيدة، النافرة، المنطلقة.. إنها تتحدَّاني بشيء يفوق الشجاعة.. بشعور بالنصر المؤزَّر! كأني بهذا الجسد الهش قفص يضم روحها.. ولكني لن أستطيع، مهما أفعل بهذا القفص، أن أصل إلى هذه المخلوقة المتوحِّشة الجميلة! لو أنني مزَّقت أو هشَّمت هذا القفص الضئيل، فلن يؤدي هياجي إلّا إلى انطلاق الطائر الأسير.. إنني قد أقتحم هذا المأوى، ولكن ساكنته ستفر إلى السماء قبل أن تصل إليها يداي. إنك أنت أيتها الروح بما أوتيت من قوة وفضيلة وطهارة، هي كل ما أنشد، فلا حاجة لي بهيكلك الهشّ.. إن في وسعك أن تأتيني طواعية وأن تحطِّي على صدري كعصفور، أما إذا أمسكت بك رغم أنفك فسوف تروغين من قبضتي مثل الأثير، وسوف تختفين قبل أن أنهل من عبيرك؟ أواه.. تعالي يا جين.. تعالي !».

ثم أطلقني من قبضته وراح يتأملني بنظرة أشد إيلامًا للنفس من قبضته. ولكني وجدت من الحمق والغباء أن أستسلم الآن بعد أن جرؤت وقاومت ثورته في عنفوانها، فتراجعت إلى الباب ولكنه صاح: «أذاهبة أنتِ يا جين؟ ».

- «أجل، أنا ذاهبة يا سيدي ».

- «وهل تتركينني؟ ».

- «نعم ».

- «ألا تعودين؟ ألا تكونين لي الأنيسة المنقذة؟ ألا قيمة عندكِ لحبي العميق، وحزني الشديد، وضراعتي الحارة؟ ».

وكان في صوته شجن مكبوت، ولذلك كان شاقًا عليَّ أن أقول في عزم وإصرار: «إنني ذاهبة». فهتف: «جين». فقلت: «مستر روشستر !».

- «اذهبي إذن.. لقد رضيت، ولكن تذكَّري أنك تتركينني هنا لأعاني آلامًا مبرحة. اصعدي إلى غرفتك وفكري في كل ما قلته لك، ثم القي نظرة على شجوني وفكّري فيَّ !».

وانكفأ فوق الأريكة، ثم غمغم بين شفتيه في ألم: «أواه يا جين! يا أملي وحبي وحياتي!». ونهنه باكيًا.. وكنت قد بلغت الباب إذ ذاك، ولكنني عدت أيها القارئ.. عدت بالعزم الذي انسحبت به، فركعت بجواره، وحوَّلت وجهه عن الوسادة نحوي، وقبَّلت وجنته، ومسحت بيدي على شعره، ثم قلت :

- «باركك الله يا سيدي العزيز، وحفظك من كل شر، وعصمك من الخطأ وسدد خطاك، ومنحك السلوان، وجزاك خير الجزاء على ما أنعمت عليَّ به من عطف وحنان !».

فأجابني: «إن حب جين الصغيرة هو خير ما أطمع فيه من جزاء، ومن دونه يتحطَّم قلبي. إلّا أن جين ستمنحني حبها.. نعم ستمنحينه في نبل وكرم!». ثم اندفعت الدماء حارة إلى وجنتيه والتهبت عيناه فوثب واقفًا على قدميه، ومدّ ذراعيه، ولكني أفلتّ من بينهما وغادرت الحجرة على الفور، بينما كمان قلبي يصيح وأنا أتركه: «وداعًا؟». وأضاف اليأس إلى ذلك قوله: «وداعًا.. إلى الأبد !».

لم يطُف بخاطري في تلك الليلة أنني بحاجة إلى النوم، ولكني لم أكد أستلقي على فراشي حتى أخذت سنة من النوم، فانتقلت بي الرؤيا إلى أيام طفولتي،

وحلمت بأنني راقدة في الغرفة الحمراء في جيتسهيد في ليلة حالكة الظلام، وقد استبدت بعقلي مخاوف عجيبة. وانبعث في المنام ضوء المصباح الذي لاح لي عندما كنت حبيسة تلك الغرفة - منذ أمد بعيد - فأذكى خوفي وجعلني أفقد الرشد.. تراءى لي ذلك الضوء وهو ينزلق على الجدران، ويظل يرتعش ويهتز حتى تركَّز على السقف المعتم. وتبعته ببصري فإذا بي أرى السقف يتحوَّل إلى سحب عالية داكنة وقد بدا فيها ذلك النور أشبه بالضياء الذي يخلعه القمر على السحب عندما يهم بتمزيق شملها.. ورحت أرقب ظهور القمر.. رحت أترقَّبه في لهفة عجيبة وكأن مصيري سينطبع على قرصه. وسرعان ما برز بمثل ما لم يبرز قمر من قبل من بين السحب: فقد شقَّت يد طيَّات الغيوم السوداء وأزاحتها بعيدًا، وبدلًا من أن يظهر القمر، بدا شبح آدمي أبيض يلتمع في اللون اللازوردي. فأطلَّ على الأرض بطلعة بهية، وراح يحدِّق فيَّ ويطيل التحديق، ثم خاطب روحي بصوت جد بعيد، ولكنه مع ذلك كان جد قريب، فكأنما كان يهمس في قلبي وهو يقول: «اهربي يا ابنتي من الإغراء!». فهتفت: «سأفعل يا أماه !».

وكرَّرت هذه الإجابة وأنا أصحو من حلمي الذي كان أشبه باستغراقة روحية. وكان الليل لا يزال مرخيًا أستاره، ولكن ليالي شهر يوليو قصيرة، لا تكاد تنتصف حتى يدهمها الفجر. فقلت لنفسي: «ليس الوقت مبكرًا، فلأنهض لأشرع في المهمة التي عليَّ أن أؤديها!». ونهضت، ولم أكن قد خلعت من ثيابي غير حذائي، وكان من اليسير عليّ أن أخرج من أدراجي بعض الثياب، وقلادتي وخاتمي. وفيما كنت أجمع هذه الأشياء عثرت على عقد من اللؤلؤ كان مستر روشستر قد أكرهني على قبوله منذ بضعة أيام، فتركته لأنه لم يكن ملكًا لي وإن كان ملكًا للعروس التي ذابت وتبددت في الهواء! أما أمتعتي الأخرى فقد حزمتها، ووضعت كيس نقودي في جيبي - ولم يكن به سوى عشرين شلنًا هي كل ما كنت أملك - ثم ارتديت قلنسوتي القش وثبتُّ شالي بالدبابيس إلى شعري، وحملت حزمة الأمتعة و "شبشبي " الذي لم ألبسه من قبل. ثم تسللت من الحجرة .

وهمست وأنا أمر بباب غرفة مدبِّرة القصر: «وداعًا يا مسز فيرفاكس الرحيمة! وداعًا يا حبيبتي أديل!». واكتفيت بالتطلع إلى حجرة الطفلة دون أن أجسر على الدخول لأقبل أديل. وكان بودي أن أمضي في طريقي دون توقُّف عندما مررت بحجرة مستر روشستر، ولكن قلبي كف عن النبض لحظةً عندما بلغت عتبة بابها. كما سُمّرت قدماي في مكانيهما.. لم يكن النوم يعمر تلك الغرفة، إذ كان يذرعها في قلق وانفعال، من أحد طرفيها إلى الطرف الأخر، وهو يتنهَّد بين آونة وأخرى. وأرهفت السمع.. كانت هذه الغرفة خليقة بأن تغدو جنتي لفترة من الزمن إذا شئت.. كل ما كان عليَّ، هو أن ألجها وأقول:

«لسوف أحبك يا مستر روشستر، ولسوف أحيا معك حتى الممات!» ثم يفيض على شفتيَّ الفرح.. هكذا خُيِّل إليَّ !

لقد كان هذا السيد الرحيم، الذي لم يقوَ على النوم، ينتظر مطلع النهار بصبر نافد، كي يرسل في طلبي إذا ما أقبل الصباح. ولكنني سأكون قد رحلت.. ولسوف يبحث عني سدى، ثم يشعر بأنني هجرته ونبذت حبه، فيتعذَّب ويتملّكه اليأس.. فكرت في هذا كله أيضًا، ثم امتدت يدي إلى قفل باب السلم ففتحته، ثم تسللت.. وهبطت الدرج في اكتئاب. وكنت أدرك ما ينبغي عمله، ومن ثم رحت أتصرَّف بطريقة آلية، فبحثت عن مفتاح الباب الجانبي في المطبخ، كما بحثت عن قارورة زيت وريشة فدهنت المفتاح والقفل بالزيت، وتناولت بعض الماء والخبز خشية أن يطول بي المسير وتفاديًا للضعف الذي أصبح ينتابني كثيرًا في الفترة الأخيرة. ثم فتحت الباب وخرجت وأغلقته خلفي. ولاحت إذ ذاك تباشير الفجر معتمة في الفناء. وكانت الأبواب الخارجية مغلقة بالمفاتيح، ولكن كوة في أحدها كانت موصدة بالمزلاج فقط. فتسلّلت من خلالها، ثم أغلقتها خلفي هي الأخرى.. وغدوت خارج ثورنفيلد !

كان ثمة طريق على بعد ميل من الحقول، يمتد في الاتجاه المعاكس لميلكوت.. طريق لم أكن قد سلكته من قبل، ولكنني شاهدته مرارًا دون أن أعرف إلى أين كان يفضي، فيممت شطره، وانطلقت فيه، لا أهتم بما خلفي ولا بما أمامي، ولا أتجه بخواطري نحو الماضي ولا نحو المستقبل، فقد كان الأول صفحة سماوية البهاء ولكنها محفوفة بالأسى، يكفي أن أطالع سطرًا واحدًا من سطورها لتذوب شجاعتي وتنهار عزيمتي.. وكان الثاني صفحة مروِّعة أشبه بالدنيا التي أغرقها الطوفان وأزالها من الوجود !

وسرت في محاذاة الحقول وأسوار المزارع والطرقات الضيقة إلى ما بعد طلوع الشمس. وأغلب الظن أنه كان صباحًا جميلًا من أيام الصيف وكنت أدرك أن الندى لن يلبث أن يبلل حذاءَيَّ اللذين لبستهما عندما غادرت القصر.. ولم أتطلَّع إلى الشمس المشرقة أو إلى السماء الباسمة أو إلى الطبيعة المستيقظة، فمن يُقاد إلى المقصلة عبر منظر جميل لا يفكر في الزهور التي تبتسم في طريقه، وإنما يتركز تفكيره في حافة البلطة وتمزيق العظام والشرايين وفي القبر الذي يستقبله في النهاية! وكذلك كنت أنا الأخرى أفكر في هروبي البغيض، وفي ما كنت مقبلة عليه من تشرد.. كما فكرت فيه.. في مستر روشستر! وتصورته في غرفته يرقب مطلع الشمس ويعلِّل النفس بالآمال، متوقِّعًا أن أعود لأخبره بأنني سوف أحيا معه وأكون له.. آه، كم كنت أتلهَّف على أن أكون له. وأتحرَّق على أن أعود إليه! إن الفرصة لم تكن قد ضاعت بعد وكان في وسعي أن أكفيه مرارة الحزن واللوعة! وإذ كنت واثقة

من أن أحدًا لم يفطن إلى قراري، فقد كان من الميسور أن أرتد لأكون له الأنيسة، والمرأة التي يفخر بها، ولأنقذه من البؤس والشقاء، وربما من الهلاك !

وكان هجره لنفسه أنكى من هجري له، فكيف أغرتني نفسي بذلك الذي إذا فكَّرت فيه شعرت بسهم شائك في صدري يمزِّق قلبي كلما حاولت انتزاعه، ويزيدني ضعفًا ومرضًا كلما ساقته الذكريات إلى أبعد من ذلك.. وكانت الطيور قد بدأت تغرد، فخُيِّل إليَّ أنها مخلصة، كل إلف لأليفه، بل إنها رموز الحب، أما أنا فماذا كنت؟ لقد أبغضت نفسي وسط الآلام التي كانت تجتاح قلبي، والمبادئ والمُثُل التي كنت أتمسّك بها.. لم يكن ثمة عزاء لي بعد أن جرحت سيدي وآذيته ثم هجرته.. بل إنني غدوت بغيضة في عين نفسي! ولكني لم أكن أقوى على النكوص والرجوع إلى الخلف خطوة واحدة، بل كان لا بد من أن أسير قدمًا في الطريق الذي رسمه لي الله.. أما إرادتي وضميري فإن الحزن الدافق داس الأول وكبت الثاني. ثم أخذت دموعي تنهمر بشدة وأنا أسير في الطريق الموحش بسرعة مطردة كمن اختبل عقلها أو أصابها مَسّ. إلى أن غشيني ضعف لم يلبث أن امتد إلى أطرافي واستبد بي فسقطت.. وبقيت مستلقية على الأرض بضع دقائق وأنا أضغط وجهي في الحشائش، وبي خشية أو رغبة في الموت في ذلك المكان. ولكني لم ألبث أن نهضت وزحفت على يديَّ وركبتيّ، ثم استويتُ على قدميّ وقد عزمت في إصرار أن أصل إلى الطريق الذي كنت أجتاز الحقول سعيًا إليه .

وعندما بلغته، اضطررت إلى الجلوس لأستريح تحت سياج نباتي، على أنني لم ألبث أن سمعت وقع عجلات، ثم رأيت عربة قادمة، فوقفت ورفعت يدي فتوقَّفت العربة عن السير. وسألت إلى أين هي ذاهبة، فذكر لي الحوذي مكانًا بعيدًا حدست أن ليس لمستر روشستر علاقة به. وإذ سألت الحوذي عن الأجر الذي يريده ليقلني إلى هناك. قال إنه ثلاثون شلنًا.. فقلت إنني لم أكن أملك سوى عشرين شلنًا، وإذ ذاك قال إنه يكتفي بها، وسمح لي بدخول العربة التي كانت خالية، ثم أغلق بابها، ومضى في طريقه .

أيها القارئ، ادعُ الله أن يجنبك ما كنت أشعر به، وأن لا تذرف عيناك قط ما ذرفت عيناي من دموع مدرارة، لاذعة، تعتصر القلب، وأن لا تلجأ إليه سبحانه في صلواتك وأنت تعاني ما كنت أعاني إذ ذاك من يأس، وأن لا تكون مثلي أداة نقمة وشر لمن تحب بكل روحك !

الفصل الثامن والعشرون

انقضى يومان، وحلت أمسية من أمسيات الصيف.. وكان الحوذي قد أنزلني في مكان يُدعى وايتكروس، لأنه لم يشأ أن يقلني بالمبلغ الذي دفعته إلى أبعد من ذلك، ولم أكن أمتلك من دنياي شلنًا واحدًا فوق ذلك المبلغ.. وكانت العربة قد ابتعدت ميلًا وخلَّفتني وحيدة، عندما اكتشفت أنني نيست أن أتناول من جيب العربة الحزمة التي أودعتها كل حاجاتي، والتي كنت قد وضعتها في الجيب بغية الاطمئنان على سلامتها! لقد بقيت حيث أودعتها، وكان لا بد من أن تبقى لأصبح معدَمة مجرَّدة من كل شيء !

وليست وايتكروس بمدينة، بل ولا هي بقرية، وإنما هي مجرد عمود حجري أقيم عند ملتقى أربع طرق، وقد طلي باللون الأبيض ليبدو بوضوح على بعد، وفي الظلام، على ما أعتقد! وتمتد من قمة العمود أربع أذرع تشير إلى أقرب المواقع على الطرق الأربع.. وكانت أقرب بلدة تشير إليها، كما فهمت مما كتب عليها، تبعد حوالي عشرة أميال، في حين أن أبعدها كانت على بعد يزيد على عشرين ميلا. ومن أسماء هذه المدن - وكانت مشهورة - عرفت المقاطعة التي أنا فيها. وكانت من مقاطعات الشمال الأوسط، تسود أرضها المستنقعات، ويقوم على حافتها جبل كان من السهل أن أراه.. وكانت المستنقعات الواسعة تمتد من خلفي وعلى جانبَيَّ.. أما أمامي، فقد كان ثمة واد منخفض، بدت خلفه سلسلة من الجبال! ولا بد أن سكان الإقليم كانوا قلة، فلم يلح لي أي عابر في الطرق التي كانت تمتد - شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا - بيضاء، واسعة، مقفرة، وقد شُقّت جميعًا وسط المستنقعات، ونمت الأعشاب وأعواد الغاب كثيفة، طويلة، على جانبيها .

ومع ذلك فقد كان من المحتمل أن تسوق المصادفة عابر سبيل، ولم تكن بي رغبة في أن تراني عين. خشية أن يعجب الأغراب مما حدا بي إلى التسكع هكذا عند دليل الطرقات بلا هدف أو غرض، وقد يسألني أحد فلا أستطيع أن أجيب إلّا باضطراب يثير الريب والشكوك، بعد أن أصبحت ولا شيء يربطني بالمجتمع الإنساني.. إذ لم يعد ثمة سحر أو رجاء يدفعني إلى حيث يقيم البشر. وما كان من المحتمل أن تساور أي امرئ يراني فكرة كريمة أو شعور يجعله يرجو لي خيرًا. وإذ لم يكن لي من أهل سوى الطبيعة - أم الكون - فقد عوَّلت على أن ألجأ إلى صدرها أنشد فوقه الراحة !

ورحت أضرب في تلك الأجمات. ثم يممت شطر حفرة رأيتها تشق جانبًا داكنًا. ومضيت أخوض حتى ركبتيّ في حشائشها الحالكة، وأدور مع منعرجاتها، حتى عثرت في ركن خفي على صخرة شامخة من الجرانيت سوّدتها الطحالب، فجلست تحتها تحيط بي ضفاف المستنقع من كل جانب، بينما كانت الصخرة تحمي رأسي، والسماء من فوقها.. وانقضت فترة قبل أن أشعر بالهدوء حتى في ذلك المكان. فقد كان يساورني خوف غامض من أن تكون إلى جواري بهيمة برية، أو أن يكتشف وجودي صياد.. وكنت أرفع رأسي كلما هبت الريح، إذ أخال هبوبها ثورًا مندفعًا نحوي، وكلما صاح طائر توهمته رجلًا، حتى إذا أيقنت أن مخاوفي لا أساس لها، وحتى إذا هدأ جأشي بفضل السكون العميق الذي ساد عندما أخذ الليل في الهبوط، اطمأنت نفسي. وكنت إلى تلك اللحظة لا أفكر في شيء، وإنما اكتفيت بأن أصغي وأرقب والخوف يساورني. أما عندما اطمأننت فقد عاودتني القدرة على التفكير والتأمل فتساءلت: «ما العمل؟ وإلى أين أذهب؟ ».

أواه! ما كان أقسي هذين السؤالين، في وقت لم أكن أستطيع فيه أن أعمل شيئًا أو أذهب إلى مكان.. في وقت كان لا بد لي فيه من أن أقطع مسافة طويلة على قدميَّ الكليلتين المرتعشتين قبل أن أصل إلى مكان آهل بالبشر.. في وقت كان يجب أن أضرع فيه وألحف في طلب الإحسان حتى أحظى بمأوى.. لم يكن ثمة شك في أنني سأحتاج إلى اللجاجة والإلحاح لاكتساب عطف المستريبين قبل أن تجد قصتي من يستمع إليها، وقبل أن تلقى حاجتي من يخف لقضائها !

وتحسَّست الحشائش فوجدتها جافة ولكنها دافئة بحرارة الصيف. وتطلعت إلى السماء فوجدتها صافية الأديم وقد التمع نجم فوق حافة الهوة، وتساقط الندى في نعومة لطيفة.. ولم تكن هناك نسمة واحدة، فخُيِّل إليَّ أن الطبيعة رحيمة طيبة القلب، وحسبتها قد أشفقت عليَّ، وأنها تحبني، أنا المنبوذة المشرَّدة التي لا تتوقَّع من الإنسان سوى الشك والنبذ والإهانة، فتعلقت بالطبيعة تعلق الطفلة بأمها الرؤوم، وعوَّلت على أن أنزل عليها ضيفة في هذه الليلة على الأقل، كما لو كنت ابنتها - فالأم خليقة بأن ترحب بابنتها - ومن ثم فلن تطالبني بأجر الإيواء.. ولم يكن قد تبقي معي سوى كسرة من الخبز.. فضلة من رغيف كنت قد اشتريته من مدينة مررت بها في الظهر بنس ضالّ. ولكني شاهدت ثمرًا ناضجًا كالكرز، يلتمع هنا وهناك خلال الآجام كأنه حبات المسابح، فجمعت منه حفنة أكلتها بالخبز، وبذلك خفَّت حدة جوعي وإن لم يتم إشباعه. ثم أديت صلاة المساء. وأخذت أبحث عن مكان آخر أرقد فيه.. وكانت الأعشاب كثيفة بجانب الصخرة فدفنت فيها قدمي عندما رقدت. وحال ارتفاع عيدانها على الجانبين دون أن يغزوني هواء الليل، ثم طويت شالي وألقيته

على جسمي، كما جمعت بعض العشب فتوسَّدته. وهكذا رقدت دون أن أشعر في البداية - على الأقل - بأي برد !

وكان من الممكن أن تكون راحتى تامة ناعمة، لولم يعكّر صفوها الألم الذي يعتصر قلبي الدامي الذي ظل ينتفض إشفاقًا على سيدي وعلى ما أصابه من مصير، وينتحب من أجله في رحمة ورثاء. ويتلهَّف عليه مثل طائر مكسور الجناح يحاول عبثًا أن يهتدي إلى عشّه. وإذ أمضتني هذه الأفكار المضنية، جثوت على ركبتي وقد بلغ الليل عنفوانه وارتفعت الكواكب في كبد السماء.. كانت الليلة تمتاز بسكون ساج، صاف، لا مجال معه لخوف! ونحن نعلم أن الله في كل مكان، ولكن وجوده - سبحانه، يتجلي على صورة أتم عندما تتبدَّى آياته الجليلة لأعيننا.. وفي تلك الليلة الصافية، التي كانت عجلة الكون تواصل فيها دورانها في صمت هادئ، تجلت لي لا نهائية الله سبحانه، وقدرته الشاملة، ووجوده في كل مكان. ومن ثم رحت أصلي من أجل مستر روشستر وأنا جاثية على ركبتيّ. ورفعت عينيَّ المغرورقتين بالدموع، فرأيت البياض المضيء المتألِّق الذي يسميه الفلكيون «المجرّة». وإذ تذكرت أوصافه وعدد الأجرام التي تشق الفضاء في وميض خاطف، أيقنت بعظمة الله وقدرته على حفظ مخلوقاته، وازداد اقتناعي بأن لا هلاك للأرض، ولا لروح من الأرواح التي تعمرها، إلّا بإرادته سبحانه، ومن ثم حوّلت صلاتي إلى شكر لله.فمنبع الحياة هو أيضًا مخلّص الأرواح ومنقذها! وأوحت لي هذه الفكرة بطمأنينة إلى أن مستر روشستر كان في أمان، لأنه من مخلوقات الله، ولا بد أنه يحرسه .

وعدت أرقد في حضن الصخرة، فما لبث النوم أن أنساني همومي وأحزاني. ولكن العوز والحاجة عاوداني في اليوم التالي.. وكانت العصافير قد غادرت أعشاشها، وخرج النحل يسعى في صدر النهار البديع ليجمع الرحيق قبل أن يجف الندى، والصباح قد جمع ظلاله فملأ ضياء الشمس الأرض والسماء، عندما نهضت ورحت أتأمل ما حولي.. وكما كان اليوم دافئًا بديعًا! وما كان أجمل الآجام المترامية، إذ بدت تحت الشمس السابغة كصحراء ذهبية، فهفت نفسي إلى العيش فيها وعليها.. ورأيت سحلية تجري على صخرة، ونحلة منهمكة بين الثمرات اللذيذة، فتمنَّيت لو كنت سحلية أو نحلة لأضمن الغذاء الطيب والمأوى الدائم في ذاك المكان! ولكني كنت من البشر، وبي حاجة البشر ومطالبهم، ومن ثم لم يكن من سبيل إلى أن يطول مكثي في مكان لا قضاء فيه لتلك الحاجات والمطالب. ونظرت خلفي إلى الفراش الذي غادرته.. وكنت يائسة من المستقبل، فتمنيت لو أن الله كان قد استل حياتي أثناء نومي فخلص جسدي المضني، الواهن، من الصراع الذي كان يرتقبة مع القدر، وتركه يتحلّل في سكينة ويمتزج بسلام بتربة هذه الفلاة. ولكن الحياة كانت تدب في كياني بمطالبها وآلامها، فلم يكن بد من أن أقضي تلك المطالب،

وأحتمل تلك الآلام.. ومن ثم سرت في طريقي، فبلغت وايتكروس.. وواصلت السير في الطريق الممتدة نحو الشمس المشرقة، الحامية، التي كانت تتربَّع السماء، وسرت طويلًا على غير هدى حتى إذا حسبتني قد قطعت ما فيه الكفاية، ونال مني التعب، آثرت أن أستريح، فجلست على حجر رأيته على مقربة، ورضخت بلا مقاومة إلى الجمود الذي أربك قلبي وشلَّ أطرافي. وإذا بي أسمع جرسًا يدق.. جرس كنيسة !

واستدرت إلى ناحية الصوت، فإذا بين التلال الرائعة - التي كففت عن ملاحظة صورتها ومشاهدها المتعددة منذ ساعة - كوخ ومنارة تشبه المسلة. وإلى يميني، كان الوادي كله مليئًا بالمراعي وحقول القمح والغابات، وقد انساب مجرى مؤتلق متعرِّج خلال ظلال هذه الخضرة السابحة في ضياء الشمس. وذكّرني ضجيج عجلات بالطريق الذي أمامي، فشاهدت عربة قطار مثقلة تصعد التل في جهد شديد، وعلى مقربة منها، رأيت بقرتين وراعيهما، فأدركت أنني قريبة من الحياة البشرية والعمل البشري، وأنني يجب أن أناضل وأكافح في سبيل العيش كغيري من البشر !

ودخلت القرية حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، فرأيت في نهاية شارعها الوحيد حانوتًا صغيرًا عرض في واجهته بعض الخبز، فتحرقت شوقًا إلى رغيف أستعيد به بعض نشاطي وقوتي. فقد بات من المتعذَّر أن أمضي في سبيلي دون قوت. وعاودتني الرغبة في قسط من القوة والحيوية بمجرد أن وجدتني بين مخلوقات بشرية مثلي. ورأيت أن من المهانة أن يغمى عليَّ وأنا في طريقي إلى الكوخ. ولو أنني كنت أمتلك شيئًا لما ترددت في أن أبادله برغيف من هذه الأرغفة. وكان معي منديل من الحرير ألفّه حول عنقي وقفازي. ولم أكن أدري ماذا يصنع الناس في وقت الضيق والعوز، وأي هذين الشيئين يقبلهما صاحب الحانوت.. بل لعله يرفض الاثنين.. ولكني قررت أن أجرِّب في النهاية! ودخلت الحانوت فوجدت فيه امرأة ظنتني، لثيابي، إنسانة محترمة، فتقدمت تستقبلني بحفاوة. واستبد بي الخجل، وانعقد لساني فلم أستطع النطق بما أعددته من رجاء. ولم أجرؤ على أن أقدم لها القفاز البالي أو المنديل المتغضِّن حتى لا تستخفني. فاكتفيت بأن رجوتها أن تأذن لي بالجلوس لحظة لأتخفف من تعبي. وإذ خاب أملها في أن أبتاع منها شيئًا، قبلت طلبي ببرود وأشارت إلى مقعد غُصت فيه، وكدت أبكي لولا أنني أنكرت على نفسي الهوان، فحبست دموعي. وما لبثت أن سألتها عما إذا كانت في القرية حائكة أو امرأة تشتغل بالتطريز، فقالت :

- «نعم. توجد اثنتان أو ثلاث، هن كل ما تتطلبه الحاجة !».

وفكرت هنيهة.. كنت مسوقة إلى عمل، فقد وجدتني أمام الحاجة وجهًا لوجه، وأصبحت في موقف من لا مورد لها ولا صديق وبلا نقود! كان لا بد لي أن أعمل، ولكن أي عمل؟ يجب أن أبحث، ولكن أين؟؟ وسألت السيدة :

- «هل تعرفين مكانًا قريبًا يحتاجون فيه إلى خادمة؟ ».

- «كلا. لا أعرف ».

- «ما أهم المهن في هذا المكان؟ ماذا يعمل معظم الناس؟ ».

- «بعضهم مزارعون، وكثير يعملون في مصنع مستر أوليفر لإنتاج الإبر، وفي المسبك ».

- «وهل يستخدم مستر أوليفر نساء؟ ».

- «كلا.. إنه يستخدم الرجال ».

- «وبماذا تشتغل النساء !».

وأجابت بأنها لم تكن تدري.. وبدا أنها سئمت أسئلتي.. وأي حق كان لي في هذا الإلحاح عليها؟ وما لبث أن أقبل رجل أو اثنان من الجيران، فأصبح مقعدي مطلوبًا. واستأذنت في الانصراف، وسرت في الطريق أنظر يمنة ويسرة إلى المنازل. ولكني لم أستطِع أن أكشف حجّة تخوِّل لي دخول منزل منها، فواصلت السير أتلكأ حول القرية، أبتعد عنها قليلًا لأعود إليها، وهكذا نحو ساعة أو أكثر، حتى نال مني الإرهاق وأمضّني الجوع. فاتجهت إلى حارة جانبية، وجلست تحت سياج من النباتات. وقبل أن تنقضي بضع دقائق. انتصبت على قدميَّ مرة أخرى، لأبحث عن شيء.. عن معين أو على الأقل عمن يرشدني إلى من يعينني! ورأيت في طرف الحارة منزلًا صغيرًا جميلًا، أمامه حديقة نظيفة مزهرة، فتقدمت ووقفت عنده أتساءل: بأي ذريعة أقترب من بابه الأبيض وألمس مقبضه اللامع؟ وكيف يتلقى سكانه مقدمي؟ وبرغم ذلك اقتربت وطرقت الباب، ففتحته شابة مليحة الوجه والهندام. وسألتها بصوت ينبعث من قلب يائس وجسم أنهكته الآلام حتى كاد يغمى عليه: «هل تريدون خادمة؟». فأجابت: «كلا.. لا نستعين بخدم ».

- «هل بوسعك أن ترشديني إلى مكان أجد فيه عملًا؟ إنني غريبة بلا معارف هنا، وفي حاجة إلى أي عمل ».

ولكنها لم تكن ميَّالة إلى أن تفكر من أجلي أو تبحث لي عن مكان. وكان من الطبيعي أن تبدو لها شخصيتي ووضعي محوّطَيْن بالشك. لذلك هزَّت رأسها معربة عن أسفها لأنها لا تملك أن تساعدني في هذا الصدد. ثم أغلقت الباب الأبيض في رفق بالغ وتأدّب، فكأنما أغلقت بذلك باب الدنيا في عيني.. ولو أنها أبقت الباب مفتوحًا لبضع لحظات أخرى، لاستجديتها كسرة من الخبز، إذ كانت كبريائي قد تهاوت من عليائها! ولم أكن أطيق أن أعود إلى القرية الجاحدة، حيث لم يلح لي رجاء في مساعدة، فآثرت أن أمضي إلى غابة غير بعيدة، جذبني إليها ظلها الوارف. ولكني كنت في غاية الضعف والوهن، كما أن غريزتي كانت تردّني إلى التجوال حول البقعة المعمورة، حيث يحتمل أن تسنح فرصة الحصول على طعام، فما كان ليهدأ لي بال أو يقر لي قرار ما دام الجوع - ذلك النسر الكاسر - يغرس منقاره ومخالبه في أحشائي! لذلك اقتربت من المساكن، ثم باعدت بيني وبينها، لأرتدّ إليها مرة أخرى، ثم همت على وجهي مبتعدة، وفي أعماقي شعور ينتهرني قائلًا ان لا حق لي في أن أطالب بشيء، أو أتوقع أي إشفاق في هذه المنطقة المنعزلة. وكان المساء يقترب في تلك الأثناء، وأنا أهيم ككلب ضال برح به الجوع! وفيما كنت أجتاز أحد الحقول، شاهدت برج كنيسة أمامي، فاسرعت نحوه. ووجدت بالقرب من فناء الكنيسة، وسط حديقة، منزلا صغيرًا ولكنه حسن البناء، فأدركت أنه مسكن القس. وتذكرت أن الأغراب الذين يحلون في مكان لا معارف لهم فيه يلجأون أحيانًا إلى القس ليوصي بهم ويساعدهم وإذ كانت مهمة القس أن يساعد، ولو بالنصح. ورأيت أن من حقي أن أطلب هذا النصح، فاستجمعت شتات قواي الخائرة، وسعيت إلى المنزل فطرقت باب مطبخه.. وفتحت الباب امرأة عجوز سألتها عمَّا إذا كان ذلك بيت القس، فقالت: «نعم ».

- «وهل القس هنا؟ ».

وإذ أجابت بالنفي، عدت أسألها: «وهل سيعود قريبًا؟»، فقالت: «كلا، لقد رحل»، فسألتها: «أرحل إلى بعيد؟ ».

- «ليس بعيدًا جدًا.. لعله على مسيرة أميال ثلاثة، فقد استدعيَ لوفاة والدة في مارش إند، حيث يُحتمل أن يبقى أسبوعين آخرين !».

- «هل توجد ربة للبيت؟ ».

- «كلا.. لا يوجد غيري.. أنا، مدبرة المنزل ».

ولم أطق - أيها القارئ - أن أسألها أن تنتشلني من الضيق الذي كنت غارقة في لجَّته، ولم أشأ أن أستجدي، فعدت أزحف من حيث أتيت، وأخرجت

منديلي من جديد.. ومرة أخرى فكرت في أرغفة الخبز في ذلك الحانوت الصغير.. آه، أنّى لي ولو ببعض الفتات! ولو بلقمة تهدِّئ من آلام هذا الجوع! ولم ألبث أن يممت بغريزتي شطر القرية، حيث وجدت الحانوت مرة أخرى فدخلته، ووجدت أشخاصًا مع المرأة، ولكني تجرأت وتوسلت إليها قائلة :

- «هل تعطيني رغيفًا في مقابل هذا المنديل؟ ».

فنظرت إليَّ في شكٍّ ظاهر، ثم قالت :

- «كلا فلست أشتري الأشياء بهذه الطريقة قط !».

وكدت أيأس، فطلبت منها نصف رغيف، ولكنها رفضت مرة أخرى قائلة :

- «كيف لي أن أعلم من أين حصلت على هذا المنديل؟ ».

فسألتها ضارعة: «هل تأخذين قفازيّ؟ ».

ولكنها قالت: «كلا. ماذا أصنع بهما؟ ».

وليس من دواعي السرور - أيها القارئ - أن أورد هذه التفاصيل. وقد يرى بعض الناس أن هناك متعة في ذكر المحن المؤلمة التي انقضت، ولكني لا أحتمل اليوم أن أستيعد ذكرى تلك الأوقات، فإن ما فيها من هوان يمتزج بالعناء الجسدي فتتألف منهما ذكريات أليمة لا أحب التفكير فيها. ولم أنحُ باللائمة على أحد من هؤلاء الذين نهروني، بل خُيِّل إليَّ أن هذا هو عين ما كان يجب أن أتوقع دون أن تكون لي في الأمر حيلة، فالمتسوِّل العادي يكون دومًا عرضة للشكوك مهما يكن هندامه حسنًا. والواقع أنني لم أكن أسأل إحسانًا، وإنما كنت أنشد عملًا، ولكن من الذي يعنى بأن يقدم لي عملًا؟ ما كان لي، بطبيعة الأمر، أن أرجو ذلك ممن كانوا يرونني أول مرة، فلا يعرفون عن أخلاقي شيئًا. وقد كانت المرأة على حق في رفضها مقايضة منديلي مقابل خبزها. فربما ارتابت في أمري، أو لعلها رأت المقايضة غير مربحة ..

ومن ثم أوجز الآن في الحديث لأنني سئمت الموضوع. فقُبيل الغروب، مررت بمنزل في مزرعة، وقد جلس في بابه المفتوح فلاح يتناول عشاء من الخبز والجبن، فتوقَّفت أمامه وقلت :

- «هل لك أن تعطيني كسرة من الخبز لأنني جائعة جدًا؟ ».

فرمقني الرجل في دهشة، ولكنه قطع قطعة كبيرة من رغيفه وأعطانيها دون أن ينطق بحرف. وأغلب الظن أنه لم يتصورني متسوِّلة. وإنما حسبني سيدة غريبة الأطوار، استهواها رغيفه الأسمر! وما إن ابتعدت عن منزله، حتى جلست ألتهم تلك القطعة .

ولم يكن يساورني أي رجاء في الحصول على مأوى تحت أحد السقوف، فالتجأت إلى الغابة التي أشرت إليها من قبل، ولكن ليلتي كانت شقاء، وراحتي لم تتوفَّر، إذ كانت الأرض مبلَّلة والهواء باردًا، فضلًا عن مرور المتطفِّلين بي أكثر من مرة، مما كان يضطرني إلى تغيير مرقدي دون أن يلازمني شعور بالسلامة والطمأنينة. وأمطرت السماء قُبيل الصباح، واستمر المطر يهطل النهار التالي. ولا تسألني أيها القارئ أن أسرد عليك تفاصيل ذلك اليوم بدقة، فقد بحثت عن عمل كما حدث في اليوم الذي سبقه، وقُوبلت بالجفاء والنفور من جديد، حتى أشرفت على الموت جوعًا، إذ إنني لم أذق طعامًا في ذلك اليوم إلّا مرة واحدة. فقد مررت بفتاة عند باب كوخ، تهم بإلقاء بقية من ثريد بارد أمام خنزير فسألتها: «هل لك أن تعطيني هذا». فحملقت في وجهي وصاحت: «أماه! توجد امرأة تريد أن أعطيها هذا الثريد!». فأجابها صوت من الداخل : «حسنًا .. أعطِها إياه إذا كانت متسوِّلة، لأن الخنزير لا يريده !».

ومن ثم أفرغت الفتاة ذلك العفن المتيبس في راحتي، فسرعان ما التهمته في نهم. وعندما اعتكر ضياء الغسق، توقَّفت عن السير في طريق راكبي خيل منعزل، كنت أتعقبه منذ أكثر من ساعة، ثم قلت أناجي نفسي: «إن قواي تتخلَّى عني، وأشعر بأنه ليس في وسعي المضي إلى أبعد من ذلك، فهل سأنبذ هذه الليلة أيضًا؟ وهل لا بد من أن أتوسَّد الأرض الباردة المبتلَّة، بينما تنهمر الأمطار بهذا الشكل؟ ما أرى أمامي سوى هذا، إذ من يقبل إيوائي؟ ولكنه أمر مروِّع نظرًا لجوعي وضعفي وبرودتي وعزلتي، وهذا الأمل المتقوِّض، فليس بمستبعد أن ألفظ آخر أنفاسي قبل أن يطلع الصباح.. ولكن لماذا لا أوطن النفس على الموت؟ ولماذا أصارع للاحتفاظ بحياتي التافهة؟ الواقع أنني كنت أشعر - بل أوقن - بأن مستر روشستر حي يرزق، وإذن فإن الموت من الإملاق والبرد مصير لا تقبله الطبيعة باستكانة واستسلام. أواه، أيتها العناية الإلهية أمديني بقوتك.. عاونيني واهديني سواء السبيل !

وراحت عيناي المحملقتان تجوبان في أنحاء الأرض المعتمة التي تعلوها السحب، ووجدتني قد نأيت عن القرية بحيث غابت عني معالمها، ولم يعد بيني وبين التل غير بضعة حقول قليلة، فآثرت الموت هنالك على الموت في شارع

تطرقه المارة.. بل آثرت أن تنهش الغربان لحمي على أن أسجن في كفن وأدفن في مقابر المتسوِّلين !

وما لبثت أن يممت شطر التل حتى بلغته، وبقيَ فقط أن أبحث عن حفرة أرقد فيها وأشعر بأنني مختبئة فيها عن الأنظار، إن لم أكن في أمان وسلام. ولكن الأرض كلها كانت مستوية، ولا تختلف بقاعها إلّا في اللون، فهي خضراء بسبب الطحالب والحشائش النامية في البطاح والمستنقعات، أو سوداء حيث لا تحمل التربة الجافة سوى الجدب والموت. واشتدت الظلمة شيئًا فشيئًا، ولكنني كنت ما أزال أتبيَّن ذلك الاختلاف في اللون، وإن بدا كتعاقب الظلال والأضواء، لأن اللون الحقيقي امّحى مع نور النهار .

وظلت عيناي تحومان فوق المرتفعات الكئيبة وحواف المستنقعات، ثم تهيم نظراتها وسط ذلك المنظر الموحش، إلى أن ظهر ضياء فجأة، كنقطة بعيدة بين البطاح والحواف، ففكرتُ أول ما فكرت في أن ذلك نوع من السراب، وتوقَّعت أن يتلاشى على الفور. ولكنه ظل متَّقدًا في ثبات واستقرار، دون أن يتضاءل أو يتزايد، فتساءلت: «أهي نار أشعلت على التو؟». وترقَّبت لأتبيَّن ما إذا كانت ستشتد، ولكنها لم تقوَ، كما أنها لم تتضاءل، فحدست أنها ربما كانت مصباحًا في منزل. ولكن، فيمَ يهمني أمرها وليس في وسعي أن أصل إليها لأنها كانت جد بعيدة؟ بل ما نفعها إذا كانت على ياردة واحدة من مكاني، ما دمت لن أطرق بابها حتى لا يُغلق في وجهي؟ وتهالكت في البقعة التي كنت أقف عليها، وأخفيت وجهي في الأرض، ورقدت فترة في هدوء وسكون.. وكانت الرياح تهب فوق التل وفوقي، ثم يتلاشى أنينها بعيدًا. وأخذت الأمطار تهطل بسرعة فتبلِّلني من جديد وتنفذ إلى جلدي، فلم يسعني سوى أن أجمد في ذلك الصقيع الذي خلت أنه برودة الموت تسري في جسدي.. وما كان ينبغي أن أتأذَّى منها، ولكن الجسد الحي ما لبث أن راح يرتعش تحت وخزها، فما لبثت أن نهضت .

وكان الضوء لا يزال يشع هناك وباستمرار، خلال المطر، فحاولت السير مرة أخرى، ورحت أجر قدميَّ العليلتين في بطء نحوه، فإذا بي أتجه إلى أعلى التل عبر مستنقع واسع كان الخوض فيه مستحيلا في الشتاء، بل في هذه الآونة، إذ كنا في منتصف الصيف! وسقطت مرتين، ولكني نهضت واستجمعت قواي، لأن هذا الضوء كان الأمل الذي أستقتل في سبيله ولا بد من أن أبلغه! فلما عبرت المستنقع شاهدت أثرًا لبياض فوق الآجام، فسرت إليه، وإذ به طريق يصعد إلى النور الذي كان يضئ من خلال ثغرة وسط مجموعة من أشجار الشربين على ما لاح لي وسط الظلام، واختفى «نجمي» عندما اقتربت منه. لأن عقبة حالت بيني وبينه فحجبته عن عيني. ولكنني بسطت يدي أتلمَّس

طريقي في الظلمة التي كانت أمامي، إلى أن وصلت إلى سور من أحجار خشنة، فواصلت تلمُّسي إلى أن رأيت مرة أخرى شيئًا أبيض يلتمع أمام عيني.. وكان هذا الشيء بابًا لمسته فتحرَّك على مفاصله، فإذا خلفه - على كل من الجانبين - أيكة قاتمة اللون من أشجار السدر.. ونفذت خلال ذلك الباب وسرت بين الحشائش، فرأيت شبح منزل أسود منخفض، طويل، ولكني لم أرَ أثرًا للنور الهادي حوله، بل كان الظلام مسيطرًا. ترى هل هجع سكان الدار؟ ورجف قلبي لهذه الفكرة. وفيما كنت أبحث عن باب المبنى، التفيت حول زاوية، فسطع أمامي الضوء الصديق مرة أخرى خلال زجاج نافذة صغيرة ترتفع قدمًا على الأرض وتبدو أصغر من حجمها الحقيقي، إذ كانت تحيط بها النباتات الزاحفة كالعليق وغيره .

وكان الداخل محجوبًا، فأزحت ستار النباتات المتسلِّقة عن النافذة وإذ ذاك تجلَّى المشهد أمامي، فرأيت حجرة فُرشت أرضها بالرمال، وفيها منضدة وبعض مقاعد. وكان المصباح الذي أرشدني يسطع فوق المنضدة، فشاهدت على ضوئه امرأة طاعنة في السن، خشنة المظهر، ولكنها غاية في النظافة ككل شيء حولها، وقد جلست ترفو جوربًا.. وكانت النظرة التي ألقيتها على هذه الأشياء سطحية، إذ لم يكن بينها ما هو شاذ أو غير عادي. ولكن منظر آخر استرعى انتباهي.. كانت هناك شابتان بجانب المدفأة، وسط السكينة الوردية والدفء الغامر.. وكانتا سيدتين في كل شيء، وقد جلست إحداهما على مقعد متأرجح خفيض والأخرى على مقعد أكثر انخفاضًا، ودون مساند.. وكانتا في ثياب الحداد التي زاد سوادها من تألق وجهيهما ونحريهما، وقد اعتمد كلب كبير من كلاب الصيد برأسه الضخم على ركبة إحدى الفتاتين، بينما استكانت في حجر الأخرى قطة سوداء !

ما كان أغربه من مكان هذا المطبخ المتواضع، إذا قيس بمظهر ساكناته! ترى من تكون الشابتان؟ ما كان من المحتمل أن تكونا ابنتي هذه المرأة الجالسة بجانب المائدة، لأنها كانت خشنة جافة، في حين أنهما كانتا رقيقتين مهذَّبتين. والحق أنني لم أرَ مثل وجهيهما من قبل. ولست أملك أن أصفهما بالجمال الفاتن لأنهما كانتا شديدتي الشحوب والرزانة.. وعندما كانت الواحدة منهما تنحني على كتابها، كانت آيات التفكير العميق الحاد تتجلَّى على أساريرها. وكان بينهما قائم يحمل شمعة أخرى، ومجلَّدين ضخمين طالما رجعتا إليهما، وكأنهما تقارنان بينهما وبين الكتابين الصغيرين اللذين كانا في أيديهما كما يرجع الناس عادة إلى القاموس ليعاونهم على مهمة الترجمة. وكان مشهدًا ساكنًا. فبدا الأشخاص كالأشباح، وبدت الحجرة السابحة في أضواء الموقد أشبه بالصورة الرائعة.. أجل، كانت الحجرة في صمت شامل حتى إنني سمعت تساقط الرماد خلال شبكة المدفأة، ودقات الساعة في الركن

المظلم، بل لقد خُيِّل إليَّ أنني سمعت صوت الإبر في يدي المرأة العجوز! وأخيرًا، هتك حجاب الصمت صوت تناهى لأذني، إذ قالت إحدى الفتاتين المنهمكتين لرفيقتها: «اسمعي يا ديانا.. إن فرانز ودانيال الشيخ يقضيان الليل معًا. فيروي فرانز حلمًا استيقظ منه مضطربًا.. اصغي!» ثم قرأت شيئًا بصوت خافت لم أدرك منه كلمة واحدة لأنه كان بلغة يونانية أو ألمانية، حتى إذا فرغت من قراءتها قالت: «هذا أسلوب قوي لا أستسيغه !».

وكانت الفتاة الأخرى قد رفعت رأسها لتصغي إلى أختها، فكرَّرت سطرًا مما قُرئ وهي تحملق في نار المدفأة. ولقد عرفت فيما بعد تلك اللغة وذلك الكتاب، ومع ذلك فأنني لم أفهم معنى لذلك السطر الذي هبط على رأسي أشبه بطرقة على نحاس رنان.. أجل، كان كالرنين الأجوف الذي لا معنى له. ثم هتفت الفتاة وعيناها السوداوان العميقتان تتألقان: «حسن! حسن! إنني أستسيغه!». وران عليهما الصمت مرة أخرى إلى أن قطعته العجوز وقد رفعت عينيها من شغل الإبرة :

- «هل توجد بلاد يتحدثون فيها بمثل هذه اللغة؟ ».

- «نعم يا حنة.. بلاد أكبر كثيرًا من إنجلترا، لا يتكلمون فيها غير هذه اللغة ».

- «الواقع أنني لا أدري كيف يفهم بعضهم بعضًا. فهل إذا ذهبت إحداكما إلى تلك البلاد استطاعت أن تدرك ما يقولون؟ ».

- «لعلنا نعرف بعض ما يقولون وليس كله، لأننا لا نتكلم الألمانية ولا نستطيع أن نقرأها بغير الاستعانة بقاموس !».

- «وأي فائدة ترجوانها؟ ».

- «نرجو أن نتولَّى تدريسها.. أو أن نعلّم على الأقل مبادئها، كما يقولون، وعندئذ نحصل على أكثر مما نربحه الآن !».

- «حسنًا. كفى درسًا هذه الليلة !».

- «أظن ذلك.. إنني - من ناحيتي - متعبة، وأنت يا ماري؟ ».

- «كل التعب، فإنه من الصعب أن نرهق أنفسنا في لغة لا تقدر عليها غير المعاجم !».

- «هو ذلك، لا سيما إذا كانت كهذه اللغة الألمانية المعقَّدة، وإن كانت رائعة. ترى متى سيعود سانت جون؟ ».

فقالت وهي تتطلع إلى ساعة ذهبية صغيرة أخرجتها من حزامها :

- «سيعود بعد قليل ونحن الآن في تمام العاشرة، والمطر ينهمر غزيرًا يا حنة. هل لك أن تطمئنِّي إلى اشتعال النار في غرفة الجلوس؟ ».

فنهضت المرأة وفتحت بابًا رأيت من خلاله ممرًا، ثم ما لبثت أن سمعتها تقلِّب نارًا في غرفة داخلية وتعود على الفور لتقول :

«أوَّاه يا صغيرتَيَّ! لكم يحزنني أن أذهب الآن إلى تلك الغرفة التي تبدو موحشة بالمقعد الخاوي المودع في أحد الأركان!». ومسحت عينيها بمريلتها، كما تبدَّى الحزن على الفتاتين الرزينتين، واستطردت حنة تقول :

- «ولكنه انتقل إلى مكان أفضل، ولسنا نرجو له أن يعود إلى هنا، فما أظن أحدًا حظيَ بأهدأ من ميتته !».

فسألتها إحدى السيدتين: «تقولين إنه لم يذكرنا؟ ».

- «لم يكن لديه متسع من الوقت لذلك، فالمنية عاجلته.. كان يعاني بعض التوعك الذي أصابه في الليلة السابقة دون أن يهتم كثيرًا بالأمر. ولما سأله أخوكم مستر سانت جون عما إذا كنا نرسل في طلب إحداكما. اكتفى بأن ضحك منه. ثم أصيب في اليوم التالي بثقل في رأسه.. كان ذلك منذ أسبوعين تمامًا، ثم مضى لينام فلم يستيقظ إلى الأبد! وعندما دخل عليه أخوكما وجده جثة هامدة. أواه يا طفلتَيَّ! هكذا انتهى الرجل الكهل بمثل ما ذهبت أمكما من قبل. إنك صورة طبق الأصل منها يا ماري.. أما أنت يا ديانا فتشبهين والدك !».

ولكنني كنت أراهما جد متشابهتين. فلم أدرِ من أين جاءت الخادمة العجوز بهذا الفارق بينهما. في حين أن كلا منهما كانت جميلة المحيا، نحيفة القوام، ترتسم على وجهها آيات الفطنة والذكاء، وإن كان شعر إحداهن أحلك قليلًا من شعر الأخرى ويختلف في طريقة تصفيفه. فلماري خصلات سوداء مفروقة معقوصة، بينما كانت جدائل ديانا - الأحلك لونًا - تنسدل مجعَّدة على عنقها !

ودقت الساعة العاشرة. فقالت حنة :

- «أعتقد أنكما ترغبان في تناول العشاء، وكذلك سيفعل مستر سانت جون بمجرَّد عودته !».

ثم تقدَّمت لتعد العشاء. فنهضت السيدتان، ولاح أنهما تهمَّان بالانتقال إلى حجرة الجلوس. وكنت إلى تلك اللحظة أرقبهما في اهتمام وقد استهواني منظرهما وحديثهما، حتى كدت أنسى وضعي التعس، ولكن سرعان ماعاودتني الآلام ورأيت كيف تناقض حالتي البائسة اليائسة حالتهما، وأدركت كيف يستحيل أن أجعل سيدتَيْ هذا المنزل يهتمان بأمري وأحملهما على تصديق حاجتي وويلاتي وأغريهما بأن تريحاني من عناء التشرُّد. وعندما تحسَّست طريقي إلى الباب وطرقته في تردد، شعرت بأن الأمل الأخير لا يعدو أن يكون وهمًا باطلا. وفتحت حنة الباب، فلما رأتني على ضوء الشمعة التي تحملها، سألتني في صوت مشدوه: «ماذا تريدين؟». فأجبتها: «هل أستطيع التحدث إلى سيدتَيك؟ ».

- «يحسن أن تخبريني بما تريدينه منهما. من أين جئتِ؟ ».

قلت: «إنني غريبة !».

فأجابت متسائلة: «وماذا تريدين في مثل هذه الساعة؟ ».

- «أريد أن أبيت ليلتي في حجرة خارجية أو في أي مكان وأريد كسرة من الخبز ».

وبدأ الإحساس بالشك، الذي كنت أخشاه، يظهر على وجه حنة، فقالت بعد صمت قصير :

- «سأعطيك كسرة من الخبز ولكننا لا نستطيع أن نؤوي غريبة ».

فهتفت ضارعة: «ألا دعيني أتحدَّث إلى سيدتيك !».

- «كلا.. فما الذي تصنعانه لك؟ ما كان يجب أن تتجوَّلي الآن على هذه الصورة التي لا تليق إطلاقًا ».

- «ولكن أين أذهب إذا طردتني؟ ماذا أصنع؟ ».

- «إنك أدرى بلا شك بالمكان الذي تذهبين إليه، وبما تصنعينه! إنما حذار من الإقدام على أي شر. خذي هذا البنس واذهبي !».

- «إن البنس لا يستطيع أن يطعمني، ولا قوة لي على السير. لا تغلقي الباب.. أواه لا تغلقيه بالله عليك !».

- «بل يجب أن أفعل لأن المطر ينهمر ».

- «أخبري السيدتين. دعيني ألقاهما؟ !».

- «كلا لن أفعل. لأنك لست أهلا للقائهما، وإلا ما أحدثت هذه الجلبة. اذهبي من هنا !».

- «ولكني أموت إذا طردتني ».

- «لا ضير عليك! أخشى أن تكون لك أغراض شريرة، هي التي تجعلك تحومين حول بيوت الناس في مثل هذا الوقت من الليل فإذا كان ثمة رفاق لك من اللصوص يتربَّصون على مقربة، فخير لك أن تخبريهم بأننا لسنا وحيدات في البيت، بل إن معنا سيدًا، ولدينا كلاب وبنادق ».

وهنا أوصدت الخادم الأمينة، التي لم يلن لي قلبها، باب المنزل وأحكمت الرتاج. وكانت هذه هي الطامة الكبرى، فجاش الألم في قلبي ومزَّقه بعد أن استبد بي اليأس والقنوط. وبلغ بي الإعياء أن غدوت لا أقوى على التحرك خطوة واحدة، فتهالكت على عتبة الباب المبتلة، أتوجَّع وأعتصر يديَّ وأبكي في ألم ممض. أواه.. هذا شبح الموت! أواه، هذه ساعتي الأخيرة تدنو رهيبة مروعة! وا أسفاه على هذه العزلة، وهذا البعد عن أبناء جنسي! وعندها لم أفقد الأمل فحسب، وإنما تلاشت كذلك أسس الجلد والثبات، لحظة على الأقل، سارعت بعدها أحاول استعادة آخر بارقة من الرجاء وصحت :

- «لم يعد أمامي سوى الموت! إنني أومن بالله فلأنتظر إرادته في سكون وهدوء !».

ولم تمر هذه الكلمات بخاطري فحسب، ولكنني نطقت بها، ثم كتمت شقائي في قلبي، وحاولت إكراهه على البقاء هنالك في صمت وسكون. وارتفع إذ ذاك صوت قريب يقول :

- «لا بد للناس جميعًا من الموت، ولكنهم جميعًا ليسوا مسوقين لأن يلقوا مثل هذه الميتة البطيئة السابقة لأوانها، والذي يمكن أن تلقيه أنت إذا هلكت هنا من الجوع والعوز !».

فارتجفت للصوت الذي لم أكن أتوقعه، وسألت: «من أو ماذا يتكلّم؟». وكنت عاجزة عن توقُّع أي أمل في مساعدة، ولكنني رأيت شبحًا أسود كظلام الليل، وعجز نظري - الذي ضعف - عن تبيّنه، ثم طرق الوافد الجديد الباب طرقًا عاليًا طويلا، فصاحت حنة: «أهذا أنت يا مستر سانت جون؟ ».

- «نعم.. نعم. افتحي بسرعة !».

- «لا شك أنك تقاسي الليل والبرودة في مثل هذه الليلة الموحشة. أدخل فإن أختيك في غاية القلق عليك.. وأعتقد أن في هذه البقعة قومًا من الأشرار، فقد جاءت متسوِّلة.. وهي لم تذهب بعد، فها هي ذي ترقد هنا! قومي! يا للعار! اذهبي من هنا !».

- «صه يا حنة، فلديَّ ما أقوله لهذه المرأة. لقد قمت بواجبك بطردها، فدعيني أقوم بواجبي بإدخالها، فقد كنت على مقربة وسمعت كل ما دار بينكما من حديث، وأعتقد أن هذه حادثة غير عادية تحتاج إلى أن أدرسها. انهضي يا شابة وتقدميني إلى المنزل !».

فأطعته في عناء، وما لبثت أن وجدتني داخل المطبخ النظيف المشرق أرتجف، وقد أخذ رأسي يدور، ومن حولي مشهد في الخارج غاية في الوحشة وقد عصفت به الطبيعة، بينما كانت السيدتان وأخوهما يحملقون فيَّ. ثم سمعت من يسأله: «من هذه الفتاة يا سانت جون؟ ».

- «لا أدري. لقد وجدتها عند الباب !».

وقالت حنة: «إنها تبدو شاحبة ».

- «شاحبة شحوب الصلصال أو الموت، وتكاد تهوي من الإعياء فدعيها تجلس ».

والواقع أن رأسي كان يسبح، وسقطت ليتلقفني أحد المقاعد. وكنت ما أزال مستجمعة حواسي، وإن عجزت عن الكلام. فقال الشاب :

- «لعل جرعة من الماء تعيد إليها قواها يا حنة، فائتها ببعض الماء. ولكنها منهكة غاية الإنهاك وغاية في الهزال والشحوب !».

- «إنها مجرَّد شبح !».

- «هل هي مريضة أو هو الجوع برح بها فحسب !».

- «أظنها تتضوَّر جوعًا. هل هذا لبن يا حنة؟ هاتيه وهاتي كسرة من الخبز ».

أما ديانا - التي عرفتها بجدائلها الطويلة التي حجبت عني المدفأة عندما انحنت عليَّ - فقد قطعت شريحة من الخبز غمستها في اللبن ووضعتها في فمي. وكان وجهها قريبًا مني فشاهدت عليه آيات الرثاء كما لمست حنانها في أنفاسها الراكضة. وقالت لي بكلمات بسيطة تشف عن العواطف نفسها: «حاولي أن تأكلي!». وردَّدت ماري الرجاء في رفق قائلة: «أجل، حاولي!». ثم رفعت قلنسوتي المبلَّلة كما رفعت رأسي، فتناولت ما قُدّم إليَّ في ضعف ثم في لهفة. وقال أخوها: «لا تعطِها كثيرًا في البداية، هذا يكفي!». ثم سحب فنجان اللبن وطبق الخبز، ولكنها قالت: «بل أعطها مزيدًا يا سانت جون. أنظر إلى الشراهة المتجلية في عينيها!». فقال: «يكفي الآن ما تناولته يا أختاه. جرِّبي إذا كانت تقوى على الكلام، أسأليها عن اسمها ».

وشعرت بأنني أستطيع الكلام فقلت: «إن اسمي: جين إليوت!». فقد انتحلت هذا الاسم حرصًا مني على ألّا يكتشف أحد حقيقتي .

- «وأين تقيمين؟ أين أصدقاؤك؟ ».

ولزمت الصمت، فعاد يسألني: «هل من الممكن أن نرسل في طلب واحد من معارفك؟». ولكنني هززت رأسي، فقال: «هل تستطيعين أن تحكي لنا قصتك؟ ».

وشعرت بأنني وقد عبرت عتبة هذا الدار، وأصبحت مع أصحابها وجهًا لوجه، لم أعد المنبوذة الشريدة التي تنكَّرت لها الدنيا. ولذلك جرؤت فخلعت عني ثوب المتسوِّلة المستجدية، واستعدت أطواري وأخلاقي الطبيعية، وبدأت أعرف نفسي مرة أخرى. فلما سألني مستر سانت جون أن أروي قصتي - التي كان ضعفي إذ ذاك يحول دون روايتها - أجبته بعد فترة وجيزة: «لست أقوى الليلة على ذكر التفاصيل يا سيدي». فقال: «وما الذي تتوقَّعين مني أن أعمله من أجلك؟». فأجبت: «لا شيء ».

وكانت قوّتي لا تكفي لغير الإجابات المقتضبة، فقالت ديانا: «أتعنين أننا قدَّمنا لكِ كل ما كنت تحتاجين إليه من معونة، وأن في وسعنا أن نبعث بك الآن إلى الخارج والليل المطير؟». فتطلَّعت إليها، وإذا هي - كما بدت لي - ذات محيا عجيب يتميَّز بالقوة والطيبة، فتشجَّعت فجأة، وأجبت عن نظرتها الحنون بابتسامة، شفعتها بقولي: «إن لي ثقة فيك.. لو أنني كنت كلبة ضالة بلا

صاحب، ما طردتني من منزلك الليلة! لست خائفة، فافعلي ما شئت بي ولأجلي، ولكني أسألك الصفح إذا عجزت عن الكلام الطويل، إذ إن أنفاسي قصيرة وأشعر بتشنُّج يضايقني عندما أتكلم ».

وران السكون على الثلاثة.. وأخيرًا قال مستر سانت جون :

- «دعيها يا حنة تجلس هنالك الآن ولا تلقي عليها أسئلة، وبعد عشر دقائق أعطها بقية الخبز واللبن. هيا بنا يا ماري وأنتِ يا ديانا إلى غرفة الجلوس لنتحدث في الأمر ».

ثم انسحبوا، وسرعان ما عادت إحدى السيدتين - ولم أدرِ أيهما، إذ كنت في شبه غيبوبة لذيذة، وأنا جالسة بجوار النار البهيجة - فألقت على حنة بعض تعليماتها بصوت خافت. ولم تمضِ بضع دقائق حتى كنت أرتقي الدرج بمعاونة الخادمة إلى حيث خلعت ثيابي المبلَّلة.. وتلقَّفني فراش دافئ جاف، فشكرت الله وقد غمرني - وسط الانهاك الشديد - ضياء الفرحة الشاكرة، ثم نمت !

الفصل التاسع والعشرون

إن ذكرى حوالي ثلاثة أيام وليالي - بعد ذلك - تقبع مبهمة في ذهني.. وبوسعي أن أذكر بعض الأحاسيس التي خامرتني في تلك الفترة، ولكنني لا أذكر من الأفكار الواضحة المعالم إلّا قليلًا، كما أنني لم أقم بعمل ما! وكنت أدرك أنني في حجرة صغيرة وسرير ضيق.. وخُيِّل إليَّ أنني كنت أكبر من ذلك السرير، وقد رقدت عليه دون حراك، وكأنني تحوَّلت إلى حجر، وكان انتزاعي منه قد يعني قتلي. ولم أفطن إلى مرور الزمن.. لم أكن أعي تطوُّر الصباح إلى ظهيرة، ولا تحوُّل الظهر إلى مساء، ولكنني كنت أشعر بأهل الدار عندما كانوا يدخلون الغرفة أو يغادرونها. بل كان في وسعي أن أميِّز شخصياتهم، وأن أفهم ما كانوا يقولون إذا وقف المتكلِّم على مقربة مني، ولكن لم أكن أستطيع أن أجيب.. كان انفراج شفتيَّ أو تحريك أطرافي ضربًا من المستحيل، وكانت حنة - الخادم - أكثر أهل البيت تردُّدًا على غرفتي، فكان مقدمها يزعجني، إذ كنت أشعر بأنها راغبة في إقصائي، وأنها لم تفهمني ولا قدَّرت ظروفي، ومن ثم كانت متحاملة عليَّ. أما ديانا وماري فكانتا تأتيان إلى حجرتي مرة أو اثنتين في كل يوم، فتتهامسان بجانب فراشي، بعبارات مثل :

«لقد أحسنَّا كثيرًا بإيوائها!». «نعم وإلا عُثر عليها في الصباح جثة هامدة بجوار الباب، لو أنها تُركت في الخارج طوال الليل. ترى أي عناء قاسته؟». «لا بد أنها قاست متاعب عجيبة فيما أعتقد، فيا لها من مشرَّدة بائسة هزيلة شاحبة!». «أغلب الظن أنها متعلِّمة كما يبدو من تصرفاتها وحديثها، فإن لهجتها جد مهذبة، وملابسها التي خلعتها جميلة، وليست بالية تمامًا، وإن كانت ملوَّثة بالطين ومبللة». «إن لوجهها طابعًا فذًا، برغم أنه هزيل منهوك، وبوسعي أن أتصوَّرها ذات سحنة مقبولة بمجرد أن تسترد صحتها وتنتعش ».

ولم ألمس قط في حديثهما المتبادل ما يدل على ما أغدقا وأخوهما عليَّ من كرم الوفادة، أو ما يوحي بالشك أو النفور مني، مما أثلج صدري.. أما مستر سانت جون، فلم يزرني سوى مرة واحدة نظر فيها إليَّ، ثم قال إن سباتي العميق كان نتيجة رد فعل لتعب شديد طال أمده، وأن لا حاجة تدعو إلى دعوى طبيب، لأنه كان واثقا من أن الطبيعة سوف تتكفَّل بي على أكمل وجه إذا تُركت لحالي، وأكد أن كل أعصابي قد أرهقت بحيث أصبح جميع جهازي العصبي في حاجة إلى الاستجمام بعض الوقت، وأنني لستُ مريضة على الإطلاق وقال إنه يعتقد أنني إذا ما بدأت أسترد قوتي، فسأستكمل شفائي

سريعًا. وعبَّر عن آرائه هذه في كلمات قلائل، وبصوت خافت، ثم توقّف لحظة وعاد يقول بلهجة الرجل الذي لم يعتد كثيرًا أن يطيل التعليق :

- «إن لوجهها سحنة لا تكاد تكون عادية، ولكنها ليست بكل تأكيد على شيء من الابتذال أو الخسة ».

فأجابته ديانا: «حقًا.. ولا أكتمك أن قلبي يحنو على هذه الصغيرة البائسة، وبودي لو تقوى على مساعدتها مساعدة دائمة ».

وكان رده: «ليس ذلك محتملا، وسوف تجدين أنها سيدة شابة وقع بينها وبين أهلها سوء تفاهم، فغادرتهم في تهوّر، وقد نوفَّق في أن نعيدها إليهم ما لم تكن عنيدة، ولكني أقرأ على وجهها سطورًا تدل على القوة مما يجعلني أوقن من دماثة أخلاقها». ثم استرسل يقول: «إنها تبدو عاقلة ولكنها ليست جميلة !».

- «إنها مريضة جدًا يا سانت جون ».

- «مريضة أو غير مريضة فستظل امرأة غير جميلة، إذ ينقص أساريرها التناسق ».

وكانت حنة تخبز. ومن المعروف أن النفور والتحامل يصعب اقتلاعهما من القلب الذي لم يخصِّب بالتعليم تربته، إذ إن جذورهما تتغلغل هنالك قوية كالأعشاب التي تنمو بين الأحجار، وقد كانت حنة باردة جافة معي في أول الأمر ولكنها بدأت ترقّ بعض الشيء، فلما رأتني أدخل عليها في ثياب نظيفة مهندمة، ابتسمت وقالت: «ماذا؟! هل نهضت من فراشك؟ إذن فأنت أحسن حالًا، وفي وسعك إذا أردت أن تجلسي في مقعدي بجانب المدفأة». وأشارت إلى المقعد المتأرجح، فجلست فيه، بينما انهمكت في عملها، وهي ترمقني من طرف خفي بين وقت وآخر، ثم تناولت بعض أرغفة من الفرن واستدارت إليَّ تسألني في جفوة وغلظة :

-«هل كنت تتسوَّلين قبل أن تأتي إلى هنا؟ ».

فتولَّاني الغيظ لحظة، ولكني سرعان ما تذكرت أن الغضب لا يجدي، وأنني فعلًا كنت أبدو كالمتسوِّلة، فأجبتها في هدوء لا يخلو من بعض الحزم :

- «إنك تخطئين إذا حسبتني متسوِّلة، فأنا أبعد عن التسول بعدك وبعد سيدتيك عنه ».

فسكتت لحظة ثم قالت: «لستُ أفهم.. ألست بلا دار ولا نحاس؟ ».

- «إن الحاجة إلى الدار والنحاس - وأظنك تعنين به المال - لا تجعل الإنسان متسوِّلا كما تعني كلماتك ».

فسألتني على الفور: «أمتعلمةً أنتِ؟ ».

فأجبت: «أجل، وإلى درجة كبيرة ».

- «هل دخلت مدرسة داخلية؟ ».

- «نعم. وقضيت فيها ثماني سنوات ».

فاتسعت عيناها وقالت: «إذن فلماذا لا تستطيعين إعالة نفسك؟ ».

- «لقد كنت أعول نفسي وسأعولها مرة أخرى ».

ولما أخرجت سلة من الكرز قلت: «ما الذي تعتزمين صنعه بهذه الفاكهة؟»، فأجابت: «فطائر!». فقلت: «هاتيها لأعنى بإقصاء الثمار غير الطيبة». وإذ أجابت: «كلا.. لا أريد أن تعملي شيئًا»، قلت لها: «بل يجب أن أقوم بعمل ما. هاتي الفاكهة !».

وقبلت، فجاءتني بمنشفة نظيفة نشرتها على ثوبي حتى لا يتسخ، وقالت :

- «أرى من يديك أنك لم تمارسي أعمال الخدم من قبل فهل كنت تمارسين الحياكة؟ ».

- «كلا.. لقد أخطأت الحدس.لا تهتمي بما كنته، ولا تشغلي بالك بي ولكن ما اسم المنزل الذي نحن به؟ ».

- «بعضهم يسميه مارش إند والبعض الآخر يسميه مور هاوس ».

- «والسيد الذي يقيم هنا.. أيدعى مستر سانت جون؟ ».

- «لا، إنه لا يقيم هنا، ولكنه جاء لبعض الوقت. أما مقامه ففي أبرشيته بمورتون ».

- «تلك القرية التي تبعد بضعة أميال عن هنا؟ ».

وإذ قالت: «نعم»، عدت أسألها: «وماذا يعمل؟ ».

فاجابت: «إنه قس». وتذكَّرت رد مديرة المنزل العجوز في بيت راعي الكنيسة، عندما طلبت إليها أن أقابل القسيس، فقلت: «إذن فهذا بيت أبيه؟ ».

- «نعم كان مستر ويفرز الشيخ يقيم هنا، ومن قبله والده وجده الأكبر ».

- «إذن فاسم هذا السيد هو مستر سانت جون ريفرز؟ ».

- «وهل تدعى شقيقتاه ديانا وماري ريفرز؟ ».

وأجابت: «هو ذلك». فعدت أسألها: «وهل توفيَ أبوهم؟ ».

فقالت: «منذ ثلاثة أسابيع». وإذ ذاك سألتها: «أو ليست لهم أم؟ ».

فأجابت: «لقد توفيت منذ سنوات ».

- «وهل قضيت مع الأسرة طويلا؟ ».

- «قضيت هنا ثلاثين عامًا ربَّيت خلالها الإخوة الثلاثة !».

- «هذا يدل على أنك خادم أمينة مخلصة، وسأفضي إليك بالكثير وإن بلغت بك سوء التقدير أن دعوتني متسوِّلة !».

فحملقت في وجهي مرة أخرى وهي مشدوهة ثم قالت: «اعتقد أنني كنت مخطئة في ما خطر لي عنك ولكن المظاهر خدَّاعة فاعذريني !».

ولكني استأنفت حديثي بشيء من الحدة والصرامة: «ومع ذلك فقد شئت أن تطرديني عن بابك في ليلة ما كان ينبغي أن تطردي فيها كلبًا من الكلاب ».

- «كانت قسوة مني، ولكن أي حيلة للإنسان في ذلك وقد كان تفكيري في الفتاتين أكثر منه في نفسي، إذ ليس هناك من يهتم بهاتين المخلوقتين المسكينتين غيري، ولذلك أبدو على شيء من الحدة !».

مرّت لحظة صمت متجهِّم، ثم قالت: «أرجو ألا تقسي في الحكم عليَّ !».

- «بل إنني أقسو، لا لأنك رفضت إيوائي، أو ظننتني محتالة، إنما لأنك عيّرتني منذ قليل بأنني لا أملك دارًا ولا مالا، مع أن العالم زاخر بالفقراء ممن هم على

شاكلتي. ولو أنك كنت تقية لما اعتبرت الفقر جرمًا !».

- «لن أفعل بعد الآن. وهكذا حدَّثني مستر سانت جون، ولذلك أدركت غلطتي. وغيرت الآن فكرتي.. إني لأراكِ مخلوقة لطيفة مستقيمة ».

- «حسنًا. لقد صفحت عنك فصافحيني ».

فوضعت يدها الخشنة المكسوَّة بالدقيق في يدي، وأشرق وجهها الجاف بابتسامة طيبة، وصرنا بعد ذلك صديقتين .

وكان من الجليِّ أن حنة مغرمة بالكلام والثرثرة، فلما أخذت أفرز الثمار وانهمكت بدورها في إعداد العجين للفطائر، راحت تقص عليَّ بالتفصيل كل شيء عن المرحومين سيدها وسيدتها، وعن الفتاتين.. فقالت: إن مستر ريفرز الشيخ كان رجلا بسيطًا، ولكنه سيد من أعرق العائلات، وأن ضيعة مارش إند ملك لهم منذ كانت منزلا عتيقًا شيَّدته العائلة منذ مائتي سنة، ولا يقارَن بالبهو الكبير في قصر مستر أوليفر في مورتون. ومع ذلك فقد كان والد بيل أوليفر صانع إبر متجوِّل، في حين كان آل ريفرز من السادة ملاك الأراضي منذ عهد الملك هنري، كما يستطيع كل امرئ أن يرى بنفسه في سجلات كنيسة مورتون. على أن السيد لم يكن يمتاز بغير ولعه الجنوني بالصيد والزراعة وما إليهما، أما زوجته فكانت على النقيض، تشغف بالقراءة والاطلاع، وقد أخذ أولادها عنها ذلك الشغف، فلم يكن في تلك الأصقاع - ولن يأتي - من يفوق ثلاثتهم علمًا، إذ كانوا يدرسون منذ نعومة أظفارهم، وقد اختار كل منهم مستقبله. فلما كبر مستر سانت جون، تعلَّم وأصبح كاهنًا. أما الفتاتان، فقد اختارتا عندما أتمتا الدراسة، أن تصبحا مربّيتين، إذ إن أباهما فقد شطرًا كبيرًا من ثروته منذ سنوات - إثر إفلاس رجل كان قد ائتمنه على ماله - ومن ثم لم يعد له ثروة كبيرة، فكان عليهما أن تكسبا عيشهما.. ولم تكونا تقيمان في الدار إلّا لفترات قليلة - منذ زمن - وما جاءتا أخيرا إلّا لتمكثا بضعة أسابيع. بعد موت أبيهما، ولكنهما كانتا تحبان مارش إند ومورتون والمستنقعات والتلال المحيطة بهما.. وقد زارتا لندن وغيرها من المدن الكبيرة وإن ظلتا تؤكِّدان أن لا شيء يعدل عندهما مسقط رأسيهما. وهما متحابتان، فلم يقع بينهما خلاف قط. ولا تكاد توجد أسرة شبيهة في التضامن !

وإذ انتهيت من مهمتي في تنقية الكرز، سألتها عن السيدتين وأخيهما. فقالت: «لقد ذهبوا يتمشون إلى قرية مورتون وسيعودون قبل موعد تناول الشاي بنصف ساعة ».

والواقع أنهم حضروا قبل الموعد الذي قدَّرته حنة، فدخلوا المنزل من باب المطبخ، ولما رآني مستر سانت جون اكتفى بأن حنى رأسه ثم واصل السير. أما السيدتان فقد توقَّفتا، وأعربت لي ماري عن ابتهاجها لرؤيتي بخير وقادرة على النزول بينما تناولت ديانا يدي ثم هزَّت رأسها وقالت: «كان ينبغي أن تنتظري حتى أسمح لكِ بالنزول. فإنكِ ما زلتِ شاحبة ناحلة يا مسكينة !».

وكان لها صوت جميل الوقع في أذني، فكأنه هديل الحمام، ونظرة أحسست ببهجة كلما التقت بنظرتي، ووجه مليء بالسحر في عيني. وكذلك كانت أسارير ماري تنم عن الذكاء والجمال أيضًا، ولكنها كانت تبدو أكثر تحفظًا. كما كان حديثها يتَّسم بحب السيطرة والسلطان، ويدل على قوّة العزيمة. وكنت أجد بطبيعتي راحة في الخضوع لمثل هذا النفوذ. وفي أن أنثني للإرادة القوية، بقدر ما يسمح به ضميري وترضى عنه كرامتي .

واسترسلت ديانا تقول: «وماذا تفعلين هنا؟ ليس هذا مكانك.. إنني وماري نجلس في المطبخ أحيانًا، لأننا نحب ونحن في المنزل أن نتحرَّر وألا نتقيَّد بشيء، ولكنكِ زائرة، فيجب أن تذهبي إلى غرفة الجلوس». فقلت: «بل إنني مغتبطة هنا»، ولكنها قالت: «لا غبطة على الإطلاق مع صخب حنة ودقيقها الذي يتناثر عليك!». وتدخَّلت ماري في الحديث قائلة: «ثم إن النيران هنا أشد من أن تحتمليها»، فأردفت أختها تخاطبني: «بالتأكيد، هيا، وكوني مطيعة !».

وأنهضتني وهي ما زالت ممسكة بيدي، فقادتني إلى الغرفة الداخلية حيث أجلستني على أريكة وقالت: «امكثي هنا ريثما نخلع ثيابنا ونعدّ الشاي فإنه ليحلو لنا ونحن في دارنا هذه أن نهيِّئ وجباتنا بأنفسنا عندما نحب، أو عندما تكون حنة مشغولة بالخبز أو بصنع الجعة أو الغسيل أو الكي!». ثم أغلقت الباب لتتركني وحيدة مع مستر سانت جون الذي كان يجلس في مواجهتي منصرفًا إلى كتاب أو صحيفة كانت في يده، فرحت في أول الأمر أتأمَّل الحجرة ثم أخذت أتأمَّل شاغلها .

كانت حجرة الجلوس صغيرة بسيطة الرياش، ولكنها نظيفة أنيقة بمقاعدها القديمة اللامعة، ومنضدة من خشب الجوز أشبه بالمرآة المصقولة، وبضع صور عجيبة عتيقة لرجال ونساء من الزمن السالف وصوان بأبواب زجاجية يحتوي على بعض الكتب وطاقم قديم من الخزف. ولم أرَ في الحجرة زينة لا داعي لها، ولا شيئًا من الرياش الحديث سوى صندوقين ومكتب من خشب الورد، قام بجانب منضدة بجوار الحائط، وهكذا كان كل شيء في الغرفة - بما في ذلك البساط والستائر - ينم لأول وهلة عن حسن التنسيق والاختيار .

وكان مستر سانت جون ساكنًا في جلسته سكون الصور المعلّقة إلى الجدران، وقد تسمَّرت عيناه على الصفحة التي كان يطالعها، وأطبقت شفتاه، مما مكّنني من تفحّصه بسهولة. ولو أنه كان تمثالا وليس إنسانًا لكانت مهمَّتي أسهل وأيسر. كان شابًا بين الثامنة والعشرين والثلاثين، طويل القامة، نحيل الجسم، يجتذب وجهه النظر إذ يشبه الوجه الإغريقي في نقائه وصفاته وأنفه المستقيم. كما كان له فم وذقن أثينيّين. والواقع أنه قل أن تجد وجهًا إنجليزيًا أقرب من وجهه إلى النماذج القديمة. ومن ثم فقد كان على حق حين صُدم لعدم تناسق أساريري وهو على هذه الملاحة. إذ كانت عيناه واسعتين زرقاوين، وأهدابه سود، وكان جبينه كالعاج تتدلّى عليه خصلات من شعره الجميل في إهمال.. أليس هذا رسمًا دقيقًا لمعالمه، أيها القارئ؟ ولكن، من الذي لا يؤثّر، بأوصاف كهذه، في نفس أوتيت مثلي طبيعة رقيقة طيعة على جانب كبير من الوداعة؟! وبالرغم من هدوئه، فقد كان ثمة شيء حول خياشيمه وفمه وجبينه يدل - كما بدا لي - على معالم توحي بالقلق، أو ضبط النفس والتلهف... ولكنه لم يوجِّه إليَّ كلمة أو نظرة واحدة، حتى عادت شقيقتاه، وجاءتني ديانا بكعكة صغيرة خبزت على ظهر الفرن، وهي تقول :

- كلي هذه الآن لأنكِ جائعة بلا شك، فقد أخبرتني حنة أنكِ لم تتناولي شيئًا بعد الإفطار سوى بعض الثريد .

ولم أرفض، لأن معدتي كانت قد تيقَّظت وتاقت إلى الطعام، وعندئذ أغلق مستر ريفرز كتابه واقترب مني وهو يتَّخذ لنفسه مجلسًا، ثم راح يتفرَّس فيَّ بعينيه الزرقاوين الجميلتين، وقد ارتسمت فيهما استقامة غير متكلِّفة وعزم نافذ راسخ، مما دلَّني على أنه لم يكن يتحاشى النظر إلى الغريبة تهيبًا وإنما عن قصد وعمد، وقال: «إنكِ جد جوعانة!». فأجبتُ: «نعم يا سيدي.. إن من عادتي - بالسليقة - أن أقابل القلة بالاقتصاد، والوفرة بالإقبال !».

- «كان خيرًا أن تضطري بسبب الحمى البسيطة إلى الامتناع عن الأكل ثلاثة أيام، إذ كان هناك خطر من تلبية نداءات الجوع في بادئ الأمر، أما الآن ففي وسعك أن تأكلي، ولكن في اعتدال !».

- «ثق أنني لن أتناول الطعام طويلا على نفقتك يا سيدي ».

وكان ردًا فضًا على نحو أخرق، ولكنه أجابني في برود: « كلا فسوف نكتب إلى أصدقائك متى دللتنا علّى مكانهم، وستعودين إلى منزلك ».

- «يجب أن أصارحك بأنني لا أملك هذا، لأنني بلا صديق ولا منزل !».

وتطلّع الثلاثة إليَّ غير مصدِّقين.. ولم ألمس شكًا في نظراتهم، وإنما مجرَّد دهشة وعجب.. وأعني الفتاتين بصفة خاصة، لأن عيني سانت جون كانتا - برغم صفائهما - مما يصعب الغوص فيهما، وكأنما كان لا يستخدمهما إلّا في سبر أغوار الآخرين وليس في الكشف عن أفكاره هو! وكان في نظراته خليط من الحدة والتحفُّظ مما يبعث على الارتباك لا التشجيع.. وسألني :

- «أتقصدين بقولك إنك لا ترتبطين بأي قربى على الإطلاق؟ ».

- «نعم سيدي، فلا رابطة لي بأي حي، وليس لي منزل ألجأ أليه بإنجلترا ».

- «يا له من وضع غريب بالنسبة لفتاة في سنك !».

ثم رأيت نظرة مسدَّدة إلى يديّ المعقودتين أمامي على المنضدة، وعجبت لأفكاره، ولكنه ما لبث أن أوضحها بالكلام قائلًا :

«أما تزوجتِ قط؟ أعانس أنتِ؟». فضحكت ديانا وقالت: «كيف، وهي لا يمكن أن تكون قد تجاوزت السابعة أو الثامنة عشرة تقريبًا يا سانت جون؟». فقلت: «إنني في التاسعة عشرة تقريبًا، ولكنني لم أتزوَّج.. كلا !».

وشعرت بوهج مشتعل يزحف إلى وجهي، لأنه أيقظ بالإلماح إلى الزواج ذكرياتي المرة المثيرة. وشاهدوا جميعًا ما تولاني من ارتباك، فحوَّلت ديانا وشقيقتها أعينهما عنِّي. أما القس فقد ظل يتفرَّسني حتى اشتد تضرُّج وجهي بالدماء، واغرورقت عيناي بالدموع، فسألني: «وأين كنتِ تقيمين آخر مرة؟». وهنا غمغمت ماري في خفوت: «إنك تكثر من الأسئلة يا سانت جون!». ولكنه اتكأ على المنضدة، ورمقني بنظرة أخرى من نظراته الرصينة الثاقبة يتعجَّلني الرد. فقلت: «إن اسم المكان الذي كنت أقيم فيه، والشخص الذي كنت أقيم معه، من أسراري ».

فقالت ديانا: «من حقك، في رأيي، أن تخفيه عن مستر سانت جون. وعن كل سائل، إن شئتِ». وإذ ذاك قال القس :

- «ولكني لن أستطيع مساعدتك إذا لم أعرف شيئًا عنك وعن تاريخ حياتك! إنكِ في حاجة إلى العون.. أليس كذلك؟ ».

فقلت: «بلي.. إنني في حاجة إليه وأطلبه يا سيدي على يد محب حقيقي للإنسانية، يريني طريق الحصول على عمل أستطيع أن أؤديه، وأكسب منه الأجر الذي أتعيَّش منه، والذي يوفِّر لي لوازم وضرورات العيش !».

- «إنني لا أدري ما إذا كنت محبًا صادقًا للإنسانية بالمعنى الذي تقصدينه، ولكنني راغب في مساعدتك بكل ما أمكنني للوصول إلى عمل شريف. ولكن عليك أن تخبريني ما عملك، وما تستطيعين أن تعمليه ».

وكنت قد شربت الشاي، فشعرت بعد هذا الشراب بانتعاش لا يدانيه الانتعاش المنبعث من النبيذ المعتَّق، فقد سرت في أعصابي قوة جديدة مكَّنتني من مخاطبة هذا القاضي الشاب، الثاقب النظرات، بكل ثبات. فاستدرت إليه وبادلته نظرة بنظرة في صراحة لا يشوبها تهيُّب وقلت :

- «لقد أسديت إليَّ يا مستر ريفرز - أنت وشقيقتاك - خدمة كبيرة لا تدانيها خدمة أي إنسان لآخر في الإنسانية، فقد أنقذتموني بكرمكم النبيل من الموت.. وهذا الجميل يمنحكم الحق في أن أشكركم وأعترف بفضلكم، وفي أن تكونوا موضع ثقتي. ولذلك سأروي لكم من تاريخ الفتاة الشاردة التي آويتموها القدر الذي أستطيع الإفصاح به دون أن أعكِّر صفو بالي، ودون أن أعرِّض أمني - وأمن الغير - لخطر أدبي أو مادي، فأنا يتيمة، وابنة قسيس، وقد مات والداي قبل أن أعرفهما، فنشأتُ عالة على غيري، وتعلَّمت في معهد خيري، سأخبركم باسمه، حيث قضيت ست سنوات في طلب العلم، وسنتين كمعلمة.. إنه يدعى ملجأ اليتيمات في لوود، فهل سمعت به يا مستر ريفرز؟ إن الأب روبرت بروكلهرست ينفق عليه ».

- «سمعت باسم مستر بروكلهرست، ورأيتُ المدرسة ».

- «ومنذ عام واحد تقريبًا، غادرت ملجأ لوود لأعمل مربية خاصة وهي وظيفة طيبة سعدت بها، ولكني اضطررت إلى تركها منذ أربعة أيام قبل مجيئي إلى هنا. أما السبب الذي حملني على الرحيل، فلستُ أملك أن أفضي به، لأن الإفضاء به غير مجد، وخطر، فضلا عن أنكم لن تصدِّقوه. على أنه لا لوم عليَّ في ذلك ولا تثريب، بل إنني لست أقل عن أي فرد من ثلاثتكم بعدًا عن الجرم. إنني تعسة وسأظل كذلك زمنًا، لأن الكارثة التي طوَّحت بي من المنزل الذي ظننته جنتي كانت كارثة غريبة مروعة، ولم أكن معنية في فراري بغير نقطتين: السرعة والتكتم.. ولبلوغ هذه الغاية، تركتُ خلفي كل شيء عدا حزمة صغيرة نسيتها - لعجلتي واضطرابي - في العربة التي أقلتني إلى وايتكروس. وإلى هذه المنطقة جئت بالغة الفقر والعوز، فبت ليلتين في العراء، وهمت على وجهي يومين دون أن أجتاز عتبة من الأعتاب، ولم أذق الطعام في تلك الأثناء سوى مرتين، إلى أن أشرفت على الهلاك جوعًا وتعبًا وقنوطًا، فانتشلتني أنت يا سيدي من الموت أمام بابك، وأخذتني تحت سقفك، وقد عرفت ما فعلته شقيقتاك من أجلي، لأنني كنت غائبة عن الوعي أثناء ما حسبتموه سباتًا

عميقًا، فأنا مدينة لرحمتهما الأصيلة غير المصطنعة، بقدر ما أنا مدينة لإحسانك المنبعث من قلب عامر بالإيمان .

وإذ أخلدت إلى الصمت، قالت ديانا: «لا تحملها الآن على مزيد من الكلام يا سانت جون، فإنها لا تحتمل الانفعال، تعالي واجلسي على هذه الأريكة، يا مس إليوت». فارتجفت مجفلة، على الرغم مني، عندما سمعت الاسم المستعار، إذ كنت قد نسيت اسمي الجديد، ولكني مستر ريفرز، الذي لم يكن يفوته شيء، سرعان ما لاحظ ذلك وقال: «ألم تقولي إن اسمك جين إليوت؟». فأجبت: «بلى! فهذا الاسم الذي أراه مناسبًا في الوقت الحاضر، ولكنه ليس اسمي الحقيقي. ولذلك كان وقعه غريب في أذني عندما سمعته ».

- «ألا تذكرين اسمك الحقيقي؟ ».

- «كلا فإن أخشى ما أخشاه أن يُكشف أمري وأحب أن أتحاشى ما قد يؤدي إليه هذا الكشف !».

فقالت ديانا: «إنكِ على حق. والآن أرجو يا أخي أن تتركها قليلا في سلام !».

ولكن ما إن أطرق سانت جون بضع لحظات، حتى عاد إلى حديثه برباطة جأش وبراعة كعادته، فقال: «إنكِ لن تقبلي أن تركني إلى ضيافتنا طويلا، إذ ترغبين في التخلُّص - بأسرع ما تستطيعين - من حنان وعطف شقيقتي ومن إحساني (على الأخص) رغبة منك في الاستقلال عنا ».

- «هو ذلك، وقد قلته من قبل، فساعدني لأعمل، أو دلني كيف أجد عملًا، هذا كل ما أرجوه، وبعد ذلك دعني أذهب ولو إلى أحقر كوخ، ولكن أرجوك لا تطردني من بيتك - قبل أن يتم ذلك - وأبقني هنا لأنني أخشى أي تجربة جديدة بين أهوال التشرد والفاقة ».

فقالت ديانا وهي تضع يدها البيضاء على رأسي: «لسوف تبقين ولا شك». وكرَّرت ماري ذلك بلهجة من الإخلاص بدت طبيعية إذ قالت: «ستمكثين هنا!». فقال مستر سانت جون: «كما ترين، إن شقيقتيَّ تبتهجان ببقائك، ابتهاجهما بإيواء وإكرام طائر طوَّحت به إلينا رياح الشتاء وهو موشك على الموت بردًا. ولسوف أعينك على أن تكفلي نفسك. ولكني أرجو أن تلاحظي أن منطقتي صغيرة، ولستُ أكثر من قسيس لأبرشية صغيرة فقيرة، ولذلك ستكون مساعدتي ضئيلة متواضعة. فإذا لم تجديها تناسبك في يوم من الأيام وجب أن تبحثي عن معاونة أكثر مما في طاقتي». فأجابت ديانا عنِّي قائلة: «لقد قالت إنها راغبة في أي عمل شريف تستطيع القيام به، وأنت تعلم جيدًا يا سانت

جون أنها ليست مطلقة الحرية في اختيار من يساعدونها ولكنها مكرهة على أن تلجأ إلى أمثالك من الأجلاف!». فقلت: «بوسعي أن أكون حائكة، أو عاملة.. بل سأعمل خادمة أو مربية إذا لم أجد خيرًا من ذلك !».

فأجاب مستر سانت جون في برود تام: «حسن، إذا كانت هذه روحك فإنني أعدك بالمساعدة في الوقت المناسب وبالطريقة التي أختارها ».

ثم عاد إلى كتابه الذي كان مشغولا به قبل الشاي، وسرعان ما انسحبت، إذ كنت قد تحدَّثتُ كثيرًا وجلستُ طويلا، رغم ضعفي ووهني .

***

الفصل الثلاثون

كان حبي لأهل مور هاوس يزداد كلما ازددتُ معرفة بهم، ولم تنقضِ سوى أيام قلائل حتى استرددت صحتي، فاستطعت الجلوس طوال النهار، والتمشي في الخارج في أحيان كثيرة، والاشتراك مع ديانا وماري في ما كانتا تعملان، والتحدث معهما في ما يشغلهما، ومعاونتهما كلما سمحتا لي.. ووجدت في معاشرتها لذة تحيي موات النفس! لذة من نوع لم أتذوَّق مثله من قبل، لأنها انبعثت عن تجانس تام في الأذواق والعواطف والمبادئ. لقد أحببت قراءة ما كان يطيب لهما مطالعته، وكان ما يروق لهما يبهجني، وما تميلان إليه يلقى تقديرًا مني.. وكانتا تحبان منزلهما المنعزل، وكذلك أحببت أنا ذلك المبنى الصغير العتيق، بسطحه المنخفض، ونوافذه المطوقة بالنباتات الزاحفة، وجدرانه المكسوَّة بالأعشاب المتسلِّقة، وذلك الدرب الممتد بين صفين من أشجار الشربين التي كانت تنمو مائلة تحت دفع الرياح الجبلية، والحديقة المكتظَّة بأشجار السدر والتي لم يكن تينع فيها إلّا أقوى الزهور تحمّلا.. وألفيتُ في كل ذلك سحرًا قويًا !

وكانت الفتاتان تهيمان بالآجام الأرجوانية الممتدة خلف المنزل وحوله، وبالوادي الخفيض، والطريق المرصوف بالحصباء والذي كان يفضي صعدًا من جوفه إلى باب البيت، ويتعرَّج ويتلوَّى بين الشطآن المكسوَّة بنبات السرخس، ثم بين بعض الحقول التي تحف بالآجام الموحشة، والتي تربى عليها الأغنام الشهباء والخراف الصغيرة الأجسام، والموفورة الصوف. بل إنني لأذهب إلى القول بأن الفتاتين كانتا تتعلَّقان بهذا المنظر في حماسة صادقة، تامة، ما لبثت أن أدركت مبعثها فشاطرتهما إياه، ولمست مثلهما فتنة هذا المكان، وشعرت بقداسة هذه العزلة، وتمتعت عيناي بتلك الآفاق، كما نعمت بالألوان التي كان يخلعها الطحلب والنباتات والزهور البرية على القمم والوديان. وأصبحت تلك المعالم بالنسبة لي - كما كانت بالنسبة للفتاتين - مبعث غبطة صادقة، عذبة.. وصارت الريح الهوجاء والنسيم العليل، واليوم العاصف واليوم الهادئ، وساعات الشروق وساعات الغروب، وضوء القمر، وديجور الليل الملبَّد بالسحب.. صارت كل هذه تفتنني بقدر ما كانت تفتن الفتاتين، وتغمر مشاعري بالسحر نفسه الذي كانت تغمر به مشاعرهما !

كذلك كان الانسجام تامًا بيننا في داخل الدار، فقد كانت الفتاتان مثقَّفتين، وأكثر مني اطلاعًا، ولكنني رحت أقتفي آثارهما - في توق وشغف - في طريق

المعرفة الذي سلكتاه قبلي، وأقبلت ألتهم الكتب التي كنت أستعيرها منهما، وأجد متعة في أن أناقشهما في المساء في ما طالعته أثناء النهار .

وإذا كان لثالوثنا رئيس وزعيم، فقد انعقدت الزعامة لديانا التي كانت تفوقنا في الجسم، كما كانت ظريفة ذات عزم. أما حيويتها فكانت دنيا زاخرة أثارت دهشتي وإن عصت على فهمي. وكنت أتحدث قليلا في صدر المساء، حتى إذا نفد معيني وزايلتني طلاقتي، جلست على مقعد خفيض عند قدمي ديانا واعتمدت برأسي على ركبتيها ورحت أصغي بالتتابع إليها وإلى أختها ماري وهما تديران الموضوع الذي أكون قد أثرته. وعرضت ديانا أن تعلِّمني الألمانية، فأحببت أن أتعلم على يديها، ورأيت دور المعلمة يرضيها ويلائمها، كما كان دور التلميذة يرضيني ويلائمني بعد أن توافقت طباعنا وتبادلنا الحب نتيجة لذلك. واكتشفت الشقيقتان أنني أستطيع الرسم فسرعان ما كانت أقلامهما وعلب ألوانهما في خدمتي. وقد أدهشتهما وفتنتهما مهارتي وتفوقي عليهما في هذه الناحية، فأخذت ماري تجلس بجانبي وتراقبني ساعات طويلة، ثم تتلقَّى على يدي دروسًا في الرسم تظهر في أثنائها أنها تلميذة طيِّعة ذكية مثابرة. وهكذا مرَّت الأيام كأنها ساعات والأسابيع كأنها أيام .

أما مستر سانت جون: فإن المودة التي توطَّدت بسرعة وبلا تصنُّع بيني وبين شقيقتيه لم تمتد إليه، لأنه قلَّما كان يمكث في المنزل.. والظاهر أن جزءًا كبيرًا من وقته كان مكرَّسًا لزيارة المرضى والفقراء من سكان أبرشيته المتناثرين.. ولم يكن أي نوع من أنواع الطقس ليصده عن القيام بهذه النزهات الخلوية، فلم يكن يبالى - متى انتهى من ساعات درس الصباح - بمطر أو صحو، بل كان يتناول قبعته ويخرج ليؤدِّي رسالة الحب والواجب، يتبعه كارلو كلب أبيه.. ولستُ أدري في أي ضوء كان ينظر إلى رسالته هذه، فقد كانت شقيقتاه في اليوم غير الملائم تعترضان على خروجه، ولكنه كان يجيبهما بابتسامة عجيبة فيها من الرزانة أكثر مما كان فيها من الابتهاج: «إذا كانت نفحة من ريح أو نثار من المطر يمنعني من أداء هذه الواجبات السهلة، فأي مستقبل أرجوه لنفسي بمثل هذا الكسل والاسترخاء؟». وكان رد ديانا وماري على ذلك يتمثَّل عادة في زفرة وبعض لحظات من التفكير بأسى! على أنه كان ثمة حائل آخر - إلى جانب هذا التغيب الكثير الدائب - يمنعه من أن يصادقني.. ذلك أنه كان متحفِّظًا شارد الفكر، كثير التأمل بطبيعته. وبالرغم من أنه كان ناصع السيرة، غيورًا على واجبه الكنسي، إلّا أنه كان - على ما يظهر - ينعم بذلك الهدوء الفكري والرضا الداخلي الذي ينعم به كل رجل ديني محب للإنسانية، فلقد طالما شاهدته، وهو جالس إلى مكتبه يطالع أو يكتب، يلقي بالكتاب أو القلم ويعتمد بذقنه على يده، ثم يسلم نفسه إلى أفكار لم أكن أدري في أي طريق تتجه، ولكنها كانت ولا شك مزعجة مثيرة. كما كان يوحي

تباين وميض عينيه واتساع حدقته.. وأحسب كذلك أن الطبيعة لم تكن له، كما كانت لشقيقتيه مصدر بهجة وغبطة.. ولقد عبَّر مرة - ولكنه لم يفعل على مسمع مني سوى مرة واحدة - عن إعجاب قوي بما كان للتلال من سحر عابس، وعن حب غريزي للجدران القاتمة العتيقة التي كان يدعوها منزله! بيد أن اللهجة والكلمات التي عبَّر بها عن إحساسه هذا، كانت تنم عن اكتئاب أكثر مما أوحت بابتهاج. كما أنه لم يكن يتجوَّل في أنحاء المروج والآجام حبًا في سكونها الذي يهدِّئ الأعصاب. ولم يكن يبحث أو يعني بالآلاف من مباهجها الصامته !

ونظرًا لزهده في العشرة والاختلاط بالغير، فقد انقضت فترة طويلة قبل أن تسنح لي الفرصة لسبر غور أفكاره. وقد أدركت مداها لأول مرة عندما سمعته يعظ في كنيسته في مورتون. وبودي لو أقوى على وصف تلك الموعظة، ولكن هذا فوق قدرتي، بل إنني لا أستطيع حتى بيان التأثير الذي تركته في نفسي. فقد بدأت الموعظة هادئة، والواقع أنها، من حيث ارتفاع الصوت والإلقاء، ظلت هادئة حتى النهاية.. ولكن سرعان ما سرت حماسة مكبوحة في نبراته الواضحة، فراح يستحث الكلمات العصبية، فإذا بها تزداد قوة.. ولكنها كانت قوة مضغوطة، مكبوحة العنان.. واهتز القلب، وذهل العقل، لقوة الواعظ. وكانت تشيع في العظة مرارة عجيبة.. كانت تعوزها الرقة المسرّية، وتعدَّدت فيها الألماعات القاسية إلى عقائد «كالفن» الإصلاحية - كالانتخاب والرذل، والقضاء والقدر، والاستنكار - وكان لكل إلماعة من هذه، وقع الحكم بالإعدام. فلما انتهى من خطابه، لم أشعر بأنني غدوت بحديثه أحسن حالًا أو أهدأ بالا أو أكثر انشراحًا، وإنما غشيني شعور بالحزن والأسى، إذ أدركت، أكثر من غيري، أن هذا البيان الفصيح الذي كنت أصغي إليه إنما ينبعث من أعماق يشوبها عكر اليأس ورواسب القنوط، وتضطرب فيها بواعث مطامع لا تهن وآمال لا تشبع.. ووجدتني أوقن من أن سانت جون ريفرز وإن كان نقي السيرة، حي الضمير، شديد الغيرة، إلّا أنه لم يجد هدوء الروح والنفس، الذي يجلّ عن الفهم.. وطاف بخاطري أنه لم يكن أسعد حظًا مني وسط أحزاني المكتومة، المتأججة.. أحزاني على معبودي الذي تحطم وفردوسي الذي ضاع.. أحزاني التي تجنبت أخيرًا أن أشير إليها، وإن ظلت تستبد بي وتعذِّبني بلا رحمة أو هوادة .

وانقضى في تلك الأثناء شهر، فاقترب موعد رحيل ماري وديانا عن مور هاوس لتعودا إلى الحياة البعيدة المختلفة التي كانت تنتظرهما كمربيتين، في إحدى المدن الكبيرة الحديثة بجنوب إنجلترا، حيث تعمل كل منهما في أسرة غنية متعالية تعتبرها تابعة وضيعة، ولا تقدر مزاياها إلّا بالمقياس الذي تقدر به مهارة الطاهية أو ذوق خادمة المائدة! ولم يكن مستر سانت جون قد حدَّثني بشيء

عن العمل الذي وعد بالحصول عليه من أجلي. فلما وجدتني وحيدة معه ذات صباح في حجرة الجلوس، لبضع دقائق، تجرَّأت واقتربت من فجوة النافذة القريبة من مكتبه، وهممت بأن أتحدَّث، وإن لم أدرك كيف أصوغ سؤالي أمام جليد التحفُّظ الذي كان يكسو طباعه. ولكنه كفاني تلك المشقة بأن بدأ الحديث، إذ سألني عندما اقتربت: «هل لديك ما تسألينني عنه؟ ».

- «نعم أود أن أعرف ما إذا كنت قد سعيت بعمل أستطيع القيام به؟ ».

- «لقد وجدت، أو بالأحرى ابتكرت عملًا لك منذ ثلاثة أسابيع، ولكني عندما وجدتك تقضين وقتك في سرور واغتباط مع شقيقتيَّ هنا، رأيت من عدم اللياقة أن أعكر صفو سعادتكن إلى أن يحين وقت سفرهما ».

- «لسوف تسافران في مدى ثلاثة أيام ».

- «نعم، وسأعود إلى منزلي في مورتون بعد سفرهما، وستذهب حنة معي ويُغلق هذا المنزل العتيق ».

ثم سكت، فانتظرت أن يعاود حديثه في الموضوع، ولكني رأيت أفكاره قد شُغلت بتأملات أخرى، وشردت عني وعن عملي. فاضطررت إلى أن أنبهه إلى الأمر الحيوي الذي يهمني. وسألته: «وما نوع العمل الذي وجدته يا مستر ريفرز؟ أرجو ألّا يزيد هذا التأخير في صعوبة الحصول عليه ».

- «كلا. إنه يتوقَّف فقط على أن أعرضه عليك وأن تقبليه ».

ثم سكت ثانية، زهدًا في الحديث، فنفد صبري وارتسمت على وجهي نظرة قلقة أغنت عن الكلمات فقال: «لا تتعجَّلي، بل دعيني أخبرك بصراحة أنه ليس لديَّ شيء واضح أو رابح أقدمه لك. وقبل الشرح أرجو أن تتذكَّري ما قلته، وهو أنني إذا قدَّمت لك مساعدتي فإنها لن تزيد على مساعدة الأعمى للمُقعد. إنني رجل فقير، وقد اكتشفت هذه الحقيقة بعد أن سدَّدت ديون أبي، فوجدت أن كل ما تبقَّى هو هذا البيت العتيق المتداعي. وصف من أشجار الشربين العقيمة، والأرض الحمأة الممتدة أمام الدار.. وأنا ما أزال نكرة.. إن اسم ريفرز عريق، ولكن الثلاثة الوحيدين من سلالته كما ترينهم: اثنتان تكسبان عيشهما بخدمة الأغراب، والثالث يعتبر نفسه غريبًا عن بلده، لا في الحياة فحسب، بل وحتى في الموت.. أجل، وإنه ليظن - ويجد نفسه مسوقًا إلى الظن - بأنه لن يلقى التكريم من قومه، ولن يُتاح له أن يلهمهم إلّا بعد أن يحمل على كتفيه صليب التحرر من روابط الجسد، وعندما يهتف به قائد المجاهدين من رجال الكنيسة - الذين يعتبر نفسه أقلهم - أن: قم واتبعني ».

نطق سانت جون بهذه الكلمات بالصوت الهادئ العميق نفسه الذي يلقي به مواعظه، وقد غارت وجنتاه، وانبعث من عينيه بريق وهَّاج. ثم استطرد: «ولما كنت فقيرًا، فلست أملك أن أقدم لك سوى عمل فقير، متواضع، وقد ترين في ذلك إهانة، إذ إنني تبيَّنت أن عاداتك مما يسميه الناس: «راقية مهذبة»، ولأن أذواقك تنحو إلى السمو، ولأن مقامك كان بين المثقفين.. على الأقل، على أنني لا أرى هانة في أي عمل يؤدي إلى تحسين عنصرنا. إنني أعتقد أنه كلما اشتد جدب الأرض التي يقدر على المسيحي العامل أن يجتهد في حرثها، ومهما تضاءل ما يستنبته منها، كان نصيبه من التكريم أسمى! إن حظه إذ ذاك حظ المجاهد في الطليعة، والرائد.. وقد كان أول الرواد في الإنجيل هم الحواريون.. الرسل! وكان قائدهم هو المسيح، المنقذ والمخلص !».

وإذ عاد إلى السكوت، قلت: «حسنًا.. استمر!». فتطلع إليَّ وكأنه يقرأ وجهي، كما لو كانت أساريري حروفًا يقرأها! وعبَّر عما استخلصه من هذا الفحص بالعبارات التالية: «أعتقد أنك ستقبلين المهمة التي سأعرضها عليكِ، وستؤدينها.. لا بصفة دائمة، وإنما إلى أجل، فإن في طبيعتك ما في طبيعتي من عوامل تتأذى من الراحة.. وإن كانت عواملك من نوع غير ما لديَّ !».

وأخلد للصمت مرة أخرى، فقلت: «أرجو أن تزيدني إيضاحًا ».

- «سأفعل، وسترين كم هو فقير، تافه هذا الاقتراح.. إنني لن أقيم طويلًا في مورتون بعد أن توفيَ والدي وأصبحت أملك زمام نفسي. ومن ثم فربما غادرت هذا المكان في غضون اثني عشر شهرًا، ولكني لن أكف - ما دمت مقيمًا في المنطقة - عن بذل قصارى الجهد في سبيل تحسين حالها. فعندما قدمت إلى مورتون - منذ عامين - لم تكن فيها مدرسة واحدة، بل كان أطفال الفقراء محرومين من كل أمل في التقدم. وقد شيدت مدرسة للبنين، وقرَّرت أخيرًا أن أنشئ مدرسة أخرى للبنات، فاستأجرت مبنى لهذا الغرض، وكوخًا يتصل به ويضم غرفتين لمعلمة المدرسة التي سيكون مرتبها ثلاثين جنيهًا في العام. وقد أتممت تأثيث مسكن المعلمة هذا، بأثاث بسيط ولكنه كاف، وذلك بمعونة مس أوليفر، الابنة الوحيدة للثري الوحيد في أبرشيتي. وأعني به مستر أوليفر، صاحب مصنع الإبر والمسبك القائمين في الوادي. وستتكفَّل هذه السيدة، أي مس أوليفر، بنفقات تعليم وكساء فتاة يتيمة تجتذبها من الملجأ لتعاون معلمة المدرسة في الأعمال المنزلية والمدرسية البسيطة، التي تحول واجبات المعلمة دون أن تباشرها بنفسها. فهل تقبلين أن تكوني هذه المعلمة؟ ».

ألقى سؤاله هذا في شيء من العجلة، وكأنه يخشى أن أرفضه في شمم وإباء، غير مدرك حقيقة أفكاري ومشاعري. بل إنه كان يدرك بعضها، إلّا أنه لم يكن يدري كيف سأنظر إلى الأمر، والواقع أن العمل كان متواضعًا، ولكنه كان يكفل لي المأوى.. وكنت بحاجة إلى مثل هذا المأوى الآمن! كان عملًا شاقًا، ولكنه إذا قُورن بعمل المربية في منازل الأثرياء، امتاز عنه بالاستقلال. ثم إن الخوف من العبودية للغرباء كان يثقل على نفسي، في حين أن هذا العمل لم يكن فيه هوان أو ضِعة أو أي امتهان. ومن ثم حزمت أمري وقلت :

- «أشكر لك اقتراحك يا مستر ريفرز، وأقبله راضية !».

- «يجب أن تفهمي أنها ستكون مدرسة قروية. وأن تليمذاتك سيكنّ من البنات الفقيرات.. وبنات الفلاحين والمزارعين على أقصى تقدير. وسيكون التطريز والقراءة والكتابة والحساب هو كل ما تعلِّمينه لهن، فماذا تصنعين بثقافتك وبعقلك الكبير وإحساساتك وذوقك؟ ».

- «سأدخرها إلى وقت الحاجة، ولن تتبدَّد !».

فسألني: «إذن هل عرفت مهمتك!». وكان جوابي: «عرفتها!». وإذ ذاك ابتسم.. ولم تكن ابتسامة مريرة أو حزينة، وإنما كانت ابتسامة الارتياح والشكر العميق. ثم قال: «ومتى تبدئين عملك؟». فقلت: «لسوف أذهب إلى مسكني هناك في الغد، ثم أفتح المدرسة في الأسبوع القادم إذا شئت». فقال: حسنًا.. ليكن ذلك!». ثم نهض وراح يذرع الغرفة وما لبث أن توقَّف عن السير ليتأمَّلني، وهز رأسه. فسألته: «تُرى ما الذي لا يروقك يا مستر ريفرز ».

- «لن تمكثي طويلا في مورتون.. كلا، كلا !».

- «لماذا، وماذا يحملك على هذا القول؟ ».

- «قرأته في عينيكِ.. إن وميضهما لا يوحي بتقبلك لحياة تسير على وتيرة واحدة ».

- «أنا لست طموحة ».

فأجفل إذ سمع كلمة «طموحة» وعاد يقول: «لا! وما الذي دعاكِ إلى التفكير في الطموح؟ من هو الطّموح؟ أعرف أنني كذلك، ولكن كيف اهتديت إلى ذلك؟». فقلت: «إنما كنت أتحدَّث عن نفسي»، فقال: «حسنًا.. إذا لم تكوني طموحة فأنتِ..». وأمسك، فقلت أستحثه: «ماذا؟ ».

- «كنت أهم بأن أقول «عاطفية»، ولكني خشيت ألّا تفهمي الكلمة فتمتعضي. أعني أن الحب الإنساني والوجداني يستبدان بكِ وأنا واثق من أنك لن تقنعي طويلا بقضاء وقت الفراغ في عزلة وانفراد، وبتكريس ساعات العمل لجهد رتيب خال تمامًا من المثيرات. وأنا لست أكثر منكِ قناعة بأن أعيش مدفونًا في هذه البطاح التي تكتنفها الجبال من كل ناحية. إن مواهبي التي منحتني إياها السماء قد شُلّت. وها قد سمعتني الآن أناقض نفسي، لأن هذه هي طبيعتي التي وهبني الله إياها.. أنا الذي يوصي الناس بالقناعة.. أنا الذي يبرِّر للناس مهنهم الوضيعة، مهما كانت.. أنا قسيس الله، أكاد أهذي في نوبات القلق، لكن علينا أن نوفّق بين الميول والمبادئ بطريقة ما !».

وغادر الحجرة.. وهكذا عرفت عنه خلال هذه الساعة الوجيزة ما لم أعرفه خلال شهر كامل مضى، ومع ذلك فقد ظللت في حيرة من أمره.. وكان وجوم ديانا وماري وصمتهما يزدادان كلما اقترب يوم فراقهما لأخيهما ومنزلهما. وحاولت الاثنتان أن تبدوا عاديتين ولكن الأسى الذي كان عليهما أن تصارعاه، كان أقوى من أن تستطيعا إخفائه. وقد أشارت ديانا إلى أنه سيكون فراقًا مختلفًا كل الاختلاف عما عهدتاه، بل إنه كان من المحتمل - بالنسبة لسانت جون - أن يكون فراقًا لسنوات، أو ربما كان فراقًا إلى الأبد. وقالت: «لسوف يضحِّي أخي بكل شيء على مذبح أغراضه البعيدة، وهي: الحب الطبيعي والمشاعر الطبيعية التي ما تزال تزداد قوة في نفسه. إن سانت جون يبدو هادئًا يا جين. ولكنه يخفي في حنايا صدره حُمَّى. وقد تحسبينه رقيقًا ولكنه في بعض الأمور كالموت، لا يرحم ولا يلين! وأسوأ ما في الأمر أن ضميري لا يطاوعني على رده عن قراره القاسي، والواقع أنني لا أستطيع أن ألومه عليه، لأنه قرار سليم نبيل ديني، ولكنه يحطِّم قلبي !».

واغرورقت عيناها بالدموع، بينما حنت ماري رأسها متظاهرة بالانكباب على عملها وغمغمت قائلة :

- «إننا الآن بلا أب ولن نلبث أن نغدو - عما قريب - بلا دار أو أخ !».

ووقع في تلك اللحظة حادث كأنما بعثت به الأقدار عمدًا لتؤيد المثل القائل بأن المصائب لا تأتي فرادى، ولتضيف إلى كروبهم همًا جديدًا، فقد مر سانت جون بالنافذة وهو يتلو خطابًا، ثم دخل يقول: «لقد تُوفيَ خالنا جون». فبدا الذهول على كلتا الشقيقتين، وإن لم تروِّعهما المفاجأة أو تفزعهما، إذ خُيِّل إليهما أن النبأ خطير أكثر منه محزنًا. وكررت ديانا: «تُوفيَ؟». فقال أخوها: «نعم»؟ وإذ ذاك رمقته بنظرة حزينة. وقالت بصوت خافت: «وماذا بعد؟». فأجابها وقد اتخذت أساريره صورة جامدة أشبه بالرخام: «وماذا بعد؟ لا شيء.. اقرئي !».

وألقى بالخطاب في حجرها، فالقت عليه نظرة، ثم سلّمته إلى ماري التي راحت تطالعه في صمت، ثم أعادته إلى أخيها. وراح الثلاثة يتبادلون النظرات ويبتسمون ابتسامة موحشة كئيبة! وأخيرًا قالت ديانا: «الأمر لله.. في وسعنا مع ذلك أن نعيش!». فقالت ماري: «إن حالنا - على أي حال - لم تزدد سوءًا على ما كانت عليه». وقال مستر ريفرز: «كل ما هنالك أنها تضطرنا إلى أن نقارن ما نحن فيه بما كان في الإمكان أن نكون عليه، بصورة واضحة». ثم طوى الخطاب وأغلق عليه درجه، وخرج مرة أخرى .

وانقضت دقائق لم تنبس واحدة منا ببنت شفة في أثنائها. وأخيرًا التفتت ديانا إليَّ وقالت تحدِّثني: «إنك ستعجبين يا جين من أمرنا ومن أسرارنا، وقد تعتبريننا مخلوقات غليظة القلب، لا تتأثر لموت أقرب الناس إلينا، كخالنا. ولكننا لم نرَه ولم نعرفه! لقد كان شقيق أمي ولكنه تنازع مع أبي منذ زمن بعيد، لأن أبي جازف بمعظم ممتلكاته في المضاربات عملًا بنصيحة خالي هذا، فأفلس.. وتبادل الاثنان السباب وافترقا متخاصمين، ولم يصطلحا بعد ذلك. ثم اشتغل خالي في مشروعات ناجحة أصاب من ورائها - فيما أعتقد - عشرين ألف جنيه، ولكنه لم يتزوَّج ولم يكن له أقارب أقرب منا، سوى شخص آخر لا يبزّنا في القربى. وقد ظل أبي يعتقد أن خالي سيكفِّر عن غلطته بأن يترك لنا ممتلكاته، ولكن هذا الخطاب يخبرنا بأنه وهب كل أمواله لقريبه الآخر، ما عدا ثلاثين جنيهًا تقسم بين سانت جون وديانا وماري ريفرز ليشتروا بها ثلاثة خواتم يلبسونها حدادًا عليه! وما من شك في أن له الحق في عمل ما يروق له، ولكنا مع ذلك تلقَّينا خبر موته ببرود، لقد كنت وماري نعتبر أننا سنصبح من الأغنياء إذا ظفرت كل منا بألف جنيه، كما أن لهذا المبلغ قيمته عند أخي سانت جون، إذ يمكّنه من الخير الذي يسعى لعمله !».

وبانتهاء هذا الشرح، أسقط الموضوع، ولم يشر إليه أحد بعد ذلك، سواء في ذلك مستر ريفرز أو أختاه. وفي اليوم التالي غادرتُ مارش إند إلى مورتون. وفي اليوم الذي يليه غادرته ديانا وماري إلى مكان بعيد. وبعد أسبوع، توجَّه مستر ريفرز وحنة إلى بيته وأصبحت الدار القديمة مهجورة !

***

الفصل الحادي والثلاثون

عندما وجدت في النهاية منزلًا، فقد كان عبارة عن كوخ مؤلَّف من غرفة صغيرة طُليت جدرانها بالجير الأبيض وغُطيت أرضها بالرمال، واحتوت على أربعة مقاعد ومنضدة وساعة وصوان فيه طبقان أو ثلاثة وطاقم شاي خزفي. وفوق هذه الغرفة حجرة مماثلة في المساحة للمطبخ، وفيها فراش من خشب الموسكي وصوان ذو أدراج، كان صغيرًا ولكنه كان يتسع لملابسي القليلة، التي زادت بعطف أصدقائي اللطاف الكرام بعض أشياء متواضعة ولكنها ضرورية .

وجاء المساء فصرفتُ اليتيمة الصغيرة التي تتولَّى خدمتي، بعد أن منحتها برتقالة كأجر لها، ثم جلست وحدي عند حافة المدفأة. وكانت مدرسة القرية قد فُتحت في هذا الصباح، فجاءتني عشرون فتاة لم تكن تعرف القراءة منهن سوى ثلاث، وجميعهنّ لا يعرفن الكتابة أو الحساب. بينما كان أكثرهن على إلمام بأشغال الإبرة. وقليلات جدًا من عرفن الحياكة! وكن جميعًا يتحدَّثن بلهجة المقاطعة، فوجدت عناءً في فهم لغتهن. وكانت بعضهن بلا أخلاق وخشنات جموحات جاهلات، ولكن الأخريات كن دمثات سلسات القيادة بهنّ رغبة في التعلم ولديهن ميل لإرضائي.. ولا يفوتني أن أذكر أن هؤلاء الفلاحات الصغيرات الخشنات الثياب كن من لحم ودم، كبنات أنبل الأسرات! وإن بذور التفوق والرقة والذكاء والرحمة يمكن أن تكمن في قلوبهن بمثل ما تكمن في قلوب خير الفتيات تنشئة.. ومن ثم فقد كان واجبي أن أتعهَّد هذه البذور، ولم أشك في أنني سألقى سعادة في القيام بهذه المهمة، وأن أتوقَّع متعة كبيرة في الحياة المنفتحة أمامي، وما كان هذا ليتحقَّق إلّا إذا نظمت خواطري وعملت ما وسعني على أن أقنع بالحياة من يوم إلى آخر .

تُرى هل كنت غاية في الابتهاج والاستقرار والرضا في أثناء الساعات التي قضيتها في حجرة الدراسة العارية المتواضعة أثناء الصباح وبعد الظهر؟ ولكي لا أخدع نفسي، رأيت أن أجيب بصراحة: كلا.. كنت أشعر بالاكتئاب إلى حد ما، وكنت أحس - لغبائي-أنني قد انحدرت، وأنني خطوت خطوة هبطت بي، بدل أن ترتفع بي إلى مستوى الوجود الاجتماعي. كما استاءت نفسي للجهل والفقر وخشونة ما سمعته ورأيته حولي. ولكني لا أريد أن أحتقر نفسي كثيرًا من أجل هذه المشاعر، فإني أدرك أنها خاطئة، وأنني إنما خطوت خطوة عظيمة وسأحاول التغلب على هذه المشاعر، وأنا واثقة من أنني سأتمكَّن في الغد من تغليب خير ما فيها على أسوئها، عسى أن أستطيع بعد بضعة أسابيع

أن أقضي عليها.. ومن المحتمل أن أرى في تقدُّم بعض تلميذاتي - بعد شهور قلائل - ما يحيل تقزُّزي سرورًا وهناء !

وفي الوقت نفسه، دعني ألقي على نفسي سؤالًا واحدًا: أيهما أفضل؟ أن أخضع للإغراء وأصغي للهوى، فلا أبذل أي مجهود مضنٍ، ألا أناضل وأكافح، وإنما أتردَّى في الشرك الحريري، وأغرق في النوم فوق الزهور التي تغطِّيه، لأستيقظ في طقس الجنوب الجميل بين ترف إحدى الفيلات، وأن أعيش في فرنسا خليلة لمستر روشستر منتشية بحبه نصف عمري.. فما كنت لأشك في أنه سيحبني زمنًا.. بل إنه أحبني فعلًا، ولن يوليني غيره كل هذا الحب مرة أخرى، بل إنني لن أعرف ثانية الإكرام الذي يُمنح للجمال وللشباب والبهاء، لأن سواه لن يرى فيَّ هذه المفاتن! لقد كان مغرمًا وفخورًا بي إلى حد لا يشبهه فيه أحد. ولكن.. أين سرح بي الخاطر، وما هذا الذي أقول.. بل ما هذا الذي أشعر به؟ لقد كنت أتساءل أيهما أفضل: أن أكون جارية في جنة محمومة، أعيش في مرسيليا سكرانة بالوهم ساعة، ثم أختنق بدموع الندم والخزي في الساعة التالية، أو أن أكون معلِّمة حرة شريفة، بمدرسة في ركن جبلي صحّي بقلب إنجلترا؟

نعم.. لقد بدأت أشعر بأنني أصبت في تمسُّكي بالمبادئ والقوانين، وفي احتقاري وسحقي للفورات الملوّثة التي انبعثت في لحظة هوس وجنون. لقد هداني الله إلى الصواب، فحمدًا للعناية الإلهية على أن هدتني !

وعندما بلغت بي تأملات المساء هذا الحد، مضيت إلى باب كوخي ورحت أتطلَّع إلى غروب الشمس في ذلك اليوم من أيام الحصاد وإلى الحقول الممتدة أمام كوخي الذي كان يبعد، والمدرسة، عن القرية نصف ميل، وكانت الأطيار تغرِّد ألحانها الأخيرة.. وكما قال الشاعر :

«كان الهواء عليلًا والندى بلسمًا »!

وفيما كنت أسرّح البصر وأحسبني سعيدة، فوجئت بأن وجدتني بعد قليل أبكي، فلماذا؟ للمصير الذي قضيت به على سيدي، الذي لن يقدّر لي أن أراه، إذ انتزعت نفسي بعيدًا عنه.. للأحزان والحنق القاتلين اللذين سيعصفان بنفسه نتيجة رحيلي، وربما حادا به عن جادة الحق وطريق الرشاد، إذا ما استبد به القنوط بحيث لا يدع سبيلا لأمل يعاوده !

وعند هذه الفكرة، حوّلت وجهي عن السماء الجميلة في المساء وعن وادي مورتون المنعزل.. وأقول المنعزل لأن الجزء الذي كان يبدو لعيني، لم تظهر فيه من المباني سوى الكنيسة وبيت الراعي، يكادان يغيبان وسط الأشجار..

وفي المؤخرة تمامًا بدا سقف قصر فيل هول حيث كان يقيم مستر أوليفر الغني ومعه ابنته. فأغمضت عيني واعتمدت برأسي على حافة الباب الحجرية، ولكن سرعان ما انبعث بالقرب من الباب الذي يفصل بين حديقتي الصغيرة والمرعي صوت جعلني أرفع رأسي وأرى على التو العجوز كارلو - كلب مستر ريفرز - وهو يدفع البوابة بأنفه، بينما استند على حافتها سانت جون، وقد عقد ذراعيه وتطلَّع إليَّ بجبين عابس ونظرة توحي بالامتعاض. فطلبت إليه أن يدخل، ولكنه قال: «كلا، لا أستطيع البقاء. فقد جئتك بطرد صغير تركته لك شقيقتاي. وأظنه يحوي علبة ألوان وأقلامًا وورقًا ».

واقتربت لأتناول الهدية السارة، فتأمَّل وجهي متفحِّصًا بنظرات بدت لي كالحة. وكانت آثار الدموع بلا شك جد ظاهرة على محيَّاي، فسألني :

- «هل وجدتِ عملكِ في اليوم الأول أشق مما توقَّعتِ؟». فأجبته :

- «آه، لا.. على العكس، سأسير مع تلميذاتي على ما يرام مع الوقت ».

- «ولكن ربما وجدت في لوازم العيش والكوخ والأثاث ما خيَّب آمالك؟ إنها في الواقع قليلة ضئيلة ولكن ...».

فقاطعته قائلة: «إن كوخي نظيف لا يؤثِّر فيه الطقس، وأثاثي كافٍ ومريح، وكل ما أراه يحملني على الشكر، لا على الاستياء. ولست من الحماقة وحب الراحة الجسدية بحيث آسف لعدم وجود بساط أو أريكه أو طبق من الفضة. هذا إلى أنني قبل خمسة أسابيع لم أكن أملك شيئًا، بل كنت منبوذة متسوِّلة شاردة. أما الآن فلي معارف ومنزل وعمل، حتى إنني لأعجب لفضل الله وكرم أصدقائي ووفرة نصيبي، إنني لا أتبرَّم ولا أتذمَّر ».

- «ولكنكِ تجدين في العزلة ما يضايقك. إن المنزل الصغير القائم خلفك مظلم وخاو ».

- «لم أقضِ بعدُ زمنًا يكفي لأنعم بالهدوء، حتى ينفد صبري بسبب العزلة ».

- «حسن جدًا.. أرجو أن تحسِّي بالرضا الذي تعربين عنه. وعلى أي حال، فسوف يحدثك رأيك السديد بأنه لم يحن الوقت بعد للإذعان لمخاوف امرأة لوط، حين عزَّ عليها أن تتبعه وتخلف وراءها ما كانت تعيش فيه.. إنني لا أعرف شيئًا عما خلَّفتِه وراءكِ قبل أن تقع عليكِ عيناي، ولكني أنصحكِ بأن تستبسلي في مقاومة كل ما يغريك بالنظر إلى الوراء، بل سيري في طريقك الراهن بقدم ثابتة لبضعة شهور على الأقل !».

قلت: «هذا ما استقر عليه عزمي». فعاد يقول: «إن السيطرة على إغراء النزوات، وكبح اندفاع الطبيعة، مهمة شاقة.. ولكنها ممكنة على ما عرفتُ من تجاربي. فلقد منحنا الله القوة لصنع مصائرنا والتحكم في أقدارنا، وعندما تتطلّب طاقتنا المحدودة عونًا تعجز عن الحصول عليه، وعندما تحاول الإرادة جاهدة أن تخط طريقًا ثم لا نملك السير فيه. فلا حاجة بنا إلى أن نعاني جوع العقل أو يستبد بنا اليأس، بل علينا أن نبحث للعقل عن غذاء آخر، لا يقل قوة عن الثمرة المحرَّمة التي طالما اشتهى تذوّقها، إن لم يكن أطهر منا وأنقى.. كما يجب أن تشق للقدم الجموح طريقًا في استقامة واتساع تلك التي حجبها عنها الحظ، إن لم تكن أشق وأوعر! إنني شخصيًا كنت غاية في التعس والشقاء - منذ عام - لأنني ظننت أنني أخطأت بانخراطي في سلك الكهنوت. وكانت التبعات الرسمية ترهقني كل الإرهاق فتحرَّقت نفسي إلى الحياة الدنيوية الأكثر حرية، وإلى الأعمال الأدبية المثيرة، وإلى أن أكون فنانًا أو مؤلِّفًا أو خطيبًا أو أي شيء غير أن أكون قسيسًا.. نعم كان قلب السياسي، والجندي، وطالب المجد، ومحب الشهرة، والمتحرِّق إلى القوة.. هذا القلب كان ينبض تحت الزي الكهنوتي الذي أرتديه. واعتبرت حياتي شقية يجب تغييرها وإلّا وجب أن أموت. ولكن موسم الظلام والنضال انتهى، فأشرق الضياء وحان الخلاص واتسع أفق وجودي الضيِّق، وسمعت روحي نداء من السماء أن انهضي واستجمعي قوَّتك وانشري جناحيك واصعدي إلى ما فوق مدى البصر، فقد اختاركِ الله لمهمة يحتاج أداؤها إلى مهارة وقوة وشجاعة وفصاحة وسائر خير الخصال والمواهب لدى الجندي والسياسي والخطيب.. فكل هذه المواهب يجب أن تتركَّز في المبشِّر الصالح. وإذ عوَّلتُ على أن أكون مبشرًا، فتغيَّرت حالتي العقلية، وتحطَّمت القيود عن مواهبي فلم يبقَ سوى آثار مريرة لا يشفيها غير الزمن. والواقع أن أبي عارض ما عوَّلت عليه. أما وهو قد مات، فلم يعد في طريقي شيء من العقبات التي يستدعي التغلب عليها كفاحًا. فقد سوَّيت بعض المشكلات وعثرت على من يخلفني في مورتون، وقطعت خيطًا أو خيطين تبقيا من نسيج المشاعر.. وبقيَ الصراع الأخير مع الضعف الإنساني، وإني لواثق من أن الغلبة ستكون لي، لأنني أقسمت أن أنتصر.. ثم أغادر أوربا إلى الشرق ».

قال ذلك بصوت بادي الإعياء، ولكنه كان حازمًا حاسمًا، ثم أخلد إلى الصمت، وتطلَّع - لا إليَّ - ولكن إلى الشمس الغاربة التي كنت أرنو إليها بدوري. وكان كلانا يولي ظهره شطر الطريق المفضي إلى كوة الباب، فلم نسمع صوتًا غير خرير المياه الجارية في الوادي، ولذلك أجفلنا عندما فوجئنا بصوت مرح عذب كرنين جرس فضي يهتف :

-«سعدت مساء يا مستر ريفرز، وطاب مساؤك يا كارلو العجوز. إن كلبك أسرع منك في التعرف على الأصدقاء يا سيدي فقد رفع أذنيه وبصبص بذيله عندما توسَّطتُ الحقل، أما أنت فما زلت توليني ظهرك إلى الآن !»

وكان ذلك صحيحًا.. وعلى الرغم من أن مستر ريفرز قد أجفل لدى سماع هذه الكلمات الموسيقية وكأنما هبطت على رأسه صاعقة، إلّا أنه ظل واقفًا حتى نهاية الحديث في الوضع نفسه معتمدًا بذراعيه على البوابة ومتجِّهًا نحو الغرب، ثم استدار أخيرًا - بعد أن قدح فكره - وإذا بي أرى إلى جانبه شكل إنسان تصغر قامته عن مستر ريفرز بثلاثة أقدام، وقد اتشح بثوب ناصع البياض.. وكانت شابة بديعة القد، مليئة في رشاقة. وبعد أن انحنت تداعب كارلو، رفعت رأسها فازاحت خمارًا طويلا كشف عن وجه كامل.. والجمال الكامل تعبير قوي، ولكني لن أتراجع عنه ولن أحاول وصفه، لأن حلاوة الأسارير وفتنة القوام كانتا تبرِّران هذا التعبير. أجل، لم يكن ينقص الفتاة سحر، ولم يكن بها أي عيب أو نقص على الإطلاق، بل كانت قسماتها منتظمة رقيقة، وكانت عيناها تجلاوين أشبه بالعيون التي نشاهدها في الصور: واسعتين سوداوين داكنتين تحيط بهما أهداب طويلة، وحاجبان كقوسين رُسما بالقلم ليضفيا الصفاء على تلكما العينين. وكان جبينها ناعمًا، ووجنتاها بيضاوين بضَّتين، وشفتاها جميلتين تفيضان بالصحة والحيوية.. حتى أسنانها كانت متساوية ناصعة خالية من كل هنة، وكان ذقنها صغيرا تتوسطه نقطة غائرة فاتنة، وجدائل شعرها غزيرة.. وقصارى القول، كان ذلك كله مجتمعًا، يمثِّل المثل الأعلى للجمال.. الجمال الكامل! ولقد عجبت عندما رأيت هذه المخلوقة الحسناء، وأعجبت بها من كل قلبي. ولا شك في أن الطبيعة قد حابتها عندما خلقتها فأغدقت الحسن عليها بهذا البذخ والإسراف .

ترى ماذا كان رأي سانت جون ريفرز في هذا الملاك الدنيوي؟ كان من الطبيعي أن أطرح على نفسي هذا السؤال، فتوقَّعت أن أقرأ الجواب على أسارير الشاب عندما التفت ونظر إلى الملاك، ولكنه سرعان ما حوّل عنها بصره وتطلَّع إلى مجموعة من الأقحوان المتواضع، كانت تنمو على مقربة من البوابة. وقال وهو يسحق بقدمه رؤوس الأزهار الشتوية غير المتفتحة :

- «أمسية بديعة، ولكن الوقت متأخِّر فما كان لك أن تخرجي وحدك!»، فهتفت الفتاة: «أوه! إنما وصلت من (...) - وذكرت اسم مدينة كبيرة تبعد عشرين ميلًا - بعد ظهر اليوم. فأخبرني بابا بأنك فتحت مدرستك وأن المدرّسة الجديدة قد حضرت. لذلك ما إن انتهيت من تناول الشاي حتى وضعت قلنسوتي على رأسي، وجريت إلى الوادي لأراها. أليست هي هذه؟ ».

وأشارت إليَّ فقال سانت جون: «أجل، هي»، فسألتني في سذاجة وبصوت طروب: «أتعتقدين أنك سوف تحبِّين مورتون!». قلت: «هذا ما أرجوه، فما أكثر المغريات التي تدعوني!». فعادت تسألني: «وهل أحببتِ منزلكِ؟». فأجبت: «كثيرًا جدًا!». فتساءلت في لطف: «هل ترينني أحسنت تأثيثه؟». وكان جوابي: «جدًا!». ولكنها سألتني مرة أخرى: «وهل أحسنتُ اختيار تابعتكِ إليس وود؟». فأجبتها قائلة: «فعلًا، فهي قابلة للتعلم، طيِّعة ».

وأدركت عندئذ أن الزائرة هي مس أوليفر الوارثة التي وُهبت من الثراء قدر ما وُهبت من الجمال. فتساءلتُ في نفسي: أي نجمين سعيدين اجتمعا يوم مولدها؟ واسترسلت الفتاة تقول: «لسوف آتي وأساعدكِ في التعليم أحيانًا، وسأجد متعة في زيارتكِ من حين إلى آخر. لقد قضيت وقتًا طيبًا في زيارتي الأخيرة لمدينة (س) وقضيت ليلة الأمس في الرقص حتى الثانية صباحًا، إذ التقيت بضباط الكتيبة (...)، وهم أظرف رجال في العالم ».

وخُيِّل إليَّ أن مستر سانت جون لوى شفته السفلى وزوى العليا لحظة، فبدا فمه مضغوطًا متجهِّمًا إلى حدٍّ كبير، وظهر الجزء الأسفل من وجهه عابسًا على غير عادته، عندما نطقت تلك الفتاة الضاحكة بذلك الحديث. ثم رفع عينيه عن زهرات الأقحوان، واستدار إليها وعلى أساريره نظرة جامدة متفحِّصة ذات معنى، فأجابت الفتاة بضحكة ثانية تلائم شبابها وتورُّد خديها وغمازتها وعينيها المؤتلقتين .

وفيما كان في وقفته مخلدًا إلى الصمت والوقار، قالت هي تداعب كارلو :

- «مسكين كارلو، لكم يحبني! إنه ليس فظًّا ينفر من أصدقائه ولو استطاع أن يتكلَّم ما التزم الصمت ».

وأخذت تربِّت على رأس الكلب وهي منحنية بجمالها الطبيعي أمام السيد الشاب الصارم. ورأيت وجه السيد يتوهَّج كاللهب، وشاهدت عينيه الهادئتين تتحوَّلان فجأة إلى نار وتخفقان بانفعال جارف، فكان بهذا الحياء والاشتعال لا يقل جمالا بين الرجال عن الفتاة بين النساء. وارتفع صدره مرة كأنما ضاق قلبه الكبير بقيود الاستبداد، فتضخَّم برغمه ووثب وثبة قوية للتمتع بالحرية والانطلاق. ولكنه كبح جماحه كما يكبح الراكب جماح جواده، ولم يرد على كلمات الفتاة وهي تحاول استدراجه .

فرفعت الفتاة رأسها واستطردت تقول: «إن بابا يقول: إنك لم تعد تأتي لزيارتنا الآن. إنك غريب عن فيل هول وأبي الليلة وحيد، متوعِّك.. فهل تعود معِي وتزوره؟ ».

فأجاب سانت جون: «إن الساعة ليست ملائمة للتطفّل على مستر أوليفر ».

- «ليست ساعة ملائمة! إنها كذلك لأنها الساعة التي يكون فيها بابا أشد حاجة إلى من يسلّيه بعد فراغه من عمله. تعال الآن يا مستر ريفرز. لماذا كل هذه الحياء وكل هذا الاكتئاب؟ ».

وصمت فملأت الفجوة التي خلّفها صمته بأن صاحت وهي تهز رأسها :

- «آه، لقد نسيت! كم أنا حمقاء! معذرة إذا كنت قد نسيت أن لك الحق في عدم الميل إلى ثرثرتي بعد أن غادرتك ديانا وماري، وأغلق مور هاوس، وبقيت هكذا وحيدًا. إنني أرثي لك فتعالَ وزُر بابا !».

ولكنه قال في إصرار: «ليس الليلة يا مس روزاموند. ليس الليلة ».

كان سانت جون يتكلّم كما لو كان آلة. فلم يكن في وسع أحد غيره أن يدرك مدى ما يكلفه ذلك الرفض من ثمن غال. وقالت الفتاة :

- «يجدر بي أن أغادرك الآن ما دمت عنيدًا بهذا الشكل، فلست أجرؤ على البقاء أكثر من هذا، إذ بدأ الندى يتساقط. طاب مساؤك !»

- «طاب مساؤك ».

لكن الفتاة عادت بعد لحظة لتسأله: «أتراك بخير؟». وكانت محقة في سؤالها لأن وجهه كان في شحوب ردائها الناصع. ولكنه أجاب: «إنني في خير حال». ثم حنى رأسه وانصرف، وسارت في سبيلها وسار هو في سبيله .

والتفتت الفتاة مرتين لتلقي عليه نظرة، وهي تخطر في الحقل، كأنها حورية جميلة. أما هو، فسار في طريقه بخطوات ثابتة دون أن يلتفت خلفه .

كان منظرًا آخر للعذاب والتضحية شغل أفكاري عن التأمل في حالتي..
وأيقنت بأن ديانا ريفرز لم تبالغ حين لقَّبت أخاها بأنه كالموت لا تلين له قناة !

الفصل الثاني والثلاثون

مضيت في أعمالي في مدرسة القرية بكل ما وسعني من نشاط وأمانة. وكانت مهمتي شاقة في البداية، فقد انقضت فترة طويلة - مع كل ما كنت أبذله من جهود - قبل أن أستطيع فهم تلميذاتي وطبائعهن.. كن في غاية في الجهل، هامدات المواهب، غبيات لا يُرجى منهن أمل. وكن يظهرن لأول وهلة متساويات في الغباء، ولكني سرعان ما أدركت غلطتي، إذ لمست بينهن فروقًا كتلك التي بين المتعلِّمات. وما أن فهمتهن وفهمنني حتى تبدَّدت تلك الفروق. وما إن هدأت دهشتهن مني ومن لغتي ونظامي وطريقتي، حتى وجدت بعض الخاملات الباديات الغباء قد تحوَّلن إلى فتيات متقدات الذكاء. وأبدت الكثيرات شكرًا وامتنانًا.. وظرفا كذلك! واكتشفت بينهن نماذج غير قليلة للأدب الطبيعي والاعتزاز الأصيل بالنفس، كما اكتشفت بينهن مقدرة فائقة نالت تقديري وإعجابي. وسرعان ما شعرن بلذة في أداء واجباتهن على الوجه الأكمل، وفي الاحتفاظ بنظافتهن الشخصية، وفي استذكار دروسهن بانتظام، وفي التحلِّي بالعادات الهادئة المنظمة. وكثيرًا ما دهشت لهذه السرعة في تقدمهن، واستشعرت لذلك زهوًا صادقًا سعيدًا، كما بدأت بدوري أحب بعض المتفوِّقات ويحببني. وكان بين تلميذاتي عدد كبير من بنات الفلاحين الناضجات، اللاتي بلغن سن الرشد تقريبًا، فاستطعن القراءة والكتابة، وتعلَّمن الخياطة وشغل الإبرة، ووجدت فيهن أخلاقًا تستحق التقدير، ورغبة قوية في التعلُّم والترقِّي. وكثيرًا ما كنت أقضي ساعات طيبة في المساء ببيوت هؤلاء التلميذات، أحظى خلالها من أهلهن الفلاحون وزوجاتهم) بالرعاية. وكنت أجد متعة في تقبُّل هذا العطف الساذج، وأقدِّم لهم في مقابله تقديرًا كان يفتن الفتيات، لأنه كان يرفعهن في أنظار أنفسهن، ويحملهن على الجهد ليصبحن أهلا للمعاملة الكريمة التي كن يلقينها مني !

وشعرت بأنني غدوت محبوبة في تلك المنطقة. فأينما ذهبت كنت أسمع تحيات قلبية من كل ناحية، وألقى ابتسامات المودة والإخلاص. إن الحياة بين المجال العام أشبه بالجلوس في ضياء الشمس: يتَّسم بالهدوء والصفاء. وكثيرًا ما كان قلبي في تلك الفترة من حياتي يفيض بالشكر، وقلما أثقله الاكتئاب. ومع ذلك فلست أكتمك أيها القارئ أنني في غمرة هذه الحياة الوادعة النافعة، كنت بعد أن أقضي سحابة النهار في الجهد والعناء مع تلميذاتي، وأقضي الأمسيات في الرسم أو القراءة وحيدة، راضية النفس، لا ألبث بالليل أن أندفع في أحلام عجيبة.. أحلام متعدِّدة الألوان، مضطربة، مليئة

بالمثل العليا وبكل مثير وعاصف.. أحلام كانت تتجلّى وسط مناظر غير عادية مشحونة بالمغامرات والمخاطرات والمصادفات الخيالية، فإذا بي أتصوَّرني أقابل مستر روشستر - بين وقت وآخر - فأراه دائمًا في ضيق شديد، فتتجدَّد ذكرى وجودي بين أحضانه، وسماع صوته، ولقاء نظرته، ولمس يده ووجنته، وحبِّي له وحبه لي. وأملي في قضاء الحياة إلى جانبه... كل هذه كانت تتجدَّد بكل قوتها وحرارتها الأولى! وكنت أستيقظ بعد ذلك فأتذكَّر أين أنا وحقيقة مركزي، فأجلس في فراشي وأنا أهتز وأرتجف. وعند ذاك، كان الليل الداجي يشهد انتفاض يأسي، ويسمع انفجار وَجدي. ومع ذلك، فما كانت تحين الساعة التاسعة من الصباح التالي، حتى أبادر إلى فتح أبواب المدرسة وقد استعدت هدوئي ورزانتي، وتأهَّبت لأعبائي المدرسية اليومية !

وحافظت روزاموند على وعدها بأن تأتي لزيارتي، فكانت تجيء عادة خلال ممارسة رياضتها الصباحية ممتطية فرسها الصغيرة إلى الباب، ومن خلفها خادم يمتطي جوادًا ويرتدي بزة خاصة.. كانت الفتاة تبدو رائعة المظهر في زي ركوب الخيل القرمزي وقبعتها المخملية السوداء التي كانت تستوي برشاقة فوق جدائل طويلة تلثم خديها وتتدلَّى على كتفيها بصورة فاتنة تجل عن الوصف.. وهكذا كانت تدخل البناء الريفي وتسير وسط التلميذات القرويات المبهورات بمنظرها! وكان مقدمها يصدف عادة الساعة التي يلقي فيها مستر ريفرز درسه الديني اليومي. ولاحظت أن عين الزائرة كانت تخترق قلب الكاهن الشاب. ويبدو أنه كان يشعر بقوة غريزية تنذره بدخولها غرفة الدرس، وإن لم يرَها. فما إن تظهر في مدخل الباب، تتألَّق عيناه وتتورَّد وجنتاه وتتبدَّل أساريره الجامدة، التي كانت برغم جمودها تعبِّر، بسكونها عن طاقته المكبوتة بأقوى مما تعبِّر العضلات المختلجة والنظرات المارقة .

وكانت من غير ريب تعرف مبلغ قوتها. أما هو فلم يكن يدري، وإلا لما أخفى عنها معرفته. وعلى الرغم من «رواقيته» المسيحية - أي عدم مبالاته بالمؤثرات الجسدية - فإنه لم يكن يتمالك نفسه إذا ما تقدَّمت إليه وخاطبته مبتسمة في وجهه مشجِّعة في مرح يكاد يكون تغزُّلا، فكانت يداه تضطربان، وعيناه تتقدان، ويلوح وكأن نظرته المتورِّعة تقول دون أن تتحرَّك شفتاه: «أحبك، وأعرف أنك تؤثرينني، وليس اليأس من التوفيق هو الذي يعقد لساني، لأنني أعتقد أنك ستتقبَّلين قلبي لو قدمته لك. ولكن هذا القلب قد وضع على مذبح مقدّس، ولن يلبث أن يصبح مجرَّد قربان فان !».

وكانت إذ ذاك تتجهَّم كطفلة خاب رجاؤها، وتظهر غمامة في سماء مرحها، فتبادر بسحب يدها من يده بسرعة، وتتحوَّل عن وجهه غاضبة على الفور من محيّاه المتسم ببطولة الشهداء. ولا شك في أن مستر سانت جون، عندما

كانت تتركه هكذا، ما كان ليحجم عن التضحية بكل شيء في العالم ليتبعها ويناديها ويستبقيها معه لولا أنه لم يكن يقوي على أن ينزل - في سبيل فردوس حبها - عن مجرد الأمل في جنة الخلد. أضف إلى ذلك أنه ما كان في وسعه أن يربط كل ما فُطر عليه من حب للتجوال والطموح والشعر والكهنوت، بعاطفة واحدة محدودة.. أجل، لم يكن يستطيع - ولا كان راغبًا - في التخلِّي عن ميدان رسالته الواسع مقابل ما كان يرجوه من رغد وسلام في فيل هول. فقد عرفت منه الكثير عن نفسه برغم تحفظه، وذلك في أثناء غارة تجرَّأت ذات مرة على القيام بها لاقتحام سره .

ولقد شرَّفتني مس أوليفر بزيارات عديدة لكوخي، فاستطعت أن أقف على كل أخلاقها من غير تحفُّظ أو تنكُّر: كانت مغناجة، ولكنها لم تكن بلا قلب، دقيقة في غير أنانية، مدلَّلة منذ مولدها، ولكنها لم تكن مفسَدة، متهوِّرة ولكنها طيبة القلب، معتزَّة مزهوَّة من دون أن تكون لها حيلة في ذلك وهي ترى في كل نظرة تُلقى عليها مبلغ ملاحتها، ولكنها لم تكن متعجرفة. وكانت مبسوطة الكف في غير غرور، صريحة، وذكية، ومرحة، وطروبًا، لا تطيل التفكير في شيء. وقصارى القول: كانت فاتنة في عين فتاة من جنسها، باردة الطبع مثلي، ولكنها لم تبلغ الكمال من حيث التأثير في النفس. أو كانت - على سبيل المثال - تختلف في عقليتها عن شقيقتي سانت جون.. على أنني، مع ذلك، أحببتها كما أحببت تلميذتي أديل، فيما عدا أننا نكنّ في العادة للطفلة التي ربَّيناها وعلَّمناها حبًّا يفوق بالطبع ما يمكن أن تكنه لواحدة من المعارف بالغة الرشد، وإن تساوت معها في الجاذبية.. ولقد مالت هي الأخرى إليَّ، وقالت إنني أشبه مستر ريفرز فيما عدا أنني لا أبلغ عُشر جماله. فمع أنني كنت ظريفة نقية الروح، إلّا أنه كان ملاكًا.. ومع ذلك فإنني كنت طيبة ماهرة هادئة النفس رزينة.. مثله! وكمعلّمة، فإنني لا أضاهى. وكانت تقول إن تاريخ حياتي السابقة - إذا ما كُشف النقاب عنها - فإنها ستكون ولا بد قصة رائعة ممتعة !

وحدث ذات مساء أن كانت بنزقها الطفلي وخفَّتها وفضولها الطائش تنقِّب في أرجاء الصوان ودرج المائدة في مطبخي الصغير، عندما اكتشفت وجود كتابين فرنسيين ومجلد عن شيللر وكتاب في النحو الألماني وقاموس. كما عثرت على أدوات الرسم وبعض الصور التخطيطية. بينها صورة فتاة صغيرة هي إحدى تلميذاتي، وبعض المناظر الطبيعية المتنوِّعة التي التقطتها في وادي مورتون والآجام المحيطة به، فجمدت في أول الأمر دهشة وعجبًا، ثم جُنَّت سرورًا وابتهاجًا، وقالت تسألني إن كنت أنا التي رسمت هذه الصورة؟ وهل أعرف الفرنسية والألمانية؟ ما أجملني وما أروعني! إنني أرسم خيرًا من أستاذها في المدرسة الأولى في (س)، فهل لها أن تطمع أن أرسم لها صورة تريها لأبيها؟ ووافقت: «بكل سرور ».

وتملّكتني رجفة الفنان المغتبط لفكرة رسم مثل هذا النموذج الكامل المشرق، وكانت ترتدي إذ ذاك ثوبًا كحليًا من الحرير يكشف عن ذراعيها ونحرها، ولا تتزيَّن بغير جدائل شعرها الكستنائي وقد تموَّجت على كتفيها بكل روعة الجدائل الطبيعية، فتناولت قطعة من الورق المقوّى ورسمت صورة تخطيطية لها بعناية واهتمام، إلى أن جاءت الظلمة، فطلبت إليها أن تأتي وتجلس أمامي في يوم آخر.. وكان أن حدثت أباها عن ذلك، فاصطحبها مستر أوليفر بنفسه في المساء التالي. ووجدته طويل القامة، ضخم التقاطيع، متوسِّط العمر، أشيب الرأس، وقد بدت ابنته الحسناء بجانبه أشبه بزهرة مشرقة إلى جوار برج مغبَّر عتيق.. وقد بدا لي رجلا محبًا للصمت متعجرفًا، ولكنه عاملني برفق، وسُرَّ سرورًا عظيمًا بالرسم التخطيطي لروزاموند فطلب مني أن أتم اللوحة كما أصر عل دعوتي إلى فيل هول في اليوم التالي لأقضي معهما المساء .

فلما ذهبت، وجدته قصرًا كبيرًا جميلا يدل على ما ينعم به صاحبه من ثراء. وكانت روزاموند شديدة الفرح والابتهاج طوال بقائي هناك. ولما خاض والدها معي في الحديث بعد تناولنا الشاي، أعرب لي عن التقدير لأعمالي والتقدُّم الذي نالته المدرسة على يدي، ثم قال إنه أصبح لا يخشى - بعد ما سمعه ورآه - إلّا أن أغادر المدرسة إلى أخرى أليَق بي، وصاحت روزاموند :

- «الواقع أنها من الحذق بحيث يصح أن تكون مربِّية في أيّ أسرة من أسر العائلات الراقية في البلاد يا بابا ».

لكنني كنت أوثر البقاء حيث كنت، على العمل لدى أي أسرة من الطبقة الراقية. وتحدَّث مستر أوليفر عن مستر ريفرز وعائلة ريفرز باحترام بالغ، قائلًا إنها أسرة عريقة في تلك الأصقاع، وإن أجداده كانوا أثرياء يمتلكون قرية مورتون كلها، وأن سليل الأسرة يستطيع، إذا شاء، أن يصاهر أحسن عائلة، ولكنه أعرب عن أسفه على أن يكون هذا الشاب الجميل واعظًا، وأن يبدِّد في ذلك حياته الغالية. وتجلّى من ذلك أن والد روزاموند لم يكن يقيم أي عقبة في سبيل اقتران بنته بمستر سانت جون، وأن الرجل يعتبر عراقة الكاهن الشاب واسم أسرته ومهنته المقدَّسة تعويضًا كافيا لحاجته إلى المال ..

وكان اليوم الخامس من نوفمبر عطلة مدرسية، فبعد أن عاونتني خادمتي الصغيرة في تنظيف منزلي، انصرفت وهي راضية النفس بالبنس الذي أعطيتها إياه أجر معاونتها لي. وكان كل ما حولي نظيفًا لامعا: أرضية دُلّكت، ومدفأة صُقلت، ومقاعد نُظّفتت جيدًا، وكنت قد نظَّفت نفسي كذلك، فوجدت أمامي طوال بعد الظهر أقضيه كيفما أشاء.. فشُغلت بترجمة بضع صفحات من

الألمانية ساعة، ثم جئت بلوحة الرسم والأقلام وشرعت أتم صورة روزاموند أوليفر. وكنت قد فرغت من رسم الرأس، ولم يبقَ إلّا أن ألوِّن الخلفية، وأظلِّل خطوط الثياب، وأضفي لمسة من اللون الأرجواني على الشفتين الناضجتين، وأسبغ بعض تموُّجات على خصلات الشعر، وأزيد في ظلال الأهداب تحت الجفون اللازوردية! وفيما كنت منهمكة في هذه التفاصيل البديعة سمعت طرقًا سريعًا على الباب غير المغلق، ثم شاهدت سانت جون ريفرز يدخل قائلًا :

- «لقد جئت لأرى كيف تقضين يوم عطلتك، فأرجو ألّا تكوني قد قضيته في التفكير. كلا، ها أنت ترسمين، هذا حسن، فلن تشعري بالوحدة. ها أنا ما زلت غير مطمئن لبقائك برغم أنكِ أظهرتِ جلدًا وصبرًا يدعوان إلى الإعجاب. لقد جئتك بكتاب تتسلين به في المساء !».

ووضع على المنضدة كتابًا جديدًا في الشعر، من تلك المطبوعات الدسمة القيِّمة التي كانت حديث الناس في ذلك العهد.. العهد الذهبي للأدب الحديث. ومن أسف أن قرَّاء زماننا لا ينعمون بهذه الميزة ولكن صبرًا! لستُ أتوقَّف لأتّهم أو أتذمَّر، فإنني أعرف أن الشعر لم يمت، وأن العبقرية لم تتوقّف، وأن حب المال لم يسيطر على كليهما، بل إنهما سوف يؤكِّدان وجودهما وقوّتهما مرة أخرى في يوم من الأيام. أيتها الملائكة الجبارة الآمنة في السماء! إنك لتبتسمين عندما تظفر الأرواح الشريرة بالغلبة، وتبكي الأرواح الضعيفة على أطلالها. فهل دُمِّر الشعر ونُفيت العبقرية؟ كلا.. فهل هما إذن في ركود؟ كلا، إنهما لا يعيشان فحسب. بل هما يهيمان ويتقويان، ولولا سلطانهما الروحي المنتشر في كل مكان لأصبحت في جحيم.. جحيم ضعتك ومهانتك !

وفيما كنت أتأمَّل في لهفة صفحات من ديوان مارميون (كان الكتاب يضم أشعار مارميون) انحنى سانت جون وجعل يتأمل الصورة التي رسمتها. ولكنه سرعان ما نصب قامته الطويلة مرة أخرى دون أن ينبس بحرف، فرفعت عيني إليه فتجنب نظرتي. ولكنني عرفت أفكاره جيدًا برغم ذلك، واستطعت أن أسبر غوره، لأنني كنت لحظتها أفوقه رزانة وهدوءًا، وشعرت برغبة في نفعه إذا استطعت إلى ذلك سبيلا، فقلت في نفسي: إنه يذهب بنفسه بعيدًا بما يبديه من الحزم وضبط النفس، فهو يكظم عواطفه في صدره فلا يبوح ولا يعترف. ولا ريب عندي في أن من مصلحته أن أحدّثه قليلا عن روزاموند الفاتنة، التي يعتقد أنه لا يجدر به أن يتزوجها. ولكن لأحمله على الكلام !

فقلت: «ألا اجلس يا مستر ريفرز». ولكنه أجاب كعادته أنه لا يستطيع المكوث. فقلت في نفسي: «حسنًا، قف لو شئت، لكني لن أسمح لك بالذهاب! إن

العزلة تشقيك كما تشقيني على الأقل. ولن أتركك حتى أجد منفذًا إلى صدرك المغلق لأصبّ فيه نقطة من بلسم عطفي». وسألته في برود :

- «هل هذه الصورة تشبه؟ ».

- «تشبه.. تشبه من؟ لم أنعم فيها النظر ».

- «بل إنك فعلت يا مستر ريفرز ».

واجفل من فظاظتي المفاجئة، ونظر مشدوها إليَّ، فقلت لنفسي: «آه، إنك لم تسمع شيئًا بعد! لن تخدعني صلابتك، لأنني مستعدة للمضي معك إلى أبعد الحدود». ثم استرسلت قائلة: «إنك أمعنت النظر فيها وعن كثب، ولكني لا أعارض في أن تتطلَّع إليها مرة أخرى». ونهضت فوضعتها في يده. فقال :

- «إنها صورة بديعة الصنع! هادئة واضحة الألوان. جميلة، ومتقَنة !».

- «نعم. نعم. أعرف كل هذا. ولكن الشبه؟ من تشبه هذه الصورة؟». فسيطر على تردده وقال: «تشبه مس أوليفر.. على ما أظن !».

- «بالطبع.. والآن يا سيدي، مكافأة على حدسك الدقيق أعدك بأن أرسم لك نسخة أخرى دقيقة أمينة من هذا الرسم، على شريطة أن تعدني بأنك ستقبل الهدية، فأنا لا أحب أن أبعثر وقتي وجهدي في هبةٍ لا تقدرها !».

فظل يتفرَّس في الصورة. وكان كلما أطال إليها النظر، تشبَّث بها واشتهاها، ثم غمغم قائلًا: «إنها تشبهها! إن العين مرسومة جيدًا.. والألوان والضياء والتعبير.. كلها متقنة.. إنها تبتسم !».

- «هل يرضيك أم يؤلمك أن تكون لديك صورة مماثلة لها. قل لي! هل تجد عزاء في هذا التذكار إذا كان بحوزتك في مدغشقر أو رأس الرجاء الصالح أو الهند. أو أن رؤيته تثير أشجانك وأحزانك؟ ».

فرفع عينية خلسة ليرمقني في قلق. ثم عاد يتأمَّل الصورة وقال :

- «أما أنني أود الحصول على نسخة منها فهذا ما لا ريب فيه. وأما أن هذا عملًا حكيمًا أو غير حكيم فتلك مسألة أخرى !».

ولما كنت واثقة من أن روزاموند تفضله حقيقة، وأن والدها لن يعترض في الأرجح على قرانهما، فقد شعرتِ في سويدائي بميل شديد إليِ أن أعمل على

تحقيق هذه الرابطة. وخُيِّل إليَّ أنه لو غدا المالك لثروة مستر أوليفر الضخمة لاستغلها خير استغلال بدل أن يترك عبقريته تذوي وقواه تتبدَّد تحت الشمس الاستوائية المحرقة. وبهذا الإغراء أجبت :

- «إنه لمن الحكمة كما أرى أن تأخذ الصورة الأصلية في الحال !».

وكان في تلك الأثناء جالسًا، وقد وضع الصورة أمامه على المنضدة، واعتمد بجبينه على كلتا يديه، وراح يتأملها في وجد وإعزاز، فلم أرَ على أساريره أنه غاضب أو مذهول لجرأتي، بل رأيت أنه بدأ يشعر بارتياح جديد، فوق ما كان يأمل، إذ وجد من يصارحه بموضوع كان يشق عليه أن يمسّه، وأن يعالجه بهذا الإسراف في الكشف. والواقع أن الكتومين المتحفِّظين كثيرًا ما يكونون أشد من سواهم حاجة إلى حديث صريح يتناول أحاسيسهم وشجونهم. ومهما يكن فإن الذين يبدون تزمُّتًا في الكتمان بشر رغم كل شيء. فإذا نحن اقتحمنا عليهم بحور أرواحهم الساكنة في جرأة مستمدة من حسن النية أسدينا إليهم معروفًا. لذلك قلت وأنا أقف خلف الصورة :

- «إنني واثقة من أنها تميل إليك وأن والدها يحترمك، وهي فوق ذلك فاتنة رغم شيء من الخفة والطيش، ولكن لديك ما يكفيها ويكفيك من الإدراك والتعقُّل، ومن الواجب أن تتزوجها ».

فسألني: «وهل هي تميل إليَّ؟ ».

قلت: «بكل تأكيد، بل هي لا تميل إلى أي شخص آخر، وتتحدَّث عنك دائمًا وباستمرار. والحديث عنك مباشرة ومداورة أبهج الموضوعات لديها ».

- «يسرني أن أسمع ذلك. استمري في حديثك ربع ساعة آخر !».

وفعلًا أخرج ساعته ووضعها على المنضدة ليحصي الزمن، فسألته :

- «ولكن ما الفائدة من الاسترسال في الحديث إذا كنت تعد مطرقة حديدية من الاعتراض، وتسبك سلسلة جديدة تقيِّد بها قلبك؟ ».

- «لا تتوهَّمي مثل هذه الأشياء القاسية. تصوَّريني خاضعًا مستسلمًا: إن الحب البشري أشبه بنافورة أو ينبوع تفجَّر في رأسي وأخذت سيوله تفيض على الحقل الذي أعددته بعناية وبذلت فيه مجهودًا كبيرًا وزرعته ببذور النباتات الطيبة والمشروعات المنطوية على إنكار الذات، فإذا به الآن، يغرق في فيض من الرحيق - فجُرفت البذور وقضى عليها السم اللذيذ! الآن أتصورني

مضطجعًا على متكأ في غرفة الاستقبال في فيل هول عند قدمي عروسي روزاموند أوليفر وهي تحدِّثني بصوتها العذب وتتطلَّع إليَّ بهاتين العينين اللتين أبدعتِ في تصويرهما، وتبتسم إليَّ بشفتين كالعقيق. إنها لي وأنا لها، ولأقنع بحياتي الدنيوية.. الحياة الفانية! صه! لا تفوهي بشيء، فإن قلبي زاخر بالفرح والسرور وحواسي مسلوبة.. دعي الوقت الذي حدَّدته يمر في سلام !

وأطعته، نزولًا عند رغبته.. وراحت الساعة تدق.. وكان يلهث بينما وقفت صامتة إلى أن انقضى ربع الساعة وسط ذلك الصمت، فأعاد ساعته إلى جيبه ووضع الصورة في موضعها، ثم نهض ووقف بجانب المدفأة، وقال :

- «لقد خصَّصت هذه الفترة الوجيزة للترهات والأوهام، وأرحت رأسي على وسادة الإغراء. ووضعت عنقي مختارًا تحت نير من الزهور. وذقت كأس الإغراء فوجدت الوسادة تحترق، وألفيت في الإكليل حية سامة، وفي النبيذ مرارة.. كما وجدت وعود الأوهام جوفاء كاذبة، وعطاياها زائلة. إني أرى كل هذا وأعرفه!». وتفرَّست فيه مشدوهة، بينما يسترسل: «من عجب أن أحب روزاموند أوليفر حبًا طاغيًا بكل ما في الحب الأول من حرارة وقوة، وأن أجد فيها جمالا رائعًا وفتنة صارخة، ومع ذلك فأنا أحس في الوقت نفسه أنها لن تكون الزوجة الصالحة أو الشريكة التي تلائمني، وأنني لن ألبث أن اكتشف هذه الحقيقة قبل انقضاء عام على زواجنا، فأجدني بعد اثني عشر شهرًا من الهناء والسرور، مسوقًا إلى أن أقضي العمر في ندم !».

فلم أتمالك أن هتفت: «إن هذا لعجيب حقًا!». ولكنه أكمل :

- «بينما يفتتن شيء في كياني بسحرها، يوجد شيء آخر في دخيلتي يقنعني بعيوبها التي لا يمكن أن تلائم شيئًا من آمالي، أو تعاونني على شيء مما أخذته على عاتقي. هل تصلح روزاموند لأن تقاسي وتعمل وتكون زوجة مبشِّر؟ كلا !».

- «ولكن لماذا عليك أن تكون مبشِّرًا.. بوسعك أن تتخلى عن الفكرة ».

- «أتخلى عنها! عن رسالتي؟ عن عملي العظيم؟ عن الأساس الذي أرسيه على الأرض ليكفل لي قصرًا في السماء؟ عن آمالي في أن أكون في عداد من انغمسوا واندمجوا في أمل واحد هو السمو بجنسهم وحمل مشعل العلم إلى دنيا الجهل وإحلال السلام محل الحرب، والحرية محل العبودية، والدين محل الخرافة، والأمل في الجنة محل الخوف من الجحيم! أتريدين أن أتخلى عن ذلك؟ إنه أغلى لديَّ من الدم الذي يجري في عروقي.. إنه ما أتطلَّع إليه وأرجو أن أعيش من أجله !».

ومرّت فترة من السكوت، قبل أن أسأله :

- «ومس أوليفر؟ ألا تهمك خيبة رجائها وأحزانها؟ ».

- «إن مس أوليفر محاطة على الدوام بالخطّاب والمغازلين، فلن ينقضي شهر واحد حتى تمّحي صورتي من رأسها فتنساني، وربما تتزوَّج برجل آخر يجعلها أسعد مما أستطيع أنا ».

- «إنك تتكلم ببرود عجيب، ولكنك تتعذب بهذا الصراع، فتذبل وتذوي ».

- «كلا. إذا كان قد أصابني شيء من الهزال فبسبب انشغال البال على مشروعاتي التي لم تستقر بعد، وأسفاري التي أسوِّف فيها وأماطل.. وفي هذا الصباح فقط، تلقَّيت من خَلَفي، الذي كنت أتلهف على مقدمه وأنتظره بفارغ الصبر، أنه لن يكون متأهبًا لشغل مكاني قبل ثلاثة أشهر أخرى، وقد تمتد هذه الأشهر إلى ستة ».

- «ولكنك ترتجف وتتورَّد وجنتاك كلما دخلت مس أوليفر غرفة التدريس ».

ومرة أخرى ظهرت على أساريره آيات الدهشة لأنه لم يكن يتصوَّر أن تتجرَّأ امرأة على أن تتحدَّث إلى رجل بهذه اللهجة! أما أنا، فإنني لم أشعر بأي كلفة في هذا النوع من الحديث، لأنني لم أكن أستطيع التواصل مع أصحاب العقول القوية الفطنة المثقفة - من الجنسين - ما لم أتحرَّر من حصون التحفظ التقليدي، وأتخطى عتبة الثقة، وأظفر بمكانة قوية في القلوب. وأخيرًا قال :

- «إنك تتحدَّثين بفطرتك دون أن تتهيّبي، لأن في روحك ضربًا من الشجاعة وفي عينيك قوة نافذة، ولكن اسمحي لي أن أؤكِّد لكِ أنكِ أسأتِ فهم عواطفي، وأنك تتوهَّمينها أعمق وأقوى مما هي في حقيقتها، وتخلعين عليَّ قدرًا من العواطف أكثر مما أدَّعي! إنني لا أفرح لنفسي عندما تتورَّد وجنتاي أو أرتجف أمام مس أوليفر، بل أحتقر هذا الضعف، وأراه شيئًا لا يشرّف ومجرد حمَّى تصيب الجسد. وليس وليد توقُّد الروح الثابتة كالصخرة وسط بحر عجاج! فاعرفيني على حقيقتي: رجلًا باردًا صلبًا !».

فابتسمت ابتسامة عدم التصديق. ولذلك استطرد يقول: «لقد انتزعت ثقتي عنوة وهي الآن طوع خدمتك.. إنني في حقيقتي، وبكل بساطة، مجردًا من الثوب الفاني الذي تغطِّي به المسيحية عيوب البشر.. رجل بارد قاس طموح، لا يسيطر عليَّ دائمًا سوى الحب الطبيعي، من دون العواطف الأخرى جميعًا، ويقودني العقل لا الشعور. أما طموحي فلا حدود له. وأما رغبتي في أن أسمو

على الآخرين فهي جشعة لا تقنع. وإنني أمجِّد الاحتمال والمثابرة والجد والمواهب، لأنها وسيلة الإنسان إلى تحقيق الغايات الكبرى والارتفاع إلى الذروة الشامخة.. ومن ثم فأنا أرقب عملك بلذة واهتمام لأنني أعتبرك أنموذجًا للمرأة الكدود. المنظَّمة، النشيطة، لا لأنني أشفق على ما أصابك وما زلتِ تقاسينه !».

قلت: «كأني بك تصف نفسك بأنك مجرد فيلسوف وثني ».

- «كلا. هنالك هذا الفارق بيني وبين الفلاسفة الذين ينكرون الوحي.. إنني أؤمن.. وأؤمن بالإنجيل! وقد خانك التعبير فأنا لستُ وثنيًا وإنما فيلسوف مسيحي من أتباع شريعة المسيح. وأنا كواحد من تلامذته، أعتنق عقائده الصافية الرحيمة الحميدة وأدافع عنها وأقسم أن أروِّج لها. ولما كنت قد كرَّست حياتي الشابة للدين، فقد ثقفت وهذَّبت مناقبي كما يلي: من البذرة الدقيقة للحب الطبيعي، نمت شجرة حب الإنسانية الوارفة الظلال. ومن جذر الاستقامة البشرية البرّي، ترعرع الإحساس بالعدالة الإلهية. ومن الطموح إلى اكتساب القوة والشهرة لنفسي الشقية البائسة، تكوّن الطموح إلى بسط مملكة إلهي وإحراز الانتصارات للواء المسيحية.. لقد فعل بي الدين الكثير، إذ سما بعناصري الأصلية وشذَّب طبيعتي. ولكنه لم يقوَ على محو الطبيعة نفسها، ولن يقوى، لأن الطبيعة ستظل وتبقى إلى أن يوفّق الإنسان الفاني إلى الفوز بالخلود !».

وما إن قال ذلك حتى تناول قبعته التي كانت على المنضدة بجانب لوحة الألوان، ثم ألقى نظرة أخرى على الصورة وهمهم قائلًا :

- «إنها جميلة جديرة فعلًا بأن تسمَّى روزاموند.. أي وردة العالم !».

- «أتريد أن أرسم لك صورة مثلها؟ ».

- «وما الفائدة؟ كلا !».

ثم غطَّى الصورة بغلاف من الورق الخفيف اعتدت أن أضع عليه يدي أثناء الرسم لأحول دون تلوث الورق المقوّى. ولكن شيئًا في هذه الورقة البيضاء - لم أعرفه - لفت بصره فجأة، فشدَّها بقوة وتأمَّل طرفها، ثم رمقني بنظرة سريعة، غريبة، لم أدرك معناها، ولكن خُيِّل إليَّ أن النظرة هبطت على كل جزء من جسمي ووجهي وثوبي، واخترقتها جميعًا في سرعة الوميض، ثم فغر فاه وكأنه يهم بالكلام، ولكنه حبس العبارة التي أوشك أن ينطق بها. فسألته: «ما الذي جرى؟». فقال: «لا شيء». ثم أعاد الورقة ورأيته يمزِّق شريطًا ضيقًا

في طرفها بمهارة وعناية ثم أخفاه في قفَّازه، وحنى لي رأسه على عجل قائلًا: «طاب مساؤك». واختفى !

فصحت بلهجة أهل المنطقة: «إن هذا يفوق كل شيء !».

ورحت بدوري أتفرَّس في تلك الورقة دون أن أرى شيئًا غير آثار الألوان التي كنت أجرّبها بريشتي. ومضيتُ أفكر في السر لبضع دقائق، فلما استعصى عليَّ ولم أجد له حلا وأيقنت أنه ليس بالغ الأهمية، أقصيته عن خاطري، وسرعان ما نسيته !

الفصل الثالث والثلاثون

وعندما خرج مستر سانت جون، كانت الثلوج قد بدأت تتساقط. وظلت الزوبعة الهوجاء تعصف طوال الليل. وفي اليوم التالي هبَّت رياح قارسة تحمل أمطارًا جديدة غزيرة. وفي الغسق كست الثلوج الوادي وسدَّت منافذه، فأغلقت نافذتي. وضعت حصيرة عند الباب لمنع الثلوج من التسرُّب إلى الداخل، ثم حرّكت النار في موقدي. وبعد أن قضيت قرابة الساعة أصغي إلى غضب العاصفة المكتومة الأنفاس. أضأت شمعة وتناولت ديوان مارميون ..

وسرعان ما نسيت العاصفة.. على أنني ما لبثت أن سمعت جلبة، فظننت أن الرياح تهز الباب. ولكن، كلا.. كان ذلك سانت جون ريفرز الذي رفع مزلاج الباب ثم دخل هاربًا من العاصفة الثلجية والظلام العاري. ووقف أمامي وقد بدا المعطف الذي يغطّي قوامه الطويل أشبه في بياضه بصفحة من الزجاج. وكاد الذعر يتولّاني لأنني لم أكن أتوقَّع أي زائر، في تلك الليلة، من الوادي الذي سدت الثلوج منافذه. فسألته بقلق :

- «هل هناك أنباء سيئة؟ هل حدث شيء؟ ».

فـأجاب وهو يخلع عباءته ويعلقها بالباب: «كلا.. ما أسهل أن ترتاعي!». ثم أعاد الحصير إلى مكانه عند الباب، وضرب بقدميه ليزيل الثلوج عن حذائه وقال: «أخشى أن ألطِّخ أرض حجرتك، ولكنني أطمع في صفحك !».

واقترب بعد ذلك من الموقد قائلا: «لقد عانيتُ مشقَّة كبيرة في الوصول ».

وراح يدفئ يديه على اللهب. ثم أضاف: «لقد أغرقتني لفحة من العاصفة إلى وسطي في الجليد، ولكن الجليد كان يُعدُّ طريًا لحسن الحظ !».

ولم أملك سوى أن أسأله: «ولكن ما الذي دعاك للمجيء؟ ».

- هذا سؤال لا يتَّفق مع كرم وفادة الزائر، ولكن ما دمت قد وجَّهته إليَّ فإنني أجيبك ببساطة بأنني أردت أن أتحدَّث معك قليلا، فقد مللت كتبي الصامتة ومسكني الخاوي .. وقد تملَّكني، منذ الأمس، قلق الشخص الذي سمع من القصة نصفها، فإذا به يتلهَّف على سماع البقية !».

ثم جلس.. وتذكّرت سلوكه الغريب في اليوم السابق، فخلت أنه به مسًّا من الجنون. وأنه، إذا صح أنه ملتاث العقل حقيقة، فإن خبله هادئ رزين. والواقع أنني لم أرَ ذلك الوجه المليح القسمات أكثر شبهًا بالرخام المنحوت مما رأيته إذ ذاك، حين رفع شعره المبلَّل بالثلوج جانبًا وترك ضياء المدفأة يملأ جبينه الممتقع ووجنتيه الشاحبتين بحيث كشف للأسف والأسى آثار العناء والحزن غائرة في وضوح. وترقَّبت أن يقول شيئًا أستطيع على الأقل أن أفهمه، ولكن يده كانت مرفوعة إلى ذقنه، وهو غارق في التفكير! وأذهلني أن أرى يده مغضَّنه كوجهه، ولعل موجة من الرثاء طغت آنذاك على قلبي فقلت :

- «ليت ديانا وماري تأتيان وتعيشان معكِ، فليس أسوأ من أن تعيش وحدك ولا تبالي صحتك !».

- «كلا مطلقًا.. إنني أُعنى بنفسي عند اللزوم. وأنا الآن بخير. فأي نقص ترينه فيَّ؟ ».

وعاد يحدِّق بعينيه في الموقد. ورأيت ضرورة التعجيل بقول شيء ما، فسألته عما إذا كان يشعر ببرد ينبعث من ناحية الباب خلفه، ولكنه أجابني في اقتضاب وعناد: «كلا.. كلا!». فقلت في نفسي: «حسنًا! ما دمت تأبى أن تتكلَّم فلأتركك لصمتك ووحدتك وأعود إلى ديواني !».

ونظَّفت فتيلة الشمعة، ثم عدتُ أتصفحُ ديوان مارميون، وسرعان ما تحرَّك فانجذبت عيناي إلى حركته، فوجدته يخرج حافظة من الجلد الرقيق، وأخذ منها خطابًا جعل يقرؤه في صمت وسكون، ثم طواه وأعاده، ليغرق في بحور التفكير من جديد.. ورأيت من العبث أن أقرأ أمام هذا المتسمِّر في مكانه هكذا، ولم أقوَ على أن أظل خرساء وقد نفد صبري لطول ذلك الصمت، فلم أبالِ بجفائه وقلت :

- «هل تلقيتَ أنباءً من ديانا وماري أخيرًا؟ ».

- «لا شيء بعد الخطاب الذي أطلعتك عليه منذ أسبوع ».

- «هل حدث أي تغيير في مشروعاتك؟ هل ستُدعى إلى مغادرة إنجلترا بأسرع مما كنت تتوقَّع؟ ».

- «لا أظن ذلك في الحقيقة، فإن مثل هذا الحظ لا يواتيني !».

وحِرت في أمره فرأيت أن أغير مجرى الحديث، وفكّرت في أن أحدِّثه عن المدرسة والتلميذات فقلت :

- «لقد تحسَّنت صحة أم ماري جاريت، وعادت ماري إلى المدرسة هذا الصباح. ولسوف تفد إلينا أربع تلميذات جديدات من مسبك كلوز ولولا الثلج لحضرن اليوم ».

- «صحيح؟ ».

- «وسيتولَّى مستر أوليفر الإنفاق على اثنتين منهما ».

- «هكذا؟ ».

- «إنه يعتزم إقامة وليمة للمدرسة كلها في عيد رأس السنة ».

- «أعرف ذلك ».

- «أكان هذا اقتراحك؟ ».

- «كلا ».

- «اقتراح من إذن؟ ».

- «اقتراح ابنته فيما أعتقد ».

- «ليس هذا بمستغرب منها، فهي طيبة القلب جدًا ».

ثم ران الصمت مرة أخرى ودقَّت الساعة الثامنة، فصحا من تأملاته واعتدل في جلسته ليقول: «دعي كتابك واستمعي إليّ قليلا !».

فاستبد بي العجب، لكني رضخت لطلبه. وأكمل يقول: «حدَّثتك من نصف ساعة عن لهفي لسماع تكملة القصة، ولكنني وجدت بعد التأمل والتفكير أنه من الأفضل الآن أن أقوم أنا بدور القاصّ وأن تتحوَّلي أنت إلى دور المستمعة. ويحسن أن أنبِّهك قبل أن أبدأ، إلى أن القصة ستقع في أذنيك موقع الابتذال، لكن التفاصيل المبتذلة تستعيد في الغالب شيئًا من الجدة إذا نطقت بها شفاه جديدة: فمنذ عشرين عامًا، وقع قسيس صغير - لا تبالي باسمه الآن - في غرام ابنة ثري، ووقعت هي الأخرى في غرامه، فتزوَّجا برغم نصيحة جميع أهل الفتاة الذين تبرَّأوا منها على إثر زفافهما.. ولم ينقضِ عامان، حتى توفِّيَ

العاشقان ودُفنا في سكون جنبًا إلى جنب، وقد رأيت قبرهما، فهو يؤلَف جزءًا من حافة الساحة الكبيرة المحيطة بكاتدرائية عتيقة، سوّد الدخان جدرانها، في مدينة صناعية مترامية الأطراف، في مقاطعة (...)، ولقد خلفا ابنة تلقَّفها الإحسان في حجره البارد، الذي يشبه برودة الجليد في هذه الليلة. وحمل الإحسان الطفلة اليتيمة إلى بيت خالها الغني، حيث ربَّتها زوجة الخال، وكانت تُدعى، وهنا سأذكر الأسماء، مسز ريد من جيتسهيد.. لماذا ارتعشتِ؟ هل سمعت جلبة؟! إنما هي قطة تزحف بين ألواح سقف المدرسة المجاورة، فقد كان المبنى يومًا مخزنًا للغلال، وهذه المخازن ترتادها الفئران عادة.. وأعود لقصتي، فأقول إن مسز ريد تولّت تربية اليتيمة عشر سنوات. أما هل كانت الفتاة سعيدة أو كانت شقية، فلا أستطيع الجزم، ولم يخبرني أحد، ولكنها نُقلت في نهاية تلك السنوات إلى مكان تعرفينه أنت، وهو مدرسة لوود حيث قضيتِ فترة طويلة. ويبدو أن سيرتها هنالك كانت ناصعة، لأنها لم تلبث أن أصبحت معلّمة مثلك. حقًا، يدهشني أن ثمة تشابهًا بين تاريخها وتاريخك! ثم غادرت الفتاة المدرسة واشتغلت مربية - مثلك - لفتاة قاصرة تحت وصاية رجل يدعى مستر روشستر .

وهنا قاطعته هاتفة: «مستر ريفرز !»..

فقال: «بوسعي أن أحدس مشاعرك، ولكن عليك أن تكبحيها قليلا، إذ كدت أنتهي، فاسمعيني إلى النهاية. إنني لا أعرف شيئًا عن أخلاق مستر روشستر اللهم إلّا أنه أراد الزواج بتلك الفتاة الشابة، فاكتشفت وهي أمام المذبح تمامًا أنه متزوج بأخرى على قيد الحياة، وإن كانت مجنونة. ولا أدري ماذا عرض عليها بعد ذلك. ولكن عندما وقع حادث استوجب البحث عن الفتاة بعد ذلك، تبيَّن أنها فرَّت، دون أن يدري أحد متى وأين وكيف فرَّت، وأنها غادرت ثورنفيلد هول ليلا. وذهب سدى كل بحث عنها. ومع ذلك استأنفوا البحث، فنقَّبوا في طول الريف وعرضه دون الاهتداء إلى أثر لها، ونشرت الإعلانات في جميع الصحف. وأنا شخصيًا تلقَّيت خطابًا من محامٍ يُدعى مستر بريجز ذكر فيه ما رويته لك الآن. أليست قصة عجيبة؟ ».

قلت: «ما دمت تعرف كل هذا، فلا بد أنك تستطيع أن تنبئني بشيء عن مستر روشستر. كيف وأين هو الآن؟ ».

- «إنني أجهل كل شيء عن مستر روشستر. فالخطاب لم يذكر عنه إلّا المحاولة غير الشرعية التي ألمحت إليها، ولكن يحسن أن تسألي عن اسم المربية وعن ماهية الحادث الذي كان يتطلب ظهورها !».

- «ألم يذهب أحد إذن إلى ثورنفيلد هول؟ ألم يرَ أحد مستر روشستر؟ ».

- «لا أظن ».

- «ولكنهم كتبوا إليه؟ ».

- «يشير مستر بريجز في خطابه إلى أن الجواب الذي تلقَّاه لم يكن من مستر روشستر وإنما من سيدة تدعى أليس فيرفاكس ».

فشعرت ببرودة قارسة وباكتئاب، وخشيت أن تكون مخاوفي قد تحقَّقت، إذ يحتمل جدًا أن يكون مستر روشستر قد غادر إنجلترا، ودفعه تهوّره إلى أن يهيم على وجهه من جديد في أوروبا. لكن أيّ مسكِّن لآلامه المضنية يلتمس هناك؟ ولكنني لم أجرؤ على الرد عن هذا السؤال.. أوَّاه يا سيدي المسكين، الذي كاد أن يصبح زوجي يومًا، والذي طالما ناديته "عزيزي إدوارد "!

وقال مستر ريفرز: «لا بد أنه كان شريرًا». فهتفت بحرارة :

- «إنك لا تعرفه فلا تبدي رأيًا فيه !».

ولكنه أجابني في هدوء: «حسنًا. الواقع أن رأسي مشغول بأمور أخرى غيره. ولديَّ قصتي التي أريد الانتهاء منها. وما دمت لا تريدين سؤالى عن اسم المربية فيجب أن أذكره من تلقاء نفسي.. انتظري! إنني أحتفظ به هنا.. فمن دواعي الارتياح أن يدوِّن الإنسان النقط المهمَّة بالمداد ».

ثم أخرج مرة أخرى حافظته في أناة، وفتحها وفتَّشها وأخرج منها قصاصة متَّسخة قطعت على عجل، فأدركت من نسيجها ومن الألوان التي كانت تلطخها، أنها القصاصة التي قطعها بالأمس من غلاف الصورة! ثم قام ووضع الورقة أمام عيني، فقرأت كلمتي جين إير مكتوبتين بالحبر الهندي، وبخط يدي، ولا بد أنني كتبتهما في لحظة شرود. وقال القس الشاب :

- «لقد كتب إليَّ مستر بريجز عن جين إير، وطلبت الإعلانات البحث عن جين إير، وإذ كنت أعرف من تسمَّى جين إليوت، فقد ساورني الشك الذي لم يتأكَّد ويتحقَّق إلّا عصر أمس. فهل تعترفين باسمك الحقيقي؟ ».

- «نعم. نعم أعترف. ولكن أين مستر بريجز؟ فهو قد يكون أكثر منك معرفة بأنباء مستر روشستر !».

- «إن بريجز في لندن، وأشك في أنه يعرف شيئًا عن مستر روشستر. لأن اهتمامه ليس موجَّهًا إليه. ولكنك تنسين النقط الهامة ولا تبتغين سوى الأمور التافهة! لماذا لا تسأليني عن السبب الذي يبحث مستر بريجز عنك من أجله وفيم يريدك؟ ».

- «حسنًا. ماذا يريد؟ ».

- لا يريد سوى أن يخبرك بأن عمك مستر إير من ماديرا قد توفِّيَ، وأنه ترك لك كل ثروته، وأنكِ الآن غنية! هذا كل شيء، ولا أكثر من ذلك !».

- «أنا.. غنية؟ ».

- «نعم. أنت غنية.. ووارثة لثروة !».

وساد السكون إلى أن قطعه سانت جون فجأة بقوله :

-«إن عليك بطبيعة الحال أن تثبتي شخصيتك، وهي خطوة لن تجدي فيها صعوبات، وتستطيعين بعدها الحصول على إرثك. إن ثروتك مودعة في المصارف الإنجليزية، ولدى بريجز الوصية والمستندات اللازمة !».

وهكذا قلبت صفحة جديدة في سِفر حياتي. إنه شيء جميل - أيها القارئ - أن ترتفع في لحظة من الفقر المدقع إلى الثراء.. شيء جميل، ولكنه أمر لا يمكن أن نفهمه ونستوعبه على الفور! ثم إن في الحياة مصادفات أكثر إثارة وأبهج من هذه التي بدت جامدة.. ومجرد حدث من أحداث الدنيا، ليس فيه - أو حوله - شيء من المثل العليا. كما أن كل ملابساته غريبة وقورة، وكذلك كانت مظاهره، فليس فيه مفاجأة تجعل الإنسان يثب أو يقفز أو يتهلّل من الفرح ! بل إنه ما يكاد يظفر بالثروة حتى يبدأ التفكير في المسؤوليات والتبعات والعمل. وما إن يستتب الشعور بالرضا حتى تنشأ الشواغل والهموم، فننطوي على أنفسنا نفكر في النعمة التي حلت بنا، بجبين مكفهر !

هذا إلى أن كلمتَيْ «ميراث ووصية» تسيران جنبًا إلى جنب مع كلمتي «موت وجنازة». لقد كان عمي الذي سمعت بموته هو قريبي الوحيد، وقد عشت، منذ علمت بوجوده، بأمل أن أراه في يوم من الأيام، أما الآن فقد انقطع هذا الأمل، ثم جاءتني أمواله بدلًا منه. لم تأتني وأنا ربة أسرة تنعم بالمفاجأة، وإنما أتتني، وأنا وحيدة، منعزلة! ومع ذلك كانت المفاجأة نعمة عظيمة.. وسوف يكون تحرُّري من الفاقة أمرًا مجيدًا.. أجل، لقد شعرت بذلك.. وامتلأ قلبي سعادة .

وقال مستر ريفرز، وأنا غارقة في تفكيري: «ها قد رفعت جبينك أخيرًا، وكنت أحسبك قد تحوَّلت إلى حجر! ولعلك تسألينني الآن كما تساوين؟ ».

- «نعم كم أساوي الآن؟ ».

- «أوه.. شيئًا تافهًا! شيئًا لا يستحق الذكر! أظنهم يقولون عشرين ألف جنيهًا !».

- «عشرين ألف جنيهًا؟ ».

وكانت هذه مفاجأة جديدة، إذ كنت أتوقَّع ألّا تعدو الثروة أربعة أو خمسة آلاف، فاحتبست أنفاسي لحظة، مما جعل سانت جون، الذي لم أسمعه يضحك من قبل، يقهقه ويقول: «عجبًا! لو أنك اقترفت جريمة قتل ثم أخبرتك بأن جريمتك قد اكتشفت ما أبديت كل هذه الدهشة !».

- «إنه مبلغ كبير. ألا تعتقد أن هناك خطأ ما؟ ».

- «لا يوجد خطأ على الإطلاق ».

- «لعلك أخطأت في قراءة الأرقام.. ربما كانت ألفي جنيه !».

- «إنها مكتوبة بالحروف لا بالأرقام.. عشرون ألفًا !».

ومرة أخرى، شعرت كأنني مخلوقة شهيتها للأكل معتدلة، جلست وحيدة إلى مائدة حفلت بما يكفي مائة شخص! وهنا، نهض مستر ريفرز، فالتف بمعطفه قائلًا :

- «لو لم تكن الليلة عاصفة لأرسلت حنة لتبقى في رفقتك، لأنك أتعس نفسًا من أن تظلِّي وحدك، ولكن حنة المسكينة لا تستطيع أن تخوض مثلي الثلوج، ولذلك يجب أن أتركك ».

وفيما كان يرفع المزلاج خطرت برأسي فكرة مفاجئة، فصحت :

- «إن ما يحيِّرني هو: لماذا كتب لك مستر بريجز عني، وكيف عرفك أو خطر بباله أنك، وأنت تعيش في مكان لا علاقة له بأمري، تستطيع أن تعاونه في العثور عليَّ؟ !».

- «آه! إنني قسيس، والقساوسة يُلجأ إليهم في الملمات ».

ومرة أخرى جلجل المزلاج فصحت: «هذا جواب لا يقنعني!». والواقع أن شيئا في رده العاجل، المبهم، أذكي فضولي بدلًا من أن يهدِّئه، فاسترسلت أقول: «إنه لأمر عجيب، ولا بد لي من أن أعرف المزيد عنه ».

فهتف: «كلا.. ليس الليلة!». وإذ استدار على الباب، وقفت بينهما، فتجلَّى عليه الارتباك ولكني قلت :

- «لن تذهب من هنا حتى تخبرني بكل شيء ».

- «أفضّل ألّا أفعل ذلك الآن ».

- «بل لسوف تخبرني! يجب أن تفعل !».

- «من الخير أن تخبرك ديانا أو ماري ».

وبطبيعة الحال، أثارت هذه الاعتراضات لهفتي أكثر، وكان لا بد من أن أشبعها دون إبطاء. وأخبرته بذلك فقال :

- «ولكني قلت لك إنني رجل قاسٍ يصعب إغراؤه ».

- «وأنا امرأة قاسية صلبة يصعب الاستخفاف بها ».

- «أنا رجل بارد لا تؤثِّر فيه حرارة أو حماسة ».

- «وأنا حارّة.. نار تذيب الثلج، كالوهج الذي أذاب الجليد عن معطفك فلوّث أرض حجرتي.. ولن أمنحك العفو حتى تخبرني بما أريد؟ ».

- «حسنًا إذن، لقد استسلمت.. إن لم يكن لإصرارك، فلمثابرتك. فإن الحجر يبليه توالي سقوط القطرات. هذا إلى أنك ستعلمين بالأمر يومًا ما عاجلا أو آجلا.. هل اسمك جين إير؟ ».

- «بالطبع. لقد فرغنا من هذا الأمر من قبل ».

- «لعلك لا تعلمين أنني سميّك، وأن اسمي سانت جون آير ريفرز؟ ».

- «كلا في الحقيقة. لقد رأيت حرف «آ» على كل كتاب استعرته منك، ولكنني لم أسألك قط عن بقية الاسم. وماذا بعد ذلك؟ لا شك أن ...».

ثم توقّفت لأنني لم أجد في نفسي قدرة على التسليم بالفكرة التي خامرتني فجأة، ولا على التعبير عنها بعد أن تجسَّمت وبدت لي في الحال قريبة الاحتمال... لقد تعقَّدت الأمور ثم انتظمت، ثم تحوَّلت السلسلة إلى عقد منظوم تتصل كل حبة فيه بالأخرى. ولقد عرفت بغريزتي ماهية الأمر قبل أن ينطق سانت جون بكلمة واحدة، ولكني لا يمكن أن أتوقَّع للقارئ هذه البصيرة البديهية نفسها، ولذلك يجب أن أعيد عليه ما أوضحه سانت جون، إذ قال :

- «كان «آير» اسم والدتي. وكان لها شقيقان.. أحدهما قسيس تزوَّج مس جين ريد من جيتسهيد، والثاني جون آير التاجر بجزيرة ماديرا. ولما كان مستر بريجز محامي مستر جون آير، فقد كتب إلينا في أغسطس يخبرنا بوفاة خالنا، ويقول إنه ترك ثروته لابنة القسيس اليتيمة، وأنه لم يوصِ لنا بشيء لأنه لم يستطِع أن ينسى الضغائن القديمة التي خلفها ما قام بينه وبين أبي من نزاع. ثم كتب مرة أخرى منذ أسابيع إن الوارثة مفقودة، ويسألني عما إذا كنت أعرف عنها شيئًا. وقد وقعت عيناي مصادفة على اسم مكتوب على وريقة، فإذا بي أهتدي إليها.. وأنت تعرفين الباقي !».

وهمَّ بالذهاب مرة أخرى، ولكنني دفعت الباب بظهري وقلت :

- «أرجو أن تدعني أتكلَّم. اترك لي دقيقة أسترد فيها أنفاسي وأفكّر».
وتوقَّفت، فوقف أمامي وقبعته في يده. وكان باديَ الارتباك، فاستطردت أقول : «هل كانت والدتك شقيقة أبي؟ ».

- «نعم ».

- «إذن، فهي عمتي !».

فحنى رأسه موافقًا .

- «وإذن فقد كان خالك جون هو عمي جون. وأنت وديانا وماري أبناء شقيقته كما أنني ابنة أخيه؟ ».

- «بلا أيّ شك !».

- «إذن فأنتم الثلاثة أبناء عمتي، وينبع نصف دمنا من معين واحد؟ ».

ونظرت إليه، فخُيِّل إليَّ أنني وجدت شقيقًا أستطيع أن أفخر به وأحبه، وشقيقتين سَمَت أخلاقهما، وقد عرفتهما وكانتا مجرد غريبتين عني، لكنهما

أثارتا في نفسي الحب والإعجاب. وإذن فالفتاتان اللتان ركعتُ على الأرض المبلَّلة بمطبخ مورهاوس لأنظر إليهما، خلال النافذة المغطاة بالدانتيلا، نظرات تفيض بالاهتمام واليأس كانتا من أقرب أهلي، وإذن فالسيد الشاب الذي وجدني مشرفة على الموت على عتبة داره، تربطني به صلة الرحم! يا له من اكتشاف رائع لبائسة وحيدة! لقد كانت هذه ثروة في الحقيقة، وأي ثروة! ثروة للقلب، ومنجمًا للحب الصافي الأصيل، ونعمة مشرقة زاهية مبهجة، ليست كهبة الذهب الثقيل! وصفَّقت بيدي في فرحة مفاجئة، وقد وثب قلبي في صدري، وثارت عروقي وصحت :

- «أواه.. إنني مسرورة! إنني مسرورة !».

فابتسم سانت جون وسألني: «ألم أقل إنك أهملت النقط الهامة لتتعقَّبي التوافه؟ لقد كنت رزينة عندما أخبرتك بأنك أصبتِ ثروة، وها أنتِ ذي الآن منفعلة أشد الانفعال !».

- «ماذا تعني؟ قد لا يهمك الأمر، لأن لك شقيقتين، أما أنا فلم يكن لي أحد، فوجدت الآن ثلاثة أقرباء، أو اثنتين إذا كنت لا ترضى أن أعدّك معهما. إنني أكرِّر بأنني مسرورة !».

ورحت أخطو في الغرفة بخطوات مسرعة، ثم وقفت وقد أوشكت أن أختنق بالأفكار التي تدافعت إلى رأسي متزاحمة حتى عزَّ عليَّ إدراكها أو تنسيقها.. وكانت أفكارًا تدور حول ما قد يكون، وما يمكن أن يكون، وما يجب أن يكون! وتطلَّعت إلى الجدار الأملس الأبيض، فخُيِّل إليَّ أنه سماء تتألَّق بالنجوم. وفاضت نفسي بالفرح إذ أدركت أنه قد أصبح في وسعي أن أنفع أولئك الذين أنقذوا حياتي، والذين أحببتهم حتى هذه الساعة حبًا خالصًا، منزَّهًا عن الغرض.. لقد كانوا يرسفون تحت نير الحياة القاسية، وفي وسعي أن أحرِّرهم.. لقد كانوا متفرّقين، مشتَّتين، فأصبح في مقدروي أن أجمع شملهم.. لماذا لا ينعمون هم الآخرون بما أنعم به من استقلال؟ ألم نكن أربعة؟ إذن فلو قسّمت الجنيهات العشرون ألفًا بالتساوي بيننا، لأصاب الواحد منا خمسة آلاف.. وهو مبلغ يكفيه، بل يزيد على حاجته! إذن فلا بد للعدالة من أن تأخذ مجراها، فتشملنا السعادة جميعًا! وإذ ذاك لم أعد أشعر بالثروة عبئًا يثقل كاهلي، لأنها لم تعد في نظري مجرد ميراث نقدي، وإنما غدت وثيقة الحياة والأمل والسعادة !

ولستُ أدري ما الذي ارتسم على وجهي إذ طافت هذه الخواطر برأسي وثارت حماستي لها، ولكني أبصرت بمستر ريفرز يحمل مقعدًا فيضعه خلفي،

ويروح يغريني بالجلوس، وينصحني بضبط عواطفي. غير أنني سخرت مما خاله خوَرًا أصابني، فدفعت يده، وجعلت أذرع الحجرة من جديد، ثم قلت له :

- «اكتب إلى ديانا وماري غدًا لتعودا في الحال. لقد سمعت ديانا تقول إنها تعد نفسها غنية إذا هي ظفرت بألف جنيه، فما بالك لو أن كلا منهما ظفرت بخمسة آلاف؟ ».

فقال سانت جون: «بنيتي، من أين آتيك بكوب ماء؟ ».

- «هراء! ترى كيف كان يحتمل أن يكون تأثير الوصية عليك، لو أنها كُتبت لصالحك؟ أفكانت تستبقيك في إنجلترا، وتغريك بالزواج من مس أوليفر، وبالاستقرار كغيرك من بني البشر؟ ».

- «إنك تهذين.. لقد اختبلت! يبدو لي أني تعجّلت في إبلاغكِ النبأ، فقد أثار انفعالك أكثر مما تحتمل قواك !».

- «إنك تُفقدني صبري يا مستر ريفرز! إنني مكتملة العقل، ولكنك أنت الذي تسيء الفهم، أو تتعمَّد إساءة الفهم !».

- «قد أغدو أكثر إدراكًا، لو أنك زدتني إيضاحًا بعض الشيء ».

- «إيضاح! ما الذي هناك للإيضاح؟ ما أظنه يعييك أن ترى أن العشرين ألف جنيه، وهو المبلغ الذي نحن بصدده، إذا قُسّمت بالتساوي على أبناء الخؤولة الأربعة، فإنها تتيح لكل منهم خمسة آلاف! والذي أبغيه هو أن تكتب لشقيقتيك وتنبئهما بالثروة التي أصابتهما ».

- «تعنين.. أصابتك ».

- «لقد انتهيتُ إلى رأي في الأمر، وليس بوسعي أن أتخذ رأيًا سواه. إنني لا أتصرَّف بأنانية هوجاء، ولا بظلم أعمى، ولا بجحود مزرٍ. ثم إنني عقدت العزم على أن يكون لي بيت وأقارب. ولما كنت أحب مورهاوس، فسوف أعيش في مورهاوس.. وبما أنني أحب ديانا وماري، فسأربط حياتي بحياة ديانا وماري.. ولسوف يرضيني ويفيدني أن أمتلك خمسة آلاف من الجنيهات، ولكن.. سيعذِّبني ويرهقني أن أمتلك عشرين ألفًا، هي فوق ذلك ليست من حقي شرعًا، وإن أمكن أن تكون حقًا لي بحكم القانون. ومن ثم فسأتنازل لكم عما هو أكثر مما أستحق فعلًا.. فدع كل معارضة وكل مناقشة في ذلك، ولنتفق فيما بيننا !».

- «هذا تصرف من وحي انفعالاتك الأولى، فلا بد من أن تتريَّثي أيامًا لتدرسي مثل هذا الأمر، حتى تكون كلمتك صائبة !».

- «آه! إذا كان صدق عزمي هو كل ما ترتاب فيه، فاطمئن. ألا تؤمن بعدالة ما قرّرت؟ ».

- «الحق أنني أرى فيها شيئًا من العدل، ولكنها مخالِفة لكل عرف. ثم إن الثروة بأكملها من حقك، وقد اكتسبها خالي بجهوده، وله ملء الحرية أن يتركها لمن يشاء. وقد تركها لك.. والعدالة تبيح لك، برغم كل شيء، أن تستأثري بها، وأن تعتبريها ملكك المطلق، وأنت مرتاحة الضمير !».

- «إن المسألة لديَّ مسألة مشاعر بقدر ما هي مسألة ضمير، إذ لا بد لي من أن أقحم مشاعري هنا، فنادرًا ما سنحت لي الفرصة لهذا.. ولو أنك حاججتني، وعارضتني، وضايقتني عامًا بأكمله، لما أثنيتني عن المتعة العذبة التي لاح لي قبس منها.. متعة رد جميل هائل بعرفان بسيط، واكتساب أصدقاء يحيطون بي مدى الحياة !».

قال: «إنك إنما ترين الآن ذلك، لأنك لم تعرفي بعد متعة التملُّك، ولا لذَّة الثراء.. ليس بوسعك أن تكوّني فكرة عن قيمة العشرين ألف جنيه لديك، ولا عن المكانة التي تستطيع أن ترفعك إليها في المجتمع، ولا عن الفرص التي ستفتحها أمامك. ليس بوسعك ...».

فقاطعته قائلة: «وليس بوسعك أنت أن تتصور الحنين الذي يتملكني نحو حب الأخ وحب الأخت.. إنني لم أحظَ يومًا ببيت، ولا كان لي إخوة ولا أخوات، فلا بد لي الآن من كل ما حرمت منه.. أترفض أن تتقبَّلني أختًا؟ ».

- «بل سأكون أخاكِ يا جين، وستكون شقيقتاي شقيقتيك، دون ما داعٍ لأن تضحّي بحقوقكِ ».

- «أخ؟ أجل، لكن على آلاف الفراسخ مني.. وشقيقتان؟ نعم، لكن تشقيان في خدمة الأغراب. أفأكون غنية، متخمة بذهب لم أجتهد في كسبه، وأنتم معدمون؟ يا لها من أخوّة! ألا قرَّب البعيد، ووثَّق الرابطة !».

- «ولكن آمالك في الروابط العائلية والسعادة المنزلية يمكن أن تتحقَّق يا جين بطريقة غير التي تفكرين فيها.. بوسعك أن تتزوجي وتبني أسرة ».

- «هراء! أأعود مرة أخرى إلى فكرة الزواج!؟ لستُ أريد زواجًا ».

- «هذا إسراف في القول، وما هذه التأكيدات الملقاة جزافًا، إلّا دليل على الانفعال الذي تعانينه ».

- «ليس هذا إسرافًا في القول، فإنني أدرك ما يختلج في صدري، وأعرف مدى نفور نفسي من مجرد التفكير في الزواج. وبعد الثروة فإن إن أحدًا لن يقبلني زوجة من أجل الحب وحده، بل سأكون مجرد صفقة مالية. ثم إنني لا أريد معاشرة غريب، أجنبي عني، لا تربطه بي عاطفة، وإنما أنا أنشد الأقارب الذين أشعر بأنني منهم وهم مني. قل مرة أخرى إنك ستكون أخي.. لشد ما شعرت باغتباط وسعادة حين نطقت بهذه الكلمات.. كرِّرها، فقط إذا استطعت أن تردِّدها صادقًا !».

- «أعتقد أن هذا بوسعي.. إنني لأوقن من أنني كنت دائما أحب شقيقتيّ، وأدرك الأساس الذي قام عليه حبي لهما: احترامهما، والإعجاب بمواهبهما.. وأنتِ الأخرى لك مبدأ وعقل راجح، كما أن أذواقك وعاداتك تشبه أذواق وعادات ديانا وماري، ولقد ارتحت دومًا إلى وجودك، ووجدت في حديثك سلوى وتسرية، وأشعر أن من السهل أن أفسح لكِ مكانًا في قلبي، دون ما تكلف، فتصبحي أختًا ثالثة ».

- «شكرًا.. إن هذا يكفيني لهذه الليلة. والآن، يحسن بك أن تنصرف لأنك تهيِّج شجوني ببعض وساوسك المرتابة، إذا أنت أطلت المقام ».

فابتسم في تقدير، وتصافحنا. ثم انصرف.. ولستُ بحاجة إلى أن أروي ألوان الصراع التي دارت ولا الجدال الذي جرى بعد ذلك، حتى استطعت أن أنفِّذ ما شئت بصدد الميراث.. كانت مهمتي شاقة، ولكني كنت قد عقدت العزم، وقد لمس أبناء عمتي مدى تشبُّثي بتقسيم الميراث بيننا، كما أحسوا في قرارات قلوبهم بصدى ما كان يختلج في سويدائي.. ولا بد أنهم شعروا بأنهم ما كان يفعلون غير ما فعلت لو أنهم كانوا في مكاني، ومن ثم فقد انتهوا في آخر الأمر إلى أن يقيموا بيني وبينهم من يحكم في المسألة.. واختار مستر أوليفر، أحد المحامين الأكفاء للفصل، فأقرّ رأيي، ومن ثم انتصرت رغبتي. وسرعان ما اتُخذت الإجراءات الرسمية للقسمة، وأصبح كل من سانت جون وديانا، وماري، وأنا، يملك نصيبًا مساويًا لنصيب كل من الآخرين !

الفصل الرابع والثلاثون

كان عيد الميلاد قد اقترب، عندما تمت التسوية، وأشرف موسم العطلات فأغلقت مدرسة مورتون، وقد حرصت على ألّا يكون فراقي لها جافًا، مجدبًا، فإن الحظ الطيب يفتح اليد كما يفتح القلب بمهارة عجيبة، والمرء حين يمنح قسطًا من العواطف في مقابل الكثير الذي تلقّاه، إنما يخفِّف من جيشان الأحاسيس المضطرمة في فؤاده. فلقد طالما شعرت باغتباط أن كثيرًا من تلميذاتي الريفيات كن يحببنني، وقد تأكد هذا الشعور حين حلّ وقت الفراق. وما كان أعمق تقديري وعرفاني حين تبيَّنت أن لي مكانة صادقة في قلوبهن الساذجة غير المرائية. وقد وعدتهن بأنني لن أدع أسبوعًا يمر في المستقبل دون أن أزورهن، وأساعد في إعطائهن درسًا !

وأقبل مستر ريفرز في اللحظة التي صرفت فيها الفتيات الستين، وأغلقت الباب، ووقفتُ ممسكة بالمفتاح في يدي، أتبادل كلمات الوداع مع نفر من خيرة التلميذات، كنت أراهن من أكثر شابات الريف البريطاني حشمة، واحترامًا، وتواضعًا، ومعرفة !

وقال لي مستر ريفرز بعد انصرافهن: «أترين أنكِ نلتِ جزاء طيبًا عن الموسم الذي قضيته في التعليم؟ ألا تجدين متعة حقًا في الشعور بأنك قد فعلتِ خيرًا حقيقيا لأبناء عصركِ وجيلك؟». فهتفت: «بلا ريب». قال: «ومع ذلك، فأنت لم تجاهدي في هذا السبيل سوى بضعة أشهر.. أفلا ترين أن حياة تكرَّس للنهوض بالجنس البشري هي خير أنواع الحياة؟ ».

فقلت: «بلى، ولكني لا أستطيع أن أمضي أبد الدهر على هذا المنوال، بل أحب أن أستمتع بما لديَّ من ميزات وخصال، بمثل ما أنمِّي في الغير خير الميزات والخصال! لا بد لي من أن أستمتع بما أوتيت، فلا تذكرني بالمدرسة، فأنا الآن خارج جدرانها، وأصر على أن أحظى بإجازة كاملة!». فتفرَّسني في قلق وقال :

- «ماذا هناك؟ أرى أن التلهف المفاجئ يتولاكِ. ما الذي تنوين فعله؟ ».

- «أن أنشط.. وأنشط بقدر ما في طاقتي. على أنني أرجو أولًا أن تسرِّح حنة، وأن تبحث عن سواها لتقوم بخدمتك ».

- «هل تريدينها؟ ».

- «أجل.. أود أن آخذها معي إلى مورهاوس، فلن ينقضي أسبوع حتى تكون ديانا وماري قد وصلتا، وأحب أن يكون كل شيء معَدًّا في انتظارهما ».

- «فهمتُ.. إنما خُيِّل إليَّ أنكِ تريدين أن تفرِّي في رحلة خلال العطلة. الخير فيما اخترتِ.. فلتذهب حنة معك !».

قلت: «إذن فانبئها بأن تتأهَّب في الغد، وهاك مفتاح المدرسة، وسأعطيك مفتاح كوخي في الصباح». فتناول المفتاح وقال :

- «إنك تسلمينه في فرحٍ بالغ . الحق أنني لا أفهم سر ابتهاجك، لأنني لا أدري أي عمل تعتزمين أن تشغلي به نفسك عوضًا عن هذا العمل الذي تنفضين منه يديك. أي هدف، وأي غرض، وأي مطمح لحياتك الآن؟ ».

- «إن هدفي الأول هو «التنظيف التام». هل تعي المعنى الذي أحشده في هذا التعبير.. سأنظِّف مورهاوس من أعلى حجراته إلى أسفلها. وهدفي الثاني أن أدلّك أرضه بالشمع والزيت حتى تستعيد لمعانها.. أما هدفي الثالث، فهو أن أنظِّم كل شيء من مقاعد، ومناضد، وأسرّة، وأبسطة، فأنسِّقها في دقة هندسية. وسأعمد بعد ذلك إلى استنفاد كل ما لديكم من فحم ووقود، لأشعل في مدافئ الحجرات جميعًا نارًا تدفئها. وأخيرًا، سأكرِّس وحنة اليومين السابقين على وصول شقيقتيك في خفق البيض، وفرز الزبيب، وطحن التوابل، وإعداد كعك عيد الميلاد وتهيئة المواد اللازمة للفطائر وأداء الطقوس المطبخية، وإن أثار أمثالك هذا التعبير.. أما غرضي فموجز: هو أن أرى كل شيء في أكمل حال. استعدادًا لاستقبال ديانا وماري في يوم الخميس المقبل.. ومطمحي فهو أن أهيِّئ لهما استقبالا مثاليًا ».

وارتسمت على شفتَيْ سانت جون ابتسامة خفيفة ولم يقنع بما قلت فقال :

- «لا بأس بهذه الفترة الراهنة ولكني أعتقد جادًا أنك، بعد أن تنقضي نوبة المرح العارمة هذه، ستتطلّعين إلى شيء يسمو على ما في الأعمال العائلية والتدبير المنزلي من مباهج ...

فقاطعته قائلة: «إن هذه هي خير الأعمال في الدنيا». ولكنه استأنف الحديث قائلًا: «لا يا جين، لا.. إن هذه الدنيا ليست مسرح راحة ونعيم مقيم. فلا تحاولي أن تجعليها كذلك!». فقلت :

- «إنما أعتزم العكس.. أن أعمل جاهدة ».

- «إنني ألتمس لكِ العذر يا جين في الوقت الحاضر، وسأسمح لكِ بشهرين كاملين تستمرئين فيهما الاستمتاع الكامل بمركزك الجديد، وتبهجين نفسك بمفاتن القربى التي ما حظيتِ بها إلّا أخيرًا. ولكنني آمل، بعد ذلك، أن تشرعي في أن تتجاوزي ببصرك نطاق مورهاوس ومورتون وعشرة الشقيقتين، والطمأنينة الأنانية، والراحة القائمة على إرضاء شهوات النفس ».

فتطلّعت إليه مأخوذة، وهتفتُ :

- «سانت جون.. أعتقد أنك شرّير بكلامك هذا. أنا أحاول أن أكون مغتبطة، مطمئنة، فإذا بك تدفعني إلى القلق وعدم الاستقرار.. فما الغاية؟ ».

فقال: «غايتي أن تتجهي إلى النهاية التي تستغلين عندها المواهب التي أضفاها الله على كيانك، والتي سيسألك عنها يومًا ما، ويحاسبك حسابًا عسيرًا، لسوف أراقبك يا جين عن كثب، وبعين واعية، فاحذري! حاولي أن تكبحي جماح الاندفاع إلى المتع المنزلية والاقتصار عليها.. ولا تتشبثي بالروابط الدنيوية بهذه القوة. ادّخري حماستك ودأبك لقضية صالحة.. أتسمعينني يا جين؟ ».

ما كان أسعدني في مورهاوس! وكم كان إقبالي على العمل! وكذلك كانت حنة، فقد فتنت بما رأته من جدي وابتهاجي وسط الصخب الذي ساد بيتنا الذي قلبناه رأسًا على عقب، وأخذت ترقبني لترى كيف أدلّك الأرض بالشمع، وكيف أنفض الغبار، وكيف أنظف، وكيف أطهو! والحق أننا شعرنا بهناءة إذ استطعنا بعد يومين من الفوضى والهرج، أن ننتزع أول معالم النظام. وكنت قد قمت قبل ذلك برحلة إلى مدينة (س)، فابتعت بعض الأثاث الجديد، إذ أطلق أبناء عمتي يدي في استحداث ما راق لي من تبديلات، وقرَّرنا معًا تخصيص مبلغ لهذا الغرض. وقد تركت قاعة الجلوس العادية وغرف النوم كما كانت تقريبًا، إذ كنت أدرك أن ديانا وماري تستشعران غبطة لمرأى المناضد والمقاعد والأسرّة القديمة، تفوق تلك التي تشعران بها عند رؤية أكثر المستحدثات أناقة! على أنه كان لا بد من تجديدات تشيع لونًا من التبديل والحياة في المناظر القديمة: من أبسطة وستائر قائمة جديدة وجميلة المنظر، إلى نخبة من التحف البرونزية والخزفية الطريفة انتقيتها بعناية، إلى مفارش ومرايا، وصوانات ومناضد جديدة.. وصح ما توقَّعت، فأضفت هذه الأشياء قبسًا من الجِدّة وإن لم تشِع في المكان بهرجة! وأعدت تأثيث قاعة الاستقبال، وغرفة نوم احتياطية، مختارة لهما أثاثًا من الخشب الماهوجني القديم، وأقمشة قرمزية، وكسوت أرض الردهة بالمشمَّع، كما فرشت الدرج بالأبسطة. فلما تم كل هذا، بدا لي مورهاوس مثالًا للتألّق المحتشم !

وأخيرًا جاء يوم الخميس المرتقب، وكان من المتوقّع أن تصل الفتاتان حوالي الغروب، فأوقدت النيران في مدافئ الطابقين منذ الأصيل، وكان المطبخ في أكمل مظهر، وأنا وحنة في أبهى ثيابنا، وكل شيء في أتم عدة.. وكان سانت جون أول الوافدين، وكنت قد رجوته أن يبقى بعيدًا عن البيت حتى يتم تجهيز كل شيء. والواقع أن مجرد فكرة قلب نظام البيت، على بساطته واعتداله، كانت كافية لأن تزعجه، ووجدني في المطبخ عند وصوله، أرقب إعداد بعض الكعك للشاي، ثم خبزه، فتساءل وهو يقترب من المدفأة عما إذا كنت راضية عن ممارسة التدبير المنزلي. وكان جوابي أن دعوته إلى أن يرافقني في جولة يتفقد فيها أعمالي .

وحملته بعد عناء على أن يجوس خلال البيت، فكان يكتفي بإلقاء نظرة خلال الأبواب التي كنت أفتحها، وبعد أن طاف بأرجاء البيت في الطابق العلوي والطابق الأسفل، قال إنني ولا بد تجشَّمت قدرًا كبيرًا من العناء والتعب في تحقيق كل هذه التغييرات الكبيرة في مثل تلك الفترة القصيرة. ولكنه لم ينطق بحرف واحد ينم عن اغتباط لما أصاب غرفته بالذات من تحسين، فهبطت حدة حماستي. إذ خطر لي أن التعديلات ربما كانت قد أصابت بعض معالم يعتز بها. وسألته عن ذلك. ولا بد أن لهجتي كانت موجسة، مضطربة، إذ بادر قائلًا إن الأمر على النقيض، وأنه لاحظ أنني راعيت الحافظة على كل المعالم في حرص، بل إنه خشيَ أن أكون قد أوليت المسألة أكثر مما كان ينبغي من اهتمامي. وكنا قد بلغنا قاعة الجلوس، فاستطرد قائلًا :

- «كم من دقيقة - مثلا - قضيتها في دراسة نظام هذه الغرفة بالذات؟ وبهذه المناسبة، هل لك أن تخبريني أين الكتاب الذي كان هنا؟ ».

وأريته الكتاب على رف في الحجرة، فتناوله من مكانه، وحمله إلى مجلسه المعهود عند حافة النافذة، وشرع يتصفَّحه !

والواقع أنني لم أكن أحب هذا. أيها القارئ.. لقد كان سانت جون رجلا طيبًا، ولكنني بدأت أشعر بأنه كان صادقًا يوم قال عن نفسه إنه جافّ بارد. لم يكن لمجاملات الحياة وملابساتها الإنسانية أي تأثير عليه، ولا كان للمتع الهادئة أي سحر لديه. والحق أنه لم يكن يعيش إلّا للطموح.. وصحيح أن طموحه كان ينشد كل طيّب وعظيم، إلّا أنه مع ذلك جعله لا يستقر ولا يرضى عن استقرار من كانوا يعيشون حوله! وبينما كنت أتأمل جبهته العالية التي بدت كحجر أبيض بجمودها وشحوبها، وإلى قسماته البديعة، التي تركزت على الكتاب الذي كان بيده، أدركت فجأة إنه لا يكاد يصلح لأن يكون زوجًا طيّبًا، وإن معاشرته ستكون مهمة مضنية على من تغدو زوجة له.. وكنت أفهم بغريزتي كنه حبه لمس

أوليفر. وأقرّه على أنه كان حبًا ساميًا.. حب حواس وليس حب جسد. ولكنني إذ ذاك أدركت أنه يحتقر نفسه لما يفرضه هذا الحب عليه من انفعال.. وفهمت الرغبة التي تساوره للقضاء على هذا الحب، وعدم اطمئنانه إلى ما يستطيع هذا الحب أن يحققه من سعادة له أو للفتاة !

ورأيت أنه إنما خلق من المعدن الذي اعتادت الطبيعة أن تصنع منه أبطالها - مسيحيين كانوا أو وثنيين - ومشرِّعيها، وساستها، وقادتها المظفَّرين.. مخلوقات كالكتل المتينة تُعدُّ لكي ترتكز عليها المهام الجسام.. ولكن الرجل من هذا الصنف يكون في الحياة المنزلية مجرَّد مخلوق عابس، كئيب، لا يتناسق مع الجو المحيط به! وجال بخاطري: «أن قاعة الجلوس هذه ليست مجاله، بل إن جبال الهيملايا، أو أدغال «كافر»، أو حتى ساحل غينيا المليء بالمستنقعات والأوبئة، قد يكون أكثر ملاءمة له من هذا المكان ».

ودفعت حنة إذ ذاك باب حجرة الجلوس صائحة: «ها هما آتيتان! لقد أقبلتا!». ونبح «كارلو العجوز» إذ ذاك في ابتهاج، فهرعت إلى الخارج. وكان الظلام قد هبط، ولكني سمعت جلبة عجلات. وسرعان ما أوقدت حنة مصباحًا، بينما أقبلت عربة وقفت لدى الباب الخارجي، وبرز منها شكل جد مألوف، ثم تبعه شكل آخر مثله.. وإن هي إلّا لحظة حتى كان وجهي تحت حواف قبعتَيْهما، وقد اتصل بخد ماري الناعم أولًا، ثم بجدائل ديانا المنسابة.. وهما تضحكان وتقبِّلاني.. ثم احتضنتا حنة، وربتتا على كارلو الذي كاد يتقافز فرحًا، وسألتا في لهفة عن كل شيء وهما تدخلان الدار .

وكانت أطرافهما قد تيبَّست لطول جلوسهما وارتجاجات العربة التي أقلتهما من وايتكروس، كما اخترقت برودة الليل الجليدية عظامهما، ولكن أساريرهما اللطيفة سرعان ما انبسطت إذ غلّفها بها الدفء المنبعث من المدفأة. وسألتا عن سانت جون بينما كانت حنة والحوذي يقلان متاعهما. وأقبل القس الشاب من قاعة الجلوس في تلك اللحظة، فألقتا بنفسيهما على صدره في آن واحد. وجاد على كل منهما بقبلة هادئة، وغمغم ببضع كلمات ترحيب بصوت خفيض، ووقف هنيهة يتحدَّث إليهما، ثم قال إنه سينتظرهما في قاعة الجلوس، وانسحب عائدًا إلى مجلسه، وكأنه يلوذ بمأوى يعتصم به! وكنت قد أوقدت شموعًا، تأهبًا للصعود إلى الطابق العلوي. فسرعان ما صعدتا وقد اغتبطتا للتجديدات والزينة التي أدخلت على غرفتيهما، إذ اكتستا بستائر وأبسطة جديدة، وأوعية للزهور من الخزف الحافل بالنقوش والألوان، وأعربتا عن شكرهما بإخلاص: وسرَّني أن تدبيراتي صادفت هوى من نفسيهما، وأن ما فعلته ضاعف من ابتهاجهما بالعودة إلى دارهما .

وما كان أحلاها من ليلة! فابنتي عمتي أفاضتا في الحديث والتعليق وقد بدتا خفيفتين وفي غاية المَرح، حتى إن ثرثرتهما العذبة طغت على جمود سانت جون.. وكان صادق الابتهاج برؤية شقيقتيه، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجاريهما في تألق روحيهما، وتدفق فرحهما! ولقد سرَّه عودة ديانا وماري، ولكنه كان يضيق بملحقات هذا الحَدث، أعني الصخب والثرثرة المرحة.. وتبيَّنت أنه كان يتوق إلى نهاية هذا اليوم الصاخب.. وفي غمرة استمتاعنا بالمساء، وبعد تناول الشاي بساعة، إذ بطرقات على الباب، ثم أقبلت حنة تقول إن «صبيًا مسكينًا جاء، في هذه الساعة غير الملائمة، ينشد مستر ريفرز لأن أمه كانت تُحتضر». فسألها القس: «وأين تسكن يا حنة؟»، فقالت: «على مقربة من هضبة وايتكروس، على أربعة أميال تقريبًا، في طريق مليئة بالمستنقعات والطحالب !».

- «أخبريه أنني قادم ».

- «بل أعتقد يا سيدي أن من الخير ألّا تذهب في مثل هذا الوقت، فهذا أسوأ طريق تسير فيها بعد الغروب، إذ إنك لا يمكن أن تهتدي على اتجاه خلال المستنقعات. ثم إن الليل قُرّ، والريح زمهرير، فيحسن بك أن تقول له إنك ستذهب في الصباح ».

ولكنه كان قد بلغ الردهة، وهو يتدثَّر بمعطفه.. ثم رحل دون ما اعتراض أو كلمة. وكانت الساعة قد بلغت التاسعة إذ ذاك. ولم يعد إلّا حين انتصف الليل، وقد أقبل جائعًا، متعبًا، ولكنه بدا أسعد مما كان قبل خروجه! لقد أدى عملًا من واجباته، وقام بخدمة دينية، وأحسّ بقدرته على العمل وعلى إنكار الذات، فرضيَ عن نفسه !

ويُخيَّل إليَّ أن الأسبوع الذي تلا ذلك كان بأسره عبئا استنفد صبره! كان أسبوع عيد الميلاد، ولم تكن أمامنا مهمة محدّدة، بل قضيناه في لهو منزلي مرِح.. وكان لهواء المستنقعات، وللتحرُّر، ولفَجْر الثراء أثر على نفسَي ديانا وماري كأثر الإكسير المجدِّد للحياة، فكان المرَح يتملّكهما طوال النهار. وكانتا لا تكفَّان عن الكلام، فكان لمناقشاتهما، وحضور بديهتَيْهما، وذكائهما فعل السحر في نفسي، حتى إنني كنت أفضّل الإنصات إليهما ومشاطرتهما الحديث على أي شيء آخر! ولم يكن سانت جون يزجرنا، ولكنه كان يفر بنفسه. فنادرًا ما يمكث في الدار، إذ كانت أبرشيته واسعة، وأهلها متناثرين، فكان يجد في زيارة المرضى والفقراء في مختلف المناطق ما يشغله يوميًا !

وفي ذات صباح، استغرقت ديانا في التفكير بضع دقائق - أثناء الإفطار - ثم سألته عما إذا كان قد بدّل مشروعاته، فكان جوابه: «لم تتبدَّل، وليست قابلة للتبديل!». ثم أنبأنا بأنه قد تقرر - بصفة نهائية - أن يرحل عن إنجلترا خلال العام التالي. فتساءلت ماري: «وروزاموند أوليفر؟». والظاهر أن الكلمات أفلتت من شفتيها على الرغم منها، إذ لم تكد تنطق بها، حتى بدرت منها إشارة، وكأنها تهمّ بأن تستردها. وكان سانت جون ممسكًا بكتاب، إذ كان من عاداته المستهجنة أن يقرأ أثناء الطعام - فأغلق كتابه، وتطلَّع إلينا، قائلًا :

- «إن روزاموند أوليفر توشك أن تتزوَّج من مستر جرانبي، وهو من أحسن أبناء (س) وسطًا ومكانة، كما أنه حفيد ووريث سير فردريك جرانبي.. لقد سمعت النبأ من أبيها أمس ».

ونظرت كل من أختيه إلى الأخرى، ثم نظرنا ثلاثتنا إليه، فإذا به جامد الأسارير كالزجاج !

ووجدتني، في أول مرة وجدت فيها سانت جون وحيدًا بعد هذا النبأ، مدفوعة إلى أن أسأل عما إذا كان الحديث قد أكربه، ولكنه بدا أقل ما يكون حاجة إلى العطف، حتى إنني شعرت بشيء من الخجل لما أبديت من إشفاق، لا سيما وأنني لم أعتَد الحديث معه في الفترة الأخيرة، إذ عاد تحفظه وكتمانه يحيطانه بغلاف جليديّ طمر صراحتي تحت طبقاته.. ولم يفِ بوعده أن يعاملني كما يعامل شقيقتيه، بل كان يقيم باستمرار فوارق بسيطة بيننا تشيع البرودة في علاقتنا ولا تساعد على نمو المودَّة. وقصارى القول أنني وقد تكشَّفت قرابتنا وأصبحنا نعيش تحت سقف واحد، بدأت أشعر بالتباعد يتسع بيننا أكثر مما كان عندما كنت مجرَّد معلمة القرية! وكنت كلما تذكَّرت المدى الذي أباح لي مرة أن أتمادى إليه في مصارحته، أعجز عن إدراك سر جموده البارد الراهن. ومن ثم لم تكن دهشتي بالبسيطة عندما رفع رأسه وقال :

- «أترين يا جين؟ لقد خضت المعركة، وفزت بالنصر !».

وأجفلت لهذه البادرة، فلم أجب لفوري، بل ترددت لحظة قبل أن أقول :

- «ولكن، هل تراك متأكدًا من أنك لست كأولئك المظفرين الذين تكبدهم انتصاراتهم ثمنًا غاليًا؟ ألا يقضي عليك انتصار آخر من هذا القبيل؟». فقال :

- «ما أظن.. وحتى لو كان الأمر كذلك، فهو لا يعنيني في كثير، لأنني لن أضطر إلى أن أكافح من أجل انتصار آخر من هذا القبيل. لقد كانت معركتي حاسمة،

وأصبحت الطريق أمامي ممهَّدة خالية من العقبات.. وأحمد الله على ذلك!».
وما إن قال هذا، حتى عاد إلى أوراقه وصمته !

وإذ بدأت السعادة المشتركة التي كانت تسودني وديانا وماري تستقر وتتخذ طابعًا أكثر هدوءًا، وعدنا إلى مألوف عاداتنا ودراستنا المنتظمة، أخذ سانت جون يطيل مكثه في البيت، ويجلس معنا في غرفة واحدة لعدة ساعات أحيانًا.. وبينما كانت ماري تنهمك في الرسم، وديانا تنصرف إلى القراءة في دائرة المعارف في انتظام ومثابرة أدهشاني وأثارا إعجابي، وأنا أشق طريقي في اللغة الألمانية، كان سانت جون يعكف على درس خاص لإحدى اللغات الشرقية التي كان يرى تحصيلها ضروريًا لمشروعاته.. وكان يبدو مستغرقًا، وهو في مجلسه المنعزل الهادئ. بيد أن عينيه الزرقاوين اعتادتا أن تبارحا كتاب قواعد هذه اللغة، لتحوما في فضاء الغرفة، أو تستقرا أحيانا علينا، نحن زميلاته في الدراسة، في انتباه غريب، فإذا فوجئ في هذه الحال، ارتدت نظراته في الحال، ولكنها لا تلبث دائمًا أن تعود إلينا متفحِّصة! وكنت أتساءل في نفسي عن معنى هذه النظرات، كما أخذت أعجب لحرصه ومثابرته على إبداء ارتياحه لمناسبة كانت تبدو لي قليلة الأهمية.. وهي زيارتي الأسبوعية لمدرسة مورتون. وكان عجبي يستحيل إلى نوع من الدهشة الحائرة عندما تهيب بي شقيقتاه في الأيام غير المناسبة - حين تنهمر الثلوج، أو يهطل المطر، أو تشتد الرياح - ألّا أذهب، فإذا به في كل مرة يستخف منهما هذا القلق، ويشجعني على أن أؤدي مهمتي دون أن أحفل بعوامل الطبيعة. فيقول :

- «إن جين ليست ضعيفة الإرادة إلى الدرجة التي تظهر أنها عليها. في طاقتها أن تحتمل ريح الجبال، أو هطول المطر، أو بضع الكسف المتساقطة من الجليد كأيّ واحد منا.. إن بنيانها متين ومرن، أُعدّ بحيث يحتمل تقلبات الطقس إلى درجة تفوق احتمال كثير ممن يفوقونها بدانة ».

ولم أكن أجرؤ على الشكوى، إذا ما عدت مكدودة، وقد أرهقني الطقس، لأنني كنت أعرف أن أتفه تذمُّر كفيل بأن يكدِّره.. فقد كانت قوة الاحتمال تسرّه في كل الأحوال، وكان العنف يسوؤه بوجه خاص. على أنني، في أصيل ذات يوم، سمحت لنفسي بالبقاء في المنزل، لأنني كنت مصابة ببرد شديد، وذهبت شقيقتاه إلى مورتون بدلًا عني، فجلست أقرأ أشعار شيللر، بينما كان منهمكًا في حل طلاسم لغته الشرقية. وإذ تحوَّلت إلى الترجمة، بدرت مني نظرة في اتجاهه، فإذا بي أجد نفسي تحت سيطرة العينين الزرقاوين اللتين لم تكونا تكفَّان عن التمعّن! وليس بوسعي أن أعرف كم ظلتا تتأمَّلاني وتشملاني بنظراتهما، ولكن الذي أعرفه هو أنهما كانتا حادّتين، وباردتين في آن واحد.

وداخلني للحظة وهم خرافيٌّ غريب للحظة.. وكأنني كنت أجلس في غرفة واحدة مع كائن أسطوري يوقع الذعر في النفس !

وسألني: «ماذا تفعلين يا جين؟» فقلت: «أدرس الألمانية ».

- «أريد منك أن تتحوَّلي عن الألمانية، فتدرسي الهندوستانية ».

- «ما أظنك جادًا في هذا الاقتراح؟ ».

- «بل إنني جاد إلى درجة تجعلني ألحّ في ذلك، وذكر لي أن الهندوستانية هي اللغة التي كان يدرسها إذ ذاك، وأنه كان مضطرًا إلى أن يظل مستذكرًا المبادئ كلما تعمَّق في اللغة. ومن ثم فإن من أكبر العون له، أن يجد تلميذًا يسترجع معه المبادئ مرارًا وتكرارًا، ومن ثم يتمكَّن من تثبيتها في ذهنه.. وقال إن ذهنه تأرجح زمنًا بيني وبين أختَيه، ثم استقر عليَّ، لأنه رأى أنني أقدر الثلاث على أن أجلس طويلًا للدرس. وسألني أن أسدي إليه هذا الصنيع، ثم طمأنني إلى أنني قد لا أضطر إلى المضي في التضحية طويلًا، إذ لم يبقَ على رحيله أكثر من ثلاثة أشهر !

وألفيته صبورًا، طويل الأناة، ولكنه كان في الوقت ذاته مدرِّسًا حازمًا، فكان يطالبني بجهد كبير، فإذا وجدني قد أديتُ ما طلب، شهد، بطريقته الخاصة، بحسن اختياره. وبالتدريج، اكتسب لنفسه نفوذًا عليَّ، حدّ من حرية فكري، فإذا إطراؤه واهتمامه لا يقلان تأثيرًا على الأعصاب من عدم اكتراثه.. ولم أعد أتكلَّم أو أضحك متحرِّرة أثناء وجوده، لأن حاسة خفية، ملحاحة، كانت لا تفتأ تذكِّرني بأن خفة الروح، من ناحيتي على الأقل، كانت مكروهة لديه! كنت أذكر دائمًا، وإلى درجة مزعجة، أنه لا يرضى إلّا عن الطباع والأعمال الجادة الرزينة. وما لبثت إرادتي أن بدأت تتجمَّد وتبرد، فأصبحت أذهب إذا قال: «اذهبي!»، وأجيء إذا قال: «تعالي!»، وأفعل الشيء إذا قال: «افعلي هذا ».

لكنني لم أحب هذه العبودية.. وكم مرة تمنَّيت لو أنه واصل إهماله شأني !

وحدث ذات مساء، عندما التففنا الثلاثة حوله قبل الذهاب إلى النوم لنحييه ونتمنَّى له ليلة طيبة، أن قبَّل أختيه كعادته، ثم بسط لي يده.. كعادته أيضًا! وكانت ديانا ساعتها قد جرفتها موجة مرح، كما كانت شخصيتها لا تقل عن شخصيته قوة.. لكن بطريقة أخرى فهتفت :

-«لقد اعتدت يا سانت جون أن تدعو جين شقيقتك الثالثة، ولكنك لا تعاملها معاملة الشقيقة، فلماذا لا تقبِّلها هي الأخرى؟ ».

ودفعتني نحوه، وظننت بأن تصرّفها سيثير غيظه. وشعرت باستياء وإرباك.. وفيما كنت مستغرقة في هذا الشعور، حنى سانت جون رأسه، وقرَّب وجهه ذا الجمال اليوناني من وجهي، وأخذت عيناه تسائلان عينيَّ بنظرة ثاقبة.. ثم قبَّلني! والواقع أنه لو كان هناك وجود لقبلات رخامية، أو قبلات جليدية، لقلت إن قبلة ابن عمتي القس كانت من هذا الطراز. ولكن ربما هناك قبلات تجريبية، اختيارية.. وقد كانت قبلته من هذا الصنف! إذ لم يكد يطبعها على جبيني حتى راح يتأمَّلني ليعرف النتيجة. ولكنها لم تكن رائعة، وإني لواثقة من أن وجهي لم يتضرَّج حياء، ولكنني ربما امتقعت قليلا، لأنني أحسست كأنما كانت هذه القبلة خَتمًا يثبت أغلالي. ولم يتخلَّ بعد ذلك عن هذه العادة، وكأنما كان الوقار والرزانة اللذان اعتدت أن أتلقَّى بهما القبلة مبعث فتنة خاصة له !

أما من ناحيتي، فقد كنت أزداد رغبة - يومًا بعد يوم - في أن أرضيه، ولكنني كنت أزداد شعورًا - يومًا بعد يوم أيضًا - بأنني مضطرة في سبيل ذلك إلى أن أتحلَّل من نصف طبيعتي، وأن أخنق نصف خصالي، وأن أخالف أذواقي لأحولها عن اتجاهاتها الأصلية، وأقسر نفسي على أشياء لم يكن لديَّ ميل طبيعي نحوها؟ كان يحاول أن يدرِّبني على أن أرقى إلى مستوى لا أملك قط أن أبلغه، وكان التطلُّع إلى المستوى الذي يريده يرهقني. كان الأمر ضربًا من المستحيل.. تمامًا كما لو أردت أن أصوغ قسمات وجهي غير المنتظمة وأصبها في قالب الجمال اليوناني العريض كوجهه.. أو كما لو أردت أن أحوِّل خضرة عينيَّ، إلى الزرقة المتلألئة، العميقة، التي كانت تصبغ عينيه !

على أن السمو إلى المستوى الذي كان يبغيه لم يكن القيد الوحيد الذي قيَّد حريتي إذ ذاك. فلقد أصبح من السهل عليَّ في الفترة الأخيرة، أن أستسلم للحزن، إذ جثم على قلبي شرّ نهم راح يمتص سعادتي من جذورها.. وكان ذلك الشر هو: الشك! فلعلك أيها القارئ قد ظننت أنني نسيت مستر روشستر وسط التطوُّرات التي ألمَّت بحياتي وحظِّي، ولكنني لم أنسه لحظة واحدة.. كانت ذكراه ما تزال تلازمني، لأنها لم تكن مجرَّد شعاع شمس لا تلبث أن تأفل، ولا كانت أثرًا على رمل لا تلبث العاصفة أن تذروه، وإنما كانت اسمًا حفر في قلبي ليبقى ما بقيَ ذلك القلب! وكان الشوق لمعرفة ما صار إليه أمره يلاحقني في كل مكان ..

ولقد سألت مستر بريجز - أثناء مراسلتي له بصدد الوصية - عمَّا إذا كان يعلم شيئًا عن مقر مستر روشستر أو صحته، ولكنه كان، كما حدس سانت جون، يجهل كل شيء عنه.. فكتبت إلى مسز فيرفاكس أستجديها بيانات عن الموضوع، وأنا موقنة من أنني سأتلقَّى منها جوابًا في أقرب فرصة. وكم دهشت حين انقضى أسبوعان دون أن أتلقَّى ردًا.. فلما انصرم شهران والبريد

الذي يصل يومًا بعد يوم لم يحمل لي ردًا، وقعت فريسة لأقسى أنواع القلق.. فكتبت مرة أخرى، معلِّلة النفس باحتمال أن يكون خطابي الأول قد فُقد.. وتجدَّد الأمل في نفسي مرة بعد مرة، وظل مشرقًا لبضعة أسابيع، ثم أخذ يخبو.. إذ لم يصلني سطر ولا كلمة! وعندما انقضى نصف عام في الانتظار دون طائل، مات أملي، فعدت أتخبَّط في ظلام حقيقي !

وأقبل الربيع جميلا، ولكنني لم أستمتع به.. واقترب الصيف.. وكانت ديانا تحاول أن تدخل السرور إلى قلبي، فقالت إنني أبدو معتلة الصحة ورغبت في أن تصطحبني إلى شاطئ البحر. وعارض سانت جون قائلًا إنني لم أكن في حاجة إلى راحة وكسل وإنما كنت في حاجة إلى ما يشغلني، لأن حياتي الراهنة كانت بلا غرض، فأنا محتاجة إلى هدف. وأحسب أنه - لكي يقيم العراقيل - قد أطال أمد الدروس الهندوستانية التي كنت أتلقَّاها، وزاد من الواجبات التي كان يتطلبها مني، وأنا كالبلهاء لا أفكر قط في مقاومته.. بل ما كنت أملك أن أقاومه! إلى أن أقبلت على الدروس ذات يوم، بنفس مثقلة أكثر من المعتاد، إذ زاد من أساي استياء بالغ. فقد أنبأتني حنة في الصباح أن ثمة خطابًا وصل باسمي، فلما هبطت لأتسلمه وكلي ثقة في أنه يحمل الأنباء التي طال ارتقابي إياها، وجدت أنه مجرد مذكرة تافهة من مستر بريجز بشأن بعض الأعمال. وانتزعت الصدمة المريرة بعض دموع من عيني. فلما جلست أحملق في الحروف الهندية، وقت الدرس، عادت الدموع تنبجس! ودعاني سانت جون إلى جواره لأقرأ، فلما حاولت القراءة عصاني صوتي، واختنقت الكلمات في فيض من العبرات. ولم يكن في حجرة الجلوس سوانا، إذ كانت ديانا تتدرَّب على الموسيقى، بينما كانت ماري تعمل في الحديقة، فقد كان اليوم من أيام شهر مايو البديعة، والشمس مشرقة والنسيم عليل .

ولم يبدِ زميلي دهشة لجيشان عواطفي، ولا سألني سببًا، وإنما قال :

- «سننتظر بضع دقائق يا جين، ريثما تتمالكين جأشك !».

وبينما رحت أهدِّئ الانفعال في عجلة، جلس هادئًا، صابرًا، معتمدًا على مكتبه، كطبيب يرقب بعين العلم أزمة متوقعة في داء مريضه ومعرفة الدواعي، وإذ كتمت عبراتي، وجفَّفت عيني، تمتمت ببضع كلمات متعللة بأنني لم أكن مكتملة الصحة في ذلك الصباح، ثم استأنفت الدرس، وأفلحت في إتمامه .

وما لبث سانت جون أن نحَّى كتبي وكتبه، وأغلق درجه، وقال :

- «الآن يا جين، ستخرجين للنزهة.. ومعي أنا !».

- «سأنادي ديانا وماري لمرافقتنا ».

- «لا، لست أريد سوى زميلة واحدة في هذا الصباح، ولا بد من أن تكوني أنت هذه الزميلة، فارتدي ثياب الخروج، وانصرفي من باب المطبخ، واسلكي الطريق المتجهة إلى مارش جلين وسألحق بك فورًا ».

ولم أهتدِ إلى مسلك وسط.. بل إنني في حياتي لم أعتد أن أجد مسلكًا وسطًا إزاء الشخصيات الإيجابية القوية التي تناقض شخصيتي.. أجل لستُ أعرف مسلكًا وسطًا بين الخضوع المطلق، وبين التمرد العتيد. ولقد طالما ظللت أتبع باستمرار أحد المسلكين إلى غايته.. إلى أن يبلغ عنفوانه ثم ينفجر ويتحوَّل إلى المسلك الثاني، في قوة تشبه انفجار البركان أحيانًا. ولما كانت ظروفي الراهنة لا تميل إلى الثورة، ولا كان مزاجي الحالي يتجه إلى التمرد، فقد ثابرت على الرضوخ لتوجيهات سانت جون. ولم تنقضِ عشر دقائق حتى كنت أسير في درب مهجور نحو وادٍ صغير.. وسانت جون بجانبي !

وكان النسيم يهب من الغرب مارًا على التلال حيث يتزوَّد بشذى الزهور البرية، والسماء صافية الزرقة، والجدول ينحدر على السفح مترعًا بمياه الربيع المنصرم، فيفيض وفيرًا وقد انعكست على مياهه الصافية أشعة الشمس الذهبية.. وإذ تحوَّلنا في سيرنا عن الدرب، رحنا نطأ أرضًا معشوشبة، ذات خضرة زمرّدية، توشيها زهور بيضاء دقيقة الأحجام، وترصّعها ورود صفراء كالنجوم.. وقد أحاطت بنا التلال فحجبتنا عن العالم، داخل الوادي الصغير.. وبلغنا طلائع صخور قامت كحرَّاس للذود عن خور صغير وسط الجبال، فقال سانت جون: «لنسترح هنا !».

وجلسنا، فمكثنا نصف ساعة لا نتكلم، حتى إذا انقضت هذه الفترة، قال :

- «سأرحل بعد ستة أسابيع يا جين، وقد حجزت مكانًا على الباخرة إيست إنديامان التي تقلع في العشرين من يونيو ».

فقلت: «ليحمك الله ما دمت قد آثرت أن تضطلع برسالته ».

قال: «أجل، ففي هذا مجدي واغتباطي.. إنني في خدمة مولى منزَّه عن الخطأ، فلست منطلقًا تحت قيادة إنسان، ولن أكون عرضة للقوانين الناقصة. ولا لسيطرة خاطئة من آدميين مثلي.. ضعاف. إن مليكي، ومشرِّعي، وقائدي، هو الكمال المطلق. ولكن يبدو غريبًا لي أن كل من حولي لا يتحرَّقون شوقًا إلى أن ينضووا تحت اللواء نفسه، وأن يعملوا في الميدان نفسه !».

- «ليس للجميع ما أوتيت أنت من قوة. ومن الغباء أن يهفو الضعاف إلى السير مع الأقوياء ».

- «لست أتحدث إلى الضعاف أو أفكر فيهم، وإنما أخاطب الشخص الذي أعرفه جديرًا بالعمل، وقادرًا على أدائه ».

- «هؤلاء قلة بحيث يتعذر اكتشافهم ».

- «الحق ما قلتِ، ولكن من الصواب إيقاظهم إذا ما وجدناهم.. من الصواب حثهم واستثارة جهودهم وإرشادهم إلى ما أوتوا من مواهب ونِعَم.. من الصواب أن نلقي على أسماعهم رسالة السماء، وأن ندعوهم - باسم الله - لكي ينالوا مكانًا بين المقربين إليه ».

- «لو كانوا أهلا للرسالة حقًا، أما كانت قلوبهم تدعوهم قبل أن يدعوهم البشر؟ ».

وشعرت كأن سحرًا رهيبًا يتجمَّع حولي، وينعقد فوقي، ورحت أرتجف متوقِّعة أن أسمع كلمات مخيفة تتضمن تعويذة السحر الغامض.. وسألني سانت جون: «وبماذا يحدثك قلبك؟»، فأجبت وأنا مشدوهة مذهولة: «إن قلبي أخرس.. قلبي أخرس!». ولكنه قال في لهجة عميقة، ملحاحة: «إذن فلا بد من أن أتكلَّم باسمه.. تعالي معي إلى الهند يا جين، كزميلة ومساعدة». ودارت السماء والوادي في نظري، واهتزت التلال.. وكأنما سمعت نداء من السماء! وكأنما تمثَّل لي رسول كريم يهيب بي: «تعالي وساعدينا!». ولكنني لم أكن من طبقة الرسل، فلم أشأ أن أرى الرسول ولا أن أتلقَّى نداءه، بل صحت: «أواه يا سانت جون! ارحمني!». ولكنني كنت أتوسَّل إلى شخص ما كان يعرف رحمة أو إشفاقًا في سبيل أداء ما كان يعتقده واجبًا، فاستأنف حديثه قائلًا: «لقد أعدّك الله والطبيعة لكي تكوني زوجة مبشر، ومن ثم فهما لم يخلعا عليك ميزات جسدية، وإنما آثراك بميزات عقلية.. فأنت إنما خلقت للعمل، لا للحب.. ولا بد لك من أن تكوني زوجة مبشّر.. ستكونين زوجتي.. إنني أدعوك، لا لمتعتي، وإنما لخدمة المولى !».

فقلت: «لست أصلح لذلك ».

ولكنه كان قد حسب حساب هذه الاعتراضات الأولية، فلم يضطرب لها، وإنما أسند ظهره إلى صخرة خلفه، وعقد ذراعيه على صدره، وخلع على أساريره جمودًا ثابتًا.. ورأيت أنه قد أعدّ نفسه لمعارضة قوية، طويلة، وتزوّد من الصبر بذخيرة، ووطد العزم أن يكون النصر له في النهاية، وراح يقول :

- «إن التواضع يا جين هو أساس كل الفضائل المسيحية، وإنك لعلى حق إذ تقولين إنك لا تصلحين للعمل، ولكن.. من ذا الذي يصلح له؟ أو من ذا الذي كان يؤمن بجدارته للرسالة، عندما دعي لأدائها؟ فأنا، مثلا، لست سوى رماد وهشيم، وعندما قارنت نفسي بالقديس بولس، اعترفت بأنني أكبر مذنب، بيد أنني لا أتعذَّب بهذا الشعور إلى الدرجة التي تقعد بي عن العمل. إنني أعرف زعيمي وقائدي: فهو عادل، كما هو جبار، وإذا كان قد اختار أداة ضعيفة، مثلي، لأداء مهمة جليلة، فإنه ولا شك سيسد نقص الأداة من خزائن حكمته التي لا حدود لها.. فكِّري كما أفكِّر يا جين !».

- «إنني لا أفقه حياة العاملين في التبشير، وما درست يومًا مهامهم ».

- «ها أنذا، على ضآلة قدري، أقدِّم لك ما تقد تحتاجين من عون، إنني أستطيع أن أبصرك بالمهمة من ساعة إلى أخرى، وأن أقف إلى جوارك دائمًا، فأساعدك في كل لحظة.. أجل، أستطيع أن أفعل هذا في البداية، وسرعان ما ستصبحين مثلي قوة وكفاءة، ولا تحتاجين إلى معونة مني.. فأنا أعرف مدى مقدرتك !».

- «مقدرتي؟! أين هي لمثل هذه المهمة؟ إنني لا أحسّ بها.. لا شيء يهتف أو يتحرَّك في أعماقي وانت تتكلَّم.. لا أحس بضوء ينبثق في نفسي.. ولا أشعر بالحياة تتدافع، أو بهاتف يرشدني ويسرِّي عني.. أواه! لو أن لي القدرة على أن أريك في هذه اللحظة أن فكري أشبه بوهدة مظلمة، لا يعمر جوفها سوى لون واحد من الخوف، يرقد مكبَّلا، مرتعبًا.. إنه الخوف من أن يؤثِّر فيَّ إغراؤك فأحاول ما لا أستطيع تحقيقه !».

- «لديَّ جواب أردّ به، فاسمعيه. لقد راقبتك منذ لقيتك أول مرة، وجعلتك موضوع دراستي لعشرة أشهر، واستطعت أن أختبر استعداداتك بعدة اختبارات، فما الذي انتهيت إليه؟ لقد وجدت في مدرسة القرية أن بوسعك أن تؤدي بمهارة واستقامة ودأب، عملًا لا يتلاءم مع عاداتك وميولك.. ورأيت أن بوسعك أن تؤديه بمقدرة وبراعة، وأن تكسبي القلوب بينما تسيطرين على أصحابها وتحكمينهم وتخضعينهم للنظام.. وفي الهدوء الذي تلقيت به نبأ الثروة التي آلت إليك، رأيت ذهنًا بريئًا من رذيلة حب الذهب.. فليس لمتاع الدنيا سلطان عليك.. وفي مبادرتك الحاسمة إلى تقسيم ثروتك إلى أربعة أقسام، لتحتفظي بواحد منها، وتدفعي بالثلاثة إلى من رأيت أنهم أصحابها شرعًا، رأيت نفسًا تنتعش وتحيا في نيران التضحية.. وفي انصياعك لي وتحوّلك عن دراسة كنت معنية بها، إلى أخرى لمجرد أنها كانت تهمني، رأيت ما أنشد من خصال.. إنك يا جين وادعة، مثابرة، لا تنساقين بمصلحة دنيوية، وإنك مخلصة، ووفية،

وشجاعة، وجد رقيقة، وأهل للبطولة. فكفِّي عن فقدان الثقة في نفسك، إذ إنني أثق بك على طول الخط ودون تحفظ. ولسوف تكون معونتك لي كمرشدة في المدارس الهندية ومساعدة في نشر رسالتي بين الهنديات، فوق كل تقدير !

وانكمشت معارضتي.. وأوغل الإغراء متغلغلا في نفسي بخطى بطيئة ولكنها أكيدة، فإذا كلماته الأخيرة هذه تشق طريقها، وأنا مغمضة العينين، وتقتحم ما كان هناك من سدود ومتاريس.. وراح يرتقب الجواب. فاستمهلته ربع ساعة لأفكر. وقال: «عن طيب خاطر!»، ثم نهض فسار قليلا نحو الخور، ثم ارتمى على الأرض المعشوشبة، وظل راقدًا هناك. بينما رحت أقول لنفسي:
«بوسعي أن أقوم بما يبتغيه، إذا أنا استغنيت عن الحياة. ولكني لا أشعر بأن كياني يحتمل العيش طويلا تحت شمس الهند. فماذا في ذلك؟ إنه لا يحفل بالأمر كثيرًا، وإذا حانت منيتي فسوف يسلمني في هدوء ووقار إلى الله الذي ساقني إليه.. إن الأمر واضح أمامي. إذا غادرت إنجلترا، فإنما أغادر بلدًا أحبه ولكنه خاو من كل ما يشدني إليه.. إذ إن مستر روشستر لا يقيم فيه، بل ما قيمة وجوده لو أنه كان يقيم فيه؟ لقد أصبح محتّمًا عليّ أن أعيش من دونه، وليس هناك ما هو أسخف وأبدى للضعف من أن أجرجر أذيال العمر يومًا بعد يوم، في انتظار تغير مستحيل في ظروفي، يضمني ثانية إلى الرجل الذي أحببت.. إن عليَّ فعلًا أن أبحث عن شيء آخر في الحياة أصب عليه اهتمامي، بدلًا من ذاك الذي فقدت.. أفليست المهمة التي يعرضها على سانت جون، هي أجلّ ما يقوم به إنسان، أو يفرضه إلله؟ أفليست، بأعبائها النبيلة ونتائجها السامية، خير مهمة تملأ الفضاء الذي خلفه حب ممزَّق، وآمال مقوَّضة؟ أعتقد أن لا بد لي من أن أجيب بالموافقة.. ولكني مع ذلك أرتجف! إنني إذا استجبت لسانت جون، فأتخلَّى عن نصف نفسي، وإذا أنا ذهبت إلى الهند، فسأسعى إلى موت سابق الأوان.. ثم، كيف أملأ الفترة بين مبارحة انجلترا إلى الهند، ومبارحة الهند إلى القبر؟ ثم إنني أعرف سانت جون، وأعرف ما يرضيه وما يتوقعه، فبالذهاب معه لا بد لي من أن أضحِّي بكل شيء، فألقي على المذبح بقلبي، ومشاعري الحيوية، وكل شيء! وهو لن يحبني إطلاقًا، ولكنه سيرضى عن عملي.. سأريه ألوانًا من النشاط لم يرها أبدًا وموارد للقوة لم يتوقعها قط.. إذن فلأقبل ما يعرضه.. بيد أن هناك نقطة واحدة لا أطيقها.. هي أن أغدو زوجته، فهو لم يؤتَ قلبًا يتحرَّك لي بأكثر مما تتحرَّك الصخرة القاتمة الراسخة! ويقدِّرني كما لو كنت جنديًا.. لا، إن مثل هذا الاستشهاد أفظع من أن يحتمل.. إذا كان لا بد من أن أصحبه، فلأصحبه كأخت، وليس كزوجة ».

وتطلَّعت إلى حيث كان مستلقيًا، فإذا عيناه ترقباني في اهتمام ودقة وإمعان. ونهض مستويًا على قدميه، ثم اقترب مني. فقلت :

- «إنني على استعداد لأن أذهب إلى الهند، إذا جاز لي أن أبقى حرَّة ».

- «إن جوابك في حاجة إلى إيضاح، لأنه غير واضح ».

- «لقد كنت حتى الآن أخًا لي، كما كنت أنا أختًا لك، فلنستمر على هذا الوضع، ومن الخير لنا ألّا نتزوج ».

فهز رأسه قائلًا: «إن الأخوَّة التي بيننا لا تصلح في هذه الحالة. ولو أنك كنت أختي الشقيقة حقًا، لاختلف الوضع، ولاصطحبتك دون أن أبحث عن زوجة. أما وهذا وضعنا فلا بد لصلتنا من أن تكتسب صبغة شرعية بالزواج، وإلا فلن يكون لها وجود.. فكّري قليلا يا جين، وسوف يرشدك إدراكك القوي إلى الوضع !».

ولكن إدراكي لم يرشدني إلّا إلى أننا لم نتحاب كما ينبغي لأي زوجين أن يتحابا، ومن ثم فلا ينبغي لنا أن نتزوج. فقلت :

- «إنني أعتبرك أخًا يا سانت جون.. وأنت تنزلني من نفسك منزلة الأخت، فلتبق كذلك ».

فأجاب في عبارات حاسمة، قصيرة: «لا نستطيع.. لا نستطيع.. لقد قلت إنك ستذهبين معي إلى الهند، فتذكري هذا.. لقد قلته ».

- «ولكني ربطته بشرط ».

- «حسنًا، فلنتمسَّك بالنقطة الرئيسية.. الرحيل معي، والتعاون في جهودي المقبلة.. إنك لا تعارضين في هذا. لقد وضعت يدك على المحراث، فلم يعد أمامك إلّا أن تتدبَّري خير الطرق لأداء العمل.. حاولي أن تبسطي ما هو معقَّد من مصالحك، وأفكارك ورغباتك وأهدافك، وامزجي كل الاعتبارات في غرض واحد.. هو أن تؤدِّي المهمة على خير وجه.. ولكي تفعلي، لا بد لك من قرين، وليس أخًا.. إنني أنشد زوجة، فهي الشريك والمعين الأوحد، الذي أستطيع أن أوجِّهه في الحياة، وأظل محتفظًا به حتى الممات !».

وأخذت أرتجف وهو يتكلم.. كنت أحس بسلطانه ينفذ إلى عظامي، وبقبضته تشد على أطرافي. وهتفت :

-«ابحث عن سواي يا سانت جون.. ابحث عن واحدة تصلح لك». فقال :

- «تعنين واحدة تصلح لمهمتي.. لا لغرضي! أكرِّر لك أنني لا أنشد الشخص الذي لا قيمة له.. لا أنشد إنسانًا، بما للإنسان من حواسّ أنانية. وإنما أنا أنشد رسولًا مبشِّرًا ».

- «أواه! سأهب الله قلبي وطاقاتي.. ولكن لن أهبه نفسي ».

- «أتحسبين أن الله سيرضى بنصف تضحية؟ وأنا لا يمكنني أن أقبل بالنيابة عنه.. أن ولاءك يجب أن يكون كاملًا ».

وقلت: «أوه، سوف أقدّم قلبي إلى الله.. أما أنت فلست بحاجة إليه ».

ولن أقسم أيها القارئ على أن هذه العبارة، والإحساس الذي صاحبها، كانا خاليين من شيء من السخرية المكبوتة. كنت حتى تلك اللحظة أخاف سانت جون في صمته، لأنني لم أفهمه، وما فرض عليَّ سلطانه إلّا لأنه كان يستبقيني في غمرة الشك. ولم يكن بوسعي - حتى ذاك الوقت - أن أدرك مدى ما كان في شخصيته من تقوى، ومدى ما كان فيها من مطامع دنيوية، ولكن الحجب بدأت تتكشَّف أمام عيني عن طبيعته.. فتبيَّنت أنه غير معصوم من الخطأ، ولمست عيوبه.. أدركت أنني أمام إنسان، يخطئ كما أخطئ.. انجاب القناع عن جموده وصرامته.. وإذ ذاك، شعرت ببعده عن الكمال، فتشجَّعت إذ أدركت أنني أمام نَدٍّ أستطيع أن أجادله وأحاجه.. وأقاومه !

وكان قد أخلد إلى الصمت، فتجرَّأت على أن أتفرَّس ملامحه.. كانت عيناه تحدجاني بنظرة جمعت بين الدهشة العابسة، والتساؤل المرتاب، وكأنما كان يسائل نفسه: «أتراها تسخر.. وتسخر مني بالذات؟». وما لبث أن قال أخيرًا :

- «لا ينبغي أن ننسى أن هذه مسألة قدسية، لا يجب أن نفكِّر فيها أو نتحدَّث عنها باستخفاف وإلا زللنا وأذنبنا. إني أعتقد يا جين أنك صادقة عندما تقولين إنك ستهبين الله قلبك، وهذا غاية ما أبتغي. فما هو إلّا أن تنتزعي قلبك من بشريتك، وأن توقفيه على خالقك، حتى يقوم السلطان الروحي لله على الأرض غايتك ومبعث غبطتك.. ولسوف تصبحين على استعداد فورًا لأن تقومي بكل ما يصل بك إلى هذه الغاية، ولأن تدركي الحافز الذي سيدفع جهودك وجهودي قدمًا، باتحادك معي فكرًا وجسدًا، فهذا هو الاتحاد الوحيد الذي يضفي على أقدار ونوايا البشر صبغة الدوام المؤكد ».

فأنعمتُ النظر في أساريره التي كانت جميلة في تناسقها، ولكنها غريبة في صرامتها وقسوتها.. وتصورتني زوجة له.. أواه! إن هذا لن يكون! إن قلبي وفكري يجب أن يبقيا حرَّين.. وأحاسيسي غير مستعبدة.. إن في ذهني نواحي

هي عالمي الخاص، الذي يجب ألّا ينفذ إليه أحد سواي! وهتفت إذ بلغت هذا المدى من تأملاتي: «سانت جون!»، فأجاب في برود: «نعم؟ ».

- «أكرِّر استعدادي طائعة وبمحض إرادتي لأن أذهب معك كزميلة مبشرة، ولكن.. ليس كزوجة! ليس بوسعي أن أغدو زوجتك وجزءًا منك !».

فأجاب في إصرار: «بل لا بد من أن تصبحي جزءًا مني. وإلا فالصفقة بأسرها هباء! كيف أصحب - وأنا رجل لم أبلغ الثلاثين - فتاة في التاسعة عشرة من عمرها إلى الهند، دون أن تكون زوجة لي؟ كيف يُباح لنا أن نظل معًا إلى الأبد.. وأن تضمَّنا أحيانًا خلوة؟ ليس بوسعي أن أقول إنك أختي، إذ من المعروف أنك لست شقيقتي.. ولو أنني فعلت لأثرت الشكوك حول كل منا.. ثم إنك أوتيت قلب امرأة، وإن كان عقلك عقل رجل! لا، لن يجدي هذا». فقلت في شيء من الاستهجان: «بل يجدي.. إن لي قلب امرأة، ولكنه لن يبدو في أنوثته حيث أنت، إذ إن علاقتنا لن تكون سوى زمالة.. أو أخوّة، إن شئت!». فقال، وكأنه يحدث نفسه: «إنك لن تندمي إذا تزوجتني يا جين.. ثقي من هذا! لا بد من الزواج، فليس ثمة سبيل أخر، ولسوف يلي الزواج حب يكفي لأن يجعلك ترضين عن هذا الزواج، بلا شك !».

فلم أتمالك أن قلت وأن أقف أمامه :

- «إنني أستهجن فكرة حبك.. وأزدري العاطفة الزائفة التي تعرضها.. أجل يا سانت جون، إنني أزدريك حين تعرضها !».

وحدجني بنظرة ثابتة، وهو يعضّ شفتيه البديعتي الشكل، وليس بوسعي أن أقطع إذا كان قد استاء، أو أنه ذهل.. لكنه ما لبث أن قال :

- «إنني لم أتوقَّع قط أن أسمع هذا التعبير منك. وما أظنني فعلت أو قلت ما أستحق من أجله الازدراء ».

وتأثَّرت لرقة لهجته، التي زادها جلالا ما شاع في نبراته من ارتفاع هادئ، فقلت: «ألا أغفر لي الكلمات التي قلتها يا سانت جون، ولكن الذنب ذنبك، إذ عرضت موضوعًا تتباين إزاءه طبيعتانا.. موضوعًا لا يجب أن نناقشه مرة أخرى قط. إن مجرد كلمة "الحب " تخلق بيننا خلافًا.. ألا تنحَّ يا ابن عمتي عن مشروع الزواج، وانسه !».

ولكنه قال: «لا.. إنه مشروع طالما راودني، وهو الوحيد الذي يحقِّق غايتي العظيمة، ولكنني لن أستحثك في الوقت الراهن، وسأرحل غدًا إلى كمبردج،

فإن لي فيها أصدقاء أريد أن أودعهم، ولسوف أتغيب لأسبوعين، فانتهزي هذه الفترة وفكِّري في ما عرضت عليك، ولا تنسي أنكِ إذا رفضتِ فلست تتنكرين لي، وإنما تتنكرين لله! فهو يفتح أمامك، عن طريقي، أبواب حياة نبيلة، ولا سبيل لك إليها إلّا بأن تصبحي زوجتي ».

وبهذا فرغ من حديثه.. وفيما كنا في طريقنا إلى البيت، قرأت في صمته الحديدي كل ما كان يساوره نحوي: شعور من الاستياء انبعث عن طبيعة صارمة مستبدَّة قوبلت بالمقاومة حيث كانت تتوقَّع الاستكانة. كان، كرجل، يتمنَّى لو قسرني على الرضوخ عنوة، وما احتمل رفضي يصبر إلّا كرجل دين مخلص في تقواه! وعندما قبَّل شقيقتيه قبل النوم في تلك الليلة، آثر أن ينسى تقبيلي، بل ومصافحتي.. وغادر الغرفة في صمت.. وتألَّمت لهذا الجفاء، وأنا التي كنت أكن له ودًا كبيرًا، وإن لم أكن له حبًا.. وجاشت عواطفي إلى درجة بعثت الدموع في عيني! فقالت ديانا :

- «أرى أنك وسانت جون قد تشاجرتما أثناء نزهتكما في الوادي، ولكن يحسن بك أن تلحقي به، فإنه يتلكَّأ في الردهة.. ولسوف يصالحك !».

ومن عادة كبريائي ألّا تستبد بي في مثل هذه الظروف، فإنني، بدلًا من أن أتحيَّز لكرامتي، أتحيّز لفرصة الصلح. لذلك هرعت في إثر سانت جون، فإذا به يقف عند بداية الدرج.. وقلت له: «عم مساء يا سانت جون ».

فأجاب في هدوء: «عمتي مساء يا جين ».

قلت: «إذن فلتصافح!». وشد ما كانت قبضته باردة، متراخية! كان استياؤه مما حدث عميقًا بحيث لا تقوى حرارة الود على إذابته، ولا الدموع على محوه! لم يكن ثمة من سبيل إلى وئام هنيء: فلا ابتسامة مجاملة، ولا كلمة لطيفة، ومع ذلك فإن رجل الدين ظل صابرًا، بارد الأعصاب، وعندما سألته عما إذا كان قد صفح عني، أجاب بأنه لم يعتد أن يتشبَّث بذكرى ما يعرض له من استياء، وأنه لا يرى ما يستدعي الصفح، بل إنه لا يشعر بأنه قد تلقَّى إهانة !

وبهذا الجواب فارقني.. ولكم كنت أفضّل لو أنه ضربني فصرعني !

***

الفصل الخامس والثلاثون

ولم يرحل سانت جون إلى كمبردج في اليوم التالي كما قال، وإنما أرجأ سفره أسبوعًا بأكمله. وفي هذه الفترة جعلني أحس أيّ عقاب قاس في وسع رجل طيب وإن يكن جاف الطبع، حي الضمير وإن يكن جائرًا لا يرحم، أن يوقعه بشخص أهانه! فقد حرص على أنه يدخل في روعي على الفور، ودون أن يأتي بأي تصرف عدائي صريح ودون ينبس بكلمة تحمل معنى التقريع، بأنني لم أعد أحظى بعطفه! وليس معنى هذا أنه كان يضمر في أعماقه روحًا خبيثة تتنافى مع المبادئ المسيحية، أو أنه كان يود إيذاء شعرة واحدة في رأسي. فقد كان، سواء بطبعه أو بحكم مبادئه، أسمى من أن ينساق للذة الانتقام الوضيعة.. كان قد غفر لي أنني ازدريته ونبذت حبه، ولكنه لم ينسَ الكلمات التي قلتها، وما كان لينساها طالما بقينا معًا على قيد الحياة. وكنت أرى في نظرته، عندما كان يلتفت نحوي، أن تلك الكلمات كانت مسطورة بيني وبينه في الهواء كما كان رنين صوتي يحملها إلى أذنه كلما تكلمت، وصداها يتردَّد في صوته كلما أجابني.. ولم يكفّ عن الحديث إليَّ، بل إنه استمر يدعوني إلى مكتبه كل صباح كالمعتاد. وأكاد أسيء الظن فأقول إن الرجل الفاسد الذي كان كامنًا في أعماقه، كان يجد متعة، لا يشاركه إياها أي متدين صادق التقوى، في أن يبدي براعته في تجريد كل عمل وكل قول من الروح التي كانت، من قبل، تضفي سحرًا ووِدّا على تعليقاته وتصرّفاته، في الوقت الذي يتظاهر فيه بأن كل شيء عادي !

والواقع أنه لم يعد في نظري إنسانًا من لحم، وإنما صار تمثالا من رخام.. كانت عينه جوهرة زرقاء ساطعة باردة، ولسانه مجرد آلة ناطقة.. وكان كل هذا يعذِّبني عذابًا رفيع الأسلوب طويل المدى. كان يوقد نار غيظ بطيئة تثير في نفسي قلقًا مشوبًا بالأسى.. مما أضناني وعصرني عصرًا. وشعرت كيف أن هذا الرجل الطيب، الصافي صفاء النبع المعتم، كان خليقًا بأن يقتلني - لو أنني كنت زوجته - دون أن يريق من عروقي نقطة دم واحدة، أو يتحرك ضميره الشفاف بأي شعور بالجرم! وكنت ازداد شعورًا بهذا، حين أبذل أي محاولة للصلح معه، فلم أكن أحظى بأي تجاوب في مقابل ودي.. لم يكن يعاني أي ألم من جراء التباعد، ولا كان يحس بأي حنين إلى الصلح، ومع أن دموعي المنهمرة كانت تتساقط - في أكثر من مرة - على الصفحة التي نعكف على قراءتها، إلّا أنها لم تكن تؤثِّر فيه، وكأن فؤاده قُدَّ حقًا من صوَّان أو معدن! وفي الوقت ذاته كان يبدو أكثر ترفّقًا بشقيقتيه مما اعتاد، وكأنما كان يخشى أن

مجرد البرود غير كاف لإقناعي بأنني منبوذة مبعَدة، فأراد بإبراز الفارق في المعاملة أن يزيد من إيلامي.. ولكنني واثقة من أنه لم يكن يصدر في هذا عن خبث، وإنما خدمةً لمبدأ !

وتصادف أن رأيته في الليلة التي سبقت رحيله يتمشَّى عند الغروب في الحديقة، فلما نظرت إليه تذكَّرت أن هذا الرجل الذي كان يجافيني على هذا النحو، قد أنقذ حياتي يومًا. وأننا على صلة من القربى وثيقة. فشعرت بأنه عليَّ أن أبذل محاولة أخيرة كي أسترد وِدّه، فسعيت إليه وهو متكئ على بوابة الحديقة، وبادرته قائلة :

- «إنني شقية يا سانت جون لأنك ما تزال غاضبًا مني، فلنكن صديقين!». فكان الجواب الذي لم يكن يتزحزح عنه: «كنت أظن أننا صديقان». قالها في فتور وهو منصرف إلى تأمل القمر الذي بدأ يبزغ .

فقلت: «لا يا سانت جون، لسنا صديقين كما كنا، وإنك لتدرك هذا ».

- «ألسنا صديقين؟ من ناحيتي لا أرجو لك شرًا، بل أتمنى لك كل خير ».

- «إنني أصدقك يا سانت جون، لأنني واثقة من أنك لا تقوى على أن تتمنَّى شرًا لأي أحد، لكنني، كقريبة لك، أجد من حقي أن أرجو منك ردًا يفوق هذا اللون العام من العاطفة الإنسانية تبذله لأي غريب ».

- «إن رغبتك معقولة بالطبع، وأنا بعيد عن أن أعتبرك غريبة؟ ».

وكانت هذه العبارة التي نطق بها في برود وسكينة، كفيلة بأن تغيظني وتحيّرني. ولو أنني أصغيت إلى وسوسة الكبرياء والحنق، لتحوَّلت عنه لفوري. ولكن شيئًا أقوى من هذين الشعورين كان يعتمل في نفسي، فقد كنت أقدّر مواهب ابن عمتي ومبادئه، تقديرًا عميقًا، وكانت صداقته ذات قيمة في نظري، ومن ثم فقد كان فقدانها عناء قاسيًا، لا يجعلني أتخلّى بسرعة عن محاولة استردادها. فقلت :

- «أفنفترق على هذا النحو يا سانت جون؟ وهل إذا رحلت إلى الهند خلفتني هكذا، دون كلمة أكثر تلطُّفا مما قلت الآن؟ ».

فتحوَّل إذ ذاك عن القمر وواجهني قائلًا :

- «عندما أذهب إلى الهند يا جين؟! ماذا؟ ألست راحلة إلى الهند؟ ».

- «إنك قلت ألّا رحيل لي إلّا إذا تزوَّجت منك ».

- «وهل لن تتزوَّجي مني؟! أما زلت متشبِّثة بهذا القرار؟ ».

أتعرف أيها القارئ - كما أعرف أنا - أي إرهاب يستطيع أولئك الذين أوتوا طباعًا باردة، جامدة، أن يبثوه في أسئلتهم؟ ومدى الجليد الذي يدفنون تحت ركامه غضبهم؟ وما لاستيائهم من حدّة قمينة بأن تحطم البحار المتجمِّدة؟ على أنني أجبت قائلة: «لا يا سانت جون.. لن أتزوجك.. إنني مصمِّمة على قراري». واهتز الجليد ومال قليلا إلى الأمام، ولكنه دون أن ينهار . وقال :

- «مرة أخرى أسائلك لماذا الرفض؟». فأجبت :

- «كان في البداية لأنك لم تكن تحبني، أما الآن فلأنك تكرهني تقريبًا! ولو أنني تزوجتك لقتلتني.. بل إنك تقتلني الآن !».

وشحبت شفتاه ووجنتاه، حتى صارت ناصعة البياض، ثم قال :

- «لقتلتك.. أنا الآن أقتلك؟ هذه كلمات ما كان يجب أن تستعمليها، فهي عنيفة، وتنافي روح الأنوثة، وغير صحيحة.. إنها تشي بحالة ذهنية أثيمة، وجديرة بأن تجلب عليكِ التأنيب الشديد.. إنها ليست مما يمكن غفرانه، ولكن واجب الإنسان أن يغفر لأخيه سبعًا وسبعين غلطة !».

وكنت إذ ذاك قد فرغت من مهمتي، فبينما كنت توَّاقة إلى أن أمحو من ذهنه إهانتي السابقة، إذا بي أطبع على سطحه الصلب أثرًا آخر أشد غورًا من سابقه.. طبعته بالكي المحرق! وقلت :

- «لسوف تكرهني الآن فعلًا، فلا جدوى من محاولة الصلح، بل أرى أنني جعلت منك عدوًا إلى الأبد !».

وأحدثت هذه الكلمات أذى جديدًا، أنكى من السابقَين، لأنها مسَّت الحقيقة، فإذا الشفة الممتقعة ترتجف في تشنج عابر.. وتبيَّنت مدى الحقد الحاد الذي شحذته، فاعتصر الألم فؤادي، فأمسكت يده وقلت: «إنك تسيء تأويل كلماتي، فلست أنوي أن أؤلمك أو أسيء إليك، وما نويت من قبل !».

وابتسم في مرارة عميقة. وسحب يده في إصرار بالغ، وقال بعد صمت طويل: «والآن، أحسبك تسحبين وعدك، ولن تذهبي إلى الهند إطلاقًا؟». فأجبت: «بل سأذهب، كمساعدة لك». وتلا ذلك صمت جد طويل، فأي صراع كان يدور في

نفسه لحظتها بين الطبيعة والدين.. لست أدري، ولكن عينيه كانتا تومضان ببريق عجيب، كما غامت على وجهه ظلال غريبة، وتكلم في النهاية، فقال :

- «لقد بيَّنت لك من قبل الحرج الذي يحيط باعتزام امرأة بكر في سنك أن ترافق إلى الخارج رجلا أعزب في سني.. بينته لك بعبارات كانت كافية، على ما ظننت، لأن تمنعك من التمادي في هذا الرأي: أما وقد تماديت، فإني أشعر بالأسف.. من أجلك !».

وكان أي حديث يحمل معنى التأنيب، كفيل بأن يثير جرأتي، فقاطعته قائلة: «احرص على ألّا تجانب الإدراك السليم، فإنك على شفا الهذيان يا سانت جون.. إنني أكرر لك القول بأنني سأكون مجرَّد مساعدة لك إن شئت، ولكني لن أكون أبدًا زوجتك !».

واشتد شحوب وجهه مرة أخرى، ولكنه تمالك جأشه تمامًا، وأجاب في إصرار، ولكن دون انفعال: «لن تناسبني قط مساعدة لا تكون زوجة لي.. وبالتالي يبدو جليًا ألّا رحيل لك معي. على أنك إذا كنت صادقة في رغبتك في الذهاب، فسأتحدث أثناء وجودي في المدينة إلى مبشِّر متزوِّج، تحتاج زوجته إلى مساعدة: وستمكّنك ثروتك من ألّا تكوني عالة على معونة الجمعية، وبهذا تتفادين عار النكث بوعدك، والتخلف عن الركب الذي تعهدت بالانضمام إليه ».

وكما يعلم القارئ، لم أكن قد قطعت على نفسي وعدًا رسميًا، ولا ارتبطت بأي تعهّد، ومن ثم كان أسلوبه أقسى وأعتى مما ينبغي، فقلت :

- «ما من عار هناك، ولا نكث بوعد، ولست مرتبطة بأقلّ التزام بالذهاب إلى الهند، لا سيما مع أغراب. لقد كنت مستعدة لأن أجازف بالسفر معك، لأنني أعجب بك، وأثق فيك، وأحبك كأخت.. ولكني موقنة أنني إذا ذهبت إلى هناك - مع من يقدر لي الذهاب - فلن أعيش طويلًا في ذاك الطقس ».

فلوى شفته ازدراء، وقال: «آه! إنك تخافين على نفسك ».

فأجبت: «أجل، فإن الله لم يمنحني الحياة لكي أرميها، ولقد بدأت أدرك أن القيام بما تريد مني فعله، يكاد يعادل الانتحار. فضلا عن أنني لا بد من أن أتأكد - قبل ترك انجلترا - من أن بقائي هنا لن يكون أكثر نفعًا من رحيلي؟ ».

فتساءل: «ما الذي تعنين؟ ».

- «من العبث أن أشرح لك، ولكن هناك نقطة بقيت أعاني مرارة الشك في أمرها طويلًا، وليس لي أن أذهب إلى أي مكان حتى يتبدَّد هذا الشك ».

- «إنني أعرف أين يهفو قلبك وإلام يتعلَّق.. وهذا الاهتمام ينافي القانون والشرع. وكان خليقًا بك أن تسحقيه من أمد طويل، كما يجدر بك الآن أن تخجلي من الإشارة إليه.. أتفكِّرين في مستر روشستر؟ ».

وكان هذا حقًا، وكان صمتي اعترافًا به، فعاد يسأل: «هل ستبحثين عن مستر روشستر؟». فاجبت: «لا بد من أن أعرف ما أصابه». فقال: «لم يبقَ لي إذن سوى أن أذكرك في صلواتي، وأدعو الله من أجلك !».

وإذ عدت إلى قاعة الجلوس، وجدت ديانا واقفة لدى النافذة، مستغرقة في التفكير.. وكانت تفوقني طولا بكثير، فألقت يدها على كتفي، ومالت فوقي تتفرَّس وجهي، ثم قالت :

- «جين، لقد أصبحت دائمة الانفعال والشحوب، وأعتقد أن في الأمر شيئًا، فاخبريني بما بينك وبين سانت جون.. لقد ظللت أراقبكما من النافذة نصف ساعة، ولتصفحي عن تطفّلي، ولكنني منذ زمن أوجس من أمر لا أدريه.. أن سانت جون مخلوق عجيب». وأمسكت عن الكلام، فلم أنبس ببنت شفة. وما لبثت أن استأنفت حديثها قائلة: «إنني واثقة من أن هذا الأخ الذي أوتيته يهيم وراء آراء عجيبة عنك، وقد آثرك من أمد طويل بعناية واهتمام لم يولهما أحدًا سواك.. فما غايته؟ ليته يحبك.. هل هو يحبك يا جين؟ ».

ورفعت يدها الباردة إلى جبيني الملتهب. فقلت: «لا يا ديانا.. إنه لا يحبني مثقال ذرة». فتساءلت: «إذن لماذا يتبعك هكذا بعينيه، ويخلو إليك كثيرًا، ويستبقيك باستمرار إلى جواره؟ لقد استنتجت وماري أنه يريد الزواج منك». فقلت: «هو كذلك.. لقد سألني أن أكون زوجته». فصفقت ديانا وهتفت: «هذا ما تمنيناه وفكرنا فيه! ولسوف تتزوجينه يا جين.. أليس كذلك؟ فهو إذ ذاك سيمكث في انجلترا ».

وهنا قلت: «إن الأمر بعيد عن هذا يا ديانا، فإن فكرته الوحيدة في عرض الزواج هي الحصول على زميل صالح يشاطره جهوده في الهند ».

- «ماذا؟ أيريد منك أن تذهبي إلى الهند؟ ».

وإذ أجبت نعم، هتفت: «جنون! إنك لن تعيشي هناك أكثر من ثلاثة أشهر.. إنني واثقة من ذلك. لن تذهبي.. ما أظنك وافقت يا جين؟ ».

فقلت: «بل رفضت الزواج منه». فعقبت قائلة: «وبهذا أغضبته؟ ».

- «إلى أعمق حد. حتى إنه لن يصفح عني قط.. ومع ذلك، فقد عرضت عليه أن أرافقه كأخت له ».

- «إنها لحماقة بالغة يا جين: فكري في المهمة التي ستضطلعين بها.. إنها عناء متواصل، في بلاد يقتل التعب فيها الأقوياء، في حين أنك ضعيفة! ولكن، كيف رفضت الزواج منه.. إذن، فأنت لا تحبينه يا جين؟ ».

- «لست أحبه كزوج ».

- «ومع ذلك فهو شاب مليح ».

- «وأنا خالية من الجمال كما ترين يا دي، ومن ثم فلن يلائم أحدنا الآخر ».

- «أأنت خالية من الجمال؟ أبدًا! إنك من الملاحة والطيبة بحيث لا ينبغي أن تشوي حية في كلكوتا ».

وعادت تهيب بي في إخلاص أن أطرح كل فكرة في الرحيل مع أخيها، فقلت: «لا بد لي من ذلك فعلًا، لأنني عندما كرَّرت اقتراحي عليه بأن أخدمه كأخت، بهت لقلة حيائي، وبدا أنه يراني قد ارتكبت ذنبًا إذ اقترحت عليه أن أرافقه دون زواج، وكأنني لم أكن آمل من البداية أن أتخذه أخًا، ولم أعتد أن أعتبره كذلك !».

فسألتني: «وما الذي يحملك على الظن بأنه لا يحبك يا جين؟ ».

فأجبت: «يحسن بك أن تسمعيه وهو يتكلم في الموضوع.. لقد عبَّر مرارًا وتكرارًا عن أنه لا يريد زوجة لشخصه، وإنما من أجل مهمته. ولقد أخبرني بأنني خلقت للعمل وليس للحب، وهذا حقيقي. ولكني أرى أنني إذا كنت لم أُخلق للحب، فأنا بالأحرى لم أُخلق للزواج. أفلا يكون من العجب بعد ذلك يا دي أن أقيّد نفسي مدى الحياة برجل لا يراني أكثر من أداة نافعة؟ ».

فهتفت: «إنه أمر لا يُطاق.. غير طبيعي.. لا يستحق الاعتبار!». واستطردتُ قائلة: «ثم إنني وإن كنت أكن له الآن حبًا أخويًا، إلّا أنني أتصوَّر - إذا ما اضطررت إلى الزواج منه - احتمال قيام نوع من الحب الغريب، المضني، الذي لا مفر منه، لأنه متعدد المواهب، وفي منظره وأخلاقه وحديثه قدر من وقار الأبطال. وفي هذه الحالة، سيصبح حظي تعسًا إلى درجة لا توصف. إنه

لن يريد مني أن أحبه، فإذا أبديت عاطفتي فسيعمد إلى إشعاري بأن هذا نوع من التنعُّم لا يبغيه، ولا يليق بي. إنني أوقن من أن هذا سيكون تصرفه ».

وقالت ديانا: «ومع ذلك فإن سانت جون رجل طيب ».

فقلت: «إنه طيب وعظيم، ولكنه ينسى - في غير إشفاق - مشاعر ومطالب الناس البسطاء، في اندفاعه وراء نظرياته الجليلة.. لذلك يحسن بمن لا يضاهونه عظمة، أن يبتعدوا عن طريقه، وإلا داسهم في سيره، ها هو ذا آت. فسأتركك يا ديانا». وأسرعت إلى الطابق العلوي، إذ رأيته يلج الحديقة .

ولكنني اضطررت إلى مقابلته مرة أخرى عند العشاء. وبدا - خلال تناول الطعام - هادئًا كعادته. وكنت أظنه لن يوجه إليَّ حديثًا، كما كنت موقنة من أنه قد تخلَّى نهائيًا عن مشروع الزواج، ولكنني أخطأت الحدس في الأمرين. فقد خاطبني بطريقته المعهودة نفسها - أو التي أصبحت معهودة في المدة الأخيرة - وهي طريقة تتسم بأدب متزمِّت. ولا مراء في أنه استعان بالروح القدس ليكظم الغضب الذي أثرته في نفسه، فخُيِّل إليَّ أنه قد صفح عني مرة أخرى. واختار للقراءة المسائية - السابقة على الصلاة - الإصحاح الحادي والعشرين من سِفر الرؤيا ولقد كان من الممتع دائمًا أن أنصت بينما تنطق شفتاه الجميلتان بكلمات الإنجيل. فما كان صوته الرقيق ليبدو أكثر عذوبة وامتلاء، ولا كانت لهجته تبدو في بساطتها السامية أكثر تأثيرًا في النفس، منها عندما يتلو كلام الله.. أما في هذه الليلة، فقد اكتسب الصوت نغمة أكثر روعة، واكتسبت لهجته معنى أكثر تأثيرًا في النفس.. وكان يجلس وسط حلقة من أهل بيته، وقد بدا قمر شهر مايو متألقًا خلال النافذة التي انزاحت عنها الستارة، فجعل ضوء الشمعة القائمة على المنضدة يبدو غير لازم. هكذا كان يجلس عاكفًا على نسخة الإنجيل العتيقة الضخمة، ينقل عن صفحتها رؤيا السماء الجديدة، والأرض الجديدة، ويروي كيف سيهبط الرب ليعيش بين الناس، وكيف سيجفف الدموع عن أعينهم، ويعد بأنه لن يكون ثمة موت بعد ذلك، ولا أسى، ولا عويل، ولا أي ألم، لأن الأشياء السالفة ستنقضي وتزول !

وهزتني الكلمات المتعاقبة بقوة عجيبة وهو ينطق بها، لا سيما حين شعرت من التغير البسيط الذي انتاب صوته أن عينيه قد تحولتا نحوي، وهو يلفظ هذه الكلمات : "من يغلب يرث كل شيء وأكون له إلهًا، وهو يكون لي ابنًا وأمًا " ، وهنا تباطأت لهجته وأخذ يضغط على الكلمات "الخائفون، وغير المؤمنين... فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثاني ". ومن هنا أدركت أي مصير كان سانت جون يخشى أن أناله! واتسمت قراءته للفقرات الأخيرة من هذا الإصحاح، بشعور بالنصر الهادئ المكبوت الممتزج بحماسة

مشبوبة. وكأنما آمن هذا القارئ بأن اسمه قد كتب فعلًا في «سفر الحياة»، فتاقت نفسه إلى الساعة التي يؤذن له فيها بدخول المدينة التي يحمل إليها ملوك الأرض أمجادهم ومفاخرهم، حيث لا حاجة إلى شمس أو قمر لإضاءتها، لأن جلال الله ينيرها ..

وتجمَّعت كل طاقته، واستيقظ كل إيمانه الورع في الصلاة التي أعقبت هذا الإصحاح، فكأنما كان يجاهد من أجل الله بكل إخلاص، وقد عقد العزم على الغلبة، وراح يطلب القوة لذوي القلوب الضعيفة، والهداية للضالين، والتوبة - ولو في الساعة الأخيرة - لأولئك الذين كانت إغراءات الدنيا والجسد تحيد بهم عن الطريق الضيقة. وراح يطلب، ويلح في السؤال، يرجو نعمة النجاة من النار. وللإخلاص رهبة عميقة، فوجدتني أفكر في إخلاصه.. أولًا وأنا أصغي إلى الصلاة، ثم عندما بلغت ذروتها، فإذا بي أتأثَّر بها، ولا ألبث أن أخشع لرهبتها.. كان يشعر مخلصًا بعظمة وصلاح غرضه، ويشهد بذلك الآخرون الذين استمعوا إليه، لأنهم لم يملكوا سوى أن يشعروا بذلك .

وإذ انتهت الصلاة ودَّعناه، إذ كان مزمعًا على الرحيل في ساعة جد مبكرة من الصباح. فلما قبَّلته ديانا وماري، غادرتا الحجرة.. وأخالهما فعلتا ذلك عن قصد، إثر همسة منه.. وبسطت له يدي متمنية له رحلة بهيجة، فقال :

«شكرًا لكِ يا جين. ولسوف أعود من كمبردج بعد أسبوعين، كما قلت لك. وهي مهلة تفكرين فيها. ولو أنني أنصت للكبرياء البشرية، لما حدَّثك ثانية عن الزواج مني، ولكن أنصت لواجبي، وأضع نصب عيني دائمًا هدفي الأول.. وهو أن أفعل كل الأشياء، في سبيل مجد الرب. لقد عانى معلمي «المسيح» طويلًا، وكذلك سأعاني، فلست أقوى على أن أتركك للهلاك، كسفينة ضالة! ألا توبي، قبل فوات الأوان! تذكَّري أننا أُمرنا بالعمل والوقت نهار، وأنذرنا بأن "الليل لن يلبث أن يأتي، فلا يُتاح لإنسان أن يعمل ". ويمنحك الله القدرة على أن تختاري النصيب الذي لا سبيل إلى انتزاعه منك !».

ووضع يده على رأسي وهو ينطق بهذه الكلمات، وكان يتكلَّم بحماسة ورقَّة.. ولم تكن نظرته في الواقع نظرة محب يتطلَّع إلى محبوبته، وإنما كانت نظرة راعٍ يجمع حملانه الشاردة، أو بالأحرى نظرة ملاك حارس يرقب الروح التي هو عنها مسؤول.. إن لكل الموهوبين، سواء كانوا مرهفي الحس أو لم يكونوا، وسواء كانوا متحمِّسين أو طموحين أو طغاة، لحظات من السمو يسودون فيها ويسيطرون، على أن يكون الإخلاص والصدق رائدهم. وشعرت بتوقير نحو سانت جون، توقير بلغ من قوته أن دفع بي فورًا إلى النقطة التي كنت أحاول طويلا الابتعاد عنها.. فلقد ساورتني إذ ذاك الرغبة في أن أكف عن مواجهته،

وأن أندفع في تيار إرادته إلى بحر حياته فأفقد إرادتي في غماره.. وشعرت الآن بوطأة حصاره لي كما شعرت به مرة من قبل .

ووقفت بلا حراك تحت لمسات ساحري، وقد نسيت رفضي، وزالت مخاوفي وشُلّت مقاومتي، وأصبح المستحيل - وهو الزواج من سانت جون - ممكنًا. لقد تغيَّر كل شيء تمامًا بلمسة مباغتة: إن الدين ينادي، والملائكة تومئ، والله يأمر، والحياة تُطوى، وأبواب الموت مفتوحة تطل الأبدية من خلفها.. وبدا لي أنه لا بد من التضحية بكل شيء في التوّ واللحظة، لكي أحصل على الأمان والسعادة.. وامتلأت الغرفة المعتمة بالرؤى والأحلام.. وما لبث أن سألني سانت جون بلهجة رقيقة، وقد سحبني إلى جانبه بلطف: «هل تستطيعين أن تقرِّري الآن؟». آه من هذه الرقة! لشد ما هو أقوى من العنف! لقد كنت أستطيع أن أقاوم غضب سانت جون، ولكني كنت أنثني كعود الخيزران تحت ضغط رقته ولطفه، ومع هذا فقد كنت أعرف طيلة الوقت أنني إذا استسلمت الآن فإن الندم لن يساورني يومًا على سابق تمردي وعصياني، إذ إن طبيعته لم تكن قد تبدَّلت إثر ساعة من الصلاة، وغاية ما في الأمر أنها سمت عاليًا.. فحسب !

وأجبت أخيرًا: «بوسعي أن أبتّ الآن، لو أنني وثقت بأن إرادة الله تفرض عليَّ أن أتزوجك.. لو أنني اقتنعت لتزوجتك هنا، والآن، وليكن بعد ذلك ما يكون!». فصاح سانت جون: «لقد استجيبت صلواتي!». وشد قبضته على يدي وكأنه يستولي على ما هو حق له، وأحاطني بذراعه وكأنه يحبني "تقريبًا " وأقول تقريبًا، لأنني أدرك الفرق، فلقد عرفت شعور الإنسان عندما يكون محبوبًا. ولكنني غدوت مثله، فطرحت مسألة الحب وراء ظهري، وجعلت أفكر في الواجب فقط! وأخذت أصارع ما اكتنف بصيرتي من عتمة وظلام. كنت أتوق بإخلاص وحرارة وصدق إلى أن أفعل الشيء الصحيح ولا أحفل بغيره..
وابتهلت إلى السماء: «ألا دلّيني.. ارشديني إلى الطريق!». وشعرت بانفعال لم أشعر بمثله من قبل، وسواء كان ما حدث بعد ذلك نتيجة للإنفعال أو لم يكن، فهذا متروك لحكم القارئ .

وكان السكون يخيِّم على المنزل كله. إذ هجع الجميع، ما عداي وسانت جون.. وكانت الشمعة الوحيدة تحتضر، وضوء القمر يغمر الحجرة، وقلبي يدق بسرعة وعنف.. حتى إنني كنت أسمع وجيبه.. وفجأة، أخلد القلب إلى السكون، إذ غشيه إحساس غريب، لم أدرِ كنهه، ولم يلبث أن سرى إلى رأسي وأطرافي.. وما كان هذا الإحساس كمَسّ الكهرباء، ولكنه كان - على أي الحالات - حادًا، غريبًا، مذهلا، أرسل في حواسي التي كانت في أقصى انتباهها حتى تلك اللحظة، مفعولا مخدرًا، سارعت إلى انتزاعها منه وإيقاظها.. فانتبهت

مرهقة، تتوقّع أمرًا.. فإذا عيني وأذني في انتظار، بينما كان لحمي يرتعش فوق عظامي. وسألني سانت جون: «ما الذي سمعت.. وما الذي ترين؟». ولم أكن قد رأيت شيئًا، ولكنني سمعت صوتًا ينادي من مكان ما: «جين، جين، جين!»، ولا شيء أكثر من ذلك.. وشهقت قائلة: «يا إلهي! ما هذا؟». ولعلني قلت أيضًا: «أين هو؟». لأنني لم أرَ شيئًا في الحجرة، ولا في المنزل، ولا في الحديقة.. على أن الصوت لم ينبعث من الهواء، ولا من تحت الأرض أو من فوق رأسي.. لقد سمعته، ولكن كان من المستحيل أن أدري: أين ولا من أين! ولقد كان صوت كائن بشري، معروف، ومحبوب.. كان صوتًا أتذكره جيدًا.. صوت إدوارد فيرفاكس روشستر! وكان يتكلّم بألم، وأسي ولهفة، واستنجاد، وتعجّل! فصحت قائلة: «إنني قادمة! انتظرني! أواه، سأحضر!». وهرولت إلى الباب فنظرت إلى الممر الذي كان مظلمًا، وجريت إلى الحديقة فوجدتها خالية.. فناديت في دهشة: «أين أنت؟ ».

وأرسلت التلال عبر الوادي ردًا واهنًا: «أين أنت؟». وجعلت الرياح تئن في خفوت خلال أشجار الصنوبر، بينما كانت الوحشة والوحدة تيسيطران على التلال المقفرة، وخيم سكون منتصف الليل على المكان .

وقلت لسانت جون، إذ خُيِّل إليَّ أني أرى شبحًا أسود يبرز عند الشجرة السوداء المجاورة لباب الحديقة: «ألا دعني من الأوهام الخرافية! ما هذا من صنع دجلك أو سحرك، وإنما هو من صنع الطبيعة.. لقد ثارت، وإذا كانت لم تفعل المعجزات، إلّا أنها بذلت قصارى جهدها!». وابتعدت عن سانت جون، ولو استطاع لاحتجزني. ولكن هذه كانت ساعتي التي أسترد فيها سطوتي ونفوذي، فإذا قواي تنطلق من عقالها في شدة.. وطلبت إلى سانت جون أن يمسك عن أي سؤال أو ملاحظة، ورغبت إليه أن يتركني لأخلو إلى نفسي، فأطاعني على الفور. وما دام الإنسان يملك الطاقة الكافية لكي يأمر بصورة حاسمة، فإنه لا يجد سوى الطاعة! وصعدت إلى غرفتي فأغلقتها بالمفتاح، ثم ركعت على ركبتي ورحت أصلي على طريقتي.. وقد تختلف عن طريقة سانت جون، ولكنها فعالة.. فبدا لي أنني أقترب جدًا من الله.. واندفعت روحي ساجدة عند قدميه، عرفانًا وشكرًا. وعندما نهضت من صلاتي، كنت قد عقدت العزم على أمر، فاستلقيت على فراشي وقد انزاحت الهموم عن كاهلي، وزالت الغشاوة عن بصري، وانتظرت بلهفة شروق الصباح !

الفصل السادس والثلاثون

وأقبل النهار، فنهضت عند الفجر وانهمكت ساعة أو ساعتين في ترتيب حاجتي في غرفتي وأدراجي وصواني، وقد اعتزمت أن أغيب عنها فترة وجيزة. وسمعت في الوقت ذاته سانت جون يبرح غرفته ثم يقف عند بابي. وخشيت أن يطرقه، ولكنه اكتفى بأن دفع من تحت الباب ورقة، فتناولتها ونظرت إليها، وإذا فيها: «لقد تركتني فجأة ليلة أمس، ولو أنك مكثت برهة وجيزة، لوضعت يدك على صليب المسيح وتاج الملاك. سأنتظر منك قرارًا واضحًا عند عودتي بعد أسبوعين وفي الوقت ذاته، حاذري وصلّي لكي لا تقعي في الغواية.. إن روحك راغبة، ولكن الجسد - على ما أرى - ضعيف. سأصلي من أجلك في كل ساعة - المخلص: سانت جون». وهتفت في نفسي: «إن روحي راغبة في أن تفعل ما هو صواب، وجسدي - فيما أرجو - قوي إلى الدرجة التي تمكنه من تحقيق إرادة السماء، بمجرد أن تتكشف لي هذه الإرادة. وعلى أي حال، فلسوف أكون من القوة بحيث أستطيع البحث والسؤال، والتنقيب عن منفذ من غيوم الشك هذه، كي أصل إلى نهار اليقين !».

وكان اليوم أول أيام شهر يونيو، ومع ذلك فقد كان الصباح باردًا مطيرًا، وأخذ المطر يطرق بشدة زجاج نافذتي. وسمعت الباب الخارجي يفتح، فينطلق سانت جون خارجًا.. ورأيته - خلال النافذة - يعبر الحديقة، ثم يتخذ طريقه خلال الآجام الملتفّة بالضباب، نحو وايتكروس، حيث يلتقي بعربة البريد. فقلت له في نفسي: «لسوف أقفو أثرك بعد ساعات قلائل يا ابن العمة، وسأستقل أنا الأخرى عربة من وايتكروس، فإن لي أنا الأخرى من أسعى للقائه قبل أن أرحل.. إلى الأبد!». وكان باقيًا على موعد الفطور ساعتان، فأخذت أجوس خلال غرفتي في هدوء، وأتأمَّل الرؤى التي أحدثت هذا التغير في خططي.. تذكرت الإحساس الغريب الذي خامرني، والصوت الذي سمعته بكل ما فيه من غرابة لا سبيل إلى تعليلها.. ولاح لي أنه إنما انبعث في أعماقي وليس في الكون المحيط بي.. وساءلت نفسي: أكان مجرَّد وهم ناتج عن الغضب؟ لم يكن في وسعي أن أجزم، ولا أن أصدق. كان أشبه الأصوات بالهاتف.. بالإلهام! كان الإحساس الغريب أشبه بهزة فتحت أبواب سجن روحي، وفكتها من أغلالها، وأيقظتها من سباتها، فإذا الروح تقفز مرتجفة، مرهَفة السمع، مبهوتة.. ثم تردَّدت صيحة ثلاث مرات في سمعي، وفي قلبي، وفي روحي، فإذا بهذه الثلاث لا تجزع، ولا ترتعب، وإنما انتشت، وكأنها تحررت بحركة واحدة من إسار الجسد !

وقلت أختم تأمّلاتي: «سأعرف بعد أيام شيئًا عن ذاك الذي خُيِّل إليَّ! ليلة أمس أن صوته يدعوني.. لقد أثبتت الخطابات أنها غير مجدية، ومن ثم فلا بد من التحري الشخصي». فلما اجتمعنا حول مائدة الفطور، أعلنت لديانا وماري أنني منطلقة في رحلة قد تستغرق أربعة أيام على الأقل، فسألتاني: «أو ترحلين وحدك يا جين؟»، فأجبت: «أجل، فإني ذاهبة لأتفقَّد أنباء صديق أشعر بقلق من أجله منذ أمد». ولعلهما قالتا في نفسيهما إنهما كانت تعتقدان ألّا أصدقاء لي سواهم، فكثيرًا ما قلت هذا فعلًا.. ولكن ما طبعتا عليه من لطف جعلهما تمسكان عن التعقيب، وإن سألتني ديانا ما إذا كنت أعتقد أنني في حالة صحية تمكنني من السفر، إذ كانت تراني شاحبة. ولكنني أجبتها بأنني لم أكن أعاني إلّا من القلق !

وبارحت مور هاوس في الساعة الثالثة من بعد الظهر، فلم تأتِ الساعة الرابعة حتى كنت أقف بجانب علامة الطريق - عند وايتكروس أنتظر العربة التي تقلني إلى ثورنفيلد. وما لبثت أن سمعتها، وسط السكون الشامل، تقترب من بعد.. وإذ بها العربة عينها التي هبطت منها في تلك البقعة ذات أصيل من أصائل الصيف، منذ عام! لكن كنت إذ ذاك بلا حول ولا قوة ولا هدف! وسرعان ما كانت تحملني إلى ثورنفيلد، وأنا أشعر وكأنني حمامة تعود إلى عشها! واستغرقت الرحلة ستًا وثلاثين ساعة، فقد بارحت وايتكروس بعد ظهر يوم الثلاثاء.. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم بعد التالي، وقفت العربة - ريثما ترتوي الخيل - عند فندق ريفي، فإذا المروج الخضر، والحقول الشاسعة، والتلال الخفيضة المكسوة بالأعشاب، تصافح عيني بمناظر مألوفة.. وما كان أبعد الفرق بينها وبين مروج مورتون! وعلمت من الفندق أنه لم يبقَ بيني وبين ثورنفيلد هول سوى ميلين، فطمأنت نفسي إلى أن رحلتي قد أشرفت على نهايتها. فأودعت لدى الفندق صندوقًا ليستبقيه ريثما أعود لاسترداده، ثم نقدت الحوذي أجرًا أرضاه ..

وعندما انطلقت على قدمَيّ، كانت الشمس تغمر لافتة الفندق، فقرأت عليها: «فندق ضيعة روشستر»، فخفق قلبي إذ غدوت في نطاق أملاك سيدي، ولكن خاطرًا هتف بي: «قد يكون سيدك نفسه عبر الخليج البريطاني.. وحتى لو كان في قصر ثورنفيلد الذي تغذِّين السير نحوه، فمن التي تعيش في جواره؟ إنها زوجته المجنونة، وبالتالي فلا شأن لك به، وليس من حقك أن تكلميه أو تنشدي قربه.. خليق بك ألّا تمضي قدمًا، بل سلي أهل الفندق عن الأنباء أولًا! وبدا الاقتراح معقولا، ولكن لم أقوَ على تنفيذه، فقد خشيت أن أتلقَّى جوابًا يسحق آمالي.. وفي إطالة الشك استيفاء للأمل! وما كان أسرع سيري! لقد كنت أجري في بعض الأحيان.. وكنت طيلة الوقت أتوق إلى رؤية الغابات المألوفة، وفي قلبي سيل جارف من العواطف، فلما لاحت لي في النهاية،

تولّاني حبور عجيب، وزدت من إسراعي في السير. وأنا أتعجَّل رؤية القصر ذاته، وأنا أحدِّث نفسي: «ستكون الواجهة أول ما يصافح عيني.. ولسوف أميِّز من بين نوافذها نافذة سيدي.. وربما وجدته واقفًا فيها. فإنه ينهض مبكرًا في العادة.. بل لعله الآن يتمشَّى في البستان أو في الطريق المرصوفة أمام القصر.. آه، لو قُدِّر لي أن أراه! أتراني لا أجن إذ ذاك، فأهرع إليه؟ لست أدري.. وماذا يجري لو فعلت؟ ليباركه الله! من الذي يُضار إذا نعمت مرة أخرى بتذوق الحياة في فيض نظراته؟ ولكنني أهذي، فربما كان في هذه اللحظة يرقب الشمس فوق جبال البيرينيه أو على بحار الجنوب !».

وبلغت فرجة في أحد المروج، قام على جانبيها عمودان، وكانت تشرف على واجهة القصر مباشرة، فدسست رأسي بحذر من خلف أحد العمودين مشوَّقة لنظرة إلى نوافذ مخدع سيدي.. ولعل الغربان التي كانت تحوم فوقي قد أثارها إذ ذاك مظهري، وما بدا في حركاتي من حذر بالغ، وخجل شديد.. ولكنني سرعان ما تجرَّأت وأرسلت نظرة خاطفة، ثم أتبعتها بنظرة طويلة، ثم اندفعت من مكاني، فإذا بي أمام القصر،وهنا كانت الصدمة الكبرى !

تصوَّر أيها القارئ عاشقًا يفاجئ حبيبته نائمة على العشب.. إنه يود أن يتزوَّد بنظرة إلى وجهها دون أن يوقظها. فيتسلَّل في رفق، أشد ما يكون حذرًا، ثم يقف إذ يخال أنها تحرَّكت.. ويتراجع، ولكنه يجدها ساكنة، فيعاود التقدم، وينحني فوقها، ويرفع الخمار الرقيق عن وجهها، ثم يزداد انحناء، وتلتهم عيناه جمالها الدافئ النضِر الحبيب بنظرة عاجلة، ثم تطول نظراته، ثم يجفل، ويضم إلى صدره الجسد الذي لم يكن يقوى منذ لحظة على أن يمسه، ويروح ينادي، ثم يسقط حمله، ويحملق فيه، ويعود يحتضنه، ويصرخ، ويحملق، وقد زايله الخوف من أن يوقظ الحبيبة.. إذ يتبين له أنها جثة هامدة !

وهكذا كان حالي.. فلقد تطلعت في فرح مشبوب نحو القصر المنيف فلم أرَ سوى أطلال سوداء! ولم تكن هناك حاجة للتواري وراء عمود، ولا لاختلاس النظر إلى نافذة المخدع، ولا للخوف من الحياة التي تدب وراء الجدران.. وما كانت ثمة حاجة لإرهاف السمع توقعًا لأصوات الأبواب وهي تفتح، أو لوقع الخطى على الطريق المحصوصبة، فقد كان الخراب يطغى على كل شيء.. وكانت الواجهة - كما رأيتها ذات مرة في منامي - مجرد جدار قائم، متداع، تتخلله ثغرات النوافذ.. فلا سقف، ولا مصاريع، ولا مداخن.. كل شيء قد انهار! وأحاط بالموقع كله سكون كالموت ووحشة كئيبة.. لا عجب إذن في أنني لم أتلقَّ ردًا على الخطابين اللذين أرسلتهما! وكانت الأحجار الكئيبة، السوداء، تنبئ بالمصير الذي لقيه القصر، فلقد احترق! ولكن، ما الذي أوقد الحريق، وما قصة النكبة؟ وهل ذهبت الأرواح كما ذهب الصرح؟ وكان السؤال رهيبًا، ولا

يوجد من يجيب.. وفيما كنت أجوس بين الأطلال، وقع بصري - بالرغم مني - على برج الكنيسة المغبر، فساءلت نفسي :

- «أترى حبيبي مع دامر روشستر يشاطره مثواه الرخامي الضيق؟ ».

وكان لا بد من إجابات عن هذه الأسئلة فعدت إلى الفندق الصغير. وإذ أحضر لي الفندقي بنفسه طعام الإفطار، حاولت أن أستفسره، ولكنني خشيت أن أسمع ما كنت أكره، فاضطربت هنيهة. بيد أنني ما لبثت أن سألته: «هل تعرف ثورنفيلد هول؟». فأجاب: «أجل يا سيدتي.. لقد عشت هناك فترة». إذن، فلا بد أنه عاش في حيز الفترة التي عشت فيها هناك.. وأردف الرجل: «لقد كنت ساقي المرحوم مستر روشستر ».

المرحوم! لكأنني تلقيت لطمة حاولت جاهدة أن أتفاداها.. وشهقت: «المرحوم!»، فقال الرجل: «أعني والد السيد الحالي مستر إدوارد». وتنفَّست الصعداء، وانساب الدم ثانية في عروقي بعد أن كاد يتجمَّد. وطمأنتني الكلمتان - مستر إدوارد - إلى أن روشستري أنا، ما يزال حيًا.. يا للكلمتين السارَّتين! لقد خُيِّل إليَّ أن في وسعي أن أسمع كل ما يلي ذلك بنفس مطمئنة، مهما كانت الأنباء.. وعدت أسأل الرجل وأنا أعرف جوابه مقدمًا: «هل يقيم مستر روشستر في ثورنفيلد هول الآن؟». فأجاب: « لا يا سيدتي.. لا أحد يعيش هناك، وما أراكِ إلّا غريبة عن هذه الأصقاع، وإلا لكنت قد سمعت ما جرى في الخريف الماضي.. لقد أصبح ثورنفيلد هول أطلالا، إذ احترق عن آخره.. كانت كارثة مروّعة! فقد اندلعت النار في بهيم الليل، وقبل أن تصل عربات الإطفاء من ميلكوت كان القصر قد أصبح كتلة من لهيب». فغمغمت: «في بهيم الليل!». تلك كانت ساعة الخطر دائمًا في ثورنفيلد هول. وإذ سألته عن الفاعل، قال: «لقد حدسوا.. بل أستطيع أن أقول إنهم تأكدوا.. لعلك لا تدرين أن ثمة سيدة.. مجنونة، كانت في القصر؟ كانت حبيسة تحت رقابة شديدة، وكان أمرها مكتومًا، حتى إن أحدًا لم يكن على يقين من وجودها، إذ إن مخلوقًا لم يرها، أو يعلم بأمرها إلّا على سبيل الأقاويل والشائعات.. فقد كان يقال إن مستر إدوارد أحضرها معه من الخارج وزعم البعض أنها كانت خليلته. ولكن أمرًا غريبًا حدث.. منذ عام واحد !».

وتوقَّعت أن أسمع قصتي. وبالفعل، قال الرجل: «لقد ظهر أن السيدة كانت زوجة مستر روشستر!». وقبل أن يمضي في الرواية، عمدت إلى تحويله عنها، بأن سألته عن الحريق، ولكنه استطرد يحكي كيف أن مستر روشستر أغرم بمربية شابة في قصره: «ويقول الخدم إنهم لم يروا قط إنسانًا متيمًا مثله، فقد ظل يهيم بها حتى بعد أن تركته، وكانوا يراقبونه، فهكذا يفعل الخدم يا

سيدتي، وهو يخلو إلى ذكراها..إن أحدًا لم يعتبرها جميلة، ولكنه كان في حوالي الأربعين، وهي في العشرين والسادة اللذين في سنه إذا وقعوا في هوى فتيات، فُتنوا بهن كأنهم مسحورون!». ومرة أخرى رددته عن هذه الناحية، إذ قلت: «هل اتجهت الظنون إلى أن للمجنونة يدًا في الحريق ».

- «إن هذا أكيد يا سيدتي، فليس سواها من أشعل النار.. كانت لها حارسة قديرة، يقظة تدعى مسز بول، لم يكن لها سوى عيب واحد شائع بين الممرضات.. كانت تحتفظ دائمًا بزجاجة خمر، تجرع منها في الليل.. إذا نامت مسز بول مخمورة، قامت المجنونة التي كانت داهية ماكرة! بسرقة مفاتيحها وغادرت غرفتها، لتجوس في البيت مرتكبة أي شر يخطر لها.. وفي تلك الليلة، أشعلت النار أولًا في ستائر الغرفة المجاورة لغرفتها، ثم هبطت إلى الطابق الثاني، وسارت إلى غرفة المربية، وكان يبدو أنها عرفت كل ما جرى، فكرهت الفتاة، فأشعلت النار في سريرها.. ولم تكن صاحبته فيه لحسن الحظ، إذ إنها كانت قد فرَّت قبل ذلك بشهرين، ولم يدَّخر مستر روشستر جهدًا في البحث عنها، وكأنها كنز ثمين. ولكنه لم يسمع كلمة واحدة عنها، فاستبد به القنوط، واشتدت شراسته حتى غدت خطرة. كما أصبح يحب الوحدة. فأرسل مسز فيرفاكس، مدبِّرة القصر، إلى أهلها، وقرَّر لها معاشًا سنويًا طيلة حياتها.. وأرسل مس أديل إلى المدرسة، وقطع كل علاقاته بمعارفه، واحتبس نفسه في القصر كالناسك.. ولم يعد يخرج منه إلّا في الليل، إذ كان يتمشَّى في أراضيه وكأنه روح هائمة، أو شخص مختبل !

- «إذن فهو لم يكن بداخل القصر حين شبَّ الحريق؟ ».

- «بل كان.. ولقد صعد إلى الطابق العلوي، والنار مشتعلة في كل شيء، فأيقظ الخدم وأعانهم على الهبوط، وذهب إلى حيث كان يحبس زوجته.. ثم سمع صياحًا ينبئه بأنها كانت فوق سطح القصر، تلوِّح بذراعيها وتصيح بأعلى صوتها.. وصعد إليها مستر روشستر، وسمعناه يناديها: «بيرتا!». ورأيناه يقترب منها، ثم إذ بها تصرخ، وتقفز عاليًا.. وفي اللحظة التالية كانت مهشمة على الإفريز الممتد أمام القصر !».

وسألته: «تقصد ميتة؟»، فقال: «كالحجر الذي تناثر عليه مخها ودمها!». وارتجف الرجل للذكرى الرهيبة. وسألته عما حدث بعد ذلك، فقال: «احترق القصر عن آخره». قلت: «وهل فقدت أرواح أخرى غير تلك المرأة؟»، فأجاب: «لا.. ولكن، ليت مستر إدوارد المسكين مات إذ ذاك.. إن البعض يقولون إن ما أصابه كان جزاء عادلا لكتمانه أمر زواجه الأول، ومحاولته الزواج مرة أخرى، وامرأته على قيد الحياة.. على أنني في الواقع أرثي له !».

- «وهل هو ما يزال حيًا؟ ».

فقال: «أجل، أجل.. ما يزال حيًا، وإن كان الكثيرون يتمنُّون لو أنه كان قد مات!». وعاد الدم يجري باردًا في عروقي وسألته: «لماذا؟ وكيف.. وأين هو؟ أهو في انجلترا؟». وأجاب الرجل: « نعم.. إنه في انجلترا، ولا يستطيع أن يبارحها.. إنه عاجز !».

وعصف الألم بقلبي، وأطال الرجل من لهفتي بصمته، قبل أن يقول: «إنه أعمى.. عمى تامًا!». وكنت قد خشيت ما هو أسوأ.. خشيت أن يكون قد فقد عقله! واستجمعت قواي، لأسال عن سر مصابه، فقال الرجل :

- «كان كل شيء بسبب شجاعته، وكرمه. فقد أبى أن يبارح القصر قبل أن يخرج منه كل إنسان آخر. ثم هبط في النهاية عن طريق السلم الكبير.. ولكن كل شيء انهار.. وأخرجوه من تحت الأنقاض، حيًا، ولكنه في أسوأ حال.. فقد سقط لوح من السقف عليه فوقاه النار والأنقاض، ولكنه اقتلع إحدى عينيه، وهشّم إحدى يديه حتى اضطر مستر كارتر - الجراح - إلى بترها في الحال.. أما العين الأخرى فقد أودت بها النار.. وهو الآن يعيش أعمى، عاجزًا». فبادرت متسائلة: «وأين هو؟». فأجاب الرجل: «في فرندين، في دار ضيعة يملكها، على بعد ثلاثين ميلا من هنا.. في بقعة منعزلة!». وعدت أساله: «ومن يقيم معه؟» فأجاب: «جون العجوز وزوجته، فقد أبي أن يعيش معه سواهما.. ويقولون إنه محطَّم تمامًا !».

وطلبت إلى الرجل أن يعدّ لي عربة لتحملني إلى فرندين على الفور، ودفعت له ولحوذيه ضعف ما كانا يستحقان !

الفصل السابع والثلاثون

كان بيت ضيعة فرندين عتيقًا، متوسط الحجم، خاليًا من المبالغات الهندسية، وقد قام في جوف إحدى الغابات. ولقد سمعت عنه من قبل، إذ كثيرًا ما حدَّثني مستر روشستر عنه.. وكان لبعده، وسوء موقعه، صحيًا، مهجورًا. ولم يؤثّث منه سوى غرفتين أو ثلاث.. وإلى هذا البيت وصلت قبيل الغروب، في يوم بدت سماؤه كئيبة، وهبَّت فيه الريح الباردة، وتساقطت الأمطار الغزيرة.. وقطعت الميل الأخير على قدمَيَّ.. بعد أن صرفت العربة. وكانت الغابة جد كثيفة حتى ليتعذَّر أن تلمح أثرًا للدار عن كثب. على أنني ما لبثت أن بلغت أبوابًا حديدية، فمررت خلالها، وإذا بي بين صفوف من الأشجار.. وكانت ثمة طريق مكسوة بالحشائش، فسلكتها ظنًا مني أنها ستقودني إلى المسكن، ولكنها امتدت وتشعَّبت دون أن يبدو أثر لعمران، حتى خِلت أنني ضللت سبيلي، وتكاثفت حولي ظلمة المساء وظلمة الأشجار الكثيفة، ورحت أتلفَّت حولي، ولكني لم أجد طريقًا أخرى، فتابعت سيري، وأخيرًا، خفَّ تكاثف الأشجار، وما لبث البيت أن لاح لناظريَّ، وهو لا يكاد يُرى بين الظلمة والأشجار وتحت الخضرة الكثيفة الرطبة التي كست جدرانه.. وانتهت إلى باب، فوقفت في ساحة على شكل نصف دائرة، تحفّ بها الغابة.. وكان كل شيءٍ يدل على أن «البقعة منعزلة» كما قال الفندقي. وكان السكون شاملا، لا يعكِّره سوى ارتطام قطرات المطر بأوراق الشجر، فساءلت نفسي: «أمن الممكن أن يكون هنا أحياء؟». أجل، كان هناك أحياء، فقد سمعت حركة دلّت على أن الباب كان يفتح.. وفعلًا، لم يلبث أن انفتح في بطء، وبرز منه شخص وقف على عتبته.. وتبيَّنت، في العتمة، أنه كان رجلا من دون قبعة. ورأيته يبسط ذراعيه وكأنه يتبيَّن ما إذا كان المطر منهمرًا.. وعرفته رغم الظلام، كان سيدي إدوارد فيرفاكس روشستر !

وسَمَّرت قدميّ. وأمسكت أنفاسي، ووقفت أرقبه وأتأمله والأسى يعصر فؤادي، لأنه لن يراني.. كان لقاء فجائيًا، لقيت عناء في كبح العواطف التي أهاجها، وفي خنق صوتي حتى لا ينطلق بالرغم مني.. وكانت قامته كعهدي بها، قوية، مستقيمة.. على أنني حين اقتربت، بخطى مكتومة، تبينت في معالم وجهه تغيرًا نمَّ عن هَمّ وقنوط وكأنه طائر حبيس أو معذَّب. وقد آثرت ألّا أفاجئه، فوقفت أرقبه، وإذا به يسير في بطء نحو بقعة معشوشبة على حافة الساحة.. ثم وقف، وكأنه لم يكن يدري إلى أي ناحية يتجه. ورفع يده، فكشف عن حدقة عينه تحت أجفانه، وتطلَّع إلى السماء بمقلة غير مبصرة، وقد بدا

عليه أنه كان يبذل جهدًا ليجعلها تبصر.. كان وكأنه لم يطمئن إلى اتجاهه، فتلمّس سبيله عائدًا إلى الدار ودخلها.. وإذ ذاك اقتربت وطرقت الباب برفق، ففتحته زوجة جون. وبادرتها قائلة: «أهذه أنتِ يا ماري؟ كيف حالك؟». وأجفلت وكأنها رأت شبحًا، ولكني هدَّأت من روعها بسرعة، فهتفت: «أحقًا هذه أنتِ يا آنسة.. أقدِمتِ وحيدة، في مثل هذه الساعة، إلى هذا المكان المنعزل؟». وتبعتها إلى المطبخ، حيث وجدت جون جالسًا أمام نار المدفأة، فشرحت لهما في إيجاز ما سمعته عمَّا حدث منذ بارحت ثورنفيلد، وقلت إنني جئت لأزور مستر روشستر، ثم أوفدت جون إلى البقعة التي بارحت فيها العربة ليحضر لي حقيبتي، إذ كنت قد تركتها في كوخ صغير .

وفيما كنت أسأل ماري عما إذا كان من الميسور أن أقضي ليلتي في الدار، دوَّى رنين جرس من قاعة الجلوس، فخفَّت لتلبيته. وإذ ذاك قلت لها :

- «قولي لسيدك أن ثمة شخصًا يريد لقاءه، ولكن لا تذكري له اسمي». فأجابت: «ما أظنه سيسمح لك، فهو يرفض مقابلة أي إنسان». ولكنها ما لبثت أن عادت قائلة: «اكتبي له اسمك والمهمة التي جئتِ من أجلها». وتحوَّلت تملأ كوبًا بالماء، وتضعه على صينية مع بعض الشموع، قائلة: «إنه يحب دائمًا أن تُوضع الشموع بالغرفة، برغم أنه أعمى». فقلت لها: «هاتي الصينية، فسوف أحملها إليه». وأرشدتني إلى باب غرفة الجلوس .

وكانت غرفة الجلوس تبدو كئيبة. وكانت حفنة من الجمر تتقد وئيدًا في مدفأتها التي وقف سيد الضيعة الأعمى بجانبها وقد مال نحوها وأسند رأسه إلى حافتها، على عادته. وكان كلبه العجوز «بايلوت» منزويًا في أحد الأركان، وكأنه ينأى بنفسه عن مواطئ قدمي سيده. فلما ولجت الحجرة، رفع الكلب أذنيه، ثم قفز مرسلا نباحًا قصيرًا، خافتًا، وقفز نحوي، فكاد يُسقِط الصينية من بين يدي. وضعتها على المنضدة، وربَّتُّ الكلب وهمست إليه ليعود إلى مكانه. والتفت مستر روشستر بحركة آلية، وكأنما أراد أن «يرى» ما كان يجري. ثم تنهَّد وقال: «ناوليني الماء يا ماري». واقتربت منه حاملة الكوب، فتبعني بايلوت وهو ما يزال منفعلًا، فتساءل السيد: «ماذا هناك؟». وعدت أهمس للكلب: «اهدأ يا بايلوت!»، فأمسك السيد الكوب في الهواء قبل أن تبلغ شفتيه، وقال: «هل أنتِ ماري؟»، فأجبت: «إن ماري في المطبخ ».

ومد يده بحركة سريعة، ولكنه لم يمسّني، إذ لم يكن يراني. وصاح وقد لاح لي أنه كان يحاول أن «يرى» بعينيه اللتين فقدتا إبصارهما: «من هذه؟ من؟ أجيبي.. تكلمي!». فقلت: «هل تريد مزيدًا من الماء يا سيدي؟ لقد أرقت نصف ما كان في الكوب». وصاح في لهجة آمرة: «من هذه؟ من التي تتكلم؟». قلت:

«لقد عرفني بايلوت.. ويعلم جون وماري أنني هنا. لقد وصلت لتوّي». فهتف: «يا إلهي! أي وهم يغشاني؟ أي جنون عذب يستولي عليَّ؟». ولكنني قلت: «لا وهم ولا جنون، فإن عقلك يا سيدي أقوى من أن يغشاه الوهم، وصحتك لا تدع سبيلا للجنون!». وعاد يقول: «أين المتكلمة؟ أهو صوت فحسب؟ أراه! ليس بوسعي أن أرى، فلا بد لي من أن ألمس، وإلا كف قلبي عن وجيبه، وانفجر دماغي، أو فقدت الحياة !».

ومد يده يتلمس، فأمسكت بها بين راحتَيَّ. وصاح: «إنها أصابعها نفسها.. الأصابع الصغيرة، النحيلة! إذن فلا بد أنها هنا». وأفلت يده القوية من قبضتي، ليمسك بذراعَيّ، وبكتفي وعنقي وخصري، ثم ضمني إليه، وهو يهتف: «إنها جين! شكلها نفسه، وحجمها». فأضفت قائلة: «وصوتها.. هي بأكملها هنا.. وهذا قلبها أيضًا.. باركك الله يا سيدي! لكم أنا مسرورة إذ أجدني بقربك مرة أخرى». ولكنه لم يقوَ على أن يقول شيئًا سوى: «جين إير! جين إير!». فقلت: «أجل يا سيدي العزيز.. أنا جين إير.. لقد عثرت عليك.. لقد عدت إليك !».

- «أحقًا؟ بلحمك ودمك؟ أحقًا أنت جين، وعلى قيد الحياة؟ ».

- «إنك تلمسني يا سيدي. وتضمني.. لست باردة كالجثة، ولا هباء كالأشباح.. بل أنا حقيقة !».

- «يا حبيبتي! هذه حقا أطرافها.. وهذه نسماتها.. ولكني لا أصدق أنني أحظى بالنعيم بعد كل ما لقيت من تعاسة.. إنه حلم، وكم من أحلام مثله تراودني في ليلي! أحلام أضمها فيها إلى قلبي، وأقبِّلها، وأشعر بأنها تحبني، وأثق من أنها لن تفارقني ».

- «ولن أفارقك منذ اليوم يا سيدي.. أبدًا !».

- «أيقول الطيف: أبدًا؟! ولكنني أستيقظ دائمًا لأجد أن الأمر لا يعدو أن يكون سخرية خاوية، وأنني وحيد، مهجور.. حياتي ظلام وعزلة ويأس.. إن روحي ظامئة ولكنها محرومة من الشراب.. وقلبي جائع ولكنه لا يلقى القوت قط.. أيها الحلم الرقيق الناعم المستكين في أحضاني، لسوف تطير كما طار إخوتك من قبل. ولكن.. قبليني قبل الرحيل.. قبليني يا جين !».

وألصقت شفتَيَّ بعينيه اللتين كانتا متألّقتين يومًا فأصبحتا بلا شعاع وبشعره وجبينه. وفجأة، وجدته ينهض وقد استولى عليه اليقين، وهتف :

- «إنها.. أنتِ جين! إذن فقد عدت إليَّ، ولست جثة هامدة في خندق أو جوف جدول.. ولا تهيمين منبوذة بين أغراب؟ ».

فقلت: «لا يا سيدي، بل أنا الآن امرأة مستقلة». وإذ تساءل: «مستقلة؟»، قلت: «لقد مات خالي في ماديرا، وترك لي خمسة آلاف جنيه». فصاح: «لعمري، إنها لحقيقة.. إنه واقع! وهذا هو صوتها بطابعه الخاص، الذي يحيي قلبي الذاوي. إذن فأنتِ امرأة غنية يا جانيت؟ لا شك في أن لكِ الآن أصدقاء يعنون بك، ولا يجشّمونك عناء أن توقفي حياتك على أعمى أكتع عاجز!». فهتفت: «لقد أنبأتك يا سيدي بأنني مستقلة، وغنية، وسيدة نفسي!». فتساءل: «وهل ستمكثين معي!». وأجبت: «بالتأكيد، ما لم تكن تمانع أنت! سأكون رفيقتك، وممرضتك، ومديرة بيتك.. إنني أجدك وحيدًا، وسأكون أنيستك: أقرأ لك، وأسير معك وأجلس معك، وأقوم بخدمتك، وأكون عينيك ويديك. فكفّ عن الحزن يا سيدي العزيز. لن تكون وحيدًا ما دمت أنا على قيد الحياة !».

ولم يجب، بل بدا شارد الذهن، ثم تنهَّد، وهمَّ بأن يتكلَّم، ولكنه عاد فأطبق شفتيه. وشعرت بشيء من الحيرة، وخشيت أن أكون قد تجاوزت حدودي إذ عرضت عليه البقاء معه، وأنه رأى في ذلك ما يجافي الاحتشام، كما فعل سانت جون! والواقع أنني ما اقترحت البقاء معه، إلّا لأنه كان يود أن أكون زوجته.. وشرعت أتسلل من أحضانه برفق، ولكنه تشبَّث بي ملهوفًا، وقال :

- «لا يا جين، لا تذهبي! لقد لمستك، وسمعتك، ونعمت بوجودك، وبعذب مواساتك، وليس بوسعي أن أتخلَّى عن هذه المسرَّات.. لا بد من أن أستحوذ عليك، ولتضحك الدنيا، ولتقل إنني أناني، فإن هذا لن يهمني.. إن روحي تطلبك، فإن لم تنل بغيتها فستوقع على كياني انتقامًا مميتًا ».

فقلت: «حسنًا يا سيدي، سأبقى معك كما قلت». فعقب قائلًا :

- «ولكنك تفهمين من البقاء معي غير ما أفهم. إنك قد تعتزمين أن تعني بي كممرضة رحيمة، وهذا يكفيني، إذ أرى من الخليق بي الآن ألّا أكن لك سوى مشاعر أبوية.. ولكنك لن تظلي أبدًا ممرضتي يا جانيت.. إنك شابة ولا بد من أن تتزوجي يومًا ».

- «لستُ أحفل بالزواج ».

- «بل يجب أن تحفلي.. ولو أنني اليوم كما كنت من قبل، لما جعلتك تحملين همًا، ولكنني.. جسد بلا بصر !».

واستكان للأسى مرة أخرى. أما أنا فقد ازددت ابتهاجًا وجرأة. إذ أدركت العقبة التي كانت تعترضه.. ولكنها لم تكن تعترضني أنا، فقلت :

- «لسوف يضطلع شخص ما بردك إلى الطبيعة الإنسانية يومًا، إذ أرى أنك قد تطوَّرت إلى أسد، أو ما يشبهه». وإذ ذاك بسط ذراعه المبتورة، وقال :

- «ولكنني لا أملك يدًا ولا مخلبًا في هذا الذراع.. إنها بشعة المنظر، ألا تظنين ذلك يا جين؟». فقلت: «إنني أشعر بالأسى إذ أراها، وإذ أرى عينيك، والحرق الذي في جبينك.. وأسوأ ما في الأمر أن المرء في خطر الوقوع في حبك من أجل هذا كله!». فقال: «ظننت أنها ستثير تقززك يا جين ».

- «أحقًا؟ لا تقل هذا، وإلّا اضطرر لتسفيه حكمك. والآن، دعني أذكي النار، وأنظف المكان أمام المدفأة. هل تعرف النار الجيدة إذا وجدت؟ ».

- «أجل، فإن عيني اليمني تستطيع أن ترى الوهج وكأنه ضباب متّقد ».

قلت: «وهل ترى الشموع؟». فأجاب: «خافته جدًا.. كل منها كالسحابة المضيئة». فسألته: «وهل تراني؟». وكان جوابه: «لا يا حوريتي.. ولكني أحمد الله على أن بوسعي أن أسمعك وأن ألمسك !».

واستدعيت ماري، وسرعان ما رتبت معها الغرفة، فأصبحت بهيجة، وأعددت له عشاء شهيًا، وقد انتشت أحاسيسي. وأخذت أحدثه أثناء العشاء - ووقتًا طويلا بعده - في سرور وانطلاق.. أجل، كنت أشعر وأنا معه بانطلاق وراحة، لأنني كنت أدرك أنني أروق له، وأن كل ما أقول يسرِّي عنه وينعشه.. ويا له من شعور مفرح، رد الحياة والضوء إلى طبيعتي كلها. فإذا بي أعيش في وجوده، وإذا هو يعيش في وجودي! وأخذ بعد العشاء يسألني أين كنت، وماذا كنت أفعل، وكيف عثرت عليه. ولكني اقتصرت على إجابات مقتضبة، خشية ألّا يتسع الليل للتفصيل، كما أنني لم أشأ أن أنكأ جراحًا قديمة في فؤاده.. وكان لا يفتأ يسائلني :

- «أحقًا أنتِ آدمية يا جين؟ من الذي يستطيع أن يصف الحياة المظلمة، البغيضة، البائسة التي كنت أرزح تحتها في الشهور الماضية؟ لم أكن أفعل شيئًا، أو أتوقَّع شيئًا.. أخلط بين الليل والنهار، دون أن أشعر بالبرد إذا انطفأت النار. ولا بالجوع إذا لم أُطعَم .. حزن لا ينقطع، وشوق محموم إلى أن أضم جيني ثانية.. كنت أصبو إلى استردادها أكثر مما أتوق إلى استرداد بصري. فكيف أصدّق أن جين معي الآن، وأنني أسمعها تؤكد أنها تحبني؟ ».

وشعرت به مستيقظًا في ساعة جد مبكرة من الصباح التالي، يتنقل من غرفة إلى غرفة. وما إن هبطت إليه ماري، حتى سمعت هذا السؤال: «هل مس إير هنا؟ في أي غرفة أنزلتها؟ أهي غرفة جافة؟ وهل استيقظت؟». فهبطت إليه، ودخلت الغرفة بخطى خفيفة، وأخذت أتأمله قبل أن يفطن إلى وجودي.. كان من المحزن حقًا أن أشهد تلك الروح القوية حبيسة جسد عاجز مشوَّه! كانت تجاعيد الأسى تتخلَّل قسماته القوية، فذكَّرني مظهره بمصباح انطفأ، وانزوى يرتقب أن يُضاء ثانية.. وا أسفاه! لقد أردت أن أبدو مرحة، ولكن عجز الرجل الجبّار مَسَّ شغاف قلبي.. ومع ذلك فقد رحت أخاطبه بكل ما استطعت من خفة روح: «إنه صباح مشمس مشرق يا سيدي.. ولن نلبث أن نخرج للنزهة». وأيقظت كلماتي وميض روحه، فأشرقت أساريره وهتف :

- «آه، إنكِ هنا حقًا يا عصفورتي! تعالي إليَّ.. إنك لم تذهبي، ولم تتلاشي.. كل أنغام الدنيا تتركز في لسان جيني الحبيبة لتسكبها في أذني.. وكل أشعة الشمس أحسّها في وجودها !».

وقضينا معظم النهار في الهواء الطلق، فقد قدته بعيدًا عن الغابة الكثيفة الرطيبة، إلى بعض الحقول المنيرة، ورحت أصف له بهاء الخضرة، وحسن الزهور، وصفاء السماء.. واخترت له مجلسًا على جذع شجرة في بقعة جميلة، متوارية. ولم أمانع حين أجلسني على ركبتيه. ولماذا أمانع ما دام كل منا سعيد بقرب الآخر؟ وفجأة، صاح وأنا بين ذراعيه :

-«يا لك من هاجرة قاسية! أواه، يا جين، أي شعور تملكني حين اكتشفت فرارك من ثورنفيلد، وعندما عزّ عليَّ العثور عليك في أي مكان، ولما تبيَّنت أنك لم تزوَّدي بنقود أو أي شيء ينفع بدلًا منها !».

وشرعت أروي له ما مرّ بي في العام الأخير، وقد خفَّفت كثيرًا من وصف الأيام الثلاثة التي قضيتها مشردة، جائعة، حتى لا أسبِّب له ألمًا لا داعي له.. وكان يقاطعني باللوم والعتاب، فلما انتهيت سألني عن سانت جون. وغاظه أن رحت أصفه بكل حسن، وأطنب في امتداحه.. ورأيت أن الغيرة قد لدغته، فلم يلبث أن قال: «هل عيَّنك سانت جون معلمة قبل أن يعرف أنكِ قريبته؟».وأجبت: «نعم»، فقال: «هل كنت ترينه كثيرًا، وهل كان يزور المدرسة أحيانًا؟»، فأجبت: «يوميًا». و«هل كان يقر تصرفاتك يا جين؟ إنني أعرفك بارعة ذكية». وقلت: «أجل، كان يقرها». فقال: «هل اكتشف فيك أشياء لم يكن يتوقعها؟». وقلت: «لست أدري». فعاد يسأل: «تقولين إنك كنت تقيمين في كوخ صغير بالقرب من المدرسة، فهل كان يزورك فيه؟». وأجبت: «بين حين وآخر»، وهنا سألني: «في المساء؟»، فقلت: «مرة أو اثنتين». وصمت برهة، ثم عاد

يسألني: «كم أقمت معه ومع أختيه بعد اكتشاف القربى؟». فقلت: «خمسة أشهر». وإذ عرف أنني درست الألمانية في تلك الأثناء، وأن سانت جون علمني قليلا من الهندوستانية، قال: «لماذا رغب في أن يعلمك الهندوستانية؟». فأجبت: «كان يريد أن أذهب معه إلى الهند ».

- «آه، بلغت لب الموضوع.. أكان يريد الزواج منك؟ ».

- «بل عرض عليَّ الزواج أكثر من مرة، ولم يكن يقل عنك إلحاحًا ».

- «أكرِّر لكِ يا مس إير أن بوسعك أن تغادريني. لماذا تبقين جاثمة على ركبتيَّ وقد أذنت لك بالرحيل؟ ».

قلت: «وإلى أين أذهب يا سيدي؟». وكان جوابه: «إلى الزوج الذي اخترته.. هذا السانت جون ريفرز!». وهنا قلت :

- «إنه ليس زوجي، ولن يكون، فهو لا يحبني، ولا أحبه.. ما أراد الزواج مني إلّا لأنه ظن أنني أصلح لأن أكون زوجة مبشِّر.. إنه بارد إزائي كجبل من جليد، فهو ليس مثلك يا سيدي.. إنه لا يرى في شخصي فتنة، وإنما يرى بعض محاسن عقلية نافعه.. أفأتركك بعد هذا يا سيدي وأذهب إليه؟ ».

وارتجفت على الرغم مني، فتعلقت بسيدي الأعمى الحبيب. وإذ ذاك ابتسم قائلًا: «أحقًا يا جين أن هذه هي حقيقة ما بينك وبين ريفرز؟». فقلت: «كل الحقيقة يا سيدي.. آه، لا حاجة بك لأن تغار، فإنما أردت أن أداعبك قليلا لأبدِّد عنك الشجن.. لو أنك أدركت كم أحبك لازدهاك التيه وعمرك الرضا. إن قلبي بأسره ملك لك يا سيدي، وسيبقى معك ولو شاء القدر أن يقصيني عنك». فقبَّلني وقد اكفهر محياه، وتمتم: «أواه يا بصري المظلم، ويا قواي العاجزة!». ورحت أسرِّي عنه، فأشاح عني قليلا، وإذ ذاك رأيت دمعة تنحدر من عينه المغلقة، فانفطر قلبي. وعاد يقول:«إنني لست أفضل من الشجرة العتيقة التي اقتلعتها العاصفة في حديقة قصر ثورنفيلد.. فأي حق لهذا الظل، في أن يسأل زهرة متفتحة بأن تضيء بقاياه بنضارتها؟». فقلت :

- «ما أنت بالشجرة التي اقتلعتها العاصفة يا سيدي، وإنما أنت خضرة ونضارة وقوة. لسوف تنمو النباتات حول جذورك، سمحت لها أو لم تسمح، لأنها تسعد في الاحتماء بظلك.. وبينما تحنو عليها، فتلتف هي حولك، لأن قوتك تتيح لها حمى أمينًا !».

وعاد يبتسم، إذ سرّيت عنه. على أنه ما لبث أن قال: « أواه يا جين! ولكنني أنشد زوجة». فقلت: «أحقًا يا سيدي؟». وهنا قال :

- «أجل، سأختار تلك التي أحبها فوق كل شيء.. هل تتزوجين مني يا جين؟ ».

وإذ أجبت: «نعم يا سيدي»، قال: «أتتزوجين من أعمى مسكين، تأخذين بيده لتقوديه؟». فقلت: «أجل يا سيدي». وعاد يسال: «أتتزوجين رجلا عاجزًا يكبرك بعشرين عامًا، وتضطرين إلى خدمته». قلت: «أجل يا سيدي». فهتف: «أواه يا حبيبتي! ليباركك الله ويجزل لك الجزاء!». وإذ ذاك قلت في حرارة. «مستر روشستر.. إذا كنت قد فعلت خيرًا في حياتي، وإذا كانت قد جالت بخاطري يومًا فكرة طيبة، وإذا كنت قد صليت يومًا صلاة مخلصة لا شائبة فيها، وإذا كنت قد تمنَّيت يومًا أمنيه حلالا.. فها أنذي الآن أنال الجزاء ».

- «ذلك لأنكِ إنما تغتبطين بالتضحية ».

- «تضحية! بأي شيء أضحِّي؟ أهي تضحية أن أستبدل بالجوع قوتًا، وبالرجاء سعادة واقعة.. أن أحتضن أغلى ما لديَّ.. أن ألصق شفتي بمن أحب.. أن أستند إلى من أطمئن إليه.. أهذه تضحية؟ إذا كانت كذلك، فأنا مغتبطة فعلًا بالتضحية !».

- «أوليس احتمال عجزي والتغاضي عن عيوبي تضحية؟ ».

- «إنها ليست شيئًا في نظري، فأنا أحبك اليوم أكثر من ذي قبل، إذ أجدني ذات نفع لك ».

- «إذن، فليس لدينا ما نتريَّث من أجله. لنتزوج في التوّ !».

وكان يتكلَّم بحماسة، وقد عاودته حمية الماضي. فقلت: «إنني أرى الشمس قد مالت نحو الغروب، فدعني أعرف الوقت في ساعتك». ونظرت إلى الساعة ثم قلت: «إنها الرابعة من بعد الظهر، أفلا تشعر بجوع يا سيدي؟». ولكنه عاود حديثه الأول :

- «بعد ثلاثة أيام نعقد قراننا يا جين، ولا حاجة بنا للانتظار. إنك تظنينني كلبًا زنديقًا يا جين، ولكن قلبي يزخر بالشكر لرب هذه الأرض، فهو أبعد نظرًا، وأعدل حكمًا، وأوسع حكمة من الإنسان. لقد أذنبت، إذ كدت أدنِّس زنبقتي البريئة، ولكن الله القدير انتزعها مني، فكدت ألعنه في حنقي بدلًا من أن أحني الرأس لحكمه.. تحدّيته، فتبعتني العدالة الإلهية، وتوالت عليَّ النكبات،

واضطررت إلى أن أهيم في واد تخيِّم عليه ظلال الموت. وأدركني قصاص الله فأذلَّني إلى الأبد. إنك لتعلمين أنني كنت مغرورًا بقوّتي، فأين هي الآن وقد أصبحت مضطرًا إلى من يقودني، كما يفعل الطفل في ضعفه؟ لقد بدأت أرى يد الله وأعترف بقدرتها.. بدأت أندم، وأتوب.. بدأت أصلِّي، صلاة صادقة برغم قصرها.. ومنذ أيام، بل منذ أربعة أيام - في مساء الاثنين الماضي - اعترتني حال غريبة، فإذا الحزن يحل محل الجحود، والأسى محل العناد.. وكنت أوقن - بعد أن عجزت عن العثور عليك - من أنكِ لا بد ميتة.. وفي ساعة متأخِّرة من تلك الليلة. ناشدت الله أن يخلِّصني من الحياة إذا رأى في هذا خيرًا، وطمعت في أن يجمعني العالم الآخر بك.. وكنت إذ ذاك جالسًا في غرفتي بجوار نافذة مفتوحة.. واشتد بي الحنين إليك يا جانيت! فهتف لساني بما كان قلبي يهفو إليه، فهتفت : "جين! جين! جين !"».

فقلت أسأله: «أكان ذلك في مساء الاثنين.. حوالي منتصف الليل؟». فقال: «أجل. ليس المهم الوقت، وإنما المهم ما حدث بعد ذلك.. لسوف تظنين أنني أومن بالخرافات، ولكن الحق أقول.. فما إن هتفت باسمك، حتى أجابني صوت لا أدري من أين انبعث، ولكني أعرفه جيدًا : "إنني قادمة، انتظرني !". وبعد لحظة، حملت الريح هذه الهمسة : "أين أنت؟ ". إن من العسير عليَّ أن أصف لك ما أريد وصفه. إن فرندين - كما ترين - دفينة في جوف غابة كثيفة، تكتم ذبذبات الصوت، ومع ذلك فقد خُيِّل إليَّ أن عبارة "أين أنت؟ " انطلقت بين جبال، إذ سمعت لها صدى يتردّد.. وما كان أحلى النسائم التي لثمت جبيني إذ ذاك.. إنني لأومن بأن روحينا تقابلتا إذ ذاك ».

ولقد كانت ليلة الاثنين، وحوالي منتصف الليل أيها القارئ، حين سمعت النداء الخفي، وأجبت عنه بتلك الكلمات.. على أنني لم أصارح مستر روشستر بذلك، فقد بدت الظاهرة أغرب من أن أصفها له.. كان عقله في دور النقاهة من آلامه، فلم يكن ينبغي أن يرهق بأسرار ما وراء الطبيعة .

خاتمة

وتزوجته، أيها القارئ! وكان قرانًا هادئًا لم يحضره سواه وإياي والكاهن وكاتب الكنيسة. وعندما عدنا إلى الدار، قصدت إلى المطبخ، حيث كانت ماري تطهو، وجون ينظف السكاكين، وقلت: «لقد تزوجت مستر روشستر في هذا الصباح يا ماري!». وكانا من البسطاء، المحتشمين، الذين يستطيع المرء أن يزجي إليهم أي نبأ دون أن تخرق أذنيه صيحات الدهشة أو الفرح.. فتطلعت إليَّ ماري في هدوء، وقد غفلت عن المغرفة التي كانت تقلب بها دجاجتين على النار، فتركتها معلقة في الهواء ثلاث دقائق، بينما كف جون برهة عن شحذ السكاكين. على أن ماري ما لبثت أن تحوَّلت إلى الدجاجتين، دون أن تفوه بأكثر من: «أحقًا يا آنسة؟ أحسنتما!». ولمحت جون يبتسم فاغرًا فاه، وقال: «لقد قلت لماري إنني أعرف أن مستر إدوارد سيقدم على هذا، وفي رأيي أنه أحسن صنعًا ».

وكتبت لفوري إلى مور هاوس وكمبردج أزجي النبأ، وأشرح سر تصرفي. وابتهجت ديانا وماري بلا تحفظ.. ولست أدري كيف تلقَّى سانت جون النبأ، فإنه لم يردّ قط على خطابي، على أنه ما لبث أن كتب لي بعد ستة أشهر، دون أن يذكر اسم مستر روشستر أو يشير إلى زواجي. وحرص بعد ذلك على الكتابة إليَّ بانتظام - وفي فترات غير متقاربة - متمنيًا لي السعادة .

وما أظنك نسيت أديل، أيها القارئ.. إنني سرعان ما استأذنت مستر روشستر في الرحيل لزيارتها في مدرستها. ولكن أثر في نفسي الفرح الطاغي الذي تولاها.. وبدت لي شاحبة، هزيلة، مهمومة، فلما تبيَّنت أن نظام المدرسة أقسى من أن تحتمله صبية في سنها، صحبتها معي في عودتي، وألحقتها بمدرسة قريبة أكثر ملاءمة لها. واعتدت أن أزورها، وأن أستقدمها إلى دارنا، وألّا أدعها تشعر بحاجة أو أسى.. وهكذا اقتربت قصتي من ختامها، فلم تبقَ سوى كلمة عن حياتي الزوجية، ونظرة سريعة إلى مصائر أولئك الذين تردَّدت أسماءهم في الرواية .

لقد انقضت عشر سنوات على زواجي، فعرفت مدى المتعة التي يحظى بها المرء حين يعيش من أجل أحب عزيز لديه على الأرض.. إن لغتي تعجز عن وصف هناءتي، لأنني حياة زوجي، وهو حياتي. وما أظن امرأة توثَّقت صلتها بزوجها قدر توثق صلتي بزوجي.. إنني لا أمل عشرة إدوارد، وهو لا يمل عشرتي، اللهم إلّا إذا جاز للمرء أن يسأم وجيب قلبه! إننا دائمًا معًا، وكأننا

شخص واحد ينعم بالوحدة والحرية! ولقد ظل مستر روشستر فاقد الإبصار خلال العاملين الأولين من زواجنا، فكنت أنا بصره، كما لا أزال يده اليمنى.. كان يرى الطبيعة بعينَيّ، ويقرأ الكتب بهما، وما سئمت قط أن أعوِّضه ببصري عن بصره المفقود.. وكان حبه لي يجعله لا يتألم من اعتماده عليَّ، واستمتاعه بخدمتي له، فقد كان موقنًا من أنني أحبه كل الحب. وفي ذات صباح - في نهاية العام الثاني لزواجنا - أخذ يملي عليَّ خطابًا. وفيما كنت أكتب، سألني: «هل تلبسين حلية لا معه حول عنقك يا جين؟». وكنت أحيط رقبتي بسلسلة ذهبية، فقلت: «أجل». قال: «وهل ثوبك أزرق خفيف؟». وكان ثوبي كذلك فعلًا. وإذ ذاك أنبأني إدوارد بأنه بدأ منذ زمن يشعر بأن الغيوم التي كانت تخيم على عينه الوحيدة أخذت تخفّ وتنقشع. وقد تأكَّد من الأمر في ذلك الصباح. ومن ثم رحلنا إلى لندن، حيث فحصه أخصائي معروف في علاج البصر، فلم يلبث أن استرد إبصار تلك العين. ومع أنه لا يستطيع الآن أن يرى بجلاء تام، ولا أن يطيل القراءة والكتابة، إلّا أنه يستطيع أن يتبيَّن طريقه دون أن يحتاج لمن يأخذ بيده.. وعندما تلقَّى أول أولاده بين ذراعيه ساعة مولده استطاع أن يرى الابن الذي ورث عنه عينيه في حالهما الأول.. العينين الواسعتين، المتألقتين، السوداوين! وفي هذه المناسبة. عرف إدوارد - مرة أخرى - أن الله برحمته قد خفف من عقابه !

وهكذا أحيا مع حبيبي إدوارد في سعادة يضاعف منها أن أحب الناس إلينا سعداء، هم الآخرون. فلقد تزوَّجت ديانا وماري ريفرز.. الأولى من ضابط في البحرية، طيب القلب والسيرة، والثانية من قس كان زميل أخيها في الدراسة.. أما سانت جون فقد ذهب إلى الهند، وما يزال يمضي في الطريق التي أختارها لنفسه، كرائد قوي العزيمة، لا يتطرق الكلل إلى همته وسط الصخور والأخطار.. لقد كان صارمًا. متعنِّتًا، طموحًا. ولكنها كانت صرامة المجاهد في سبيل الله.. وتعنُّت الرسول الذي يتمثَّل بقول المسيح: «من يأتي ورائي فلينكر نفسه وليحمل صليبه ويتبعني». أما طموحه، فطموح الروح الكبيرة السامية، التي تهدف إلى أن تكون في الصفوف الأولى بين من يعتقون من الأرض، ويظفرون بالخلاص، ويقفون أمام عرش الله بلا خطيئة.. ولم يتزوَّج سانت جون حتى الآن. ولقد انتزع خطابه الأخير الدموع من عيني، وإن ملأ قلبي بفرح رباني.. لقد أحسست بأن الخطاب التالي سيكتب بيد غير يده، لينقل إليَّ مصرعه.. مصرع خادم أمين وفيّ لربّه. ولكن، لماذا البكاء؟ إن الخوف من الموت لن يخيم على الساعة الأخيرة في حياة سانت جون، وسيظل عقله صافيًا، وأمله قويًا، ويقينه ثابتًا.. لقد عبّر في خطابه الأخير عن هذا بقوله :

- «لقد أنذرني معلمي ومولاي.. أن صوته يزداد وضوحًا في كل يوم، وهو يقول لي: «يقينًا إنني لآتٍ سريعًا!». وفي كل ساعة أجيب في حرارة: «آمين.. فلتكن إرادتك. فلتأتِ أيها الرب يسوع !».

(1) يطلق الإنجليز على كل ما وراء بحر المانش من بلاد أوروبا لفظ القارة .

(2) جاء في التوراة وصف للوياثان - أو حوت أيوب - بأن «في عنقه تبيت القوة... قلبه صلب كالحجر وقاس كالرحى، عند نهوضه تفزع الأقوياء... سيف الذي لا يلحقه لا يقوم، ولا رمح ولا مزراق ولا درع!» أي أنه أقوى من كل هذه الأسلحة !

(3) نشاء من جمار النخل .

(4) يتناول عليه القوم في بعض المجتمعات وجبتين في المساء، أولاهما في بداية السهرة، والثانية عندما يكتمل المساء قليلا. (جميع الهوامش كتبها المترجم).